النهضة الإسلامية

في سير أعلامها المعاصرين

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

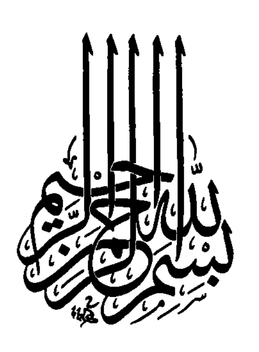
الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣


النهضة الإسلامية
في سير أعلامها المعاصرين


بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد تيمور
البحّـــــاثة الـــدؤوب

لأحمد تيمور مزاياه الكثيرة، ولكنَّ الذي حفزني منها إلى الكتابة عنه، ناحية هامّة لهـا دلالتها البعيـدة عن نفسيته الكبيـرة، ذلك أنـه ترك مخـطوطات كثيـرة من قلمه، كان يستطيع دون جهـد ما أن ينشـرها على النـاس، فلم يشأ الإعـلان ـ وما أيسره ـ عن نفسه بـذلك، وقـد كان يشتـري المخطوط القـديم بعشرات الجنيهـات ليضمّه إلى مكتبته التي تقدَّر بعشرات الآلاف، ولكنه لم يُعْنَ بنفقة ضئيلة ينشـر بها إنتاجه الزاهر، فراراً من الشُّهرة التي يتكالب عليها الكتَّاب، وقد لحظته عنـاية الله؛ فقدّرت لمؤلّفاته بعد وفاته لجنة علميَّة تقوم على نشرهـا العلمي الدقيق، وذلـك ما يطمئننا إلى عدالة القدر، إذ الأعمال بالنيّات.

وقد عاش الرجل في عصر كانت المقالات العلمية به تجد تشجيعاً مادّيـاً من أصحاب الصُّحُف، وحسب الكاتب أن يكتب فينشر، فذلـك كل ربحـه مما يعـاني من البـلاء، ولكن تيمـور كـان يتتبّـع المقـالات الجيّـدة في صمت، ثم يسـأل عن أصحابها المغمورين، فإذا وجدهم من ذوي الحاجة إلى التشجيع قـدّر لهم مكافـأة طيبة، لكلّ مقالٍ يقرؤه، وقد أشار الأستاذ «محمد علي غريب» إلى شيء من ذلك فيمـا كتبه عن نفسـه، مما يـدلُّ على أن العلاَّمـة رحمـه الله كـان ذا رصيـد خلقي ممتاز، فهو يُسقِط غيثه حيث يصادف الأرض الـطيبة في صمت هـادىء، كيلا يُثيـر حوله الضجيج.

إن رجلاً متواضعاً ينحو هذا النحو المثالي في منهجه، لجدير بترداد مآثره، وبخاصة إذا كانت حياته شذوذاً غريباً بين أبناء طبقته، فأكثر مَن نشئوا نشأته لم يكونوا يفكّرون في علم أو أدب أو جهاد، بل عكفوا على لذائذهم الفانية في النوادي المُترَفة والسهرات الصاخبة، إذ غشيت عقولهم طبقات من الجهل المتراكم، كما غشيت نفوسهم طبقات أخرى من التبلّد والجمود، فإذا شذّ من هؤلاء المترفين راهب يسبّح في دير العلم، ويواصل الجهد الحافل في البحث والتنقيب، مضحياً بأعزّ ما يملك من صحة ومال ووقت، كان جديراً بإنصاف الباحثين، ولا أقلّ في ذلك من أن يعلم الناس طرفاً من جهاده الشريف، إذ نقول:

لقد وفد محمد علي إلى مصر على رأس قوة عسكرية تضمّ من الجنود رجالاً أخلصوا لقائدهم فساعدوه على تحقيق ما يرمي إليه من أغراض.

وكان «محمد تيمور كاشف» أحد هؤلاء الذين عقدت أواصر المحبة بينهم وبين والي مصر، فتقلّب في مناصب عدّة، وأظهر من الكفاية والإخلاص ما حبّبه إلى النفوس.

وجاء ولده «إسماعيل» من بعده، فوصل إلى ما لم ينله والده، حيث كان رئيساً للديوان الخديوي العالي، فناظراً لخاصّة وليّ العهد «محمد توفيق».

كان «إسماعيل» ذا علم وفضل، فقد حرص على تثقيف عقله، وإنارة ذِهنه، فأكثر من المطالعة، واقتنى الكتب والصُّحُف النافعة، وكان يقول لأصدقائه:

«إني لأستحي أن أرى الكتاب فلا أتصفّحه».

وفي بيته العريق نشأت كريمته الزعيمة الأولى للنهضة النسوية في مصر؛ ثم وُلِدَ له قبل وفاته بسنتين، في (٥ نوفمبر سنة ١٨٧١ م) ولده العلاّمة الثَّبْت المغفور له الحاجّ «أحمد تيمور».

نشأ الطفل في بيئة مثقفة، فقد كانت أُخته الشاعرة تلقّنه الحروف الهجائية والأرقام الحسابية، وحين ناهز الثامنة أخذ يحفظ القرآن على يد مدرّس خاصّ، حتى أتمّه في مدة وجيزة، ثم التحق بمدرسة كليبر الفرنسية، وهي يومئذٍ مدرسة

الخاصّة من أبناء الأعيان، فأتقن بها اللغة الفرنسية؛ وكانت آخر عهده بـالمدارس، فخرج منها إلى بيته في سِنّه الباكرة ونعيمه المديد.

لم يركن الناشىء إلى اللهو في ظلال الغنى الوارف، والثّراء الطائل، كـأبناء الأعيـان في عهده، بـل شغف بالـدراسة والبحث في صِبـاه الزاهـر، فاختـار لنفسه أساتذة من كبار العلماء بالأزهر، يدرسون له ما ينفعـه من العلوم التي تتصل بـاللغة اتصالاً وثيقاً، فكان من مشايخـه «محمد عبـده، وحسن الطويـل، ومحمد محمـود الشنقيطي»؛ كما أتقن الفارسية والتركية على المرحوم «حسن عبد الوهّاب».

ولقـد كان منـزل الأستاذ الإمـام «محمد عبـده» في عين شمس نـدوة علميـة زاخرة، يؤمّها كبـار المثقفين في مصر، فيـطيب السَّمَر في مجلس وقـور تتعدَّد فيـه المشـارب، وتختلف الألـوان: فمن أدب ولغـة، إلى سيـاسـة واجتمـاع، إلى فقـه وقانون، وكان علاَّمتنا ـ رحمه الله ـ يحرص على مجلس أُستاذه، فتعدّدت معارفـه، وتفتّحت أمامه أبـواب مغلقة، دفعتـه إلى البحث، وشجّعته على الاطّـلاع، لذلـك أنشأ في منزله بدرب سعادة ندوة كندوة أُستاذه، وجعلها مورداً رائقـاً لأعلام الفكـر، وأُمراء المعرفة، فكنت تجد فيها السياسيين والأدباء والفقهاء والقانونيين.

ولقد كانت اللجنـة التي ألّفها الأستـاذ الإمام لإحيـاء الكتب العربيـة، صيحة قويّة في آذان الغـافلين عن التراث العلمي الضـائع، فـاتجهت الأنظار إلى العنـاية بالمخطوطات القديمة، وكان لأحمد مجهود كبير في هذا المِضمار، فقد بـذل ثروة طـائلة في إنشاء مكتبتـه العـامـرة، ولا يقـدِّر جهـده إلاّ مَن يعلم أن المخـطوطـات العربية كانت في هذا الزمن تُحَفاً غـاليةً تـزدان بها حجـرات الأغنياء والمُـوسرين، حيث يتفنّن كـل ثري في جمـع الصحـائف وتجليـدهـا ورصفهـا، لتكـون أداة من أدوات الزينة مهما كلّفته من مـال، وإن كانت لا تفيـده أقلّ فـائدة، لانقـطاع صلته بالبحث، وعزوفه عن القراءة؛ فهو ـ إذ يجمعها في بيته ـ يهتمّ بالحليـة والزينـة، لا بالقراءة والاستفادة، فإذا طلبها باحث من أهل العلم تعذّرت عليه.

فبـذل تيمور لهؤلاء ثمنـاً غاليـاً حتى أغـراهم بـالتنـازل عن مجلداتهم إليـه؛ أضف إلى ذلـك جهـده الـدائب في جمـع مـا تبعثـر في المتـاحف الأوروبيـة من

مخطوطات، فقد كان يستنسخ (بالصور الفوتوغرافية) من مكتبات أثينا وروما والآستانة وباريس والفاتيكان ما يعلمه من ذخائرها العربية.

وصادف أن ذهب إلى أداء فريضة الحج سنة ١٣١٢ هـ فشاهد بالمدينة المنوّرة مكتبة شيخ الإسلام إذ ذاك «عارف حكمت» فهامَ بما تحتويه من نوادر المؤلّفات، وغرائب المخطوطات، فنسخ صورة من فهرسها الجامع، وأخذ يبحث عمّا تضمنه من مجلدات.

وكثيراً ما كان يكلّف دُور الكتب في القاهرة ودمشق والقدس بإرسال صور فوتوغرافية لِما ليس لديه من مخطوطاتها الثمينة، حتى تكوّنت له خزانته العامِرة، فكانت تضمّ أكثر من عشرين ألف مجلّد، ما بين مطبوع ومخطوط، وذلك فوق ما لديه من المصادر الإنجليزية والفرنسية، وخاصةً ما يتّصل منها بالآداب العربية، والمعارف الشرقية، ثم بنى لمكتبته داراً خاصّة بالزمالك، وأعدَّ بها حُجرة لنومه، وأُخرى لغذائه، ليتسنّى له أن يقضي بها أكثر أوقاته، كما وضع لها فهرساً عامّاً وقع في عدَّة مجلدات، والغريب أنه بعد أن أقرّ عينه بهذه الذخيرة الغالية، وقفها على طلّاب المعرفة في الشرق، إذ أهداها إلى دار الكتب المصرية بالقاهرة.

ولقد قرأ ما عثر عليه من مخطوطات، وكثيراً ما علّق على هوامش الصحائف بما يعنّ له من تصحيح وتوضيح، وإنك لتقرأ كثيراً من المطبوعات الأخيرة فتجدها تنصُّ على ما رآه تيمور من توضيح، وتصحيح، وقد يكون له رأي يناقض ما في الكتاب، فيُفرِد الصحائف المتعدّدة لإيضاح بحثه. ولسنا نجد له شبيهاً في هذه الناحية سوى أُستاذه «الشنقيطي»، فقد تركا من التعليقات الهامّة الشيء الكثير.

على أنه كان يضع فهارس خاصّة بالمخطوطات الهامّة، متّبعاً أحدث طراز ينهجه المستشرقون في الإرشاد والتوجيه ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ كتاب «خزانة الأدب» للبغدادي، فقد كتب له ثلاثة عشر فهرساً في مائة وخمسين صفحة: ففهرس للأماكن، وثانٍ للأعلام، وثالث للقبائل، ورابع للقوافي، وخامس للموضوعات، وسادس وسابع وثامن. . . ؛ حتى يُريح القارىء راحة تامّة فيظفر بطلبته في أقرب وقت بدون عناءٍ.

ولقد كان «أحمد تيمور» يجود بمخطوطاته على كل سائل من باحث أو ناشر، وأحياناً يتكلّف إرسالها لمَن يطلبها في شتّى بِقاع العربية، متحمّلاً نفقات البريد المسجَّل، على رغم ما كان يُسيئه كثيراً من أخلاق المُستعيرين، فقد كان منهم مَن يهمل واجب المحافظة على الصحائف فيردّها ممزّقة مشوَّهة؛ بل لقد بلغ من أحدهم أن أخذ منه النسخة الخطية لكتاب «الضوء اللامع» (قبل طبعه) ثم أبى أن يردَّها إليه إباءً تامّاً، فإذا ما احتاج إليها صاحبها ذهب إلى المستعير فراجعها عنده، كأن لم يكن ربّها الأحقّ بها. ولم يسمح له حياؤه أن يقف مع هؤلاء موقفاً يصيبهم منه الملام!.

ولقد كانت وفاة الأستاذ الإمام كارثة كبرى على الشرق والإسلام، جزع لها تيمور أشدّ الجزع، فأوصد ندوته، وحمل مكتبته إلى ضيعته في (قويسنا)، وظلّ معتكفاً بها وقتاً مديداً حتى زاره العلاَّمة الأستاذ «محمد كرد علي» فعرض عليه أن ينتقل ثانيةً إلى القاهرة، لأن مكتبته الثمينة مُعَرّضة للضياع في هذه الناحية المهملة، وقد يشتعل الحريق في ضيعته ـ كما يحدث كثيراً في قرى الريف ـ فتذهب مكتبته سُدىً، بعد أن تجشّم في جمعها ما تجشم، فراقه هذا الرأي، وقَدِمَ إلى القاهرة، لا ليفتح ندوته، بل ليعكف على أبحاثه في جوٍّ هادىء وكانت أعوام خصيبة، كتب فيها تيمور مؤلّفاته، فرفع الرّاية العلمية ونزل إلى الميدن.

والطريقة التي كان يعالج بها المؤلّف أبحاثه لا تتصل إلى الطرق المألوفة لدى كتّابنا اليوم بسبب، فمعظمهم ينشد الصّيت العاجل، فيعمد إلى الإكثار بدون رَوِيّة وتمحيص، ولكن أحمد كان يكتب ما يعالجه في رويَّة تامّة وطمأنينة كاملة، وأحياناً يبدأ في الكتاب ثم ينتقل إلى غيره حتى تتوافر لديه الوسائل لاستيفاء ما بدأ به؛ لذلك نجد كثيراً من مؤلّفاته المطبوعة بعد وفاته لم تستكمل ما تتطلّبه من الأبواب والفصول.

وما دام الكاتب نازعاً إلى استجلاء الغامض، وإكمال الناقص، فهو لا يعالج غير المواضيع الهامّة، حيث يبحث عن الفراغ في المكتبة العربية فيعمل على ملئه، ونظرة إلى مؤلّفاته الكثيرة، تؤكّد لك ما نقوله أبلغ تأكيد، فهو يكتب مثلاً في

الحلقة المفقودة في تاريخ مصر بين الجبرتي وابن إياس، ليكون تاريخ الكنانة كاملاً غير منقوص، كما يتكلم عن طبقات المهندسين العرب، ثم يثني بالكلام عن طبقات الأطباء، لأنه يرى الماضين من المترجمين قد أرّخوا للنّحاة والفقهاء والملوك والأولياء والأدباء وتركوا الأطباء والمهندسين، وهنا ندرك الفارق الكبير بين الكاتب الذي يتعجّل الشُّهرة، فيلجأُ إلى الموضوعات المطروقة، والباحث الذي يخدم الحقيقة، فيفني حياته في البحث والتنقيب.

ولقد كان الرجل متيقظاً إلى ما تُخرِجه المطبعة من كتب وأبحاث، فهو يقرأ ما يرى فيه النفع والإفادة، فإذا شاهد خطأً بادر إلى تصحيحه في أُمّهات الصُّحف السيّارة: كالمؤيّد والهلال والفتح والهداية والزهراء والمقتبس والمقتطف.

وحسبك أن تعلم أن بين آثاره:

١ ـ تصحيح القاموس.
٢ ـ تصحيح لسان العرب.
٣ ـ نقد القسم التاريخي من دائرة المعارف الوجدية.

وكلّها ناطقة بعمقه في النقد، وأدبه في الردّ.

على أن مجرى الحوادث في زمنه قد كان يفتح أمامه باب التأليف خدمة للحقيقة، ودحضاً للباطل، فقد ألّف كتاب «معجم اللغة العربية» ليردّ به على الدعوة التي قام بها المُغرضون لنصرة العاميّة على العربية، كما سطّر كتاب «البرقيات» ليشهد بفضل اللغة واتّساع صدرها.

ومن آثاره القيِّمة غير ما قدَّمناه:

١ ـ ضبط الأعلام.
٢ ـ لعب العرب.
٣ ـ الآثار النبوية.
٤ ـ التصوير عند العرب.
٥ ـ تراجم الأعيان.

٦ ـ موضع قبر الإمام السيوطي.

٧ ـ المذاهب الأربعة.

٨ ـ نوادر المسائل.

٩ ـ مذهب الزيديَّة ونِحَلهم.

١٠ ـ أبو العلاء المعرّي.

وغير ذلك، حيث لم تُطبَع أكثر مؤلّفاته في حياته، عزوفاً عن الشُّهرة، وتجنّباً للغرور.

وكتاب «النوادر» مخطوط ثمين، جمع فيه المؤلّف ما وقعت عليه عينه من طريف الأخبار، وشتّى المِلَح، فهو يشبه «نقل الأديب» للمرحوم الأُستاذ «إسعاف النشاشيبي» وكان تيمور يودّ أن يقدّمه إلى المطبعة العربية، فحالَت منيَّته دون أُمنيته، والعجيب أنه أسهب في وصفه لعوّاده ليلة أن لبّى نداء ربّه في (٢٦ إبريل سنة ١٩٣٠ م) ونحن إذ نكتب هذه السطور نودّ من اللجنة المؤلّفة لإحياء تراثه أن تعمل على إظهاره، فتسعد روحه في السماء، وينعم قرّاؤه في الأرض.

أمّا كتابه عن «أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر» فقد تعمّد أن يمزّق أكثره بعد أن أنجز منه صحائف عدّة (جمعت في كتاب مطبوع) لأنه وجد الكثيرين من معارفه يرغبون أن يكتب عن فلان وفلان بما لا يتفق مع الحقائق التاريخية.

ولا يظهر تيمور الكاتب في مؤلّف كما يظهر في كتابته عن الأعيان، لأنه يتحدّث عمّن يترجم لهم بأسلوب سَلِس متسلسل، يتدرّج بك إلى نهاية المقال، وكأنك تقرأ قصّة محبوكة الأطراف، حتى ذهب الدكتور «زكي مبارك» بصدد ذلك إلى أن روح القصاص تكمن لدى الرجل، وحين غلبتها روح البحث فرّت منه إلى ولديه «محمد ومحمود» الشهيرين.

وقد راقني جدّاً بين هذه التراجم المختارة ما كتبه تيمور عن ـ «أبي الفرج الدمنهوري»، فقد عرض حياته المتقلّبة، ومواقفه المُضحِكة، وادّعاءاته العريضة،

عرضاً مَرِحاً شائقاً، فجعل منه خامة جيدة لبطل من أبطال الفكاهة، وأخذ ينتقل بقارئه من طُرفة إلى طُرفة، حتى أشبع وأمتع.

ولو قُدِّر لتيمور أن يواصل الكتابة عن أعلام عصره، لأسدى للتاريخ المعاصر يداً بيضاءَ، وكأني بتنوّع اتجاهاته واتّساع آفاق البحث لديه، وقد حملاه إلى أن يوزّع جهوده في كل مِضمار، فلم يخرج عاشق التراجم المعاصرة من كتابه بغير قبسة العجلان!.

على أن الرجل كان يتعصَّب للعرب تعصُّباً زائداً، إذ كتب البحوث الضافية عن حضارتهم الراقية، وأفرد مؤلّفات خاصّة تنطق بتقدُّمهم في شتّى الفنون الحيّة، ولديك كتاباه الجليلان: «لعب العرب» و«التصوير عند العرب» ففيهما ما يُبهِج الناظر، ويسرّ الباحث.

ولقد وصل إليه ما اعتزمه وُلاة الأمر من تغيير الألقاب التركية المتداولة اليوم، فكتب رسالته القيِّمة: «الرّتب والألقاب العربية» راجياً أن يعود إليها ذوو الأمر، وقد عادوا بعد حين.

ومما يعلمه الجميع أنه كان يؤرّخ رسائله وعقوده بالتاريخ الهجري، وفيها ما يصل إلى الشركات الأجنبية، ومَن لا يتّصلون إلى العربية بسبب؛ كما كان يحرص على استعمال الألفاظ العربية في كتابته ومحادثته، فيسمّي (التليفون) هاتفاً، و(الجنيه) ديناراً، و(السكرتير) كاتم السرّ؛ ولمّا ضاق صدره بالكلمات الأوروبيَّة التي تستخدمها الصحافة في المخترعات الحديثة، وضع لها ألفاظاً عربية من عنده، ثم نشرها على الناس.

وقد بلغ من تعصّبه للعربية أن كتب إليه الأستاذ «كاظم الدجيلي» يسأله عن مخطوط للكلبي في «مثالب العرب» يريد أن ينشره على الناس، فكتب إليه تيمور يقول:

«إنه مفقود، وليت كل كتاب مثله قد فُقِدَ حتى يستريح الناس منه».

هذا وقد اعتزم «نور الدين مصطفى بك» أن يؤلّف جمعية تورانية تضمّ غير المصريين: من أرنؤود وجركس وترك وكرد، وكلَّم تيمور في الانضمام إليها نظراً لأصله الكردي فرفض رفضاً تامّاً، وقال له في لهجة حازمة: «أنا مسلم من جامعة المسلمين» ومواقفه الشهيرة في هذا الباب أكثر من أن تُحصَر.

أما مناصبه الرسمية في الدولة فلم تتعدّ العضوية في مجلس الشيوخ، وقد قبلها مُرغَماً، وكان بودّه أن يتفرّغ في عُزلته للبحث والانتفاع، ولكن لم يَسَعه غير الخضوع لإرادة الملك «فؤاد» إذ اختاره بنفسه، كما أنعم عليه بالباشوية تقديراً لجهوده الجليلة.

ولئن ضاق علاَّمتنا بمجلس الشيوخ لقد رحّب أكمل ترحيب بما أُسنِدَ إليه من المَهام العلمية، فقد عُيِّن عضواً في لجنة إصلاح الأزهر سنة ١٩٢٤ م؛ فقام بواجبه مُهتدياً بأفكار أُستاذه الإمام، كما اختير عضواً في مجلس إدارة دار الكتب، فكان صاحب الرأي الأول فيما يعرض من شؤون؛ ولا نبالغ إذا قلنا: إن الترتيب الذي تقوم عليه الدار الآن قد كان ثمرة آرائه، ونتيجة تدبيره. ومَن أحقّ منه في هذا الباب، وقد كانت حياته دعامة قوية في بناء المكتبة العربية، ولولا جهوده المشكورة ما ارتقت إلى ما هي عليه من رِفعة وسموق.

بقي أن نتحدّث عن بعض جهوده اللُّغوية الرسمية، فقد تكوَّن بمصر مجمعان متواليان كان أحمد من رجالهما العاملين، إذ دعا بملءِ فِيْه إلى تجنّب الدخيل، ونادى بالرجوع إلى المجامع العربية واستفتائها فيما يجدُّ من أسماء، وإذا كنّا نشاهد كثيراً من المتحمّسين لهذا الرأي، فإن تيمور صاحبه الأول، على حين لا نرى مانعاً من تعريب بعض الأسماء الأجنبية إذا كانت مُستساغة لدى الذّوق العربي؛ ولِمَ لا يبقى اللفظ الجديد مع اشتهاره وذيوعه، وذلك باب كَثُرَ فيه الجدل حتى اهتدى مجمعنا اللغوي بإزائه إلى رأي صريح.

ولقد كانت لدى الرجل ذخيرة ثمينة من الآثار الإسلامية، بذل في جمعها كثيراً من ماله ووقته، فأنت ترى عنده بعض النقود العربية القديمة، والساعات الأثرية، والآلات الفلكية، والأواني الصينية، والعيون الزجاجية، وما إلى ذلك مما

يُعَدُّ تُحَفاً تـاريخية قيِّمـة، ناهيـك بالصـور الجميلة التي احتفظ بها «لصـلاح الدين الأيوبي» و«سليم الأول»، و«عبد القادر الجزائري» وهم من أبطال التاريخ.

ولقد ظلَّ شغفه بالآثار القديمة مستولياً على نفسه طيلة حياته، ومما يُذكَـر له أنه أخذ الصور الشمسية للخليج المصري قبل ردمه، ليكـون رسمه معـروفاً للنـاس بعد أن صار طريقاً مبسوطاً تدرج عليه القاطرات.

على أن شغفه بهذه الناحية قد دفعه إلى معالجة أبحـاث غامضـة، ما كـانت تـطرق على بال غيـره؛ واقرأ بحثـه في الآثار النبـويـة ـ «كـالقضيب»، و«البـردة»، و«الخـاتم»، فستسـأل معي: كيف اهتـــدى الكـاتب إلى مصـــادره والمسلك وعـر والهدف بعيد؟

أمَّا أخلاقه الكريمـة فكانت مضـرب المثل في السمـوّ والرقّـة، وكان الجـود المُفرِط أظهر دلائلها بين الناس، وقد دفعه التواضع إلى أن يبعث بالرواتب الشهرية سـرّاً إلى بعض مَن أحنى عليهم الدهـر؛ وحين اشتهر أمـره في ذلك، تـألّم غـايـة الألم، ثم هـداه تفكيره الـطيب إلى المصارف المـاليـة، فكـان يكتب لهـا عنـاوين المعوزين لتتولّى إيصال الحوالات إليهم، دون إشارة إلى اسمه.

ولقـد حتَّم عليه نكـران الذات أن يبتعـد عن دوافع الشُّهـرة الأدبيـة، فـظلّت مؤلّفاته، كما أشرنا إلى ذلك ـ منسوخة في بيته، ولم يدفع إلى المطابع غير القليـل من إنتاجه، مع تهافت الناشرين، وبُعْد الصيت.

ولقد عمل عشّاق أدبه على إخراج آثاره، فظهر الكثير منها محقّقـاً مضبوطـاً، ونرجو أن يوفّق الله لجنة مؤلّفاته إلى إنجاز ما سالَ به يَـراعه الفـاحص دون توقّف، ونضيف هنا بصدد الإلمـاع إلى أصالـة نكران الـذات في خلقه المثـالي، أنه كـان يساعد المؤلّفين بإرشاداته، ثم يأْبى عليهم أن يُشيروا إليه من قـريب أو بعيد، فـإذا وقع أحدهم في ذلك صادف منه أعنف لوم وأقساه، مما تداول خبره لدى الجميع.

ولقد كان أسلوبه علمياً دقيقـاً، يهدف إلى المعنى المـراد من أقرب طـريق، فلا نشاهد في تركيبه عبارة قلقة أو كلمة غريبة مـع اتّساع أُفقـه في اللغة، أو حليـة

بديعية مما شاع في آثار غيره، بل نجد نمطاً بديعاً من القول، تسري فيه الرقّة والانسجام.

وقد رأينا من ناقدي تيمور الآن مَن يأخذ عليه أنه كان ناقلاً في كل مؤلّفاته، إذ إن شخصيته الذاتية في التحليل والتعليل كانت بمنأى عمّا يكتب، وصاحب هذا النقد ينسى المرحلة الزمّنية التي كتب فيها الرجل مؤلّفاته، واختار موضوعاته، ولو علم أن تيمور قد وفّقه الله إلى قراءة مخطوطات لم يقرأْها أحد في عصره، وشاهد من معارفها ما يجب أن يظهر للقارىء على نحوٍ سريع ليدرك من حقائق الثقافة الإسلامية وأسرار اللغة العربية ما تحويه تلك المخطوطات المطمورة، فنهض ليكتب في موضوعات لم تُطرَق في عصره، ككتابه عن التصوير عند العرب، وكتابه عن أعلام المهندسين في الإسلام، وكتابه عن الرّتب والألقاب والنياشين، وما ينحو هذا المنحى مما كان يعتبر جديداً كلّ الجِدّة على القارىء العربي!.

فماذا كان ينتظر الناقد من علاّمة موسوعيّ يقرأُ في شتّى علوم الثقافة الإسلامية؟

أكان ينتظر منه إذا تحدّث عن موضوع كموضوع التصوير عند العرب أن يأتي بما يقوله عالِم قضى عمره متخصّصاً في هذا الموضوع وحده؟!.

أم كان ينتظر منه أن يجمع شذرات مختلفة من مئات الكتب ليقدّم مادة وفيرة لمَن يتخصّص. وهو بذلك يمهّد له طريقاً مُلِيءَ بالأشواك والصخور ليجتازه من بعده غير دامي القدمين!.

إذا كان الرجل الكبير في كل مؤلّفاته قد أعدّ أدوات البناء من لَبِنات وحديد وخشب ورمل لمَن سيتخصّص في العمارة والتشييد، ألا يكون بذلك قد هيّأ الأرض، ورسم الحدّ، وتكفّل بأعباءِ البناءِ؟ فله خطواته الرائدة، وجهده السبّاق.

على أن البحّاثة لم يكن مجرّد ناقل كما يحاول أن يُظهِره مَن تحدّث عنه مُجافياً منطق الحياة، وأكثر كتبه بين أيدينا تُظهرنا على صدق نظره، وبارع استنتاجه، كما ترسم شخصيته بوضوح لا ينكره غير مَن يكلّف الأشياءَ غير طِباعها، فيتطلّب جذوة النار من البحر ذي الأمواج.

ولنأخذ مثلاً كتابه عن أبي العلاء المعرّي، ليكون برهاناً على ما نعنيه من صدق النظرة، وبارع الاستنتاج، فاق ما يسلّم به الناقد من غزارة المادّة ووفرة الاستشهاد.

لقد تعرّض إلى موضوع شائك هو عقيدة أبي العلاء فهل اكتفى بسَرْد النقول؟ أو أنه درس كل ما قاله السابقون في هذا المجال، لينتهي إلى أن السابقين كانوا ذوي اختلاف بشأن الشاعر الفيلسوف، فمنهم مَن يكفّره، ويراه مثلاً للمروق الديني، ويصطاد من عباراته ما يجبرها جبراً على أن تنطق بإلحاده الفاجر، وكأنه يشفي لوعة في صدره حين يخرج أبا العلاء من نطاق المؤمنين، ومنهم مَن يتعصّب له عن حَمِيّة واعتقاد، فيأخذ من آثاره ما ينطق بصحيح الاعتقاد ويُنبىءُ عن صادق الإيمان، ويحاول أن ينكر كل قول يشتمّ منه رائحة المروق، ومنهم مَن تحيّر في أمره إذ وجد في أقواله تضارباً يعصف بمجموعها، فهو إذا اتجه إلى اليمين مرّةً سارع فاتجه إلى الشمال مرّةً أخرى.

وقد أبلى تيمور بلاءً رائعاً في عرض هذه الوجهات المختلفة وفي التعقيب عليها. وعلى كل وجهة بما يراه، راجعاً إلى سياق النص ومُلابسات العصر، حتى انتهى إلى تبرئة الشاعر بعد جُهد علمي لا أدري كيف يكون بعده الباحث الضليع مجرد ناقل يسوّد الصفحات.

ثم عقّب تيمور دفاعه عن شيخ المعرّة بقوله الصادق(١):

«إني لم أنتصر له في بعض المواقف جُنوحاً إلى عصبية، أو استرسالاً مع هوى، ولكني وقفت في الكثير من أقواله على اعتقاد صحيح، وإيمان ثابت، لا يخالطه شك، فكان تأويل ما عداها بما يحتمله اللفظ، أولى من التسرّع إلى تكفير مؤمن، والحكم عليه بالزندقة، وخصوصاً وأن ما يدلّ على إيمانه صريح في لفظه، والذي يُوهِم محتمل لوجهين، فحمله على ما يوافق الصريح من أحد وجهيه أحقّ وأصوب، فإذا رأيت شيئاً من ذلك فلا تتسرّع في الإنكار عليّ، بل عليك أن تُحسِن الظن بمراجعة النظر، لتجد ما قلته غير بعيد».

(١) أبو العلاء المعرّي، ص ١٦٤.

فإذا تركنا كتابه عن أبي العلاء إلى كتابه الرائع (أعلام المهندسين في الإسلام) فإننا نجد ظواهر رائعة من السّبق الظافر في ميدان غير مطروق، ولم يدّع المؤلّف الكبير أنه أتى بكل شيءٍ بل قال[1]:

«وقصدنا أن يكون نواة لغيرنا من الباحثين، ومُثيراً لهِمَمهم في التنقيب عن سواهم، حتى يصحّ بعد ذلك أن تجمع هذه الأبحاث طبقات لمهندسينا تقوم مقام المفقود من طبقاتهم، وهو في نظري أقلّ ما تُكافأ به فئة رفعت رؤوسنا بما رفعته من قواعد العمران».

ولم ينسَ المؤلّف أن يُفصِح عن غرضه الصريح من تأليف الكتاب حين قال في صراحة لا تعرف المُواربة:

«ولا بدّ لنا قبل الشّروع فيما قصدناه من الإشارة إلى ما يزعمه بعض قاصِري الاطّلاع، أو مَن أعمت الشعوبية بصائرهم من قُصُور العرب في غير الشرعيات واللسانيات من العلوم، واستدلالهم على قصورهم في الهندسة باستعانة الوليد بن عبد الملك في أبنيته بصُنّاع من الروم، وذلك لبيان أنه زعم لا نصيب له من الصحّة والاستدلال».

فالرجل مُحامٍ أَعدّ حيثيات الدفاع بمهارة، ومثله في حججه القاطعة لا يكون مجرّد ناقل، بل هو باحث متمرّس دقيق، غير أنه هادىء الطبع، فلا يرسل ضجيجاً مُفتَعَلاً ليعلن عن مكانه كعهدنا ببعض مَن يقعون على حقيقة جديدة من الحقائق فيحشدون لها شتّى الأبواق، ليصلوا بأصواتهم إلى أمَدٍ بعيدٍ، ولتنتفخ أوداجهم صَلَفاً وتِيهاً!.

لم يكن تيمور من هؤلاءِ. وإن من الحقائق التي وُفِّق إلى العثور عليها ما يجعله في مقدمة الأُصلاء الباحثين، وله العذر إن ضجّ وصخب ليلفت الأذهان، ولكنه تحلّى بأخلاق الأُصلاءِ من العلماءِ، فآثر التواضع النّزيه، ونأى عن الصّخب الكريه، وبذلك خَفِيَ مكانه عمّن لا يملك أدوات البحث، فجاءَ ليعتبره مجرّد ناقل!.

(١) أعلام المهندسين، ص ١٠.

وقد أوضح المؤلّف سبب الاستعانة بغير العرب من رجال المِعمار، مبيّناً أن هذه سُنّة الحياة، وما زلنا اليوم نجد في الأُمم المتحضّرة أُناساً من غير أبنائها، يشاركونها خطوات التقدّم الحضاري، ثم أخذ يستدلّ بما قام به المهندسون في الإسلام من شواهق العمائر وبناءِ الجسور والمعابر، وإعداد الآلات الحربية، والمبتكرات الصناعية، مما هو مُشاهَد ملموس، ونَعَى على السابقين من المؤرّخين اهتمامهم الكبير بالعلماءِ من رجال الفقه والأدب والتاريخ، دون امتداد النظر إلى غيرهم من علماءِ الهندسة والطب والكيمياءِ والحيوان، ولو وجد هؤلاء مَن يُكثِر الحديث عنهم كما وجد أُولئك لما رأينا اليوم مَن ينكر جهود المسلمين في الهندسة، ويراهم عالَة على الجيران، ناسياً ما تمتلىءُ به دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة من ظواهر التقدّم الحضاري، التي امتدّت مع الزمن فأغنت عن كل دليل.

لِمَ أفاض المؤلّف في تراجم أعلام المهندسين على مدّ العصور وأتبعهم بحديث مَن شجّع صناعات النقش والدهان والرسم والزخرفة من حكّام المسلمين، ورأى من فائدة البحث أن يُسهِب في بيان المصطلحات الهندسية، فذكر مائة وثمانين مصطلحاً هندسياً تداولتها ألسنة العلماءِ على مدى ثلاثة عشر قرناً، كما أعدّ قائمة وافية بأسماءِ المعادن والأحجار الكريمة وماهياتها ثم انتقل إلى مصطلحات العمّال من ذوي الحِرَف والصناعات، فذكر منها الكثير حتى استوى بحثه الهندسي على مثال حميد!.

وبعـــد:

فلقد كان تيمور نادِرَة في كلّ شيء، نادِرَة في طبقته لأنه كاد أن يكون الوحيد المتفرّغ للبحث العلمي من أرباب الثروة والجاه، ونادِرَة في اتجاهه، لأنه الباحث الذي طرق أبواباً مغلقة، فأكمل الناقص، وفتح الطريق، ونادِرَة في تواضعه، لأنه العالِم الذي ظلّت كتبه فوق مكتبته مخطوطة دون نشر، حتى طبع أكثرها مَن عرفوا قيمتها العلمية بعد وفاته، فلا غرابة إذا خصّصناه بفصل تاريخي بين أعلام النهضة الإسلامية في العصر الحديث.

عبد القادر المغربي
العالِـــم اللغــوي الأديــب

كنّا ونحن طلّاب بالأزهر ننتظر انعقاد مؤتمر المجمع «اللغوي» بشوق زائـد، لنحظى برؤية أفذاذ العلمـاءِ من الشرق والغـرب، ولننظر إليهم وجهـاً لوجـه، حين يلقون أبحاثهم الأدبية، ويُشافِهون الجمهور في حفلات الافتتاح بما يريـدون، وفي طليعة هؤلاءِ الأماثل شيخنا العالِم الفذّ: الأستاذ «عبد القادر المغربي».

كان الشيخ بسمته الوقـور، ومنظره الـرائع يجـذبنا إليـه أكثر من غيـره، فكنّا نـلاحقه في ردهـات المجمع لنـأنس بحديثـه، ونستفسر عن مكـان إقامتـه، وأنواع زيارته، كي نتابعه فيما تتهيّأ لنا متابعته عن ارتياح منه.

وأذكر: أن دار الكتب المصرية كانت تحظى بأكثر وقته، فإن لم نجده هناك، ففي دار الرسالـة لدى أستـاذنا «الـزيّات» أو في جمعيـة «الهدايـة الإسلاميـة» لدى الأستاذ الأكبر: «محمد الخضر حسين» رحمه الله.

فلن أنسى مجلساً لشيخنا المغربي مع أُستاذنا الخضـر، حيث كانـا يتناقشـان في معنى قـول رســول الله ﷺ: «إن من أُمّتي مُحَـدَّثيـن، وإن مـنهـم عمـر بـن الخطاب»، فأفاض الأُستاذ المغـربي في معنى كلمة المُحَـدَّث، بعد أن بيّن فعلهـا واشتقاقها، ثم تعرّض إلى الإلهام ومدلوله اللغوي منتقلاً إلى معناه الشـرعي، وكان شيخنا الخضر يعقب عليه في هدوءٍ وابتسامٍ كعادته، فتذكّرت قول الجارم:

أَلا إنهــا الفصحى بخيــر وإنهــا ... بـأمثـال هـذين الإمـامين تــرتقي

وقد علمت من الشيخ المغربي أنه سيُلقي بعد غَدٍ كلمة في احتفال المجمع، تتضمن بعض ذكرياته التاريخية، فاشتقت إلى سماعها وأخبرت الصفوة من زملائي بما علمت، فسارعوا إلى استماعها، ولعلّ من المفيد هنا أن أذكر أن المغربي ـ رحمه الله ـ شرح بها كيف استطاع الشيخ «عبد العزيز جاويش» أن يقنع «أحمد جمال باشا» حاكم الشام أثناءَ الحرب العالمية الأولى أن يُنشِيءَ كليّة تعليمية بالقدس، مكان مدرسة الآباءِ البيض التي أنشأَتها إدارة الرهبنة الفرنسية، وقد اختير المغربي أُستاذاً بها، فتعاون مع جاويش في وضع البرامج واختيار الكتب، واصطفاء المُدرّسين وانتخاب الطلاب.

ومن الطريف أن هذه الكلية كانت مسرحاً للتعليقات السياسية والتكهّنات الحزبية، لأن اشتغال جاويش بالسياسة إلى جانب تركيا جعل الكليّة التي يديرها مؤتمراً سياسياً، يوجّه وينتقد.

وقد قال المغربي: إنه كثيراً ما كان ينحرف بالجدال من السياسة إلى اللغة والأدب، فيجد لدى الطلاب استعداداً للنقاش اللغوي لم يكن يتوقعه، فقد جاء ذكر القنال مرة، فاعترض أحد الطلاب وقال: إنه لفظ فرنسي، وإن لفظ التّرعة أولى منه وآصل، فأتى المغربي برأي جديد حين قال: إنه لفظ عربي منحوت من كلمتي قنا الماءُ أو قنا البحر، وربّما كان الفرنسيون هم الذين جروا به في فرنسيته مجرى أميرال، فإن لفظ أمير أُضيف إليه اللام من كلمة البحر عن طريق النحت اللغوي حين تختصر الكلمتان في لفظ واحد. . .

هذا رأي المغربي كما حدّثنا به، ونحن نسجّله لطرافته لا لصحّته فهو محل بحث بين الكاتبين، وقد أثار عجاجة حوله حين توسّع في تطبيقه، فأعلن: أن كثيراً من الكلمات الرباعية والخماسية يمكن إرجاعه إلى كلمتين عن طريق الاشتقاق النحتي، فكلمة ـ دحرج ـ على رأيه ـ منحوتة من دحره فجرى، وكلمة هرول من هرب وولّى، وخرش من خرم وشوّه، إلى كثيرٍ من الكلمات التي ينحو بها المغربي منحاً صرفيّاً جديداً، وهي بعد في حاجة إلى تأْصيل!.

على أن مما كان يمتّعنا به المغربي في مجلسه حلاوة لهجته، وأناقة كلماته، إذ إنّ العامِّيَّة السورية كانت تتخلّل حديثه، فيغيب عنّا بعض ما يعنيه، ويلحظ ذلك فيبتسم، ويقول: لماذا نجاهد في سبيل اللغة العربية، لأنها الرابطة الأُولى للأمة العربية، وإذا أفلح قساوسة المستشرقين في دعواتهم المُغرِضة إلى اللغات المحلية في كل إقليم، فلن تجد رابطة ما بين المراكشي والسوداني، والشامي والحجازي والمصري، بل لا تجد رابطة قوية بين أبناءِ القطر الواحد، فعاميّة الصعيد بمصر غير عاميّة الوجه البحري، وعاميّة فلسطين والأردن غير عاميّة سوريا ولبنان، وكلها بلاد الشام!! وهكذا نظلّ مع الأستاذ في حديث ذي شجون.

ومَن لم يرَ المغربي رأي العَيان في حاجة إلى أن يتصوّره كما كان، وقد وصفه الدكتور «عدنان الخطيب»، وصفاً دقيقاً في كلمته عنه بالمجمع العلمي بدمشق، حين اختير عضواً به بعد وفاته ليشغل كرسيّه بالمجمع! فكان مما قال:

«كان الشيخ ربعة في الرجال، حسن السّمت، جميل الطلعة حلو المحيا، وجهه كصباح الربيع، غصن رطيب، أبيض مُشرَب بالحُمرَة، تزيّنه لحية اقتصد في إرسالها، وخطّها الشّيب فاستكانت إليه خليطاً غير قنع.

وكان عالي الهمّة، دؤوباً على العمل تبدو الحيوية في كل حركة من حركاته. كما يبدو النشاط في كل خطوة من خطواته، يحبّ المشي رياضة يومية، يغدو إلى عمله ويروح ماشياً، ويترك البيت كلما ضاق بما في البيت من كتب مرصوصة، وأوراق مكدّسة، ليجد السلوى في المشي بين بساتين الصالحية والربوة، يستمتع بجمال مسالكها ودفءِ الشمس ينسلّ من أشجارها الظليلة، ليستنشق عبير الآس في جنباتها، وأريج الريحان في مغانيها، وحيداً حيناً ومع بعض مَن يصطفيهم من الخِلّان والأصدقاءِ حيناً آخر، وهو دائماً يمشي خُطاه الثابتة غير متوانٍ ولا متخاذل».

ونحن حين نريد أن نتحدّث عن جهاده الإصلاحي، نتذكّر ما كتبناه عن «محمد رشيد رضا» و«شكيب أرسلان» و«عبد العزيز جاويش» لأن المغربي زميل هؤلاء الأعلام، فهو أحد تلاميذ «جمال الدين» و«محمد عبده» ممّن أُشرِبوا

الإصلاح الديني في قلوبهم وانطلقوا يسعون إلى هدف واحد، وإن تفرّق بهم السبيل حيناً، واجتمع بهم في أكثر الأحيان.

إن مَن يقرأُ إنتاج المغربي في شتّى ميادين العلم والإصلاح يشاهد عجباً أَي عجب! أرأيت إلى الزارع الماهر يجد أمامه أرضاً شاسعة فسيحة تتطلّب الغرس والريّ، فهو يجمع لها شتّى البذور من مختلف الحاصلات: يغرس في ناحية قطناً، وفي ناحية أرزاً، ويشقّ التّرع، ويتعهّد الأشجار والكروم، ثم يتذكّر أنواعاً كثيرة من الزروع، فيبحث عنها ليغرس منها في أرضه الشاسعة، وما يزال ينتقل من بذر إلى بذر، ومن ثمر إلى ثمر، حتى يلمس الخُضرة الزاهية تملأ عينيه، فيستريح قليلاً، ليبدأ العمل المتشعّب من جديد.

هكذا كان المغربي! وكان نفر من زملائه المُجاهدين في خاتمة القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين!.

لقد كتب في الفقه، وفي اللغة، وفي الأدب وفي التاريخ، وفي السياسة، وفي التفسير والحديث، وكان مضطراً إلى أن يخوض لججاً مختلفة تزحمه بطوفانها المتراكب، لأنه يلمس خواءً مُذهِلاً في كل ناحية، فالأرض فقيرة إلى جميع الثمار، ولا بدّ أن ينوّع المزروعات، ولو كان المجال مجال تخصّص وإمهال لعكف على علم واحد، وأنّى ذلك! وهو في مرحلة انتقال فليعمل جاهداً في كل مجال.

لقد عاش في مصر، ورأى انحطاط المرأة وانزواءَها تحت طبقات الجهل والمرض والاحتقار، ثم رأى الضجّة الهائلة التي أحدثها «قاسم أمين» بكتابيه الخطيرين، وشاهد تيّارات صاخبة من المُعارضة والتفنيد، فاضطر إلى أن يبيّن رأي الإسلام كما يعتقده، وأن يخوض المعركة إلى جوار قاسم، ليثبت أن دعوة تحرير المرأة لا تعني الخلاعة والتبرّج والاستهتار ولكنها تجنح إلى تربية المرأة وتثقيفها وتهيئتها لأداءِ دورها الطبيعي في الحياة!، وما زال يكتب في الصُّحُف ويُحاضر في النوادي مستشهداً بما يطمئن إليه من النصوص، وما يعرفه من وقائع الصدر الأول في الإسلام، وظلّ حديث المرأة شغله الشاغل أَمَداً غير بعيد، ورأى خصومه في

صلابته مجالاً للتزيّد عليه، فما ازداد إلّا يقيناً وصلابةً، ثم جمع خُلاصة آرائه في كتابه عن «السفور والحجاب» ولعلّنا نعرف زُبدته الموجزة من هذه الفقرات.

«ألزم الدين الإسلامي المرأة بالعلم، وفرض طلبه وتحصيله عليها، كما أعطاها من جهة ثانية حقّ التملّك والاستقلال، وحرّية التصرّف فيما تملك، فإذا شاءَت بيعه أَو هبته أو وَقْفه أو أيّ نوع من أنواع التصرّف فيه جاز دون أن يكون لزوجها أو أبيها أو أيّ كائنٍ حق في المعارضة.

يقولون: إن الدين الإسلامي كما شرّع ذلك ألزم المرأة بالحجاب والهدوءِ في المنزل، وعدم الخروج منه إلّا لزيارة والديها، وعدم مخالطة أحد. والمرأة التي لا تعرف في حياتها سوى محارِمها، ولا تخرج من بيتها إلّا إلى قبرها، تبقى بالضرورة جاهلة، فلا تقدر أن تتعلّم ما يلزمها علمه بالوجه العامّ، ولا ما يلزمها أن تتعلّمه لصيانة أملاكها والذّود عن حقوقها من وجه أخصّ، فحجابها المُصطَلَح عليه يؤدّي بها إلى الجهالة، وإلى التجرّد من حقّ التملّك، وحرية التصرّف فيما تملكه، وهذا تناقض ظاهر، وتضارب بين أُصول الإسلام وقواعده الكبرى الاجتماعية، لا يمكن معه أن تنهض أُمة وأن يرتقي شعب .

لا نعلم كيف نوفّق بين الأمرين، ونطبّق هذين الأصلين، هل نقول: إن الأصل في الإسلام هو إعطاءُ الحرية والاستقلال للمرأة، وأنها مُكَلّفة بتحصيل العلم عملاً، أو نقول: بالعكس إن الحجاب وقصْر المرأة في دائرة ضيقة من حياتها المعيشية والعلمية والأدبية هو الأصل الشرعي، والقاعدة الأساسية، وأن علمها وتعليمها وحريتها واستقلالها وتصرّفها كلّ ذلك دخيل في تعليم الدين، ومدسوس على الشريعة؟!!»[1].

هذا وكتاب «البيّنات» الذي جمعه الأستاذ في جزأين كبيرين مُختاراً من مقالاته العلمية، ومحاضراته الإصلاحية يضمّ زُبدة آرائه وخُلاصة أفكاره، وبه مقدمة جليلة للأستاذ «محمد رشيد رضا» يتحدّث فيها صاحب المنار عن جهاد

---

(١) عن كتاب السّفور والحجاب للأستاذ المغربي كما نقله الدكتور محمد أسعد أطلس في كتابه عن الأستاذ، ص ٥٥.

صديقه، ونشأته العلمية في الشام، واتجاهه الإصلاحي عن طريق الصحافة والتأليف، ومن أبوابه الهامّة ما خصّ به الاجتهاد في الشريعة من بحوث تجديدية تنحو منحى الأستاذ الإمام في الدعوة إلى النهوض بالفقه الإسلامي وتطبيق ما يجدّ من الأحوال على أحكامه، والنّعي على المقلّدين من عَبَدَة النصوص الفقهية التي سطّرها أُناس يخطئون ويصيبون، دون الرجوع إلى أُسس الإسلام الأُولى: من قرآن وحديث وقياس.

وقد أشاد الدكتور «محمد أسعد أطلس» بمقالَتي «الحرية العلمية في الإسلام» و«لنجتهد في إيجاد المجتهد» وهما لا تزيدان عن نظائرهما في البيّنات.

والطريف حقّاً أن أول مقال كتبه المغربي في مصر كان خاصّاً بالتمثيل العربي، إذ نشره بجريدة المقطم الصادرة في ٢٧ من ذي القعدة سنة ١٣٢٣ هـ (سنة ١٩٠٥ م)، ودلالته واضحة على تقدّم المغربي ونفاذه، فهو يوازن بين الصحافة والخطابة والتأليف من ناحية، وبين التمثيل من ناحية أخرى، فيرى أن تأثيره في النفوس يفوق تأثير غيره، لأنه تقليد ومُحاكاة يُسايران الغرائز، فلا غرو أن كانت به الأرواح أعلق وأشغف.

وقد اهتمّ كَتَبَة الإفرنج بهذا الفن وألّفوا فيه التأليف المتنوّع، إذ وجدوا فيه ضالّتهم المنشودة من قيادة الشعب وسوقه إلى تربية ملكاته، وتثقيف طِباعه، ثم يوازن الأستاذ بين التمثيل الشرقي والتمثيل الغربي لعهده، ويتحدّث عن انطباعاته الخاصّة كأديب ذوّاق حين يشاهد رواية مؤثّرة فيقول:

«كنت أُشاهد التمثيل فأمسك نفسي عن التأثّر، وأُنبّهها إلى أنها ترى أثراً لا عيناً، ومجازاً لا حقيقة، ومع هذا فإن مهارة الممثّلين كانت تغلبني، فينخدع حسّي وأذهل عن نفسي، حتى تذهب وراء التأثّر والانفعال كل مذهب، وأذكر من ذلك ما شاهدته بالأمس في رواية «هملت» من تمثيل الشيخ «سلامة حجازي، وميليا» حالتا المجانين وظهور روح والد هملت في شبح خيالي نوراني تطير النفس له شُعاعاً، ويضطرب قلب المرءِ من مرآه، ولو كان شجاعاً»!!.

على أن الشيخ قد ساهم في إنعاش التمثيل قدر استطاعته، فعكف الشيخ المعمّم على تعريب رواية «غادة الكاميليا» للكاتب الفرنسي الشهير «إسكندر دوماس»، واشترك مع بعض الأصدقاء في ترجمتها، ثم أضاف إليها من الأشعار الأدبية والأدوار الغنائية ما رآه يُرضي حاجة الممثّل الغنائي الكبير «سلامة حجازي»، ثم شاهدها النظارة في ٣ أُكتوبر سنة ١٩٠٨ م، ومع ثناء الصحافة عليها فلم يشأْ أن يطبعها في كتاب يحمل اسمه، إذ إنه كداعية مُصلِح يلمس من حرج نفسه أمام المتخلِّفين ممّن يظنّون بالجديد أسوأ الظنون، ويتربصون الدوائر بمَن يقرأُ رواية تمثيلية فضلاً عن مُشاهدتها وتأليفها!.

فماذا يقولون إذا علموا أن المغربي قد ترجم رواية تمثيلية ذائعة «لإسكندر دوماس» عن الفرنسية ليقوم بتمثيلها الشيخ «سلامة حجازي» في أكبر مسرح بالقاهرة! إنه بهذا العمل الخطير لا يجوز له أن يتحدّث عن الإصلاح الإسلامي، أو ينادي بفتح أبواب الاجتهاد! أو يضع شروط المجتهد كما تستنبط من علوم الأصول والفقه والجدل!.

ومهما اختلفت آراءُ مُعاصِريه في منحاه الفنّي، فقد كان مسلكه التحرّري ينبىء عن ثقة وإيمان، ويشير إلى سعة أُفُق بعيدة المطارح، أضف إلى ذلك شجاعته القوية في ارتياد هذه الآفاق الغائمة في أعين الكثيرين، مع استطاعته أن يختار في مضمار الفن ما يُرضي نوازع الخلق النبيل، ويستجيب إلى هواتف الخير والحق والجمال!! وذلك جميل.

يستطيع مَن يريد دراسة المغربي وتفسير آرائه في الإصلاح، والأدب واللغة أن يرجع إلى أساتذته الذين اشتركوا في تكوينه العلمي، فقد ترك كل أُستاذ بنفسه أثره الهامّ، ومع اختلاف أشياخه بين مُحافظين ينزعون إلى التقليد عن حذر وخشية، ومجدّدين يحاولون أن يرفعوا العوائق الناهضة في طريق التوثّب والصعود، فقد ترك كِلا الفريقين أثراً حميداً في اتجاه التلميذ الطموح، لأنه كان يعمد إلى الانتخاب عن دراية فيأخذ من كل أُستاذ أحسن ما عنده، وقد لا يرضى عن بعض ما يسمع، ولكنه يسلك مسلك الأدب والتهذيب، فاختلاف الآراءِ في الحياة شيء طبيعي لا يدفع إلى ثورة أو عناد.

كان أول أساتذة المغربي والده القاضي الفقيه مصطفى المغربي، وهو شيخ مُحافِظ قطع شوطاً من دراسته بالأزهر، فحضر الحواشي، وناقش التقريرات، واستظهر المتون، ثم انقلب إلى طرابلس الشام، فسامَرَ العلماءَ من طبقته، وناقشهم على طريقتهم في شرح التعريفات، وإرجاع الضمائر، وإخراج المحترزات.

وحين زاول التأليف سلك به مسلك شيوخ الأزهر إذ ذاك، فهو يشرح قول الرسول: «إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل إن الله يحبّ فلاناً» في رسالة لطيفة دعاها «دُرر التعريف بالحبّ الشريف» ثم يذيّلها بتقريظات علمية لأساطين المعقول والمنقول لعهده، وهو يضع منظومة فقهية في المعاملات والحدود على غرار منظومة ابن مالك في النحو والصّرف، ثم يُصنّف في تفسير سورة الإخلاص كُتَيّباً تحت عنوان «الدرّ المنضّد في شرح قل هو الله أحد» وهكذا يسير الوالد الأزهري في هذا الفلك ويجد من أعلام عصره مَن يحمده على تأليفه!! وقد انتَفع به ولده عبد القادر في شيءٍ واحد، هو أنه يسّر له حفظ كثيرٍ من المتون العلمية وهو طفل لم يبلغ الثانية عشرة، ثم أسلمه بعد ذلك إلى علاّمة طرابلس، ومؤسِّس النهضة العلمية بها الشيخ الكبير: حسين الجسر.

لقد تحدّث الأُستاذ محمد رشيد رضا كثيراً عن أُستاذه الجسر، وقال: إنه زامل المغربي في التلقّي عنه والانتفاع بتدريسه، وكان الرجل يختلف كثيراً عن الشيخ مصطفى والد عبد القادر، فالأب محافظ مقلِّد، يتعبّد بالأقوال، ويرى كل ما صدر عن عالِم سابق حقّاً لا يأتيه الباطل، وصواباً لا يحتمل الخطأ، وعلى طالب العلم أن يَعِي ما يسمع في الدروس أو يقرأ في الحواشي، دون أن يأذن لنفسه بنقاش يسلِّم إلى المعارضة، أو شُبهة تحوم على قول مسطور، ولكنَّ الشيخ الجسر ينبِّه تلاميذه لأول مرة إلى أن كلام السابقين من العلماء صواب يحتمل الخطأ، فلا بدّ من مناقشته ودراسته منازعة ثم الحكم عليه بعد ذلك بما يستريح له العقل السديد!.

يقول الأستاذ المغربي بصدد ذلك: «لقد تلقيت من دراستي على والدي الاستسلام إلى كل ما جاءَ في الكتب الموروثة عن أسلافنا الماضين والتصديق

بنصوصها دون تردّد وارتياب، ولكني اقتبست من شيخنا الجسر تعاليم فيها شيء من حرية النقد، وانطلاق الفكر، فعلّمنا أن النصوص الدينية الموروثة فيها الغثّ والسمين، وأن بينها ما هو غير صحيح ولا معقول، ولا منطبق على القرآن والسُّنّة، فيجب الانتباه إليه والتنبيه عليه والحذر منه، وتمييز غثّه من سمينه، وحقّه من باطله، ولتمييز الحق من الباطل في نقل الأخبار طريقتان:

١ ـ التدقيق في سند الخبر وروايته.

٢ ـ تدقيق النظر في إمكان الخبر وعدم إمكانيته!!».

لقد كان الجسر رائد الإصلاح في الشام، ففتح العيون على حقائق خطيرة يجب أن يلتفت إليها، وأعلم هؤلاء الذين يتعبّدون بالحواشي والتقريرات أن العلم غير ما يفهمون، وحسبه أن يكون من بين تلاميذه: رشيد رضا، والمغربي، وقد مهّد لهما الطريق إلى الغاية الصحيحة! ثم أسعدتهما الظروف بأعداد العُروة الوُثقى، فرأيا من تعاليم جمال الدين، ومحمد عبده ما استشرف بهما إلى فجر يفيض بضوئه على العالم الإسلامي، فيُوقِظ النائمين في دياجير الظلام، ويرسل الضوءَ النافذ إلى العقول، فتبصر خطواتها الهادية عن بيِّنة وسداد!.

لقد بلغ من تأثير العُروة الوُثقى في نفس المغربي أنه كان ينسخ أعدادها من الألف إلى الياء، أما رشيد فكان يلخّصها فقط، ثم يهيّىءُ المغربي كرّاسات بيضاء يسجِّل بها ألفاظها اللغوية وتراكيبها الأدبية، ولعلَّ مما يدلّ على شغفه باللُّغة في صِباه الباكر أنه جمع من أعداد العُروة خمسمائة كلمة جزلة وشرحها شرحاً ينبع من القاموس، ويستند إلى شواهد الأدب ونصوصه! ثم دفعه هيامه بجمال الدين إلى السفر إليه بالآستانة ومُصاحبته عاماً حافلاً بالتوجيه والإرشاد، وفي كتاب عبد القادر عن جمال الدين طُرَف تاريخية هامّة، تبيِّن أثر الفيلسوف الثائر في عشرات التلاميذ من ذوي الدويّ المجلجل في مضمار البعث الروحي والنهوض السياسي لأبناء الإسلام.

ولم يلبث أن عاد إلى طرابلس ثائراً على الفساد التركي والجهل العلمي، فوقع في قبضة الطّغاة من وُلاة الترك وحكم عليه بالسجن، حتى سنحت له الفرصة

فهاجر إلى مصر، وصحب الأُستاذ الإمام محمد عبده أشهراً معدودات قبل أن ينتقل إلى رحمة الله في يوليو سنة ١٩٠٥ م، وفي ربوع النيل وجد الكاتب المُهاجِر مُتَنَفساً فسيحاً لآرائه الفكرية، فكان يتصدَّر أُمّهات الصُّحُف الكبرى، وفي طليعتها المؤيّد، ليواصل دعوة جمال الدين في البعث الفكري، وعلى صفحات هذه الجريدة العظيمة التي كانت تُعَدّ لسان العالم الإسلامي كله أخذ يُوالي كلماته الإصلاحية، بينما انصرف صديقه رشيد إلى تحرير المنار، فكانا لسانين قويّين يهتفان في مِنبَرين مختلفين، ولكلٍّ تأثيره النفّاذ وصيته البعيد.

وإذا كان أكثر مقالات المغربي قد ذهبت بدداً في أنهار الصُّحُف اليومية والأسبوعية دون أن تجتمع في مؤلّفات خاصة، فإن ما أصدره منه تحت عنوان «البيّنات» قبس يشير إلى شعاعه الوهَّاج!.

وإذا كانت البيّنات مقالات مختارة مما كتبه المغربي في أربع سنوات أو خمس! فإن ما بقي بعد ذلك يحتاج إلى أكثر من عشر مجلدات، ومعروف أن الكاتب كان يحتفظ في خزينة كتبه بجميع ما كتب، فليت القائمين على النشر العلمي بمجمع دمشق يلتفتون إلى حفظ آثاره، وجمعها في مؤلّفات دورية وهم بعد زملاء المغربي وتلاميذه! ولأن يَفوا لذكراه ببعث آثاره خير من أن يوصموا بالإهمال والتقصير!.

لقد ذكرت في مطلع هذا البحث أن الأستاذ كان يأخذ من مُدَرّسيه أحسن ما لديهم، ولئن اتّضح ذلك في تأثير والده ومدى انتفاعه به وهو أقرب الناس إليه، فإنه يتّضح أيضاً في تأثير شيخه السلفي الحافظ بدر الدين الحسيني، فقد كان يحرص على استماع دروسه بالجامع الأموي بدمشق، ثم ينقل لها ملخصاً في أُمّهات الجرائد الشاميّة على نسق الأمالي، دون أن يغفل ما دار بين التلاميذ والأستاذ من نقاش!.

وأنا أعجب لذلك كثيراً، لأن البدر رحمه الله ـ وهو محدّث الشام الأكبر ـ لم يكن يفسح صدره للجديد من الرأي، بل ربما عارض مَن اجتهد، وقد كتب عنه المغربي مقالاً بالرسالة العدد ١١٢ سنة ١٩٣٥. قال فيه عن أُستاذه:

«وكنـا أحيانـاً نلمح في الحـديث النبوي بصيصـاً من معنىً يتعلّق بـأحـوالنـا الاجتماعية، فنريد شيخنا على التوسّع في الشرح للحديث فيأبى تـورّعاً وخشيـةً أن نقع في باطل من القول.

جاءَ في حديث عائشة أن جبريل أراه ﷺ صورتها في قطعة من جيد الحرير، فتساءَلنا في الدرس عمّا إذا كـان هذا الحـديث يدلّ على جـواز التصويـر، أو على جواز أن يرى الرجل مَن يودّ خطبتها من النساءِ؛ فيكون التصوير حاجة من حاجـات الاجتماع، فقال أحد الإخوان: ما دام للرجل الحق أن يرى خطيبته نفسها فليس ثم حاجة إلى رؤية صورتها، فردّ عليه آخر بأنه قـد يتفق أن يكون في بلد وهي في بلد آخر فيحمل إليه البريد صورتها كما حمل جبريل عليه السـلام صورة عـائشة رضي الله عنها.

كان يجري هذا الحوار في الدرس وشيخنا ساكت، وأردناه على أن يفيدنا ما عنـده في هذا المـوضوع فلم يفعـل، وظلّ سـاكتاً، واستـدرجته مـرَّةً إلى موضـوع عصري طريف فأفتى فيه أو كاد، ثم عاد إلى الاعتصام بالسكوت.

ومن ذلـك أيضـاً أنــه مـرّ معنـــا في الحـديث: «نهى النبي ﷺ عن تشييـد المسـاجد» وفسّـر ابن عباس التشييـد بالـزخـرفـة ، فقـال بعض الإخـوان: المـراد بالتشييد رفع بناءِ المساجد، فقلت: بل الصحيح ما قاله ابن عباس من أن التشييـد هـو الزخـرفة، وهـو مشتق من الشيد الـذي معناه (الجص) وهـو عادة تـزخـرف بـه الأبنية، أما رفع بناءِ المساجد فأمر مستحبّ في عمارتها، وذلك لكي يتخلّلها الهواءُ ويسهل التنفّس على المصلّين، فالتفت إليّ الشيـخ وقال مبتسمـاً: وما دخـل الهواءِ والتنفّس في الدين والتشريع!! وعجب من قولي أشدّ العجب.

وأنـا والله أعجب أشـدّ العجب من قـول البـدر رحمـه الله ومـا دخـل الهـواء والتنفّس في الدين والتشريع! بل أعجب لـلأستاذ المغـربي كيف لم يعارضـه ومعه الحق؟ ولكني أعـرف أن التلميـذ أخـذ من الأستـاذ أحسن مـا عنـده وهـــو الصبـر والتثبّت، ولم يأخذ عنه انصرافه عن شؤون المجتمع وأمـور الحياة! ولـو فعل ذلـك ما كان الفقيه المُصلِح الذي عرفناه!.

على أن أقوى مَن تأثّر بهم الأستاذ المغربي من أساتذته جميعاً هو الأستاذ الإمام محمد عبده دون نزاع، فقد ورث عنه جدله الكتابي وأُسلوبه البياني، ومعالجته مشكلات عصره على هَدْيٍ من العقل الصائب والنظر السديد، ومقالاته الإصلاحية جميعاً ترمي عن قوس الإمام، وتستضيءُ بمشكاته! بل إن ثقته بنفسه دفعته أن يُجاريه في تفسير القرآن، إذ إن المفتي رحمه الله قد ترك للناس جزء عمّ مُفَسّراً تفسيراً عصرياً، يبعد عن مصطلحات العلوم، وخلافات الفقهاء، ومنازع النحاة والقرّاء، ويهدف إلى صميم اللباب مما يعنيه الهدي الحكيم، مُراعياً حاجات زمانه، ومستحدثات عصره، وما دفع إليه اصطدام الشرق بالغرب من مناهج ونظريات!!.

ثم رأى أن ينهج هذا النهج في تفسير جزء تبارك، ولكن رحمة الله قد استأثرت به، فبادر الأستاذ المغربي إلى النهوض بالعبء، وأصدر تفسير جزء تبارك، مقتدياً بأستاذه ومسترشداً بمناره، بل توسّع عنه في أمورٍ كثيرة، وأتى بالجديد الطريف في تفسير سورة الجنّ، وفي الحديث عن نعيم الجنة الأُخروي، وهل سيكون روحياً فقط؟ أو جسمياً كما تدلّ عليه ظواهر الآيات؟.

وقد عرض على هيئة كبار العلماء بمصر تمهيداً لطبعه على نفقة وزارة المعارف المصرية، وتعميمه في مدارسها المختلفة، فاعترضت الهيئة على ثلاث نقاط زعمت أن المغربي نَحَا فيها منحى المعتزلة دون أن يتقيد بآراء أهل السُّنَّة! وكأن المعتزلة قوم لا يمثّلون الإسلام في منطق هؤلاء المعترضين، فاضطر المغربي إلى تعديل هذه النقاط، إذ كان حريصاً على أن ينشر تفسيره بمدارس مصر على أوسع نطاق، وقد رزق هذا التفسير حظوة بالغة، فطبع عدَّة مرّات، واهتمّت به دوائر ثقافية في الشرق والغرب! كما عقدت بعض الفصول الضافية في مجال الموازنة بينه وبين تفسير الإمام!!.

وقد انصرف الأستاذ ردحاً من حياته إلى البحث في أصول اللغة وما يدور حولها من الاشتقاق والتعريب، ثم ما يحفظها ويَقِيها من عَثَرات اللِّسان، فأصدر كتباً خاصّة بذلك، وقد كان من رأيه التوسّع في استعمال اللفظ المعرّب كما سبق

أن استعمله العـرب أنفسهم، دون أن يخـلَّ بقـدر من بـلاغتهم الـرائعـة، إذ إن التعريب «تحويل طبيعي، أو تغيير تاريخي يطرأُ على اللغة ويجري بهـا في نامـوس مطّرد، وقد خضعت له اللغة العربية بمجمـوعها، ومن أول نشـأتها كمـا تخضع لـه الآن وبعـد الآن، وأعني بـذلـك أن اللغـة بمجمـوعهـا معـربـة ومحـولـة عن لغـة أعجمية».

وطبيعي أن يكـون هذا الـرأي مدعـاة جدل حـادّ عنيـد، فقـد استعـر حـولـه الخلاف، وعقدت مُناظرات مدوِّية، اشترك بها أساطين اللغة والأدب، من أمثـال: حفني نـاصف، وعبد العـزيز جـاويش، ومحمد الخضـري، وحسين والي، وأحمد الإسكندري، وأحمد زكي، وكان ختام هذه المناظرات في جلسة عُقِـدت في مساء ٢٠ يونيه سنة ١٩٠٨ م، وختمها العـلّامة أحمـد فتحي زغلول بكلمة هـادفة، دعـا فيها إلى التعريب حين لا نجد مناصاً منه، بعد أن نلجأ إلى الاشتقاق والترجمة فلا نجد عن سبيلهما ما نريد!.

ويذكّرنا موقفه من التعريب بموقفه من غريب اللغة، فقد توافق الكُتَّـاب على استعمال المأنوس السهل دون البعيـد المهجور، ولكن المغـربي ينافـح في مجمع اللغة بمصر عن الغريب المهجور، ويـرى أن ليس كل غـريب يهجر، فـإن منه مـا استجمع شروط الفصاحة ويعوزه الاستعمال فقط، ليصبح مألـوفاً ذا استئنـاس، ثم يضـرب المثل بكلمـة الإيالـة فإنهـا أشرف من كلمـة السياسـة، لأن الأخيرة كـانت تستعمل أوَّلاً في سياسة الدواب، ثم نقلتها الحضارة إلى سياسة الناس، أما الإيـالة فاستعمالها المبدئي للناس وهم أشرف!.

ويفيض المغربي في أمثلة تنحو هذا النحو... ولا يعنينـا أن نلخّص هنا مـا قـال، فمن رأينا أن ذيـوع الكلمة هـو صاحب الأمـر الأول في سيادتهـا، فما دامت تحظى بالتـداول والانتشار فليس يهمّنـا أن نبحث عن غيرهـا، ونجبر الأقـلام على استعمالها لتأخذ نصيبها في السيرورة، وهناك ما يسدّ مسدّهـا دون نظر إلى تفضيـل موهوم يلحظه المتنطسون من أمثال المغربي، وأنستاس الكرملي، وتيمور!.

لقـد كان الشيـخ الكبير إمـاماً في فنّـه، ولكل إمـام سبحاتـه المحلّقة التي لا ينهض بها أتباعه المأمومون! فإذا أعرضوا جانباً عن رأيه في استعمـال الغريب دون المأنوس فهم معذورون.

أبو الثّناء الألوسي
الإمـــــام البحّــاثة المفسّــر

- ١ -

دار خلاف حول بدء النهضة العلمية في العراق، إذ حاول بعض الكاتبين أن ينحدروا بها إلى أوائل القرن العشرين، وهذا خطأٌ واضح، لأن وجود إمام كبير مثل أبي الثّناءِ الألوسي في مفتتح القرن التاسع عشر، وامتداد عمره إلى منتصفه، يدلّ على أن البيئة العلمية - مهما قيل عنها - كانت تسمح بوجود عملاق كبير، أدّى دوره الفكري أحسن أداء، والاستشهاد بالإمام الألوسي في هذا المجال، كافٍ لمنع اللجاج الصاخب حول ابتداء النهضة العلمية بوادي الرافدين.

وقد كتب المرحوم الأستاذ رزق عيسى الباحث العراقي فصولاً جيدة، تنكرُ أن تكون النهضة العلمية في العراق وليدة القرن العشرين، وتدعم إنكارها بما قام به داود باشا والي العراق في العقد الثاني، وما بعده من القرن التاسع عشر من إصلاحات علميَّة وصناعية، كانت مبعث تقدُّم فكري، إذ استدعى فريقاً من مَهَرَة الصّنّاع بأوروبا لإنشاء المصانع والمدارس، كما شيّد دُوراً خاصّة بالكتب المخطوطة، واشترى مطبعة لنشر ما رآه صالحاً من المؤلّفات، وأصدر جريدةً سمّاها جرنال العراق، كما أكثر من تعمير المساجد القديمة، وأودعها نفائس الكتب، وعيّن بها نفراً من حَمَلَة العلم ليقرؤوا دروس الفقه واللُّغة، وإذا ثبت ذلك كله - وقد ثبت - فإن الذين حاولوا أن يرجئوا دور العراق العلمي إلى ما بعد مفتتح القرن العشرين واهِمون.

وكـان على الأستاذ رزق عيسى في مجـال الدفـاع عن تقدّم النهضـة العلميّة إلى ما قبل هذا العهد، أن يذكر الشهاب الألوسي ومـا أبدع من آثـار، إذ إنَّ وجود هذا العلاّمة الموسوعي البحّاثة، ممّا يقطع في مجال اللّجاج جهيزة كل خطيب.

وُلِدَ السيد محمود عبد الله الألوسي ببغداد في منتصف شعبان سنة ١٢١٧ هـ الموافقة لعـام (١٨٠٢) الميلادي، وكـان والده رئيسـاً للمدرّسين في بغـداد، وهم طـائفة من علمـاء الـدين يشتهـرون بـالتحصيـل العلمي في فـروع الفقـه والتفسير والحـديث، وما تَجِب معـرفته من علوم اللسـان العربي: نحـواً وبـلاغـةً واشتقـاقـاً وعروضاً، ولهم أسـاتذة يعتـرفون بنبـوغهم، ويُشيرون على ذوي الأمـر بصلاحيتهم للإمامة والخطابة والتدريس بالمساجد، فيستجيبون.

كـان عبد الله الألـوسي والد المفسِّـر رئيس هؤلاء المـدرّسين، وكـان منـزلـه ببغداد كعبة القاصدين منهم للاستفادة والتوجيه، وقد تفتّحت عينا الناشىء الصغير، لتَرَيا الـوالد في مكـان القدوة العلميَّـة، ولتسمع من النقـاش العلمي ما يـرسمُ مثلاً عالياً يجتذب الناشىء ويُغريه، ومن الطبيعي أن يكون والد أبي الثّناءِ حـريصاً على تربية ولده، وتنشئته التنشئة العلمية ذات اليقظة البصيرة، والتحفّز المتوثّب.

فإذا كان الصبي ذا استعداد مناسب، فـإن غصنه الأخضـر سيأخـذ في النّماء السريع بدوام التعهد، وحُسْن الرعاية، وقد ساعدتْه حافِظته القوية على أن يستـظهر المُتُون العلمية الذائعة بين طلاب هذا العصر، وهي بعينها مُتون الأزهر التي تعاقب عليها المؤلّفون شرحاً وتحشيةً وتقريراً، كألفيّة ابن مالك، والرحبيّـة والخريـدة ونور الإيضاح، والعقائد النسفيّة وغيرها.

وقد حفظ محمود كل هذه المُتُون قبل أن يبلغ الـرابعة عشـرة من عمره، ولم يقتصـر على والـده وحـده، بـل اتّجـه إلى جلّة العلمـاء في عصـره، ومنهم: علي السويدي، وأمين الحلي، وخـالد النقشبنـدي، وعبد العـزيز الشـواف، وكان لكـل عالِم من هؤلاء حلقة خاصة بمنـزله يؤمّهـا الطلاب عن طـوعٍ في أوقات معينـة من النهار والليل، إذ يـرون في التدريس وحـده وسيلة لإذاعة العلْم دون التـأليف، بل يرون في تلاميذهم مؤلّفات حيّة تتحدّث وتتكلم وتذيع، فهم يرحّبون بالنابغين منهم

أتمَّ ترحيب، وقد يحرصون على الاستئشار بمَن يرونه ذا مقدرة عالية في الفهم، ليرجع إليهم فضل تكوينه العلمي، ويصبح التلميذ دليلاً واقعياً على قدرة أستاذه.

وحين وجد الوالد العطوف هِمّة نَجْلِه ترمي به إلى استيعاب ما يقدر على الإحاطة به من دروس الزملاء، شجّعه على مواصلة الزيارة، والاستفادة، وكان يقرّ عيناً به حين يرجع إليه بعد انتهاء اليوم الحافل، فيحدّثه بما ألمّ من علم، وما دار في حلبة الدرس من نقاش، وقد نال إعجاب أساتذته جميعاً، فمنحوه إجازاتهم العلمية عن تقدير، ولم يكتفِ الناشىء الطامح بعلماء بغداد، بل حرص على لقاء الأساتذة في بيروت ودمشق، ورجع بإجازتهم كذلك، والإجازة يومئذٍ شهادة سبْق ودليل تبريز.

إن مثل هذا الشاب المتفتّح لا بدّ أن يشارك في التوجيه السياسي للعراق، فهو معقد أنظار الشبيبة من أهل العلم، وللكبار منهم فيه آمال كبار، وقد تعرّضت البلاد لخطورة الحرب المُبيدة، لأن داود باشا قد تورَّط في نزاع مع الدولة العثمانية، أدّى به إلى إعلان الاستقلال التامّ عن الآستانة مقتدياً بمحمد علي باشا، حاكم مصر، وكان داود باشا في صميم أعماله رجل إصلاح وقيادة، فقد وَلِيَ الأمر، والعراق فوضى، فالجهل فاشٍ، وغارات القبائل المجاورة، تهاجم الربوع المطمئنة لتسلبها الراحة، ويرجع قطّاع الطّرق حاملين ما أُتيح لهم من أسلاب، ومَن يسلَم من العدوان لا يعدم القلق النفسي لتتابع الغارات، وقد استطاع داود باشا أن يقف وقفة حازمة أمام هؤلاء المُغيرين، إذ أنشأ إدارةً جديدةً ذات حرس وجنود، ليرجع للعراق هيبته، وأوجد حرساً مسلّحاً من المماليك قضى به على الفتن الداخلية، واتجه إلى الإصلاح الاقتصادي، فشقَّ التّرع وأجرى الجداول، وحرص على استصلاح بعض الأراضي الجدباء.

أما الحركة الثقافية فيكفي في إيضاح جهده أنه أنشأ ثمانيةً وعشرين معهداً علميّاً، وإذا كانت كلمة معهد أكبر من حقيقتها المعاصرة؛ فحسب الرجل أن أعدّ أمكنة للدرس يؤمّها فريق من الطلبة، ليستمعوا إلى مدرّس يبذلُ قُصارى الجهد في الفهم أولاً، والتفهيم ثانيةً.

والألوسي اليقظ الدؤوب يفكّر في أعمال داود باشا، ويقارنه بمَن سبقه من الوُلاة، فيجد الفرق شاسعاً، إذ كان قُصارى جهد الوالي أن يبحث عن موضع المال ليغتصبه قهراً، لأنه يعلم أن أيامه محدودة ولا بدّ أن يرجع إلى موطنه بخير كثير، وإذا كانت هذه هي الروح السائدة بين الوُلاة فلا إصلاح.

أما داود باشا فقد شدّ الأنظار إلى كفاحه، فانجذب إليه العراقيون، وتابعوا خطواته الإصلاحية في غبطة وتعاون، وكان ما لا بدّ أن يكون من اصطدام الدولة العثمانية به، إذ أرسلت جنداً كثيفاً لمُنازلته وطرده، ورأى الألوسي من واجبه أن يُعِين القائد المُصلِح في نضاله، فجمع الناس من حوله، وشارك في تهيئة الرأي العامّ لشدّ أزره، ولكن الظروف كانت أقوى وأشدّ، لأن الجيش المُهاجِم قد أحكم الحصار حول المدينة أمداً طويلاً، وشاءت الظروف القاسية أن ينتشر بها وباءُ الطاعون في غير رحمة، وأن تفقد بغداد يومياً أكثر من مائة وخمسين، ثم يعمّ البلاءُ بفيضان دجلة فيضاناً رهيباً يكتسح المنازل ويشتّت الآمنين، فتدمّرت المرافق، وخربت الدّور والمتاجر، وفقدت بغداد ثلاثة أرباع ساكِنِيها بانتشار الحرائق التي حرّض عليها الجيش المحاصر.

ورأى داود باشا أن يستسلم للغُزاة، وجاء القائد ليبحث عن أعوانه، وليملأً بهم السجون، وكان على رأس هؤلاء محمود الألوسي، فقابل المِحنة في ثبات وصبر، ونحن نقدّر همامة هذا الشاب الباسل، لأنه عرف الحق فآثره، واختار الوقوف مع الوالي حين فقد النصير، وبَدَت طلائع الكارثة تُنذرُ بما خلفها من الأهوال حيث عرف أن داود أنقذ البلاد بمشروعاته السديدة وليس من الكرامة أن يواجه مصيره وحده، دون أن يجد العون من ذوي النخوة والحمية، بل من الكرامة الإسلامية أن يتّجه وجهة الحق، وأن يقابل المسؤولية بشجاعة أبيّة، وأن يجد في السجن راحة نفسية لأنه لم يقترف ذنباً يورثه الندم، بل صدع بالحق حين نكل عنه المغرضون! وهكذا قضى أياماً حالِكة السّواد شديدة الحرج، طهّرت روحه، وأحكمت تجربته حتى أذِنَ الله بالخلاص.

وقد ضرب بذلك المثل الحرّ لأهل العلم ببغداد، إذ كانوا يعكفون على متونهم وشروحهم في حلقات الدرس، دون أن يُسهِموا في توجيه الأمور، مع أنهم

أهل الرأي، وفي مشاركتهم بالتوجيه ما يدفع إلى إحقاق الحق، وما طلب العلم في الإسلام إلّا ليكون سبيل العمل الخيري، وباب الإصلاح الفكري، فإذا ترك العلماءُ واجب النّصح والتوجيه، وآثروا الراحة المطمئنة، والنزاع قائم، والخطر مُحدِق، فقد تنكبوا الطريق.

ولم تطل محنة الشيخ، فقد استمع الوالي الجديد رِضا باشا إلى هواتف الخير من نفسه، إذ جاءت أنباءُ النابغة السجين، فطلب بعض مؤلّفاته ليقرأها وكان على حظٍّ من المعرفة فنالت قبوله، وأصدر أمره بالإفراج عنه، وعيّنه خطيباً بأحد المساجد، وجعل يهرع إلى استماعه، ومشاهدة دروسه حتى اعتقد أنه رجل العلم الأول ببغداد، فأسند إليه عدّة وظائف علمية كبيرة، ونهض الرجل بأعبائها، وكانت هذه الوظائف لا تشغله عن مُدارسة العلم للطلاب نهاراً، ومباشرة التصنيف ليلاً، وكان من المعتاد أن تأتي الأسئلة الدينية من مختلف الجهات إلى الوالي لِيُشير بالإجابة عنها.

وقد جاءته من إيران (بلاد فارس) ـ كما كانت التسمية حينئذٍ ـ أسئلة دقيقة في أصول المذهب لدى أهل السُّنّة، فتصدّر محمود الألوسي للإجابة بكل براعة ومقدرة وحاول غيره الإجابة، فعقد الوالي مجلساً لقراءة الإجابات المختلفة ليختار منها ما يصلح للردّ الحاسم، وكانت إجابة الألوسي من القوة بحيث كسفت شمسها ما حولها من النجوم، وقد جمعت إلى صواب الدليل، وسلامة الحكم، وقوّة الاستشهاد عفّةً ونزاهةً، وتشجيعاً للسائل وتقديراً لدقّة غوصه، وبُعْد مرماه! وذلك مسلك نفسي رائع، لأنه يفتح باب الطمأنينة، ويستميل مَن يُظهِر الجموح لحاجة في نفسه، وطبيعي أن تكون الإجابة هي المختارة وأن تصل إلى طالِبِيها فتقع منهم موقع الارتياح.

وكانت وظيفة الإفتاء تُعَدّ أكبر وظيفة علمية ببغداد، ولن يتسنّم ذروتها غير شيخ عالِم كبير له تلاميذ كبار، وتلاميذ تلاميذ ولكن أشياخ بغداد لهذا العهد قد ألقوا السلم في طوع لهذا الشاب، فتقلّد رتبة الإفتاء ولم يتجاوز الثلاثين إلّا بأيام.

وقـد أحسّ عظم المسؤوليـة، وبخاصـة من الناحيـة المذهبيـة، لأن محمـود الألـوسي كان شـافعياً كـأبيه، ولا بـدّ لمَن يتقلّد منصب الإفتـاء في ديـار الخـلافـة العثمانية، أن يكـون حنفي المذهب، وهـو اشتراط لم يَعُق الشـاب الطامـح، ففي فتـرة قصيرة درس المـذهب الحنفي في أوسع كتبـه، وألمّ بقضايـاه الفقهية مقـارنةً بقضايا المذهب الشافعي، وكان حرّ العقل في اختيار ما يرتاح إليه، إذ يقرأ في كِلا المـذهبين عن يقظة، ثم يُصدِر الفتوى مؤيّـدة بـالـدليـل عقـلاً ونقـلاً، وليس بين المذهبين كبير اختلاف كما يحاول قِصار النظر تأكيده لحاجـة في نفوسهم يبـرأُ منها العالِم الحرّ النّزيه، وإنما هي وجهات نـظر تتقارب وتتبـاعد، كمـا تختلف وجهات النظر بين علماء المذهب الواحد.

وقـد دأب مؤرّخو المـذاهب الفقهية على أن يُكثِـروا من أوْجـه الخـلاف بين المذاهب بعامّة ليقولوا شيئاً ذا بال، ولكن الحقيقة أن النص مرعيٌّ لدى المذهبين، وأن القياس على النص لا يُلجأُ إليه إلّا إذا فُقِدَ النص، فإذا توسّع قوم في الـرجوع إلى القيـاس، فهم يقيسون على النص المُعتَـرَف به من الجميـع، وإذا التـزم قـومٌ بالنص فهم يرونه أصلاً لكل قياس، والمسافة من القُـرْب بحيث لا ينبغي أن نشتطّ في تصوير الخلاف اشتطاطاً يجوّف الحقائق لنُقيم الحواجز العازلة بين الأحكام.

وقد ظهرت نعمة الله على المفتي، فاشتـرى داراً واسعةً، جعـل جانبـاً كبيراً منها لمُلاقاة التلاميذ، وللترحيب بـالطلبـة الغربـاءِ، مسكناً ومـطعماً ومـأوى، وكان شعراء بغداد يقصدونها كل ليلة بعد الغروب ليتطارحـوا الأشعار في حضـرة المفتي على مسمع من تلاميذه.

والذين يؤرّخون للألوسي في هذا العهد يقولون إنه كان يقـوم بتدريس أربعـة وعشرين علماً، في اليوم الواحد لطلّابه، وهذا مُستَبعَـد، لأن جميع سـاعات اليـوم والليلة أربع وعشرون! فهل سيقضي الرجل كل وقته في التدريس دون نـوم وإشباع حاجة معاشية، ودون قيام بمستلزمات وظيفة الإفتاء؟.

لقد ذكر ذلـك صاحب المسـك الأزفر، ونقله الأستـاذ محمود العبـطة بمجلة الرسالة[1] مؤكّداً، والمعقول ألّا تزيد مواد الدراسة في اليوم الواحد عن ستّ مواد،

(١) الرسالة، العدد ٩٥٤، سنة ١٥/١٠/١٩٥١ م.

والمعقول أيضاً ألّا ينفرد الألوسي بأعباء التدريس وحده، بل يُسند إلى الأكفّاء من زملائه دروساً يُحسِنون القيام بتفهيمها، لا سيما والمجتمع البغدادي لعهد الألوسي كان آلفاً لهذه الدروس المنزلية، لأن بيوت العلية من العلماء كانت مدارس خاصّة لمَن يقصدها من الطلاب، وقد اشتهرت بعض العائلات الكبيرة بتدريس علوم معينة، فاشتهر بيت الزهاوي بتدريس المنطق وعلم الكلام، واشتهر بيت السويدي بتدريس الحديث، وبيت الواعظ بتدريس الوعظ ومناحي الإرشاد.

ومثل بيت الألوسي وقد ورث العلم كابراً عن كابر، لا بدّ أن يشتهر بدءاً بمواد خاصّة، فلما تسنّم عميده منصب الإفتاء بنى داراً، واتّسع بالعلوم إلى مدىً شامل محيط، وذلك فضل الله.

وطبيعي أن يجهر الشيخ بالحق لدى الحاكم، وكان الوالي علي رضا يقبل منه كل مُعارضة لأنه يعلم صدق نفسه، وإخلاص اتجاهه، ولكن مدّته في بغداد لم تطل، إذ جاء من بعده مَن شمخ بمركزه على المعارضة، ورأى في كلمته القول الذي لا يردّ، ثم لم يسر بالناس سير الحق، ولا بدّ أن يصطدم بالألوسي، فهو لسان معشره، وصاحب القول الصريح الذي لا يتستّر بجمجمة، ولا يسكت أمام إرهاب.

وكان الوالي واسمه (محمد نجيب) يمتّ بصلة القرابة إلى السلطان العثماني، ويرى في هذه الصلة ما يجعله فوق المُساءلة، وقد ضاق بصراحة الألوسي، وسمع من أعدائه ما أغراه به، إذ جعل يتسقط أنباء زعامته الدينية، وهيبته القوية في بلده، بضيق يُوغِر الصدر ويتربص المكيدة.

وقد حدث شغب في مسجد من مساجد بغداد، قامت بعده مظاهرة ناقمة، تتّجه إلى منزل الوالي مُنادية بإحقاق الحق، فغضب محمد نجيب باشا لضجيجها، وعدّه مظهراً من مظاهر الخروج على الحاكم، واعتقد أن الألوسي هو الذي أوقد النار ودعا إلى التجمهر، فسارع بعزله عن الإفتاء، وحال بينه وبين الذهاب إلى الآستانة حين دعى العالِم الكبير لزيارتها في مناسبة سلطانية ثم كتب للباب العالي يُخبره أن الشيخ قد رفض الزيارة تكبّراً ليكون صاحب حق في تنكيله والإيقاع به.

وتابع فمنع الألوسي القيام على شؤون جامع مرجان، بعد أن عزله من الإفتاء، وبذلك قطع عيش الرجل وحاربه في رزقه محاربةً جارمةً، والشيخ حينئذٍ صاحب بيت عامر، تنهض به مدرسة علمية، يقطنها عشرات الطلاب، ويحتاجون إلى مواصلة الإنفاق، ولم يشأ أن يعلن للناس ضيق يده فأخذ يبيع نفائس الأثاث، وما عزّ وارتفع ثمنه من الكماليات ليجري كل شيء كما كان، وكان يُسلي نفسه بالتدريس والتأليف، مترقّباً أن تزول الغمّة عن قريب، ولكن الليل قد طال فشدّ الرِّحال إلى الآستانة ومعه تفسيره الكبير، ليكون دليل علمه وشفيع مقدمه.

ولاقى صعوبات جمّة حتى استطاع أن يُبرىء ساحته، وأن يعود منتصراً، فأُجرِيَ له استقبال عظيم، وخرجت بغداد للترحيب به، وقد نَعِمَ بِرضا الخليفة وعزل نجيب باشا وجاء في إثره مَن رعى مكان الشيخ وأعاد له جاهه الفقيد.

- ٢ -

ترك الألوسي مؤلّفات كثيرة، إذ كان ذا قلم سيّال، وخاطِر سريع، وقد دَوّن رحلته إلى الآستانة في كتاب حافل ألمّ بما كان من أمره منذ ترك بغداد حتى رجع إليها، واصفاً ما نزل به من المدن وما مرّ عليه من الطرق، ومَن قابله من علية الناس، ولولا أن أسلوب العصر قد أشاع في ديباجته فنون السجع وطرائف المحسّنات لكانت رحلته طُرْفة أدبية، لا تفقد بريقها على مرّ العصور، وحسبها أن تُعَدّ وثيقة تاريخية تسجّل حقبة واضحة من حقب التاريخ، إذا فاتَها أن تكون أثراً مرموقاً تردّده النفوس متمتعة راوية.

كما أن نزعته الإصلاحية قد دفعت به إلى دراسة العالم الإسلامي دراسة واقعية، فرأى عوامل الضعف، وعرف كيف تفوّق العالم الغربي على بلاد الشرق بالقوة الحامية، والذخيرة الواقية، فألّف رسالة أسماها (سفرة الزاد لسفرة الجهاد) دعا فيها المسلمين إلى اليقظة علمياً واقتصادياً وحربياً، وأعلن أن الجهاد فريضة محتومة أمام اعتداءات الاستعمار، وملأ كتابه بأدلّة سافرة من القرآن والحديث وما قام به أعلام الإسلام من فتوح خالدة أنقذت الناس من الظلمات إلى النور.

ووالى التـأليف العلمي حتى عدّ لـه الباحثـون اثنين وعشـرين مؤلّفـاً مـا بين مخطوط ومطبوع، كان منها ـ غير ما تقدّم ـ رسالته المُسمّاة (الأجوبـة العراقيـة على الأسئلة الإيرانية) والرسالـة الثانيـة (الأجوبـة العراقيـة على الأسئلة اللاهـورية) ومن عنوان الرسالتين نعرف أن مقام الألوسي في الإفتاء قد ذاع واشتهـر، وأن الناس في فارس والهند قد أولوه ثقتهم، فأرسلوا إليه بأسئلة دينية متشعّبة، تحتاج الإجابة عنها إلى رسائل ذات صفحات مبوّبة.

وإذا فاتنا أن نقرأ هذه الصفحـات فإن مضمـونها العـامّ لا يخرج عن مسـائل الدين، وبخاصة ما يتعلّق بالعقيدة، إذ عُـرِفَ عن الإمام الألـوسي مُناصـرته لـدعوة التوحيد الخالص، التي قام بهـا الإمام محمـد بن عبد الـوهاب، والتي كـانت قَبساً يُضيءُ في كل مكان، على أن جُلّ إنتاج الشيـخ، وموضـع خلوده الدائم بين أهـل العلم هو ما كتبه تفسيراً لكتـاب الله، إذ إن كتابـه الرائـع (روح المعاني في تفسيـر القرآن الكريم والسبـع المثاني) قـد أخذ مكـانه الجهيـر في المكتبة الإسـلامية عن جدارة واثقة. وقد تعدّدت طبعاته واحتفل به الدّارسون مبتهجين.

رأى الشهاب الألوسي أن النهضة الإسلامية لن تقوم إلاّ على أساس متين من دراسة كتاب الله وتوضيح آياته، وتفسير أحكامه، وأنه لا بدّ لأبناء اللغة العربيـة من تفسير جديد يجمع خُلاصة مـا قالـه الكبار من الأئمّـة في وضوح وإشـراق، وكانت الدولة العثمانية قد عملت على نشر تفسيـر العلاّمـة أبي السعود العمـادي في ربوع ولاياتها، وهو تفسير جيّد حقّاً، بذل فيه صاحبه من الجهد، ما جعله موضع الحفاوة بين أهل العلم.

وقد ذكر صاحبه الكبير أنه قرأ تفسيري الزمخشري والبيضـاوي، فبَدَا لـه من بـدائعها مـا حرص على تقييـده وجمعه أثنـاء طلبه للعلم، ثم رأى أن يقـوم بتفسير مماثل يجمع صفوة ما في الكتابين، ويضيف إليهما ما فتح الله به عليه، وبقراءة مـا كتبه أبو السعود نجد أنه لم يقتصر على الإمامين، بل قرأ ما وَسِعَـه قراءتـه من كتب السابقين من أمثال ابن جـرير، والنيسـابوري، وابن كثيـر، والنسفي، وابن عطيـة، وصاغ من ذلك كله تفسيـره الكبير جـامعاً بين اتجـاهات حميـدة لها وزنهـا العلمي لدى الدارسين.

وقد توسّع في المسائل البلاغية توسّعاً كان الزمخشري رائده في منحاه حتى ليصحّ أن تخصّص رسالة بلاغية تحت عنوان «البلاغة القرآنية في تفسير أبي السعود»! هذا التفسير كان موضع النظر لدى الشهاب فرأى أن يحذو حذوه في غير سرف علمي ينحو منحى الاصطلاحات وقضايا العلوم.

وقد أحسن أستاذنا العلاّمة الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله حين أوجز التعريف بهذه الموسوعة الرائعة فقال في إيضاح مكانة هذا التفسير[1]:

«وقد أفرغ ـ الألوسي ـ وسعه وبذل مجهوده حتى أخرجه للناس كتاباً جامعاً لآراء السّلَف روايةً ودرايةً، مشتملاً على أقوال الخَلَف بكل أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير، فنراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبي حيّان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير الفخر الرازي، وغيرها من كتب التفسير المعتمدة، وهو إذا نقل عن تفسير أبي السعود يقول غالباً قال شيخ الإسلام، وإذا نقل عن تفسير البيضاوي يقول غالباً: قال القاضي، وإذا نقل عن الفخر الرازي يقول غالباً: قال الإمام.

وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير ينصّب نفسه حَكَماً عدلاً بينها، ويجعل من نفسه نقّاداً مدقّقاً، ثم يُبدي رأيه حرّاً فيما ينقل، فتراه كثيراً ما يعترض على ما ينقله عن أبي السعود، أو عن البيضاوي، أو عن أبي حيّان، أو عن غيرهم، وتراه يتعقّب الفخر الرازي في كثيرٍ من المسائل، ويردّ عليه على الخصوص في بعض المسائل الفقهية انتصاراً منه لمذهب أبي حنيفة، ثم إنه إذا استصوب رأياً لبعض مَن ينقل عنهم انتصر له ورجّحه على ما عداه».

وأكاد أزعم أن دارس التفسير في (روح المعاني) يستغني به عن ما كتبه سابقوه، لأن الرجل الكبير قد قرأ كلّ ما وقع تحت يده من كتب هؤلاء، وأطال النظر في مضامينها ووازَنَ وقارن، ورجّح وعلّل، ثم صاغ من خلاصتها الصحيحة في رأيه سبيكة خالصة من معدن الذهب.

---

(١) التفسير والمفسّرون، للدكتور الذهبي، جـ ١، ص ٣٥٥، ط ٢.

ويذكر تلاميذه أنه في مدة اشتغاله بالتأليف، كـان يسهر الليـل الطويـل قارئـاً وكـاتباً، فـإذا ما أشـرقت الشمس أعطى تـلاميذه مـا كتبه في ليله فيقـومون بنسخـه خـالصاً من شـوائب التشـطيب، ويـظلون طيلة اليـوم منهمكين في تبييض مـا كتب أستـاذهم وهم ـ بعد ـ نـاسخون فقط وهم جمـع وهو واحـد!! وذلك يـدلّ على أن همّة عالية بعيدة المرمى قد احتلّت نفس الشهاب، فصمّم في تحفّز على أن يقـدّم للمسلمين تفسيراً شاملاً يضع قضايا القرآن موضعها الساطع.

ولئن شغل نفسه بمناقشة سابقيه خائضاً مخـاض الجدل ومتـوغلاً في شِعـاب النظر، فذلك طريق المفسّرين جميعاً قبل أن تظهر الروح الأدبيـة الحديثـة في نهج الإمـام محمد عبـده، حيث نأى في تفسيـره عن قضايـا العلم النظري التي حملت حملاً على تفسير كتاب الله، وهي في واقعها قضايا علوم فلسفية شاء أصحـابها أن يلتمسوا من كتاب الله مؤَيّداً لها في بادىء الأمر ثم جاء من تلاميذهم مَن اعتقد أنها شرح لكتاب الله نفسـه، فبذل جهـده في تدوينهـا أثناء التفسيـر، وأوضح مـا يكون ذلك في تفسير (مفاتح الغيب) الذي شحنه الفخر الرازي بغرائب القضايا المنطقيـة والتأويلات المذهبية، فكان كتاب جدل ومناظرة أكثر منه كتاب تفسير وتأويل.

ودارس تفسير الألوسي يلمح لديه اهتماماً خاصّاً بمسائل النحو، وهي عدوى أبي حيّـان الغرنـاطي، إذ نهج في تفسيـره (البحر المحيط) نهجـاً نحويـاً ذا شِعاب شتّى، وأبو حيّان عالِم صناعته النحو، ومُهاجِم شأنه الانتقاص والمؤاخذة وما أبعـد روحه عن روح أبي الثّناءِ، فلِمَ حاذاه؟.

لزم الشهاب حدود الاعتدال في مناقشة الآراء الفقهية المُخالِفـة لمَنحاه، فلم يكن مثـل أبي بكر العـربي شديـد التعصّب لوجهـة بعينهـا، ولكن الحقيقـة كـانت وجهتـه، لأن سِعَة العلم تفتقـر كثيراً إلى سعـة الصدر، ولن تفيـد الأولى شيئـاً مـع فقدان الثانية، كما أن اعتدال الألوسي في شـرح الآيات الكـونية كـان مثلاً شـاهِداً أمام مَن يتورّطون في التفسير العلمي إلى مدىً يتّسع للتأويل البعيـد، بحيث يلوون أعنـاق الآيـات ليّـاً لا يستقيم معـه اطّـراد الأسلوب العـربي على نهجـه المعهـود، والأمثلة الدالّة على ذلك مما يضيق به المجال.

وإذا كان الألوسي قد شنّ الغارة على الإسرائيليات، فقد كنّا نُؤْثِر أن يهجرها هجراً تامّاً، ولكنه كان يذكرها كثيراً ليبيّن مواضع الضعف فيها، وذلك شيءٌ مفيد حقّاً لولا أنه كان يذكر أحاديث ضعيفة رواها السابقون تحمل بعض هذه الإسرائيليات، ويحاول تأويلها تارةً، والدفاع عنها تارةً أخرى، وكان الأحرى أن تهجر هذه الأحاديث ما دامت لا ترتفع إلى مستوى الصّحاح مهما تردّدت في كتب السابقين.

وقد أخذ الدكتور الذهبي على الرجل أنه يضطر إلى التأويل ـ حيناً ـ فيما لا جدوى معه في التأويل، لأنه مع حملاته الصادقة على الإسرائيليات في أكثر المواضع يعلّق في مواضع قليلة بما يُفهَم منه الارتياح إلى مغزىً يلتمس في مطاويها.

ومثال ذلك ذِكْره لأُسطورة هاروت وماروت في تفسير آية البقرة: ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، يعلّمون الناس السّحر، وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ [البقرة ٢، آية ١٠٢] فإنه بعد أن أنكر هذه القصة، كما رَوَتها الإسرائيليات، وأيّد مَن أنكرها من كبار المفسّرين قال: «ولعلَّ ذلك من باب الرموز والإشارات فيُرادُ بالملكيْن: العقل النظري، والعقل العملي، اللذين هما من عالم القدْس، ويُراد بالمرأة المُسمّاة بالزهرة ـ وقد ذكرها أصحاب الإسرائيليات ـ النفس الناطقة، ومِنْ تعرّضهما لها ما يُسْعِدها، ومِن حملهما إياها على المعاصي تحريضُها إياهما على الميل إلى السفليّات المُدنّسةِ لجوهريهما».

ومضى في مثل ذلك، مما علَّق عليه الدكتور الذهبي رحمه الله بقوله ص ١٥٢: «ولعلّه أدخل في باب الشّطط وقول الغلو أن تكون القصّة لا أصل لها، ثم نتكلّف تخريجها على ضرب من الرمز والإشارة»(١).

وإذا كان الدكتور الذهبي قد انتقد هذا المسلك، ووصفه بالشّطط والغلوّ، فإن أمثلته قليلة جدّاً في هذه الموسوعة الحافِلَة بالروائع الدقيقة حقّاً، ويطول بنا

(١) الإسرائيليات، للدكتور الذهبي، ص ١٥٢.

القول لو أردنا الاستشهاد بفرائد من نفائسها الغالية، ولكننا نستشهد بما ذكره المفسِّر الكبير في تفسير سورة (صٓ) لنؤيده في موقفٍ، ونعارضه في موقف آخر، فهو في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وهَلْ أتاك نبأُ الْخَصْم إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَاب. إِذْ دَخلُوا عَلَى دَاوُدَ ففزعَ مِنْهُمْ قالُوا لَا تخفْ خصْمَان بَغى بَعْضُنا عَلَى بَعْض فاحْكُمْ بيْننا بالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاط. إِنَّ هذا أَخِي لهُ تِسْعٌ وتِسْعُون نعْجَةً وَلِيَ نعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطاب. قال لقدْ ظلَمَك بسُؤَالِ نعْجَتِك إِلَى نِعَاجه وَإِنَّ كَثِيراً مِن الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ [صٓ ٣٨، آية ٢١ ـ ٢٤].

وهو في تفسيره لهذا النص يستعرض كلّ ما قيل، وكأنه يستشعر ناقِداً يؤاخِذُه على سَردِ بعض الأخبار الواهية فيقولُ عقب هذا الجمع المستوفي الشامل لما قيل: «ونحن نعلمُ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام معصومون من الخطايا، لا يمكن وقوعهم في شيءٍ منها، ضرورة أنَّا لو جوَّزْنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع، ولم يُوثق بشيءٍ مما يذكرون أنّه وحي الله تعالى، فما حكى الله تعالى في كتابه يمرُّ على ما أراده الله تعالى، وما حكى القصّاص مما فيه نقصٌ لمنصب الرسالة طرحناه.

ثم قال: وعندي أنَّ ترك الأخبار بالكليَّة في القصَّة مما لا يكاد يقبله المنصف»!! نعمْ لا نقبلُ منها ما فيه إخلالٌ لمقام النبوّة، ولا نقبل تأويلاً يندفع منه ذلك، ولا بدّ من القول: بأنه لم يكن منه عليه الصلاة والسلام إلّا ترك ما هو الأولى بعُلَى شأنه، والاستغفار منه، وهو لا يُخلّ بالعصمة.

هذا ما علّق به على الأخبار الدائرة حول داود، ونحن معه في كلّ ما دافع به عن عصمة الأنبياء، ونقدّر وجهة نظرهِ في تتبّع الأخبار لتنقيتها والتعقيب عليها.

ولكنَّنا نضطر إلى مخالفته في موقف آخر حين تعرض في هذه السورة الكريمة إلى تفسير قول الله عن سليمان عليه السلام: ﴿ ووَهَبْنا لِدَاوُدَ سُليْمَان نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب. إِذْ عُرِض عَليْهِ بالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجيَادِ. فقال إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخيْرِ عن ذِكْرِ ربِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجَابِ. رُدُّوهَا عَليَّ فطفق مَسْحاً بِالسُّوق وَالأَعْناقِ ﴾ [صٓ ٣٨، آية ٣٠ ـ ٣٣].

فقد أشبع هذه الآيات شرحاً وتحليلاً، راوياً كلّ ما قيل عنها حقيقةً ومجازاً وموضِّحاً وجهة كلٍّ قول، ومكان الضعف والقوة فيه، وتلك سعةٌ شاملة نعرفها للشهاب مُباهين، ولكننا نجده ينقل عن الفخر الرازي شرحاً مُحكماً ممتازاً من أجمل ما وُفِّق إليه صاحب «مفاتيح الغيب» ومن أبدع ما انتهى إليه فكره الرصين.

أقول: إننا نجده ينقل هذا الشرح الرائع المعجب بقوة دليله، وسطوةِ برهانه، وغزارة تدفّقه! حتى ليظن القارىء أنه ينقله نقل المستطعم للغذاءِ المريء الهنيء، ولكنه يجد الألوسي، يعقّب عليه بما ينقضه استناداً لروايات ضعيفة لا ترتفع إلى مستوى الصّحاح! ولا يخفى أن تلمسَ الشُّبهات تلمّساً مما لا يُعيي أحداً من رجال التأويل، لأن أشعة الجدل تمتدّ إلى المرمى البعيد، ولن يحاول حصرها في حيِّزها المعقول إلاّ مَن توسّط بين البسط والتطويل، والإيجاز والتحديد.

ثم يقول الألوسي تعقيباً على نقده للفخر: «وبالجملة قد اختلّت أقوال هذا الإمام في هذا المقام، ولم يُنصفْ مع الجمهور، وهم أعلم منه بالمأثور، نعم ما ذكره في الآية وجهٌ ممكن فيها على بعد إذا قطع النظر عن الأخبار، وما جاء عن السّلف من الآثار» وواضحٌ أن هذه الأخبار التي اهتمَّ بها الألوسي وجعلها موضع الترجيح، ووسيلة الدفاع لم تجدْ من الفخر مصدِّقاً! والوقوف عند ظاهر النص القرآني أولى وألزم إذا سكتتْ عن تأويله الروايات الصِّحاح.

وللألوسي اهتمامٌ بالتفسير الإشاري، إذ يذكر عقب كلٍّ نص ما يوحي به الذّوق المستشفُّ للقارىء المتأمّل، وأصحاب التفسير الإشاري ـ من أمثال الألوسي ـ لا يعتقدون أنّ ما يتذوّقونه من اللّطائف تفسيرٌ مفروض لا مَحيد عنه، ولكنهم يأْخذون من إيحاءِ الألفاظ ما يعتبرونه متصلاً بالمعنى الأصلي على خفاءٍ لا يظهر لغير أرباب البصائر.

وقد فرَّق العلماءُ بين التفسير الصّوفي والتفسير الإشاري، لأن صاحب التفسير الصّوفي يرى أنّ قوله هو الرأي الوحيد الذي لا تنصرف عنه الآية، وذلك باطل لا لَبْس فيه، أمّا صاحب التفسير الإشاري فيرى أنّ المعنى الظاهر هو الجدير أولاً بالاعتبار، ولكنَّ ما تشير إليه الآيات عن طريق الإيحاء والرمز قد يُهتدى به في جلاءِ الغوامض واكتناه الأسرار.

وللشاطبيّ وابن الصلاح وغيرهما من جلّة الفقهاء أقوالٌ مبسوطة عن هذا التفسير يرجعُ إليها مَن يريد التوسّع، ونحن هنا لا نرجِّح اتجاهاً خاصّاً، ولكنٍ نذكر صنيع الألوسي في تفسيره تاركين ما قاله في مقدّمة التفسير عن هذا الضَّرب الإشاري دون مناقشة ليرجع إليه مَن يتصدّر للمنطق الفَصْل عن اقتدار.

وللشهاب ولوعٌ بالتاريخ، وقد كتب فيه فصولاً لا تزال مخطوطة، ولكنَّ تلاميذه تحدّثوا عنها بإشباع، ولعلَّ من أصحّ ما قاله الأستاذ عباس الغزَّاوي وهو من أفاضل مؤرِّخي العراق، وأحد مَنْ تشبعوا بآثار الشهاب تشبُّعاً مليئاً: ما نصّ عليه من أن العصر الحديث في العراق يجب أن يُسمَّى عصر الألوسي، لأنه كان المِصباح المُضيء في كل اتجاه، حيث رفع الأسلوب العلمي بتأليفه المتشعِّب في النحو، والفقه، والتفسير، والتاريخ، كما امتدّ نفعُه إلى تلاميذه الذين نهجوا نهجه، فكان أُستاذاً كبيراً لمدرسة في التأليف، ولولاه لتأخّرت النهضة العلمية في العراق إلى مدىً بعيد.

ولقد كان للإمام الكبير مُعارِضوه الذين يناقشونه الرأي العلمي مناظرةً وتأليفاً، وهؤلاء أيضاً بعض الثمار المتساقطة من دوْحه، لأن وجودهُ قد دفعهم إلى البحث المتّئد، فسموْا بأنفسهم إلى مُحاورته، بعد أن تتلمذوا على يده، وهي محاورة حميدة العُقبى، خالِصةُ الفضْل، لأنها سَلِمَت من لجاجاتِ المُماحكة، ودغل الغرض، واتّجهت إلى الحقيقة الخالصة تكشفُ عنها ما علق بها من الضباب.

وإخال الشهاب الألوسي كان سعيداً كلّ السعادة بمُعارِضِيه، حين امتشقوا سلاحاً درَّبهم على استعماله في مواقف النضال، فكانوا جنوده الباسلين.

مصطفى عبد الرازق
بين المنحى العلمي والسلوك الإنساني

- ١ -

كان مصطفى عبد الرازق أول أُستاذ للفلسفة الإسلامية بمصر، وكان من حظّ هذه الفلسفة أن يكون شارحُها ودارسُها حكيماً بطبعه، فيلسوفاً بمسلكه، متمكِّناً من مادته تمكّناً يجعله صاحب رأْي مسيطر ينفذ إلى اللباب في قوَّة، ويؤكد الصحيح عن يقين، وينفي البهرج عن رسوخ.

ثم هو من وراءِ ذلك سَمح العبارة، لطيف المؤاخذة، هادىء النبرة، لا يقعقع في جلبةٍ، ولا يُكاثر بما يفتح الله به عليه من سَداد، بل تعصمه الحكمة العاقلة، عصمة مَن يقدر مكانته من مادّته الدقيقة، فيعرف كيف يصبح موضع الرّضا من ذوي النزاهة البريئة.

ولعلّ أعجب شيءٍ في حياة مصطفى أنه لم يكن موضع الرضا الصادق من ذوي النزاهة البريئة وحدهم، بل كان موضع الرّضا من ذوي الغرض أيضاً، لأن سلوكه الرشيد في الأخذ والردّ، والدّفع والجذب، كان موضع الدهشة لديهم، فما استطاعوا أن يُصاوِلوا إنساناً تدلّ صفحاته على التسامح الغافر، ومناقشاته على الترفّع المثالي في غير ادِّعاءٍ، لقد سيطر الرجل عليهم بحلمه النادر فسكتوا مبهورين.

قلت: إن الرجل كان فيلسوفاً بمسلكه وهذا حَقٌّ يعترف بـه كلُّ مَن اتصـل به مِن زملاءَ وطُلَّاب، والفلسفة، هي حبّ الحكمة كما نعلم، ولن تكون الحكمة في غير الاعتصام بالفضائل الخلقيَّة، والتمسّك بالمحامد النفسيَّة.

إنّ فـلاسفة الأخـلاق يُطيلون الحـديث عن السلوك الإنساني المنشـود لذوي المُثُل، ولكنَّ أكثرهم يعرف القول ولا يعرف العمل، أما مصطفى فقد كان بسلوكـه المثالي صورة موضّحة لفضائل النفس الإنسانية، فقرَّب بذلك حقائق هذه الفضائل تقريباً مشهـوداً، بحيث أصبح وجـوده تطبيقـاً عمليّاً لمـا خاض فيـه فلاسفـة الشرق والغرب من معانٍ هادفةٍ في مضمار السلوك الإنساني، وقطع بذلك كل طـريقٍ على مَن يعتقدون أن المثالية أملٌ منشود لا حقٌّ واقع.

وهـل تغيب المثاليـة عن قـومٍ يـرَوْن أُستـاذاً من أعْـرق الأُسَـر، يتقلَّدُ أرفـع المناصب، ثم هو ينتفض واقفاً أمام امرأة مسكينة تفدُ إليه في مكتبه بوزارة الأوقاف طـالبةً عـون المحتاج! ينتفض واقفـاً، ليسمـع الشكـاة في ألم، ثم لا يجلس حتى يصدر الأمر بـالإنفاذ، ويـطرق مفكّراً فيقـول له جليسـه: قد فعلت مـا أملاه عليـك واجبُك، ففيمَ التفكير؟ فيبتسمُ الشيخ في مرارة، ويقول: كم لها من أمثـال عجزْن أن يأتين هذا المكان، لهنّ الله!.

أذكر أني كتبت بمجلة الثقافة[١] مقالاً، يلمّ ببعض مواقفه النبيلة، مستشهـداً بروائع فذّة، تكمِّل ما نبحث عن تمامه من جوانب العظمة النفسية لدى المثـاليِّين، ولن أُعيـد هنا مـا قلت، حيث نويت أن أُقصِـر هـذا البحث على التعـريف العلمي بـآثار مصـطفى عبد الـرازق، التي كان لهـا مكان الـريادة القـائدة في عـالم الفكـر الأصيل، فإذا تحدّثت عن شذورٍ من حياته العملية فلكي أرسم الإطار المحـدَّد لما أُريد من حديث الفكر الخالص، فتـظهر الصـورة الصادقـة في إطارهـا الطبيعيّ في يُسْر قريب.

نشـأ مصطفى في بيت علم وجـاه، إذ كان جـدّه من كبـار قُضـاة الشـرع في عصره، وله ذيوعٌ ممتد بالعلم والكرم، أمـا والده فقـد تعلَّم بالأزهـر، ودرس كتبه،

(١) الثقافة، عدد مايو، سنة ١٩٧٩ م.

ثم اتَّصل بالسياسة عَلماً ذا رأْي مسموع في مجالس النيابة، ومواقف السياسة، وقد شارك الشيخ محمد عبده في مواقف كثيرة، فانعقدت بين الرجلين أواصر الصداقة، ونشأَ مصطفى، فاتّجه به والده إلى الدراسة الدينيَّة، وجعلَ ينظر فيمَن يتصدَّرون للعلم بالأزهر وخارجه، فلا يجدُ أَنْبه مِن الأستاذ الإمام ذكراً، ولا أكثر منه تأثيراً ونفاذاً.

ثم أُتيحَ له أن يشاهده عن عيانٍ حين كان يزورُ أباه، وأن يستمع إلى حواره متحدِّثاً في العلم، ومناقشاً في السياسة، وأن يقرأ مقالاته في الصُّحُف، وآراءَه في الكتب، وأن يجلس إلى بعضِ دروس التفسير في الرّواق العباسي، ليجدَ في دروس الإمام غير ما يعهدُ في دروس سواه.

أُتيح له ذلك كله، فذهب الشيخ محمد عبده بإعجابه في كل مَنْحىً من مناحيه، واتّقدت في نفسه رغبة في الكتابة الأدبيَّة، والخطابة التوجيهيَّة، فأنشأ مع إخوته صحيفةً منزلية قام على تحريرها الطالب الأزهري الناشىء، واشترك مع أخيه علي في طِباعةِ النُّسخ على أوراق الكربون، وفي توزيعها على أفراد العائلة، وانتقل من هذا الحيِّز الضيِّق سريعاً إلى ميدانٍ فسيح، حين اتَّصل بالجرائد اليوميَّة كاتباً قبل أن يبْلغ سنَّ العشرين، ثم سَمَت به همَّتهُ إلى أن يُفصِح عن ذاتِ صدره إلى الأستاذ الإمام.

ومَن يعرفُ حياءَ مصطفى، وشدّة حسَاسِيَّته يقدِّرُ شجاعته الأدبيَّة حين خطَّ كتاباً إلى أُستاذه يحدِّثه عن حيرته البالغة، إذ يجدُ نقصاً في وسائل التعليم الأزهري لعهدِه، وانكماشاً مع أساتذة الأزهر عن معالجة شؤون الحياة، وتراجُعاً في البلاد الإسلامية عن اتّباع منهج الإسلام، ممَّا أوقعه في أسىً بالغ لا يعرف السبيل إلى الخلاص منه.

وقد وقع خطاب مصطفى من الأستاذ الإمام موقعاً سارّاً بهيجاً، فكتب الردَّ بنفسه، وقال فيما كتب: «ما سُرِرتُ بشيءٍ سروري أنَّك شعرت في حداثتك بما لم يشعرْ به الكبارُ من قومك، فللَّه أنت، ولله أبوك، ولو أُذِنَ لوالد أَن يقابل وَجْه

ولده بالثَّناءِ لسُقتُ إليك من المديح ما يملأُ عليك الفضاءَ، ولكنني أكتفي بالإخلاص في الدعاءِ لك، أن يُمتّعني الله في نهايتك بما تفرَّسته في بدايتك».

ولم يكتفِ المُصلِح الكبير بالرّدّ التحريري، بل سأل عنه في زيارة خاصّة به كانت موضع ارتياح الوالد الكبير، واستمع الأُستاذ إلى تلميذه مقدِّراً موجّهاً، ومجلسٌ تربويٌّ كمجلس الإمام من تلميذه، لا بُدَّ أن ينفخ فيه من روحِ اليقظة ما يُشعِل في صدره جذوات الإصلاح، ويدفعه دفعاً إلى أدواته الأُولى من اكتمال التثقيف، وعُمْق الدراسة، وتفهّم روح العصر، وهذا ما كان عن واقعٍ ملموس ظهرت بوادره الناهضة في تفوّق مصطفى العلمي، وفي مواصلة الكتابة الصحفية، بل إن روح الإمام، قد أذكتْ في نفسه بواعث الشعر، فاتّجه إلى مديحه بقصيدةٍ طويلة قال فيها:

أقبلْ عليك تحيَّة وسلامُ	يا ساهراً والمسلمون نيام
إنْ يقدروا في الغرب قدرك حقه	فلمصر أولى منهمُو والشام
كالبدر أَنّى سار يشرق نوره	والحقُّ أَنّى حلّ فهو إمام
فيك الرجاء لأُمَّةٍ لعبت بما	يُلهي الصغار، وجدّت الأَيام

* * *

ولم يشأ الحظُّ أن يمتّع الناشيء كثيراً بحياة أُستاذه، حيث فوجيءَ بانتقاله إلى رحمة ربّه، فأذكتِ الحسرة قلبه، ورثاه بقصيدةٍ حارَّة، تُنبيءُ عن شاعريَّة رائعة لم تجد سبيلها فيما بعد، فأخذت تترقرق فيما أبدع مصطفى من خواطر أَدبيَّة تحدّثنا عنها في غير هذا المجال، هذه الحسرةُ التي صدقت بواعثها المشجية في نفس صاحبها، فتفجّرت عن معانٍ صادقة لا يلمُّ بها غيرُ مَن كان ذا قلبٍ حافظ، وعمَلٍ واعٍ، وودٍّ بالغ الإخلاص، وحزن لافح الفجيعة مما دفعه أن يقول:

يا دفين القلوبِ قد هابَك الدهر	فكيف اعتدى عليك الحمام
كنت طوداً إذا الخطوب ادلهمّت	لم تنلْ همّك الخطوب الجِسام
كنت حيَّ الفؤادِ تصدع بالحق	فتلوّي عنانها الأوهام

رجـلٌ كـان حيـن يسـلك فـجّـاً   تـتـحـامَـى طـريـقـه الأيَّـام
إنَّ قلبـاً أصـفـاك بـالـودِّ حـيّـاً   صـدَّعـتـه بـمـوتـك الآلام

وأكبر من الرثاءِ الشعري، وأبعد منه أثراً في الحياة أن يعيش مصطفى ما بقي من عمره متحدّثاً عن آراءِ أُستاذه، ومؤرّخاً أدواره الإصلاحية، وشارحاً نضاله السياسي والتربويّ، ومترجماً آثاره العلمية.

وإذا كان السيد محمد رشيد رضا قد بلغ في هذا المضمار ما لا مزيد عليه في الشَّرق، فإن مصطفى بترجمته ما اختارَ من آثار الإمام العلمية إلى الفرنسية قد انتقل بثمار الإمامِ إلى أرض جديدة، حين قدّم صورة صحيحة للعقيدة الإسلامية كما كتبها إمامٌ كبير، فأعطت الوجه الحقيقي لملامح الإسلام في وقت كثرتْ فيه المُفتريات المُغرِضة، وتنوّعت الأباطيل.

نعرف أنّ الإمام محمد عبده لم يَلْقَ غير المعارضة الصارمة من الرسميِّين في الأزهر، ولكنَّ بذرة الإصلاح التي غرسها في مصر، قد نَمَتْ وترعرعتْ بعد وفاته بجهودِ تلاميذ كبار عشقوا مبادئه، واتّخذوهُ قدوةً وإماماً.

وكان مصطفى أحد الذين رأوا في إحياءِ تعاليم الإمام واجباً إسلامياً تفرضه الغيرة الدينيَّة، وقد سافر إلى فرنسا واتصل بأئمة الفكر في أُوروبا، وحادث كبارَ الرؤُوس من أعلام الأدب والفلسفة والتربية، فما وجدَ في هؤلاءِ مَن يملأ مكان أُستاذه من قلبه، ثم رجع إلى مصر ليجد الحرب العالمية الأولى قد ألْهتِ النّاس عن مبادىءِ الإمام، وليرى أسماءً تملأ الصُّحُف وتشغلُ الأذهان لا يرتقي أصحابها إلى مستوى أُستاذه، فرأَى أَنْ يحاضر وأَن يؤلّف في حركةِ الإصلاح الديني التي ملأت حياة شيخه، وأن يجعلَ منها شاغلاً للمفكّرين، لأن رحيله ورحيل الطبقة المغرضة من مُعارِضِيه، قد مهّد للآذان المحايدة أن تسمع كلمة الحق.

وإذا كانت مجلّة المنارِ قد تكفّلتْ بشرحِ آراءِ الإمام، فإنّ منحى صاحبها في التفكير على سداده يغايرُ منحى مصطفى، فالسيد محمد رشيد رضا صاحبُ مجلّة، وله خصومٌ ومنافسون، وفيهم علماءُ يصاولونه بلسانٍ صارم، فيضطر إلى منازلتهم بسلاحِهم.

وقد تعدّدتِ الجولات دون تركيز، فرأى مصطفى أن يعمد إلى لبّ الإصلاح في منهج أُستاذه، ليعرضه أمام الناس بعيداً عن حومات الصراع، وقد عرف الناس له في ذلك أثرين خطيرين، كتب أحدهما تحت عنوان: (الشيخ محمد عبده ووجهته في الإصلاح الديني) وقد حصره في مقالاتٍ خمس، تتحدّثُ عن أدوار الإمام في الإصلاح، فنقل من أقواله ما يحدّد هدفه الإصلاحي حين دعا إلى التوفيق بين العقل والشرع، وتابع الشيخ في أدواره المتوالية منذ كان طالباً في الأزهر يكتبُ المقالاتِ في الأهرام حتى أصبح مُفتياً للديار المصرية.

وإذا كان جمال الدين الأفغاني ذا أثرٍ بارزٍ في حياة الأستاذ الإمام، فقد تحدّث عن مواضع الوفاقِ والخلافِ في اتجاه المُصلِحَيْنِ الكبيرَيْن، ونقل من آراء الإمام، في ردّه على المسيو هانوتو، وفيما كتبه في مؤلّفه عن الإسلام والنصرانية ما يوضح تصوّره الديني تمام التوضيح، مبيِّناً تفاؤلَ الإمام بمستقبل الإسلام، هذا التفاؤُل الذي اعتمد على أُصول راسخة في الأساس الإسلاميّ قرآناً وسُنّةً، تشريعاً ومنهجاً، ومن هذه الأصول تحرير الفكر من التقليد، لأنّ النظر العقلي هو أساس الإيمان الصحيح، المقرون بطمأنينة النفس، واستقلال الإرادة، وقد نقل عن الإمام قوله في هذا المجال: «إنه لا يقين مع التحرّج من النظر، إنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان، طولها وعرضها، حتى نصل إلى الغاية دون تقييد».

أما الأصلُ الثاني فاعتبارُ الدّين، من موازين العقل، وعدّه صديقاً للعلم، إذْ لا سبيلَ للعداوة بينهما، لأنَّ الدين باعثٌ على العرفان، ومُطالب باحترام الدليل والبرهان، حاثٌّ على دوام النظر والتأمّل، وتلك سبيل العلم، فأين يوجد الاختلاف؟.

ويوجز الأستاذ الأصل الثالث في فهم الدين على طريقة السّلف قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، إذ تجبُ تنقية الفكر الإسلامي مما علق به من الشوائب، دون التقيّد بنصوصٍ لا تثبت للنقاش، وفيما شرحه الأستاذ من آيات القرآن ما يرسم التطبيق العملي لما يدعو إليه من هذا الفهم الخالص من القيود، وقد اتّسع المجالُ أمام مصطفى للحديث عن منهج

الأستاذ في تفسير كتاب الله، وكلّ ما قاله دقيقٌ صائب، وقد أعاد نشر هذه المقالات في خاتمةِ كتابه عن «الإمام الشافعي» بعد أن جمعها من جريدة السياسة، إذ كانت مجال النشر المبدئي لهذه الآراء.

ونلحظ أن مصطفى عبد الرازق كرّر الحديث في مقالاته الكثيرة عن مؤاخاة الدِّين للعقل، متأثّراً بما أكّده الإمام، وهذا التكرّر المتواصل ردٌّ مُلِحٌّ على جماعة من المفكّرين طابَ لهم أن يعلنوا أن للدين منطقةً لا يتعدّاها وهي منطقة القلْب، وللعلم منطقةً أُخرى هي منطقة العقل، ومحاولة فهم الدين والعلم معاً في غير مجاليهما هذين، ممّا تضرّ الدين، إذ تقفُ به أمامَ سدود ناهضة لا يستطيع اجتيازها، وهذا فكرٌ أُوروبي أراد الخلوص من معضلات عسيرة الحلّ، ولكنّ قوماً من المسلمين رأوا أن ينقلوه إلى الشرق دون داعٍ، فالإسلام دين واضح العقيدة سهل الفهم، تنادي آياتُ كتابِه بالنظر العقلي، ولكلّ رأي دليلُه الواضح، وبرهانه الشّاهد، فلماذا نلبسه بغيره، ونقرنهُ بسواه؟.

إنَّ إلحاح الأستاذ مصطفى عبد الرازق على تكرار هذه الناحية نتيجةٌ محتومة لردّ ما يَسمعُ من أوهام يردّدها بعض الناس على غير هدىً وبصيرة، وفيهم مَن لا نشكّ في نيَّاته، ولكنّه أخطأ الطريق.

ونتحدّث عن الأثر الثاني عن الإمام من مؤلّفات تلميذه، وهو محاضرات ألقاها بالجامعة الشعبيّة، وجمعها ـ بعدُ ـ في كتاب خاصّ يضمّ سِيرة الإمام في حيّز لطيف، لا يمتدّ به الاستطراد إلى مجاهل شاسعة، والتلميذُ الحصيف خيرُ مَن يتحدّثُ عن أستاذه الرائد، لأن أخلاق محمد عبده وعبقريته وسلوكه السياسيّ، وبصيرته النافذة إلى أدقّ المنعرجات، تحتاجُ إلى تناولٍ هادىء ذكيّ من إنسان عصري نشأ نشأة الإمام العلميَّة، وأدرك ما كابد من مرهقات، وعرف جوهر ما يدعو إليه من الإصلاح، وخالط من زملاءِ الإمام وحوارييّه ومُنافِسِيه مَنْ أعانوهُ على استجلاءِ الغوامض في اطمئنان.

وقد وقف الكاتبُ على حقائق تربوية ساقها في سمتٍ هادىء، وهي مما يدعو أعلام الثقافة التعليميَّة إلى مُعاودتها الدراسة كأن يقول:

«وعندي أنَّ قراءته ـ الصبي الصغير ـ القرآن وحده، حفظْته من العيوب الكثيرة للتعليم في الكتاتيب، إذ سلّم الأستاذ في مدة تعلّمه الأولى من التشويش الضارّ، بعقله وبنيته، ومن القسوة التي تخمد نزعاته إلى الحرية والنشاط».

وأن يقول: «تلقَّى الشيخ محمد عبده ـ بادىء أمره ـ العلومَ عن صفوةِ علماءِ عصره على الطريقة الأزهرية التي تصبغُ العلوم بصبغة دينيَّة تجعلُها مقرَّرةً، كل عمل العقل فيها أن يحفظها، ويحفظ أدلّتها المقررة، أو يحفظ شواهدها».

ولسنا في مجال التحليل لأمثال هذين الشاهدين، ولكننا نجزمُ أن أَثر البيئة المثقفة التي أوجدها جمال الدين الأفغاني كانت المُلهِم الأول للنابغة الناهض، وهذا ما أوضحه الأستاذ في كتابه، إذ تعرّض إلى شتّى مواقف الإمام العملية صحافةً وسياسةً ومنصباً وعراكاً، وكان من تواضع مصطفى أن يقول في مقدمة كتابه عن أُستاذه:

«نشأ الشيخ محمد عبده كما ننشأُ نحن الفلاحين حُفاة عاري الرؤوس، نجري في الأزقّة، ونسبحُ في البرَك والتِّرع، ونلعبُ بالتراب والأحجار، لا يُعنى أحد بتلقيننا في طفولتنا شيئاً من مبادىء الفهم والذّوق، ولكننا نتبت كالنبات البرِّي، يتغذَّى مما يصل إليه من مواد الغذاءِ، ويُثمِر شوكه وأزهاره، ولا يربّي في أنفسنا إلاّ الشعور بتهيّب الوالدين، وإجلالهما واحتذاءِ أمثالهما».

فإذا كان الشيخ محمد عبده قد نشأ هذه النشأة حقّاً، فإن مصطفى نَجْل حسن باشا عبد الرازق لم ينشأْ كذلك، ولكن تواضعَه الحبيب جعله يعتدّ نفسه جزءاً من أبناء الأزهريين الفقراء، الذين نشأُوا حُفاة عُراة الرؤوس!.

وأدلُّ في باب التواضع موقفه من السيد رشيد رضا، فنحن نعلمُ أنّ الأستاذ مصطفى عبد الرازق لم يترك الحديث عن جهاد الإمام تأليفاً ومحاضرةً وتدريساً طيلة حياته، وقد شاء قومٌ من أعداء السيد رشيد أن يسلبوه فضل الترجمة للإمام والتفسير العلمي لآرائه، وأن يذهبوا بهذا الفضل إلى مصطفى عبد الرازق، لخلوصه من النفع المادّي الذي ألصقوه ظلماً بصاحب المنار، ولو كان الأستاذ

مصطفى عبد الرازق ضعيف الخلق لآثرَ السكوت على أمرٍ لا يَدَ له في إثارته، وهو يضيف إليه فضلاً كبيراً حين ينزل بمقام سواه، ولكنَّ صاحب الخُلُق المثاليّ، يدفع ما يُقال في قوة حين ينتهزُ فرصةً مُتاحة فيقول عن الشيخ رشيد من خطابٍ وجّهه إلى تلميذه الأستاذ الدكتور عثمان أمين[1]:

«أول مَن ترجم للشيخ محمد عبده، وعُنِيَ بنشر آثاره، هو السيد محمد رشيد رضا، صاحب المنار، والسيد رشيد رضا هو أول مَن لقّب الشيخ محمد عبده بالأستاذ الإمام، وهذا اللقب نفسه يُنبىءُ بالصورة التي أراد أن يرسمها السيد رشيد لشيخه فيما كتب عنه، ويُنبىءُ بالفكرة السائدة في وجهة نظر التلميذ إلى أستاذه.

الشيخ محمد عبده عند السيد رشيد رضا إمامٌ من أئمة الإسلام، له في الدين مذهبٌ يقوم أصحابه على روايته وتدوينه، كما قام أصحاب أبي حنيفة والشافعي وغيرهما على ما لأولئك الأئمّة من مذاهب.

إذا كان الشيخ محمد عبده إماماً في الدين، فالسيد رشيد رضا لا شك صاحبه ومفسّر مذهبه ومكَمِّله وقد بذل مُنشىءُ المنار مجهوداً ضخماً في هذه الناحية، حافلاً بالمباحث الدينية والمناقشات الفقهية، كان له أثر غير ضئيل في توجيه الدراسات الشرعية في بلاد الإسلام المختلفة».

- ٢ -

كانت فرنسا قِبلَة المبعوثين من صفوة شباب مصر في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، وكان منهم مَن بهرته الأضواءُ فانخدع عن دينه وتقاليده بما شاهد من خوادع فاتنة، وفيهم مَن كان صلب العقيدة قوي الشكيمة، كعبد الحميد سعيد، وحسن عاصم، وقاسم أمين، ومصطفى كامل، فجابه كل تَحَدٍّ بالمنطق، وهاجم أعداء الإسلام في صُحُف باريس.

وقد ذهب مصطفى عبد الرازق شابّاً في رزانة الشيخ، وطالباً في حكمة أُستاذ، فَبَدَت دلائل فضله، واختير للتدريس بإحدى الجامعات فكان طالباً ومُدَرّساً

(١) رائد الفكر المصري محمد عبده، للدكتور عثمان أمين، ص ١٦.

في وقت واحد، وطبيعي أن يلتفّ به ذوو الخديعة من أنصار الإلحاد، وأن يفسحوا مجال الأسئلة والاعتراض، ومعهم كتب الطبيعيين ودُعاة الإباحيين، تعاضدها نظريات متطرّفة لرجال علوم النفس والاجتماع، وأصحاب نظرية التطوّر، مما عُدّ في ذلك العصر فتحاً جديداً للعلم، وتفسيراً ملموساً لظواهر الحياة.

كان هؤلاء جميعاً ـ غربيين ومستغربين ـ يجادلون مصطفى، ويناقشونه في أدقّ المسائل، فيجدون من هدوء الفيلسوف، ورزانة الحليم، وأناةِ العاقل الصابر ما يقف بهم موقف الدهشة، لأن النهج السقراطي في الحوار الهادىء المستفهم في غير ضجة، والمُجيب في غير تعالٍ، هذا النهج المتواضع الرقيق كان طبعاً لا تطبّعاً في خلق مصطفى فكان يترك محاوره ليبسط شكوكه الغالية، وهو يستمع إليها في ابتسام ويُظهِر من دلائل الارتياح ما يعتقد به مُحاوره أنه قد مَلَكَ عليه عقله، وأن ليس في مكنته غير التسليم، فإذا ما انتهى من حديثه أخذ مصطفى يسأل في لباقة، فيضطر صاحبه أن يُجيب؟

وتتوالى الأسئلة في أدب حتى يشعر المُجادِل أن آراءه قد تزعزعت، وهذا مسلك ندعو أصحاب الجدل أن يأخذوا به، لأن التشنّج الصاخب في النقاش، والفرقعة المدوّية في الأخذ والردّ، مما يُضعِف الحجّة، ويُظهِر صاحبها في موطن الضعف، وقديماً قال الجاحظ: إذا تناظر رجلان فانظر إلى أعلاهما صوتاً، وأكثرهما ضجيجاً لتعرف أنه الواهم.

ونضرب مثلاً ـ لبعض هذا النقاش الجادّ ـ ليكون أُنموذجاً حيّاً للمتناظرين:

قال مصطفى عبد الرازق: ملخّصاً قول بعض مُناقِشِيه حين تباحثا في بعض مسائل العقيدة:

«إن الإيمان بالله قد وصل عندي إلى حدّ الإذعان، وأما الرُّسُل فما أراهم إلّا رجالاً من صفوة أُممهم وهبوا أنفساً كبيرةً، وعقولاً راجحةً، فعملوا على إسعاد الناس وتقريبهم من الخير، ووضعوا لذلك قوانين هُدُوا إليها كما يهتدي الحكماءُ إلى وضع قواعد لإصلاح المجتمع الإنساني، ولمّا رسخ في يقينهم أن ما وصلت

عقولهم الصافية إليه هو الحق، قالوا: إنه من الله وسمّوه وحياً، وكأنما قولهم هذا من باب ثقة العالِم بعلمه، ولكنه لا يجعل آراءهم بنجوة من تمحيص العقول، ولا يمنحهم الثقة فوق ما يكون لإخوانهم من الحكماء المُصلِحِين».

هذا هو الرأي الذي جُوبِه به مصطفى، فماذا كان موقفه منه على خطورة مرماه؟ لندع الأستاذ الأكبر يتحدّث عن نفسه، فيقول:

سمعت قوله كله بإصغاءٍ تامّ، ولم أقطع عليه الطريق في حديثه، ولا أظهرت له إنكاراً، ولم يُيئِسني عدوله عمّا أعتقده الحق من عدوله إليه، ذلك أنه يتكلم برَوِيّة، ومَن كان هكذا عظم الرجاء فيه.

أخذت أولاً في اختبار إيمانه بالله لأذهب به من طريق الترتيب الطبيعي وحده، فوجدته لا يخالف في شيءٍ يتعلّق بربّه، فانتقلت إلى أمر الآخرة، فقال إنه في شكٍّ منها ولم يُعْطِها حظّه من النظر فقلت في صراحة هادئة: إن الإيمان بالحياة الأخرى يجب أن يكون موضع بحثك قبل أن تصل إلى بحث «الرُّسُل والرسالة» لأن الفطرة تقضي أن ينال المُحسِن ثواب إحسانه، وأن يُسأل المُسيءُ عن إساءته، ومَن أيقن بالله وآمن بحكمته لا بدّ أن يُوقن أنه لم يخلق الناس سُدىً ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون ٢٣، آية ١١٥].

قال صاحبي: لا بدّ لي من أن أُفكّر في ذلك فدع اليوم الآخر، وتحدّث معي في أمر الرسالة والمرسلين.

قلت في هدوء: إذا كان لا بدّ من حساب وسؤال وجزاء وعقاب، فلا بدّ من رسول يهدي البشر، قال صاحبي: هو العقل، فقلت إن كثيراً من تعاليم الرّسل لا يستقلّ العقل بها، وقد جاءَ كل رسول بمعجزة تؤيّد قوله، والعقول تختلف، فلا بدّ من رسول يحسم الاختلاف.

هنا قد مَلَكَ مصطفى مقطع الرأي، ولكنه قال في تواضع: لقد نازعني صاحبي ونازعته ثم سكت وسكتّ فتركته لنفسه، يعرض الأدلة ويراجعها، ووددت

أن يبادر شبابنا بطلب اليقين إذا تلجلج في صدورهم الشك، فذلك أحرى أن يقتلع الشُّبُهات قبل رسوخها[1].

لا أجد ما أُعلّق به على هذا الحوار، غير أن أعدّ من التوفيق الإلٰهي أن يكون مصطفى عبد الرازق أول أُستاذ للفلسفة الإسلامية في الجامعة المصرية، لأن الجامعة حين أُنشئت كانت تحتاج إلى مثله، فبعض أساتذتها من الغربيين والمستغربين كانوا يدأبون على زعزعة القواعد الأصلية من أُسس الإيمان.

والفلسفة ذات خطر إذا قام على تدريسها مَن لا يمسّ الإيمان شغاف قلبه، وفيهم ـ للأسف ـ مَن يجد الإلحاد مظهراً من مظاهر الرقيّ الفكري، ويعمد إلى شذور من أقوال الطبيعيين يملأ بها فكّيه متعالياً، وكأنه خاضَ بحاراً ذات عمق غائر، ليأتي بما يتعذّر الحصول عليه من أصفى اللآلىء والدّرر، وقد أشاع هؤلاءِ بلبلة فكرية، كان مصطفى وبعض زملائه خارج الجامعة وداخلها ممّن عاونوا على تبديدها.

ونجزم بأن التكوين الخلقي للأستاذ الأكبر كان عامل جذب قوي لكل مَن عاشره، واختلط به في المحيط الجامعي، أو المجتمع العامّ، إذ انفرد بين الأساتذة بطابع مؤْنس ذي بشاشة وإقبال، حتى كان كلّ مَن يعرفه يعتقد أن بينه وبين الأستاذ واشجة خاصّة.

ولعلّ ندوته العلمية التي كانت تنعقد في منزل والده الكبير بعابدين، ما كان لها أن تستمر أكثر من ربع قرن إلّا بمؤانسة إنسان عظيم الشمائل كمصطفى، إذ كان يَفِد إلى هذه الندوة أُناس ذوو ثقافات وطبائع مختلفة، فمنهم المحافظ العريق، والمجدّد المتطلّع، والمؤْمن والشاكّ، ومَن اقتصر على ثقافة الشرق، ومَن اتجه وجهة الثقافة الأوروبية، ومَن يجمع بين الثقافتين، ولكلّ هؤلاءِ من مصطفى بشاشة وارتياح، فكأنه قد عرفهم جميعاً وعذر المُخالف، وأيّد الموافق، ولاقى المتشدّد بالسّماح، والعابس بالبشاشة، وذلك سلوك قد اضطره إلى كظم المواجد،

---

(١) مجلة الرسالة، العدد الممتاز ٢٤٦، سنة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م.

حتى أصبح ذلك الكظم سِمَة خاصّة به أحسن الأستاذ العقّاد تحليلها، ضارباً عدّة أمثلة لها من حياته[1].

وطبيعي أن يكون هذا السلوك ديدنه في البيئة الجامعية، وهي لعهده كانت أحفل بالمتناقضات وأجمع للغرائب، فبعض الأساتذة من أوروبا على اختلاف دولها يُزامِلون نفراً من أساتذة مصر، وبعض الطلاب من مصر، وبعضهم من الدول العربية الشقيقة، ومن الدول الشرقية الصديقة، ولجميع هؤلاء لدى مصطفى احتفاء وتقدير، كما أنهم يُجمِعون على إكباره، ويترسمون خُطاه لو يستطيعون، ونترك لأحد تلاميذه الأستاذ الدكتور عثمان أمين أن يتحدّث عن سموّه الخلقي كما لمسه طلابه في كلية الآداب فيقول:

«كان أُستاذنا يعتقد أن هناك شيئاً فوق العلم وفوق الفن، وهذا الشيءُ هو ما يطلق عليه اسم الأخلاق، وقد كان الفلاسفة الرّواقيّون يسمّونه فنّ الحياة، وهو أعلى الفنون، لأن موضوعه هو الجمال بمعناه الصحيح، أي جمال الروح، وكان يرى أن الأخلاق ينبغي أن تكون فنّاً للحياة، أي أن ترسم قاعدة ثابتة لسلوك الشخص مع نفسه، وبإزاء الله والناس، بمعنى أن يكون للإنسان في حياته موقف مقرّر، وخطة مرسومة، حتى لا تتجاذبه الأهواءُ والانفعالات، فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة كان حكيماً، وآية الحكمة هي ما يلازم سلوك الإنسان من ثبات واستقرار.

وكان أستاذنا يقول: إن بناء المجتمع يجب أن يقوم على الأريحية والإيثار، أي على الشعور بأنّا جميعاً أُسرة واحدة متصافية متآزرة متعاطفة، وإن علاج الأمراض الاجتماعية يتطلّب إصلاحاً أخلاقياً يكفل الانسجام والائتلاف بين طبقات الأمة، ويوجّه النفوس إلى الخير المفطور فيها، فتخلص القلوب من أدران الحقد والأنانية[2].

وإذا كان مصطفى لم يؤلّف كتاباً يرسم منحاه الخلقي، فقد كانت حياته كتاباً واقعياً عملياً للخلق المنشور، وكم ترك علماءُ الأخلاق من مؤلّفات، ولكن أحدها

---

(١) مجلة الكتاب، مقال العقّاد عن مصطفى عبد الرازق، إبريل، سنة ١٩٤٧ م.

(٢) رائد الفكر المصري محمد عبده، للدكتور عثمان أمين، ص ٢٦١.

لا يبلغ منزلة حياة نبيلة لإنسان مثالي حاول التطبيق بنفسه، بعد أن شاعت القاعدة شيوعاً مكروراً، إذ لا يُماري أحد في نفاسة الإتجاه المثالي، ولكن البلوغ إليه شأو بعيد.

قلت ـ فيما سبق ـ إن من حظّ الفلسفة الإسلامية أن يكون مصطفى أول أستاذ لها بالجامعة وأُعيد ذلك لأُؤكد أن أستاذ الفلسفة الإسلامية الحقيقي لا بدّ أن يدرس العلوم الإسلامية دراسةً هاضمة، ليصل إلى الحقائق العلمية في نفاذ شفّاف تدعمه الأصالة الراسخة، ويمدّه البحث المتواصل، إذ إننا رأينا بعض مَن تصدّوا لأستاذية الفلسفة الإسلامية، بعد مصطفى قد باعدوا ما بينهم وبين دراسة العلوم الإسلامية واكتفوا بما قرؤوه عن أساتذة الاستشراق، بل إن فيهم مَن لم يتمكّن من دراسة عَلَم إسلامي واحد في مراجعه الأولى لدى أئمته السابقين.

وقد كتبوا عن الفلسفة الإسلامية فملئوا الصفحات بأوهام المستشرقين، تلك التي تصدَّى مصطفى عبد الرازق لِدَحضها في كتابه الرائع (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) وعنوانه يحمل من التواضع ما لا يَفِي بقدره، فليسَ الكتابُ تمهيداً فحسب، ولكنه جاوز التمهيد إلى الأبواب الأصيلة في الفلسفة.

ونفعُ هذا الكتاب لا يقف عند طلاب الفلسفة الإسلامية وحدهم، بل يمتدّ إلى طلاب الفقه والتوحيد والتصوّف، إذ رأى مصطفى أنّ هذه العلوم ذات أُسس أصيلة من أساس الفلسفة الإسلامية الحقيقية، وهي مما تثبتُ أصالة هذه الفلسفة واستقلالها عن الفلسفة اليونانيّة إذ دأب كثيرٌ من الكاتبين على النهج الغربي أن يصِمُوا الفلسفة الإسلامية بأنها نَقْلٌ مشوّهٌ لفلسفة اليونان، وكان كبيرُ هؤلاءِ الفيلسوف الفرنسي (أرنست رينان) حيث أكّد في كتابه (تاريخ الأديان) وفي كتابه (مقالات ومحاضرات) أن الفلسفة الإسلامية ما هي إلّا فلسفةٌ يونانية مخطوطةٌ بحروف عربية لم يهضمها العربُ، لأن الإسلام دينٌ لا يسمح بحرّية التفكير [كذا!!].

وأن هذه الفلسفة لا تتّفق ومبادىء الإسلام الجامدة! وإذا كان ابن رشد، قد ترجم هذه الفلسفة فقد شَوّهها ومسخها، لأنه لا يعرف كيف يكتب، ولا كيف

يفكّر، وأن لغته لغة همجيَّة!!. ومؤلّفاته لا قيمة لها!!» وقد وَجد (رينان) مَن يردّ عليه من أبناءِ جنسه، ويُريه موضع الشّطط في حكمه، ولكن المصريين في فرنسا لحينه قد جابهُوهُ وفنَّدوا أقواله، ولعلّنا نذكر بالخير حسن عاصم طالب الحقوق بباريس ، إذ نازل الفيلسوف في باريس قدر ما يستطيع طالبٌ مصري ناشيءٌ يدرس الحقوق بالسوربون!.

أمّا مناظرةُ جمال الدين الأفغاني للفيلسوف المشتطّ، فقد كانت ذات وزنٍ راجح إذ وضعتِ الحق في نصابه، وألجأت الفيلسوف إلى أن يتنازل مضطراً عن بعض آرائه أمام منطق الأفغاني الدقيق!.

وقد ألمّ مصطفى في الصفحات الأولى من كتابه بموقف رينان وشيعته، كما نشرَ الصفحة المقابلة لمُعارِضِيه، وفَصَل في القضية بما يثبتُ بالبرهان الحقيقي أصالة الفلسفة الإسلامية، لأنها لا تقف عند نظريات اليونان التي امتلأ بها ابن سينا، وابن رشد، والفارابي وأضرابهم، بل تظهر بوضوحٍ في أصول الفقه الإسلامي، وفي علم الكلام، وفي حقيقة التصوّف لدى المسلمين.

ولتفصيل ذلك كتبَ الأستاذ أقوى الفصول في بيان التطوّر التدريجيّ للفقه الإسلامي، فعالج هذا الموضوع معالجةً أصيلةً فاقت ما سبقها من الدراسات على نفاسةِ كلّ ما كتب! إذ كتب رحمه الله دراسةً مفصَّلة لمصادر التشريع الإسلاميّ، متحدّثاً عن مراحل نموّه مرحلةً مرحلة، وشارحاً تفصيلَ وجوه الاتفاق ووجوهِ الخلاف بين المذاهب الأربعة الذائعة، ثم تحدّثَ عن عِلْم الكلام في ضميمةٍ موجزة، ولكنها تحتاجُ إلى شروح ضافية، وكان في نيّة المؤلّف أن يفيض فيها لولا أنه ترك المجال الجامعي إلى الوزارة مُجبَراً غير مختار.

وأذكر أن الأستاذ أحمد أمين قد عالج هذين العلمين في كتابه ضُحى الإسلام، إذ تحدّث في الجزء الثاني عن تطوّر التشريع، وفي الجزء الثالثِ عن نشأة علم الكلام بفروعه، وقد قرأ مصطفى كلامَ صديقه أحمد أمين ونقل عنه فيما نقل، وكَان كلام أحمد أمين أكثر إيضاحاً وأنصع بياناً، لاختلاف المنهج التأليفي لدى الرجلين، إذ إنَّ مصطفى يحترمُ النصوص المأثورة ويفيض في النقل عنها

إفاضةً تكاد تخفي رأيه الشخصي في بعض المواقف! لا عن قصورٍ في أداة البيان، فإن مقالاته الأدبيّة في كُتبه الأخرى ترتفع به عن مستوى أحمد أمين البياني، ولكن لأن اتجاهه التأليفي قد أوحى إليه أن يُكثِر من النصوص ليقرّبها من أذهان طلاّبه، وليدفعهم إلى مراجعة الأصول الأولى في صبر بعد أن صُرِفوا عنها مدفوعين بما يسمعونه من استهجان متعمّد لآثار السابقين!.

وكان ذلك ديدن مصطفى في كلّ ما بحثه من فروع العلم في كتبه الذائعة عن الوحي والدين والإسلام، وعن فلاسفة العرب، والحقّ أن الفصل الواحد ممّا كتبه مصطفى عن الفارابي أو الكندي أو ابن تيمية يصلح أن يكون وحدَه مادّةً لكتاب مستقل، لأنَّ أفكار الفصل الواحد من الدسامة والإيجاز بحيث تتشقّق عن أفكار كثيرة يحسّها مَن كان ذا صلة بالبحث العلمي!.

وقد تحدّث عن نشأة الفقه الإسلامي مرةً أخرى في صورة موجزة نجدُها في كتابه عن الإمام الشافعي، وهو كتاب نافع على اختصاره، وقد ضمّ إليه ترجمة دقيقة لليث بن سعد!.

وآثار مصطفى العلمية جميعها تحتاج إلى دراسةٍ متأنّية، لأنها دائماً تعمدُ إلى اللباب الخالص من قضايا العلم والفلسفة أو تجمع شتّى الأنظار المتقابلة شرقاً وغرباً لتميّز الخبيث من الطيب في هدوء أمين، يُدهِشك أن ترى فيه روحاً من التسامح تكاد تحتضن الرأي المُخالف احتضاناً، مع أنها زيّفتْه وكشفتْ عن عواره، لأن خلق الفيلسوف عند مصطفى قد أجبرهُ على أن يقدّر اجتهاد مخالفه، وأن يأخذ في اعتباره ما أضاع من وقت، وما بذل من جهد في النقد والتمحيص مهما وصلتْ به الحقائق إلى غير مطمئنها الصحيح.

وحين تولّى رحمه الله مشيخة الأزهر ألقى عدّة محاضرات دينية لم يتخلَّ فيها عن منهجه العلمي، فكانت وجوه الاختلاف بين محاضراته ومحاضرات سلفهِ الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي واضحة، لأن المراغي رحمه الله كان يهيّىء خطابه للعامّة والخاصّة معاً، فكان وضوح الأسلوب، واستيفاءُ العرض،

وجمال التعبير من أدواته البالغة في التأثير، حتى أصبحت أحاديثه الدينية مهوى الأسماع.

ولكن دروس الأستاذ مصطفى عبد الرازق في تفسيره للفاتحة وسورة الإخلاص، ومقدّمة سورة الفتح، وهي مما ألقاه في احتفالاتٍ جامعة بالجامع الأزهر اقتداءً بسُنّة سلفه، كانت هذه الدروس لا تُرضي غير الخاصّة وحدهم، لأن المفسّر الجامعيّ كان يذكر نصوص المفسّرين الكبار من أمثال الطبري والزمخشري والفخر الرازي والإمام محمد عبده ليوازن بينها في اعتدال، وليرجّح أحدها في هدوءٍ، وهذا النمط العلمي الدقيق لا يجد ارتياح السامعين، وأكثرهم من المسؤولين الذين لم يتخصّصوا في مناحي التفسير، ولم يألفُوا ميدان الترجيح العلمي، والنقض البرهاني! ولكن ذوي الدُّربة من الفاقهين قد وجدوا في دروس مصطفى غذاءً دسماً يحتاجُ إلى معدة قوية تستطيع هضمه في غير عناءٍ، وإذ ذاك يستحيل عامِل قوة، وباحث نشاط وحيوية، هما منتهى آمال الباحثين.

وما ألقاه الأستاذ الأكبر من دروس جامعة في المساجد قد سجّل بمجلّة الأزهر، وعليه اعتمدت في هذا النظر السريع.

على أن أمد مشيخته في الأزهر الشريف لم يطل، وكان الرجل الكبير ذا استعداد حافل للنهوض العلمي، إذ بدأ فأعدّ اللجان، وهيّأ المقترحات، وبدأ في التنفيذ، فحالَ الأجل دون الأمل.

وأذكر أنه أعدّ لائحةً لتنظيم مجلة الأزهر، ووجدتْ تنفيذها العملي منذ المجلّد الثامن عشر سنة ١٣٦٦ هـ حين جعل الشيخُ الأكبرُ من أهداف المجلّة نشر البحوث المؤيّدة لعقائد الإسلام وشرائعه، المُبطلة لشُبُهات الإلحاد، واتّباع الأُسس السليمة من مناهج البحث في العلوم الإسلامية بخاصّة، وفي الآداب والعلوم والفنون والاجتماع بعامّة، مع نشر الكتب المتّصلة بالإسلام فيما يُنشَر بمختلف اللغات، والرَّدّ على ما يتطلّب الردّ، وكذلك نشر المباحث الهامّة في مذاهب الإصلاح الديني والاجتماعي، وتزويد القرّاء بأخبار الكليّات والمعاهد الأزهرية،

والبعثات العلمية شرقاً وغرباً[1]، وقد سارت المجلّة على نمطها المحدّد شوطاً حميداً، وطالعت القرّاء بالجديد المفيد حينئذٍ.

ولن أجد في ختام هذا البحث أوفى من حديث صديقه الكاتب المبين الأستاذ أحمد حسن الزيّات في وصفه وسَرْد تاريخ بيته حيث قال:

«ساهم (بيت الأستاذ) في جهاد الدستور والحرية بالنفسِ والمال، ثم عفّ عن الغنيمة، وشارك في ثقافة العقل والروح ثمّ عزف عن الشُّهرة، وتهافتت من حوله بيوت المجد على الأضواء الغربية الخادعة، فأضلّ بعضها العشا، وأحرق بعضها اللهيب، وبقي هو على شرقيته ومصريته، تضوع في أبهائه نفحة الإسلام، وتهشّ على موائده أريحية العروبة، وتخفق في جوانبه روح مصر.

والشيخ مصطفى يلخّص في شمائله أمجاد هذا البيت، فهو سرّ وراثته، وعطر أرومته، وجملة ماضيه، فإذا جلست إليه في ألفة أو كلفة غمرك منه شعاع لطيف يملك نفسك من غير سطوة، ويبسط شعورك من غير خفّة، ثم تحسّ في تواضعه سموّ الكبرياء، وفي دواعيه أنفة العزّة، وفي بساطته جلالة النبل، فلا تستطيع أن تردّ هذه الخلال فيه إلى الحدّ الذي تواضع الناس عليه في تعريف الخلق، إنما تنتهي إلى أن شخصيته الجذّابة واحدة الطراز لما تهيّأ لها من أثالة المنبت، وزكاوة العرق، وسِعَة الثقافة، وسلامة الفِطرة، وجمال القدوة».

هذا بعض ما قاله الزيّات، وفيه روعة وبلاغ.

---

(١) مجلة الأزهر المجلد الثامن عشر، ص ٩٤، المحرّم، سنة ١٣٦٦ هـ.

محمد كرد علي
رائد الحركة العلمية في الشام

- ١ -

لم ينل الأستاذ محمد كرد علي حظَّه الوافي من الدراسة العلميَّة، وقد كان جديراً بالاستيفاء التامّ لما بذل من جهود ممتازة في البحث العلمي، إذ كان رائد الحركة الأدبيَّة في ديار الشام، وأحد أعلام الأدب العربي المعاصر، ولعلَّ من أسباب ذلك، أنه أصدر في آخر حياته أربعة أجزاء من مذكّراته الذاتية، أطلق فيها العنان لخواطره المستطردة في كل اتجاه، فأصاب قوماً من ذوي الفضل الجهير، وتجنَّى على بعضهم بما لا ندري سببه الحافز، وبالغ في الصراحة مبالغة تنقصها الحنكة الحازمة، وكان في استطاعته أن يقول ما يشاء في أسلوب كنائي لا يصحبه التشهير القاذف.

ولكنَّ ضيق الصدر، وتقدُّم السنّ، وتأخّر الصحّة، وعقوق القريب، وتطاول البعيد كان ذلك كلُّه مدعاة غليان نفسي جاش في الصدر، وعلا بُخاره إلى الرأس فقذف بالكلمات النَّاريَّة منفِّساً مُروّحاً، فأصاب البريء كما أصاب المذنب، واضطر المظلوم أن يدفع الظُّلم ثم مات الرجل، والنفوس هائجة، والجرح ناغر، فلم يُجْدِ الإجماع على تدوين مآثره.

وأذكر أن الأديب المهذب الرصين الأستاذ الدكتور منصور فهمي، قد وقف في حفلة المجمع التقليدية لتأبين الفقيد، وكانت الحفلة مشتركة بينه وبين الأستاذ

خليل السكاكيني، فكان نصيب السكاكيني أوْفى من نصيب الأستاذ محمد كرد علي والأستاذ خليل السكاكيني عالِم أديب فاضل حقّاً، ولكنّه لا يصل في كفاحه العلمي إلى منزلة صاحب «خطط الشام».

ومثل الدكتور منصور فهمي لا يجهل ذلك، ولكنَّ شعوره النفسي، قد اتّضح تماماً في قوله: «ودوَّن [الأستاذ كرد علي] لذكرياته مذكّرات، قد لا ترتبط موضوعاتها ـ وتجمع بين كثير من آراء صائبة هي وليدة للتجارب في حياة طويلة، وبين ما ينمّ عن مزاج عصبي، وغضبات طارئة، ونزعات شخصيَّة لا يقرُّها المُنصِفون»[1].

نشأ الأستاذ في دمشق، إذ ولد سنة ١٨٦٧ ميلادية وعاش مُكافِحاً حتى توفي بها بعد أن جاوز الثمانين في عام ١٩٥٣ م، وقد تعلّم في المدرسة الابتدائية، ثم في العسكرية الإعدادية، فالمدرسة العازرية الفرنسية، ولكنّه اجتهد اجتهاداً شخصياً، وعاشر كبار أهل الفضل من علماء بلده حتى أجاد ثلاث لغات، وظهرت دلائل نبوغه فسَمَت به هِمّته إلى الهجرة إلى مصر، ليجد الزاد الدسم والميدان المتّسع، ففاز بغنم كبير.

تحدّث الأستاذ كرد علي في مذكّراته وكتبه عن حياته بما لم يُبْقِ مزاداً لمُستزيد، ولكن حديث الإنسان عن نفسه يمثّل وجهة نظره التي تُقْبلُ حيناً، وتُناقش حيناً آخر.

وقد قرأنا جُلّ ما كتب، فوقفنا على كثيرٍ من أدواره القويّة في السياسة والأدب، والإصلاح الاجتماعي، وهي أدوارٌ تشهد بها الوثائق والمصادر بما لا يدعُ مجالاً للشك، فإذا قال الأستاذ عن نفسه: إنه تأثّر بمحمد عبده، وطاهر الجزائري، وبعض أفاضل الكتاب في عصره، فإن ما تركه من آثار علمية ينطق بهذا التأثّر، وسبيلنا الآن أن نوضح بعض هذه الآثار، إذ نختار أجود ما كتب، لندلّ على صداه الجهير في عصره الحفيل.

---

(١) مجلة المجمع، جـ ١٠، ص ١٩٤.

ذكر الأستاذ أنه حين قَدِمَ إلى مصر لازم مجلس الأستاذ الإمام، وافتخر بالانتساب إليه، وأُدهش بسِيرته ومسلكه، وكان يحضر دروسه في التفسير مرَّتيْن كل أُسبوع، ويغشى مجلسه العلمي في منزله بعين شمس دائماً، وقد أشارَ الإمام ذات مرّة إلى مقالٍ نشره في المقتطف مقرِّظاً منوَّهاً، فلفت أنظار العلية من جلسائه إلى الكاتب الناشىء، فذاع له صيت بالجودة والنبوغ، وأصبح من ذوي القلم السائر بين الناس، يقول الأستاذ كرد علي:

«وكان من أعظم أماني النفس أن أتعرَّف إلى علماء القطر وأُدبائه فقرّت العين منهم بطبقات لم أشهد مثلها في بلادي، ولا سيما جماعة الشيخ محمد عبده، وجماعة دار العلوم، وهم أيضاً من أصدقاء محمد عبده، يفتخرون بالنسبة إليه، وكان شوقي إليهم لا يوصف»[1].

كما أنَّ محمد كرد علي تحدّث عن أستاذه الشيخ طاهر الجزائري حديث التلميذ المُريد، وترجم له في مقدمة كتابه (كنوز الأجداد) ترجمةً حافلةً، والشيخ الجزائري يُساير الإمام محمد عبده في نزعته الإصلاحية وعمله على إحياء اللُّغة، وتجديد الأدب، وإن كانت طاقته دون طاقته، وقد بذل جهداً حميداً في تهيئة النفوس للإصلاح في ربوع الشام، وشارك في أعمالٍ ثقافية وتأليفيَّة يقدّرها المخلصون، وأذكر أن الأستاذ قد أهدى كتابه (خطط الشام) إلى العلاّمة الأبرّ أحمد تيمور، وقال في مقدمة الإهداء مخاطباً تيمور:

«رأيتك بعد عالِمَيْ مصر والشام، ومفخر العرب وحجّة الإسلام؛ أُستاذينا العظيمين: الشيخ محمد عبده، والشيخ طاهر الجزائري رحمهما الله ـ فرداً في المعاصرين من بني قومي، بأخلاقك الطّهر، وعلومك الغرّ، وحرصك على نشر آثار السلف، وتثقيفك عقول الخلف»[2].

ثم والى الحديث عن جهد تيمور في بعث همّته، والأخذ بيده، وإرشاده إلى مواضع الضعف، وتقليده المِنَن المتلاحقة، وإمداده بشتى المصادر، مما تهيّأ له به

---

(١) من مذكّرات الأستاذ عن مجلة الثقافة، العدد ٧٦، سنة ١٩٤٠ م.

(٢) افتتاحية الجزء الأول من كتاب (خطط الشام).

أن يكتب كتابه الحافل في ستّة أجزاء ضخام، رجع فيها إلى أُمّهاتِ الكتب في اللُّغة العربيّة، وفي غيرها كالتركيّة والفرنسيّة، ثم توَّج الكتاب برسمٍ كبير للعلاَّمة أحمد تيمور شغل صفحة طويلة. . . وهذا يدلّ على أن تيمور قد بذل له جهدَ ما يستطيع نقداً وتوجيهاً فوق ما أمدَّه به من خزانته الحافلة بأنفسِ ذخائر التراث، فإذا أضفْنا اسمَه إلى اسميْ محمد عبده، وطاهر الجزائري لم نكن بمبعدين.

وفي إنتاج الرجل الحافل ما لا نستطيعُ التمهُّل لديه لتشعّب نواحيه، وغزارة مادّته، وازدياد صفحاته، لأن ذلك يتطلَّبُ دراسة مستقلة، ولكننا سنقف عندما نجده يحدّدُ اتجاهاً حيويّاً من اتجاهاته، لنرسم الصورة القريبة من حقيقته العلمية، أما حقيقته السياسية، فلم أشأ أن ألمّ بها، لأنّ الأخذ والردّ قد طال حولها، والرجل الكبير مجتهد في سلوكه، وكل مجتهد يخطىءُ ويصيب.

كان كرد علي كاتباً متنوّع الاتجاه، لم يعكف على فن واحد يجعله مدار تخصّصه، وكذلك كان نوابغ عصره وأساتذة جيله، وإذا كان الشيخ محمد عبده أستاذه الأمثل، قد اتَّجه في منحاه الكتابي إلى الدفاع عن الإسلام، وإلى بعث اللغة العربيّة، وإلى إصلاح المجتمع الإسلامي، فإن هذه الأغراض الثلاثة أيضاً كانت أبرز ما اتّجه إليه الأستاذ محمد كرد علي في مؤلّفاته الكثيرة، ولا ننكرْ أن تفرّغه العلمي بالنسبة لأعباء الأستاذ الإمام من ناحية، وبالنسبة إلى اختلاف الجيل من ناحية ثانية، وإلى ما امتدّ من عمر الأستاذ من ناحية ثالثة، كلّ ذلك كان عامل دسم قويّ في ما ترك من آثار، دون أن ننكر روح الإمام القوية التي هي أساس عبقريته الواثبة، تلك التي تكتفي بالطيران عن المسير.

ففي مجال الدفاع عن الإسلام نختار من مؤلّفات الرجل كتابه الرائع (الإسلام والحضارة العربية) وهو جزءان كبيران يقعانِ في تُسعمائة صفحة، كلها تحفل بالمفيد المستطاب، لأن أسلوب الكاتب مليءُ بالمعاني المتتابعة، فلكلِّ سطر فائدته العلميّة، ولكلٍّ فقرة دلالتها الساطعة، دون استرسال مُطنب في معنى واحد، وقد ذكر أنّ التأليف في هذا الموضوع ضرورةٌ من الضرورات، لأن التراث القديم قد بدأ ينكشف، وقد حفل بما يثبت أصالة الحضارة الإسلامية، ويردّ على

هؤلاء الذين يهرفون بأنَّ الإسلام عدو المدنية والارتقاء، وفيهم أعلام من رؤوس أقوامهم، لهمْ صيتهُم القوي، وأثرهم البعيد، فلا بدّ إذن من تصحيح هفواتِ مَن أساءوا وما برحُوا يسيئون للعرب ودينهم ورسولهم، وينتقصون الحضارة العربيّة في أُمم الغرب والشرق.

وكانت نبرة الكاتب هادئةً غير صاخبة، وذلك أجدى وأنفع، فبدأ الكاتب متفائلاً بأن بشائر الإنصاف قد ظهرت في أوروبا على أسلات أقلام محايدة، بدأت تعترف بالحق، وأخذت تردّ على ما أفكه أسلافٌ شاؤوا أن يمحقوا كلّ ساطع من نور الإسلام، وامتدّ الحديث ليشمل عوامل الجفاء لدى كتاب الغرب، وتحكم سلطان الأهواء والمعتقدات.

وخاضَ الكاتب في فنّه الأصيل حين تحدّث عن صعوبة درس التاريخ، واختلاف رواياته وتضارُب وقائعه، واستشهد بما قاله أئمّة هذا الميدان في الشرق والغرب، وبمناسبة هذا الاستشهاد، المتّصل نذكر أن الكاتب لِسعة اطّلاعه ودقيق تتبّعه قد ألمّ بأقوال كثيرة للمعاصرين والسابقين معاً، وقد عِيب عليه هذا الاستشهاد المتَّصل، وذلك مأخذٌ طائش، لأن الرجل يعالج قضايا كَثُرَ فيها اللَّجاج، وامتدّ العراك، فلا بدّ أن يستنصر بمَن يوافقون مشربه، لا سيما إذا كانوا على غير معتقده، وساقهم إنصافهم إلى الصدوع لكلمة الحق، وكان في مقدوره أن يقرأ هذه الآثار في مظانها، ثم يصوغها صياغةً جديدةً، وهو على ذلك قدير، وينسبُ أكثرها لنفسه كما يفعل كثيرٌ ممّن ينسبون إلى أنفسهم ما ليس لهم من الأفكار.

وللرجل أسلوبه الذي يستطيعُ به أن يبدل قولاً بقول، وألفاظاً بألفاظ، كان في مقدوره أن يضائل من الاستشهاد، وأن يهضم ما يجبُ أن يجهر به، حتى إذا أصبح طوع بنانه صاغه صياغة جديدة، ولكنَّ الأستاذ مِدْرةٌ بارعٌ يدافع عن قضيةٍ ظهر وجهُ الحقّ فيها بعد خفاءٍ، ومن أسباب النجاح في دفاعه أن يذكر آراء مؤيّديه مهما كثرت النصوص، وامتدّت النقول، وقد ظهر تأثّره بالفيلسوف الفرنسي (جوستاف لوبون) واضحاً إذ نقل خُلاصات جيّدة مما قال عن الحضارة العربية، قبل أن يترجم كتابه إلى لغة العرب، وحسناً فعل فإن حياد هذا البحاثة، وسعة

أفقه، وعميق نفاذه، وصفاء نفسه قد رفعه إلى مصاف الكبار من أعلام البحث الغربي المحايد.

وأذكر أنَّ العلاَّمة الأستاذ محمد فريد وجدي قد ملأً آثاره العلميّة بفرائد هذا الفيلسوف الاجتماعي الخطير، وقد تعقّبه في مواقف كثيرة، وتلك طبيعة البحث العلمي، إذ لا يوجد من البشر مَن يكونُ كلامه جميعه موضع الإذعان.

ومن أحسن ما اختاره الأستاذ كرد علي من «لوبون» تفنيده القويّ لِمَن نالوا من حضارة الإسلام؛ وحديثه الجادّ عن الأسس العلمية لفلسفة التاريخ، لأنّ مراعاة هذه الأسس تعصم من شرٍّ كثير.

كما أبدع المؤلّف حين كشف عن عوار الناقدين في الشرق والغرب من أمثال رينان، وجانو، ولامانس، ولويس شيخو، ودفعه ذلك إلى أن يصحّح وقائع كثيرة كتبها الحاقدون بلسان الباطل، فأفاض في تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية، وجَلا وجه البراءة بما يقطع الشك في صفحات تُعدّ من نفائِس الكتاب، ولم يفتْه أن يتحدّث عن أسباب الحقد الشعوبي شرقاً وغرباً، وعن متعصبةِ الشعوبية، وموقف الإسلام من النصرانية.

ولم يكن الرجل خطابياً يكتفي بالحماسة المشتعلة دون برهان كما عهدنا لدى نفر يختارون القضايا الدقيقة في مثل هذه المسائل ويتولّون الدفاع عنها دون استعدادٍ علمي، فيكونون نكبةً فادحةً على الحقائق، إذ ساعدوا بسطحيتهم الضحْلة على تثبيت الإفك، وترسيخ البهتان، فإذا تعرّضت لهم بنقد حاسم رأيت من العواء والنّباح والثّلْب ما تستعيذ منه بالله!.

لم يكن الأستاذ كرد علي خطابياً كهؤلاء، ولكنه حدّد النقاط، وعيّن المحور، ورسم الدائرة حين ألمَّ بأُمّهات المسائل التي يُردّدها الشعوبيون، فتحدّث عن موقفهم من الرسول كاشفاً بعض ما حاكُوه عنه من الأراجيف، فإذا أشبع الحديث إشْباعاً ثنّى بموقفهم من القرآن، وإرجافهم بعقيدة القضاءِ والقدر، وتعدّدِ الزّوجات والطلاق، والحجاب، والاسترقاق، والمُسكِرات (من العجيب أن يكون

تحريمُ الخمر والمُسكِرات مَدعاة نقد للإسلام!!) ووالَى الحديث عن الرِّبا وما قيل عنه، وعن التَّصْوير والنَّقش، وهذا الفصل من أنفس ذخائِر الكتاب.

ونحن نعرف جيّداً أن الكاتب مسبوق في أكثره، ولكنّنا نعرف مع ذلك أنه هضم ما قرأ، وأوجزه في تحديد، وأضاف إليه الجديد وبذلك قدّم مائدة حافلة لقارئه، وإذا امتنع كل كاتب عن مراجعة ما كتب، فستظلّ الحقائق على ما عهدت إليه، أما إذا تشجّع باحث فقرأ واستنتج، وفتح الله عليه بما يتّصل بموضوعه، وجعل من كل ذلك ثوباً قشيباً ذا طرافة، فلن ينتقصه غير معاند لجوج!!.

ثم أفاض الأستاذ في الحديث عن العرب في الجاهلية والإسلام، وأكثر ما قاله في ذلك ذائع مُشتَهِر، ولكن النصوص التي نقلها عن جوستاف لوبون ودوزي وأضرابهما طريقة جديدة بالنسبة للقارىء العربي.

وقد أفاض في الحديث عن ثراء بعض الصحابة والتابعين بما يَشي ببعض المبالغة، لا أقول إنها مبالغة الأستاذ كرد علي، ولكنها مبالغة مَن نقل عنهم! وكأن الرجل أراد أن يبرّر ثراءَ الأمويين ـ وهواهُ معهم ـ بما رآه في كتب الأسمار والمحاضرات، وبعض المصادر التاريخية التي تجمع الغثّ والسمين، وتروي في الصفحة الواحدة ما يتعارض ويتضارب، ليجيء كاتب ما، فيختار من هذه المتناقضات ما يتفق ومنحاه، تاركاً ما يجاورها، وكأن الذي كتب الأولى ورواها لم يكتب الثانية.

وكان على الناقد الحصيف الأستاذ كرد علي أن يقف موقف المرجّح المحلّل، وهو جدير بالحكم لولا اتجاه خاصّ عُرِفَ به، ودفعه إلى تأييد قوم لهم أخطاؤهم ومحاسنهم، وبدل أن يذكرهما معاً أكد المحاسن بما يقطع كل سبيل للشك، وأنكر الأخطاء مع وضوحها الصريح، وقد تباعد الزمن بيننا وبين هؤلاءِ، فلم يبقَ إلّا أن نصرّح بالحق دون جمجمة أو غموض.

ولا يخفي المُنصِف إعجابه الرائع بما كتبه المؤلّف تحت عنوان (حال الغرب في شباب الإسلام) إذ استنطق الصُحف التاريخية عن يقين فتحدّث عمّا غرقت فيه

أوروبا من ظلام الهمجية والتوحّش، وسرد من الصور الماثلة ما لا سبيل إلى إنكاره، ودبَّج فصلاً رائعاً عن تأثير العرب في الأمم المغلوبة، فعرض أحوال هذه الأمم قبل الفتح الإسلامي، ثم بسَط الحديث عن رحمةِ الإسلام في معاملة أهلِ الذمّة من النصارى واليهود، ونقل عن (هنري دي كاستري) بعض ما ذكره في كتاب «الإسلام خواطر وسوانح» مقارناً بما ذكره الإمام محمد عبده في هذا الصدد في «رسالة التوحيد»، وأوضح كيف اعتمد خلفاءُ الإسلام على كثيرٍ من النصارى حتى في قيادة الجيوش.

فإذا أشبع الحديث عن تسامح المسلمين انتقل إلى بيان أثر العلوم العربية في أوروبا، موضحاً ما أملاه التعصّب على نفر من المغرضين حاولوا أن يجرّدوا العرب من كل أثر علمي، حتى ضجّ من ذلك نفر من باحِثِي الغرب، إذ هالهم أن يجدوا إخوانهم يندفعون في تيار من التعصّب الأعمى يسدل على العيون غشاوة فلا تبصر، ويلقي في القلوب غلظة تميل معها إلى الافتيات والادّعاء والتطاول، ومن هؤلاء المُنصفين الأستاذ (درابر) مؤلّف كتاب (تاريخ الارتقاء العلمي) وفيه يقول:

«من موجب الأسف أن الأدب الأوروبي حاول أن يُنسينا واجباتنا العملية نحو المسلمين، فقد حان الوقت الذي ينبغي علينا أن نُعرِّفهم، لأن قلّة الإنصاف المبنية على الأحقاد الدينية، وعلى العنجهية القومية لا تدوم أبدَ الدهر».

ويضيق المقام عن الإيماء إلى كل ما استشهد به الكاتب الكبير في هذا الصدد، ونكتفي بأن نشير إلى بعض رؤوس الموضوعات الرائعة في كتاب (الإسلام والحضارة العربية) مثل أثر علوم العرب في الغرب، ومدنية العرب في جزيرة صقلية، وغارات المغول والأتراك على الحضارة العربية، أما بيت القصيد حقّاً في الجزء الأول فهو ما كتبه تحت عنوان:

(المسلمون والغربيون في الحروب الصليبية) حيث تحدّث عن اختلاق الصليبيين الأسبابَ لقتال المسلمين، وعن مجازر الصليبيين، مقابلة بحُسْن معاملة صلاح الدين لهؤلاء، وعن الأثر الإسلامي حربياً وخلقياً وعلمياً للحروب الصليبية في تقدّم أوروبا، شافعاً ذلك كله برأي «جوستاف لوبون» في مَضارّ الحروب

الصليبية ومنافعها! والمنافع هنا وقْف على أوروبا وحدها، لأنها هي التي تعلّمت وتهذّبت وتقدّمت حضارياً بما رأت من عمران الشرق ومدنية الإسلام. . .

هذا كله في الجزء الأول، أما الجزء الثاني من الكتاب فقد أسهب في الحديث عن العلوم والمذاهب الإسلامية، وعن الإدارة في الإسلام، وعن السياسة في الإسلام، وعلى كثرة ما ألّف الجامعيون من بعد في هذا النطاق الفسيح فإن أصالة الأستاذ كرد علي لا تزال جديدة خالدة، لأننا لا نتجاوز الحق حين نعلن أن هذه البحوث في حاجة إلى قلم سيّال من طراز أقلام أحمد أمين، ومحمد عبد الله عنان، ومحمد كرد علي، لأن هذا النمط من الباحثين قادرٌ على السّرد المحكم، والتسلْسُل المطّرد، والتحليل الدقيق، فكل بحث يصدُر عن هؤلاء يحملُ طابع صاحبه رسوخاً وجِدّةً، وتحليلاً وتماسكاً.

أمّا أكثرُ البحوث الجامعيَّة ـ للأسف ـ فتمتلىءُ بالمصادر، وتحتشدُ بالنُّقول، ولكنّ الأسلوب مفكّك، والفجوات واسعة، والصِلات الرابطة بين المعاني تكادُ تكون مبتورة، هذا إلى ضعفِ الاستنتاج، وصعوبةِ النفاذِ إلى الجوهر من التعليل.

وإنّي بهذه المناسبة أدعُو الباحثين من هؤلاء إلى أن يهتمّوا بسلامة السِّياق، وأن يتملّكوا زمامَ التعبير، قبل أن يسوِّدوا مئات الجذاذات لينقلوها في رهق وعناءٍ، وأن يتخلَّصوا من الهيام بالكمّ العددي في الصفحات، لأنَّ ضخامة التأليف لا تُستحسنُ من باحثٍ غير كاتب، وليست معاناةُ الكتابة من السهولة بحيث يقدر عليها كلّ مَن أدّى الامتحان في دبلوم الدراسات العليا بنجاح.

ونكتفي بما تقدّم من التنويه بدفاعه عن الإسلام والحضارة العربيّة، لنجد أنفسنا نخوضُ في بعض الحديث عن أثره في إحياء اللّغة العربيّة، وأعيان الأدب ورجال الفكر، وهو حديثٌ يحتاج إلى قدرة قادرة في إيجازه، إذ كان أكبرَ همٍّ الكاتب في حياته، فقد أنشأ مجلّة «المقتبس» ليُحيي مآثر الأدباء الفنيّة، ويؤرّخ لمواقفهم الحيويّة، وينشر في صفحاتِ التّراث ما فيه النفعُ المحقَّق.

ثم وقف على إصدار مجلّة المجمع العلمي أمداً كبيراً ليواصلَ رسالته الأدبيّة في عزيمةٍ لا تعرف الكَلَل، وعلى صفحاتِ هذه المجلّة الراقية نشر أدقّ المباحث

وأحفل التراجم للسابقين والمعاصرين معاً، ومَنْ يقرأُ تراجمه الواعية لأمثال طاهر الجزائري، ومحمد مصطفى المراغي، وأحمد تيمور، يتمنّى لو كان الكاتب قد تخصّص في تراجم المعاصرين بهذه اليقظة الواعية، لينقل للتاريخ صفحاتٍ صادقةً لا يقدر على مثلها غير مَن ارتفع إلى مَوْهبته.

وقد أخذ عليه ناقدوه أنه قد يتناقضُ في أحكامه على الرجال بين الأمس والغد، حيث يُبدي اليوم من الآراءِ في أحد النظراءِ ما يختلف مع ما قاله في الماضي، وقد يكونُ الكاتب على حقٍّ في هذا الاختلاف حيثُ كشفت له الأيام من أعمال مَن يتحدَّث عنه ما اضطره إلى تغيير الحكم مستأْنفاً ومعقّباً، وإذا كان من الناس مَن لا يدومون على خلق واحد، فلا بدّ أن يسجّل عليهم هذا التقلقل المضطرب من باب إلى باب، ولكنّ محمد كرد علي بمزاجه العصبي الذي أشار إليه الدكتور منصور فهمي كان يندفع في الحكم أحياناً، فيقسو على الناس دون سبب ظاهر، والنقد في هذه الحالة صائبٌ صائبٌ إذا وُجّه إليه مشفوعاً بالدليل الواضح، ومؤيَّداً بما قاله سواه من المنصفين!.

لقد كتب الأستاذ كثيراً في مجال الأدب واللُّغة، وإحياء التراث، ونستطيع أن نسردَ من مؤلّفاته في هذا النطاق ما نشره تحت عنوان (أُمراءُ البيان)، (وكنوز الأجداد)، (وغوطة دمشق)، (والقديم والحديث) وما أحياه من كتب التراث مثل (سيرة أحمد بن طولون) للبلوي، (المستجاد من فعلات الأجواد) للتنوخي (ورسائل البلغاء) لطائفة من أعيان البيان، (وتاريخ حكماء الإسلام) لظهير الدين البيهقي وكتاب (الأشربة) لابن قتيبة، و(البيزرة) لبازيار العزيز بالله الفاطمي.

ولا ننكر أنه أجاد في أكثر ما نشر إجادةً تامّة، ونقولُ في أكثر ما نشر لأنَّ الرجل في شيخوخته قد اضطر إلى التَّساهل في التحقيق مكتفياً بما بقي في الذاكرة دون مُعاناة المراجعة، ممَّا أوقعه في مآخذ صريحة، أفصح عن بعضها الأستاذ المحقّق سيّد أحمد صقر فيما نشره خاصّاً بنقد كتاب الأشربة في عدّة مقالات بمجلة الرسالة[1].

---

(١) مجلة الرسالة، السنة السابعة عشرة.

ومَن يعرف أعباء الكهولة يقدِّرُ موقف الرجل، وهو كأديب بحّاثة لا يستطيع أن يحيل نفسه إلى المعاش، وينقطع عن التحقيق والدراسة منتظراً أجَلهُ المحتوم، فعلى الذين يآخذون الكبار متشدِّدين أن يراعوا الظروف المخفّفة لقسوةِ الحكم ليعذرهم التَّالون حين يواجهون مرحلة الضعف، ولا يصبرون عن الكتابة والتحقيق وسنختارُ (أُمراء البيان) مثالاً لبعض مؤلّفاته الأدبيّة، لأن الرجل الكبير قد كتبه بعد أن استحصدتْ قوَّته الفكريَّة، وعمق نظرهُ إلى أعيان البيان في أزهى عصور العربيَّة، فارتضى مذهباً من الفن النثري حرص عليه، ودعا إلى انتشاره في قوّة، معارضاً مَن خالفه، وفي شخصياته مَن سبق الرجل بالحديث عنهم في شبابه، ثم رأى أن يتحدّث عنهم من جديد في تدفّق مستفيض.

- ٢ -

بدىء أُمراءُ البيان بمقدمةٍ جيدة تتحدّث عن البيان العربي منذ الجاهلية حتى يومنا هذا، فقارن الكاتب بين أساليب العصور المختلفة منذ العهد الأول، وتحدّث عن أثر القرآن فيما تلاه من البيان، منتقلاً إلى إيضاح أثر اختلاط العرب بالفرس، ومبيِّناً كيف تحوّل الإيجاز إلى إطنابٍ بتأثير مَن وُلّوا أمور الكتابة، من غير العرب حتى تهيأ ما سمَّاه (الأسلوب المنتشر) في المكاتبات والرسائل، معلِّلاً استحكام ملكة التطويل أواخر القرن الثاني بتكاثر عدد مَن نشأ من أبناء الفرس من كُتَّاب وخطباء ومؤلّفين حتى إذا أفرغ الجهد في ذلك شنّ غارته على الأسلوب المتكلّف، حين هجم السجع على الاسترسال فنال من المعاني والأغراض، واختار من أقوال المفكّرين ما أيّد منحاه.

وللكاتب بسط رائع في توضيح ما غمر عصور التقليد من ضحالة وإسفاف، حتى انتهى إلى العصر الحاضر فتحدّث عن بواكير النهضة البيانيّة، وتنبأ بما سيعقبها من ازدهار يعود بالأسلوب إلى عصور التفوّق والإبداع.

كان هذا الباب الممتاز تقديماً للحديث عن عشرة أعلام من أمراء البيان، هم عبد الحميد الكاتب، وابن المقفّع، وسهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة، وإبراهيم بن العباس الصولي، وأحمد بن يوسف الكاتب، ومحمد بن عبد الملك

الزيّات، والجاحظ، وأبو حيّان التوحيدي، وابن العميد، وقال إنهم العشرة المبشّرة بالبلاغة في عصر العرب الزاهر، يوم أضحى اللسان العربي لغة حضارة وعلم، راجياً أن يكون الحديث عن مذاهبهم البيانيّة عوناً على تمثّل أساليبهم في الرشاقة والجزالة، لأن البيان العربي كالإسلام لا يحيا إلّا بالاستقاء من رؤُوس عيونه الصافية[1].

وقد بدأ بالحديث عن عبد الحميد الكاتب، فأدلى بما وَسِعَه العثور عليه من أدبه، وبأقوال السابقين عن مكانته، وقد قابل بالتّوهين رأْيَ مَن قال إن عبد الحميد كان يعرفُ اليونانيّة! وهو رأْيٌ عجيب حقاً قال به أُستاذ يحاول أن يشتهر بالطريف مهما شذّ، وفي رأْي صاحب أُمراء البيان أن عبد الحميد وقد كان يُحسِن الفارسية استطاع النبوغ في البيان العربي بسببها، تصديقاً لقول عبد القاهر: «إن مَن عرف أوضاع لغةٍ من اللغات عربية كانت أو غيرها وعرف المغزى من كل لفظة، وساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأْدية أجراسها وحروفها، فهو بيّنٌ في تلك اللُّغة مُنتَهٍ إلى الغاية التي لا مذهب بعدها»[2].

وإذا كان الحديث عن عبد الحميد موجزاً يسيراً، فإن المجال قد اتّسع للحديث عن ابن المقفّع، إذ بقي من آثاره الشاهدة ما يمدّ الحديث بأسباب كثيرة، فهو أوّل مَن ترجم في الملّة الإسلامية من اللغة الفارسية إلى اللغة العربيّة، وعدّ المؤلّف من كتبه المترجمة الكثير، ذاكراً أنّ ما بقي منها هو كتاب كليلة ودمنة، ثم ناقض نفسه حين قال: (واختلفوا في كون ابن المقفع نقل كليلة ودمنة عن الفارسية، والأرجح أنه كتبه مباشرة).

وأقرّ في المقدمة أنه كتب بعض فصوله، ونقل الباقي عن غيره لينجو من تَبِعَة ما ورد فيه، ويَسلَم من نقمة الملوك إذا عرّض باستبدادهم، أقولُ: إنّه ناقض نفسه لأنّه ذكرَ الكتاب أوّلاً في المترجمات، ثم رجّح أن جميعه من ابتكار ابن المقفّع، وما ذكر أنه ترجم عن غيره إلّا ليسلم! وإذا كانت كتب السابقين تذكر هذا الكتاب

---

(١) أمراء البيان، تصدير الكتاب، ص ٣.

(٢) أمراء البيان، جـ ١، ص ٤٤.

بين ما أُثِرَ عن فارس، فالأقربُ إلى الصواب أن يكون ابن المقفّع قد نقل شيئاً، وابتكر شيئاً آخر، لا أن الكتاب جميعه من وضعه.

ومِنْ أصدق ما قاله الأستاذ ما كتب عن أخلاق ابن المقفّع، إذ ارتفع به عن كلّ اتّهام مُغرِض ساقه أعداؤُه الذين قتلوه ظلماً، وأشاعوا الإفك عنه ليضائلوا من جريمتهم النكراء، وقد سرَد المؤلّف من نوادر أريحية ابن المقفّع ومروءته ما يعصف بكل اتّهام.

وقد آخذ المنصور مؤاخذة صارمة في قتله، وقال في مرارة: (جوّز المنصور قتل بريء، كتب ما كتب حرصاً على مصلحة مَن يكتب له، واللَّهُ يقول: ﴿ ولا يضارّ كاتب ولا شهيد ﴾ [البقرة ٢، آية ٢٨٢] وما عدم السّاسة حجةً يتوكّأون عليها، أو تأويلاً يأتيهم به المنافقون ليقتلوا مَن استهدفوا لغضبهم)[1].

وكان المؤلّف موفّقاً فيما كتب عن سهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، وإبراهيم الصولي، وابن عبد الملك، إذ لم تكن آثارهم الأدبية ذات سيرورةٍ ذائعة بين المثقفين، فقرّب البعيد منها، ووقف وقفات مستأنية عند سماتهم الأدبية، وإذا وُجِدَ من باحثي اليوم مَن أفرد محمد بن عبد الملك الزيّات بالبحث المستقل، فإننا نرجو أن يتهيّأ لسهل بن هارون، وابن مسعدة، والصولي مَن يكشف عن دفائنهم في صبر، لأن ما بقي من آثارهم في مطاوي المؤلّفات يدلّ على نبوغ وإبداع.

وحديث المؤلّف عن الجاحظ يصلح كتاباً برأسه، وللمؤلّف أن يعجب بأمير البيان الجهير وأن يُفرِد الفصول الدّسِمَة للحديث عن مذهبه وأخلاقه ونشأته وبلاغته وكتبه ورسائله وسياسته ودهائه وتهكّمه وتنادره، وقد قال: إن مادة الجمال في أدب الجاحظ سيّالة برّاقة ناصعة تنشر السرور في الروح، وقد كتب بعد الدرس الطويل والخِبرَة الواسعة والإحاطة بأكثر ما في الوجود من صُحُف المعارف، حتى ضُرِبَ المثل ببيانه فقيل: إن من دليل إعجاز للقرآن إيمان الجاحظ به، أما إيمانه فقد كان راسخاً وطيداً إذ هو حَرْبٌ على المبتدعة وذوي الأهواء.

---

(١) أمراء البيان، جـ ١، ص ١٢٨.

ومن الطريف أن كرد علي قد ألمّ بقولة شيخه طاهر الجزائري عن الجاحظ أنه يسلك طريق التمويه[1]، فلم يشأْ أن يسكت عنه، ولكن أتبعه بقوله: (وتمويه الجاحظ تمويه عاقل ذي بصيرة، إذا موّه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه) وهذا القول اعترافٌ بالتمويه، وهو ما نجلُّ الجاحظ عنه، إذ إنه لا يقول غير ما يعتقد، حتى يُوصَف بالتمويه وصفاً حقيقياً، ولكنه يذهب مذهب الخيال حيناً، والمبالغة حيناً ليكشف عن الحقائق التي يريد إذاعتها، وما وجد الخيال في ضرورته الأدبية إلّا لتجميل الحقائق وتقريبها، وذلك شيء، والتمويه شيء آخر.

وانتقل إلى الحديث عن أبي حيّان التوحيدي فأنصفه بما لا مزيد عليه، والتوحيديّ، وإن غُبن في العصور السابقة فقد أخذ حقّه العادل في هذا العصر، فارتفع عنه الغُبْن كاتباً، كما ارتفع الغُبْن عن ابن الرومي شاعراً، حتى فضّله الأستاذ أحمد أمين على الجاحظ لأسباب وجيهة يجدر أن تكون موضع الالتفات، ولا أدري لماذا اختار المؤلّف (ابن العميد) ليكون من أمراء البيان مع سابقيه، لأن مذهبه الفنّي مما اعترض عليه المؤلّف، إذ هو من أوائل مَن افتتنوا بالسجع، وفتحوا باب التكلّف.

وقد نقل رأي ابن سنان الخفاجي عنه إذ قال: «إنه كان يترك السجع ويتجنّبه، وطريقة استعماله مرة ورفضه أُخرى» وما بقي لدينا من آثار الرجل يدلّ على أنه كان يتمسك بالسجع دائماً، فهل ضاع كثير من أدبه، وفيه ما أهمل به السجع؟ أو أن رأي ابن سنان لا يخلو من نقد!.

يخيّل إليّ إذا كان لا بدّ من اختيار كاتب ممثّل للشِعر المنثور ـ كما عبّر المؤلّف ـ ليُمثّل الوجهة الجديدة في التأليف، فبديعُ الزمان الهمذاني أوْلى من ابن العميد، وإذا كانت لابن العميد وَجَاهته في الحكم، ومكانته في الوزارة، وقد ساعدتا على انتشار صيته وبُعْد مَداه، فقد زالت هذه الوجاهة بذهاب عصرها،

---

(١) أمراء البيان، جـ ٢.

ووقف الخالِفُون أمام الآثار الأدبيّة لا الألقاب الـزائلة، ولست أُحاول انتقـاص رجل قال فيه المتنبي:

مَـنْ مُبـلِغ الأعـراب أني عـنـده لاقيت أرطـالـيس والأسكـنـدرا

ولكنّي أرى البديع يعلوه أديباً، وإن كان ابن العميد سيداً ورئيساً.

راجَ أُمراء البيان وتعدّدتْ طبعاتـه، واستدرك الأستـاذ بعض ما فـاته فيمـا تَلَا الطبعة الأُولى، وذكر آراءَ ناقديه مؤيّداً، وأذكر أنه كتب في مجلة الثقافة تعليقاً على نقد دقيق فقال: (اغتبـطت بما تفضّـل الأستاذ السيـد أحمد صقـر فكتبه في العـدد الـرابع والخمسين من الثقـافة في بعض مـا وقع لي من الأغـلاط في كتاب «أمـراء البيان» ورجائي أن يزيدني منّةً بنشر كلّ ما لديه من النقد على هذا السِّفْر، ليفيدني ويفيد قُرّاءَ العربيّة، وأن يتقيّـل أثره بعض مَن آتـاهم الله العلم، يتوفـرون على نقد الكتب الحديثة والقديمة، فالمرء لا يدرك عيوبه من نفسه في الغالب، وقديماً قالوا رحم الله مَن أهدى إليّ عيوبي)[1].

ثم ذكـر الأستاذ تحْبيـذاً لنقديْن آخـرين كتبهما الأستـاذان: سعيد الأفغـاني، وعبـد الوهـاب حمّودة، وأعلن سـروره بمـا جـاءَ بهمـا من مـلاحـظات، ومـوضـع الإعجاب من هذا المسلك الجادّ يُوحي بترفّع نفسي لدى الكاتب، إذ يـرى الناقـد زميله ورفيقـه في دربه الـطويل، فهـو يسلّم بما يـراه صحيحاً من مؤاخـذته، وليس كمَن يفتعـل الخـلاف، ويلجـأُ إلى التمحّـل مُحـاوِلاً تبـريـر أخـطاء لا سبيـل إلى إنكارها، وتاركاً موضعَ الجدل في مضماره العلمي الواضح، ليتحدّث عن البواعث المفتعلة، وليُظهِر أن ناقده متعسّف غير مُنصِف.

إن مُتتبّـع النقد الأدبي في الصُّحُف والمجـلّات الأدبيـة، يشعـر بـأسف حين يرى العالِم الكبيـر، والأديب الجهير لا يكـاد يعترف بخـطإٍ صريـح ندَّ منـه، وكأنـه معصوم من خطإٍ يلحق به كإنسان، والذي لا يستكينُ للحق ذو خلق منقـود، وأولى به أن يقبل التصحيح عن غبطة فيرتفع به سلوكه الأدبي إلى منازل الشرفاء.

---

(١) مجلة الثقافة، السنة الثانية، العدد ٥٩.

ونلمّ بشذور من آرائه في الإصلاح الاجتماعي والديني، إذ كان يكتب المقالات المتتابعة في إيضاح نزعته الإصلاحيّة، لأن الروّاد من رجال القلم في هذا العصر لم يتقوقعوا داخل مفهوم ضيّق للأدب، بل جعلوا الإصلاح مذهبهم المنشود، وفيهم مَن كان الإصلاح وحده دافعه إلى الكتابة، مثل: عبد الرحمن الكواكبي، وقاسم أمين، وأحمد فتحي زغلول، وحسن عاصم، ومحمد مسعود، وهؤلاء قد سبقوا محمد كرد علي إلى معالجة هذه الشؤون.

وقد يسّر الله للكاتب الكبير فجمع صفوةً من مقالاته الإصلاحية في مؤلّف كبير جعل عنوانه (أقوالنا وأفعالنا) صدر سنة ١٩٤٦ عن مطبعة عيسى البابي الحلبي، في أكثر من أربعمائة صفحة من القطع الكبير، وأضعف ما في الكتاب ـ للأسف ـ مقدمته إذ كتبها بروح التشاؤم الناقم، وهي بطبيعة الحال آخر ما كتب، كتبها ناقماً ساخطاً كارهاً لكل شيءٍ.

ورجل الإصلاح الحقيقي يجب أن يكون موضوعياً، لا ذاتياً تغلب عليه مشاعره الخاصّة فتحيلُ أفكاره عن موضعها الحقيقي إلى ضروب من اليأس والنقمة والعناد، فالمُصلِح الحقيقي الموضوعي لا يقول في مقدمة كتاب ـ يضمّ نضاله الطويل، على مدى خمسين عاماً في صحبة القلم ـ:

إنه لا يحاول الاشتغال بمداواة نفوس مريضة، ولا يرجُو خيراً من أُناس أشبه بالحيوانات، وأنه نصَح وأشار ودعَا للحق، وكرّر النصيحة فلم يسمع أحد، وظلّ الناس على غيّهم، ولم يتحقّق له أمل، لذلك لا يطمعُ إطلاقاً في أن يجعل من الجذع اليابس غُصناً نضيراً، ومن الجسم الميّت كائناً حيّاً، وقد أفاض الأستاذ كرد علي في مثل هذه العبارات إفاضةً تدلّ على أنه كتب المقدمة في ساعةِ يأس فاندفع إلى الغلوّ.

لأن المُصلِح الاجتماعي، والموجّه الخلقي، يعلم أن الصبر سبيل الإصلاح وأن كلّ شيء لايبقى على وضعه، وأن علماء الخُلُق الإنساني على توالي العصور قد كتبوا مؤلّفاتِهم لينقلوا الناس من وضع سيءٍ إلى وضع سارّ، بل إن أنبياء الله ما بعثهم الرحمنُ إلى الناس، إلاّ لينقلوا العالم من الظلمات إلى النور، ولو قال كل

مُصلِح إنه لا يحاولُ الاشتغال بمداواة النفوس المريضة، لكان مثله مثل الطبيب الجسمي، الذي يوصِدُ عيادته ساعة الحرج، ويقول ليمتْ الناسُ، فلا سبيل إلى مِبضَع الجراح، وبلسم الشفاء.

ونترك المقدمة لنقول: إن الكاتب الكبير تحدّث في كتابه عن الوطنية والعادات والتقاليد، وأدوار الانتقال، وأحوال الهبوط والارتقاء والصحافة، وأصحاب الشذوذ من الكذّابين والمنافقين والمستهزئين.

وأفاض في الحديث عن بعض رجال الدين إفاضةً متكرّرة، كما أبدع في الحديث عن المبشّرين والأجانب، وعن دعوات القومية الإسلامية ، والوحدة العربية والخلافة، وعن حقوق المرأة، وعاداتِ المؤلّفين ومكاسبهم وخسارتهم وأخلاقِهم، وهي أبوابٌ قوية حقّاً.

وإذا آنسَ القارىءُ شيئاً من التكرار في بعض الفصول بل شيئاً من تعدّد التكرار، فسببه أن المؤلّف قد كتبَ مصنّفه على أبعاد طويلة من عمره، فكان ينسى ما كتبه في السالف ويكرّر بعض ما قال، على اعتقاد أن قارىء المقال في صحيفة أو مجلّة لم يقرأ ما كتب من قبل، منذ ثلاثين أو أربعين عاماً! ثم جمع جُلَّ هذه المقالات وقدّمها متجاورة متلاصقة فظهر ما بها من التكرار. ونحن نعلمُ أن الدّعاة يلجؤون إلى التكرار عن قصدٍ لترسخ دعوتهم الإصلاحية بهذا التكرار، بل إن علماء النفس يعدّون التكرار أمراً مقصوداً لذاته، إذا شاءَ رجلُ الإعلام أن ينجح في أداء رسالته، إذ إنّ مداومة الطّرْق على المشاعر والأحاسيس بالنّصح الحافز، والإرشاد الموجّه، مما يجعلُ آراءَ الداعية تنساب إلى المشاعر انسياباً يسيراً، سواءٌ أدرك القارىء هذا الانسياب عن شعورٍ يقظ محلّل، أوتسرّبَ إلى أعماقه لا شعورياً بوحي الترداد، وهذا كلُّه مما يجعلنا نهشُّ لما بالمقالات من تكرار في المعاني دون الألفاظ.

وقد انتفع الكاتبُ بتجاربه الشخصية فسردها سَرْداً في مقالاته، وتحدّث عن أمور شائنة لم يذكر أصحابها بالأسماء، ولكن السياق يدلّ عليهم بأجلى بيان، وفيهم جماعةٌ من الفضلاء لا يقلّون في مكاناتهم لدى الناس عن منزلة الأستاذ إن

لم يفوقوه، فقد عرض بالشيخ: محمد بخيت المطيعي، وبالسيد: محمد رشيد رضا، وبالشيخ: الأحمدي الظواهري، وجميل صدقي الزهاوي، وأضرابهم من ذوي المقام العلمي، تعريضاً هو التصريح بعينه.

وحين تحدّث عن المؤرّخين، ذمّ أُناساً من ذوي الفضل بذلوا قُصارى وسعهم في النقل والتدبيج، حتى أصدروا عدّة مجلّدات فيها كثير من الحقائق التي تصلح أن تكون مادة أُولى لذوي التحليل المنهجي من صفوة المؤرّخين، بل إن ما كتبه الأستاذ في موسوعته الحافِلَة (خطط الشام) بأجزائها السبعة الكبار شبيه بما كتبه هؤلاء من سَرْد الحقائق دون تحليل وما كان له أن يمتدّ في التحليل كيلا يتّسع المجال دون تحديد، وهذا عذره الذي يلمسه الناقدون، ويقدّمون له خالص الشكر على ما صنع، فليكن هؤلاء ممّن ترسموا صنيعهُ في كتاب «الخطط» بالذات.

والمؤلّفُ الكبيرُ على قسوته ببعض الناس قد مدح كثيراً من أهل الفضل، ونوّه بمآثرهم الخالدة، وأشار إليهم بأسمائهم وأمجادهم، فكان مُنصِفاً غاية الإنصاف، وأذكر أنه كتب عن أمين الرافعي رحمه الله مآثر حيّة، يستضيء بها ذوو الشمم والترفّع والإباء، وسننقل بعضها في مناسبته.

وكانت قراءة الأستاذ الكثيرة في صُحُف التاريخ والاجتماع مع نظرته البصيرة إلى ما يجري في المجتمع الإنساني شرقاً وغرباً من تقلّبات مما أمدّه بموازنات اجتماعية ذات حظّ من الصواب.

فهو في القول عن تبدّل الأوضاع، ينصّ على أن الناس كانوا في القرن الماضي أقرب إلى السلامة والفطرة، وإلى هُدى الدين وتعاليم الحكمة، وبهجوم المدنية عليهم بما تحمل من الشهوات والمُغريات، وبما جدّ من المعارف المتذبذبة، تزعزعت العقائد، وتطوّرت العادات، واشتدّت الأَثَرَة.

وكان الناسُ من قبل، أقرب إلى الإيثار، ويرون من واجبهم أن يعطفوا على المعوز والمحروم، ويجاملوا الجار والعشير، ولكن أحوالهم اليوم على النقيض، وتعليل ذلك في منطق الأستاذ أن النفقات كانت محدودة، يظن كلّ مَن يطعم طعاماً عادياً، ويلبس لباساً خشناً، ويملك كوخاً ضيقاً أنه حاز أسباب السعادة، فلما

أقبلت المدنية الحديثة كثرت المطالب، فاستلزمت الحياة الجديدة بالضرورة كدحاً متواصلاً، وكان التاجر إذا عمل ساعات قليلةً يربح ما يكفيه أياماً، فصار يصلُ النهار بالليل ليكسب عيشه، وغدا أقلّ إهمال منه في عمله، يطرحه إلى الحضيض جانباً، فيفلس ولا يجد مَن يرحمه[1].

وهذا ما ذكره الأستاذ منذ نصف قرن ولو عاش بيننا اليوم لرأى صدق رأيه في صور مضخّمة كبيرة، إذ إن متطلبات المدنية في جيلنا الراهن، وقد زادت زيادة جعلت الحياة أشبه بدوّامة هائلة لا تعرف الاستقرار، ولا أدري كيف يكون مصير الأجيال القادمة لو امتدّ هذا الإسراع المزعج، فسلب الناس وسائل الراحة والهدوء، وجعلهم أشبه بالآلات.

على أني أرى أن كل زمن لا يخلو من أهل الخير والإيثار، فإذا ذهب الكاتب إلى أن الجيل المنصرم قد ذهب بالمكارم، وأبقى الأثَرَة والأنانية، فقد يطمئنه بعض الشيء أن يعلم أن رحمة الله قد وَسِعَت الناس، وأنها أكرمُ وأوفى من أن تنزع مظاهر الرحمة الحانية انتزاعاً، بحيث لا يبقى لها بين الناس من أثر.

وفي مجال المقارنات الطريفة بين الأمس واليوم ذكر الأستاذ: أن الناس إلى عهد قريب كانوا يرون من المروءة أن يطعم المرءُ مَن يعرف ومن لا يعرف، ومن العار أن يهرب من وجه الضيف، مهما كان المضيف فقيراً معدماً، وما كان للكرم عندهم حدّ ينتهي إليه، وكلما ظهرت على بعضهم أماراته، ردّدوا آيات الثناء عليه. وإذا أعْوز لووا وجوههم عنه، فعلَّمَ الزمنُ هؤلاء المُسرِفين أنَّ هذا الكرم الذي طالما أوْدَى بالبيوت فدكّها دكّاً، لا يُوجبه شرع، ولا عقل، فعاد القوم يعتدلون في سخائهم، ويقتصدون في مآدبهم، وكأن عادة إطعام الطعام هي من بقايا أخلاق البادية، لم تنزعها منهم سكنى الحواضر والدساكر[2].

ومع صدق هذا الكلام في أكثره، أظنه كان مَدعاة تعقيب من الأستاذ، إذ كان عليه أن يعلن أن الكَرَم شيءُ حبيب، وأن الإسراف في الكَرَم هو الشيءُ

---

(١) أقوالنا وأفعالنا، للأستاذ كرد علي، ص ٩١.

(٢) أقوالنا وأفعالنا، للأستاذ كرد علي، ص ١٢٥.

المنتقد المعترض عليه، وأن وجود الكرماء ضرورة محتومةٌ، ليصونوا وجوه المحتاجين، وإذا قَلَّتْ مظاهر الكَرَم اليوم فليس المراد أنه انقطع عن الناس نهائياً، فأنا أعرف في هذه الشدّة اللازمة التي أخذت بأكظام الناس رجالاً يبذلون عن سعة لا تعرف الضيق، وليسوا من ذوي اليسار المُفرِط الذي يدعوهم إلى الاتساع الممتدّ دون حَرَج، فهم قومٌ مستورون آووا إلى كرم الله ورحمته فأمدّهم بالنفس الخيّرة، وسهّل لهم سُبُل الكَرَم.

وقد يكون من باب الاعتراف بالحق أن أذكر من بين هؤلاء: أخي البرّ العارف بالله، الأستاذ: محمود أحمد هاشم، إذ إن جميع المصلّين يوم الجمعة بمسجده في قرية (بني عامر) بالشرقيّة، لا بدّ أن يتناولوا طعام الغداء لديه، وقد يتجاوزون المائة والمائتين، فتتّسع لهم المآدب دون ضيق، وهذا ما أعجبُ له، وأراه لغرابته الزائدة فوق التعليل.

وفي حديث الأستاذ عن الشُّهرة والإعلام نظرات المجرّب الفاحص، إذ أعلن صادقاً أن الشُّهرة، تكذب، فرُبّ تاجر عُرِفَ بحُسْن معاملته وسلامة ذمّته فما أولاهُ قومه الثقة التي يستحقّها، وانصرفت الوجوه إلى مَن هو أحطّ منه يعاملونه مسرورين، وذلك بفضل الإعلان المموّه، ثم ضرب المؤلّف مثلاً بمَن يزاولون التأليف العلمي، : إذ يشتهر بعضهم على قلّة جدواه، ويهمل بعضهم الآخر على جزيل نفعه، والخلق يقلّد بعضهم بعضاً بالإشادة بمَن اشتهر دون استحقاق، وبالانصراف عن المكدّ المستقيم إذا لم يشتهر.

وامتدّ الأستاذ في هذا النطاق ببصره إلى ابن خلدون ـ وكثيراً ما يَرِدُ مورده في مؤلّفاته فأشار إلى قوله عن الشُّهرة والصيت قلّ أن صادفا موضعهما مع أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين، فكثيرٌ من الناس قد اشتهر بالشرِّ دون أن يأتيه، وكثيرٌ منهم قد اشتهر بالخير وما عرف وجهاً من وجوهه، وسبب ذلك أن الشُّهرة قائمةٌ على الأخبار، والأخبار مدخلها التزيّد والتعصّب والجهل واتّباع الأهواء، ومُجاراة العلية والكبراء.

ومن أفضل أبواب الكتاب ما ذكره تحت عنوان: (القول في بُغضنا للأجانب) فهو نفثاتٌ صادقة حارّة، سبق للكاتب أن صدر عن مثلها في كتابه البارع: (غرائب الغرب) وقد أحسن السّرد والتعليل والتشخيص بما لا مزيد وراءه، ومن نظراته الثاقبة قوله:

«وبعد فإن العرب لعهدنا في حيرة مع كثير من الأفرنج، إن تقرّبوا منهم قالوا يُصانعوننا خوفاً منّا، وإن أكرموهم لبّوا ضيافتهم، ثم وصفوهم بالإسراف، وضحكوا من عاداتهم. وإن هادوهم قَبِلوا هداياهم، وهزأوا بذوقهم وكرمهم، وإن أعرضوا عنهم قالوا إنهم متوحّشون، لا يعرفون معنىً للعِشْرة، ولا يحبّون التمازج، وإن ناقشوهم بعض أغلاطهم احمرّت أعينهم ووصفوهم ببغض الأجانب وهكذا حَارَ العرب في استرضاءِ هؤلاء الغربيين، الذين يدّعون التفوّق علينا في كل شيء»[1].

واستطرد الأستاذ إلى أمثلة واقعيّة مُخجِلة، وألمح إلى أسماء أصحابها، وهم على حُسْن مراكزهم الرسمية ساقطون منحدرون.

إن آثار الأستاذ الكبير محمد كرد علي تضمن له الخلود، وتضعه في مصاف الروّاد بين قادة النهضة الإسلامية، وأرباب القلم الدائب المجاهد من كُتّاب العروبة، وفي قراءة هذه الآثار حوافز إلى العمل المُثمِر، والاطّلاع الدائب والكفاح المتّصل، لأن صاحبها الكبير لم ينقطع يوماً واحداً عن التحبير والتأليف... رحمه الله.

(١) أقوالنا وأفعالنا، ص ٢٩٧.

أحمد محمد شاكر
محـــــدّث محــقّق نــاقد

كان الأستاذ أحمد محمد شاكر، عـالِماً مبـرزاً في فنون كثيـرة، فهو محـدّث فقيه محقّق ناقد، وقد انتقل إلى رحمة الله في يـوم السبت ٢٦ من ذي القعدة سنـة ١٣٧٧ هـ الموافق ١٤ من يونيه سنة ١٩٥٨ م، ومضت الأيام دون أن يخصّه كـاتب بتاريخ مُنصِف، ولا أدري لماذا سكتت المجلاّت الدينية ـ على الأقـل ـ عن تحليل آثاره العلميّة، وهو عالِم فقه، وقاضي شرع، وإمام حديث!.

لقد قرأت أكثر ما كتب الأستاذ نشراً وتحقيقاً، وبحثاً وتأليفاً فعـرفت له سبقـاً وتبـريزاً وحجـاجاً ذا دفـعٍ وجذب، وأنـا أعـرف لـه من الأصـدقـاء والتـلاميـذ مَن يستطيعون الحديث عنه بإشباع وإمتاع، فأين هم؟.

لقد تتبّعت المجلاّت ـ علمية وأدبيّة ـ فعزّني أن أجد من هؤلاء مُنصِفاً يترجم له في إيجاز، فيقضي حقّ العلم والتاريخ، ولم أكن ذا صلة شخصيّة به فأعرف من تقلّب الأحوال معه تعلّماً وتعليماً ما أستطيع أن أجد منـه المدد المتّصـل للحديث، ولكنّي أحتفظ بعدد من أعداد (المجلّة) يتضمّن شـذوراً صالحـةً عنه، ويُخَيَّـلُ إليّ أنهـا استُمدّتْ من مصـدرٍ معتمد، ولـولا أني أعرف جـزالة شقيقـه الكاتب الفحـل الأستـاذ محمود محمـد شاكـر، وأُفْقهُ مـلامح بيـانه الصـاعد المَكين، لتـوهّمتُ أنه الكاتب، فلعلّه أمدّ المجلّة بـالمعلومات فحسب، وقـد رأى لنزاهـة نفسه أن يتـرك

الحديث التحليليّ لإنسانٍ لا يتّصف بالغرض، إذا مدح عن حق. كما ترك الحديث عن والده العالِم العلم لِلتَّعلّة نفسها.

وأذكر أن الإمام الأكبر الدكتور: عبد الحليم محمود، حدّثني أنه ألحّ على الأستاذ محمود أن يكتب سِيرة أبيه، وأن يجمع آثاره في الجرائد اليوميّة فآثر الصَّمت، فهل يستجيب إذا أعدت عليه رجاء الإمام الفقيد؟ مهما يكن من شيء فليس لديَّ من تاريخه العملي ما أتحدّث به غير ما نُشِرَ بالعدد التاسع عشر من مجلّة (المجلّة)، وقد صدر في ذي الحجة من سنة ١٣٧٧ هـ الموافق شهر يوليو سنة ١٩٥٨ م وفيه غناء.

وُلِدَ الأستاذ في يوم الجمعة ٢٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠٩ هـ الموافق ٢٩ من يناير سنة ١٨٩٢ م، وكان والده أميناً للفتوى بمصر، فقضى من طفولته ثماني سنوات بالقاهرة، ثم سافر معه إلى السودان، حيث عيّن الوالد الكبير في منصب قاضي القضاة بالسودان، وهو أكبر منصب علمي ودينيّ هناك، فقام الوالد ببطولات نادرة ذات شجاعةٍ حفظها التاريخ، ثم عاد إلى مصر مع أُسرته بعد أربع سنوات، ليتولّى مشيخة العلماءِ بالإسكندرية، وليُنشىء النظام الحديث بالأزهر بعامّة.

فالتحق أحمد بالمعهد الديني، وأكبّ على التحصيل إكباباً أظهر معدنه، ومهّد لغده، وكان من حظّه أن يأخذ الفقه والأصول عن أستاذ مبرز هو الشيخ: محمود أبو دقيقة عضو جماعة كبار العلماء فيما بعد.

وكان في المُدَرّس منزع للرياضة البدنية، فحبّب لتلميذه أن يركب الخيل فارساً، وأن يتعلّم الرماية والسباحة، وهكذا كانت نشأته بالمعهد ذات علم وعمل ورياضة.

على أن الأثر الأول في تكوينه العلمي يرجع إلى الشيخ الوالد، فقد قرأ له ولجميع أشباله تفسير القرآن في شرحي البغوي والنسفي، ولعلّ الشيخ الأكبر آثر تفسير البغوي لينبّه على ما ازدحم به من الإسرائيليات، فمثل هذا العلّامة لا يختار ما يدرس إلّا عن قصد، ثم قرأ صحيح مسلم، وسُنن الترمذي والشمائل، وشيئاً

من صحيح البخاري، وارتقى بمَن يتابع تحصيلهم فقرأ لهم علم الأصول في جمع الجوامع، وشرح الأسنوي على المنهاج، وكذلك قرأ في المنطق شرح الخبيصي، وشرح القطب على الشمسية.

أما الفقه فقد درس فيه كتاب الهداية عن نزعة استقلالية تنبذ التعصّب المذهبي، وتعتمد الحق وحده حين يقوم عليه الدليل، ولعلَّ عناية الوالد بعلم الحديث هي التي أوقدت هِمّة الطالب الناشىء إلى التعمّق في هذا الفنّ، فأصبح شغله الشاغل، وأخذ يلوذ برجاله في الأزهر وفي خارجه، ولم يترك محدّثاً ذا نباهة حتى اغترف من ينبوعه وبخاصة علماء المغرب، ومنهم: السيد عبد الله بن إدريس السنوسي، والشيخ: محمد بن الأمين الشنقيطي، والشيخ: أحمد بن الشمس الشنقيطي، كما أخذ عن الشيخ: شاكر العراقي، والشيخ: طاهر الجزائري، والسيد: محمد رشيد رضا، ولعلّه أخذ عن سليم البشري شرح الموطّأ، وعن حبيب الله الشنقيطي صاحب زاد المسلم، لأن الطالب الطُّلعة لم يغادر من محدّث، إلّا نهل من فيضه، يقول مترجمه في مجلّة المجلة:

(وهذا اللقاءُ المتتابع للعلماءِ، هو الذي مهّد لهذا العالِم أن يستقلّ بمذهب في علم الحديث، حتى استطاع أخيراً أن يقف في منتصف هذا القرن عَلَماً مشهوراً لا ينازعه في إمامة التحديث غير القليل)[1].

وبعد أن أحرز شهادة العالمية عام (١٩١٧) عُيّن مُدَرّساً بمدرسة عثمان ماهر لأربعة أشهر، ثم انتقل إلى القضاءِ فظلّ به حتى صار عضواً بالمحكمة الشرعية العليا، وأُحيل إلى المعاش في سنة ١٩٥١ م، وهو في كل يوم من أيامه لا يترك البحث العلمي محقّقاً ومؤلّفاً، حتى ترك ذخيرة ممتازة من التأليف والتحقيق، ولا تجد أحداً من أهل العلم غير مُعترف بسَبْقِه المُبرز وجهده الموفَّق، وذلك الإجماع الواثق ذو مغزى كبير.

---

(١) مجلة المجلة، العدد ١٩، ص ١٢٠.

وجد الفتى أحمد في أول نشأته العلميَّة مَن وجّهه إلى الأدب والحديث معاً، ثم بَدَا له فترك الأدب إلى التعمّق في الحديث، وأقول: ترك الأدب على طريق من التجوّز، لأنه نشر الكتب الأدبيّة ذات المستوى الرفيع مُحقّقة مشروحة، كالمفضليات، ولُباب الآداب، والشعر والشعراء، والمعرّب، وهذا جهد لو اقتصر عليه وحده لعُدَّ بِه من كبار المحقّقين في هذا الميدان.

ولكنّ جهده الضخم في خدمة الحديث النبوي قد ضاءل من جهده الأول، كما تُضائِل الشمس من نور القمر، والقمر هو القمر مهما ضَؤُل في مرأى العين، على أن دراسة الحديث قد شعَّت عليه من كل جهة، كما يشعّ ضوءُ المَاسَة النفيسة ذات البريق الخاطف في كل اتجاه، إذ جعلته فقيهاً متمكّناً ثَبْتاً يعالج مسائل الفقه والفتوى والقضاءِ بما لم يسبق به، لأن الحديث معه يأخذ منه دون تقليد، كما جعلته مؤرّخاً يطبّق قواعد «المصطلح» على روايات التاريخ، كما يطبّقها المتحرّزون على روايات الأثر النبويّ الكريم.

وإذا كنّا نعلم أن الأثبات من رجال التاريخ قد خرجوا من حلقات أساتذة المحدّثين، فلا غرابة في أن نجد روح المؤرّخ ظاهرة لدى أحمد شاكر في كلّ ما كتبه من نقود لكبار المؤرّخين في العصر، ولسابِقِيهم من مؤرّخي العصور السّالفة وأكثر ذلك فصول متناثرة في مَطاوي المجلاّت المعاصرة سنُشير إلى بعضها بعد حين.

وأعظم ما استفاد من دراسة الحديث هو ذلك المسلك الخلقي النّزيه الذي لزمه في مناقشة الآراء العلمية، إذ كان يرجع إلى الحق حيث رآه، ولن يكون الحديث حديثاً نافعاً لدراسة المجتهد إلاّ إذا اعتصم بآدابه، فجعل الأمانة العلمية سبيله الأكيد، وقد كنت أتمنى أن أكون من رجال الحديث لأستطيع أن أُفصِح عن بعض مجهوده في هذا النطاق عن بصيرة كاشفة، وغور موغل، ولكن جهودي المتواضعة قد وقفت بي في هذا المجال لدى ما يقف لديه طالب الأزهر في سنواته الدراسية فحسب!.

ولعلّ الذين تحدّثوا عنه من كبار الفاقهين في مجال السُّنَّة المباركة أولى بالاهتمام والنظر، وأستشهد بما قاله الأستاذ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السُّنّة، وأحد مَن شارك الشيخ جهوده في خدمة الأثر النبوي، إذ نشر من كتب الأثر ما حفظ له مكانه بين المحدّثين، وقد أنصف زميله الشيخ شاكر حين قال عن جهده الكبير في تحقيق «مسند أحمد»(١):

«أحبَّ صديقي الشيخ: أحمد محمد شاكر السُّنَّة المطهرة منذ شبابه الأوّل، وشغف بفقهها، والتَّعمّق في علومها، والتنقيب عن روائعها، ونفائس كتبها، وما زال يتعهّد هذا الحبّ وينمّيه ويسقيه بما يُتيح له الله من التوفيق، فجمع كتب الحديث وعلومه، المخطوط منها والمطبوع في كل بلدان العالم، ممّا جعل مكتبته لا نظير لها مطلقاً، عند عالِم ممّن أعرف، على كثرة مَن أعرف في البلدان الإسلاميّة.

وقد وهبه الله صبراً دائِباً على الدرس، وحافِظَة قوية لا يكاد يندّ عنها شيءٌ، وذوقاً رفيعاً في استكناه الآثار، واعتبارها بالعقل والنقل، وإجالة النظر، وإعمال الفكر دون تقليد لأحد، أو تقبّل لرأي مَن سبق.

وقد ساهم الأستاذ في إحياء كتب السُّنّة مساهمة مشكورة، فنشر كثيراً من كتبها نشراً علمياً ممتازاً، وهو يتوّج أعماله بنشر كتاب (المسند) للإمام العظيم: أحمد بن حنبل، والمسند مع نفاسته لا يكاد يستفيد منه إلاّ مَن حفظه على طريقة الأقدمين وهيهات... ولقد كانت صعوبة المسند مصدر شكوى من كبار المحدّثين وأعلامهم، وهذا ما جعل الحافظ الذهبي يقول: «فلعلّ الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامي مَن يخدمه ويبوّبه، ويتكلم عن رجاله، ويرتّب هيئته ووضعه».

ولعلَّ دعوة الذهبي قد أُجيبت بما صنع الشيخ شاكر في نشر هذه الطبعة الممتازة، التي كانت أُمنية حياته، وغاية همّه سنين طويلة، فقد جعل لأحاديث

---

(١) مجلة الكتاب، السنة الثانية، إبريل، سنة ١٩٤٧م، ص ٩٠١.

الكتاب أرقاماً متتابعة، كانت كالأعلام للأحاديث بنى عليها فهارس ابتكرها، منها: فهرس للصحابة رواة الحديث، مرتَّب على حروف المعجم، وفهرس الجرح والتعديل، وفهرس للأعلام والأماكن التي تذكر في متن الحديث، وفهرس لغريب الحديث. . . إلخ.

هذا بعض ما يقال في التعريف بالمسند، قاله محدّث متخصّص دارس، وقد قال: إن دعوة الحافظ الذهبي قد استجيبت بصنيع الأستاذ، وهذا حقٌّ يجب أن يُضاف إليه حقٌّ آخر، هو أن العالِم الربّانيّ الشيخ المغفور له «أحمد عبد الرحمن البنّا الساعاتي» قد أصدر كتابه الحافل: (الفتح الربّانيّ في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني) قبل أن يبدأ الأستاذ شاكر في إخراج المسند، فسار في الطريق خطوات فساحاً، لها أجْرها المدَّخر عند الله، ولسنا نوازن بين عملَيْن يختلفان ويتّفقان، ولكننا نحفظ لكل عامل جهده المُكافح، لا سيما مَن كان متواضعاً صامتاً مُستتراً كالشيخ الساعاتي رحمه الله، على ضيق اليد، وقلّة النصير.

ومن طريف ما يُحمَد للأستاذ البحّاثة الدؤُوب: محمد عبد الغني حسن أنه احتفى بالمسند مرّات شتّى، إذ جعل صدور بعض الأجزاء حافزاً متوالياً للحديث عن مسند أحمد وجهد أحمد شاكر فيه، وقد قال عنه بمناسبة إخراج الجزءِ العاشر:

«ليست مهمة الأستاذ المحقّق الشيخ: أحمد شاكر في تبويب هذا المسند وترتيبه وضبطه، فإن هذا عمل لا تكتفي به هِمّة صديقنا المحقّق الدؤُوب. . . إنه تخريج لكل حديث من حيث إسناده صحةً وحُسْناً وضعفاً، إنه تحقيق لأسماء المحدّثين وأعلام الإسناد، إنه مِفتاح لرجال السند حين يريد القارىء أن يتزوّد بتراجمهم في كتب الطبقات والتراجم، إنه بضعة طيبة من معجم وثيق لغريب الحديث، حين يشرح المحقّق كلمة أو يفسِّر لفظاً، إنه ضبط صحيح بالحروف لا بالحركات لأعلام الرجال الذين تزدحم بهم صفحات المسند ازدحاماً يتّفق مع كتاب ضخم.

إنك إذا قلبت هذا الجزءَ بين يديك فإنك واجد أن متن الأحاديث يشغل من كل صفحة سطراً، أو بضعة أسطر على حين يشغل التحقيق والشرح والتعليق

عشرات من السطور في كل صفحة... وقد بلغت الأحاديث التي ضبطها وحقّقها المحقّق إلى نهاية الجزء العاشر ٦٧١٠ أحاديث مذكورة على غير أبوابها، ولكنّ الشيخ شاكر جعل لها في نهاية كل جزء فهرساً للأبواب يَرد فيه كل حديث إلى رقمه، وقد اختلفت الأبواب بين الإيمان والقرآن، والسُّنّة، والعلم، والذِّكر، والدعاء، والطهارة، والصلاة، والجنائز، والزكاة، والصدقات، والصيام، والحج، والفرائض، والوصايا، والمعاملات، والرقّ، والعتق... إلخ»(١).

والحديث النبوي سلوك وعمل قبل أن يكون كلاماً وحروفاً، والتزام المحدّثين ـ أو الخيار منهم ـ بأوامر الحديث ومنهيّاته ممّا يجعل لهم قدم صدق عند الله.

وقد كان في سلوك الشيخ المحدّث ما يُضيءُ صحيفته على رؤوس الأشهاد، إذ إنَّ أبرز صفاته الواضحة هي الأمانة العلميّة الدقيقة، حتى لتصلح هذه الأمانة أن تكون مِفتاح شخصيته، وفي فلكها سنقدّم من مواقفه علماً وعملاً ما يدلُّ على سلامة الاتجاه، وطهارة الحافز، وخلوص النيَّة، ولعلّ السِّمة الأولى من سِمات هذه الأمانة هي البراءة من الأثَرة المريضة التي تتضخم وتتّسع لدى بعض الكاتبين، حتى ليظنّ الواحد منهم أنه لا ينطق عن الهوى، فإذا نهض لمناقشته مُعترِض ظن ذلك حسداً يختفي وراء المعارضة، وأخذ يركب اللجاج في الجدل، فما يرعوي عن مكابرة في حق، وتعضيد لباطل.

وقد تنزّه الأستاذ عن هذه الأثَرَة المريضة، فأنا أعرف له من المواقف الحميدة ما يؤكد هذه النّزاهة بإشعاع وتألّق، ولا شكّ أن مَن كانوا على صلة شخصية به يعرفون له في هذا المجال أكثر مما أعرف، وإذا كنت لم أرَ شخص الأستاذ مع معاصرته إيايّ، فقد رأيت علمه وتحقيقه وفقهه، وذلك يجعلني أقرب إليه ممّن رآه وخالطه، ولم يقرأ ما نشر وكتب وحقّق، فلأضرب المثل الساطعة على نزاهته العلميّة بما أعرف عنه من الأنباء:

---

(١) مجلة الكتاب: السنة السابعة، جـ ١٠، ص ١٢٤٥، ديسمبر، سنة ١٩٥٢ م.

أ ـ لقد أصدر الأستاذ رحمه الله كتابه المجدِّد (نظام الطلاق في الإسلام) فصدر عن اجتهاد صائب، وبحث حرّ، إذ سار على طريقة السّلف من الرجوع في استنباط الأحكام إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله دون تقيُّد بأئمة المذاهب الأربعة وحدهم، إذ يأخذ من أقوالهم ويدع كما يسفر له الدليل.

وكان واسع النظر حين درس فقه الشيعة واعتمد عليه في مسألة خاصّة هي وجوب الإشهاد على الطلاق أخذاً بقول الله عزّ وجلّ: ﴿ فإذا بَلغن أَجَلَهُنَّ فأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْروفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهدُوا ذَوي عدل مِنْكُم وأَقِيمُوا الشَّهادَة لِلَّهِ ﴾ [الطلاق ٦٥، آية ٢] ومستنداً إلى قول ابن عباس في تفسيره، ثم كشف اللثام عن صحة وقوع الطلاق المثلّث مرّة واحدة بأدلة حصيفة ذات نظر محكم.

وكتاب مبتكر كهذا الكتاب لا بدَّ أن يترك عاصفة من النقد، فنهضت فئة من المجلّات الأسبوعية والشهرية لمعارضته، وكان ممّا يؤسف له حقّاً، أن يفسح أصحابها المجال لنفر من صغار المتعلمين لا يبلغون مبلغ الأستاذ كي يتطاولوا عليه بغياً دون علم.

أما الذي نقد الكتاب عن بصر ودراية فهو الأستاذ الإمام: محمد زاهد الكوثري، رحمه الله إذ ألّف كتابه (الإشفاق في أحكام الطلاق) مليئاً بما يؤيّد الرأي الآخر عن بصر ونفاذ، ولست أذهب مذهب الكوثري في تشدّده، ولكنّي أعترف أنه كفءٌ لصاحبه، ولكل وجهة هو مولّيها.

وفي غمار هذه المعركة التي أدارها المتشدّدون ـ أُصلاءُ ودخلاءُ ـ جاءَ إلى المؤلّف خطاب شخصي من شيخ علماء الشيعة بالعراق، وإمام مجتهديهم الشيخ العلّامة محمد الحسين آل كاشف الغطاء، أثنى فيه على جهود الشيخ أحمد بدءاً، ثم كرّ على مخالفته في أُمور هامّة تتعلّق بوجوب الإشهاد في الطلاق دون الرجعة، في الفقه الشيعيّ موضحاً أدلّة الإماميّة في ذلك، فاقتضت نزاهة الأستاذ شاكر أن ينشر على صفحات الرسالة ما تضمّنه خطاب شخصي يعترض على بعض النقاط

في كتابه، وقد قال ممهّداً لذلك[1]:

«وممّا يجب عليّ إحقاقاً للحق، وإتباعاً لسبل الهدى، أن أُفكّر فيما ورد على كتابي من اعتراض ونقد، وأبعد النظر فيما اخترت ورأيت، وأكشف عن حجة خصمي (لا أدري لماذا أستثقل كلمة الخصم هذه، وأُفضِّل سواها مهما سمحت اللغة) وعن حجّتي لي وللناظرين، فإمّا انتصر قول خصمي فرجعت عن قولي، وإما انتصرت لقولي وزدْته بياناً وتأكيداً، لا أُبالي أيّ ذينك كان، وإنما أنا طالب علم، فأيّ قول أو رأي نصره عندي الدليل، فإنه العلم الذي أطلب، وأسعى إليه لا أبغي بذلك بدلاً».

ثم أعقب ذلك بكتاب العلّامة كاشف الغطاء متبوعاً بما يراه المؤلّف من نقاش، ولم يُبالِ بما يعرفه من أن صغار مُخالِفيه في المجلّات المنابذة، سيجدون في خطاب العلّامة العراقي الكبير ما يواصلون به الشغب الجدليّ القاصر عن ادّعاءٍ، وتلك هي النّزاهة المبتغاة!.

ب ـ عُرِفَ إمام عصره، وقمّة العلماء في عهده، أستاذنا الأكبر الشيخ: محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق بالاجتهاد الصائب، والاهتداء الثاقب في أحكام فقهية مُشتهرة، وكان مما رآه رضي الله عنه أن يكون الحساب الفلكي بديلاً عن الرؤية الشخصية في إثبات أوائل الشهور العربية، فنهض لمخالفته فريق من كبار العلماء أطالوا الجدل حتى تعبوا وأتعبوا، وكان في طليعتهم والد الأستاذ: أحمد شاكر، وهو أستاذنا العلّامة البحّاثة الشيخ: محمد شاكر شيخ الكبار من العلماء لعهده.

وكان الشيخ أحمد ممّن اعتقد بدءاً بصحة فتوى والده الكبير، فكتب مقالات تؤيّد مَنحاه عن ثقة جازمة، ثم بَدَا له بعد التحقيق والتريّث ما يخالف وجهة نظره ونظر والده الإمام، فلم يفقد أمانته العلمية قيد أُنملة، بل خرج على الناس برسالة

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الرابعة، ص ١٠٩١، سنة ١٩٣٦ م.

صغيرة كتبها في حياة أبيه، يعلن فيها انتصاره لرأي الإمام المراغي، ويقول ما نصّه:

«لقد كان للأستاذ الأكبر الشيخ المراغي منذ أكثر من عشر سنين حين كان رئيساً للمحكمة العليا الشرعيّة، رأيٌ في ردّ شهادة الشهود، إذا كان الحساب يقطع بعدم إمكان الرؤية، كالرأي الذي نقلته هنا عن تقي الدين السبكي، وأثار رأيه جدلاً شديداً، وكان والدي وكنت أنا وبعض إخواني ممّن خالف الأستاذ الأكبر في رأيه، ولكني أُصرّح الآن أنه كان على صواب، وأزيد عليه وجوب إثبات الأهلّة بالحساب، في كل الأحوال، إلّا لمَن استعصى عليه العلم».

جـ ـ كان انتماء الطالب أو الأستاذ بالأزهر في أوائل هذا القرن، وما تقدّمه من القرون الماضية، إلى مذهب فقهي معين كالشافعي، أو الحنفي، أو المالكي، أو الحنبلي مدعاة تعصّب شائن لدى الكثيرين ممّن يتجاهلون أن أئمة الإسلام جميعاً أصدقاء، يعملون في جبهة واحدة، وأن طالب الفقه عليه أن يَرِث علم الشافعي، كما يرث علم أبي حنيفة وأضرابهما دون استعلاء، وقد ترجع أسباب هذا الضيق المذهبي إلى أمور مادية أو معاشية ليس هنا مجال الكشف عنها، بعد أن آذنت سحائبها الآن بالانقشاع.

وحين كان الكثرة من قُضاة المحاكم الشرعية بمصر يعتزّون بالمذهب الحنفي وحده، ويرون أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه إمام الأئمة أجمعين، عمد الأستاذ: أحمد محمد شاكر إلى تحقيق الرسالة للإمام الشافعي تحقيقاً لا يكاد يُعرَف نظيره ـ وأقولها بكل وثوق ـ في دنيا النشر المعاصر، فاعتمد على أقدم نسخة من الرسالة بخط الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي المُشافه، وقارنها بغيرها من النسخ، وضبط بالترجيح كل خلاف يراه، وخرَّج الأحاديث النبوية تخريجاً يصل به إلى كتابة صفحات متتابعة عن حديث واحد، يتناول المتن والسند بما يندر من التحقيق، حتى جاءت الرسالة في سبعين وستمائة من الصفحات فوق مقدمتها التي تبلغ المائة، مع أنها في طبعتها البولاقية لا تزيد عن اثنين وثمانين من الصفحات.

وليس هنا مجال الحديث الشافي عن جهد الأستاذ في تحقيق رسالة الشافعي، ولكنّي أُمهّد به لذكر ما قاله القاضي الحنفي الكبير عن الإمام الشافعي في مقدمة الرسالة ص (٥) وما بعدها، حين شهد بأنه «يعتقد غير غالٍ ولا مُسرِف، أن الشافعي لم يظهر مثله في علماء الإسلام في فقه الكتاب والسُّنّة، ونفوذ النظر فيهما، ودقّة الاستنباط مع قوة العارضة، ونور البصيرة، والإبداع في إقامة الحجّة، وإفحام المناظر، فهو صحيح اللسان، ناصع البيان، في الذروة العالية من البلاغة، تأدّب بآداب البادية، وأخذ العلوم والمعارف عن أهل الحضر، حتى سَمَا عن كل عالم قبله وبعده».

ثم قال في ختام حديثه «وقد يفهم بعض الناس من كلامي عن الشافعي أني أقول عن تقليد وعصبيّة، لما نشأ عليه أكثر أهل العلم في قرون كثيرة، من تفرّقهم شِيَعاً وأضراباً علميّة، مَبْنية على العصبيّة المذهبيّة، ممّا أضرّ بالمسلمين حتى صاروا يحكمون بقوانين تخالف دين الإسلام، خنعوا لها واستكانوا، في حين كان كثير من علمائهم، يأبون الحكم بغير المذهب الذي يتعصّبون له، ويتعصّب له الحكّام في البلاد.

وقد نشأت في طلب العلم، وتفقّهت على مذهب أبي حنيفة، ونلت شهادة العالميّة من الأزهر الشريف حنفياً، ووُلّيت القضاء منذ عشرين سنة، أحكم كما يحكم إخواني بما أذن لنا في الحكم به من مذهب الحنفيّة، ولكني بجوار هذا بدأت دراسة السُّنّة النبوية أثناء طلب العلم من نحو ثلاثين سنة، فدرست أخبار العلماء والأئمة، لم أتعصَّب لواحد منهم، ولم أجِد عن سُنّة الحقّ فيما بَدَا لي، فعن هذا قلتُ ما قلتُ، واعتقدت ما اعتقدت في الشافعي رحمه الله ورضي عنه».

ومما نلفت إليه النظر في مجال الحديث عن تحقيق هذه الرسالة، أن العزّة العلميّة لم تمنع محقّقها أن يذكر في مقدمتها أسماء إخوانه من العلماء، ممّن رجع إليهم فقهيّاً ولغويّاً ونحوياً في بعض مشكلاتها، وهو إنصاف حميد.

د ـ نشر الأستاذ: أحمد شاكر كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة محقّقاً مضبوطاً، في جزءَين كبيرين، أخرجتهما في طبعتهما الأخيرة دار المعارف إخراجاً

جيّداً، وقد قال المحقّق في مقدمته «وخير مـا ندلّ بـه على منزلـة هذا الكتـاب من العلم، وعلى فائدته للعلماء والمتأدّبين، أن نخرجه إليهم إخراجـاً صحيحاً متقنـاً، وعلى مـا أستطيـع بجهـدي القـاصـر، بـأني رجـل جـلّ اشتغـالي بعلوم الحـديث والقرآن، إلاّ أني أرى أن الأدب والشعر هما أكبر عون في فقه القرآن والسُّنّة، ومـا أستطيع أن أزعم أني أهْلٌ لمثل هـذا العمل، إلاّ أن أبـذل ما في وِسعي، والتـوفيق والعون من الله».

وذلك قول ظلم بـه الأستاذ نفسـه، لأن جهده الكبيـر لم يقتصر على القـرآن والسُّنّـة ـ وهما مـا هما ـ بـل تعدّاهمـا إلى كتب الأدب واللغة، فنشـر المفضليـات للضَّبّي، والمعرَّب للجواليقي، ولُبـاب الآداب لأُسامـة بن منقذ، والشعـر والشعراء لابن قتيبة وغيرها، كما أشرنا من قبل، وكان في ذلك سابقاً غير مسبوق.

وقد صادف أن تعرّض تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء لنقد علمي دقيق، كتبه البحّـاثة المحقّق النقّـاد الأستاذ سيّـد أحمد صقـر، ونشره بجـزئين من أجزاء مجلة الكتاب القاهرية، فقرأ الأستاذ شاكر النقد معجباً، وأخبـر صاحبـه بأنـه سينشره في الـطبعة المقبلة، ليقف القـرّاء عليه، ووفى بمـا وعد، ومـوضع الـدهشـة في هـذا الصنيع المثالي، أن الناشر المحقّق في صميم رأيه لا يوافق على كثيـرٍ مما أتى بـه الناقد الدقيق، ولكنه عمـل على نشر النقـد ليكون القـارىء على بيّنة من اختـلاف وجهات النظر بين المحقّق وناقده، وهذا ما عبّر عنه الأستاذ أحمد شـاكر حين قـال في مقدمة الطبعة الثانية التي نشر بها نقد الأستاذ سيّد صقر:

«ورأيت أن الأمـانة العلميـة تقتضيني ألاّ أتصرّف في نقـد الأستاذ سيـد صقر على ما فيه من هنـات أو تحامـل اعتاده كثيـر من شباب هـذا العصر العجيب، ولا بـأس عليَّ في ذلك، فمـا كان من نقـده صوابـاً، وإرشاداً، إلى خـطإٍ، وقعت فيـه تقبلته راضياً شاكراً، وصحّحتـه في هذه الـطبعة، ومـا كان منـه خطأً أو تحـاملاً لم أُفكّر في التعقيب عليه إلاّ فيما ندر، وما كان من مواضع اختلاف وجهة النظر تركته للقارىء يرى فيه رأيه، فيقبل منه ما يقبل، ويـرفض منه مـا يرفض، فمـا يكون لي على الناس من سلطان أفرض به رأيي عليهم، وما كان هذا من أخلاق العلماء.

وسيجد القارىء أن كثيراً من نقد الأستاذ سيد صقر ما هو إلاّ تحكّم أو افتيات على ابن قتيبة أو غيره دون دليل مرجّح، فنجده كثيراً ما يذكر البيت أو النص من كلام ابن قتيبة ثم يزعم أن صوابه كذا، دون دليل مقنع، وأحياناً دون نقل عن مصدر معتمد، والروايات في الشعر في نصوص المتقدّمين تختلف كثيراً، فمن المصادرة والتحكّم أن نجزم بصحة رواية أخرى في كتاب آخر، دون رواية ابن قتيبة، وقد يكون راوي تلك الرواية دون ابن قتيبة منزلة في العلم أو الثقة بروايته».

أقول ـ بعد هذا الكلام العجيب ـ إن موضع الدهشة أن ينشر الأستاذ شاكر نقداً، لا يوافق على كثيرٍ مما احتواه، وأن يجعله في المقدمة من كتابه، وقد رأينا الأستاذ: أحمد أمين ينشر نقد الأستاذ: محمد كرد علي في تحقيق «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيّان! ولكن القياس مع الفارق، لأن الدكتور أحمد أمين ينشر نقد صاحبه موافقاً عليه، أما الأستاذ شاكر فيرى فيه ما يخالف! ولست أُبخس قليلاً من قدر الأستاذ سيد صقر، فهو عندي بالمنزلة العالية التي شهد بها المنصفون، ولكني أحكي ما كان لآخذ منه موضع العبرة فحسب!.

هذه الأمانة العلمية التي أشدت بها في هذه السطور، كانت في حاجة إلى رحابة نفس، وسعَة صدر، لأن تشدّد الأستاذ ـ دون موجب ـ في بعض المواقف، قد أثار عليه كثيراً من الزعازع، ومن دلائل ذلك أنه أخذ في بعض السنوات ينقد بعض ما تصدره المطابع من كتب علمية ذات جدوى محقّقة، ولكنه اعتقد في قرارة نفسه أن ما يذهب إليه هو وحده الصحيح، وأضاف إلى ذلك ما يشعر بالاستعلاء، بل ما يعطي المنقود انطباعاً قوياً بأنه صاحب القول الفصل، وأن الذين يتحدّث عنهم صغار بالنسبة إليه، وهو موقف لا يقبله أيّ مؤلّف، فما ظنك بكبار المؤلّفين ممّن يعدلون الأستاذ قوة فحص، وبراعة تحليل، ولا يقلّون عنه قراءة للنصوص وتتبّعاً للآثار.

ونترك كبار المؤلّفين ممّن تولّوا زعامة الأدب والفكر إلى حينٍ قريب، ونستشهد بما كتبه نقداً لغيرهم، حيث تعرّض لنقد بعض كتب التراجم ممّا يخصّ

أعلاماً تـاريخية مثـل: أبي حنيفة، وأُسـامة بن منقـذ، والخطيب البغـدادي، وكان موفقاً كل التوفيق فيمـا أصدره من الآراء، في هـذه الكتب، إذ نظر إلى المحـاسن والهنّات نظرة مُحايدة! ولكنه لم يلتزم خطته الحميدة دائماً، بـل جنح إلى استعـلاءٍ لا أدري لمأتاه تعليلاً يُريح، وكان عليـه أن يشعر المنقـود أنه ذو سعـة رحيبة، وأن نقـده خالص للعلم وحـده، لكنه تشـدّد تشدّداً دفـع الأستاذ الـدكتور جمـال الدين الشيّال أن يقول عنه تعقيباً على نقده الخاصّ بكتـاب (نِحَل عبـر النِّحَل) وقـد أتقن الدكتور الشيّال تحقيقه كما استطاع، وانتظر من ناقده أن يعرض المحاسن والهنات في تسامح متّسع، ولكنه وجد من الأستاذ شـاكر عنتـاً يدفعـه إلى أن يقول في الـردّ على ملاحظاته:

«بقي أن أُشيـر إلى أن الأستاذ قـد اصطنـع لنفسه عنـد النقد بـرجاً عـاجيـاً، وفرض وهو يتحدّث عن هذا البرج أنه فوق كل الناس علماً ومعرفةً، فهـو يخاطبهم دائما كما يخاطب الأستاذ الكبيـر تلاميـذه الجاهلين أو المبتـدئين، فترى في نقـده أمثـال هذه الجمـل «يجب أن يعلم الناس» «وممـا لا يعجبني من تصرّف المحقّق» «ومن المعروف بداهة أنّ المحقّق ليس من علماء الحديث ولا كانت علوم الحديث صناعته» «وهذا تقصير شـديد منـه» «فإن هـذا عبث وإقدام على العلم وجـرأة نعيذ أبناءنا المتثبتين أن يفعلوه أو أن يعود إليه مَن فعله منهم مرة» فهذه جمل شوّهت مـا في النقد من جمال، وهي إلى هذا لا يتّسق وتواضـع العلماء، فـالعالم الحقّ أكثـر الناس تواضعاً والأستاذ الناقد عالِم من كبار علمائنا، وفوق كلّ ذي علم عليم»[1].

هذا ما قاله الدكتور الشيّال، وقد وقف به عند حدود الأدب المتسامح، ولكن غيـر الدكتـور الشيّال لا يفعـل ذلك وبخـاصّة إذا كـان من زعماء الفكـر، وممّن لا يقلّون اطّلاعاً واستنباطاً وخلوص نيّة، عن الأستاذ.

لقد كان على الشيخ شاكر أن يعرف «مقتضى الحال» حين يُنازل الكبار ممّن بلغوا مبلغ الصدارة عن استحقاق وأصالة ونبوغ! ولكنه اعتقد أن مـا يراه وحـده هو

(١) مجلة الكتاب، ص ٦٤٣، فبراير، سنة ١٩٤٧.

الصحيح! وأن منهجه في البحث هو المنهج المطلوب، فإذا خالفه مخالف كان موضع الاعتراض، بل أزيد فأقول إن الشيخ شاكر رحمه الله قد جانَب الأولى حين كالَ للكبار بكيلين مختلفين وفقاً لميله الخاصّ.

لقد نقد كتاب «فقه القرآن والسُّنّة» للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، فوافقه وخالفه، ولكنه كان في موضع المخالفة ـ كما ينبغي أن يكون ـ رفيقاً رقيقاً يعرف لصاحبه مقامه العلمي، ويقدّر سلامة منحاه، ونبل قصده، فإذا هجم على تخطئة رأي قال مثلاً: «ولم يخلُ هذا السفر الجليل على نفاسته من مآخذ لا تغضّ من قيمته، ولعلّ كثيراً منها يرجع إلى اختلاف وجهتي النظر بين المؤلّف والناقد».

أو قال: «وإن الأستاذ لأجل في نفسي وأعلم، من أن أظن به أنه لم يرَ الأحاديث الصحيحة التي وردت في ذلك، ولم يقرأها في مصادرها من دواوين الحديث، فيما تلقّى من شيوخه وأساتذته كما تلقينا، وفيما قرأ لطلابه ومُريديه كما يقرأ شيوخ العلم وأساطينه»[1].

هذا ما قاله في نقد الشيخ شلتوت مخالفاً! وكان عليه أن يلزمه في نقد الدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ عباس محمود العقّاد، فيعترف أن كثيراً من نقداته يرجع إلى اختلاف وجهتي النظر بين المؤلّف والناقد! وثم يزجي من دلائل الإنصاف ما يجعله واضحاً غير متحيّز!.

ولكن الشيخ قد اعتقد أن ما يراه وحده هو الصحيح مع هذين العَلَمين البارزين، بل جعل القارىء يحسّ أن الناقد يعتقد أنه ـ دونهما ـ صاحب القول الفصل في مسائل التاريخ، وأنهما لم يبلغا مبلغه في هذا المضمار!! ولئن سكت الدكتور هيكل وترك لغيره الردّ فما من شأن الأستاذ العقّاد أن يسكت؟ وماذا يستطيع الشيخ أن يقول بإزائه، وقد فتح له باب القول في تحدٍّ لا يدلّ على الاتئاد؟!.

ولقد أصدر العقّاد كتبه الحافلة عن العصر النبوي، فدلّت على إخلاص ونبوغ واجتهاد، ولا بدّ أن تختلف وجهات النظر في بعض ما قال، وقد قضى

(١) مجلة الكتاب، ص ٣٠١، ديسمبر، سنة ١٩٤٦ م.

الكاتب الكبير وقتاً غير قصير في مناقشة ما قيل تعليقاً على كتبه الرائعة، وكان في ردوده المتوالية يسبر أخلاق الناقد، ويحاول الكشف عن السرائر التي لا تخفي عن مثله! وقد خطّأه الكثيرون في أدب ونزاهة، فردّ في تقدير واحتفاء.

ولكن الشيخ شاكر لم يكتب مقالاً مفصّلاً عن كتاب، وإنما عمد لنصٍّ ضعيف وثّقه العقّاد واتخذه موضع الاستشهاد، فشدّد، النكير على صنيع العقّاد، واندفع إلى وصفه بصفات يعرف سلفاً موقعها السيء من نفس صاحبه! والقارىءُ المُنصِف يفترض أن العقّاد قد أخطأ في قبوله رواية ضعيفة، رآها من وجهة نظره قوية تصلح للاستشهاد، أفما كان على الناقد أن يعلن ضعف الرواية في حَيْدَةٍ مُنصِفة، دون أن يشنّ الغارة وكأنه أمام حدث ضخم مدمّر لقد قابلت ريحه إعصاراً من منقوده، وما كان له أن يتسرّع محتدّاً.

إن موضع الضعف لدى الأستاذ شاكر، أنه على سعة علمه وطول بحثه، كان يفترض أن الكبار ممّن يتعاطون مسائل التاريخ أقلّ منه درايةً وإخلاصاً، وأن مذهبه هو الوحيد، وقد نسي أن مثل الأستاذ العقّاد أوسع أُفقاً وأبرع تحليلاً وأكثر انتشاراً، وقد كتب الله الذّيوع لآثاره، فأبلت بلاءها الحميد في ميدانها الجهير، وإني لأستشهد برأي الكاتب الكبير الأستاذ محمود شاكر حين قال تعقيباً على بعض بحوث العقّاد في هذا المجال، مُوازِناً بينه وبين ما يكتب المستشرقون في مجال التاريخ الإسلامي:

«كتب ـ العقّاد ـ عن عبقرية محمد العسكرية، ثم عبقريته السياسية، فاستوفى القول في ذلك وأشبعه، وردّ كثيراً من الشُّبَه التي كان يلبس بها الأعاجم على الأغرار من شبابنا، ولن يستطيع مستشرق أن ينفذ في فهم التاريخ العربي، والاجتماع الإسلامي، والفلسفة الإسلامية كما يستطيع كاتب قارىءٌ مُطّلع كالأستاذ العقّاد، ثم هو فوق ذلك أديب عربي يستطيع أن يجعل فِطرته العربية الأبيّة عَوْناً له على التغلغل في أسرار تاريخية مطموسة، لا يطيقها المستشرق لفقدانه مثل هذه الفطرة. . . ونحن نرجو ألاّ يُخلِي الأستاذ العقّاد مباحثه من هذا النوع الجديد من

الفكـر في تاريـخ تنقذف عليـه كل يـوم جهالات كثيـرة مُفسِدة ليس لهـا أصـل ولا قوة[1].

أما الدكتور هيكل فقد كان الشيـخ شاكـر أخفّ حدّة بـإزائه من مثـل الأستاذ صادق إبراهيم عرجون، ولكنّه مع ذلـك قد اشتطّ في نقـده، أكثر من مـرة، وأنا لا أنكر أن ينقد أحمد شاكر هيكلاً والعقاد، ولكن أرى أن جوّ النقـاش الذي اصـطنعه قـد أوْهى كثيراً من مـلاحظاتـه، وجعل القـارىء يشعر من مقـدّمات النقـد أن روح التحيّز بادية غير مستترة! لقد قال في مقدمـة نقد كتبـه بـمجلة الكتاب للجـزء الثاني من كتاب الفاروق عمر لهيكل: جـاءت كتابـة سعادة المؤلف نهجـاً وسطاً بين كتب المتقدّمين الرائعة القوية، وبين ما ابتُلِيَت به العربية من القصص والروايات»[2].

وأسلوب هيكل يمشي مع الجيد من أسلوب المتقدّمين، ويرتفع عنه أحيانـاً، فالقول بأنه ينهج منهجاً وسطاً بين كتب المتقدمين الرائعة، والروايات القصصيـة ذو تحيّف ظـاهر، إن أسلوب القـدامى من المؤرّخين إذا ارتفع في مقـام، تواضـع في مقـامٍ آخر، بحيث لا تحسّ اطّـراداً، منتظمـاً لدى هؤلاء، وكيف يـطّرد النسق في روايـاتٍ تُعزى إلى عـدّة أشخـاص، وفي جمـع أقـوال يختلف قـائلوهـا بين القـوّة والضّعف؟ ولا كذلك أسلوب كاتب متدفّق مكين مثل الدكتور هيكل!.

كما أن الشيخ شاكر دار حول هذا المدار فيما كتبه بمجلة المقتطف، إذ بـدأ حديثه بقوله عن كتـابة هيكـل التاريخيـة: «لقد كـان عمله ناجحـاً من ناحيـة النَّفاد تماماً، فما يكاد الكتاب منها يصدر حتى تتخطّفه الأيدي وحتى تكاد نسخه تنفد من السوق، وكان ناجحاً من الناحية العلمية بعض النجاح»[3].

ولعمري لو نجحت كتب هيكـل بعض النجاح فحسب، فلن يـوجد في كتب العصر على الإطلاق كتاب ينجح كلّ النجاح! ولو حرص الأستاذ شاكـر على وجود هذا الكتاب لكان كمَن يطلب المستحيل؟ فلماذا لا نترك هذه العبـارات ونلجأ إلى النقد مباشرة دون استخفاف.

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ٣٥١، السنة الثامنة ١٩٤٠/٣/٢٥ م.

(٢) مجلة الكتاب، العدد الأول، السنة الأولى، ديسمبر، سنة ١٩٤٥ م.

(٣) مجلة المقتطف، أغسطس، سنة ١٩٤٥، جـ٣، مجلد ١٠٧، ص ١٩٢.

وقد دار مقال المقتطف على توهين رأي رآه هيكل، ورآه معه أُناس من الأعلام، فليكن رأي الدكتور هيكل مخطئاً في مسألة مالك بن نويرة! فكلّ كاتب يخطىءُ ويُصيب، ولكن مؤلّفات هيكل التاريخية ذات مستوى لم يرتفع إليه للآن أحد ممّن حاكوه من المُحافظين أو المجدّدين. ولن نقرنه بالعقّاد لأن الجهة منفكّة تمنع الميزان. فالعقّاد محلّل شخصية، وهيكل كاتب وقائع وأحداث، ولكلٍّ سموقه الرفيع! وقد سكت هيكل فلم يناقش الشيخ، وقام الدكتور سيّد نوفل بالردّ ليقول في دهشة: «وتظهر روح التحامل حين يقرّر أن المؤلّف واسع الثقافة محيط بألوان العلم، ويقرّر كذلك أن كتاب الفاروق عمر جيد يقرّب البعيد للأوساط، ويقوم بين الرصين والمبتذل» أيّ كلام هذا؟ إذا لم يكن البحث العلميّ الكامل من سِمات الدكتور هيكل باشا، فمن سِمات مَن في كتاب الشرق بعامّة[1]؟

أخي القارىء العزيز:

تعمّدت أن أُطيل في الحديث عن أحمد شاكر الناقد، لأدلّ على حقيقة منكورة، هي أن علماءً كباراً من رجال الإسلام في عصرنا الحديث، قد تعاطوا النقد عن جدارة، وأغفل مؤرّخو النقد المعاصر حديثهم، وكأنهم لا يرون الجدير بوصف «الناقد» غير مَن ينقد فنون الأدب وحدها، كالقصيدة والقصّة والمقالة، مع أن مفهوم النقد يتّسع لكل جنس من أجناس القول، علماً كان أو أدباً، فقهاً أو تاريخاً.

وفي ضوء هذا المفهوم المتّسع نحصي من علماء النقد كثيرين من أمثال: أحمد شاكر، ومحمد عرفة، ومحمد الخضر حسين، ومحمد فريد وجدي، ومحمد سليمان، ومحمد الخضري.

وإذا كنت قد خالفت الأستاذ شاكر في تشدّده المتربّص بالدكتور هيكل، وبالأستاذ العقّاد، وقد سبق الحديث عن هيكل والعقّاد! سبق الحديث عن دورهما الأدبي في إعجاب واثق، ولا بدّ من الدفاع عنهما حين يفرضُ الحقّ المُلِحّ على الكاتب أن يجهر بما يرى أنه الصحيح عن إخلاص لا يشوبه تعصّب أو افتيات.

---

(١) مجلة الكتاب، الجزء الثاني من المجلد الأول، يناير، سنة ١٩٤٦ م.

أحمـــد محــرّم
شاعر الفكرة الإسلامية في مصر

تحـدّثت عن محمد إقبـال، شاعـر الإسلام في الهنـد، وعن محمـد عـاكف شاعر الإسلام في تركيا، وقد كان أحمد محـرّم شاعـر الإسلام في مصـر حقّاً، لأن شعره جميعه ينفح بعبيره، ويسطع بنوره، ولا يُدانيه في ذلك من شعراء العربية في عصره مَن يسير معه في طريق، فهو جدير إذن بحديث مُشابه لزميليه الكبيرين.

والحقّ أن دراسـة أحمد محـرّم رحمه الله من ألـزم اللّوازم في عصـر مـاجن مستهتـر، فقد عصفت بـرؤُوس بعض الشعراء في الشـرق والغـرب نـوازع خبيثـة، تـدفعهم إلى الفوضى الخلقيـة، والتحلّل الإباحي، زاعمين أن الشـاعـر الحقّ هـو الذي ينساب وراء غرائزه وميوله، وأن العبقرية تُوقِع صاحبها في مـزالق مُريبـة، بل إنَّ منهم مَن يتعمّد الوقوع في البغي ليكون أحد هؤلاء العباقرة المتحلِّلين.

نشـأ الشاعـر في بيت ريفي متـديِّن، فقـد كـان والـده حـريصـاً على تثقيفـه وتهذيبه، فـأحضر لـه في دور الطفـولة مَن قـام بإرشـاده وتوجيهـه، فحفظ القرآن، ودرس النحـو والعروض واللغـة، وأكبَّ على استظهـار النصـوص الأدبيّـة فتفتّحت أكمام شاعريته الغضّة، وبدأ يتغنّى بمقطوعات بدائية تُنبىء عن ملكة واستعداد.

وقد اتّجه بنوع خاص إلى الثقافة الـدينية، فقـرأ الحديث الشـريف، وطالـع السّيرة المطهّرة، ودرس التاريخ الإسلامي المجيـد، ثم عكف على قراءة الصُّحُف

والمجلّات فألمّ إلماماً مُفيداً بسياسة أُمّته ووطنه، وشاهد في ميعة صباه ما يدبّره المستعمرون من مكائد خاتلة للعالم الإسلامي، فتأوّه لمصابه الفادح، وأطلق لشاعريته العنان، فتغنّى بمجد الإسلام، وحثّ على استرجاع ما فقده الشرق من عظمة شاهقة وجاهٍ عريض.

وإذا كنّا نعتبر محرّماً شاعر الفكرة الدينية في مصر دون منازع، فإننا نتّخذ منه دليلاً يُبطِل ما زعمه الأصمعي من أن الشعر في جملته نكد صعب لا يسهل إلاّ في الشّرّ، وتلك دعوى زائفة وجدت مكانها في العقول، فحوّلت أنظار الشعراء عن الدعوة إلى المُثُل العليا، والتمدّح بالأخلاق الدينية الرفيعة، وأنت تُطالع الدواوين الشعرية، فتجد ما قيل في المجون والخلاعة أضعاف ما قيل في التصوّن والاحتشام.

وبديهي أن الشاعر المتمكّن المطبوع يستطيع أن ينظم ـ بقوة وإتقان ـ في شتّى الأغراض التي تأخذ بمجامع قلبه، وتسيطر على خوالج نفسه، سواء كانت تتّجه إلى الخير أو الشرّ، فالمدارُ إذن على قوة الشاعر وموهبته، ومَن يستطيع نظم الرقائق الفاتنة في الليل الدّامس، لا يُعجِزه أن يرسم الصور الساحرة للصباح الوضيء، وها هو ذا محرّم قد اندفع وراء عاطفته الدينية اندفاعاً حميداً، فجاء شعره نموذجاً حسناً للشعر المثالي الرصين.

ونحن حين نشيد باتجاه محرّم وجهة الخُلُق والدين، لا نعني بذلك أنه عقد في ديوانه فصولاً خاصّة بالدعوة الإسلامية، ولكننا نؤكد أن عاطفته الدينيّة قد ارتسمت بوضوح في شتّى الأغراض الشعرية، التي تحدّث عنها الشاعر الكبير، فأنت تقرأ مدائحه ومراثيه، واجتماعياته وسياساته، فتجد كل بيت ينطق بإيمان قائله، ويحدّد الهدف الخفيّ الذي يدعو إليه في حرارة، وإذا رزق الشاعر إيماناً فلا بدّ أن يرتسم في مرآة شعره، فهو إذا جالَ في إحدى سبحاته سيطرت عليه عاطفته المخلصة، فوَجّهته أكمل توجيه حتى يصل إلى المرفأ الأمين.

وكنت سألت مَن أثق بهم من خُلطاء محرّم ورفقائه عن حياته وأخلاقه، فسُررت بما علمت من مروءته ونُبله، حيث كان يبذل ما يملك ـ على ضآلته ـ في

معونة المستعين، كما كان يحافظ على فرائض العبادة من صلاة وصيام، ثم هو إلى ذلك صفوح متسامح، لا يؤاخذ مُسيئاً بنقيصته، ولا يميل إلى الجدال والثرثرة في غير طائل، ويمكننا أن نقول: إنه اتَّخذ كتاب الله إماماً يأتمر بأوامره، ويحيد عن نواهيه، وإنه ليعلن ذلك في صراحة إذ يقول:

أقول لصاحبيَّ - وعاهداني - كتاب الله بينكما وبيني
فكونا صادقين ولا تخونا فإن لنا لإحدى الحسنيين
ولست ببائع نفسي وديني ولو أُوتيت مُلْكَ المشرقين
لهذا سلطة ولتلك أُخرى فما بالي وبال السلطتين
سأملأ هذه الغبراءَ مجداً وأترك أهلها صفر اليدين
على التاريخ بعد الموت حقّي وعند الله يوم الدين ديني

وقد أباح الشاعر لنفسه أن يتمدّح بمروءته وتقواه، ولسنا نؤاخذه في ذلك، فقد نشأ في عهد إباحي، وجد فيه مَن يتشدّقون بآثامهم المُخزِية، ويُجاهرون بفضائحهم المُندِية، فإذا ألمّ بهم داعٍ إلى الحق لَوَوا رؤوسهم ساخرين!! فلا مَناص من أن يُجاهر المهذب العفّ بشمائله، ليقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولقد صوّر الشاعر أخلاقه، وشرح عواطفه تشريحاً صادقاً حين قال:

من أيادي الله أَني لم أخن عهده الأوفى أروم المغنما
راودتني عصبة عن حقّه فأبى العرق الكريم المنتمىٰ
عفّة تقذف بي عن همّة تقذف النسر وترمي المرزما
لا أرى العذر وإن جشّمني صرف دهر ظالم ما جشما
مرحباً بالبؤس في أسبابه عفّة البائس عن أن يأثما
ما يريد الدهر عن مستبسل ما يهول الخطب إلّا اقتحما

وسنُوجِز الحديث إيجازاً، فنترك كلام الشاعر عن نفسه، ونميل بشيء من التحليل إلى بعض الأغراض الشعرية، التي جالَ في حلبتها جولات موفّقة، وفي رأيي أن قصائد محرّم السياسية والاجتماعية، والتاريخية تكفي الباحث المُنصِف في تكوين رأْي صادق عن عاطفته الإسلامية، ونبدأُ بالحديث عن سياساته فنقول:

كـان للخلافـة العثمانيـة في أواخر القـرن الماضي، وأوائـل هذا القـرن ظلّ ينبسط على الـدول العربيـة المتجاورة، ولئن تغلغـل النفـوذ الاستعمـاري في شتّى بِقاع الشرق حقباً متوالية، فقد كان أبناء هذه الدول ينـظرون إلى الخليفة العثمـاني نظرةً عاليةً، فيرون طاعته فرضاً أكيداً يُوحيه الإسلام وتُمليه العقيدة.

ورغم ما اشتهر بـه عبد الحميـد من العسف والجور، والخـروج على شُرعـة الإنصاف، فقد لهج بمدحه كثير من الأدباء والشعراء، إذ كانوا يصـرفون النـظر عن شخصه، ويرون الخليفة فكرة رمزية تُقيم العدل وتجدّد معالم الدين.

وقـد تفانى محـرّم ـ جريـاً وراء عاطفتـه الدينيـة ـ في محبة الأتـراك، فمنـح خلفاءهم الودّ، وهاجم أعداءهم بقذائفه الصـائبة، فـأنت تقرأ مـديحه في السلطان العثماني، فتجده ينظر إليه من نافذة العقيدة، فيذكّره بمقامه الديني، ثم يدلف إلى تقديم نصائحه التقليدية، فيحثُّ على الوحدة القومية، وينادي بالجامعة الإسلامية.

وكان للمعارك الحربية التي خـاضها الجيش العثمـاني صدىً تـردّد في نفس الشاعر، فسجّل الوقائع اليونانيـة، وندّد بمَن يهـدّدون «الرجـل المريض» بـالثورات الداخلية والفتن الخارجية، وقد اعتمد الشاعر على خياله البعيـد، فبالـغ في مديـح الجنود الأتراك مبالغة تـدعو إلى العجب، وكـأنه أراد أن يقـوّي الروح المعنـوية في الشعوب الإسلامية فجوّف الحقائق تجويفاً يُناقضـه الواقـع، وهو بـلا شك مشكـور لغيرته وحَمِيّته، وإلاّ فهل كان الجيش التركي في رمقه الأخير كما قال فيه؟

لهم كـل يـوم غـارة تصبـح العـدى ... وأُخـرى تُضيءُ الليـل والليـل فـاحم
إذا نفــروا لم ينفــروا عن شمــالهــا ... ولـم يصحـروا عن سيلهـا وهـو عـارم
بنـوهـا الأُلى لا يـرهبـون بهـا الـردى ... إذا اهتـزمت في حـافّتيهــا الـزمــازم
إذا أقــدمــوا لم يثنهم عن مـغــارهم ... غــداة الــوغى أهــوالهــا والمــآزم
معمَّـون فيهـا مخـوّلـون إذا اعتــزّوا ... نمتهم قــريش في الحفـاظ وهــاشم
أولئــك أبــطال الخــلافــة تحتمـي ... بــأسيــافهم إن داهمتهــا الـعــظائم
هم المــانعـوهــا أن يقـسم فـيئهـا ... وأن تُسبَى بيـضــاتهــا والـمحــارم

هم النـاس لا ما تنكـر العين من قذى وتـوشـك أن تنشقّ منـه الـحيـازم
ومـا الملك إلّا مـا أطـالـت وأثلت طـوال العـوالي والـرقـاق الصـوارم

ولقد ظلّ الشاعر على إخلاصه للدولة العثمانية، يمجّد أعـلامها ويُسهِب في الثناء على مواقفها، ويُنذِر الثوّار الداخليين فيذكّرهم بمسؤوليتهم الفادحة أمام الله، إذ يُشعِلون الفـوضى بلا مـوجب، ويُوقِـدون الفتنة في ربـوع مضطربـة تعصف بها الرياح الهوج.

وكم كـان الألم لاذعاً في نفس محـرّم حين طوي بسـاط الخلافـة في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وقد أفزعه اضطهاد الكماليين لرجال الفقه والتشريع، ونقل إليـه ما ارتكبـوه من غلوٍّ فاحش، حيث وأدوا العـاطفة الـدينية في وقت أصبـح فيـه القابض على دينه كالقابض على الجمر، وأذكر أنه نظم في سقوط الخلافـة ملحمة طويلة طبعت وحدها في كتاب مستقل.

وكان يهمّني أن أستشهد ببعض أبياتها الدامعة، لـولا ضياعهـا من يديّ، ولا أدلّ على حماس الشاعر للأتراك العثمانيين من قصيدته المؤثرة في رثاء والده، فقد نسي مصابه الشخصي، وغالبته عـاطفته الـدينيّة فتـرك الأنين والدمـوع واندفـع إلى الحـديث في الخلاف القـائم بين العثمانيين والإنجليـز، ولك أن تقـدِّر معي شعور مسلم غيور، هاجت عاطفته الدينيّة فأنسته ما وقع فيه من أسىً أليم.

وسياسات محرّم تتّسم بطابعها الإسلامي، فمدائحه في العـزيز حثٌّ وتـذكير بالآداب الخلقية، ورجوع بالأمّة إلى ماضيها المجيد، وقصائده في الحرب العالمية الأولى تنديد بالحضارة الغربية المتـوحشة، وتصـوير صـادق للمسارح الـدولية التي تُراق فيها الدماءُ، وتتناثر عليها الأشلاءُ، هذا إلى مقارنة معتدلة بالحضارة الإسلامية في عهدها الزاهر، حين كانت مناراً شعّ على العالم بضـوئه الـوهّاج، وحين قـامت الحرب الطرابلسية الإيطالية صرخ محرّم صرخات مؤرّقة.

ولم يشأ أن يُقصِر شعـره على البربـرية الإيـطالية المتـوحشة، فيكتفي بـرسم الفظائع الدامية التي ارتكبها المحتلّون بالشعب الأعزل المستكين، بل غمره شعوره الديني في طوفان جارف صخّاب، فتمثّل البيت الحرام يرتجف رعباً بمكة، ويَثرِب

ذات القبر الطهور تولول جازِعة، ثم استصرخ الغرّ الميامين من أبطال الإسلام، فتساءل عن عليّ بن أبي طالب، وتطلّع إلى خيل الله يقدمها صاحب اللواء، وتذكّر ابن الخطاب في فتوحاته الشاسعة، وحنّ إلى المقاديم من فهر ومضر وقريش، اسمعه يقول:

أين ابن عمّ رسول الله يطفئها	حرباً على كبدي من نارها شرر
أين اللواءُ وخيل الله يبعثها	عمرو ويقدم في آثاره عمر
أين المقاديم من فهر ومن مُضَر	ومن قريش وأين السادة الغرر
أين الملائكة الأبرار يقدمهم	جبريل يستبق الهيجا ويبتدر
أين الوقائع تهتزُّ العروش لها	رعباً وتنتفض التيجان والسُّرر
أين القياصر مقهورين لا صَلَف	نأى بجانبهم عنّا ولا صُعُر
أيطرب البيت أم تبكي جوانبه	حزناً ويعول فيه الركن والحجر
ويح الحجيج إذا حانت مناسكهم	ماذا يرى طائف منهم ومعتمر
أين الحُماة وقد ضاعت محارمنا	أين الكُفاة وأين الذّادة الغُيَر

وهكذا كان التذكير بالماضي سلاحاً باتِراً في قبضة الشاعر، والحق أنه آتى أُكُله وأثمر في حينه، فوثقت الأمم العربية بماضيها المجيد، بعد أن حاول الاستعمار الغاشم أن يبرزه في صورة نكراء.

وطبيعي أن يكون ندب الماضي البهيج مقروناً بالتحسّر على الحاضر الأليم، فالصورة دميمة بَشِعة، وحالة الشعوب الإسلامية قد بلغت من الهَوان مبلغاً يستدرّ الدموع، فكانت الشكوى من انحطاط الشرق ميداناً فسيحاً تجول فيه الأقلام، حتى ليجوز لنا أن نعتبره عنصراً هامّاً من عناصر الشِعر الحيّة في نهضتنا الحديثة، ومعلوم أن الشعور بالنقص هو الدافع الأول إلى الكمال والتقدّم، فلا مَناص إذن من الاعتراف بالواقع الأليم.

كم تضرّع محرّم إلى ربّه راجياً أن يأخذ أُمَّته إلى طريق البرّ، وكم سهر الليالي الطويلة يتأمّل فيما خيّم عليها من غَوَاشٍ حالكة؟ وكم وقف بين اليأس والأمل، لا يدري أيبتسم الدهر للشرق أم تكون الأخرى، فيظلّ الكابوس الأوروبي

جاثماً فوق صدور المسلمين، عواطف مشتجرة متناحرة خلقتها الروح المتوثّبة في نفس الشاعر فصيَّرته في حيرة من أمره إذ يقول:

تفاقمت الخطوب فلا رجاءُ ... وأخلفت الظنون فلا وثوق
تطالعنا السنون مروعات ... ونحن إلى أَهِلَّتِها نتوق
يمرّ العهد بعد العهد شرّاً ... فأين الخير والسعد الأنيق
نوائب رُوِّعَ التنزيل منها ... وضجَّ القبر والبيت العتيق
بنا من ضارب الحدثان ما لا ... يطيق مضاءه العضب الذليق
كأن جراحه في كل قلب ... شفاهٌ للمنية أو شدوق
رويد البوم والغربان فينا ... أما يفنى النعيب ولا النعيق
وَدَدْنا للنواعب لو عمينا ... وسدّت من مسامعنا الخروق
أمضّ قلوبنا داءٌ دخيل ... وهمٌّ في جوانحنا لصيق
وجفّ الرّيق حتى ودّ قوم ... لو أن السُمّ في اللّهَوات ريق
وبرح بالترائب مستطير ... يعاوده التميّز والشهيق

ولولا هذه الصيحات المدويّة ما استيقظ أهل الكهف في الشرق، ولن أُلفت القارىء إلى ما في الأبيات السّالفة من سلاسة وعذوبة، فهي تنمّ عمّا يترقرق فيها من جمال فاتن، وتشهد لقائلها المطبوع بالجودة والافتنان.

ولقد كان الشاعر دارِساً لدينه دراسة مستفيضة، ولم يجنح به هواه ـ وهو المسلم الغيور ـ إلى المُغالاة والتعصّب، بل كان يضع الأمور في نصابها وضعاً صحيحاً، فحين بذر «السير غورست» بذور الشّقاق بين المسلمين والأقباط، أدرك محرّم مراميه الدنيئة، فهبّ يدعو إلى التسامح الديني، ويذكر العنصرين المتناصرين بمبادىء الإنجيل والقرآن، ويشيد بعظمة المسيح ومحمد، ويرجع القهقرى إلى التاريخ المصري القديم، فيصوّر مجد الفراعنة الزاهر، ويستشهد بالأهرام الشاهقة، والمعابد الماثلة، ويعرض لما كان بين عمرو والمقوقس من عهود، ثم يهدف إلى المطامع الأوروبية، وما بيَّته الإنجليز لمصر من شرٍّ يعصف بالعزّة ويمحق الكرامة.

وقديماً كان التسامح والتوادّ منهج القادة من المفكّرين والمُصلِحين، وبهذه الروح السامية تكشّفت خبائث المحتلّين، وافتضح الثعلب الإنجليزي الماكر، فأطرق برأسه إلى الأرض حين أبصر الهلال، والصليب يتعانقان في محبّة وسلام.

أما شعر محرّم الاجتماعي، فقد كان مضمّخاً بعبير عاطِر من التوجيه الديني والإرشاد الخلقي، فقد نظر الشاعر نظرات صائبة إلى الأوبئة الخلقية التي تفتك بالأمم الشرقية فتحصد المروءة، وتطيح بالشرف، حيث انسابت الأفاعي البشرية في ظلام الاحتلال تنفث سمومها في الأجسام الصحيحة، فإذا الإنسان الطاهر العفّ يتحوّل مارداً فاجراً، يعبّ الخمر في نَهَم، ويُريق الدم المَصُون في تهتّك، ويلطخ وجهه بآثام فاحشة يندى لها الجبين، وقد قام محرّم بدور الطبيب الحكيم، ففحص الدّاء فحصاً دقيقاً، ثم أخذ يشخِّص الدواء الناجع، وكان القرآن قِبلته ووجهته، فنادى بالرجوع إلى آدابه، وشهّر بمَن يجترحون السيئات ويقترفون الفواحش.

وقد اتخذ من الجرائم الخلقيّة التي يرتكبها الإباحيّون، وتنشرها الجرائد اليومية مادّة دَسِمة لإنتاجه، رفي الجزء الأول من ديوانه أقاصيص شعرية تجلو هذه الفضائح، وقد أحاطها الشاعر بسِياج من النّصح الأدبي، والتوجيه الخلقي، وإنك لتلمس حزن محرّم وأسفه حين يتحدّث عن شرذمة غاوية ائتلفت على البغي فهَوَت إلى حمأة الرذيلة تلغ في أرجاسها الشائنة، غافلة عن عقاب الله، نابذة مَن ورائها عهود محمد، وزواجر التنزيل، فهو يقول:

آسيت لمُسرفين أعان كلاًّ	على إدمان لذّته أبوه
إذا ما عاقر الفحشاء منهم	أخو النشوات غناه أخوه
لهم فتكات أطلس ما يواري	دم الهلاك مخلبه وفوه
عليهم من خزاياهم سِمات	وما أنفوا الفجار فيجحدوه
إذا ما عنّ في الظلماءِ صيد	تداعوا حوله فتصيّدوه
تردّى بينهم فتعاوروه	إلى أن قال قائلهم دعوه
قفا السمار وادّلجوا إليه	وأكبر همّهم أن يبلغوه

أيأمرهم بتقوى الله قوم | وما عرفوا الإله فيتّقوه
شباب العار ما تركوا رجاءً | لنا في مصر إلّا خيّبوه
أُناس ريعت الغبراءُ منهم | وضجّ العرش مما أحدثوه
أتى التنزيل بالمثلات تترى | وبالحق المبين فكذّبوه
فوا أسفي لعهد الله فيهم | وعهد محمد إذ ضيّعوه!!

وفي ديوان الشاعر من هذا الطراز جذوات مشبوبة تتّقد باللّوعة، فليتها وجدت مَن يسمع أو يُجيب!!.

ومع أن محرّماً قد نادى في صيحاته الاجتماعية بضرورة التعليم كدعامة راسخة يرتكز عليها بناءُ النهضة، فقد وجد مِن الناس مَن ظنّ به رغبة عن تعليم الفتاة والنهوض بها إلى ذروة الرقيّ، رغم ما امتلأ به ديوانه ـ في الجزء الثاني خاصّةً ـ من حثٍّ على ثقافة المرأة، وإيضاح لمركزها الدقيق الذي تحتله في المجتمع، ولعلّ هذا الظن الخاطىء قد أتى من مهاجمة الشاعر لدعوة التحرير التي رفع لواءها قاسم أمين، ونحن إذا نظرنا لهذه الدعوة نجد صاحبها يحثّ على تعليم المرأة وتهذيبها عن طريق السّفور.

والشاعر وإن كان من المُنادين بضرورة تثقيف الفتاة لا يوافق على السفور مهما تكاثرت المبررات، فاندفع إلى مهاجمة قاسم أمين متأثّراً بعاطفته الدينية، التي تحرّم التبرّج تحريماً قاطعاً، وما كان له أن يحيد عن ذلك وهو يضع كتاب الله نصب عينيه ولعلّه كان ينظر من وراء الغيب إلى ما سيجرّه السّفور من فتن، فشدّد عليه النكير، فمحرّم إذن يكتفي بضرورة تعليم الفتاة دون ما عداه، فليس لها أن ترتع في الأسواق، وتزاحم الرجال فيما لم تُهيَّأْ له من الأعمال، واستمع حجّته في ذلك إذ يقول:

هممنا بربّات الحِجال نريدها | أقاطيع ترعى العيش وهي سوائم
وإن امرأً يلقي بليل نِعاجه | إلى حيث تستنّ الذئاب لظالم
وكلّ حياة تثلم العرض سبة | ولا كحياة جلّلتها المآثم
أتأتي الثنايا الغرّ والطّرر العُلا | بما عجزت عنه اللِّحى والعمائم

فلا ارتفعت سفن الجواء بصاعد إذا حلّقت فوق النسور الحمائم

سلام على الأخلاق في الشرق كله إذا ما استبيحت في الخدور الكرائم

أقاسم لا تقذف بنفسك تبتغي لقومك والإسلام ما الله عالم

ولولا اللّواتي أنت تبكي مصابها لما قام للأخلاق في مصر قائم

نبذت إلينا بالكتاب كأنما صحائفه مما حملن ملاحم

أحاطت بنا الأُسد المُغيرة جهرة ودبّتْ إلينا في الظلام الأراقم

ألا إن بالإسلام داء مخامراً وإن كتاب الله للدّاءِ حاسم

ولنقرن هذه الصيحة الناقمة على دُعاة السّفور بإحدى صيحات محرّم في ضرورة تعليم الفتاة، لنعلم أن الشاعر لم يحارب تعليم المرأة وإنما احتاط لدينه ومروءته، وتمسك بكتاب ربّه وهدي نبيّه، وحسب الإسلام منه أن يذود عن مبادئه في قوة، ويتمسّك بحدوده في إيمان، قال محرّم:

ما أبعد الخير والمعروف عن أمم تعيش فوضى وترضى بالحياة سُدى

جاهل ظنّ أن العلم مفسدة للبنت فانتقص التعليم وانتقدا

مهلاً فرُبَّ فتاة أهلكت أُسَراً بجهلها وعجوز أفسدت بلدا

الأُم للشعب إمَّا رحمةً وهدىً أو نكبة ما لها من دافع أبدا

لا يذهب الشعب في أخلاقه صببا والأُم تذهب في أخلاقه صُعُدا

لا تيأسوا وأعدّوا الأُمّ صالحة فهي السبيل إلى إصلاح ما فسدا

على أن الشاعر لم يهاجم قاسماً وحده، بل كان يهاجم من المسلمين مَن يرى منه نزوعاً عن الشريعة، وكان يتأدّب في هجومه بتوجيه الإسلام، ويسترشد بتعاليمه، فلا يميل إلى الإسفاف والمُهاترة، أو يعمد إلى التشهير والتنديد، بل إن قصائده في أعداء الإسلام «كهانوتو، وكرومر» كانت تخضع للمنطق المعتدل، وتتحاشى ما ينفر منه الأدب والذّوق.

ولله محرّم، فطالما جادل بالتي هي أحسن، ودعا إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، مع أن الشعراء يبيحون لأنفسهم من الإقذاع في الهجوم ما ينأى عنه ذو الخلق الكامل والنُّبْل الأصيل!!.

بقي أن نتحدّث عن الناحية التاريخيّة في شِعر محرّم، وهي ناحية هامّة شغلت جانباً كبيراً من اهتمامه، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من إشارة إلى موقف تاريخي طواه الزمن، فخلّده الشاعر ولا جرم، فقد كانت ثقافته تاريخيّة إسلامية، حيث استوعب ما قدر عليه من الصحائف المجيدة التي تجلو عظمة الفتح الإسلامي، وتتحدّث عن أبطاله المعلمين، فكان له من هذا الاستيعاب مادة دسمة، أكسبَت إنتاجه قوةً زاخرةً، وأمدّت شعره بأسباب متينة من الروعة والتفوّق!!.

وإذا كان الشاعر قوي الإيمان بعظمة القادة المُبرزين من أعلام الإسلام، فقد فتحت له عاطفته الدينية أبواب القول، فصالَ وجالَ في ميدان التاريخ، حتى لينفرد وحده بين شعراء العربية بتصوير البطولة الإسلامية، تصويراً لا يتعلّق بغباره متعلّق، مهما حاول التقليد.

لقد نظر محرّم إلى أعظم أبطال الإسلام محمد ﷺ، فبهرته عظمته الفائقة، وأخذته روعته الخارقة، فنظم إلياذة كبيرة تقع في عدّة آلاف من الأبيات المختارة، يُسجّل بها تاريخ الرسول الأعظم من ميلاده إلى أن جاءه اليقين، وقد قرأت ما وقع لي من شعر الإلياذة، وتأكدت أن بلاغة محمد نضَحَت عليه من بيانها الرائع، فتطامن له المعنى الجموح، وامتدّت يده إلى النادر اليتيم من الأساليب، وقد رعى أحمد منازع حديثه، فهو في بدر وأُحُد يجلجل ويهدر، حتى ليسمعك الصليل والصهيل، وقد يعمد إلى القافية الشموص في موقفه الحماسي، فيخضعها لبيانه المُشرِق.

لم يكن محرّم في إلياذته صاحب خيال يستوحي الأساطير، كما كان هوميروس في إلياذته، وكما كان الفردوسي في شهامته وأمثالهما ممّن دوّنوا جانباً من التاريخ المختلط في قصص تروى وأشعار تُقال، فقد أغناه واقع الإسلام الوضيء عن تلفّق الخيال، والاسترسال مع الوهم إلى أبعد مَداه، فأكبّ على دراسة هذه الحقبة الرائعة من تاريخنا الأول في مصادرها اليقينية المعتمدة، ليسلسل روائعها الباهرة في أناشيد تتردّد!.

وأحمد محرّم شاعر مُحافظ يلتزم النهج التقليدي في نسجه الشعري، فسبيله فيما يتعرّض له من أحداث التاريخ سبيل السّالفين من الشعراء العرب، كأبي تمّام في فتح عمورية، والمتنبي في سيفياته إنه يستلهم الواقِعة الحيّة أحداثها وأبطالها، ليُفصِح عن خواطره نحوها في ظلّ ما أحدثت من نتائج، وما تضمنت من أحداث، تاركاً لخياله أن يستلهم الواقع دون أن يطير إلى أُفُق أُسطوري، ولئن جازت الأسطورة في ملحمة تتحدّث عن عنترة العبسيّ، أو المهلهل، فلن تجوز في ديوان يسجّل مجداً حقيقياً نهض به أعظم داعية أرسله الله ليُخرِج الناس من الظلمات إلى النور، ومن هنا بالغ الدكتور شوقي ضيف حين قال عن إلياذة محرّم:

«وقد نظم أحمد محرّم السّيرة النبوية وسمّاها الإلياذة الإسلامية، وهي مجموعة كبيرة من القصائد لا رابطة بينها ولا حياة، ولا خيال، وهي في الحقيقة ضرب من الشعر التاريخي تسجّل فيه حوادث التاريخ، أو هي ضرب من الشعر التعليمي الذي ينظم فيه تاريخ العلوم، وليس فيها شيء من الشعر القصصي، الذي يخلق الخيال فيه مادة الشعر خلقاً جديداً».

فأنت ترى النّاقد الفاضل يصف ديوان «مجد الإسلام» بأنه قصائد لا رابط بينها، وهذا ما يخالفه الواقع، لأن الديوان يتحدّث عن سِيرة مترابطة الأحداث، وقد سلسل الشاعر حديثه تسلسلاً زمنياً، إذ ابتدأ بالحديث عن إيذاء قريش لصاحب الدعوة، ثم عن هجرته الكريمة وما تبعتها من الغزوات والأحداث والمواقف، غزوةً غزوةً وموقفاً موقفاً.

وإذا كان الشاعر يسرد تاريخاً معيناً ترتّب زمنه وتسلسلت أحداثه حَدَثاً وراء حَدَث، فأين هو عدم الترابط؟ ألسنا حين نترجم لإنسان فنسرد ما تُعُورِفَ عن مولده ونشأته، وشبابه وكهولته نكون قد مررنا بسلسلة حياته حلقة حلقة؟ فإذا جاز لأحد أن يقول في هذا التتابع الزمني أنه غير مترابط، فليت شعري أيّ ربط يعنيه؟ فإذا تركنا القول بعدم الترابط إلى قول الناقد:

«إن الديوان قد خَلَا من الحياة والخيال، وإنما هو ضرب من الشعر التاريخي تسجّل فيه حوادث التاريخ، أو ضرب من الشعر التعليمي الذي ينظم فيه تاريخ

العلوم» فإننا نعجب لقائل هـذا الرأي، لأن النـظم التعليمي في متونـه المشهورة لا يمتّ بسبب قريب أو بعيد إلى إلياذة محرّم، وقد طبعت أخيراً في أكثر من أربعمائة وخمسين صفحـة، تسجّل أحـداث السّيرة تسجيـل الشـاعـر المستلهم، لا النـاظم الجـامع، فلم يكن محـرّم صائـغ أحداث تتعـاقب كما كـانت دون أن يبـرزهـا في مشاهد أخّاذة، تنقل بها إلى عالم الشعر الجائش بصوره وخواطره ومعانيه!.

أمامك حديثه عن الغزوات وقد تعدّدت، فلتقرأ كـل غزوة على حِـدَة، لترى كيف اتّجه الشاعر في تصويرها!.

إنـه يتّخذ من المـادة التـاريخيـة سبيـلاً إلى الحـديث الشعـري عن انفعـالـه المعجب، وهيامه المشبوب، وانطباعه البصير، ولو اقتصر على نظم الوقائع ما كان الشاعر الفحل الذي تقدّم إلى الميدان عن إيمـان واقتدار، ولكن نـاقِدِي محـرّم لا يريدون أن يفهموا من ديوان مجد الإسلام إلاّ ما فهموه من إلياذة هوميروس، فلا بدّ أن يخلق الشاعر أُسطورة، وأن يحلّق بجناحـه إلى حيث تتوالى الآلهـة والشياطين، والشُّهُب، والزلازل والخوارق! وهنا يكون الشاعر ذا خيال.

أما أحمد محـرّم فيتحدّث عن بـطل مشهور الـوقائـع، لا ليختلق مع وقـائعه أحداثاً تُضاف إليها بل ليصوّرها في جوّه الشعري كما صدرت عن صاحبها، ثم هو بَعْدُ أحد شعراء البعث، الذين أدّوا دورهم القوي، في تجديد الديبـاجة الشعـرية، وإعادتها إلى بهائها السّالف في عهد الفحول السابقين.

وصنيعـه في الحديث عن البـطولـة كصنيـع سـابِقِيـه من أمثـال: أبي تمّـام، والمتنبّي، مع فارق واضح هو أن هؤلاء قـد تحدّثـوا عن المواقـع في ظلّ المـدائح الرسمية، أما الشاعر فقد تحدّث عنها في ظلّ إيمانه القوي، وصدقه الموقن، فلئن خالف هوميروس، فما شـذّ عن سنَن شعراء البـطولة في الأدب العـربي، وهم قوم أُولو مكانة مرموقة يقدّرها الدّارسون.

قد يكون من الحق أن محرّماً قد تعجّل في قليلٍ مما نظم فساقه مَساقاً قريب التناول، حتى ليكاد أن يكون أحداثاً فحسب، ولكن هذا القليل إذا جاز له أن يأخذ صفحات متعدّدة من الديوان، فلن يكون وحده موضع الحكم، فـإلى جواره الكثيـر

الحافل مما ازدهر بروائع الخيال، وحفل بأشهى الصور، وأصدق الانطباعات، ولنا بحث مستقل عن الإلياذة الإسلامية حافل بالإشهاد، الذي لا نُطيل فيه الآن، بل نكتفي بعرض سريع لقصيدة فتح مكة التي هي من عيون الإلياذة الإسلامية.

لقد بدأ بتصوير خالد الزاحف كالجبل إلى ديار مكة، حيث ارتجّ لمَقدَمه ما بمكة من جبال، فذلك طودُ الشرك الراسخ، يهوي لمقدَم طود ما مسّ الأطواد إلاّ تناثرت كالهباءِ، وذلك سيف الله يزهي باسمه، فتزهى به السيوف، وتزداد به شرفاً في عزّها المنيع.

ثم هذه دعوة الإسلام إلى المُسالمة في عهد مضت أنواره تكتسح الدياجي، من ظلمات الأباطيل، لقد جاء نصر الله والفتح إذ مشى نبيّ الله إلى البيت خاشعاً يسجد لربّه، وقد أخذ البيت يتحرّك من مكانه لتنهض أركانه مشغوفة تتلقّى الزائر الحبيب، أما أصنام البيت فكانت موضع السخرية ممّن؟ ممّن هاموا في عبادتها، وبذلوا ماءَهم في سبيلها غير مُقصِرين، حتى رأوها مجلّلة بالهوان، فنظروا إليها ساخرين، وكانوا يظنّون حِماها لا يُستباح فوجدوها قد سقطت تفاريق ، وانقضّت محطّمة، نامت شياطينها عنها، وبات ماردُها مُلتحِفاً بالخزي والشنار!.

أما هُبَل فما دَرَى والطعن يأخذه من كل صوب، هل غور الدمع من عينيه أم زرفا! ربّاه إن لم يكن هذا شعراً فأين يكون القصيد!.

حين رمى الله به مدحوراً على يد الشريد المهاجر الذي ظلمه ذوو قرباه إذ همّوا بقتله فعاد إليهم صافحاً يردّ الظلامة في رفق، وأراهم من عدله وإيمانه ما دفعهم إلى الانضواء تحت رايته مُسالِمين، فاستقام على البيضاء مَن كان يضرب في العمياء، وجَرَى طلقاً نشيطاً مَن غلّلته القيود، وأدْمَته الأوهان فأخذ يغشى موارد الإيمان الصافية، وعاد رجسه طهراً، وتتابع القوم أفواجاً، فأمّنهم دين السلام!.

هذا بعض ما أشار إليه الشاعر الكبير أحمد محرّم حين قال في قصيدة الفتح:

ديَارَ مكّة هذا خالد زحفا	فما احتيالك في الطود الذي رجفا
طودٌ من الشرك خانته جوانبه	لما مشى نحوه الطود الذي زحفا

إن الجبـال التي في الأرض لـو كفـرتْ ... لـدكّهـا جبـل الإسـلام أو نـسفـا

لـمّـا دعـاه بـسـيـف الله سـيـدهُ ... زاد السيـوف بـه في عـزّهـا شـرفـا

ديـار مـكّـة أمّـا مَـن يُـسـالـمـه ... فـلا أذىً يُـتّـقـى منـه ولا جـنـفـا

لا تجـزعي إنـه العهـد الذي انبعثت ... أنـواره تصـدع العهـد الـذي سلفـا

مشى الـنبـي يحفّ النصـر مـوكبـه ... مـشـيّـعـاً بـجـلال الله مـكـتـنـفـا

لـم يبـقَ إذ سـطعت أنـوار غـرّتـه ... مـغـنـىً بـمـكـة إلّا اهـتـزّ أو رجـفـا

تـحـرّك البيـت حتى لـو تـطاوعـه ... أركـانـه خفّ يـلقـى ركبـه شـغـفـا

وافـاه في صحبـه من كـلّ مـزدلـف ... فـلم يـدع فيـه لـلكـفّـار مـزدلـفـا

العـاكفـون على الأصنـام أضحكـهم ... أنّ الـهـوان على أصنـامهـم عـكـفـا

كـانـوا يـظنـون ألّا يـستبـاح لـهـا ... حِمىً فـلا شـمـمـاً أبْـدَت ولا أنـفـا

نـامت شيـاطينـهـا عنـهـا مـذمّمـة ... وبـات مـارِدُهـا بـالخـزي ملتحفـا

هَـوَت تفاريـت وانقـضت محـطّمـة ... كـأنهـا لم تـكن إذ أصبحـت كسـفـا

ريعت جيـوش قـريش من قـذائـفهـا ... وريـع منهـا الخـزاعيّ الـذي قـذفـا

رأتـه يـنـحطّ مـن عـليـائـه فـزعـاً ... من بعـد مـا أفـزع الأجيـال مشتـرفـا

ومَـا دَرَى هُـبَـلُ والـطّعـن يـأخـذه ... هـل غـوّر الـدمـع من عينيـه أم ذرفـا

لـو كـان للدمـع يجري حـولـه دفعـاً ... طـول المـدى مشعبٌ في جـوفـه نـزفـا

رمـى بـه الله يحمـي البيـت من عبـثٍ ... يـعـاف بـاطـله مَـن عـافَ أو عـزفـا

لـلجـاهـليـة رسـمٌ كـان يـعـجـبـهـا ... فـي دهـرهـا فعـفـت أيـامـه وعـفـا

لا كـنـت يـا زمـن الأوهـام مـن زمـنٍ ... أرخى على النـاس من ظلمـائِـه شجفـا

إن الشـريـد الـذي قـد كـان يـظلمـه ... ذوو قـرابـتـه قـد عـاد فـانـتـصـفـا

ردّ الـظلامـة فـي رفـق وإن عـنـفـوا ... ولـو يـشـاءُ إذن لاشـتـدّ أو عـنـفـا

شـكـراً مـحـمـدُ إنّ الله أسـبـغـهـا ... عليـك نعمـى تـرامـى ظلّهـا وضـفـا

قـد عـاد يكلف بـالإسـلام من رشـد ... مَن كـان بـالكفـر من غيّ الهـوى كلفـا

ثم استـقـام على البيـضـاء يسلكهـا ... مَن كـان يضـرب في العميـاء معتسفـا

يـغشى مـوارد لـلإيـمـان صـافـيـة ... مـا امتـاح من مثلهـا يـومـاً ولا اغتـرفـا

هذا وقد كنت أقع في دهشة عجيبة حين أجد الشاعر يتكلم في الموضوع الواحد مرّات متعدّدة، وهو في كلّ فريدة من فرائده يطالعك بمعانٍ لم يجش بها خاطره قبل ذلك، فقد فرض على نفسه أن يُحيّي رسول الله في كل عام بقصيدتين في مناسبتي الهجرة الشريفة، والمولد السعيد أضف إلى ذلك ما يعرض في المواسم الأخرى كذكرى غزوة بدر، وذكرى الفتح! ثم هو بعد هذا كله يشعر بأنه لم يقل شيئاً بجانب ما يليق بعظمة محمد فيقول في مخاطبته:

ما في النوابغ من لبيب حاذق	إلّا وأنت ألبّ منه وأحذق
القول مستلبُ المحاسن عاطل	حتى يقول العبقري المفلق
أنت المجال الرّحب تُعتصر القوى	فيه وتمتحن الجِياد السُّبَّق
حسّان منبهر، وكعب عاجز	والنابغ الجعدي عانٍ مُوثق
أطمعتهم فتجاوزوا فيك المدى	وأبيت فانصرفوا وكلٌّ مخفق
لي عذرهم أنت من عدّة المنى	إلّا وراء مخيلة ما تصدق

والحق أنه ـ رحمه الله ـ كان يجد من الذكريات الدينية ظلًّا وارفاً يتفيّأُه في هجير الحياة، فهي تتيح له الموازنة بين الحاضر والماضي، كما تمكّنه من إسداء النصائح الصادقة لأبناء الدعوة المحمّدية في مختلف البقاع، وتلك رسالة الشاعر العامِل، إذ يحمل بيده المِشعَل المُضيء فيُنير السبيل.

وإذا تعدّينا تاريخ محمد إلى غيره من المُرسَلين، فإننا نجد محرّماً قد اندفع أيضاً وراء عاطفته الدينية، فنظم في قصص الأنبياء معلّقة طويلة ألقاها في موسم الشعر، وقد ابتدأها بقصة آدم وحوّاء، وخروجهما من الجنة، ثم دلف إلى الأنبياء الذين ذكرهم القرآن، فروى قصصهم الماضية، مُبيِّناً جهود كل نبي في دعوته، وما قابله به قومه من العناد والاستخفاف، ثم ما كان في النهاية من ظهور الحق وخذلان الباطل.

وإن كان هناك فرق شاسع بين حديث الشاعر عن الأنبياء في ملحمته الجيدة، وحديثه عن محمد في إلياذته العامرة، حيث كان في الأولى مؤرّخاً يسجّل الحوادث كما حكاها القرآن، وتناقلها الرّواة والمفسّرون، دون أن تقوم شاعريته

كثيراً بتوليد بارع أو ابتكار رائع، ولكنه في الإلياذة قد جمع بين التاريخ والفن، فهو يُبدع في الفكر والعرض معاً، كما يرسم صورة للزمان والمكان، وقد يهتم بالجزئيات الصغيرة، فيصوغها في لباقة تُحمَد للناشر المترسّل، فما ظنك بقافية ووزن!! ذلك توفيق كبير.

رحم الله محرّماً، فقد أسدى إلى العربية والإسلام يداً بيضاء لم يسلفها شاعر عربي قبله، ومع ذلك فقد عاش حياته الطويلة في دمنهور كادحاً متعباً، لا يجد الناشر الذي يُظهِر له ديوانه الرائع في ثوب لائق بمركزه المرموق، ثم وافاه الأجَل المحتوم، فسكت الأدباء عنه في قسوة، غافلين عن أدبه الحيّ، وفنّه الرفيع، وكأني به في حنادس القبر يردّد متأوّهاً نائحاً بيته الحزين:

ظمئت وفي فمي الأدب المصفّى   وضعْت وفي يدي الكنز الثمين



محمد محيي الدين عبد الحميد
العلّامة المحقّق الدؤوب

- ١ -

أبطأت كثيراً عن إيفاء أُستاذنا الكبير محمد محيي الدين عبد الحميد بعض حقّه في بحثٍ موجز يشير إلى مآثره، ويدلّ على فضله، ولي العذر كل العذر، فالرجل النشيط الدؤوب قد ترك وراءه من الآثار العلميّة ما يعجز الكاتب أن يُشير إليه في ترجمة ذات حيّز محدود، وقد تركتني بحوثه المتشعّبة في حيرةٍ لا أدري كيف أُسلسل الحديث عن أهمّها، وأقول عن أهمّها لأن استقصاءها عسير، وقد عرف الأستاذ التأليف وهو طالب، ثم لم يدع البحث يوماً واحداً، فماذا عسى أن نقول في اختصار الحديث عنه، وأولى به أن يُفرد بكتاب مستقل ينهض به أحد تلاميذه وإنهم لكثير.

يقول أستاذنا العلّامة الشيخ محمد علي النجّار في حفلة استقبال الشيخ محيي الدين بمجمع اللغة العربية، حين اختير عضواً به:

«لقد قيل في الطبري، إنه كان كالقارىء الذي لا يعرف إلّا القرآن، وكالمحدّث الذي لا يعرف إلّا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلّا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلّا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلّا الحساب، وكذلك يقال في الشيخ محيي الدين، إنه كالنحوي الذي لا يعرف إلّا النحو، وكالفقيه الذي لا يعرف إلّا الفقه، وكالمحدّث الذي لا يعرف إلّا الحديث،

وكالمتكلّم الذي لا يعرف إلاّ الكلام، وآيةُ ذلك ما ألّفه أو أخرجَه من الكتب في هذه الفنون». قال ذلك شيخنا النجّار بعد أن قال: «ولقد أتى على الأزهر حينٌ من الدّهر، وجلّ ما يُدرَسُ في معاهده من تأليفه أو إخراجه»[1].

وتعدّد المعارف العلميّة كان من سِمات علماء الأزهر، قبل أن تُنشأَ الكليّات، لأن الطالب في القسم العالي كان يدرس العلوم الرئيسية لكليّات اللغة العربية وأصول الدين والشريعة الإسلامية جميعها، فإذا كان نابغة كالشيخ النجار أو الشيخ محيي الدين فإن علوم الإسلام شريعةً ولساناً لا تعجزه، وكان الشيخ إبراهيم الجبالي والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ عبد المجيد سليم يرأسون لجان الامتحانات في التخصّص القديم، ويسألون عن دقائق العلوم المختلفة، وكأنهم ذَوُو اختصاص في كل علم على حِدة! وقد زاد عليهم الأستاذ محيي الدين بما بذل من جهد في النشر والتأليف، على حين اكتفى هؤلاء بمجالس الدرس المستوعب لكبار الطلاّب، وليتهم صحبوا القلم كما صحبوا اللسان.

وقد قال الأستاذ النجّار ـ صادقاً ـ لقد أتى على الأزهر حينٌ من الدّهر، وجُلُّ ما يُدرَس في معاهده من تأليف الأستاذ محيي الدين أو إخراجه، وأنا أدركت هذا الزمن في الأزهر، إذ لم يكن يخلو عامٌ واحدٌ من كتابٍ أو عدّة كتب من آثار الرجل.

لقد استقبلت الحياة العلمية بالسنة الأولى في القسم الابتدائي بكتاب «التحفة السَّنِيَّة» بشرح الأجرومية مع كتب أخرى وقد كتبه الأستاذ ليشرح المتن، بعيداً عن استطرادات الكفراوي، وما أثقل به شرحه من تعسّفٍ في التأويل، وتحايل في الإعراب، فجاءت التحفة قريبة من أذهان الناشئة، وتعدّدتْ طبعاتها لتتخلّص رويداً مما أثقل الطبعة الأولى من مسائل غير ضرورية، مثل أنواع التنوين، وأمثلته، وقد جمع الأستاذ بين الأمثلة الإنشائية وبعض ما تُعُورِفَ من شواهد النحاة، وفسح المجال للإعراب كعادته في كل ما علّق به على كتب النحو،

(١) مجلة مجمع اللغة العربية، جـ ٢٠، ص ١٩٢، سنة ١٩٦٦ م.

والإعرابُ ضروريّ لطلاب السنوات الأولى، ولكنَّ حرصَ المؤلّف عليه في شُروح التوضيح والأشموني وأضرابهما مما يُعَدُّ أمراً غير ذي بال.

وفي السنة الثانية كان كتابُ «تنقيح الأزهرية» هو المقرّر النحوي، وهو كاسمه تنقيح لشرح الشيخ خالد على متن الأزهرية، والمتن واضحُ جدّاً، وكذلك الشرح لأن الشيخ خالداً لم يُزاوِل التأليف العلمي إلّا بعد أمد طويل من عمره، فكتب المتن والشرح معاً لناشئة عصره، بأسلوب ينأى عن الغموض، وكلّ ما صنع الأستاذ محيي الدين أن حذف ما يتعلّقُ بالجنس والفصل في بابٍ أو بابين فحسب، ولكنه اهتمّ بالإعراب اهتماماً جيّداً، وأظهرَ الشرح في كتابٍ أبيض ذي رونق جميل، وطَبْع حَسَن.

أما السنة الثالثة فقد كان شرح القطر موضوع الدرس، حيث قام الأستاذ محيي الدين بتعليقاته المفيدة، وإعراباته الكثيرة.

وإذا كانت كتب النحو أخذت تتكرّر طبعاتها بتوالي السنوات، فإن المحقّق أخذ يتّسع في تعليقاته شيئاً فشيئاً، حتى رأى بعد عدّة طبعات أن يستقلّ عمله بعناوين خاصّة، كأن يقول في كتاب القطر ومعه (سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر الندى) وأن يقول في كتاب الشذور، ومعه (منتهى الأرب، بتحقيق شذور الذهب) وأن يقول في كتاب ابن عقيل ومعه (منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل) وهكذا في كل ما كتب من تحقيقات نحوية.

ويقتضي الحق أن نقول إن شواهد النحو متكرّرةٌ دائماً، وإن أكثر ما استشهد به المؤلّفون في القطر والشذور، والتوضيح، وابن عقيل، والأشموني مشترك متناقل، فإذا كتب المحقّق شروحاً تتعلّق بالأبيات ونسبتها ومعناها ومصادرها وإعرابها، فهي نصوصٌ تنتقل في أكثرها من كتاب إلى كتاب دون جديد إلّا فيما يُعلّق به المحقّق على مسائل خاصّة لا تتردّدُ، وما أقلّ ما يعنّ ذلك.

ولعلّ اتجاه الأستاذ إلى نفع الطالب، هو الذي جعله يستغني بكل كتاب عمّا تقدّمه، وإن دَرَسَه وامتحن في مسائله. وقد تحدّث المحقّق في مقدمته للقطر بما يكشف اتجاهه حين قال:

«لذلك لم أجد بُدّاً من القيام على هذا الكتاب، بضبط أمثلته وشواهده، من القرآن الكريم والحديث النبوي، والشعر العربي، ثم بشرح أبياته شرحاً وسطاً، بين الوجيز المخلّ، والبسيط المُمِلّ مع إعراب الأبيات إعراباً كاملاً، وأدّيت ذلك كله بعبارة سهلة، وأسلوب قريب التناول، إذ كان قصدي أن يتفهّمه المبتدئون في علم العربية ومَن في حكمهم.

وكان من أهم ما بعثني إلى هذا العمل الرغبة في أن أضع لَبُنة في إصلاح الجامع الأزهر بإصلاح ما يمكنني إصلاحه من الكتب التي تدرسُ فيه، فقد ـ والله ـ ساءَني، وساءَ كلّ محبّ للأزهر أن يُضرَب المثلُ في رداءة الطبع، واختيار أدنى أنواع الورق بالكتب الأزهرية فيُقال هذه طبعة أزهرية، ولا يكون للكتاب عيبٌ يزدريه بعض القرّاء من أجله إلّا أنّ حروفه صغيرةٌ، أو أن ورقه أصفر ونحو ذلك، ورأيت كثيراً من أبنائنا من طلبة العلم في الأزهر يجأرون بالشكوى من كتب الدراسة من غير أن يكون لذلك سببٌ في نظري غير رداءة الطّبع وسوءِ الإخراج»[1].

لقد أفصحَ الأستاذ عن مجالِ عمله العلميّ أوّلاً، وعن دافعِه ثانياً، ولا ننكر فضله الجمّ في إبراز هذا التراث الحافل في أجمل الثياب، ولكننا نتلمّسُ العذر الحقيقي لمَن سبقوه من صَفْوةِ علماءِ الأزهر، حين أخرجوا الكتب الأزهريّة من ظلام المخطوطات إلى ضياء المطابع، باذِلين جُهدَ الصابرين، ودأْب المناضلين في القراءة والتوجيه، حتى سَلِمَ لهم من النصوص أكثر ممّا عطب، ولم يكن بأيديهم أن يجبروا التُّجّارَ من الناشرين على اختيار الورق الأبيض، والطّبع الجيّد، بل لم يكن لهم أن يكتبوا أسماءهم على الصفحات الأولى من الكتب المنشورة، بل كانوا يكتفون في النهاية بهذه العبارة يقول مصحّح الكتاب (فلان) ولولا ذلك لضاعتْ أسماءُ نفرٍ من كبار المجاهدين أمثال الأساتذة نصر الهوريني، ومحمد قطّة العدوي وإبراهيم الدسوقي! وغيرهم من الجنود المجهولين.

---

(١) كتاب شرح قطر الندى، ص ٤، ط ١١، سنة ١٩٦٣ م.

وللأستاذ محيي الدين في كل كتابٍ ما يدلّ على سعة علمه، وحصافة نقده، وقد يتوسّع، في بعض الشرح توسّعاً فوق ما تتّسع له مدارك الطلاب من دارِسِي القطر والشذور وابن عقيل، وإخالُه كان في ذلك يتّجه بالفائدة للمُدَرّسين لا للطلاب، أو للباحثين عن النحو من غير المتعلّمين بالأزهر، فهو في شرحه على القطر يبسط القول في بيت أبي نواس[1]:

كأنَّ صغرى وكبرى من فقاقعها حصباءُ درّ على أرض من الذهب

ليوضّح وجهة مَن خطّأَ الشاعر، وليبيِّن وجهة مَن صوّبه، وفي باب اسم الفعل يبسط القول في بيت أبي فراس:

أيا جارتا ما أنصف الدّهر بيننا تعالي أُقاسمك الهموم تعالي[2]

فيتحدَّث عن رأي ابن هشام في تخطئة الشاعر، ويردّ عليه بأوجهٍ ثلاثة، في غاية الدقّة الواعية مع وضوح لا يخرج بالكلام عن حدّ الإيجاز، وفي باب إعمال لا النافية عمل لَيْسَ يذكر قول أبي الطيب[3]:

إذا الجودُ لم يرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوباً، ولا المال باقيا

لينصّ على تخطئةِ ابن هشام معقِّباً عليها بما أجازه الشجري، وليقول: إن ابن هشام نفسه، قد أنشد في شذور الذهب هذا البيت على أنه صحيح قال بصوابه جماعةٌ من النحاة! واختلاف ابن هشام بين التخطئة والتصويب شيءٌ طبيعي لا اعتراض عليه، فقد يعنُّ للعالِم في غده خطأ ما اعتقده في أمسِه، فيتّجه إلى التصويب، ولكنَّ التفات المحقِّق إلى أمثال هذه الاختلافات، والنصّ عليها في مواقعها، من الكتب المحقَّقة شيءٌ حميدٌ.

فإذا تركنا شرح القطر إلى ما فوقه، وهو شرح الشذور فإننا نجد المجال أوسع، والشرح أوفى، وليسَ ذلك لأنّ الطلاب يدرسون الشذور بعد القطر، بل

(١) شرح القطر، ص ٢١٧، ط ١١.
(٢) شرح القطر، ص ٣٤، ط ١١.
(٣) شرح القطر، ص ٤٦، ط ١١.

لأن ابن هشام نفسه قد اهتمّ بشرح الشذور على نمطٍ غير مسبوق، وقد أكثر فيه من الشـواهد والآراء والتعليـلاتِ الطريفـة ما فسـح المجال للمحقّق الفـاضل أن يقـوم بتعقيبات مفيدة، وتلخيصات نافعة.

فهو مثلاً عند استشهاد ابن هشام بقول الله تعـالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرحاً ﴾[1] يذكر الآراء الثلاثة في إعراب كلمة ﴿ مرحاً ﴾، ويبيِّن حكمـة كل رأي، في دقّـة تشفي الغليل، وحين يـذكر ابن هشـام في بـاب اسم الفعـل قـول الله عـزّ وجلّ: ﴿ قالتْ هيتَ لك ﴾[2] يذكر أوجه القراءات وأشهرهـا، مع تخـريج النحـاة لكل قراءة، مُبَيِّنـاً معنى اللام في الجـار والمجرور، وتلخيص ذلـك واستيعابُـه في هذا الحيِّز مما يدلّ على العمق والتحديد معاً، لأن المفسّرين من الكبار قد أفـرغوا الصفحات في الإيضاح دون أن يبلغوا بالقارىء ما بلغ المحقِّق في أمَدٍ يسير.

ولا نكادُ نترك هذه الآية حتى نجـد الشارح قـد وقف عند إعـراب ابن هشام لقـول الله: ﴿ فسَتُبْصِرُ وَيُبْصِـرُون. بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُـون ﴾ [القلم ٦٨، آية ٥ ـ ٦] فـرآه ينحـو منحى سيبويـه، وكأنـه لا يميـل إليـه، فيعقّب عليـه بـرأي الأخفش وسـواه، ويوضِّح مغزى كل إعراب، وموضعـه من المعنى، وهكذا يتـابع تحقيقـاته الشـافية بحيث يخرج قارىء الشذور الهاضم عالِماً نحويّاً كأبرع العلماء.

وقد يظن القـارىء أن تعدّد الـطبعات للشـرح النحوي يُيسِّـرُ مهمة المحقِّق، وهذا ما يتبادر للذِّهن ابتداءً، ولكنّ تجربة الأستاذ محيـي الدين عبد الحميد أوقفتـه على غيـر ذلك، ولم تكن التجـربة لـدى كتابٍ عـويص كشـرح الشـافيـة أو شـرح المفصـل لابن يعيش مثلاً، لأن نصـوصَ هذيْن الشـرحين تتطلّب الصبـر والاحتيال والمُعـاودة، بـل كـانت التجـربـة لـدى شـرح ابن عقيـل لألفيّـة ابن مـالـك، وهـو ـ لعمـري ـ أوضحُ شـرح للألفيـة قد يسّـر الله لمؤلّفه سهـولةً عـذبـةً جعلتـه قـريب المنال، وبمقارنته بالشذور يظهر الفرق واضحاً ساطع الدلالة، وقد تعدّدت طبعاتـه

---

(١) شذور الذهب، ص ٦٧، ط ٤.

(٢) شذور الذهب، ص ١٢١، ط ٤.

قبل أن يَعْمَدَ الأستاذ إلى تحقيقه، فرأى بينها من الاختلاف ما نلمسه في قوله الصادق[١]:

«وأُريد أن أُنبّهك إلى أني دَقّقْتُ في هذه المطبوعة تصحيحاً دقيقاً، فإن نُسَخ الكتاب التي في أيدي الناس ـ رغم كثرتها وتعدّد طبعاتها ـ ليسَ فيها نسخة بلغت من الإتقان حدّاً ينفي عنك الريب والتوقّف، فإنك لتجدُ في بعضها زيادةً ليست في بعضها الآخر، وتجد بينها تفاوتاً في التفسير، وقد جمع الله لي بين اثنتي عشرة نسخة مختلفة، في زمان الطبع ومكانه، ويسّر لي معارضة بعضها ببعض، فاستخلصت لك من بينها أكملها بياناً، وأصحّها تعبيراً، وأدناها إلى ما أُحبّ، فجاءت ـ فيما أعتقد ـ خير ما أُخرِجَ للناس من مطبوعات هذا الكتاب، وقد وضَعْنا زياداتِ بعض النسخ، بين علامتين هكذا[ ] اهـ».

ويمضي الشيخ على طريقته إعراباً وتعقيباً وذِكراً للمصادر ولموضع الشاهد ولاختلافِ النحاة فيما كان موضع الاختلاف، وهكذا سار في شرح أوضح المسالك، إذ شرحه مرّتيْن! وادّخر شرحاً مطوّلاً له قال: إن الناشرين قد عجزوا عن نشره محتجّين بطوله، وسمّاه الشرح البسيط، وقال: إنه أودعه ما لا يحتاجُ طالب علم العربية إلى ما وراءه[٢] أما المُغني (مُغني اللبيب لابن هشام) فقد أخرجَ منه نسخةً مصحّحةً فحسب، وقال في مقدمتها: إنَّ له عليه شرحاً مبسوطاً ضاقت حيلته في نشره، ووصف شعوره الضائق في قوله:

«وكنت تنوّقتُ في هذا الشرح على قدر ما يستحقّه الأصل، من العناية، وبذل الوسع، وكنت أعود إليه الحين بعد الحين، فأزيدُ ما يجدّ لي من البحث، حتى أوفيت على الغاية، وبلغت من ذلك ما تمنيتُ، ولكنّي لم أظفر إلى يوم الناس هذا بناشرٍ يقوم بإظهاره لقرّاء العربية، إذ كان النّاشرون لهذا النوع من المؤلَّفات، إنما يُقدِمون على نشر ما يعتقدون أنهم رابحون من ورائه الربحَ الجزيل، فهم يُقدِّرون ويُقدِّرون ثم يُقدِمون أو يُحجِمون، وكان من نصيبِ هذا

---

(١) مقدمة شرح ابن عقيل، للمحقّق، ط ١٥.

(٢) شرح ابن عقيل، للمحقّق، ط ١٥، ص ٦.

الكتاب أن يُحجِم مَن عرفت من الناشرين عن الإنفاق عليه، رغم تهافت كثرتهم على مؤلّفاتي، وليس فيه من عيب عندهم إلّا أنه كتاب كبير الحجم، وقرَّاؤهُ في طبعاتِ شروحِه القديمة قلّة لا تسدُّ نهمهم، ولا تُغني عندهم»[1].

وإذا كان للمغني شروحٌ عدّة فإننا ـ ولم نقرأ ما كتب الأستاذ ـ نتوقعُ أنه قد رجع إليها، وأفاض في التعليق بما لا مزيد عليه، وقد يكونُ للناشرين بعض العذر حينئذٍ إذا لم يندفعوا إلى نشرِ ما لا يتوقَّعون الكسبَ العاجل من ورائه، فهم تجَّارٌ يُهمّهم الربح وليسوا بعلماء يبحثون عن الحقائق، ويهتمّون بإذاعتها لوجه العلم.

وكان على الأستاذ أن ينتفع بتجربته في شرح الأشموني، حيث توسّعَ توسّعاً مُفرِطاً في شرحه وطُبِعَت منه عدّة أجزاء، وقف الناشر عندها، دون أن يجازف بطبع الكتاب كاملاً، وبمراجعة ما طُبع نجد المحقّق، جَاوز النحو إلى سواه، فكان إذا تعرّض إلى بيت ذكر قصيدته كلها، وقام بشرحها، وكأنه يسلكُ في ذلك مسلك أُستاذِهِ الكبير سيّد بن علي المرصفي في شرح الكامل.

ولكنَّ الكامل شيءٌ وشرح الأشموني على الألفية شيءٌ آخر، فالكامل كتابُ أدبٍ بالمعنى العام يشملُ قضايا اللُّغة والشعر والنحو والصّرف والتاريخ، وقارئه يعرف أنه ينتقل من فنٍّ إلى فنٍّ وفق مذهب المبرّد، فلا يضيره أن يُسهِب المرصفي في شرح قصيدة لمجرد ذكر بيت واحد، أما قارئُ شرح الأشموني لمؤلّفٍ معاصر، فيتطلّبُ تحديداً دقيقاً، يُسائِل الشّارح عن تجاوزه، وليست المسألة مسألة معلوماتٍ تُقال لأدنى مناسبة، كما نعهد في كتب السابقين.

ولا نترك جهد الرجل في مضمار النحو دون أن نشيرَ إلى جهده الكبير في تحقيق كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين والبصريين والكوفيين»، فقد قَدّمَ طبعة محقّقةً دون شرح، مكتفياً بسلامة النص وضبطه ثم رأى أن يقوم بتعليقاتٍ واسعةٍ شافيةٍ جعلها ـ كتاباً خاصّاً سمّاه (الانتصاف من الإنصاف) فجاء الكتاب كلُّه في جزءَين كبيرين يقربانِ من تسعمائةِ صفحةٍ كبيرةٍ، وقد احتفل

---

(١) مقدمة مُغني اللبيب، للمحقّق، جـ ١، ص ٣، ط صبيح.

الأستاذ بتحقيق الشواهد، وتحديد مواضع الوفاق والخلاف، وبيان مواضع الاستشهاد، وذلك عملٌ ميسورٌ لمَن كان ذا مِراسٍ شديدٍ لمسائلِ النحو مثل مراسه الطويل مؤلّفاً وشارحاً وأُستاذاً بالدراسات العليا بالجامعة!.

ولكنّ الاعتراض قائمٌ على تسمية عمل الأستاذ الجليل (بالانتصاف من الإنصاف) لأن قارىء هذا العنوان يظنّ أن الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد قد جلس مجلس الحكومة بين الأنباري ومَن تعرّض لأقوالهم من البصريين والكوفيين، فراجَع أقوال القوم أوّلاً، ثم تأمّل موازناتِ الأنباري ثانياً، وأخذ ينظر في وسائل ترجيحه، وكيف مالَ مع البصريين في هذه المسألة ولماذا؟ وكيف كان مع الكوفيِّين في مسألة ثانية ولماذا؟ وما وجه الحقّ فيما اتجه إليه الأنباريّ معارضاً ومؤيِّداً؟.

هذا ما يُفهمُ من عنوان الكتاب (الانتصاف من الإنصاف) كما نفهمُ من عنوان (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للجرجاني، (والانتصاف من الكشاف) لابن المنير، إذ إن صاحب الوساطة كان الحَكم الذي ترضى حكومته حين عرض أدلّة المعارضين وناقشها، وكذلك فعل صاحبُ الزمخشري حين راجع أقواله الاعتزالية وقرَنها بأقوال أهل السُّنّة موازناً بين اتجاهين.

هذا ما يُفْهمُ من عنوان الكتاب، أما حقيقته فتعليقاتٌ علمية مفيدة على نصوص الكتاب، وتحقيق للشواهد، وتتمّة للآراء، ولكنّ ذلك كله شبيه بتحقيقات الأستاذ على التوضيح والأشموني وابن عقيل، وليس مما ينطبق عليه المفهوم الخاصّ بالانتصاف!.

هذا بعض عملِ الأستاذ في مجال النحو، يعلن عن فضله الجمّ، وجهده الكبير، وقد يكون من الخير أن نضيف إلى ما تقدّم ما تحدّث به الأستاذ الكبير عبد السلام هارون في خطاب التأبين بمجمع اللُّغة العربية حيث قال:

«وممَّا يخرج عن نطاق الحصر ما صنعه (الأستاذ محيي الدين) من العناية بنشر شرح ابن يعيش على المفصل في عشرة أجزاء لم يرقمْ عليها اسمه، ولم

يُدخِلها في حساب ما قام على نشره من أُمّهات الأصول. ويكفيه فخراً في النحو ويكفي النحو فخراً به أنه عالج معظم كتبه المتداولة، لتيسير دراستها وتذليل القراءة والبحث فيها بدءاً بالأجرومية وانتهاءً بشرح الأشموني للألفية، وشرح ابن يعيش للمفصل ولا يزال كثيرٌ منّا نحن أعضاء المجمع الموقّر يرجع إلى كتاباته وتعليقاته، وإلى هذا المدد الزاخر، من المكتبة النحوية التي نقلها من ظلام القدم إلى نور الجدّة والشباب»[1].

وللأستاذ مقدمات علميّة رائعة تدلّ على أنه باحثٌ جيّد، لو تفرّغ للتأليف الخالص لأبدع الكثير، وأُشير إلى مقدمتين رائعتين هما مقدمته لكتاب «مقالات الإسلاميين للأشعري»، ومقدمته لكتاب «تهذيب السعد» حيث ألمّ في الأولى بتاريخ دقيق لعلم الكلام منذ بَدَت أُصولُه حتى اكتمل وتشعّب وتعدّدتْ فِرَقُهُ بعد الأشعري، في وضوح خالص يدلّ على صحة الفهم، وصدق الاستنباط، كما ألمّ في المقدمة الثانية بتاريخ علم البلاغة في دقّةٍ حصيفةٍ، وقد كتب هذا التاريخ المستوعب قبل أن تظهر الكتب المستقلة بتاريخ هذا الفن فكان ذا سبق جليّ، وله في مقدمة نهج البلاغة استيعاب جيّد، واستشفاف بصير.

- ٢ -

كان محيي الدين نزّاعاً للعلم مشغوفاً به منذ نشأته الأولى، إذ تربّى في بيتِ فقهٍ وقضاءٍ، لأن والده الشيخ عبد الحميد إبراهيم كان من رجال القضاء والفُتْيَا، وله صِلاتٌ قوية بزملائه، والصفوة من علماء بيئته، فكانوا يجتمعون لديه في منزله، وقد ترعرَع الطفلُ الناشىء ليسمع آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ، ومسائل العلم في نقاش الزائرين، ويلحظ لوالده من الهيبة والمكانة ما دفع به إلى مُحاكاته، حتى إذا بلغ دور الصِّبا دفع به والدهُ إلى معهد دمياط الديني ليرتشف من مَعينه، إذ كان والده قاضياً بمحكمة فارسكور، ثم انتقل إلى القاهرة مُفتِياً دينياً لوزارة الأوقاف فانتقل معه إلى الجامع الأزهر.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية، سنة ١٩٧٣، جـ٣٢، ص ١٨٦ من كلمة الأستاذ عبد السلام هارون.

وأكبر ما يدلّ على ألمعيّة الطالب، وظهور هلالِه مبشِّراً بما سيعقبُه من إبدار، أنه طمح للتأليف العلمي وهو في ساحة الدرس قبل أن يظفر بـدرجة العـالمية سنـة ١٩٢٥ م إذ أقدم على عملٍ جادٍّ مُثمِر هو شرح مقامات الهمـذاني، ومؤلّف الشرح ومحقّقُ النّص في هـذا المقتبل من الشبـاب لا بدّ أن يكـون بعيد الـطمـوح واسـع الأمل، ولا بدّ أن يكون قد وَعَى من مسائل اللغة والأدب والتاريخ العربي مـا سمح لـه بالإتقـان، بل لا بـدّ أن يكون قـد وجد من والـدهِ منذ نشـأتـه الأولى في القسم الابتدائي دأباً في المُذاكرة، ومواصلةَ التوجيه، وقوّة التتبّع حتى بَلغ الطالب أشدّه، واستوى على سُوقه.

وقد اعترف لوالده بـواجب البرّ حين جعـل إهداء الشـرح لوالـده، وحين قال في ذلك الإهداء: «سيّدي الوالد، إلى نفسك الطاهرة، وحكمتـك العاليـة، وأدبك الجمّ، وفضلك الغزير، أُقـدّمُ كتابي هـذا، لقد ربّيتني على الفضيلة، وحبّبت إليّ العمل، وزهّدتني في الدّعةِ والونى، وعند الله في هذا جزاؤُك، فليس بيـدي شيءٌ منـه، ولا في استطاعتي أن أنـاله، ولـو رقيت أسباب السمـاء، ولكنّي أتقدّم إليـك بكتابي هذا بـرهانـاً على أنك غـرست فأثمـرت، وبذرت فـأنميت، ودليلاً على أنّ غراسك سيزدادُ نموّاً بمرّ الأيام إلى أن يؤتي أكله مرتين بإذن الله».

والحق أن الغراس قد آتى أكله مراتٍ عدّة، فإنَّ ما أخرجه الأستاذ من الكتب العلميّة تأليفاً وتحقيقاً ليعجز القرناءَ، حتى ليأتوا خلفه تـابعين، لقد كـان الأول بين قرنائه في امتحان العالميّة مع أول فرقةٍ نظاميّـة، فاختيـرَ مُدَرّسـاً بالجـامع الأزهـر، وظهـر من دلائلِ فضله العلمي مـا أعـدّه بعـد خمس سنـوات فحسب، لأن يكـون مدرّساً بكليّـة اللُّغة العـربية سنـة ١٩٣١ م، إذ أصدرَ عـدّة أجزاء من شـرح خزانـة الأدب للبغدادي جاءت خاليةً من التحريف وحافِلة بـالضبط والتعليق فأذاعت علمـه كمـا أذاعه تـلاميذه الـذين نهلوا من حِياضـه وأساتـذته من المفتّشين الـذين شَهِدوا نبوغه وتحدّثوا عنه مكبرين.

وقد كان أصغر أعضاء هيئة التدريس بالكليّة سنّـاً. ولكنَّ مقامـه العلميّ دفعه إلى الصـدارة فاختيـر في سنة ١٩٣٥ للتـدريس بتخصّص المادة لـطلبة الـدراسات

العليا وزامَلَ الكبار من أساتذته مُزاملةً خصبةً مُثمِرة فاعترفُوا بفضله، وسمعه الإمام المراغي في زياراته المتعاقبة للكليّة، فاسترعى انتباهه، واختاره مُحاضِراً في الاجتماعات العامّة بالجامع الأزهر عند المناسبات الدينيّة كالاحتفال بالمولد والهجرة والإسراء، إذ كان الشيخ الأكبر يلقي الكلمة الأولى ليترك المجال لأستاذٍ من نابِهِي هيئة التدريس بالأزهر كالشيخ محمد عرفة والشيخ محمد أحمد العدوي والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

ثم تقلّبتْ به الأيام فذهب إلى السودان أستاذاً للشريعة الإسلامية بكلية غوردون، فانتقل من تدريس النحو والصرف إلى دراسة المواريث وأقضية الأُسرة مما يُعرَف بالأحوال الشخصيّة، وبَدَا من اجتهاده ما ذاع في آثاره العلمية حين ألّف كتابين جيّدين عن الأحوال الشخصية والمواريث يُعدّان من المراجع الوافية في بابهما، وقد ألقى عدّة محاضرات في التفسير جمعها في كتابٍ خاصّ.

وحين رجع إلى مصر بعد عدّة سنوات تقلّد مناصب علميّةً رائعةً في التفتيش بالمعاهد، والأُستاذيّة بكلية أصول الدين، والعمادة بكلية اللُّغة العربية، هذا إلى إسهامه العلمي في لجنة الفتوى عضواً ورئيساً، وفي مجمع اللغة العربية عَلَماً بارزاً، وفي مناقشات الرسائل الجامعية موجّهاً وناقداً ومُشجّعاً، وتفصيل مآثره في هذه الميادين لا يجد سعةً في هذا النطاق الضئيل، لأن الاهتمام بآثاره القلميَّة أوجب وأهم، إذ تعدّدت هذه الآثار حتى بلغت الثمانين.

ولقد كتب الأستاذ، وحقّق في أكثر الفنون الذائعة بين الدّارسين، فهو في الفقه مع ما أشرنا إليه من كتبه في كلية غوردون قد كتب شرحاً على متن نور الإيضاح في الفقه الحنفي، كما نشر اللُّباب للميداني في شرح كتاب القدوري، وذلك غير مستغرب، ولكن المستغرب حقيقةً أن يتجاوز الفقه الحنفي إلى الفقه الشافعي فيؤلّف كتاب (الدروس الفقهيّة على مذهب السادة الشافعية) وينشر كتاب الخطيب الشربيني «الإقناع في حلّ ألفاظ أبي شجاع»، كما يشترك مع نفر من إخوانه في تحقيق كتاب «النهاية في شرح متن الغاية» لمحمد البصير.

أما في أصول الفقه فقد حقّق كتاب الموافقات للشّاطبي، ومنهاج الوصول في معرفة علم الأصول، والمسوّدة في أصول الفقه، وهي كتب تُعجِز قارئها إن لم يكن من ذوي الضلاعة الفاقهة فكيف بمحقّقها، إلّا أن يكون من طراز فريد.

وللشيخ في كتب الحديث تحقيق يشملُ سُنن أبي داود، وكتاب (الترغيب والترهيب)، وشرح ألفيّة السيوطي، وفي كتب التوحيد شرحُ للجوهرة، وتعليق على رسالة الإمام محمد عبده في هذا الفن، ونشرٌ لكتاب البغدادي «الفرق بين الفِرَق» ولكتاب الأشعري «مقالات الإسلاميين» ولا زلنا نذكرُ رسالةً مختصرةً له في آداب البحث والمناظرة كانت مقرّرةً علينا بالقسم الثانوي، وقد بَعُد عهدنا بها حتى كدنا ننسى رؤوس موضوعاتها، ولا أدري لماذا لم يتّسع التأليف في أدب البحث، مع أهميته، ولماذا استغنى عن تدريسه، وهو ممّا يفيدُ العلمَ والسُّلوك معاً.

أمَّا ما كتبه في فنون البلاغة والأدب واللغة والتاريخ فإننا لا نستطيع سوى الإلمام ببعضٍ دون بعضٍ، مثل نشره لأدب الكاتب، والمثل السائر، وجواهر الألفاظ، ويتيمة الدهر، ومعاهد التنصيص، والموازنة بين الطائيين، وزهر الآداب، ومجمع الأمثال، والعمدة، وسِيرة ابن هشام، ونفح الطيب، ونهج البلاغة، ووفيات الأعيان، والوافي بالوفيات، ومروج الذهب، وتاريخ الخلفاءِ، ووفاء الوفا، ودواوين عمر بن أبي ربيعة، وشرح الحماسة، وشرح المعلّقات، والجزء الأول من ديوان الشريف، وفي هذه الكتب ما بلغ عشرة أجزاء مثل النفح، وما بلغ ستّة أجزاء مثل وفيات الأعيان، وما بلغ أربعة أجزاءٍ، مثل معاهد التنصيص، وشرح الحماسة، ويتيمة الدهر، وزهر الآداب، وما بلغ الثلاثة والجزءَين وذلك كثير.

فماذا عسى أن يقول المُنصِف في مجهود مَجْمعٍ كاملٍ قام به فردٌ واحد!! فأيّ زمنٍ اتّسع؟! وأيّ نومٍ سلب؟ وأيّ راحةٍ قضى عليها؟ حتى وقف الرجل، على صَرْحِه العلمي الشامخ ليقول للناس بلسان الحال: هاؤم اقرؤوا كتابيه، وقد قرأ الناس فوجدوا الخير الهاطل والنفع الجزيل، لن تعدم حاسداً يَرِم أنفه ويتأجّج صدره، يقول إنَّ الشيخ في كثيرٍ من الكتب لا يتابع التعليق، ولكنه يكتفي بالنصّ الصحيح، وهذا حقٌّ، ولكنه ليس مَظَنّة قَدْح، لأن تقديمَ نصٍّ سليم خَلاَ من

التصحيف والتحـريف عمـلٌ مشكـور، لا يضيـره أن المحقّق لم يُعـدّد النسـخ المخطوطة في الهامش، ليجعل نصف الصفحة ضائعـاً فيما لا طـائل وراءه، حيث يـذكر كلمـةً سقطت في طبعـة (أ) مثلاً، ووجـدتْ في طبعة (ب) ولا أنكـر أن في ذلك ما يفيد القارىء المحقّق، لو اتّسع وقته للترجيح، والموازنـة بين نصٍّ ونصٍّ، ولكنّ امتناعه لا يخلُّ شيئاً في تقديم نصٍّ سليم يجمع الحقائق التي شاء أن يقـولها صاحب الكتاب.

وليس التحقيق حجراً محجوراً على أحد، فالذي يريد أن يُعيد تحقيق كتـابٍ قـدّمه الأستـاذ، وعثر على جـديد في المخـطوطـات، ليس عليـه حـرج أن يضيف الجديد ليخطو خطوة تاليةً، لا تنقصُ من فضلِ الخطوة شيئـاً، وإذا كان الشيـخ قد اكتفى بتقديم النص سليماً في بعض ما نشر، فإن أكثر مـا نشره قـد اتّبع فيـه سبيل الذين يريدون الاستقصاء الشامل، ولو اقتصر ما نشرهُ على مـا قام فيـه بالاستقصـاء المنشود، لكان به في طليعة المحقّقين.

فلنفـرض أن الأستاذ قـد نشر ثمـانين كتابـاً، اكتفى في أربعين منهـا بـالنص سليماً صحيحاً دون تشويه، وأتمَّ أربعين أخرى تحقيقاً وإكمالاً، أليس له لـدى هذا الحاسدِ الشانىء أن يجد ما يُسكته في هذا الجهد الحفيل، ولعلّ المثـال مما يقنـع ويسكت، في مجال الردّ على مَن يرجف بالبـاطل، وهـأنذا أختـار كتابين شهيـرين لأُوضّـح ما صنـع الأستاذ في تحقيقهمـا، ولهما نـظائر شتّى وتنـدرج في بـابهمـا، لتهدي إلى الإنصاف السديد.

أما الكتاب الأول فكتاب «العمدة» لابن رشيق، وقد تعدّدت طبعاته، وحازت من الذيوع ما لا أمل وراءه، بحيث لم ينهض ناشر آخر ليقتنص جهد الرجل مدّعياً أنـه أضاف الجـديد، وهـو في الحقيقة لم يـزد على أن أثقل الهـوامش بكلمات لا تضرّ إن فقدت ولا تفيد إن سُطِّرت ليقول للناس: هذا هو التحقيق!.

لقد وجد الأستاذ للعمدة ثلاث طبعات سوابق، إحداهما تونسية، والأخريـان مصريّتان، وثلاثتها مليئة بالتحريف، والنقض والتصحيف، فاضـطر إلى البحث في دار الكتب المصرية بالقاهـرة فوجـد نسختين مخطوطتين كـاملتين لكاتبين مختلفين

ذكر اسميهما وتاريخ النّسخ، وخصائص كلّ نسخة في مقدمة العمدة، فجمع هذه الخمس، وقام بالمراجعة الدقيقة حتى سلم له نصٌّ جيّد، وقد قال بصدد ذلك:

«لم يكن لي بدٌّ من مراجعة هذه المطبوعة (التي يقوم بنشرها) على هذه النسخ الثلاث، وعلى النسختين المطبوعتين بمصر، ومراجعة النصف الأول على مطبوعة تونس (إذ لم تَحْو غير النصف فقط) وكم وجدت في هذه النسخ جميعها من أغاليط كانت تضطرني في أكثر الأحايين إلى مراجعة الأمّهات، والأصول التي نقل عنها المؤلّف وإلى مراجعة دواوين الشعراء الكثيرة بنوع خاص.

ولو أردت أن أُحدّثك عن المراجع التي استخلصتُ لك الصواب من بينها لهالكَ الأمر، وخرج الحال في نظرك عن حدِّ المستساغ المقبول، ولكنها على كل حال الحقيقة التي لا غلوّ فيها ولا إغراق، وستقف بنفسك حين تقرأ في الكتاب بعدَ هذا آثار ما كابدتُ من العناء والمشقّة. وكم كنت أحبّ أن أذكر لك، عند كل تصويبة أصلها في خطأ أصول الكتاب، وكيف أُصلِحَت، ومصدر إصلاحها، ولكني اكتفيت بالتنبيه على بعض ذلك وتركت بعضه لعلمي أن ذلك لا يُعنَى به غير نفر قليل من القرّاء وهؤلاء يكتفون باللمعة ويجتزئون بالخبر.

وكان لا بدّ أن أجد زيادةً في بعض النسخ عمّا في بعضها الآخر، أو أعثر على سقطة في كلام نقله المؤلّف عن كتاب آخر، بعد مراجعة هذا النقل، فاهتممتُ لذلك، ووضعتُ الزائد بين قوسين على هذه الصورة [ ] ثم أُنبّه على مواطن الزيادة، وقد أترك مكتفياً بعلم القارىء ذلك من سياقة الكلام»[1].

فليت شعري ماذا بعد هذا؟ وقد كنت أُوثر أن أستشهد بفيضٍ من تحقيقات الرجل في صفحات ٣٢، ٤١، ١٠٥، ١٧٦، ٢١٧، ٢٤٠ من الجزء الأول وفي صفحات ٢٧٣، ٢٧٠، ٢٦١، ١٨٣، ١٢٣ من الجزء الثاني لأُشير إلى بعض جهده ولكن هذا فوق المستطاع.

---

(١) مقدمة العمدة، ط ٤، ص ٨.

أمّا كتابُ وفيات الأعيان لابن خلّكان فأشهر من أن يشار إليه وقد أخرجه الأستاذ إخراجاً يتّضح فضله بمقارنة ما نشرته بيروت بعد إخراجه دون الإشارة إليه، حيث طبع الكتابُ من قبل، ستّ طبعات أحضرها الشيخ محيي الدين وقرأها مُقارناً موازناً، ووصف كل طبعةٍ على حِدَة في مقدمة كتابه وصفاً يدلّ على تتبّعٍ واستقصاءٍ، وذكر ملاحظاته الدقيقة على كل طبعة.

فالطبعة الباريسية ذاتُ سقط كبير نبّه عليه المحقّق في هوامش كتابه، وطبعةُ بولاق هي أقوم الطبعات وأكملها تصحيحاً وأدقّها تحقيقاً وأوفاها عبارةً وقد قام على نشرها الشيخ محمد قطة العدوي (وكم له من جهود رحمه الله).

والطبعة الثالثة وُضِعَت على هامش كتاب (الشقائق النعمانية) وهي تقليد لما سبقها دون تجديد، والطبعة الرابعة خرجت من المطبعة الميمنية، على غرار النسخة البولاقية الأخيرة، أما الطبعة الخامسة، فخرجت عن مطبعة الوطن بتصحيح الشيخ محمد النجار، ولم تزِدْ عن طبعة الشيخ العدوي، والطبعة السادسة لم تكْمُل لأن محقّقها الكبير الأستاذ أحمد يوسف نجاتي قد استطرد في الهوامش إلى أمور كثيرة غير ذات صلةٍ ماسّةٍ بالأصل، ولكنها أشبه بالمعارف العامّة، وكذلك فعل فيما نشره من أجزاء نفح الطيب! لقد قرأ الأستاذ هذه الطبعات جميعها، واعتمد عليها، وقال بصدد ذلك:

«ولم يكنْ لي بدٌّ من مراجعة هذه النسخ كلها، بعضها على بعض، وترقيم الكتاب وتحقيق النصّ بالرجوع إلى ما أمكن الرجوع إليه من الأصول التي أخذ عنها المؤلّف، وضبط ما يحتاج إلى الضبط من أعلام الأناسي والأماكن والألفاظ الغريبة، ثم إنْ ضَبَطَ المؤلّفُ لفظاً بحثتُ عنه، فإن وجدتُ مَن يخالفه في ضبط هذا اللفظ بيّنته في أسفل الصفحات، وشرحت ما ظننت أن القارىء المتوسّط يحتاجُ إلى شرحه، وبيّنت اختلاف النسخ، وضبطتُ في أسفل الصفحات بالحروف بعضَ ما لم يضبطه المؤلّف، عدا ضبطي له بالشكل في أثناء الكتاب، واعتزمت أن أضع له أنواعاً جَمّة من الفهارس لا أقول عنها أكثر من أنها ستهوّن على كل باحث سبيل الانتفاع بهذا الكتاب» (وقد فعل).

أقول مرّةً ثانيةً، ليت شعري ماذا بعد هذا؟!

على أن الذي يَحار لـه العقل أن تعهـد في إنسان فـاضل، رجـاحة العقـل، وبُعْد النظر، وسـلامة الحكم، ثم تجـده يستمع إلى أنـانيّته المُغـرِضة حين تـدفعه الغيرة من نشاط الأستاذ محيـي الدين إلى انتقاصِ أعماله، ومحاولة الزراية بها.

فقـد أخـذ بعض الـذين يعملون في تحقيق التـراث يشيـع في مجـالسـه أن الأستاذ محيـي الدين عبد الحميد يستعين بطلاب الدراسـات العليا من تـلاميذه في نشـر الكتب العلمية، إذ لا يجـدُ مِن وقته، مـا يسمحُ لـه بالمـراجعة الـدائبـة دون انتظار، ويزيدُ فيزعم أنـه يعطيهم من الأجْـر، ما يحـدّدهُ لِكلّ ملزمـة على حدتهـا، وهـذه الفريـةُ العجيبةُ يـدحضها كُـلّ الدّحض أن تتصـل بأصحـاب المطابـع الذين يقومون على نشر كتب الأستاذ ليرووا من عجائب صبره ما لا يكاد يصدّق.

أذكـر أني كنت أجلس ذات صباح مـع صديقي الأستـاذ النشيط علي محمـد إسماعيل مدير مطبعة السعادة بباب الخلق، فـدار الحديث كمـا اتفق عمّن يعرفهم الأستاذ علي إسماعيل من كبار المؤلّفين الذين تعاملوا معه مرّاتٍ كثيـرة، فجاء ذكـر الأستاذ محيـي الدين عبد الحميد، فسارع مدير المطبعة الفاضل بالتـرحّم عليه وقـال: إنه كان يجلسُ أمام البروفات أكثر من عشرِ ساعـات، لا يملّ، إذ كـان له أكثـر من خمسةِ كتب في وقت واحد، فهو يحرصُ على أن يُـراجع كـل ما يجمعـه العامـل، ومن حوله مراجعه الكثيرة التي يدأب على استشارتها.

وإذا اقتضتْ بعض أعمـاله الـرسمية ألاّ يـأتي إلى المطبعـة فـإن الصبيـة من العمّال ينتقلون إليه عدّة مرات في اليوم الواحد، وإذا أراد أن يُعيد طبع كتاب للمرّة الثانية أو ما فوقها، جاء بالنسخة مثقلةً بالإضافات الجديدة ممّا يدلّ على أنه يـدأب على مراجعة القديم مع اشتغاله بالجديد.

وقد أحصيتُ له اثنتي عشرة ملزمةً يقوم بمراجعتها وحده في جلسةٍ تمتدّ عدّة ساعات، لا ينهض منها إلاّ لصلاة أو قضـاء حاجـة، ثم يستأنف العمـل، ولولا مـا أودعه الله في صدره من الحماسة الـدافعة لعَـانى من مداومـة البحث ما يـدفع إلى الكَلَل والانقبـاض، لأن كل عـام يأْتي بـأعبائـه، والـرجـل الـدؤوبُ لا ينقـطع عن

المراجعة، وكنتُ أظنّ أنه يستريح في المنزل ولكنّني عـرفت أنه يقضي أكثـر الليل ساهداً يُهيّـىءُ الجديد للطباعة بعد صبر على التحقيق، وكدٍّ في المراجعة والتنقير.

وفي أُخريات أيامه حين اشتدّ به مرض السكّر كان يصطحبُ إلى المطبعة مَن يقرأُ له، وهو مُنصِتٌ يسمع، ويشير بالتصويب والتعديل، هذا بعض ما قاله الأستاذ علي إسماعيل عفواً دونَ أن يعرف أني أترصّدُ إجابته لأقف على الخبر اليقين، وقد كان مدير المطبعة الفاضل صاحبَ منـزلةٍ كبيـرةٍ لدى الأستـاذ محيـي، إذ أشار إلى جهـده منوِّهـاً به في مقـدمة كتـاب «معاهـد التنصيص» فليت الأستاذ الـذي أرجف بالباطل يعلم أن الزَّبد يذهب جفاءً وأن الحق هو الحق مهما جانبه المغرضون.

وكنت أتمنى أن يفرغ الأستاذ محيـي الدين لكتابـة تراجمَ من معـاصريـه، إذ إنه كان يعـرفُ من أحوال أسـاتذتـه وزملائِـه وأعيانِ عصـره ما يمـلأُ صحائف ذات أجزاءٍ، وما جاء في مجلسه ذِكرٌ لعالِم من العلماء إلاّ أفاض الشيخ في حديثـه مبيّناً نشأته وبلدته ومناصبه العلمية وموادّه الدراسية التي كان يقوم بإلقـائها، ومـا صادفـه في حيـاته من صعـود وهبوط، ومـا تـركـه من بحـوث أو مقـالات، ومـا أذاعـه في الجمعيات والمساجـد من محاضـرات، وكلّ ذلـك تاريـخ حافـلٌ طواه الأستـاذ في صدره.

وأذكـر أن مجلة الكتاب حين صـدورها عن دار المعـارف طلبت منه تـرجمةً وافيةً للأستاذ الأكبر الإمام محمد مصطفى المراغي لتنشر في عددها الأول، فنهض الأستـاذ لساعتـه فكتبها دون احتيـاج إلى مراجعـة، وكانت أوّلَ مـا كتب في تاريـخ الإمـام الراحـل. فليته وجـد من محرّري المجـلاّت مَن يحملونه على متـابعةِ هـذا النمط من التاريخ، ليكون أحد شهود العصر بما سجّل من وقائع، وروى من أنباء.

وفي الأعداد الأخيرة من مجلة مجمـع اللغة العـربية بمصـر صفحات مُشـرِقة بآرائه، محاضرةً ومناقشةً وتعقيباً، وتكريمـاً وتأبينـاً، وكلها مـواد مُثمِرة تُضـاف إلى تراثه الحـافل، كمـا أن سجلاّت لجنـة الفتوى تجمـع من آرائه الثـاقبة، وأحكـامه الصائبة ما يُهيّـىءُ المجال لدراسة جهوده العلمية دراسةً مستوعبة، وما بالقليل عليـه أن ينهض بـاحث جـادٌّ، لـدراسـة حيـاتـه الإنسـانيـة وجهـوده العلميـة فيـروي غلّة المتطلّعين، ويقضي حقّ العلماء من العامِلِين.

يوسف الدجوي
فقيه بحّاثة داعية

- ١ -

قضى يوسف الدجوي خمسين عاماً من عمره الذي شارف الثمانين، وله في كل يوم مجلس علم في الصباح، وندوة دينية في المساء، هذا إلى مقالاته التي ظلّت تملأ الصُّحُف والمجلاّت دون انقطاع، إذ كان أحد الكبار في الأزهر ممّن يستمع إلى آرائهم حين تشتبه الأمور في قضية من قضايا العلم والدين.

كما كان موضع الثقة في الفتوى الدينية، تأتيه الأسئلة من شتّى بلاد الإسلام في تتابعٍ لا ينقطع، فيؤدّي أمانة العلم مُجيباً في تدفّق وإسهاب.

ولم يلتفت إلى نفسه فيجمع مئات المقالات، ومئات الفتاوى في كتب يسهل تداولها بين الناس، ولكنه ترك الكثير من آثاره في أنهار الصُّحُف متفرّقاً غير مجموع، حتى نهض مجمع البحوث الإسلامية فجمع بعض بحوثه في مجلّدين كبيرين، تقرب صفحاتهما من ألف وستمئة صفحة، وقد راجعت ما جُمِعَ، فعرفت أن الكثير من آثاره لم يُجمَع بعد.

ولكن ما قام المجمع بنشره يعطي فكرة صادقة عن مَنحاه العلمي في التفسير والفتوى والبحث الديني.

هذا إلى ما تُعُورِفَ من كتبه المتداولة مثل رسائل السلام، وسبيل السعادة، والردّ على مدّعي التحريف في القرآن، وسنلمّ ببعض مسائلها في هذا النطاق الوجيز.

وُلِدَ رحمه الله في قرية دجوة من أعمال محافظة القليوبية سنة ١٢٨٧ هـ، في بيت علم وفضل ووجاهة، إذ كان والده رئيس قريته، ومنزله محطّ الغادين والرائحين، ومثابة مَن يَفِد على القرية من العلماء والأعيان، وله مكتبة عامِرة بكتب الفقه والأدب والتاريخ، وقد دفع بولده الصغير إلى مَن يُحفظه كتاب الله، فبَدَت دلائل النبوغ على الطفل الناشىء، إذ تمتع بذاكرة حافِظَة تستوعب ما يُراد استيعابه دون أدنى جهد.

وكان يسمع الحوار العلمي في منزل والده فيَعيه على حداثة سِنّه، فاتجهت الرغبة إلى إلحاقه بالأزهر الشريف بعد أن درس في القرية مبادىء الفقه والنحو، والسّيرة النبوية المطهّرة.

وما كاد ينتظم في دروسه حتى برز بين أقرانه، لأن ما درسه في القرية من مبادىء العلوم كان سُلّماً إلى ارتقاء ذِهنه، وقد أُوتِيَ جَلَداً على الدرس، فكان لا ينقطع عن حلقات الدروس بالأزهر.

فهو دائم التّرداد على مجالس الأساتذة، حتى أصبح موضع الثقة بين زملائه، يفزعون إليه حين يحتاجون إلى استعادة ما قال الأستاذ في درسه، ويذهبون في المساء إلى منزله ليتذاكروا معاً مسائل العلم، وما مرّ زمن حتى أخذ يدرّس لإخوانه كتب الأزهر قبل أن ينال درجة العالمية، فيجتمع حوله الطلاب واثقين بعلمه، مع أنهم يأبون الجلوس لحديثي العهد من حَمَلَة العالمية ظانّين أنهم لم يتمرّسوا بعد بدقائق التدريس، فما بالهم يرحّبون بمجالس الطالب الناشىء قبل أن يُمنَح الدرجة، لم يكن ذلك إلّا لما لمسوه من فضله وتبريزه.

وكان امتحانه النهائي يوماً مشهوداً؛ إذ اجتمع له الأفذاذ من علماء الأزهر مقدّرين مكانته، وفي مقدمتهم شيخ الأزهر العلّامة الشيخ: سليم البشري، فأطالوا

نقاش الطالب ليكشفوا عن معدنه النفيس، ومنحوه أعلى الدّرجات، وسارع بعضهم إلى زيارة منزله مُهَنّئين واثقين بما سيجري على يده من خير للعلم، ورأت المشيخة أن تسند إليه تدريس الكتب العويصة على غير عادتها مع زملائه، فالتفّ حوله الطلاب، وشهدوا بإحاطته الشاملة، وبصره النافذ في الدقائق المشتبهة.

وقد تنوّعت دروسه، فلم تقتصر على فنٍّ واحد، حتى رُئِيَ أن يقتصر على تدريس مادة الأصول حين احتيج إليه في هذا العلم الدقيق، وكان روّاده من النجباء، ولكن الشيخ أراد أن يتّسع بعلمه إلى أرحب مجال، فدعا إلى دروس عامّة في التفسير يلقيها بالرّواق العباسي تشبّهاً بالأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله، فاتّسعت حلقة درسه، وحضر الطلاب بأوراقهم ليسجّلوا ما يفتح الله به على الشيخ من آيات.

وقد جمع ابن أخيه الشيخ عبد الرافع الدجوي نحواً من أربعين كرّاسة، تمتلىء بشروح الأستاذ لآيات الكتاب مما قاله في عام واحد! وقد حاول طبعها بعد وفاته فلم يتيسّر مَن يساعد على ذلك.

على أن جهد الشيخ يوسف لم يقتصر على الطلاب، إذ رأى أن تكون الصحافة بعض ميادينه العلمية، وكانت شبهات الضالّين من الكتّاب تتردّد في بعض المجلّات متستّرة وراء الحرية العقلية، ومتّجهة إلى رمي العلماء بالجمود والرجعية، فكان الدجوي يتعقب هذه الشبهات ليردّ عليها.

ثم رأى أن يؤلّف جمعية أسماها: جمعية النهضة الإسلامية، يكون مجالها مقاومة الإلحاد في شتّى مظاهره، واختار لها ذوي الغيرة الدينية من رجالات مصر، فكانت الجمعية الدينية الثانية في مصر، إذ سبقتها جمعية: مكارم الأخلاق الإسلامية، التي أنشأها الأستاذ: زكي سند، لهذا الغرض بعينه، وقد بذلت الجمعيتان جهداً ذاتياً مُلِحّاً في مقاومة الجمعيات التبشيرية، دون أن تجدا النصر، إلاّ من قلّة أخلصت لله وثابرت على النضال.

وكـان من أشبال جمعيـة النهضة الإسـلامية الأسـاتذة: محمـود أبو العيـون، ومصطفى القاياتي، والزنكلوني، وعبـد الباقي سـرور نعيم، وعبد الله عفيفي، ومـا منهم إلّا له مقام محمود، إذ واصلوا الجهاد العلمي والسياسي.

وحين شبّت ثورة ١٩١٩، كانوا ألسنتها الناطقة في المنابر، وأقلامها المدوّية في الصُّحُف، كما كان الشيخ يوسف أحد المُدافعين عمّن اعتقلوا من الشبـاب في انتفاضات الحرية، وقد وجّه خطاباً إلى ملك إنجلترا: جورج الخامس، حين حكم الإنجليز بالإعدام على الشيخ الأزهري: محمد الشافعي البنّا، مُطالِباً بإنقاذ الطالب المجاهد، وكان لخطاب الدجوي تأثيره فخفّف الحكم.

وواصل الشيخ مَسعاه لدى المسؤولين حتى أفـرج عن الكثير، وتلك مـواقف لم تجد مَن يسجّلها في تاريخ الكفاح السياسي، إذ جُبِلَ نفر من مُحتَـرِفِي الكتابـة على هضم نضـال العلماء، وفيهم مَن يكتب عن ثـورة سنة ١٩١٩ مجلّداً مُتخَمـاً، ثم يتحاشى أن يذكر كفاح الأزهريين، ومنبر الأزهر لا يزال يذكر الناس بما رنّ فوقه من صيحات تزلزل الاستعمار، وبما وقع من مُظاهرات قُوبِلَت بالـرصاص، وجـرى الدم بسببها في أنحاء القاهرة مدراراً، حتى تبدّل الوضع من حال إلى حال.

لقد كان الأستاذ الدجوي لسانـاً فصيحاً من ألسنـة الأزهر في عهـده، وكانت ثقة الكبار من رجاله في علمه وفضله، تكافىء ثقة المستنيرين من غيـر الأزهريين، فمـا يـوجّـه لـلأزهـر سؤال عـويص في أمـر ديني إلّا وكـان الـدجـوي في طليعـة المُجيبين، وقد يُكتَفَى بقوله عن قول سواه.

لقد أرسل باحث أمريكي هو (إيڤان م. دي) خطاباً إلى شيخ الأزهر الأستـاذ الأكبر: سليم البشري، يـذكر فيـه أنه اعتنق الإسـلام، كما اعتنقـه أُلوف من أبنـاء أميركا الجنوبية لأسباب نبيلة دعته إلى ذلـك، ويريـد أن يكون داعيـة لهذا الـدين، ولكن معلومـاته عنـه لا تكفي لتصـوّره في الحـديث عن الإسـلام في وسط ينـاقش الحجّة بالحجّة، ويدحض الدليل بالدليل، ويرجو من مشيخة الأزهـر أن تدلّـه على كتاب ينقع الغلّة، ويشفي الأوام، فعَهِدَت المشيخة إلى الأستاذ: يوسف الدجوي، فقام في أيام معدودة بتأليف كتابه (رسائل السلام) وبدأه بالحديث عن عـالمية هـذا

الدين وكيف جاء ليكون هداية للإنسان في كل زمان ومكان، حاملاً عناصر بقائه الموائمة للفِطرة الإنسانية، واتّسع المجال في الباب الأول لحديثٍ شافٍ عن أوامر الإسلام ونواهيه، وخصّ الجانب الأخلاقي بتفصيلٍ واضحٍ لأنه أساس السلوك الناجح في المجتمع، كما تحدّث عن مزايا التشريع بإسهاب يعتمد على الدليل.

وقد تكون هذه المسائل الآن من الوضوح بحيث لا تتطلّب الإفاضة والإشباع، ولكنها كانت منذ ثمانين عاماً في حاجة لمَن يعرضها في قوّة ووضوح.

أما الباب الثاني فقد تحدّث عن رسول الله ﷺ مُلِمّاً بالظواهر البارزة في حياته، ودلائل نبوّته، وبشائر الكتب القديمة بمَقدَمِه، وصفاته النفسية التي أهّلته لحمل الرسالة العالمية.

وجاء الباب الثالث خاصّاً بالقرآن الكريم، وما تضمنه من قواعد تشريعية، وإصلاحات اجتماعية، وإرشادات نفسية، وكلّ ما كتبه الأستاذ مفيد سديد، ولكني من وجهة نظري الخاصّة أرى أن حديث الأستاذ في هذا الكتاب بالذات وقد وجّه إلى المسلمين وغير المسلمين في أمريكا الجنوبية، عن المعجزات الحسّيّة لنبي الإسلام؛ كتكلّم الجمادات، وتكثير الماء والطعام، وإجابة الدعاء، ليس مما يناسب مقتضى الحال لأننا نتّجه بالحديث إلى أُناس يريدون الأدلة العقلية وحدها، ليهتدوا إلى الإسلام بوحي من التفكير المنطقي الخالص، وحين يشرق عليهم نوره يسهل تصديقهم بالمعجزات الحسّيّة، ومهما يكن من شيء فقد أحسن الأستاذ فيما كتب وأفاد.

وقارىء مقالات الدجوي يرى فيها اختلافاً واضحاً، من حيث الدقّة والتعمّق في بعضها، والاستطراد والسّرعة في بعضها الآخر، وذلك لاختلاف المقام الداعي للقول، فقد يدعىٰ العالم الكبير إلى إلقاء محاضرة في جمعية تضمّ الفئة المثقفة من المستمعين، فيختار الموضوع الدقيق، ويلتزم المنطق الجادّ الأصيل.

وقد يُلقي درساً للعامّة في مسجد فيتحدّث بما يناسب الحاضرين، ومُريدوه دائماً يتبعون أحاديثه فيسجّلونها بأقلامهم في أوراق يعدّونها من قبل، ثم ينشرونها

في الصُّحُف، كما قالها دون رجوع إليه، والرجل لا يبغي غير النفع بما يقول، فهو لا يقصد المُباهاة بالغوص والتدقيق، بل يقدّم لكل قارىء أو سامع ما يسمح به الموقف.

وفي محاضراته الثقافية إشباع وإمتاع، كما تسطع بها روح الهداية والإيمان، وسأتناول بعضها بإيجاز يبرز منحاها الأصيل.

حين راجت في مصر الأسطورة الداروينية وتلقفها دُعاة الإلحاد دليلاً على بُطلان الأديان، دعت جمعية الشبّان المسلمين جمهور المثقفين إلى سماع محاضرة يلقيها الأستاذ: يوسف الدجوي، عن علم الطبيعة وصِلته بالإلحاد، فابتدأ المُحاضر الكبير قول العلاّمة الإنجليزي (سبنسر): ليس الغرض من تعلّم الطبيعة معرفة الظواهر، ولكن الغرض هو الوصول إلى الأسرار الباهرة، التي تُفسّر بها هذه الظواهر، مع صعوبة هذا الوصول واستحالته في كثيرٍ من المسائل.

والإلحاد لا يجتمع مع التعمّق في الدراسات الكونية، لأن نسقها المُحكَم الدقيق يدلّ على وجود إلـه مُدبّر يدير الكون.

وتابع الشيخ يقول مستشهداً بأقوال العلماء: بأن ما حصل من الاكتشافات العلمية يدلّ على أن الكثير منها لا يزال طيّ الخفاء، لأن العلماء يكشفون في اليوم ما كان مجهولاً بالأمس، ولو سلّمنا جدلاً أنهم عرفوا كلّ النواميس الطبيعية، فإن ما عرفوه ينحصر في مشاهد الأرض وحدها، فلهم أن يقولوا إنّا عرفنا عناصرها وتركيبها، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا إنهم عرفوا ما اشتملت عليه العوالم الفسيحة من أسرار، فليست أرضنا إلاّ ذرّة صغيرة بإزائها، ويكفي أن تعلم أن الأرض جزء من ألف ألف وثلثمئة جزء من الشمس، وليست الشمس إلاّ شيئاً صغيراً بجانب غيرها.

ونحن لا نجد الدليل على المجهول، وعدم الدليل لا يدلّ على عدم المدلول، أما كنّا نجهل الميكروبات والكهرباء آلاف السنين، ثم كشف العلم عنهما؟ أيكون جهل الأقدمين بهما دليلاً على عدم الوجود؟ وإذا كان العلم ينقض

في غده ما أثبته في أمسه فكيف يكون حجّة قاهرة على ما جاء به القرآن من أسرار؟ وكيف ينجح مَن يعلم القليل فينكر وجود خالق السمٰوات والأرض؟ وإذا كانت الافتراضات غالبة في تعليل العلماء فكيف يكون الغرض الاحتمالي يقيناً لا جدل فيه؟

وبعد إفاضة مُشبَعة تملأ عدّة صفحات[1] ينقل المُحاضِر قول العلّامة (كاميل فلامريون): إن من الضلال أن نصدق كلّ ما يقال، ويساويه في البُطلان ألا نعتقد شيئاً أصلاً، ويمضي في تفسير هذا القول ليؤكد قصور المُلحِدين وأخذهم بالقشور دون اللباب.

وواضح أن الشيخ قد افترض أن بعض سامِعِيه لا يعترف بالأدلة النقلية من القرآن الكريم، والحديث الشريف، فرأى أن يترك الأدلة النقلية ليأتي بالبراهين العقلية مؤيّدة بأقوال الكبار من أساتذة أوروبا، ومقتضى الحال يُوجِب ذلك، لأن المفتونين بالغرب، يؤيّدون إلحادهم بقول مَن شايعوهم في أوروبا، اعتقاداً منهم أن هؤلاء هم وحدهم في الميدان.

فإذا أثبت الأستاذ الدجوي أن أكثر علماء الطبيعة في أوروبا مؤمنون، وأن وقوفهم على بعض الأسرار الكونية في اختلاف الليل والنهار، ومشاهد السماوات والأرض قد دفعهم إلى الإيمان بوجود الخالق، إذا أثبت الدجوي ذلك فقد أتى الشيء من بابه الصحيح، وهذا ما أشار إليه العلّامة الأستاذ: محمد فريد وجدي في رثائه للعلّامة الدجوي بمجلة الأزهر حين قال:

«ومن مميزات الفقيه ـ رضي الله عنه ـ أنه يأنس إلى البحوث النفسية الحديثة في أوروبا، ويراها خير أداة لكسر شوكة الماديين، فاعتمد في بحوثه على ما حقّقوه منها، وكان لا يخشى في مُجاهرته بذلك لومة لائم»[2].

---

(١) المنتقى من محاضرات جمعية الشبّان المسلمين، جـ ١، ما بين ص ٣٥، ص ٥١، ط المكتبة السلفية.

(٢) مقدمة الجزء الأول من كتاب (مقالات وفتاوى).

وفي محاضرة تالية أُلقِيَت بجمعية الشبّان المسلمين حول إثبات الروح، استجابة لاقتراح بعض المتشكّكين، سلك الشيخ مسلكه السابق في الاستعانة بالأدلة المنطقية، وقد ركّزها في نقاط مرقّمة، وقسمها بادىء ذي بدء إلى أدلّة عقلية، وأدلّة حسّيّة.

فمن الأدلة الأولى أن المشاعر الإنسانية والعواطف الشريفة من ودٍّ وإخلاص وإيثار، لا يصحّ في منطق العقل أن تكون من أوصاف المادة الصمّاء، ولكنها أوصاف لشيء آخر تتّضح به الروح، كما أن الجسم في تغيّر دائم، تتبدّل خلاياه وتتجدّد، فكان من الحتم حينئذٍ أن تضيع المعارف بتبدّد الجسم، ولكنها تبقى لأن الروح بمنجاة من التبديل.

وإذا كان لكل عضو في البدن وظيفة خاصّة به، فإننا نلحظ أن الغاضب والحزين لا يشتهيان طعاماً أو شراباً مع وجود المعدة وجهازها الهضمي، فلو كان الغاضب والمُدرِك شيئاً واحداً ما وجد هذا العُزُوف، فعرف أن الروح ذات كيان خاص، وإذا كان عمل المادة آلياً كالهضم والتنفّس، فإن الأعمال الفكرية ذات الإرادة والتدبير والنظام لا تكون من وظائف المادة بحال.

هذا بعض ما أفاض فيه المُحاضِر من الأدلة العقلية، أما الأدلة الحسّيّة فقد ذكر منها: مشاهد التنويم المغنطيسي نقلاً عن المترجمات الأوروبية، وقد كان ـ رحمه الله ـ مشتركاً في مجلة الحياة التي كان يصدرها الأستاذ فريد وجدي، وهي مما وُجِّهَت لمحاربة المذهب المادّي بأسلحة العلم، فعرض وقائع مشهودة لعلماء ذوي سُمعة طيبة في دوائرهم العلمية، وكلها تؤكد انفصال الروح عن الجسم في فترة معينة، ثم عودتها إلى الوضع الأول، وقد أصبحت هذه الحوادث من الاشتهار بحيث لا نجد غناء في سردها.

وقد رأى المُحاضِر بعد أن أشبع الموضوع بأدلته الحاسمة أن ينقل مما رواه البخاري ومسلم والترمذي والحاكم والبيهقي من الأحاديث، ما يؤكد بقاء الروح، وقد كان لهذه المحاضرة صدىً بعيد إذ تناولتها الجرائد اليومية بالتعليق إثباتاً ومعارضةً، ووصل صداها إلى بعض المقيمين في أمريكا، فكتبوا في مجلة الفتح

ما يؤكد الحقائق التي رواها الشيخ الدجوي، وفي هؤلاء مَن كان موضع التنويم، فشاهد عن ملاحظة وعيان.

كما انتشر صدى الإجابات العلمية للأستاذ لدى المثقفين من رجال التربية وعلماء النفس والاجتماع، فأخذ طلاب البعثات الأوروبية يرجعون إليه حين يجدون بعض الشبهات فيما يدرؤون بأوروبا من مسائل العلم الحديث.

وأذكر أن الأستاذ الدكتور إبراهيم سلامة عميد كلية دار العلوم الأسبق، كان ذا اتصال علمي بالشيخ الدجوي، إذ راسله في مسائل كثيرة، نذكر منها ما يدور حول حديث «كل مولود يُولَد على الفطرة» حيث تساءل الدكتور سلامة عن المراد بالفطرة؟ وهل يصل الإنسان إلى الإسلام وإن نشأ بعيداً عن محيطه؟ فردّ الأستاذ ردّاً مبسّطاً ملأه بالوقائع المشاهدة لدى الطفل، فهو يدرك بالفطرة أن الجزء أقلّ من الكل بدليل أنه يفضّل التفاحة كاملة عن الاكتفاء بنصفها، ويعترف بعجزه أمام ما لا يستطيع أن يفعله لقصوره الذاتي، ويفرّق بين الكذب والصدق، إذ يتحاشى بفطرته أن يظهر أمام والده في مظهر الكاذب، ويعرف القبيح من الحَسن قبل أن يلج حُجُرات الدراسة ليتعلم، وهو بذلك كله لا بدّ أن يعتقد أن لكل فعل فاعلاً، وأن الإنسان لا يستطيع أن يُوجِد نفسه، فلا بد من خالق!.

وبهذا الإحساس صار الإنسان قابلاً لأن يكون أرفع المخلوقات، فإذا تلقّى تعاليم الإسلام مع سلامة فطرته وجدها تسير مع اتجاهه في تيار واحد، فالفطرة في الحديث النبوي، وفي قول الله عزّ وجلّ: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ﴾ [الروم/ ٣٠] معناها قبول الإنسان للحق، واستعداده للدين الصحيح إذا تُرِكَ لطبيعته النقية، لأن الإسلام يُوائم ميوله الأصيلة كل المواءمة، يقول الزمخشري في تفسير قول الله تعالى: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ أي الزموا فطرة الله القابلة للتوحيد ودين الإسلام.

ويقول القسطلاني في شرح الحديث: «إن الفطرة هي الجبلة السليمة، والطبع المُهيّأ لقبول الدين، فلو ترك الإنسان عليها لاستمر على لزومه»، ثم ختم الأستاذ بحثه قائلاً:

«والخلاصة: أن هناك أموراً عامّةً تكفي في الوصول إليها سلامة الفطرة، واستعدادها الذي خُلِقَت عليه، وأن ما عدا هذه الأصول لا بدّ لها من تعليم وتهذيب».

هذا وقد كان الباحث الكبير الأستاذ: محمد أحمد جاد المولى كثير الاستشهاد بآراء العلّامة الدجوي في مسائل الأخلاق، وبحوث السّيرة النبوية، يذكرها مع ما يختاره من الآراء القيّمة لكبار المفكّرين في القديم والحديث، إذ يجد فيها ما ينفع ويفيد.

- ٢ -

ترك الدجوي تراثاً خصيباً في الفتوى الشرعية، إذ كان موضع الثقة العلمية لدى المسلمين في عالم الإسلام خارج مصر وداخلها، فكانت الأسئلة تَفِد إليه دائماً دون انقطاع، وقد يُجيب عنها بالبريد مُحتَفِلاً في الإجابة، وقد يرد على صفحات المجلّات الدينية، وكان له مُخالِفون في بعض ما يصدر من الأحكام، واختلاف الفقهاء أمر طبيعي متكرّر، لا في المذاهب المختلفة، بل في المذهب الواحد.

ولكن بعض المُخالفين لم يقفوا في جدلهم عند آداب البحث والمناظرة، وفيهم رؤوس مرموقة ذات نباهة واشتهار، بل أحاطوا ردودهم بما يشينها من أساليب التجريح، وما كان أبعد ذوي الصدارة عن هذا الشّطط، لو اتّسعت الصدور، وهدأت النفوس.

أجل كان السيد محمد رشيد رضا رحمه الله أحد هؤلاء المُناوِئين، وتَرِكَته في العلم ليست موضع خلاف، ولكن حدّته القلمية دفعت الشيخ إلى مقابلة الإعصار بإعصار، فإذا تركنا السيد رشيد إلى مَن دونه من شباب العلماء، فإننا نجد العَدْوى قد امتدّت، حتى ألّف بعضهم كتباً خاصّة، بتجريح الشيخ الكبير، وقد نسي هؤلاء أن وجود المفتي المحافظ ضروري كضرورة المفتي المجدّد، ليحدث التوازن الطبيعي في الرأي، إذ يحدّ المحافظ من وثبات الرأي، كما يدفع المجدّد زميله إلى سعة التأمّل، وكلاهما صاحب نفع محقّق، وله أجْره المشكور.

على أن الشيخ يوسف لم يكن من ذوي التعصّب لرأيه، بل كان يقدّم لفتاويه بأنها محض اجتهاد، وأن رأيه ليس الأوحد الذي لا مَحيد عنه، وقد وضع الأستاذ في هذا الباب من الحدود الفقهية ما يجب أن يكون موضع تدبّر لمَن يشارك في بحوث التشريع الإسلامي، فهو يقول عن نفسه: إنه حين يسأل عن حكم فقهي يذكر ما يرجّحه من آراء العلماء في هذا الحكم، وليس معنى ذلك أنه لا خلاف فيه، بل معناه أن المختار هو ما يتّجه إليه، وقلّما نجد مسألة مما يسأل عنه لا خلاف فيها، يقول الأستاذ ما نصه[1]:

«ولهذا اتّضح لكل مُشفِق على دينه مُحتاط في أمره أن يكون أحد رجلين: إما باحثاً منقّباً عن كلّ ما قال العلماء، غير مقتصر على بعض الآراء، ولا مغترّ بما يزيّنه كثير من أرباب الأهواء، ويكون مع ذلك ذا أهلية للمقارنة بين الأقوال، والموازنة بين الأدلة، قد جرّد نفسه من النزعات الخفيّة قدر الاستطاعة، بحيث يكون متّهماً لنفسه، غير مُسارِع للحكم بما يراه أول وهلة، شأن أئمة الهدى، وعلماء السلف.

أما الرجل الثاني: فهو رجل نظر لنفسه بالإنصاف، فرآها قاصِرة عن بلوغ هذا المدى، ورأى الأدلة متشعبة، والأمر واسعاً يحتاج إلى فهم دقيق، وعلم غزير بما يحيط بالأدلة وما يعارضها، وبالعمومات وما يخصّها، وبالمطلقات وما يقيّدها، وبالنصوص وما ينسخها، وبالظواهر وما يقدّم عليها، وبالضعيف وما يرجّح عليه، إلى آخر ذلك البحر الزخّار، فعرف قدره ولم يتعدّ طوره، فاختار ما عليه السواد الأعظم من المسلمين، ولم يشذّ عنهم في قليل أو كثير، عالِماً أن الذئب إنما يأكل الشاة القاصية»[2].

والصنف الثاني الذي تحدّث عنه الأستاذ كان مصدر ضجّة فارغة العاقبة بين القرّاء، إذ تصدّر بعض مَن لم يصلوا إلى مرتبة الإفتاء الحقيقي لمُنازلة الشيخ، معتمدين على ما فهموه من ظاهر آية، أو منطوق حديث، وقد أظهروا من الغطرسة

---

(١) مقالات وفتاوى، جـ ٢، ص ٤١٥: الدجوي.

(٢) المصدر السابق.

والاستعلاء ما رمى بهم إلى تجريح الكبار من أئمة المذاهب، أو التهوين من شأنهم، إذ حكموا بأن كتب المذاهب ليست مرجع الإفتاء، إنما المرجع نصوص القرآن وأحاديث الرسول، ناسين أن أئمة الفقهاء لم يبنوا أحكامهم على غير هذه النصوص، وقد رُزِقوا من الكفاءة ما أعانهم على تسديد القول، وصحة الرأي: فما بال أشباه العامّة يتصدّرون للدعوى العريضة في تهوّر يرثي له المُشفِق النصيح، يقول الشيخ الدجوي في نصيحة هؤلاء[1]:

«ليعلم القارىء الكريم أن المجتهد الذي يأخذ من الكتاب والسُّنّة لا بدّ أن يكون عارفاً بمواقع العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، عارفاً درجة كل حديث، باحثاً عمّا عسى أن يكون فيه من علّة خفيّة لا يعرفها إلّا حذّاق الحفّاظ، عالماً بطرق الترجيح، حتى يقدّم بعضها على بعض عند التعارض، غير خافٍ عليه مواقع الإجماع والاختلاف.

وقد قالوا: إن المحدّث كالصيدلي، والمجتهد كالطبيب؛ ولا شك أن الصيدلي إذا جعل نفسه طبيباً قتل من المرضى أكثر ممّن صادف دواؤه الدّاء فيهم، فكان هؤلاء الحفّاظ، هم المُشار إليهم في حديث البخاري بذكر الأجادب من الأرض التي أمسكت الماء، فانتفع الناس وسقوا وزرعوا، وقد قال ﷺ: «رُبّ مُبَلّغ أوعى من سامع، ورُبّ حامل فقه ليس بفقيه»[2].

وقد أبرأ الأستاذ نفسه حين كرّر مراراً أن المسائل الاجتهادية الفرعية[3]، يكفي فيها الظن، ولا ينبغي التنازع، وكلّ مَن طلب فيها الدليل القطعي، فهو إمّا جاهل لا ينبغي أن يكون في عداد العلماء، وإما سيىء القصد لا يريد إلّا الظهور بأيّ وسيلة . . .

وإن من أكبر بلايانا التي نئنّ منها ولا ندري منتهاها، وجود طائفة بيننا لا تفهم، ولا تقلّد مَن يفهم، ولو كان عندهم أدنى شفقة على المسلمين، أو إخلاص لهم، لعرفوا أن الدين النصيحة، وأنه ليس من الدين، ولا من العقل أن نعرض

(١ ، ٢) مقالات وفتاوى، جـ ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٣) نفس المصدر، جـ ٢ ، ص ٤٩٦ .

العامّة للخوض في الأدلة، والموازنة بين المجتهدين، فذلك ليس من شأنهم، ولا هو في مُتناول قدرتهم، ولا نتيجة له غير ضعف الثقة بأئمتهم، وتشكّكهم في دينهم وعقيدتهم».

نقلت هذه الآراء لنفهم روح الشيخ في فتواه، ولنعرف ضِيقه ممّن يتصدّرون للإفتاء دون مقوّمات، وقد يظن ظانٌّ أن الدجوي يجمد عند آراء السابقين دون أن يعمل فيها رأيه النافذ، ولكن واقع ما أصدره من الأحكام يدلّ على سعة النظر، وثقوب الفكر، وشمول الاطّلاع، ونستشهد بجواز تشريح الميت عند الضرورة، إذ اختلفت الأنظار في حكم التشريح منذ ستّين عاماً، وأصدر المفتي الأكبر الأستاذ الشيخ: محمد بخيت المطيعي ـ رحمه الله ـ فتواه بعدم الجواز، ولكن الشيخ الدجوي أباحه قائلاً:

«إن نصوص الفقهاء في التراث القديم لم تتعرّض له، ولكن العارِف بروح الشريعة وما تتوخاه من المصالح، وترمي إليه من الغايات، يعلم أنها تُوازن بين المصلحة والمفسدة، فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة، ويُوجِبه النظر الصحيح، ومَن نظر إلى ضرورة التشريح في بعض المواقف، كما إذا اتّهم شخص بجناية على الآخر، وقد يبرأ من التّهمة عندما يُظهِر التشريح، أنه غير جانٍ، يجد أنه لا مفرّ منه.

وقد قرّر الفقهاء أن الميت إذا ابتلع مالاً جاز شقّ بطنه لإخراجه، ولو كان مالاً قليلاً، ويقدّره بعضهم بنِصاب السرقة، فإذا قِسنا ذلك المال الضئيل على ما نجنيه من فائدة التشريح، وجدنا وجه الجواز واضحاً، على أن الواجب أن نقتصر فيه على قدر الضرورة فحسب».

هذا لبّ الفتوى، وقد عُورِضَت بفتوى العلاّمة الشيخ محمد بخيت[1] إذ ذكر نصوصاً لابن قدامة والشيرازي والرافعي والنووي، وأسهب في التحليل لينتهي إلى قوله: «ومن هذا يعلم أن التشريح الذي من لوازمه شقّ البطن لا يجوز، نعم إن فتح البطن لأجل العلاج الطبّي يجوز لأنه محافظة على الحياة فلا إهانة فيه»[2].

(۱، ۲) مجلة الأزهر، المجلد السادس، سنة ١٣٥٤، ص ٦٣٢.

وقد اضطر الشيخ الدجوي إلى أن يُعيد الكلام في مقالٍ آخر تأييداً لفتواه، فذكر من الأدلّة القوية ما يؤكّد مَنحاه في جواز التشريح عند الضرورة، وكان مخلصاً للحق حين قال في مطلع حديثه:

«على أننا صرّحنا بأن ذلك (جواز التشريح) مبني على قياسنا مسألة التشريح، على مسألة المال الذي ابتلعه الميت، فإن كان ذلك القياس صحيحاً فللّه الحمد على توفيقه، وإن كان غير صحيح فهو مردود على مرتئيه، ولا شيء علينا بعد أن نبيّن أن هذا هو رأينا الخاصّ، ونرى من الإخلاص للدين والعلم أن نقول: إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد، يصحّ أن تختلف فيها الأنظار».

وللأستاذ فتاوى مُشتهِرة في الوصية، والوقف، والطلاق، والبيع، والقرض، والرِّبا، والميراث، وقد طال النزاع بينه وبين مُخالِفِيه في مسألة التوسّل، وهي إحدى المسائل التي عارضها الشيخ محمد رشيد رضا معارضةً ساخنةً، وانحاز إليه فريق هاجموا الشيخ في ضراوة، وظهرت كتب خاصّة تقدح في الشيخ الدجوي قدحاً منكراً، وكان الأولى أن يلتزم المُناقِشون بآداب الإسلام، وحقوق المناظرة، وإذا كان الشيخ الدجوي قد أخطأ (على سبيل الفرض) فهو مجتهد له أجْره، ولن يُلزِم أحداً بما قال.

هذا وقد حرَّر الشيخ باب التفسير في مجلة الأزهر حيناً من الدهر، وكان الأستاذ الشيخ إبراهيم الجبالي يتولّى تحريره من قبله، ولكلٍّ من الشيخين الجليلين مَنحاه الخاص، فللأستاذ الجبالي رحمه الله بيانه المُشرِق، وسَلاسته الطيِّعة، وإحاطته الوافية. ظهر ذلك جليّاً فيما تداوله من تفسير سور النور، والحُجُرات، والرعد، ولقمان، إذ جاء ما كتب آية من الآيات، وليت أحد العلماء يقوم بجمعه محقّقاً في كتاب خاصّ.

وأظهر فارِق بين تفسير الجبالي، وتفسير الدجوي، أن الأول يعيش في نِطاق النص القرآني الذي يعالج تفسيره، أما الشيخ الدجوي فقد تأثّر بأبي حامد الغزالي ـ رضي الله عنه ـ إذ يقوم باستطرادات وافية، هي في حدّ ذاتها رائعة قوية، ولكنها لا تتّصل بالنص القرآني مباشرةً، ويجوز أن تُقتطع لتكون عِظة دينية شافية، ولعلّ

الرجل الكبير يميل إلى التأثير الوجداني بعد الشرح المنطقي، ليجذب القرّاء إلى صفاء نقي شفّاف.

وقد تناول على صفحات مجلة الأزهر تفسير سور: الأعلى، والعصر، والإخلاص، والشمس، والانشراح، والزلزلة، والعاديات، والقارعة، والتكاثر، والهُمَزَة، وقريش، والماعون، والكافرون، وفي بعضها قد أوجز، وفي بعضها الآخر قد أطال مستطرداً.

فقد احتلّ تفسير سورة الأعلى ما بين ص ١٢٠ إلى ص ١٧٥ من مجموعة آثاره، وقد بدأه بتحديد العناصر الإجمالية للسورة الكريمة فحصرها في أربعة، وشرع في البيان التفصيلي آية آية، وحين تحدّث عن «العلو» المفهوم من قوله (الأعلى) اتّسع المجال إلى إيضاح مذهب السلف ومذهب الخلف، وشرح أدق مسائل علم الكلام في وضوح يناسب قارىء مجلة سيّارة، ثم لجأ إلى الاستطراد معترفاً بذلك، لأنه في مقام تصحيح العقيدة، فذكر الأدلة على وجود الله وتنزيهه، وأنه لا شيء مثله، وجالَ جولة موفّقة ختمها بقوله[1]:

«وقد شطَّ بنا القلم ولكن إلى ما دَعَت إليه الحاجة، وأوجبته الضرورة، واقتضاه جهل كثيرٍ من الناس في هذا العهد، الذي تراكمت ظلماته، وتعاظمت آفاته، وتكاثر مُدّعوه، وقلّ مُنصِفُوه، فإلى الله المُشتَكَى وبه المُستعان».

نذكر هذا القول لنؤكد أن المفسّر الكبير كان يستطرد عن عمد، إذا دَعَت الضرورة إلى الاستطراد، والذين يطلبون منه التركيز في نقطة محددة، ينسون أن الناس مشارب وأذواق، وقارىء التفسير في مجلة دينية يتطلّب هدوءاً واسترواحاً يُنعِشان الوجدان، وهذا ما يدعو الشيخ إلى التكرار في بعض المواقف، فقد ألمّ في تفسير سورة الإخلاص ببعض ما اتّجه إليه في تفسير سورة الأعلى، لأن تطهير العقيدة في رأيه فرض محتوم.

---

(١) مقالات وفتاوى، جـ ٢، ص ١٣٠.

ومن استطراداته في مجال هذه السورة، ما كتبه عن محبة الله، وتعداد نِعَمه الكثيرة، والاستدلال ببدائع الصّنعة على قدرة الصانع، ناقلاً من الأشعار الرائقة، والحِكَم الفائقة ما يهزّ القارىء مُستَشهِداً بمبدعات الكون من: شمس، وقمر، وبحر، وجبل، وكلّ ذلك لا يتّصل بتفسير السورة بسبب قريب، ثم ختم التفسير بما سمّاه «داعي المقام» فنقل عن علماء أوروبا وفلاسفتها ما يثبت عظمة الله وكماله، وأطال في ذلك، وعذره أن بعض الناس حينئذٍ كانوا يؤمنون بمقدرة الأوروبيين واهتدائهم إلى الحق في تؤدة ويقين، فإذا أتوا بما يؤيّد العقيدة في القدرة والوحدانية فالاستئناس بأقوالهم سديد.

وقد دارت معارك فكرية في النصف الأول من هذا القرن، تعرّضت للمأثور من كتاب الله، وصحيح التشريع، فكان للأستاذ يوسف الدجوي مقام كريم في نصر الشريعة الإسلامية، حيث خصّ كتاب «الإسلام وأُصول الحكم» بمقالات رنّانة نشرتها الصُّحُف اليومية، وجمعت عقب ذلك في كتاب خاصّ.

وفي الطبعة الأخيرة من كتاب «رسائل السلام» ملحقان هامّان لم يكونا بالطبعة الأولى، إذ نشرت الصُّحُف خُلاصة لما كتبه العالِم الأديب الإنجليزي (هـ.ج. ويلز) في مؤلَّف تاريخي عن الإسلام ورسوله، وكلّها تخرّصات باطلة لم يُوحِ بها اطّلاع بصير، ولكنها آلمت كثيراً من النفوس بأوروبا وبالشرق، إذ أرسل دكتور مصري إلى الأستاذ الدجوي ترجمة وافية لما قال (ويلز) ودعاه إلى نقضها بالدليل، فكتب الشيخ عدّة مقالات تدحضها، ونشرها بأعداد متوالية من جريدة المقطّم سنة ١٩٢٣. ثم طبعها في الملحق الأول بكتاب «رسائل السلام»[١].

وقارىء مقالات الدجوي يعجب لبحاثة إنجليزي كبير يكتب عن الإسلام متشبّعاً بمصادر سيئة تحرّف الكَلِم عن موضعه، وتذكر عن نبيّ الإسلام من الجهالات ما يختلق اختلاقاً لحاجة في نفس يعقوب، دون رجوعٍ إلى سند صحيح!.

---

(١) رسائل السلام، ص ٢٣٢ وما بعدها.

وصاحب الكتاب يتحدّث عن موجز تاريخ العالم بـأكمله، فإذا كـان ما كتبـه عن الغابرين من أعلام التاريخ في الشرق والغرب يشبه مـا كتبه عن نبيّ الإسـلام، فقد ملأ كتابه الضخم بالأباطيـل، وقد تـردّد ما كتبـه (ويلز) عن نشأة نبيّ الإسـلام والإسـراء وحادث الغـرانيق، وزواج الـرسـول بصفيّـة بنت حُيَيّ في كتب كثيـرة، لكُتّاب حاقدين، ولكن الدجوي وأمثالـه من المحقّقين، قد كشفـوا عن الحق زِيفَ الباطل، وطهّروا تاريخ الرسول من شُبُهات المُفتَرين.

أمـا الملحق الثاني فخـاصٌّ بنقد الأستـاذ ما كتبـه الأستاذ محمـود عزمي عن الشـريعة الإسـلامية؛ إذ كتب في الأهـرام مقالات يـدعو فيهـا إلى تـرك الشـريعـة الإسلامية جانباً، واتّبـاع قوانين الغـرب في مسائـل الطلاق والميـراث، وما يُعـرَف بـالأحوال الشخصيـة، ووجد مَن فسـح له مجـال المحـاضـرة فيمـا ادّعـاه، فكتب وحاضر وكاثر بشيعته التي تصفّق له، فنشر الشيخ الدجوي نقداً عاصفـاً بادّعـاءاته، وبيّن أن الأستاذ محمود عزمي يتحدّث عن الشريعة الإسلامية، دون أن يدري عنها شيئاً.

وذكر موقف الإسـلام من الرِّبـا والخمر والـزنا، وكيف ينتـظم مسائـل الحياة ليرسم لها النهج الصحيح، ثم دعـا إلى إقامـة مُناظـرة فكريـة بين مُناوئي الشـريعة وبينه في مجلس حاشد يؤمّه أرباب الفكر في مصـر، ليُدلي الأستـاذ عزمي بـآرائه، وليستمـع الردّ عليهـا، ثم يُصدِر المستمعـون حكمهم العادل وفق مـا يقتنعون بـه، وطبيعي أن يُحجِم الأستـاذ عزمي عن مثـل هذه المُنـاظرة لأنـه ألِفَ أن يتحدّث في وسط خاصّ يتابع هواه، ويصفّق له، أخطأ أم أصاب.

هذا بعض ما ناضل به الأستاذ الدجوي في سبيل الله، وقد نسيـه أبناء اليـوم فلم يرجعوا إلى صحائف علمه، ومصـادر نضالـه، وما أظن أحـداً خصّه بـالتحليل النـاقد منـذ وفاتـه سنة ١٩٤٦ م وقـد مضى على رحيله أربعـون عـامـاً، وأذكـر أن الـدكتور زكي مبـارك كتب كلمـة قصيـرة في كتـاب (الأخـلاق عنـد الغـزالي) قـال فيها[١]:

(١) الأخلاق عند الغزالي، ص٣١٩، ط دار الكتاب العربي.

«الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي عالِم من هيئة كبار العلماء، وهو ذو نفوذ كبير في الأزهر والمعاهد الدينية، وأكثر العلماء الممتازين اليوم من تلاميذه، ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلّفاته، لأنها مع قلّتها ضعيفة، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله في دروسه الخاصّة، وبين ما يدوّنه في تلك المصنّفات، إذ كان يريد أن يصل بكتبه إلى أفهام الجماهير».

ثم قال: «ويكاد يُعَدّ الشيخ الدجوي خليفة للغزالي في هذا العصر، ففيه تقريباً كلّ خصائصه من القدرة والإخلاص، وقوّة النفوذ، وبُغْض الفلسفة، والحذر من أن يتجاوز العقل ما له من حدود».

والدكتور - في ظنّي - يعني بالمؤلّفات الضعيفة ما نشره الأستاذ لهداية العامّة من مباحث خفيفة تلائم وجهة أنظارهم، وميدان العامّة فسيح يجب ألّا نتركه لغير الفاقهين، وإذا كان الدكتور زكي مبارك يرى أن الدجوي يُعَدّ خليفة للإمام الغزالي في هذا العصر، إذ فيه كلّ خصائصه من القدرة، والإخلاص، وقوّة النفوذ! فما أظن إطراءً صادقاً يبلغ هذا الإطراء، ولعلّي ذكرت أن استطرادات الدجوي ذات نفحة غزالية تذكّرنا بكتاب إحياء علوم الدين، وهو ما يلمسه الدّارس الحصيف.

مصطفى لطفي المنفلوطي
أديب إسلامي مُلتَزِم

- ١ -

تـاريخ الأدب الإسـلامي المعاصـر في حاجـة إلى تـدوين كـاشف، يسجّـل قضاياه، ويتحدّث عن رجاله، إذ إن مدرسة الإمام محمد عبده التي ارتسمت خُطاه في تحليل المسائل الإسلامية، ومعالجة المُعضِلات الدينية لا تزال تتطلب الدراسة البصيرة من ذوي الأقلام الجادّة.

ونحن نعلم أن أعلام هذه المدرسة من أمثال محمد فريد وجدي وعبد العزيز جاويش ومحبّ الدين الخطيب ومحمد مصطفى المراغي ومصطفى صادق الـرافعي قد كتبوا أنضر الصفحات الزاهرة في الدفاع عن مُثُل الإسلام ومبـادئه، كمـا أورثوا بيانهم الحارّ طائفة من الخالفين هم اليوم أعلام الفكر الإسلامي.

ونريد الآن أن نتحـدّث عن تلميذ جهيـر من تلاميـذ الإمام محمـد عبده تبـوّأ زعامة البيان العربي في عصره، وكان صوته الأدبي أرفع الأصوات الرنّانـة في سماء النثر الأدبي البليغ، وهو السيد مصـطفى لطفي المنفلوطي، الـذي كتبت عنه بعض الدراسات الجادّة، فتحدّثت عن تأثيره النفّاذ في قارِئِي عصره وبيّنت رسالتـه الأدبية حين فاجأ القـرّاء بأسلوب رقيق نـابض، يتوهّـج بالعـاطفة، ويصـدح بالمـوسيقى، ويتلوه القارىء منتشياً بروعته.

ولكن الجانب الإسلامي من نِتاج المنفلوطي لم يُسَلّط عليه الضوء المُشرِق، وهو يُعَدّ من أبرز الجوانب في نِتاجه، بل إن المنفلوطي ما كتب روائعه الخالـدة إلّا وروح الإسلام تخفق في حناياه وتأتلق في عينيـه، ولأمر مـا نابـذه بعض الناقـدين العَـداء، فحاولـوا الغضّ من مكانـه الأدبي، واعتبروا أدبـه أدب عصر لا أدب لغـة عريقة ستبقى ما بقيت السماوات والأرض، وهي دعوى كرّرت عليهـا بالنقض على صفحات الرسالة من قبل وكان مما قلت[1]:

«لقـد ظنّ المُغـرضـون أن أدب المنفلوطي لا يملك أسبـاب بقـائـه لتعـلات يفتعلونها، ففيهم مَن يقول عنه إنه أديب يعنى بالديباجة البيانية وسـلاسة التـركيب، دون أن يقـدّم الفكرة الحيّـة، والمعنى الدقيق، فـإذا قلت لهؤلاء: إنه لا يوجد أدب يأخذ بالألباب دون أن يحمل الفكرة الحيّة، والمعنى الهادف، مـع ما تعتـرفون بـه من جمال الثوب، ونضارة التعبير؛ وجدتهم يتركـون هذا النقد إلى غيره، فيقولون: إنه وقف ببيانه عند تصوير البؤس والحرمان وما يدفعان إليه من كآبة موحشة، وكـان عليه أن يرسم من الحيـاة جانبهـا الباسم الـوضيء، كأنمـا كان عليـه في رأيهم أن يتنكّر لعواطفه الإنسانية، فيغرّد ويبتسم في مجتمع بائس مريض».

وقد يتحذلق ناقد ثـالث فيزعم أن أدب المنفلوطي إذا تُـرجِمَ إلى لغة أخـرى فَقَدَ رَونقه وضَؤُلَ معناه!.

والمترجم الأصيل هو الذي ينقل المعنى في جوّه المعبّـر، ولفظه المـوحي، وإذ ذاك لا يفقـد أسلوب المنفلوطي شيئاً ذا بـال، وكيف نحاسبـه على إساءة غيـره حين يعجز المترجم عن التعـريب المُبين! إن أكبر الأدلـة على قوة بيـان الرجـل هو خلود أدبه، فقد طبعت كتبه المتعدّدة بعد وفاته مرّات تتجاوز العشرين في أكثـرها! وما زال الشباب يجدون في (النظرات)، و(ماجدولين)، و(الفضيلة)، و(الشاعر) مـا يغذّي عواطفهم الجائعة، ويروي مشاعرهم الصادية، بل مـا تقهقرت كتب القـراءة في المدارس الثانـوية إلّا حين تـركت آثار المنفلوطي والـزيّات والـرافعي والمازني

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ١٠٠٧، ٢٠/١٠/١٩٥٣.

والحكيم والعقّاد والبشري، وأخذت تنقل يوميات الصحفيين، ومقالات المفروضين على التأليف لأمور لا تمتّ إلى الفن الأصيل بأدنى سبب، ويوم يعود لكتاب القراءة بالمدارس مجده السّالف تزدهر الفصحى على أسلات الناشئين.

وُلِدَ الكاتب بمنفلوط سنة ١٨٧٦ م في بيت علم وقضاء، لأن والده كان قاضياً شهيراً، وتوارثت أُسرته القضاء مدى مئتي عام قبل أن يستهلّ المولود الجديد.

وكان الوالد ذا ثَراء يحمي من الفقر، وقد ترك أرضاً واسعة تقسّمت بين وَرَثَته فنال الكاتب منها ميراثاً طيّباً، ومعنى ذلك أن نشأته كانت مكفولة الرزق هانئة العيش، فلا سبيل لتصديق مَن قال إنه عالج مشكلات الفقر لِما جُوبِهَ به في الصغر.

ولئن صدق هذا القول على أدباء من معاصريه، فإنه لم يصدق على المنفلوطي، وحسبك أن تعرف أنه كان متزوجاً وهو طالب! ومعنى ذلك أن أباه قد شمله بأكثر مما تتّسع الضرورة حيث بسط له باب الهناءة الزوجية في عيشٍ مستقر.

فروح المُصلِح هي التي اتجهت بالكاتب إلى المشاركة الوجدانية حين تحدّث عن ويلات المرض والجهل والفقر والاستعمار، وهي ويلات بعثت لهيبها في عصره، وأحسّها الكاتب الرقيق إحساس العاطف الراحم، فأخذ يمسح دموع الباكين بقوله وفعله، أما القول فنحن نعرف ما قال، أو بعض ما قال، مما جمع في آثاره، وأما الفعل فالواقع المشهود ينطق بأنه باع ميراثه من أبيه توسّعاً في الأريحية، ومُشاركةً لمَن طلب منه المواساة.

وكم تحدّث مُعاصِرُو المنفلوطي عن بلايا الفقر، ولكن سطوة صاحب النظرات كانت أنفذ تأثيراً، لأن قوّة إحساسه بالمآسي التي تحوطه قد أشعلت زفرات قلبه، فكتب من نبض فؤاده، ومن مِداد شعوره، ما جعل حديثه سريع النّفاذ إلى القلوب.

وما كاد الابن الناشىء يحفظ القرآن، ويستطيع القراءة في الكتب، حتى اتجه إلى استظهار المأثور من الشعر والنثر عن طبيعة مُلهِمَة خُلِقَت للتعبير الهاتف، والتغريد على أفنان الحياة بما يشجي ويطرب، وكان من أصدقاء والده أديب راوية يَفِد إلى مجلسه الليلي بعد صلاة العشاء للسَّمَر والمُطارحة، فاتجه مصطفى إليه مستعيناً بتوجيهه، وعلى يده تعرّف الفتى الناشىء بأصول البيان في ذخائره القديمة، فقرأ المطبوع من دواوين القدماء، واقتنى الأغاني، والعقد، وزهر الآداب، ثم تهيّأ للالتحاق بالأزهر، وقد نَمَا ميله الفنّي إلى الأدب.

والذين كتبوا سِيرَة الأديب الكبير يُطيلون في حديث المُعاناة الشاقّة التي لقيها بالأزهر من جرّاء اهتمامه بالأدب والشعر، وهو حديث مجوّف ممتد كما يتوهّم التخيّل، فلم يكن بالأزهر لعهد المنفلوطي ومَن تلاه مَن يقاسم الأدباء من ناشئته العداء، فلكل طالب أن يقرأ ما يريد من كتب الأدب إذا أنِسَ ميلاً دافعاً إلى صُحُفه، ولكن درس الأدب لم يكن بين مواد الامتحان فحسب.

وقد اتّجه السيد المرصفي صاحب رغبة الآمل إلى تدريس الكامل مدىً متصلاً فما عُورِضَ إلّا لسبب خارجي عن محيط الدرس، إذ أسرف بعض الطلاب في حديث مشتطّ عن مكان مقدّس، فجاءت المعارضة من هذا الوادي.

لقد كان البشري ومصطفى عبد الرازق وطه حسين والزيّات والبرقوقي وأحمد شاكر يقرؤون كتب الأدب في عهد الطلب، ولم يسبقهم المنفلوطي في طلب العلم بغير بضعة أعوام، فما وجدوا جميعاً مَن قال لهم إن الأدب بنثره وشعره يحرّم تداوله! بل كان الإمام محمد عبده يشرح لنابغة الطلاب كتابي عبد القاهر الجرجاني الذائعين وهما: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، فيما يتضمنان من روائع الشعر والنثر ما يقدّم الزاد الأدبي الحيّ للطلاب، فما استنكر أحد تدريس الكتابين! وظلّا إلى الآن من أنفس ما يُدَرّس بكليات اللغة العربية بالأزهر.

فالقول بأن الأزهر حارب قراءة الشعر والأدب في مطلع هذا القرن ذو مبالغة، لأن طالبه كان حرّاً في اختيار المادة، وحرّاً في اختيار الأستاذ، فليت شعري أيكون مقيّداً حين يترك ساحة الدراسة ويقرأ في بيته كتاباً كالأغاني أو العقد

الفريد أو زهر الآداب! وإذا كان ذلك كذلك فكيف نبغ طلاب الأزهر لهذا العهد وأصبحوا من زعماء الأدب، وفيهم علي يوسف، وسعد زغلول، ومحمد المويلحي، وعبد الله فكري، وحسين المرصفي، وسيد بن علي المرصفي، ومصطفى لطفي المنفلوطي وغيرهم ممّن أشرنا إليهم في هذا المقال.

لقد ذهب المنفلوطي للقاهرة، والتحق بالأزهر، ولكنه لم يصبر على قراءة كتبه العلمية في الأصول والفقه والمنطق والتوحيد، فآثر أن يتفرّغ للأدب، ورأى الجرائد تفسح أبوابها لشعره ونثره فاتجه إلى ما تيسّر له النبوغ في ميدانه، وحسناً فعل، إذ صار نابغة الكتاب ورأس الأدباء.

كانت شخصية الإمام محمد عبده موضع الجذب السريع لكل أزهري طامح، فالرجل بأعماله الإصلاحية، ومواقفه السياسية، ومقالاته الفكرية، صار إمام العصر، يسأل فيُجيب، ويُستعان فيُعين، والمنفلوطي يرصد كوكبه عن بُعد، راجياً أن يتسامى إلى أفقه في مقبل عمره.

وإذا كان الإمام مفسّر كتاب الله، ومفتي الديار المصرية، ودارس العلوم الشرعية، فهو من هذه الناحية فوق متناول الأديب الناشىء، ولكنه من الناحية الأخرى شارح نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، ومحقّق المقامات للبديع الهمذاني، وأستاذ البيان في كتابي عبد القاهر، وصاحب المقالات الفكرية التي تشرق بها أُمّهات الصُّحُف، فليكن قدوة المنفلوطي في هذا المجال، وليُكثِر الإصغاء إلى دروسه في البيان، وآيات الكتاب ليتمتع بنمط من القول لا يوجد عند سواه.

ولدى الناشىء قريحته المُواتية، وموهبته الهادية، وقد خفق قلبه بالحب فجرى لسانه بالشعر، ورأى البارودي زعيم النهضة الشعرية يتسنّم ذروة مجده، بما أبدع من قصائد، فليَجْرِ على نمطه، وليبتدىء قصائده بالغزل فالفخر فالحكمة فالقول في السياسة، وليسر على سنَن تلاميذه من أمثال شوقي وحافظ ومحرّم والكاشف ونسيم.

وكانت مجلة الصاعقة تُفسِح رِحابها لقصائد السياسة، وللإمام اتجاهه في منابذة الخديوي بعد أن تعذّرت مُلاينته، فلينشر قصائده السياسية متبرّماً بالاحتلال، وهذا ما لا اعتراض عليه، إذ كانت سياسة اللورد كرومر أن يطلق الأقلام، ويرسل الألسنة؛ لأن القول لا يُسقِط بناء امتدّت جذوره ورسخت قواعده، وما اشتهر حافظ ومحرّم والقاياتي والكاشف والنديم إلاّ بما قالوا في هجاء الاحتلال، دون أن يقف في وجوههم أحد قبل أن يصدر قانون المطبوعات فيما بعد، ولكن المنفلوطي لم يقف في أهاجيه عند الاحتلال فقد هجا الخديوي عباس بقصيدته الشهيرة:

قدوم ولكن لا أقول سعيد ... وعهد وإن طال المدى سيبيد
تذكّرنا رؤياك أيام أنزلت ... علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا ... مصوب سهم بالبلاء سديد

فأحدث ضجّة انتهت بمحاكمته وسجنه، ولكنها جعلت اسمه على كل لسان، ولا ننكر أن فريقاً من المُخلصين قد هبّوا للدفاع عن المنفلوطي، فهوّنوا من جريرته، وعدّوها نفثة تبدّدت في الهواء دون أن تترك صدىً، ولكن القضاء قد حكم، والشاعر قد سُجِنَ أكثر من عام، وقد خرج ليتوب عن الهجو الشعري، بل ليعود إليه على سبيل التلميح الهادىء، لا التصريح المجلجل، فهو يمدح الأستاذ الإمام مشيداً بفضائله. ويلمح إلى الخديوي بقوله مخاطباً محمد عبده:

وما صاحب العرش المدل بتاجه ... بأعرق مجداً منك في موقف الفخر
وكم بين عرش من لجينٍ وعسجد ... يُصاغ، وعرش من ثناء وذكر
وكم بين مجد الدين والعلم والتّقى ... ومجد القصور الشمّ، والعسكر المجر

وهي موازنة كان من الممكن أن تفتح باب الشرّ، ولكن الله سلّم، فلم يُؤاخَذ مُنشِئُها بشيء لأنه يوازن فحسب!! ولكننا نأخذ من هذه المدائح وأمثالها ما يُنبىء عن منزلة الإمام في نفسه، لأنه بشهادة هذا القول أعظم من صاحب العرش، وكذلك كان يرى صفوة المثقفين من حواريي الإمام، وهو رأي تأكد عن ثقوب فاحص، وتقدير عاقل لقِيَم الأبطال.

ولكن حياة الإمام لم تطل، فقد غادر الحياة سريعاً، وعيون تلاميذه ترتقب شعاعه الآلق في الليلة الظلماء.

وفيما جمعه السيد محمد رشيد رضا من مراثي الإمام، شعراً ونثراً، بالجزء الثاني من تاريخه، ما يصوّر هول الفجيعة القاسية فيه، وقد انتابت المنفلوطي أزمة نفسية بعد رحيل قدوته، فرأى أن يترك القاهرة إلى منفلوط ليجد في صحبة الأهل ما يخفّف برحاءه، وهو رحيل ينبىء عن أمل تهدّم، ورجاء ذوى.

نزل مصطفى المنفلوطي بلدته، تسبقه شُهرته الأدبية، وتاريخه السياسي، وقد رحّب والده بمَقدمه لينجو من مخاطر شعره في القاهرة، فأقبلت طوائف المتأدّبين للترحيب به، وجعل يعقد الندوات الأدبية في منزله، ويجمع حوله مَن يتدارس معهم دواوين الشعر، وكتب التراث الأدبي من لداته، وكان في رخاء والده ما أسعفه بالرفاهية المعقولة، والاحتفاء بزائريه، ولكن حديث الندوة المنفلوطية عن أدبه جذبه إلى مُعاودة الكتابة، فبدأ يُراسل المؤيد بمقالات اجتماعية ذات نمط بياني عُرِفَ به.

فرحّب به الشيخ علي يوسف صاحب الجريدة، وأنزل مقالاته في الصدر من صفحاتها، وكان المنفلوطي قد ترك الشعر الموزون لينتقل إلى شعر مُرسَل بلا قافية أو بحر، فكنت تجد روح الشاعر في مقالاته مرفرفة مغرّدة، ووجد قرّاؤه أنفسهم أمام بيان ينفرد بسلاسته ونصاعته، بين ما تمتلىء به المؤيد وغير المؤيد من ثمرات الكاتبين.

ولم يكن المجال خالياً لمصطفى حتى يقال إنه فَقَدَ الشريك في الصُّحُف فظهر على حين فترة من الخواء، ولكن كُتَّاباً كُبَّاراً من أمثال قاسم أمين، وأحمد فتحي زغلول، وعلي يوسف، وفريد وجدي، وأحمد لطفي السيد، ومحمد مسعود، وأحمد حافظ عوض، كانوا يتبارون معه في شوط واحد، وفيهم مَن تثقف بعلوم الغرب ونَهَل من ثِمار العصر، ولكنهم دونه سطوة نفاذ، وقوة تأثير، لأن أسلوبه كان موسيقى تصدح، لا كلمات تُنَضّد، ولأن مواقف الشعر قد انطلقت من صدره لتُفصِح عن عاطفة مشبوبة، ووجدان رقيق.

لست أقول هذا القول عن ظنٍّ راجح، بل عن يقين جازم، عبّر عنه الأستاذ الكبير: أحمد حسن الزيّات، حين سَرَدَ ذكرياته عن المنفلوطي في مُفتَتح عهده بالمؤيّد فقال صاحب الرسالة:

«أشرق أسلوب المنفلوطي على وجه المؤيّد إشراق البشاشة، وسطع في أندية الأدب سطوع العبير، ورنّ في أسماع الأدباء رنين النغم، ورأى القرّاء والأدباء في هذا الفن الجديد، ما لم يروا في فقرات الجاحظ وسجعات البديع، وما لا يرون في غثاثة الصحافة، وركاكة الترجمة، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد العذب.

كان هؤلاء النفر من الأتباع المتأدّبين ـ يعني بهم الزيّات أصدقاءه من طَلَبَة الأزهر ـ يجلسون في أصائل أيامهم الغريرة أمام الرّواق العباسي، يتقارضون الأشعار، ويلهون بأغفال الناس، ويترقبون «مؤيد» الخميس ليقرؤوا مقال المنفلوطي، خماس وسداس وسُباع، وطٰه (طٰه حسين) مُرهِفٌ أُذُنيه، ومحمود (محمود حسن الزناتي) مُسبِلٌ عينيه، وفلان (يعني نفسه) مأخوذ بروعة الأسلوب، فلا ينبس ولا يطرف، وكلهم يودّون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطي، الذي اصطفاه الله لرسالة هذا الأدب البكْر، وجعله الإمام المفتي تلميذه المختار.

ولكن المنفلوطي في هذا العهد الذي قرأناه فيه قد جاوز الثلاثين، فهو قليل الإلمام بالأزهر، لا يجلس إلى شيخ، ولا يأوي إلى رُواق، وكان قد هيّأ نفسه ليكون كاتباً لا عالِماً، فلم يجعل همّه لامتحان، ولم يشغل ذرعه بشهادة»[1].

تلك شهادة الزيّات عن أثر المنفلوطي في قرّائه، وهي شهادة تدعونا إلى الوقوف قليلاً لنبحث عن سرّ هذا الإبداع الجديد، الذي ائتلق به صاحب النظرات وهو سرٌّ يرجع إلى نفس الكاتب التي تجيش بشتى الأحاسيس، وتترقرق بأعذب الخواطر، حيث جعلها الكاتب مرجعه الأول في كل ما يسطّر.

---

(١) مجلة الرسالة، افتتاحية العدد ١، سنة ١٩٣٧.

لم يكن المنفلوطي ممّن يهتمّون بقراءة المعارف المختلفة لينضّد من أفكارها مقالاً حافلاً بالمعاني، فذلك ديدن الباحث الدّارس، لا الفنّان المستشفّ، ولكنه كان يتأمّل أحداث مجتمعه، ويرى ما سلّط الله عليه من بلايا الفقر والجهل والمرض، ثم يمتد ببصره إلى ذوي اليسار من العابثين باللهو، المولعين ببهارج الحضارة من بذخ وتبذّل ومجون، فيرى أكثرية جائعة تبكي، وأقلية ضائعة تضحك، والرجل من إحساسه المرهف في نار مشتعلة، فهو يتأوّه لدمعة اليتيم، وتضوّر الجائع، وبرد العريان، وصراخ المريض، وما أكثر هؤلاء في مصر وفي غير مصر.

ليس المنفلوطي بحاجة إلى قراءة الكتب لاصطياد المعاني وتلفيق الأفكار، فأمامه كتاب المجتمع متعدّد الأجزاء، ممتلىء الصفحات، كثير الصور والأحداث.

هنا مجال الأدب التصويري لمشاهد البؤس، ومظاهر الأسى، وهنا يعبّر المنفلوطي عن أحاسيس الناس، ويضرب على أوتار قلوبهم بما يسبي العقول ويفتن المشاعر، ومدده الزاخر فوق أحاسيسه اللاّهبة ما حفظه من تعاليم القرآن، وأخلاق النبوّة، وسِيَر السّلَف الصالح ممّن كانوا يحذرون الشبع وحولهم أكباد تحنّ إلى القدّ، لذلك كان المنفلوطي في اجتماعياته أديباً إسلامياً، يعبّر عن رسالة السماء بما أنزلت من قرآن، وما ألهمت من أقوال نبي، وأفعال سَلَف، ومآثر خَلَف.

لذلك كان عجيباً كلّ العجب أن يأتي مَن يصف المنفلوطي بالكاتب الاشتراكي، فيراه داعية الاشتراكية في عصره، وهو نشاز إن جاز من أصحاب الأهواء المغرضة، فلن يجوز من ذوي الالتزام الجادّ، والبحث المُنصِف.

إن الدعوة إلى الطُّهْر والعفاف والرحمة والإحسان، ومقاسمته الفقراء بلهنية العيش نابعة كلها من كتاب الله وسُنّة الرسول، لذلك كان المنفلوطي الأزهري داعية الإسلام في اتجاهاته، وهو لم يعرف عن الاشتراكيين في عصره شيئاً جديداً في مِضمار العدالة الاجتماعية التي جاء بها رسول الله.

فَلِمَ يكـون الأديب الأزهري المسلم اشتـراكيـاً نُبـاهي بـه؟ ولا يكـونُ داعيـة إسـلام وهو مَن هـو! نشأ في رِحـاب التصوّف، وفي بيت ينتمي إلى الحسين سبط رسول الله، فإلى أبيه وجدّه آلت نقابة الأشـراف، ثم إذا تركنـا هذا كله لا نستـطيع أن نترك حفظه كتاب الله، وتأثّره به، وبحديث محمد ﷺ، ونهج عليّ في البلاغة، بل إنه حين ذمّ الحضارة الغربية لم يفرّق بين حضـارة الشرق في روسيـا، وحضارة الغرب في فرنسا وإنجلترا.

وها نحن أُولاء قد عرفنا الاشتراكية على حقيقتها، فوجـدناهـا خدعـة زائفة، أخذت أكثر مما أعطت وأفقـرت أضعاف مـا أغنت، بل وجـدنا مَن يـدعونهـا اسماً يخـالفـونهـا واقعـاً، حين يغتصبـون لأنفسهم قصـور الملوك وذهب الأمـراء، والإقطاعيين، فيُعيدون سِيَرَهم المفقودة مجوّفة مكبّرة.

أهذه هي الاشتراكية التي أصرّ الغـافلون على نسبة المنفلوطي إليهـا؟! وهل كان الكاتب يرضى بهذه النسبة لو عاش في عصر الاشتراكية، ووجدها سراباً بقيعـة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً؟!.

إن آثار المنفلوطي الاجتماعية قد دُوِّنَ أكثرها في النـظرات بأجـزائه الثـلاثة، وكل مقالات النـظرات تحمل الأفكـار الإسلاميـة، وما وجـدت صداهـا البالـغ في النفـوس إلّا لأنهـا تهتف بتعـاليم الإسـلام، لـك أن تقـرأ مقـالات المنفلوطي عن الحرمان واليُتْم والجوع، ومناقضاتها من البذخ والتبذير واللهو والإسفـاف، ولك أن تقرأ دعواته الإصلاحية لتعليم المرأة، وتثقيف الشباب، ونظافة المجتمع، ومهاجمة بيوت الدعارة، وأخلاق السّفَلَة من المُرتَشين والمُقامِرين، والزّناة، اِقرأ ذلـك كله، وابحث عن مصدره لتجده إسلامياً صافياً، ينبع من كتاب الله، وسُنّة خاتم الأنبياء.

- ٢ -

للمنفلوطي رحمه الله آراء في الإصلاح الاجتماعي نقرؤهـا اليوم بعـد ثلاثـة أربـاع قرن، فنجـدها بمنـزلة البـديهيات، ونخـطىء أشد الخـطأ حين نحكم عليها بواقع فكرنا الراهن، فإن الإنصاف يدفعنا إلى تقدير البيئة زماناً ومكـاناً، فـالحضارة الأوروبيـة مثلاً بعـد الحرب العـالمية الثـانية قـد اختلفت وجهة الكـاتبين من أبنـاء

الغرب أنفسهم بإزائها، فأصبحت غير وجهتها من قبل، لأن تخريب المدن بآلاف القنابل ومئات الصواريخ يرتدّ بنا إلى عهد الغاب، ويدعو إلى التبرّم بحضارة مادية اهتمّت بالكُشُوفات العلمية لتبيد الدول وتزعزع الاستقرار.

هذه الحضارة التي تقف اليوم في قفص الاتّهام كانت في مطلع هذا القرن أملاً رائعاً لأُناس ظنّوها مصدر السعادة والإبداع، ورأوا في مُجافاتها مهاوي التأخّر والانحطاط، وقد التفت المنفلوطي إلى رؤية هؤلاء، فوجدها مظلمة لا تهدي إلى فَلَاحٍ بل إنه حين سَبَرَ أحوال مَن تشدّقوا بتقليد أوروبا وجدهم يقلّدون في الابتذال والمجون والإسراف في البذخ المُودِي بكيان المجتمع، ولا يكادون يلتفتون إلى وجوه النفع من هذه الحضارة.

فنظر الكاتب نظرة الحكيم إلى واقع قومه وله كمسلم مثقف مُثُله المستوحاة من تراثه الديني، وإذ ذاك جاهر بمثالب هذه الحضارة كما يقتبس منها الشرقيون، وإذا كان من الكُتّاب مَن يرى في التمسّك بالدين مَدعاة انحدار، ومظنّة تقهقر إلى الوراء، فإن الداعية الأديب يقف منه موقف النقيض، حين يعلن أن هداية السماء باب النجاة، وأن الذين يظنّون في الانفلات من قيود التشريع حريةً وانطلاقاً يعودون بالنكبات القاصمة على بلادهم، وإذا كان منهم مَن يفتخر بالتحلّل من الدين، فسيصفعه المنفلوطي حين يقول:

«لو علمت أن مآرب هذه الدنيا وأغراضها، لا تُنال إلّا بترك شعيرة من شعائر الدين، أو العبث بفريضة من فرائضه لعفتها واجتويتها، ونفضت يديَّ منها، وقلت لها كما قال عليّ بن أبي طالب من قبل: إليك عنّي، غرّي غيري، ما لي بك حاجة، ولو علمت أن الوطنية وهي أفضل ما حمل امرؤ بين جنبيه من خلال الخير، تعترض دون طريقي إلى آخرتي، لخرجت منها كما أخرج من ردائي، ثم خلصت إلى شعفة من شِعاف الجبال، أو صخرة في منقطع العمران، أخلو فيها بنفسي من حيث لا أسمع دعاء غير دعاء القلب، أو نداء غير نداء الله، حتى يحين حيني، وينطلق إليَّ أجلي».

وليس معنى تمسّك المنفلوطي بدينه أنه يُجافيه إلى ضربٍ من التعصّب، نراه لدى الذين يجهلون حقيقة الإسلام، فيظنونه حرباً على المُخالفين، ولكن هذا التمسّك البصير دعاه إلى استشفاف جوهر الإسلام الخالص، الدّاعي إلى المودّة والسلام والرفق. بعيداً عن الحقود الدامية والشهوات الهابطة، وقد أفصح الكاتب الكبير عن اعتقاده البصير حين قال:

«إن الفرق بين الدين الخالص، والدين المَشُوب، أن الأول يتّسع صدره لكل شيء حتى لمُخالِفِيه، ومُحارِبِيه، وأن الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه، وأن الله أوسع رحمة، وأعلى حكمة، من أن يسدّ في وجوه عباده كل طريق للوصول إليه إلاّ طريق السيف والنار، وأن هذه الأحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهاباً، لا تؤجّجها في صدورهم الأديان نفسها، بل رؤساء الأديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها، ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل، وأن الذين يقدّسون الأحقاد ويباركونها، ويعتبرونها جزءاً من ماهيّة الدين، ومقوّماً من مقوّماته، إنما يقولون من حيث لا يشعرون: إن الإلحاد في العالم، وعبادة الشمس والقمر، أنفع للمجتمع الإنساني وأحسن عائدة عليه من عبادة الإلّه المعبود».

وما دام الكاتب بريئاً من التعصّب، فإنه حين يواجه الحضارة الأوروبية بمباذلها الرخيصة في المجتمع الإسلامي، فإنه يصدر عن اتجاه خلقي يتعالى عن الإسفاف والتبذّل، لأن التمسّك بموبقات هذه الحضارة قد باعد بين أنصارها وبين الارتقاء الحضاري الصحيح، إذ أخذوا أسوأ رذائلها، ولم يلتفتوا إلى مظاهر الجدّ في ابتكاراتها العلمية ذات النفع المحقّق.

وقد تحدّث الكاتب الكبير عن نفسه فيما يشبه مذكّرات شخصية سِيقَت مساق الترجمة الذاتية، فأعلن في صراحة أنه جلس على مرقبٍ عالٍ يشهد أفعال قومه، ويَزِن آثار المدنية الغربية في مجتمعه، فأدرك أن من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى هذه الحضارة نظرة حمقاء، فيأخذ هذه الحضارة بأجمعها أو يتركها بأجمعها، ولكن تَجِب الموازنة بين الفضائل والرذائل معاً.

وقد جعل المنفلوطي من همّه أن يحمل الناس من أمر هـذه المدنيـة على ما يحمـل عليه نفسـه، وأن ينقم من هؤلاء المتهالكين على مـوبقاتهـا دون تمييـز بين النافع والضارّ، حتى صارت المدنية الأوروبيـة في عيون المخـدوعين كأنهـا قانـون إلّهي لا مَحيد عنه، لذلك كرّر المنفلوطي الحديث عن الـدّعارة والخيـانة الـزوجية والانتحار والانحراف العائلي، وصديق الأسرة الذي يحتلّ منزلـة الزوج في الثقـة، وحفـلات الرقص الـدّاعر، ومـوائد الخمـور والقِمار، وهي مـوضـوعـات لا يحتـال الكاتب المُصلِح في اصطيادها، ولكنها تقع تحت عينيه، وتمتلىء الجرائد بأنبائها، إذ دأبت الصُّحُف لعهـده على تتبّع أحـوال الموسـرين ممّن قـذف بهم التّـرف إلى مهاوي الانحلال، فخسروا أجسادهم وعقولهم قبل أن يخسروا أموالهم وأطيانهم.

وإذا كان الرجل يكرّر بعض معانيه في مقالاته المتتابعة، فذلك لأنه لم يؤلّف النـظرات بأجـزائها الثـلاثة بـاعتبارهـا كتباً مستقلة، ينـظر في محتويـاتها مـوضوعـاً موضوعاً قبل أن تصـل إلى القرّاء، ولكن الـرجل كـان يرسـل نظراتـه في الصُّحُف نظرة وراء نظرة على مدى سنوات طويلة، وقد تتشابه الوقائع في موضوع ما بغيـرها من مُلابسات موضوع آخر، فيأتي التكـرار غير المقصـود، ولا يتّضح ذلـك لقارىء المقال المنفرد، بل يتّضح لمَن عكف على دراسة النظرات بأجزائها الثلاثة في زمن واحد.

على أن رجل الإصلاح داعية واعظ لا بدّ أن يكرّر ما يراه مفيداً من التكرار، وقد خلص المنفلوطي من روح الداعية في كتاباته الوجدانية، لأنها ترسم والأصداء المتجاوبة في صدره، وهي تتجدّد بتجدّد العواطف والانفعـالات، ولكن هيهات أن يخلص من بعض التكرار في مقالاته الإصلاحية، ومثله في ذلك مثل المعلّم الذي يتهيّأ لإلقا محاضرة جديدة على طلابه، فيفاجأ بسؤال يتعلق بدرس سابق، فيضـطر إلى إعادة بعض ما قال!.

وقد لاحظت أن تكرار الأديب في مجموعه غير تكـرار العالم، فـالأديب حين يكتب موضوعـاً سبق أن أشار إليـه إنما يُعيـد بعض المعاني في سيـاق جديـد، فلا يفقد بعض الطرافة في التحليل والتتبّع والاستطراد، أما العالِم حين يشرح موضـوعاً

علمياً سبق أن أفاض فيه، فإن شرحه الثاني يجيء مطابقاً لسابقه في أكثر اتجاهاته إن لم يكن في جميعها، ولذلك لا نقرأ موضوعاً علمياً بعد أن حصّلناه تمام التحصيل، ولكننا نُعيد فصول الجاحظ، وأبي حيّان، والمنفلوطي، والبشري، والزيّات، مهما قرئت من قبل، ولا بدّ أن نظفر في الإعادة بكثيرٍ من الاستمتاع.

وفي حديث المنفلوطي عن المرأة نجده رحيماً بها كل الرحمة، حريصاً على هدوء المنزل واستقراره الأمني، بل إنه يتحدّث عن المرأة الساقطة باعتذار، إذ يرى سقوطها جريمة المجتمع قبل أن يكون جريمة المرأة، فهو جريمة الرجل المشجّع المُسرِف في الأماني، حتى إذا وقعت الواقعة لاذَ بالفرار، وترك الضحيّة تتحمّل مصابها الثقيل دون إسعاف، وقد تكررت عبارة «الذئب البشري» في مقالاته التي تتّجه هذا الاتجاه، مما يصوّر اشمئزازه البالغ من المُخادِع الذي نصب الفخاخ ولاذَ بالفرار.

وما أكثر المنفلوطي من المناداة بالحجاب إلّا ليَقي الضعيفات من هؤلاء شرّ السقوط والانحدار.

ولا تجد تكريماً للمرأة أكثر مما اتجه إليه المنفلوطي حين أعلن أن الحياة مسرّات، ونحن ندين بمسرّاتنا للمرأة، لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه، ولن يستطيع الرجل أن يكون رجلاً إلا إذا وجد بجانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشجاعة، وتغرس في نفسه الكبرياء، ويتساءل الكاتب: هل جازينا المرأة بما أعطت؟ ويُجيب بالنفي لأننا لا نمنحها أكثر من عواطف الودّ، ونضنّ عليها بعاطفة الإجلال والاحترام، وهي في حاجة ماسّة إلى الاحتفاء والتقدير!.

ويخيّل إليّ أن المنفلوطي كان يتحدّث عن فترة زمنية، وعن بيئة مكانية لعهده. فالمرأة المدنية تتمتع في كل عهد بالتقدير، وقد تصبح رئيسة المنزل، بيدها أمر نفقاته، وأحوال معاملاته، ومشورتها دائمة لا تنقطع، وإذا طلبت أُجيبت، أما المرأة الريفية فشريكة الرجل في حقله، تحمل مثل ما يحمل من أعباء الغراس والحصد، وتتولّى رَواج الحاصلات من قمح وأرز، وجبن ولبن وطيور ودواجن، هذا ما كان ملموساً في المجتمع الريفي لعهد قريب.

والذين يقولون: إن المسلمة أسيرة مظلومة ينقلون كلام الأجانب ولا يفتحون عيونهم إلى ما حولهم من المنازل، وفيهم مَن يعرف استقلال المرأة المالي وحريتها الشخصية في حدود الدين، ثم يروق له أن ينقل كلام الاستشراق عن سجن المرأة وتعدّد الزوجات، وأعتقد أن قاسم أمين لو عاش في الريف المصري أمداً غير قصير، ورأى حرية المرأة العاملة في الحقل، واستقلالها في أمور البيع والشراء، ورئاستها الكاملة في شؤون المنزل، لكتب في هذا المجال ما يخفّف عن غلوائه، ولكنه قاهري تعلّم في باريس، وقضى بالحكم العامّ على النساء جميعاً في مصر، وكأن القاهرة لعهده وحدها هي المجتمع الأوحد لبنات حوّاء.

على أن الكاتب الكبير كان دائم اليقظة لما يبثّه المتحرّرون من أفانين التطرّف في الرأي.

فقد قرأ قصة للكاتب المهجري: جبران خليل جبران ذهب فيها مذهب المُدافع عن حرية الزوجة حين تترك منزل القرين لتهرب مع عشيق تهواه، وقد جنّد جبران هذا الانحدار الشائه بما ساق من سقطات ممخرقة، وجدت هدمها الساحق من يَراعِ المنفلوطي، وقد ختم نقده بقوله: «ما كنت أحسب إلّا أن مذهب الإباحية قد انقضىٰ، حتى قرأت هذه القصة منشورة بالعربية فنالني من الحزن ما الله به عليم».

ولو امتدّ النفس بحياة الكاتب إلى ما بعد عصره لشاهد وقرأ من أفانين الإغراء ما يضيف إلى روحه الحسّاس وَجْداً على وَجْد، فقد أصبحنا نجد مَن يدافع عن مذهب جبران في مقالات هابطة ينشرها في صُحُف الإغراء، كما أصبحنا نجد مَن يظن كمال المرأة لا يتمّ على أصحّ أموره إلّا إذا راقصت وصادقت، وأصبحت ربّة صالون! وحشدت إلى منزلها زُمَر المعارف من الأصدقاء والزملاء، لتكون بذلك عنوان الحضارة المزدهرة!.

كما أصبحنا نجد مَن يشدّد النكير على المحجّبات ممّن اعتصمن بدينهنّ، فيتّخذهنّ مثلاً للتأخّر والجمود! ومن عظمة الحق وجلاله أنه أخجل هؤلاء جميعاً، حين ذهبت آراؤهم أدراج الرياح بفضل العودة إلى أخلاق الإسلام في الاحتشام.

وإذا كان المنفلوطي قد لبّى حاجة عصره فيما كتب من نظرات إصلاحية، فهل يجوز لنا أن نتفق مع مَن يعدّونه كاتب مرحلة خاصة تطلبت وجوده، ثم انتهى أثره الأدبي بانتهائها؟ الحقّ أننا نظلم المنفلوطي لو حصرناه في هذا النطاق، لأن كل كُتَّاب العصر قد تحدّثوا عن مشكلات زمانهم حديثاً يتّسع ويضيق، فهو يتّسع حين تمتدّ النظرة إلى رِحاب الإنسانية الشاسعة في كل زمان، ويضيق حين يعالج مسألة جزئية تدعو الحاجة إلى معالجتها ثم يتضاءل ما كتب عنها إذا جرت قطراته المحدودة في نهر الزمان المتدفّق.

وقد زاول المنفلوطي الكتابة في أغراض محدودة وأخرى غير محدودة، بحيث لو تصفّحنا النظرات لوجدنا كثيراً من المقالات الرائعة التي لا تفقد بريقها في كل زمان، إذ رسمت ألوانها في سطوع لا تجفّفه شمس، ولا يعصف به هواء! وما لنا نتحدّث عن النظرات وحدها، ونترك روائعه البارزة في رواياته الذائعة، كالفضيلة والشاعر وماجدولين، وفي سبيل التاج!! إن إعصاراً نقدياً قد هبّ على هذه الروايات يحاول أن يُزيلها عن مستقرّها الحصين، بدعوى أن الرجل قد ترجم له الأثر الغربي، ثم اقتبس منه مُضيفاً إليه من ذات نفسه ما باعد بينه وبين الأصل، والحقّ أن المنفلوطي قد فعل ذلك حين أظهر الترجمة في ثوب جديد يشفّ عنه أكثر مما يشفّ عن صاحب الرواية الأوروبي!.

ولكننا مع اعترافنا بذلك لا ننظر في مضمار الحكم على المنفلوطي في هذه الروايات باعتباره مترجماً! حتى نقول إنه جاوز الأصل وتعدّاه فهو غير أمين في النقل!.

لا ننظر إلى المنفلوطي هذه النظرة فهو غير مترجم، ولا يعرف لغة غير لغة الضاد! وما ادّعى ذات يوم أنه حافظ على الأصل ولم يتجاوزه، ولكننا ننظر إلى ماجدولين والفضيلة والشاعر وفي سبيل التاج والعبرات، ككتب ذات قصص اشترك في تأليفها رجلان أحدهما غربي، والآخر شرقي، فجاءت على نمط خاصّ من البيان يُرضي حاجة القرّاء، ويُشبع جوع النهم المتطلّع إلى شهيّ الزاد.

لن ننظر إلى مقدار المحافظة على الأصل، ولكننا ننظر إلى الرواية في وضعها الجديد فنراها قد عبّرت عن أسمى ضروب التضحية والفِداء، في قصة: «في سبيل التاج» وعن معاني الطّهر والشرف والعفاف في قصته الفضيلة، وقد صوّرت أسمى عاطفة إنسانية، هي عاطفة الحب العذري المترفّع عن الشوائب في قصة الشاعر، كما عبّرت عن أدقّ معاني اللوعة والشوق، وأظهرت جهد الإنسان في إخلاصه ووفائه وحفاظه على العهد في قصة ماجدولين.

لتكن الروايات في نسقها المنفلوطي بعيدة عن الأصل، ولكن بُعدها الواضح لم يضائل من بريقها الإنساني الخلّاب! لقد طُبِعَت رواية ماجدولين أكثر من ثلاثين مرة، لأنها تلبّي حاجات النفوس، كما طُبِعَت هذه الرواية نفسها في ترجمة لغير المنفلوطي فلم تتكرّر طبعتها، لأن القارىء قد هامَ بالمنفلوطي قبل أن يهيم بألفونس كار مؤلّفها الفرنسي، الذي استوحاه الكاتب العربي الكبير.

هذه القصص العاطفية جميعها تضمن الخلود لأدب المنفلوطي، لأنها لبّت حاجة النفوس الإنسانية إلى المثل الأعلى في شتّى صوره، صوّرت جمال التضحية وبهاء الشرف وعمق الإخلاص، كما رسمت دموع الحرمان، وابتسامات اللقاء وأفصحت عن نجوى السرائر الدفينة، إفصاحاً جعل القلوب تنشر دون طيّ، لتبرز كل لمحة، وتسمع كل نأمة، وتصوّر كل اختلاجة، بل لترى مَسارِب الدم يتدفّق في العروق حتى يصل إلى القلب، فيدقّ به دقّاً شديد الخفق.

أيّ براعة مَلَكَها المنفلوطي وأيّ إبداع؟ هنا نحكم على فنّ الكاتب بالخلود حكماً تؤيّده الطبعات المتوالية، وتسجّله لهفات القرّاء، بعد امتداد خمسة وسبعين من الأعوام! وبعد ظهور مئات المُزاحمات من نفائس الروايات.

وحين ظهرت قصة الشاعر كتب الدكتور منصور فهمي كلمة جيدة في تقديرها قال فيها: إن المنفلوطي قد اقتحم سبيلاً وعراً لأن في بلاغة الأصل ما ليس في طاقة معرّب أن ينقله، وربما تُحْمَد الجرأة في الصِّعاب كما حُمِدَت جرأة المنفلوطي في نقل هذا الأثر الرائع، لأنه أدّى لنا صورة حيّة بقلم عربي مُبين. ولكن الدكتور طه حسين عارض ما قاله الدكتور منصور فهمي، وذكر أن المترجم

قـد شوّه ومسـخ ، وأن منصور فهمي يجب ألاّ يشجّـع المفسـدين والأدعيـاء، إذ لا يفهم طـه حسين كيف يمكن أن تتحـوّل المسـرحيـة إلى قصـة ، وقـد عـاود الكَـرّة الدكتور منصور فهمي فذكر أنه لا يجد مبرّراً للدكتور طـه حين يذكر المنفلوطي في الأدعيـاء، وأن وصف الأديب جديـر به، وأن تحـويل المسـرحية إلى قصـة بِـدعـة صالحة لا يستهجنها الذوق السليم! .

أذكـر ذلك كله لأقـول: إن الدكتـور طـه حسين أصرّ على أن المسـرحيـة لا تنقلب إلى قصـة ، وعدّ ذلـك مسخاً وتشـويهاً، وعمـلاً يقترفـه الأدعياء!! ثم مـرّت الأيام ورأينا الدكتور طـه حسين نفسه يختار مسرحيات فرنسية ليلخّصها قصصاً على صفحـات مجلة الهـلال، ثم يعمــد إلى جمعهـا تحت عنــوان (صـوت بــاريس) و(لحظات) والحق أن مجموعتي الدكتور طـه لم تكرّر طبعاتها، ولم تجد مِعشار ما وجدته قصص المنفلوطي من إقبال! .

فمـا معنى أن يحرّم على المنفلوطي عمـلاً يراه تشـويهاً ومسخـاً وادّعـاءً، ثم يحاول أن يقوم بمثله فلا يبلغ قليلاً مما يريد؟ أيكون في ذلك اعتراف صـريح منـه بأنه قد ظلم المنفلوطي حين سلك مسلك التلخيص المفيد! كما يكون في ذلك ما يُنبىء عن تعمّد القدح دون موجب معقول.

أما الأستاذ عبد العزيز البشري فقد أرضى عاطفتـه الصادقـة حين كتب فصلاً رائعاً عن مجدولين، مبيّناً صداها الرنّـان في نفسه يجـده القارىء في الجـزء الأول من المختار، وفيه يتحـدّث البشري عن قـدرة المنفلوطي التي تمكّن بها في اللغـة العربية تمكّناً جعلها تُفصِـح عن أدقّ الهمّات، وأرقّ الخلجـات بحيث أتى الكاتب الكبير بما قدت دونه أنامل الكتاب! هكذا قال.

إن قُصارى ما يقال عن المنفلوطي أنه كان في عصره الأديب الأول في منطق الرأي العامّ، فهو بين الكُتّاب كشوقي بين الشعراء، يذكر نـابِغو الشعـر شاعـراً بعد شاعر، ولكنهم عند الجمهور دون شوقي، وكذلـك يذكـر نابهـو الكتاب كـاتباً بعـد كـاتب، ولكنهم عنـد الجمهـور دون المنفلوطي، والكـاتب الكبيـر لم يتسنّم هـذه

الذروة لأسباب تخرج عن دائرة الفن، ولكنه ارتقاها بالموهبة الرفيعة والوجدان الحيّ، والقلم البليغ في أمة تعرف أقدار الناس.

لقد حاز الرجل عطف الكبار من أمثال: محمد عبده، وعلي يوسف، وسعد زغلول، ولكنه لم يبلغ هذه المنزلة من نفوسهم إلّا لأنه أديب موهوب ذو بيان! ولن يخدع فيه هؤلاء، وهم الخاصّة بين النبهاء، إذا جاز لمُعاند جاحد أن يشكّك في إعجاب الجمهور، والجمهور الأدبي بالذات!.

محمد عبد المطّلب
ناقداً مُنصِفاً، وشاعراً رصيناً

نجد لدى بعض الدارسين عزوفاً عن التحليل الجادّ لشعر طائفة من كبار الشعراء، راعوا طريقة الفُحُول في الإبداع الفنّي من حيث الجزالة الآسرة، والديباجة الرصينة، وعدّوا ذلك تقليداً لا يرتفع إلى مرتبة الجودة، وهم بذلك يقفون عند حدود الشكل وحده، بل عند الإعجاب بنمط واحد من الشكل الفنّي، لا يبغون عنه بديلاً، فإذا ما رأوا شاعراً ملتزماً يخالفهم فيما يريدون، فهو مقلّد ينظم ولا يشعر، وفي ذلك جهد صارخ لأكثر مَن نسمّيهم الآن بشعراء مدرسة البعث ممّن خلفوا محمود سامي البارودي، واقتفوا أثره في إحياء القصيدة العربية، والرجوع بها إلى دور القوة والإفصاح الآسر.

وإذا كان من الحق أن بعض شعراء مدرسة البعث قد وقفوا عند القديم دون أن يتجاوزوه، فإن من الحق الصريح أن هؤلاء قد أنقذوا الشعر العربي من منحدر الركاكة، وذلّة الإسفاف اللفظي، ولعلّ شاعر البادية محمد عبد المطّلب كان أكثر هؤلاء الشعراء هضماً لفنّه، وعُزوفاً عن ديوانه من هؤلاء الدارسين، فإذا عددنا باحثاً أو باحثين أو ثلاثة كتبوا عنه مقالاً في مجلة، أو فصلاً في كتاب، فإننا لم نجد مَن خصّه بمؤلّف تحليلي كاشف يرصد نواحي الإبداع في فنّه، هذا من ناحية إبداعه الشعري، أما بحوثه الأدبية، ونقداته العلمية، فقد تفرّقت في أنهار الصُّحف اليومية

كما سنلمّ بذلك من بعد، دون أن تجد الرّاصد المعقّب، وهي من الدسامة الفكرية، والسّداد النقدي بحيث حازت قبولاً مُنصِفاً، وصحّحت أخطاءً فادحة.

وسأُحاول في هذا النطاق المحدود أن أُشير إلى بعض مآثر الرجل شعراً وبحثاً، ليكون فيما أُسطّره بعض ما يدفع باحث متّئد إلى استيفاء الدراسة التحليلية عن هذا الأديب الكبير!.

وإذا كانت حياته المعيشية، وترجمته الشخصية لم تجد مَن يُسهِب في تتبّعها المطّرد، على نحو ما كتب عن زملائه الكبار من أمثال: شوقي، وحافظ، ومطران، وغيرهم من مُعاصِريه، فإننا سنتابع الأدوار الواضحة في مسرح هذه الحياة بشيء من التفصيل، لننقذ تاريخه من الضياع، ولنوطىء بذلك للقول في أدبه المطبوع شعراً، وفي نظراته الصادقة بحثاً، وذلك بعض حقه دون مُغالاة.

يرى الجائل في محافظة سوهاج قرية تسمى: (باصونة) وقد نزل بها من قديم الزمن في عصر الفتح الإسلامي لفيف من العرب الخُلّص، الذين ينتمون إلى قبيلة جهينة، وهي إحدى القبائل العريقة التي أخذت وفودها تتتابع من الجزيرة العربية إلى وادي النيل، وما زالت تتنقل من مكان إلى مكان، حتى استقر بها المقام في أعلى الصعيد.

ومنذ أكثر من قرن ونصف كان بهذه القرية الهادئة بيت مرموق المكانة يقصده الوافدون للتبرّك بصاحبه الصّوفي الزاهد، عبد المطّلب بن واصل، فهو شيخ وقور تنتظم في منزله حلقات الذّكر، وتهبّ لديه النفحات الروحية الصافية، ثم هو عالِم متفقّه في دينه، يعظ الناس كل مساء بما وعاه من الكتاب والسُّنّة، فيأخذ بمجامع القلوب، هذا إلى عربيته الخالصة، ونسبه الصريح.

ولقد وُلِدَ محمد عبد المطلب سنة ١٨٧٠ في هذا البيت الطيب، فتربّى تربية دينية قويمة، وطبع منذ نعومة أظفاره على الخِلال الإسلامية الحميدة، وطبيعي أن يسلّمه والده إلى معلّم القرية فيحفظ كتاب الله العزيز، ويلمّ بقواعد القراءة والكتابة، حتى إذا فرغ من ذلك أمكنه من مبادىء الفقه الإسلامي والحديث النبوي، فارتشف ما قدر عليه من مَعينهما الرائق، ثم أنِسَ من نفسه المعرفة

فجلس يَعِظ الناس مكان والده، وهو في مبدأ العقد الثاني من عمره، فكان مَن يسمعه في هذه السنّ الباكرة يحلم بغده المأمول.

وكان العارِف بالله الصّوفي (إسماعيل أبو ضيف) يزور مُريده عبد المطلب واصل في باصونة من حين إلى آخر، فشاهد نجله الصغير يعظ الجمع الحافل كعادته، وهو لا يزال طريّ الأملود، غضّ الإهاب، فتوسّم فيه النجابة والذكاء، وعرض على والده أن يصحبه إلى القاهرة ليرتشف العلم الغزير من منهله الرائق بالأزهر الشريف، وكانت فكرة حميدة تلقّاها الوالد بالترحاب والقبول، ولم يمضِ زمن ما حتى صار الواعظ الناشىء طالباً بالأزهر يقضي فيه بياض نهاره، فإذا جنّه الليل توجّه إلى شيخه إسماعيل فلازم منزله حتى الصباح.

وإذا كان الفتى قد شهد مجالس الفتوى في صورة مصغّرة عند والده بالصعيد، فإنه في منزل حاضنه الأكبر الشيخ أبي ضيف يرى الصورة المكبّرة لهذه المجامع العامِرة، فهو يستمع إلى القصائد الصّوفيّة التي تُنشَد في الحلقات كل ليلة، فيحسّ لها رنيناً شجيّاً يدعوه إلى استظهارها، حتى تربّت لديه روح حسّاسة تطرب للتوقيع الجميل، وتتذوّق المعنى الرائع، ومهما يكن من أمر هذه المجالس فقد كانت مقطوعاتها الصّوفيّة أول حافز دفع الفتى إلى الانكباب على الدواوين الشعرية في ميعة صِباه، ليستوضح غامضها، ويتفهّم معانيها، حتى خلقت فيه فيما بعد شاعراً جزل الأسلوب.

كان الطالب الأزهري مبرزاً بين لداته، مشمولاً بعطف أساتذته ومشايخه، إذ إن المبادىء الفقهية التي حصلها عند والده قد مهّدت له أسباب التفوّق، ودفعته إلى المُثابرة العلمية، فأخذ يستوعب كلّ ما يُلقى عليه حتى نضج عقله على مدى سبع سنوات قضاها بالأزهر الشريف، ثم هو لا يكتفي بما يأخذه من دروس قيّمة في اللغة والدين، بل عيّن لنفسه قدراً محدوداً من دواوين الشعر القديم يحفظه يوماً بيوم، حتى خرج من الأزهر إلى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٩٢ وعنده من غرر القوافي ثروة ثمينة أجرت لسانه بالشعر الناشىء، فجعلته يثق بنفسه ويعتدّ بملكته.

وقد هيّأت له الظروف في سنته الأولى بدار العلوم فرصة طيبة لمع بها نجمه، فجعلته إذ وقف يرثي فقيد العلم والتربية علي مبارك في حفل عامّ أُقيم لتأبينه في دار العلوم، وخرج أساتذته وزملاؤه يثنون عليه، ويضربون به المثل في حُسْن الاستعداد، مما حفّزه بقوة على الاطّلاع والتحصيل.

وكان المرحوم الأستاذ الشيخ سليمان العبد مدرّساً إذ ذاك بدار العلوم، وله ميل شديد إلى النظم، فكان لا يُنشىء مقطوعة إلّا عرضها على تلميذه مستنيراً برأيه أمام زملائه، وكثيراً ما نزل على إرادته فجعل يحذف ويثبت من الألفاظ والمعاني بما يقترحه الطالب، فإذا نشر القصيدة من بعد في جريدة الوقائع المصرية، قرأها على تلاميذه معترفاً بما لعبد المطّلب من أثر جميل.

قضى الشاعر أربع سنوات في دار العلوم، وتخرّج سنة ١٨٩٦ متوّجاً بالنجاح، فنَجَا من قيود الدراسة التعليمية ليكون حرّاً فيما يقرأ ويدع، وهنا نجد الشاعر قد عكف على الكتب القديمة من التراث الأدبي يستخلص لبابها ويستظهر أستارها، ويروي أخبارها.

ومن حظّه أن عُيّن مدرّساً للغة العربية بمدرسة سوهاج الابتدائية، وبها يومئذٍ صفوة مختارة من عشّاق الأدب وروّاد المعرفة، أذكر منهم المرحومين الشيخ عبد الرحمن قراعة، وعبد الله بك الطرير، وعلي بك الكيلاني، فنشأت بينهم وبين الشاعر صداقة وليدة تعهدها الأدب بمائه العذب، فكانوا يعقدون مجالس الأدب حافِلَة بالنادرة الطريفة، والملحة البارعة، فإذا جاء دور الشعر فمحمد عبد المطلب راويته الفذّ، وصناجته المبدع، وكثيراً ما يقترحون عليه أن ينظم في معنىً خاصّ، فيتحفهم بما يريدون مستعيناً بقريحته المواتية.

وقد يكون للنقد رأي في هذا الشعر المقترح، إذ يكون في أكثره مما يعبّر عن تجربة صادقة، ولكن القوم قد اقترحوا واستجاب الشاعر، وكان الأستاذ قراعة أحبّهم إلى قلبه، فهو رجل فقه وتاريخ وشعر، فاختصّه الشاعر بإجلاله وله فيه قصائد جِياد.

لم تطل إقامة عبد المطّلب كثيراً بسوهاج حيث انتقل إلى مدارس أخرى بمصر إلى أن اختير أستاذاً بمدرسة القضاء الشرعي، وكانت شُهرته قد طارت إليها بما نشره من حينٍ لآخر في الصُّحُف اليومية شعراً ونثراً، فاستقبل بالتَجِلّة والترحيب، ووجد نفسه أمام عقول مستنيرة تفهم آراءه، وتُسايِر اتجاهه، فأخذ يغرس في تلاميذه حبّ الأدب والفضيلة، ويدفعهم إلى التعصّب للعربية في وقتٍ كانت فيه هدفاً للهجوم الصارخ من المُناوئين.

ولقد غالى في مذهبه مُغالاة جعلته ينصرف عن كثير مما كتبه المحدثون في عصره، إذ رأى السمّ يُخالط الدّسم فيما ينقل عن بحوث الاستشراق، وكان يُجاهر بضرورة الدراسة المستأنية لكتب التراث قبل أن نطالع الأبحاث المدخولة في رأيه، ثم والى قصائده ذات النهج البدوي الذي يتّخذ من شعر الفحول في الجاهلية والإسلام نمطاً يُحتذى، فكان يبتدىء قصائده بالغزل المحكم، مُكثِراً من الغريب المجلجل، ومستعيناً بخيال البادية في التصوير والتوليد.

وتلك مِنّة أسداها إلى الأدب العربي، إذ يذكر الناس بين الفينة والفينة بمَن ينسج على منوالهم فيفيئون إلى الدواوين القديمة باحثين مستفيدين.

ولا شك أن الأدب العربي كان مبدأ نهضة تحتاج إلى المحافظ احتياجها للمجدّد، ونحن نعلم أن حرباً طاحنة شنّها المستعمِرون على اللغة العربية عقب الاحتلال البريطاني إذ كانت في رأي غُلاتهم المتعصبين لغة صحراوية لا تَفِي بحاجة المدينة في عصر العلم، وقد قام السير ويليام ولكوكس سنة ١٨٩٢ بالدعوة إلى نبذ الفصحى قراءةً وكتابةً واتخاذ العاميّة أداة للتعبير، كما فعلت الأمة الإنجليزية حين هجرت اللاتينية إلى لغاتها المحلية، ثم فلسف دعوته الخادعة إلى اللغة العاميّة بأنها ليست ذات علاقة باللغة الفصحى، إذ كلٌّ منهما لغة متميّزة عن الأخرى، والعاميّة لم تأتِ عن العرب بل عن الهكسوس الذين أقاموا في مصر خمسة قرون، بدليل اتّحاد اللغة العاميّة ولغة الهكسوس في طريقة النفي المزدوج ـ هكذا يقول باطلاً دون حق ـ.

وقد تتابعت الأقلام المغرضة تجنّد دعوة ولكوكس متعلّلة بما تجده من قصور اللغة العربيـة حينئذٍ عن تـأدية معـاني الحضارة ومستحـدثاتهـا وكأن اللغـة العاميّـة تستطيع أن تَفِي بهذه المعاني وتلك المستحدثات.

ولكن صـدور هذه الـدعوة بـدءاً من إنجليزي مغـرض لا يحمـل للمصـريين عاطفة مخلصة جعل موجة الدفاع عن اللغة الفصحى قوية عاتية، فهبّ المخلصون من الكُتّاب في الذِّياد عن لغة القرآن، لا باعتبـارها لغـة كتابـة وقراءة فحسب، بـل باعتبارهـا لغة دين، يحـاول المستعمرون أن يمحـوه حين يدعـون إلى هدم لغتـه، وكان عبد المطّلب من الذين يحاربون هذا الإتجاه الغـربي في إباء حـازم بما ألقى من محـاضرات، ونشـر من مقالات، وكـانت دعـوتـه إلى إحيـاء كتب التـراث ردّاً مُفحِماً على دُعاة اللغة العاميّة إذ أصبحت المسألة في رأيه مسألة دين وإسـلام قبل أن تكون مسألة إنشاء وتعبير.

وقد ألمح الأستاذ عباس محمود العقّاد إلى هذه الحقيقة كاشفاً بعض نواحيها المجهـولة حين قـال عن الأستاذ محمـد عبد المـطّلب: «ولمّا شـاعت النهضـة في الشرق كله شاع معها الأسف بين المسلمين على ما أصابهم من الضعف والهزيمـة بعـد القوة والسيـادة، ثم شاع بينهم اليقين بـأنه لا مـوئل لهم ولا أمـل في تجـديـد سلطانهم إلاّ بـالرجـوع إلى الإسلام في أيـامه الأولى، أيـام الجدّ والغلبـة والفـطرة السليمـة من البِدَع والمحـدثـات وعـوارض العصـور الأخيـرة، وفضـول الأعجـام والمقتدين بهم من المستعمرين، والعرب المستعجمين، فأصبح كل حديث عنوانـاً للترف الزائف والعقيدة المدخولة، والعربية المشوبة، وأصبـح كل قـديم قريب من الإسلام في صدره عنواناً للصحّة والمتانة والعصمة من الضعف والركاكة.

وعاد طلاب المعارف الدينية واللغة القديمة، إلى ما كان عليـه خلفاء الـدولة الأموية والعباسية، حيث كانوا يطلبون لأبنائهم الفصاحـة من الباديـة، ويقرنـون بين سلامة القرآن لغة، وسـلامة العـربية على حـال البداوة. . . وليس بين شعـراء هذه الفئة مَن يمثّلها ويستغرق فيها كما مثّلها، واستغرق فيها الشيخ محمد عبـد المطّلب الشاعر المتبدّي في لفظه وأغراض كلامه، لأنه سلك إلى هـذا المذهب من طـريق

الأصل العربي، وطريق النشأة الدينية، فلم يكن له منصرف عن مذهب البداوة إلى غيره»[1].

وأنت تلمس حنين عبد المطّلب إلى عهود القوة في أيام العزّة الإسلامية، والتحسّر على ضياعها في أيام الذلّة والهوان التي يعيشها الشاعر في ظلّ الاستعمار من مثل قوله:

بني أمنا أين الخميس المدرب	وأين العوالي والحُسام المذرّب
إذا اهتزّ في نصر الحنيف تساقطت	نفوس العِدا من حوله تتحلّب
وأين النفوس اللّاء كنّ إذا دعا	إلى الله داعي الموت في الموت ترغب
وأين بنو الغارات يبتدرونها	وجند المنايا حولها يتكوكب
وأين قلوب يشهد الصخر أنها	غداة الوغى منه أشدّ وأصلب
أولئك أقوام إذا ما ذكرتهم	جَرَت عَبَرات الدين حرّى تصبب
دعا صارخ الإسلام يا لبني الهدى	أغار العِدا، أين الحُسام المشطّب
أفي سكتات الليث للهرّ مطمع	وهل في عرين الصيد للسيد مأرب
على رسلكم إن الليالي لم تزل	على حكمنا، تجري بما نتطلب
حذار فللإسلام في كل بقعة	سراة إذا ما أجدب الناس أخصبوا
حذار فللإسلام في كل أمة	حماة إذا ما شزر الدهر قطبوا
وكم في سبيل الله من أريحية	لمصر بها رأب الخلافة يشعب

وصاحب هذه الجزالة الآسرة يعجب الدارس حين يرى أنه اقتحم التجديد من ميدان فسيح حين ألّف روايات جيدة للمسرح الشعري، وقد كان من الذائع المشهور أن أحمد شوقي هو أول مَن كتب نظم المسرحية الشعرية في العصر الحديث، ولكن هذا الذّائع المشتهر يُنافي الواقع، لأن الشاعر اللبناني خليل اليازجي قد نظم الشعر المسرحي في صورته البدائية في أواخر القرن الماضي، ثم توالت محاولات أخرى شامية، إلى أن نظم شوقي فصولاً من مسرحية «علي بك

(١) شعراء مصر وبيئتهم في الجيل الماضي، للأستاذ العقّاد، ص ٤٤، ط أولى.

الكبير» أثناء مغتربه في فرنسا، وكأنه لم يرضَ عنها، فآثر بقاءها منزوية في أوراقه حتى أعاد كتابتها في أواخر أيامه، وظهرت للقرّاء بصورة جديدة بعد أن فاجأ الناس بمسرحية كليوباترة وما وليها ابتداء من سنة ١٩٢٩.

أما عبد المطلب فقد ألّف للمسرح الشعري دون أن يعرف شيئاً عمّا كتب شوقي من أصول رواية علي بك الكبير، فكان أحد روّاد الشعر المسرحي، إذ نظم سنة ١٩٠٩ وما بعدها بضع روايات شعرية ذات فصول ومناظر تمثيلية، فجاءت دقيقة الحوار، سريعة الحركة، حسنة المفاجأة، وكلها عربية بدوية تتخذ أسماء لامعة في تاريخنا الأدبي كالمهلهل وامرىء القيس، وليلى العفيفة، وكلها مخطوطات محفوظة بدار الكتب المصرية، وبعض فصول من ليلى العفيفة نُشِرَت بالمجلد الثاني من مجلة الرسالة سنة ١٩٣٤، ولعلّنا نجد مَن يبحث عن هذه المخطوطات بدار الكتب ليُخرِجها في ثوبها اللائق، فهي من دلائل اليقظة الفنية لدى الشاعر الملتزم، ولها من السِّمات الأدبية ما يوسع دائرة محيطه الشعري!.

والذين لا يعجبهم توغّل عبد المطّلب في مَنحاه القديم، يأخذون عليه تغلغله في الأخيلة الصحراوية، وهيامه بربوع البادية وأماكنها التي تَرِد في شعر التراث، وإكثاره من الغريب المجلجل مما يعتبر مُحاكاةً لا ابتكاراً.

وفي رأيي أن عبد المطّلب بالذات غير مَلوم في ذلك، لأنه عربي صريح نشأ في بيت يفخر بانتمائه إلى الجزيرة العربية، فهو حين تهيّف بنجد والعقيق والغضا وسلع إنما يعبّر عمّا ورث من أسلافه من حنين مُحرِق إلى أماكن يعتزّ بها، وأحرى بنا أن نوجّه هذا النقد إلى شاعر لم يحمل عناصره البدوية في ذرّاته المتوارثة وعرقه البعيد.

وإذا كنّا نعدّ من حسنات الفرزدق على اللغة العربية أنه أحيا ثلثها في شعره، فلماذا ننكر على عبد المطّلب جهده البياني في وقتٍ جاهَرَ فيه أعداء اللغة الفصحى بعجزها عن مُسايرة الحياة، ألا يكون ذلك توجيهاً صالحاً منه إلى تحصيل اللغة ودراسة فنونها الواسعة، وصورها البليغة، حتى تُسعِفنا بما نفتقر إليه من كلمات ذات دلالات.

وقد شاءت الظروف السياسية أن ينتقل من مدرسة القضاء الشرعي إلى مدارس وزارة الأوقاف فحِيلَ بينه وبين العقول الناهضة التي تنتفع بآرائه وتوجيهه، ووجد نفسه أمام طائفة أخرى لا تزال في الدور المتوسط من التعليم، فاعتبر وجوده في مدارس الأوقاف محنة أيّ محنة، على أنها كانت في بعض وجوهها منحة كريمة إذ تفرّغ للشعر أمداً غير قصير، وكانت الحرب العالمية الأولى مندلعة اللهيب، ثم تلتها الثورة المصرية بقيادة سعد زغلول، فوجد عبد المطلب من أحداث زمانه ميادين للحديث الشعري سياسياً واجتماعياً وتاريخياً، فما من عاصفة هبّت على مصر إلّا تردّد دويّها في ديوان عبد المطّلب.

ولعلّك تسأل: لماذا لم تذكر سياسياته البارعة كما تذكر سياسيات حافظ إبراهيم مثلاً؟ والجواب على ذلك أن الشعر السياسي ـ وكثيراً ما كان يلقى في الحفلات العامّة ـ لا يجد صداه المدوّي إلّا إذا كان واضح اللفظ سهل التركيب، وقد راعى حافظ هذه السهولة في سياسياته فتناقلها الناس، أما عبد المطّلب فقد حافظ على متانة النسج، وجزالة التركيب، فلم يهشّ له غير الدّارس الأديب، ولك أن ترجع إلى ما كتبه الشاعران في المناسبات السياسية موازناً بين قول وقول، لتعرف كيف باعدت الجزالة القوية بين عبد المطّلب وجمهور العامّة.

ولي أن أُشير إلى قصيدته الطويلة في الحرب العالمية الأولى للتدليل على مذهبه الشعري من ناحية، وعلى نظرته السياسية من ناحية أخرى، إذ عبّر فيها عن إحساس الشعب المصري بإزاء جيوش الاستعمار، وقد ملأت أرض مصر رائحة غادية، تغشى المواخير والحانات وتؤمّ بؤرات الدّعارة والفساد، كما أسهب فيما اقترفه المحتلّون من آثام، يجتزىء في التمثيل منها بمثل قوله:

تبصر خليلي هل ترى من كتائب ... دلفن بها كالسيل من كل مودق
سراعاً إلى الحانات تحسبهم بها ... نعاماً تمشى رزدقاً خلف رزدق
يهولك مرآها إذا اصطخبت بهم ... مواخير تجلو فاسقات لفسق
إذا أجلبوا فيها حسبت ضفادعاً ... تجاوبن إيقاعاً على صوت نقنق

زعـانـف شتّى من طـويـل مشـذب طـري القـرى عـاري الأشـاجـع أعنق
تـرى منـه في بحبـوحـة الأمن بـاسـلاً وإن يـدعـه الـدّاعي إلى الكـرّ يحبق

والقصيدة وقد جاوزت المائتين تضـرب على هذا الـوتر المجلجـل، وطبيعي أنها لم تُنشَر في حينها، بل ظلّت في مدرجة النسيان حتى طُبِعَ الديوان.

على أن أمد الشاعر لم يطل بمدارس الأوقاف، فقد تقلّد وزارة المعارف سنة ١٩٢١ جعفـر والي باشـا، وكان ذا اتصـال حميد بـأرباب الفكـر، وحَمَلَة الأقلام، فاغتنم الشاعر هذه السانحة، وتقدّم إليه آملاً في الأخذ بيده، وكان الوزير الأريحي عند ظنه الحسن به، فقد استصـدر أمراً من مجلس الـوزراء بنقله إلى التدريس في دار العلوم مـع إعفائـه من الكشف الطبّي، إذ كـان عبد المـطّلب يشكو ضعفـاً في إبصاره، ولا تَسَلْ عن فرحته بالعودة إلى التعليم العالي فقد جـاشت نفسه بقصيـدة تصوّر ارتياحه لما تمّ، وأزلف شكره إلى الوزير مخلصاً صادقاً في قوله:

أنـا الـروض حـيـاه ولـي بـديـمـة عـليـه بـأسبـاب الـحيـاة استـهـلت
عـداه الـرّدى أحيـا لمـصـر وأهلهـا مـآثـر من عهـد ابـن يحيـىٰ تـولّت
(جـزى الله عنّـا جعفـراً حيـن أزلقـت بـنـا نعـلنـا فـي الـواطئيـن فـزلّـت)

ولم يشغله التـدريس بـدار العلوم عن معـارك النقـد الأدبي، في أكثـر من مجـال، وأبرز مـا اشتهر بـه في ذلـك نقـده لكتـاب الشعـر الجـاهلي في مقـالات متتابعة، إذ تشعّب به النقاش فخاض المعركة الحامية بين القديم والجـديد، وأدلى بما لديه في كل ما زعمه خصوم القديم من مآخذ لم تصب عنده شاكِلَة الصـواب! وتلك صفحة صادقة من جهاد الشاعر الناقد، لم يقف عندها مَن ألمّوا بحديثـه، إذ حصروا كلامهم في مجاله الشعري فحسب.

أجـل، لقد دخـل محمد عبـد المطّلب التـاريخ الأدبي شـاعراً، لأن ديـوانـه مطبوع متـداول، فمَن أراد العكوف على دراسته شاعـراً وجد الـوثائق القـريبة بين يديه، تهيّـيء له ما يشتهي من ألوان الدراسة دون عناء، ولكن العناء الشديد يلحق مَن يريد أن يدرس عبد المطّلب باحثاً مُناقِشـاً، إذ امتلأت الصُّحُف اليـومية لعهـده

بفصوله النقدية، ولم يتح لها أن تجمع في كتاب، هذه الفصول الجادّة تبعثرت في المقطّم، والأهرام، والأخبار (الرافعية)، وكوكب الشرق، والبلاغ، إذ كانت في أكثرها صدىً مُعارضاً لما أذاعه صاحب الشعر الجاهلي من اتّهامات تعصف بالمقرّر المأثور من أحوال التراث الشعري في الجاهلية وصدر الإسلام.

وقد أخلص عبد المطّلب الدفاع فيما كتب، وذاعت بحوثه الضافية حين كتبها بين الناس، فاعتمد عليها كثيرٌ ممّن أُتيح لهم أن يناقشوا قضية الشعر الجاهلي، ردّاً على الدكتور طه حسين، وفيهم مَن سَطَا عليها بعد قرابة نصف قرن، مطمئناً إلى أن الجرائد اليومية في هذا الزمن البعيد نسبياً لا يتداولها القرّاء.

وقد ألقى الشاعر المحقّق على طلبته بدار العلوم، وقسم التخصّص العالي بالأزهر فصولاً متشابهة تردّ على هذه الاتّهامات، ولكنه أملاها دون أن يمتدّ بها إلى فضاء النشر المطبعي، فأصبح من العسير بعد هذا الأمد أن يقف عليها مَن يريد، وما استطعت الوقوف عليه من ردود عبد المطّلب يدلّ على اطّلاع شامل، وغيرة صادقة، لم تمنعه أن يعصم لسانه من القول اللاّذع، إذ رأى أن تكون الحقيقة الدّافعة، دافعة للباطل، ناهضة بالحق، وذلك لعمري مسلك نظيف، يدعو الباحث المُحايد إلى الإعجاب بمُناقِش غيور يكظم غيظه، حين يرى الأباطيل تُجلَب من كل جهة لتطمس نور الحقيقة، لا سيما إذا اتجهت هذه الأباطيل إلى أعزّ ما يحرص عليه المسلم وهو كتاب الله الكريم.

وإذا أراد القارىء مثالاً لبعض القضايا التي ناقشها الأستاذ عبد المطّلب، فإننا نوجز عناصر نقاشه للدكتور طه حسين فيما ذكره عن القراءات القرآنية، إذ بدأ الناقد فذكر النص الكامل كما جاء في كتاب الشعر الجاهلي، ثم أتبعه بما وصله به الدكتور من حديث تالٍ في كتاب الأدب الجاهلي، فحوى ما جاء في الكتابين، أن اختلاف القراءات في المفردات اللغوية أو في حركات البناء والإعراب أمر مُعضِل غير مفهوم، وأن هذه القراءات من أوضاع العرب أنفسهم، ولم تأتِ عن طريق التواتر، فهي ليست من وحي الله، ولا صلة بينها وبين حديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف».

وقد ردّ الأستاذ عبد المطّلب على ما قيل مبتدئاً بقوله:

«وهذا الكلام إذا جدّ جدّه يكون مفتاح الخطر على الإسلام والمسلمين في كتابهم، وفي دينهم وفي عقيدتهم؛ لأنه يؤدّي إلى انهدام القرآن، وانهدامه يؤدّي إلى انهدام الدين».

واتّسع المجال ليتحدّث الناقد بإفاضة عن المراد بحديث «أُنزل القرآن على سبعة أحرف»، فتتبع طرق الحديث في روايات بلغت خمساً وعشرين رواية، ذكرها جميعها بنصوصها المستوفاة، مستشهداً بآراء الثقات من أمثال: الطبري، وابن قتيبة، والرازي، وأبي حيّان، وابن الجزري، والسيوطي، والعسقلاني في تفسير المراد بهذه الأحرف، ليضع أمام القارىء ما اجتهد فيه علماء الأمة في شرح الحديث، ولينتهي إلى أن أحرف القرآن إنما نزلت بعد الهجرة للتيسير على الأمة في التلاوة رعياً لاختلاف اللهجات، وليس المراد أن يجري القرآن على حروف اللغة ولهجاتها كما يريد مَن يتلو الكتاب دون رعاية للمتواتر من هذه القراءات.

فلو قرأ كلّ تالٍ ما يشتهي لانجرّ الأمر إلى المحذور، فأُضيف إلى كتاب الله ما ليس فيه، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم حُرَّاصاً على المتواتر من هذه القراءات، اعتقاداً بأنها من عند الله، والرسول قد طلب التيسير بهذه الأحرف بعد الهجرة، إذ نزل القرآن بلغة قريش، ودخل الناس في دين الله أفواجاً من غير القرشيين، فمن التيسير عليهم أن يقرؤوا بما يستطيعون، والحديث النبوي من بعد هو الأساس الأول لهذه القراءات، بمعنى أنه يدلّ عليها، ويثبت تنزيلها، ويخطىء مَن يدّعي غير ذلك».

وتلك عناصر دقيقة لا بدّ لإيضاحها من الرجوع إلى الأصل في مجلة الهداية[1] ليشتفي الدارس بما يريد.

فإذا تركنا موضوع القراءات إلى الحديث عن اللغة التي نزل بها القرآن، فإننا نجد عبد المطّلب قد أماط اللثام عن زيف ما ادّعاه صاحب الشعر الجاهلي،

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، المجلد الثاني، ص ٣٠٧، سنة ١٣٤٨.

من أن الخلاف كان قوياً بين لغة عدنان، ولغة قحطان، وأن ما ينطق به أولئك وهؤلاء لغتان متميزتان، وكل أشعار قحطان لا تتصل بوجهٍ ما بأشعار عدنان في حروف الألفاظ وتركيب الكلمات، حتى ليصدق قول أبي عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير بلساننا وما لغتهم بلغتنا».

ولم يأْتِ الدكتور طٰه في هذا المجال بشيء من عنده، ولكنه نقل كلام المستشرق مرجليوث دون أن يعزوه إليه، ولصاحب هذا المقال بحث وافٍ عمّا قيل من ادّعاءات[1] وما سجّل من ردود، وقد كان عبد المطّلب ممّن واجهوا هذه الادّعاءات، وقد ذهب إلى أن الاختلاف كان شديداً في المبدأ، ولكن توالي الزمن وتتابع الرحلة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب في مدى عدة قرون، وقد أدّى إلى التقارب والامتزاج، حتى حصل التوافق قبل ظهور الإسلام بنحو قرنين، فأصبح شعراء العدنانية ينطقون بما يقوله شعراء القحطانية، دون أن تجد فرقاً بين قول وقول.

وإذن فالاختلاف في المبدأ هو الذي عناه أبو عمرو بن العلاء، وهو لا يمنع الاتفاق في الخاتمة بدوام الرحلة!.

على هذه المعاني دارت ردود الأستاذ محمد عبد المطّلب، وقد قرأها الدكتور طٰه حسين، ولكنه سكت عن الردّ، كما سكت عن أقوال جميع مُناقشيه، وقد انبرى الدكتور زكي مبارك وكان يومئذٍ من حواري الدكتور طٰه حسين لمناقشة الأستاذ عبد المطّلب وسجّل ما كتبه في مؤلّفه (البدائع) فأكد ما ذهب إليه الدكتور من وجوه الاختلاف، دون أن يفنّد الأصول التي قام عليها كلام الأستاذ محمد عبد المطّلب، وكان الدكتور زكي مبارك مهذباً في نقاشه، ولكنه لم يستطع أن يفنّد الوجهة المخالفة بالدليل.

نعود بعد هذه النظرة العاجلة إلى شذور من جهاد الأستاذ في مضمار النقد الأدبي، إلى تتمة الحديث عن شعره، فنذكر أن هيامه بعصور العربية الأولى قد

---

(١) موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي، للدكتور محمد رجب البيومي، ص ٩٤ وما بعدها.

دفعه إلى التمسّك بالمنحى القديم في أسلوبه الشعري، وقد ألِفَ منه السامعون ذلك فاستملحوه وقدّروه، وربما أحسّ غير الدّارسين منهم بارتقاء في تفكيره، إذ واجه ما يشبه شعر الفحول، وصبر على فهمه، وما أُقيمت حفلة شعرية إلاّ صدق الشاعر الكبير ظنّ سامِعِيه، باعتباره ممثّلاً للشعر القديم.

ففي الحفلة التي بويع فيها شوقي بإمارة الشعر، وقف عبد المطّلب يلقي قصيدته فهمس الأستاذ شبلي الملاط في أُذن الشاعر خليل مطران، وكانا من شعراء الحفل ويجلسان متجاورين، همس الشاعر شبلي ملاط يقول لصاحبه: سنسمع الآن امرأ القيس! وتكلم عبد المطّلب فبدأ قصيدته قائلاً:

تأوبني والليل بالصبح مزعج	خيال له في حندس الهمّ منهج
يكلّف جفني الغرار لعله	إلى النفس في طيّ الكرى يتدرّج
ويعذلني في السّهد يا طيف رحمة	فإني إلى زور الكرى منك أحوج
طليح أسى لو أن بالليل همّه	يضيق له صدر الظلام فيخرج
إذا ما بكى أبكى الحمام على الرّبى	ألم ترها في لحنها تتهدّج
وأرّقني من جانب الروض نفحة	بأنفاسها ريح الصبا تتأرج
وما شغلت عيني عن النوم صبوة	بها شاقني طرف من العين أبرج
ولم ينسني حظّي من الحلم والنّهى	جبين يروع الشمس بالحُسْن أبلج
ولا بات يغريني بمعسوله اللمى	إذا ابتسمت ذاك الجمان المفلج
لويت زمام النفس عن سُنن الهوى	وخليت أتراب الهوى حيث عرجوا
ورحت إلى ما يشتهي المجد للفتى	وأدلجت في ركب العُلا يوم أدلجوا

وتوالى القول على هذا النسق الجزل البديع.

وكم كان مظهر الشاعر البدوي رائعاً يوم ألقى قصيدته العلوية بمدرج الجامعة المصرية في حفل حاشد، رأسه شيخ شعراء مصر إسماعيل صبري باشا، وقد ركب عبد المطّلب ناقته، وأخذ بزمامها شيخ العرب عبد الستّار الباسل في زيّه البدوي، ومضى ينشد في مجلسه فوق السنام متشبهاً بأجداده البادين.

وكان الحفل الزاخر مأخوذاً بما يرى ويسمع معاً! فهذا أعرابي فوق ناقته وقد ارتدى عباءته ولبس العقال! وهذا شيخ العرب يقود الزمام في صورة تمثّل على المسرح مشهداً من ألف عام! ولقد طال نفس الشاعر حتى جاوزت القصيدة أربعمائة بيت من خالص الشعر العربي الرصين، وهي ملحمة تاريخية تمتلىء إعجاباً بالبطولة الإسلامية ممثّلة في عليّ بن أبي طالب، وقد بدأ الشاعر علويته متحدّثاً عن طائرة تشقّ عنان الفضاء سابحة في أجوائه، وقد امتطاها ابن الأرض حين استصغر مقامه فيها فرام الصعود إلى السماء.

هذا الذي عناه عبد المطّلب إذ بدأ ملحمته التاريخية قائلاً:

أرى ابن الأرض أصغرها مقاماً ... فهل جعل النجوم بها مراما

زهاه رونق الخضراء لما ... تلفت في مجرتها وشاما

فشدّ على كواكبها مغيرا ... وحلق في جوانبها وحاما

على نبت الهواء كأن طيفاً ... يشقّ الجوّ يقطعه لماما

إذا ما هزمت في الجوّ خلنا ... جبال النجم تنهدّ انهداما

وإن زجر الرياح جرت رخاءً ... وولّت حيث يأمرها الزماما

يسفّ على الثرى طوراً وطوراً ... تراه على الذرى شقّ الغماما

أجدك ما النياق وما سراها ... تخوض بها المَهَامِهَ والأكاما

وما قطر البخار إذا استقلت ... بها النيران تضطرم اضطراما

فهب لي ذات أجنحة لعلّي ... بها ألقى على السّحب الإماما

إمام بني الهدى وهو ابن تسع ... وأول مسلم صلّى وصاما

أبا السبطين كيف تَفِي المعاني ... نثاراً في مديحك أو نظاما

مقام دونه نُجُب القوافي ... وإن كانت مسوّمة كراما

فحسبك يا أخا الشعراء عذراً ... رميت بها مكاناً لن يراما

وقد راعى الشاعر الترتيب التاريخي في المجموع لا في الجميع، لأنه بدأ بالحديث عن نشأة عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ في صباه وإسلامه، وتحدّث عن كيد المشركين بمكة، ثم عن استخلافه ليلة الهجرة حين بات على فراش رسول الله،

وتابع القول في دور علي الخالد في الكفاح الإسلامي الشاقّ بغزوات الرسول، ببدر، وأُحُد، والخندق، وخيبر، ولم يفته أن يتحدّث عن زواج الإمام بفاطمة الزهراء تلك التي:

تفيض على منصّتها وقاراً وتكسو حُسْن طلعتها وساما

وطبيعي أن يتحدّث بإشباع عن صفات علي الخلقية والجسمية، وأن يصوّر مأساة استشهاد عثمان ـ رضي الله عنه ـ وما تلاها من قيام الإمام بالخلافة، ومعركتي الجمل وصفّين في نسجٍ ضافٍ، ونفس ممتد يجد زمام القول في كفّه سَلِساً سهلاً دون اعتساف.

وقد وقف عبد المطّلب مستأنياً في مشاهد كثيرة، وتعجّل في بعض المواقف، ومما اتأد فيه اتئاداً يدعو إلى التأمّل والمعاودة، ما رسمه عن بعض مشاهد غزوة الخندق، حين تعرّض لموقف علي من بطل قريش عمرو بن ود، فرسم هواجس عمرو، وقد أتى مندفعاً للانتقام، تعجّل به الحفيظة الثائرة على نسوة من قريش أكلن لحمه، لتقاعسه يوم بدر، وهو البطل المعلم الذي شهد الوقائع منتصراً، رفاف العلم في دهره الأطول.

وهنا يخاطب عمرو نفسه إذ يصارحها بهناته حين قصّر في يوم بدر، ويدعوها إلى الإقدام كي تحتسي كأساً لا يعلم نهاية أمرها معه، منتقلاً إلى مخاطبة مُهْرِهِ داعياً إياه إلى الثبات في حومة القتال، حتى إذا تملأ عمرو من حماسته واستعدّ للمبارزة صاح بأعدائه من المسلمين كي يشخص إليه المبارز، فتغلي الحمية في صدر علي على صغره بالنسبة إلى عمرو، وينهض لمُنازلة البطل الصوال، وعين الرسول تحوطه مُشفِقَة راحِمة، إذ يدعوه إلى التريّث تاركاً الموقف لمَن هو أسنّ منه! ولكن دعوة عمرو تتعالى ولا يتقدّم أحد، فيتحمّس علي، ويستأذن رسول الله، فيستجيب داعياً، ويقلّده ذا الفقار ليأتي بالنصر حين يتمّ على يديه مصرع عمرو! لقد كان عبد المطّلب بارع التصوير حين رسم ذلك كله قائلاً:

فذاك ولو ترى إذ جاب عمرو على الإسلام خندقه اقتحاما
يدافع نفسه ولها غطيط حذار الموت تنتهم انتهاما

ردى حسبي هنات يوم بدر | بها ألبستني ذمّاً وذاما
لقد أكلت نساء الحيّ عرضي | فلا لحماً تركن ولا عظاما
ملأن بِطاح مكة بي حديثاً | مسخن به مناقبي القدامى
يقلن وما درين مكان عمرو | وشهب الموت ترجمه ارتجاما
قضى تسعين يختدم المنايا | فتسعى نحو صارمه اختداما
فلما شام بارقة المواضي | ببدر حار من فرق وخاما
ستنسيهنّ ماضيه المخازي | وتبهرهنّ أحداثي إذا ما
فويحك أقدمي يا نفس إني | خلقت لكل مكرمة قدامى
أمام وهل أمامي غير كأس | تدور بها الندامة لا الندامى
ويا مهري مجالك دون سلع | هلا، فالمجد أن تمضي أماما
فجال مُنازلاً ودعا مدلاً | فغمّ الهول حين دعا وغاما
نزال بني الهدى هل من كميٍّ | يسوم الخلد بالنفس استياما
يردّدها فيحجم عنه قوم | وإن كانوا القساورة الكراما
هنالك لو ترى الكرار لما | تصبب في حميّته جماما
إذا ما همّ أقعده أخوه | وزاد إلى اللقاء جوىً فقاما
مكانك يا علي فذاك عمرو | وإن لكل ذات جنى جراما
فقال وإن يكن عمرو فدعني | رسول الله ألجمه الحساما
وما عمرو، ومَن أنا، ما غنائي | إذا لم أروِ منه صدىً وهاما
فلم يكُ غير أن فلق ابن ودّ | وخاض السيف في دمه وعاما

وهكذا وُفِّق شاعر البادية في ملحمته تاريخاً وتصويراً ولمحاً ومُناجاة!.

أما أخلاقه فتسفر واضحة فيما سبق أن سطّرناه، فهو عفّ اللسان، صلب العقيدة، متمسّكاً بتقاليد قومه، داعياً إلى الله باللسان والقلم.

قال الأستاذ أحمد السكندري في محفل تأبينه: «وكان شديد العصبية لسلف هذه الأمة، وقوّادها وعلمائها وشعرائها، فلا يكاد يسمع بحديث مُزْرٍ عليها، أو

غـاضٍّ من كرامتهـا، حتى يغضب لهـا غضبـة الليث الهصـور وينتفض لـه تـزييفـاً وتهجمناً، شعراً وكتابةً وخطابةً».

وقد انتدب سنة ١٩٢٨ للتدريس في تخصّص اللغة العربية بالأزهر، وظلّ به حتى لقي ربّه، وكان قد أحيل إلى المعاش من دار العلوم قبل وفـاته بشهـر واحد، وحين جـاءه اليقين، خرجت الـدنيا تشيّعـه في محفل مهيب، التقى فيـه أصدقـاؤه وتلاميذه باكين، ورأى الناس الوفاء للأدب والعلم متمثّلاً في مشهـده الأخير، وقـد وصفه الهراوي فقال باكياً:

لـقـد مشـت الـدنيـا وراءك خُـشّـعـاً   ومـا كنت فـي سلطان حـلٍّ ولا عـقـد
ألا إنـهـا كـانـت قـلوبـاً تـدافعـت   على الـودّ تمشي حول نعشـك في حشد

رحمه الله.

عبد المتعال الصعيدي
العـــــالِم الأديـــب المُصلِح

- ١ -

ترجم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي لنفسه تـرجمة وافيـة في كتابيـه: (قضية مجـاهد في الإصـلاح) و(تاريـخ الإصلاح في الأزهـر) وحديث الأستـاذ عن نفسـه يُنبىء عن شكوى متكررة لمـا نالـه من غمط، إذا قُورِنَ بـزملائـه ممّن تبوؤوا أعلى المنـاصب دون أن يقدّمـوا في عالم التـأليف بعض ما قـدّم، فإذا أُضيف إلى ذلـك تعرّضه للمساءلة الرسمية ومـا أعقبها من حكم يـراه مُجحِفاً بحقـه، فإننـا نعذره في التنفيس عن بعض ما يكن.

وقد كان الرجل مرموق المكانة بين زملائه وتلاميذه، ولـه في المحيط الأدبي ذكر مسموع يمتد حيث تمتد المجلّات العلمية الـراقية في مصـر والعالم العـربي، وكـان عليه أن يعلم أن نبـاهة الـذكر العلمي أعلى قـدراً من نباهـة المنصب إذا لـم تؤيّده جهود علمية تصون منزلته.

وقـد تتلمذت على الأستـاذ في كلية اللغـة العربيـة بالأزهـر، وعرفت جهـده العلمي بها، إذ كان أستاذاً مرموقاً لـلأدب العربي حين التحق بـالتدريس فيهـا، ثم اختير لدراسة البلاغـة، فالحـديث، فالفلسفـة، فالمنـطق، وله في كـل علم كتاب ذائـع، فإذا كـان الأستاذ متعـدّد المعارف، متنـوّع المواهب، يتصـدّى للتـدريس، فـالتأليف في علوم شتّى لا تنتمي إلى أصـل واحـد، فله أن يحمـد الله كثيـراً على

ثروته العلمية، ولكن مُلابسات الترقيات، واختلاف درجات الصعود والهبوط، تترك الأثر المؤلم ـ حقاً ـ في نفس مَن يرى أنه لم يبلغ مبلغ مَن قصروا في التأليف العلمي، مؤثرين التبريز في المسائل الإدارية وحدها!.

ومَن يدري لعلّ تفرّغ الأستاذ للعمل العلمي وحده هو الذي بارك وقته، وعدّد مؤلّفاته، فلو ابتلى بالرئاسات الإدارية ما أُتيح له أن يكتب أكثر من عشرين مؤلّفاً، والإمام المراغي زعيم الإصلاح الديني في عصره مع حدّة ذكائه، ووفرة علمه، ونصاعة بيانه، لم يترك من المؤلّفات ما يكافىء منزلته العلمية، وإمامته الفقهية، لأن أعباء المنصب قد ملأت فراغه، فإذا كتب أو حاضَرَ أو خطب فعن اضطرار.

نشأ الأستاذ الصعيدي نشأة موفّقة، إذ أسّس في القرية على أصول نافعة في يقظة الذّهن، وحُسْن التربية، وحين التحق بالأزهر، أفادته نشأته العلمية في القرية، فوثب في سنوات الدراسة، مجتازاً بعضها، إذ كانت قوانين الأزهر إذ ذاك تسمح بالتقدّم للشهادات النهائية دون التزام بالنظام الرتيب فلطالب السنة الأولى في القسم الثانوي أن يتقدّم لامتحان الشهادة الثانوية مثلاً، دون مراعاة لتكميل السنوات.

وقد تقدّم الطالب فجلى وسبق، ونال العالمية في أمَدٍ قريبٍ، وكان ترتيبه الأول على الطلاب فعُيّن مُدَرّساً بالمعهد الأحمدي لعامه، وقد زاول التأليف في السنة الأولى لتعيينه، فأصدر مؤلّفاً في النحو يجري على غير السَّنن المألوف في دراسة هذا العلم للمبتدىء بالأزهر، إذ كان متن الأجرومية وشرح الكفراوي أول ما يدرس الطالب المبتدىء.

وقد بُدِىء المتن بقول ابن آجروم: (الكلام هو اللفظ المركّب المفيد بالوضع) وهو تعريف تمتدّ شروحه في كتاب الكفراوي لتشمل مسائل من المنطق وما يُعرَف بإخراج المحترزات! وأين عقل المبتدىء من هذا كله، لذلك رأى الأستاذ الصعيدي أن يؤلّف في النحو كتاباً على الطريقة الاستنتاجية.

وقد ذكر في ترجمته الشخصية أنه سبق بذلك كتاب: (النحو الواضح) للأستاذ الجارم، وليس لدينا اليوم كتاب الصعيدي حتى نفصل بين الكتابين بما يبيّن فضل السابق، وإن كنت أعرف أن الأستاذ حفني ناصف وكوكبة من زملائه قد بدؤوا بتذليل التأليف النحوي في أول هذا القرن، فشاع لهم كتاب ذو أجزاء تحت عنوان: (قواعد اللغة العربية) ومهما يكن من شيء فالصعيدي هو السابق قطعاً في مضمار التذليل النحوي في محيط الأزهر! وتلك سابِقة تُحسَب له، وله مقال جيد نشره في: (المجلة الأزهرية) سنة ١٩٢٤ تحت عنوان (نظرات في متن الأجرومية) يقول فيه[١]:

«إننا لا نزال ندرِّس متن الأجرومية للمبتدئين في النحو، على حين أن غيرنا من رجال التعليم في مصر وغيرها قد هجروه من عشرات السنين، فقد جاء في كثيرٍ من أبوابه مجملاً إلى حدٍّ يضيع معه الغرض المقصود من تدريسه، هذا إلى ما في تعليم المبتدئين بطريقة شرح المتون من تصعيب، لأنه يصرف المعلّم عن اختيار أسهل الطرق لفهم مسائل العلوم وتقيّده باختيار أسهلها إلى فهم المتون».

ولم يكن النحو في دراسة الأزهر وحده ميدان نقده، بل اتجه إلى إصلاح شامل لنظام التعليم بالأزهر، فأصدر الأستاذ الصعيدي في سنة ١٩٢٤ كتاباً مستقلاً تحت عنوان: (نقد نظام التعليم الحديث بالأزهر) قدّم له بدراسة عن قانون التخصّص بالقسم العالي، ثم عن فائدة العلوم الحديثة بالنظر إلى الطالب الأزهري الذي يرى طلبة المدرسة يعلمون ما لا يعلم من المواد الثقافية والحضارية.

أما أهم ما اتّجه إليه الأستاذ من النقد فهو: حملته على كتب المتأخّرين ذات المتون والحواشي والشروح والتقارير، لأن دراستها تقوم على أساس من فهم عبارة المتن، ثم توجيه الاعتراضات إليها، ومحاولة تبرير القول المنقود.

أما الوصول إلى لُباب القاعدة العلمية فلا يصل إليه الطالب إلّا بعد عناء طويل في فهم المُماحكات، وقد لا يصل في طوفان يعمّه من نواحٍ كثيرة، وهو

---

(١) تاريخ الإصلاح في الأزهر، جـ١، ص ٢٥٦.

لا يزال طالباً مبتدئاً، كما أن هذه الكتب تنهج نهجاً واحداً في التأليف، بحيث يجد الطالب في السنوات الابتدائية ما يجده في السنوات التالية، فهي لا تتدرّج بالطالب من عهد إلى عهد، بل تأخذ المبتدئين بأساليب المنتهين.

وقد كان أسلوبها الجافّ حائلاً دون ثقافة الطالب بالتعبير الجيد، حيث لا يستطيع مَن اقتصر عليها من الطلاب أن يجد مدداً قوياً لأسلوبه العلمي، وبذلك يعجز عن تحرير مسألة، فإذا صار عالِماً عجز عن كتابة مقالة يطالعها الجمهور في نصاعة وبيان.

أما طريقة التدريس فلا تستند إلى أساليب التربية الحديثة، ولا تنتفع بثمار المتخصّصين في شؤون التعليم ممّن نهلوا من الثقافة المعاصرة، وأدركوا أثر علم النفس في تفهّم عقلية الطالب، والاهتداء إلى ما يكفل تنمية المواهب، وتربية الملكات، كما أن التخصّص مفقود بحيث يدرس الأستاذ الواحد مسائل الفقه والأصول والتوحيد والبلاغة والنحو والصرف معاً، وتفرّق جهوده في شتّى العلوم يجعله سطحياً في جميعها، والأولى أن يجيد شُعبة واحدة من شُعَب الدراسة، ليعكف على تعمّقها، والإجادة في علومها، وقد يسعفه الذكاء بابتكار الجديد، وخاصّةً لمؤلّف حوىٰ كثيراً من مسائل الامتحانات بالأزهر، وطريقة الانتساب إليه، كما أشار بضرورة تعليم اللغات الأجنبية لتمدّ الطالب بسلاح المعرفة في عصره المتطوّر، وتجعل من الأزهري داعية للدين في بلاد لا تعرف اللسان العربي!.

وكلّ ما أشار به المؤلّف في سنة ١٩٢٤ قد وجد تنفيذه فيما بعد، مما يدلّ على سَداد النظرة، وصواب الاتجاه! ولكن صدور هذا الكتاب في زمنه المضطرب قد أثار ثائرة الخصوم، فعارضه مُدَرّسو الجامع الأحمدي، وعقد مجلس إدارة المعهد الديني جلسة خاصّة بمحاكمة الأستاذ الصعيدي بدفع قانوني يُشير إلى ما أباحته اللائحة الداخلية من حق المدرّسين في نقد المناهج التعليمية، وهو حقٌّ مُشتَهِر لا يجوز إنكاره.

ولكن الضجيج الصاخب حول الكتاب دفع بالمسؤولين إلى عقاب المؤلّف بخصم نصف مرَتّبه الشهري! وهو إجراء كان من الأوفق العدول عنه لأن الرجل قد

نقد المنهج باعتباره مُدَرِّساً يضع يده في النار، ويعرف أسباب القصور في تـدريس كثيرٍ من المواد!، ولكن حكم المسؤولين وجد المعارضة في الصُّحُف من كبار العلماء بالأزهر، ومنهم الأساتذة يوسف الدجوي، وعلي سرور الزنكلوني، وعلي محفوظ، وقام الخطيب الأزهري الشيخ مصطفى القاياتي بكتابة مقالٍ قوي في تأييد وجهة المؤلّف وتحبيذه، ويشير إلى مبلغ اهتمامه بالأزهر، وحرصه على نفع الطلاب، وتفانيه في خدمة الإسلام، ومقال الأستاذ القاياتي مُسَجّل بكتاب تاريخ الإصلاح ص ٩٨.

ويقول الأستاذ الصعيدي إن دفاع المخلصين عنه قد نجّاه من شرٍّ كبيرٍ، إذ كانوا يتّجهون إلى فصله من وظيفته! وما أظن ذلك، فخصم نصف المرتّب الشهري يدلّ على أن اللجنة لم تستشعر خطورة تبعث على الفصل!، ولكن حكمها قد آلم الأستاذ وحقّ له أن يألم!، إذ كوفىء على اجتهاده بغير ما يليق.

ثم جاء عهد الإمام المراغي، وكتب مذكّرته الإصلاحية ففرح بها قوم، وتنكّر لها قوم، وامتلأت الصُّحُف بالحديث عن رأي المراغي في الإصلاح، وإصراره عليه، وكان الأستاذ الصعيدي من مؤيّدي الإمام المراغي، فنهض للردّ على مُعارِضيه في مقالات متسلسلة نشرها الأستاذ أمين الرافعي في جريدة الأخبار سنة ١٩٢٨، وفنّد رأي مَن يقول من هؤلاء ـ وهو الشيخ عبد الرحمن عليش ـ إن الإسلام لا يطلب من أهله معرفة كل شيء في الحياة، منكراً تدريس العلوم الحديثة، فأورد الصعيدي من آيات القرآن ما يوجِب النظر في أمور الكون وما في السمٰوات والأرض من ظواهر طبيعية، وهي آيات مشتهرة لا ينكرها أحد.

كما ردّ على هجومه الصارخ على تدريس الفلسفة فذكر من كتب الأثبات في التراث الإسلامي ما يعضد منحاه، وأكبر ما اهتمّ به الصعيدي في الردّ على عليش هو إنكاره للاجتهاد مخافة أن يدّعيه الجهلاء، فقال الصعيدي: إن هذا الخوف كان موجوداً في عهد أبي حنيفة، والشافعي، ومالك، من كبار المجتهدين، ولم يُوصَد باب الاجتهاد بسببه.

أمـا ما ذكـره المراغي من عكـوف الأزهريين في عصـور التدهـور على كتب لفظية لا تفيض بروح البحث، فقد حبّذه الصعيدي، وضرب الأمثلة عليه بكثيـرٍ من المؤلّفات ذات الجدل اللفظي.

وكذلك عارض الشيخ عليش الدراسة المقـارنة لـلأديان لأنهـا في رأيه تبعث على التعصّب، وتفتح باب الجـدل بين رجال الـدين الإسلامي وغيـرهم من رجال الدين المسيحي، ناسياً أن المبشّرين قد فتحوا هذا الباب على مصراعيه، فهاجموا الإسلام في موطن الأزهـر بما يـدعو إلى ردّ الخـطأ عن الصواب، ولن يكـون ذلك بغير الدراسة المقارنة للأديان.

وهكذا وجد الشيخ المراغي نصيراً قوياً في قلم الأستاذ الصعيـدي! على أنه كان ذا استقلال حرّ حين سجّل ما لم يرضَ عنـه في مذكّـرة الشيخ الأكبـر، إذ رأى أنها تحبّذ دراسة بعض الكتب القديمة، في حين يدعو الصعيدي إلى تأليف معاصر يضعه الأساتذة، كل عالم في مادته لتتجدّد المحاضرات العلمية بتجدّد التـدريس، على أن تكون كتب التراث مرجعاً أساسياً، لا أن تكون وحدها مجال التدريس!.

ويخيّل إليَّ أن المسألة ليست مسألة قِدَم أو حداثة في اختيار الكتاب المنشود لطلاب الأزهر، ولكن المسألة هي اختيار المؤلّف الجيّد ذي البحث الدارس والنظر الصائب، سواء كان كاتبه مُعاصِراً أو غابراً، فالإصرار على الكتاب الحـديث وحده تشدّد لا مبرّر له وبخاصّـة إذا لم تهيّـىء الظروف لبعض الأسـاتذة أن يبـدعوا على نمط يفوق نِتاج الأقدمين، وحينئذٍ لا مَحيـد عن الاحتفاء بكتب التـراث في قاعـات الدرس، لا أن تكون مصادر بعيدة عن أيدي الطلاب.

وقد نوّه الإمام المراغي في مـذكّرتـه الإصلاحيـة بما في الكتب القـديمة من بعض المزايا، فهي تدرّب الطلاب على البحث وتمنحهم طـول الباع في الجـدل، وتفرض عليهم التعمّق في فهم الكلمة ومدلولها ومنطوقها ومفهومها، إذ ليست كلها مُماحكات لفظية تدور حول المتن في الشـرح والحاشيـة والتقريـر، كما أنهـا تمثّل حقبـة طويلة من تـاريخنا لا يجـوز لنا أن ننسـاها أو نهملهـا، مع اعتـراف الأستـاذ الصعيدي بذلك كله فإنه يقول تعقيباً عليه:

«ولكن تقديرنا لمثل هذه الكتب لا يمكن أن يغيّر رأينا فيها إذ لا تصلح أساساً للدراسة في الأزهر، لأن بها من العيوب أضعاف ما بها من المنافع، ولو لم يكن فيها إلّا التربية على القديم دون التجديد لكفى، ومع هذا لا نمانع في أن يدرس الطالب المنتهي كتاباً منها على الطريقة الأزهرية القديمة، حتى يكون ذا استعداد لفهمها، وحتى يمكنه أن يستخلص منها ما بها من الفوائد، وبهذا لا تهمل كل الإهمال».

ثم يلج الأستاذ الصعيدي باب الإنصاف إذ يتابع حديثه قائلًا: وإني أُضيف إلى ما ذكره الشيخ المراغي من مزايا الأزهر القديم مزية أخرى كان لها أثر في تدريب الطلاب على الصبر والبحث والتعمّق في الدرس، وطول الباع في الجدل، وهي ما كان من مشاركة الطلاب للأستاذ في الاستعداد للدرس الجديد، إذ كان المدرّس ينبّه الطلاب حين ينتهي من درسه إلى درس الغد، ليستعدّوا له أيضاً، فكانوا يجلسون جماعات جماعات ويأخذون في مطالعة دروس الغد إلى أن يمضي زمن طويل من الليل، ومنهم مَن كان يتعمّق في فهم الدرس مثل أستاذه أو أكثر، وهنا يكون الدرس درس أساتذة لا درس أستاذ وطلاب، وهنا يدور الجدل بين الأستاذ وطلبته، ويحتدم النقاش حتى يقتل الدرس بحثاً ونقاشاً[١].

وكان لهذه الطريقة أثرها الخلقي في استقامة الطلاب وانصرافهم عن كل شيء إلّا العلم، ولهذا كان الناس ينظرون إليهم بعين التبجيل، ولا يبخلون عليهم بما يستحقّونه من التعظيم، أما الآن فلا أثر لهذه الطريقة بالأزهر إذ انصرف الطلاب إلى سواها.

وقد أراد الصعيدي أن يتحدّث عن سلف عظيم من علماء الإسلام، يدعو إلى البحث الحرّ دون التقيّد بألفاظ الكتب ومحاولة الاعتراض عليها ثم الجواب بما يدفع الاعتراض، فكتب فصلاً عن ابن خلدون، يفصل اعتراضه على ما سمّاه كتب الأعاجم، داعياً إلى طريقة القدماء من أمثال: الغزالي في الاستفاضة، والإمتاع والاستقصاء، ومؤثراً أن يكون الطالب فسيح الآمال، متشعّب المعارف،

(١) تاريخ الإصلاح في الأزهر، جـ ٢، ص ٣٠.

بحيث يكـون الكون الشـاسع ميـدان بحثه، لا أن تضيق عليـه الحلقة بين المتـون والشروح، حتى ألّف بعضهم كتاباً في إعراب (زيد قائم) فجعل لهذه الجملة مـائة وثـلاثين بحثـاً، وليت شعـري أيّ عنـاء كـابـده هــذا المعـرب حتى افتعــل هـذه الأعاريب.

يقول الأستاذ الصعيدي:

«ولكن ابن خلدون لم يجـد مَن يسمـع لـه في عصـره، فــلا نسيـر في تلك الطريقة العقيمة التي ينقدهـا، وتسير أوروبـا في البحث الفلسفي في كتاب الكـون فتتقدّم، ونصل إلى ذلك التأخّر الذي وصلنا إليه».

ولعلّ ما لدينا الآن من الكتب الأزهرية بعد أن خاض الأساتذة ميادين التأليف على النسق المبتكـر، يدعـو إلى مـوازنـة مُنصِفَـة بين كتب التـراث، وكتب التعليم الجامعي الحديث، مع الاعتراف بأن كليهما مكمّل للآخر وأن النبع يـرفد المصبّ بمائه الغزير.

تعـدّدت مؤلّفات الأستـاذ الصعيدي، وتنـوّعت موادّهـا إذ كان مُلِمّـاً بنـواحي الثقافة الإسلامية في أظهر ميادينها، وله في كل مادة درسها رأي يجمع الطريف إلى التليد.

لقـد ألّف الأستاذ في التشـريع الإسـلامي وفي الأدب العربي، وفي التـاريخ الإسلامي، كما وقف على نشر بعض كتب التراث، وقـام بالتعليق عليهـا، موجـزاً تارةً، ومُسهِباً تارةً أخرى، ومحاولة استقصـاء كل مـا كتب الأستاذ من مؤلّفـات مما يضيق بـه هذا المجـال، وهذا غيـر مقالاتـه التي لم تُجمَع في كتب خـاصّة، وهي كثيرة كثيرة، لأن الأستاذ كان مُجادِلاً مُقاوِلاً، ما يكاد يطالع في صحيفة علمية بحثـاً ذا أهمية، حتى يلهمه من الخواطر ما يدفعه إلى التعليق.

وقـد جادل كثيـراً من أعلام العصـر على صفحـات الـرسـالـة، نـذكـر منهم الأسـاتذة: عبـد الحميد العبـادي، وعباس محمـود العقّاد، وزكي مبـارك، ومحمد أحمـد الغمراوي، وعلي عبـد الواحـد وافي، وغيرهم وليس الجـدال ذا بال إذا لم

يكن في مسائل جوهرية، وكان صاحبه ضليع الرأي ثاقب النظر فسيح الصدر، وهكذا كان الأستاذ الصعيدي في أكثر ما خاض.

ونبدأ بالإلمام ببعض بحوثه في مسائل التشريع الإسلامي، إذ جالَ جولات موفّقة في إيضاح مَحامِد الشريعة، وبيان مرونتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وله كتاب مستقل تحت عنوان: (في ميدان الاجتهاد) بدأه ببحث شافٍ هادف عن ضرورة الاجتهاد في مسائل التشريع، بعد أن أوصدت القرون المتأخرة بابه، وأفتى علماؤها بوجوب التقليد نظراً لغياب المجتهد، فبيّن أن باب الاجتهاد كان مفتوحاً في عهد السّلف، وفي ميدانه ظهرت آراء السابقين من أئمة المذاهب الدينية.

ثم أُنشئت المدارس الفقهية الرسمية ابتداءً من سنة ٤٥٠ هـ كالمدرسة البيهقية، والمدرسة السعيدية بنيسابور، والمدرسة النظامية ببغداد، فحدّدت المذاهب التي لا يجوز أن ينظر الطلاب في غيرها، فكان ذلك خطوة أولى في التضييق التشريعي.

وحين جاء صلاح الدين إلى مصر بنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦، والمدرسة الصلاحية سنة ٥٧٢، وخصّهما بتدريس الفقه على مذهب الشافعي وحده، ثم رأى أن ينشىء مدرسة ثالثة لتدريس الفقه الحنفي، فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس في عصر المماليك عيّن قضاة للمذاهب الأربعة، وجعل الدروس الفقهية لا تحيد عنها بحال في كل مدارس القاهرة والإسكندرية وغيرهما.

يقول الأُستاذ الصعيدي: «وفي هذه المدارس أقفل باب الاجتهاد، وقبرت المذاهب الفقهية عدا المذاهب الأربعة، وقد كانت هناك مذاهب كثيرة لأهل السُّنّة والجماعة، بقي بعضها إلى القرنين السابع والثامن، ومن هذه المذاهب مذهب البصري والثوري ولم يُعمل بهما أمداً طويلاً لقلّة أتباعهما، ومذهب الأوزاعي وقد بطل العمل به بعد القرن الثاني للهجرة، ومذهب أبي ثور وقد بطل العمل به بعد القرن الثالث، ومذهب ابن جرير الطبري وقد بطل العمل به بعد القرن الرابع، ومذهب الظاهري وقد طال أمد بقائه حتى القرن الثامن».

وهذا القول يدلّ على أن هذه المذاهب الفقهية قد دُرِسَت قبل إنشاء المدارس ولم يتح البقاء لغير المذهب الظاهري بعد إنشائها. فقول الأستاذ إن إنشاء المدارس الفقهية ابتداءً من سنة ٤٥٠ هـ قد أضعف ميدان الاجتهاد حين فرض التدريس بمذهب خاص، لا يخلو من نظر، إذ إن هذه المدارس المُندَرسة لم تكن ذات أتباع ومؤلّفات حينئذٍ، وإنما كان الذيوع لغيرها.

وإذا كان من الفقهاء مَن تعصّب لمذهبه، فمنهم لا محالة مَن خَلاَ من روح التعصّب، ونظر في آراء المذاهب السائدة، وقام لديه ترجيح ما يختار.

وإذا كان منشئو المدارس من الحكّام والوزراء قد فرضوا مذهباً فقهياً خاصّاً بالتدريس! فلم يمنعوا فقهاء غير هذه المدارس من التأليف الفقهي كما يشاؤون! ولم يمنعوا الاجتهاد في حدود المذهب أو خارجه كما يقال، ولكن جمود الفقهاء على المتوارث من الأقوال في العصور المتأخرة، قد أوقف النّماء الفكري لمسائل الفقه، إذ لم نجد غير أفراد قلائل شاركوا بالرأي الصائب في مسائل التشريع.

ونحن الآن في القرن العشرين نرى الداعي مُلحِفاً مُلِحّاً في وجوب النظر الفقهي المطلق، دون تقييد بمنحىً خاصّ إلّا بالدليل الواضح من كتاب الله وسُنّة الرسول، وما يتّسع به المجال من القياس.

وقد دعا الأستاذ الأكبر: محمد مصطفى المراغي إلى ضرورة الاجتهاد، ولاقى من المُعارضين حملات كثيرة ساعدت الصُّحُف المُغرِضة على إثارتها، ولكنه وجد من أبناء الأزهر مَن أيّدوه وآزروه، وكان الأستاذ الصعيدي في طليعة هؤلاء المؤيّدين، ولكنه عارض الأستاذ المراغي حين ألّف لجنة الفتوى بالأزهر وحدّد لها محيط الإفتاء، حين فرض أن تجيب اللجنة طالب الفتوى على المذهب الفقهي الذي يحدّده المستفتي، فإذا لم يعيّن مذهباً خاصّاً أجابته بحكم الله المؤيّد بالأدلّة من غير تقييد بمذهب من المذاهب الشرعية.

يقول الأستاذ الصعيدي تعقيباً على ذلك ما فحواه: إن الخضوع لإرادة المستفتي في تحديد مذهب خاصّ غير وارد، إذ على اللجنة أن تفتي بما يترجّح

لديها دون اعتبار آخر، فإذا ثبت لديها بالدليل ترجيح حكم على حكم هتفت به دون رعاية لميل خاص، ثم أفاض الأستاذ في الحديث عن أصول الاجتهاد، وهي معروفة مشتهرة، ودعا إلى تأليف موسوعة جامعة لمسائل الفقه في شتّى المسائل الإسلامية دون الاقتصار على المذاهب الأربعة، لتكون هذه المسائل قريبة من الأفهام، ومجالاً للترجيح والنقد، مما يُعَدّ خطوة أولى لفتح باب الاجتهاد، ثم أنهى البحث معترفاً بأنه إنسان يخطىء ويصيب، ويقدّم الرأي ليتداوله الناقدون من المتخصّصين.

وبعد هذا التمهيد الدّاعي للاجتهاد، كتب الأستاذ فصلاً عن الحجاب في الإسلام، إذ اعتنق بعض زعماء المنبوذين في الهند دين الإسلام لمناداته بالمساواة، ووقف أتباعهم مترددين أمام ما يدعونه من فرض الحجاب على المرأة المسلمة، واهتمت مشيخة الأزهر حينئذٍ بتصحيح الرأي فأصدرت فتوى[1] قالت فيها بإجماع الأئمة على أن الوجه والكفّين ليسا بعورة، وليس على المرأة من بأس أن تزاول أعمالها خارج بيتها، وأن تمارس مِهَناً لكسب قُوتِها على شريطة ألّا تُظهِر ما يثير العاطفة من جسمها.

فالإسلام لم يفرض على المرأة أن تعيش كما تعيش الأنعام، أو أن تُسجَن كما يُسجَن المجرمون، ولكنه العكس أُمِرَت أن تحضر الصلوات في المساجد في صفوف خلف الرجال، وأن تشهد اجتماعات المسلمين العامّة في الأمور الهامّة، ولم تمنع قطّ من إبداء الرأي فيها، هذا بعض ما جاء بتقرير مشيخة الأزهر.

ولكن بعض الكتّاب قد عارضه في الصُّحُف، فرأى الأستاذ الصعيدي أن يُفرِد بحثاً شافياً مُسهِباً في مسألة النقاب، ينحو فيه منحى الفتوى الأزهرية الصائبة، فيذكر الآيات القرآنية الخاصّة بزوجات النبي ﷺ مبيّناً أن المقصود من حجاب أُمّهات المؤمنين ابتعادهنّ عن الأنظار فحسب، ولا حرج عليهنّ في الخروج للحجّ، ولا أن يبلغن أحكام الرسول لمَن سأل عنها.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد السابع، ص ٣٤٨، سنة ١٩٥٥.

ونقل من النصوص الكثيرة الشافية ما يثبت ذلك عن حزم ويقين مستشهداً بأحداث التاريخ في مسألة الجمل وموقف عائشة رضي الله عنها من سيّدنا عثمان، فإذا خلص من ذلك تحدّث عن غير أُمّهات المؤمنين من النساء، فذكر أن النقاب غير مفروض عليهنّ، واستشهد بمواقف الصحابة والتابعين من زوجاتهم، مُوضِحاً أن بعضهم قد حاول حجابهنّ بحكم الغيرة الشخصية لا بحكم الدين، وأن منع المانع كان لأسباب خاصّة لا لأمر ديني.

واستشهد بما رواه عبد الرازق عن معمر الزهري أن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل كانت تحت عمر بن الخطاب، وكانت تشهد الصلاة في المسجد، وكان عمر يقول لها: والله إنك لتعلمين أني ما أُحبّ هذا، فقالت: والله لا أنتهي حتى تنهاني، قال عمر: فإني لا أنهاك، فلقد طعن عمر يوم طعن وإنها في المسجد.

وبعد استشهاد متعدّد بالأحداث والمواقف قرّر الأستاذ: أن المرأة المسلمة في حلٍّ من هذا النقاب الذي فُرِضَ عليها في دينها، فإذا شاءت سترت وجهها، وإذا شاءت تركت وجهها بلا نقاب.

وقد دعا بعض المتسرعين إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث، وألقى محاضرة متهافتة تدلّ كما ادّعى على الظلم التشريعي في عدم المساواة، ونشرت الصُّحُف ما قال المُحاضر، وعقبت بما يدلّ على التأييد من نفر لا يسرّهم أن يلتزموا وجه الحق، افتتاناً بما درسوه في أوروبا.

وتحدّث بعض الناس عن المواريث في الإسلام حديث من يوقف التشريع موقف الاتّهام إذا قِيسَ بقوانين الغرب، فرأى الأستاذ الصعيدي أن يُفرِد كتاباً مستقلاً عن الميراث في الإسلام وفي غيره من الشرائع المعاصرة، فقام بدراسة مقارنة يكشف الغشاء عن عيون يملؤها الظلام، وقد راجَ الكتاب في مناسبته، وتعدّدت طبعاته في زمن يسير، إذ صادف وعياً حيّاً من القرّاء، وقد بدأه المؤلّف بتفصيل شافٍ لأحكام الميراث في الفقه الإسلامي، وانتقل في الفصل الثاني إلى

المواريث في الشرائع القديمة، فتحدّث عن قوانين المصريين القدماء، والعرب في الجاهلية، واليونان في أثينا، والرومان في إيطاليا، واليهود في كتبهم المقدسة.

وجاء الفصل الثالث ليتحدث عن المواريث في الشرائع الحديثة، ومن بينها: القانون الفرنسي الذي يراه المحاضر مثلاً أعلى في التشريع، وبعد أن تقرّر ذلك، وعرف القارىء منحى الأمم من قديمة وحديثة في اتجاهها الميراثي، جاء الفصل الأخير ليُقيم الموازنة العادلة بين الإسلام وغيره في هذا الباب.

وقد امتدّ نطاق الموازنة فشمل حقّ الإرث، والتسوية بين الذكور والنساء، والتسوية بين الإخوة والأبوين، والتسوية بين الإخوة، وحلول أولاد الوارث محله، وتوريث ولد الزنا ، وتوريث المختلفين في الدين، وحجب البنات بالأبناء، وحجب الأصول والحواشي بالبنات، وحجب الجدود بالإخوة، وحرمان الحمل من الإرث، وإباحة مال مَن لا وارث له، وتعليق الإرث على القضاء! ولكلٍّ مسألة من هذه المسائل تعليلها العقلي، ودليلها الشرعي من نصوص الكتاب والسُّنّة مقارنة بغيرها في المواريث الوضعية.

وهذه دراسة مقارنة ناجحة من الخير أن تعمّ جميع الأبواب الفقهية، فيتجرّد نفر من الدّارسين إلى عقد مقارنات دقيقة بين الشرائع والقوانين، مُظهِرين وجهة الإسلام في منحاه التشريعي، وهذا ما تحقّق بعضه في نطاق محدود نرجو له أن يمتد ويستزيد.

وإذا كان الصعيدي يتابع ما يدور من نقاش علمي في الصُّحُف، ويُسهِم في إبداء الردّ في حوار لا ينقطع، فإنه لا محالة قد يتعرّض لبعض الخطأ فيما يقول، لأن الكمال لله وحده، وقد فتحت جريدة السياسة الأسبوعية سنة ١٩٣٧ صدرها لمناقشة مسألة الحدود في الإسلام، وغَلَا بعض الكاتبين فردّد ما يقوله أذناب المستشرقين عن قسوة الحدود كقطع يد السارق، ورجم الزاني، بينما جُوبِه بردود حاسمة تنفي مظنّة هذه القسوة، لأن الشرائع الوضعية جميعها تُوجِب القصاص، وتحكم بالقتل على القاتل، كما تحكم به على مَن يتجسّس لحساب دولة أخرى، أو ينهض بثورة مسلحّة ضدّ الحاكم، فإذا كان حكم الإعدام مشروعاً في حالات

كثيرة، دون أن يزعم أحد أنه مثل للقسوة المُفرِطة، فإن الحكم بالرجم وقطع اليد مشروع إذا وُجِّه لمَن يستحقه!.

وفي غمرة هذا النقاش بدا للأستاذ الصعيدي أن يشير إلى رأي في الحدود، قد احتاط له كل الاحتياط، وأعلن أنه يعرضه للبحث فحسب، لأنه يحتمل الصواب والخطأ، يقول الأستاذ عن رأيه الجديد:

«وإني ألجأ إلى عرضه على الناس رأياً لا يظهر فيه ترجيح لناحية إثباته أو نفيه، بل أتركه لمَن يتناوله بالبحث من أهله على صفحات السياسة، وقد أخوض في ذلك مع مَن يخوضون فيه إذا رأيت ما يستدعي هذا منّي، ولا أُريد إلاّ أن أعرض فكرة سنحت في النفس لأعرف رأي الباحثين فيها وأعلم صوابها من خطئها»[1].

أما لُباب الفكرة فهي أن قول الله عزّ وجلّ: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾، وقوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدة منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾، هذان الأمران الكريمان قد يكونان للإباحة لا للوجوب بمعنى أن يكون القطع في السرقة أقصى عقوبة فيها، فيكون الطرف الأعلى في حدّها، ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعة، وإن كانت أخفّ منه، ثم استشهد بعدّة وقائع عدل فيها عن تنفيذ حدّ السرقة لبعض الظروف.

هذا ما عرضه الأستاذ على الباحثين لتبيّن خطأه من صوابه، فهو لا يجزم بالصواب بل يتقدّم مستفهماً مستوضحاً، وإذا كان الصواب قد جانبه[2] فإن من الحكمة أن نبيّن له وجه الخطأ كما طلب، ولكن لجنة علمية شُكِّلَت لدحض المقال، وهذا هو الواجب! على حين شكّلت لجنة أخرى من كبار أساتذة الأزهر والقائمين على أمره لمحاكمته وانتهت إلى أن يحرم من الترقية خمس سنوات، وأن

---

(١) قضية مجاهد في الإصلاح، ص ١٢٦.

(٢) مجلة الهداية الإسلامية، محرّم، سنة ١٣٥٦.

ينقل من التدريس بكلية اللغة العربية بالقاهرة إلى القسم العامّ بطنطا! وكان الحكم بالأغلبية لا بالإجماع، ويخيّل إليَّ أن الردّ الفقهي بإيضاح وجه الخطأ كان كافياً، لأن الباحث مستفهم يطلب وجه الصواب، وليس مُصِرّاً على رأيٍ ارتآه.

وقد نشط فريق من علماء الأزهر لدحض ما يراه الأُستاذ الصعيدي، وكان من أقوى الردود ما نشره الأستاذ محمد الخضر حسين بمجلة الهداية الإسلامية[1]، حيث جزم بأن الأمر للوجوب الدائم لا للندب، وأتى بأدلة قاطعة من منطوق كتاب الله، وأقوال الكبار من أهل التفسير! وفيما كتب الخضر رضي الله عنه وأمثاله مقنع للأستاذ الصعيدي! وتحقيق لما طلب من إبداء الرأي.

وكان صدور الحكم بمنع الترقية، والنقل إلى القسم العامّ بطنطا مصدر كَدَر للأستاذ، ولكنه لم يحل دون مشاركته الرأي في المسائل الدينية على صفحات الجرائد والمجلّات، فإن إنتاجه العلمي قد ازداد وانتشر وكانت مجلتا الرسالة والسياسة الأسبوعية وجريدتا البلاغ، وكوكب الشرق ميداناً فسيحاً لأفكاره، حتى تهيأ له أن يجمع من ثمار هذه الحقبة كتباً شتّى في التاريخ الإسلامي، والأدب العربي، والنحو والبلاغة.

ثم أُعيد ثانيةً إلى كلية اللغة العربية بالقاهرة، فزاوَلَ نشاطه العلمي مع طلابه الكبار، ومما يُذكَر له أنه كتب بحثاً شافياً عن سرّ تحريم لحم الخنزير بعددين من مجلة الرسالة صادف قبول المُنصِفين، وترجمه أحد الباحثين إلى اللغة الأوردية ليقرأه المسلمون في الهند.

كما كتب عدّة فصول نحوية يردّ بها على مشروع لجنة القواعد العربية في تيسير النحو، وامتدّ بحثه إلى تقييم كل ما كُتِبَ عن النحو في مجال التيسير المُعاصر، فناقش آراء الأساتذة: إبراهيم مصطفى، وأمين الخولي، وأعضاء لجنة التيسير، ونشر كتاباً مستقلاً يجمع هذه المناقشات، مُضيفاً إليه آراءه الخاصّة في تذليل النحو، وهذا الكتاب يسمّى: (بالنحو الجديد).

(١) مجلة الهداية الإسلامية، محرّم، سنة ١٣٥٦.

رأى الأستاذ الصعيدي أن يبتعد عن مسائل التشريع بعض الوقت، فاتجه إلى البحوث الأدبية، وبدأ بدراسة جادّة عن الكميت بن زيد الأسدي وهاشمياته قال في مطلعها: إن في الأدب اجتهاداً لم يُغلَق بابه كما أُغلِق في الفقه والعلوم الشرعية، ولهذا امتازت بحوثه وتدفقت في غزارة حتى صار شغل الأستاذ في معهده، والطالب في مدرسته، ولو أن غير الأدب من العلوم كان له حظّ الاجتهاد، لم يصر إلى هذا الجمود الذي صرف الناس عنه، وجعلهم يكرهون النظر فيه ويخشون ما يصيبهم من العنت إذا خرجوا عن مألوفه.

وصرّح الكاتب بأن له حاجات في هذا الاجتهاد المطلق، إذ يحنّ إليه ويتوق دائماً أن يأتي بالجديد، ولا يجد مثل الأدب في رحابة صدره، واتّساعه للاجتهاد، وعدم ضيق إليه بما يبتكره الباحثون من قضاياه، فمعالجة مسائله تسلّي النفس شيئاً عمّا يصيبها من أذى الناس، وجحود الفضل مع ظهوره للعيان.

هذه نفثة حارّة تدلّ على ما يزدحم في صدر الكاتب من شجون بعد ما لاقاه في قضية الحدود، ولم يكن اهتمامه بالبحث الأدبي جديداً عليه، فقد كتب من قبل مؤلّفين جيدين عن عدي بن زيد، وعن أبي العتاهية.

وللأستاذ مقياس أدبي يؤثره في تفضيل شاعر على شاعر، فهو يحرص على شرف الغرض، وسموّ المعنى، إذ لا يرى لقضية الفن للفن وجهاً للإصابة، فالشاعر إنسان ممتاز ذو رسالة خلقية ينهض بالقيام بها مبشّراً ذوي النفوس الفاضلة بما يهتف من معانٍ إنسانية ترتفع بالقارىء إحساساً وإدراكاً، أما الذين يرضون شهوات النفس بالحديث عن الخمر والهجاء والغزل الفاحش، فهم ـ في رأي الأستاذ ـ لا يسمون إلى مرتبة ذوي القيم من الشعراء.

وقد عُورِضَ الكاتب في اتجاهه إذ تصدّى له مَن نقل عن كتب السالفين أن الشعر شعر في حدّ ذاته، وأن الشاعر ليس نبيّاً أو واعظاً، واضطر الأستاذ الصعيدي أن يكتب مقالاً تحت عنوان: (مقاييس الشعر) يختار فيه من أقوال السالفين ما يؤيّد منحاه، ليعلم ناقده أن الرجل يفيء إلى سلف في نهجه.

يقول الأُستاذ الصعيدي[1]: «وقد وضعنا للشعر مقياساً عامّاً يتفاضل فيه القول باعتبار نُبْل أغراضه وشرف مقاصده، قبل أن يتفاضل بجمال ألفاظه ومعانيه، ووازنا بهذا المقياس بين امرىء القيس، وعديّ بن زيد في كتابنا: (زعامة الشعر الجاهلي) وبين أبي العتاهية، وبشّار، وأبي نواس فيما كتبناه بمجلة الرسالة الغرّاء عن أبي العتاهية، فخرجنا من هذا المقياس بتفضيل عديّ بن زيد على امرىء القيس، وتفضيل أبي العتاهية على أبي نواس، ولكن جمهرة أدبائنا لا يوافقوننا على هذا المقياس، وينكرونه علينا أشدّ الإنكار، وهم معذورون لأقوال يعرفونها، وقد حملني ذلك على تقييد كلّ ما أراه يؤيّد وجهتي في مطالعاتي» ثم أخذ يعرض من الأقوال ما يؤيّد منحاه.

لقد درس الأستاذ عديّ بن زيد لطلابه في تخصّص المادّة بالأزهر، مُقارِناً بامرىء القيس، فأورد ما اتفق فيه الشاعران من النشأة، فامرؤ القيس أمير، وعديّ ابن ملك، وكلاهما ترفّع عن المديح والإتجار بالشعر وكان له منزلة في عشيرته، ولكن عديّاً نشأ في فارس وشاهد من ألوان الحضارة ما لم يشهد امرؤ القيس، ودرس الأديان واعتنق النصرانية فأمدّته بمعانٍ طيبة في الرحمة والعدالة وترقّب المصير، واتّساع الأفق، إذ كان ينظر إلى الكون نظرة شاملة يتحدّث عن المبدأ والعاقبة، ويؤدّي رسالة الحكيم الناصح للإنسانية كيلا تنزلق إلى مهاوي الرذيلة.

واتّساع النظرة الإنسانية في هذا الوجود امتياز يُحسَب لصاحبه، لا سيما إذا كان ناصح ملوك، وأستاذ فكر، ولعديّ في التذكير بالنعيم الغابر، والتحذير من الهرج الزائف دُرَر ينفح بها العقل المتأمّل، وقد وقف وقفات مستعبرة يودّع فيها الشموس الآفلة، والنجوم الهادية، والأكاسرة الذين دوّخوا العالم:

ثم صاروا كأنهم ورق جفّ   فألوت به الصبا والدبور

وهذا الأفق المترامي ليس لامرىء القيس، ومن الذين ناهضوا رأي الأستاذ الصعيدي في منحاه الدكتور زكي مبارك، والأستاذ محمود الخفيف، والأستاذ

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ١٥٧، سنة ١٩٣٦.

محمد علي غريب، حيث امتدّ النقاش حول مجال الترجيح عند الصعيدي على صفحات المجلّات دون أن يرجع الباحث عن وجهته، إذ عمد بهذا المقياس إلى دراسة أبي العتاهية، ليفضّله على زميليه الكبيرين بشّار وأبي نواس، فعرض إلى مظاهر التجديد الشعري في مطلع العصر العباسي من ناحية الأغراض والمعاني والتراكيب، ليثبت فضل أبي العتاهية.

وكانت الأغراض في رأي الكاتب موضع تبريز أبي العتاهية، إذ ساعد على نشر الثقافة الإسلامية بما ضمّن شعره من روائع الحكم والدعوة إلى الارتفاع عن مهابط النفوس، والبُعْد عن العبث والمجون اللذين كانا أبرز سِمات بشّار وأبي نواس، هذا إلى سهولة ميسّرة تجعل شعره مقتحماً صوّالاً على النفوس، وهكذا انتصر الكاتب لمنحاه في إصرار وتأكيد.

وإذا كان عديّ يمثّل الزعامة الشعرية في العصر الجاهلي عند الأستاذ، وكان أبو العتاهية يمثّل الزعامة الشعرية في مطلع العصر العباسي، فقد اختار الناقد شاعراً من طراز صاحبيه يمثّل الزعامة الشعرية في العصر الأموي، هو: الكميت بن زيد الأسدي، إذ خلص شعره لمحاربة الفَجَرة من الطغاة، والظَّلَمَة من الحاكمين، ونأى بالشعر على أن يكون موطناً للاستجداء في مدائح تُساق إلى غير مَن يستحق.

وإذا كان الذائع أن جريراً والأخطل والفرزدق قد تسنموا زعامة الشعر في عهد بني مروان، فإن الصعيدي ينكر هذه الزعامة على قوم أخذوا يهبطون في النقائص إلى دَرَكَة السّفَلَة من الرعاع، حين تقاذفوا بالأوضار متحدّثين عن معانٍ هابطة تشين صاحب البيان، فالغلوّ في الهجاء لدى هؤلاء جعلهم شتّامين منحدرين، بحيث تصبح أشعارهم مَعَرّة للأدب العربي إذا تُرجِمَت إلى لغة غير لغة العرب.

أما الكميت فقد دافع عن فضائل الأمة الإسلامية، ودعا إلى إقامة العدل وإشاعة الحرية، وتوجّه بمدائحه إلى قوم لا يملكون الجزاء المادّي، كما يتوجّه أرباب المآرب عن قصد مريب، لقد توجّه بمدائحه إلى آل بيت رسول الله، يذكر فضائلهم، ويرجوهم لساعة حاسمة تطوي دياجير الظلم، وتنشر أنوار الحق.

وقد استوفى الصعيدي في حديثه عن الشعراء الثلاثة جانب الاستشهاد، لأن دواوين هؤلاء الشعراء تفيض بما ينشد من مُثُل، ولعلّ مما يؤيّد وجهة الناقد، إذ إن هؤلاء الثلاثة ليسوا نظَّامين يسوقون العِظَة بألسنة الخطباء، ولكنهم في صميم مواهبهم شعراء أصلاء، وما انحدر بالشعر المثالي عن أَوْجِهِ غير نفر من النظَّامين نسجوه نسج المتون العلمية، فجاء جامد الروح، ميت النسيم، أما عديّ، وأما الكميت، وأما أبو العتاهية فشعراء أصلاء.

ظلّ الأستاذ معتزّاً بمقياسه الخلقي للعمل الأدبي لا ينهنه من عزمه اعتراض، وقد قامت معركة أدبية حول قيمة الأدب الجاهلي بين الدكتورين: أحمد أمين، وزكي مبارك على صفحات مجلتي الرسالة والثقافة، وذهب الدكتور مبارك مذهباً مشتطّاً حين بالغ في الزراية على منحى الدكتور أحمد أمين، إذ رمى الشعر الجاهلي بالمادة والبُعْد عن سبحات الروح، وكان في ذلك موضع الاقتداء لمَن أتى بعده من شعراء الإسلام، وبني أميّة، والعباس ممّن هووا بأغراض الشعر إلى أرض المادة، فانبرى الأستاذ الصعيدي يؤيّد الأستاذ أحمد أمين ويعلن أن مقياسه الأدبي يسير مع منطق صاحب فجر الإسلام، ويعارض منحى صاحب النثر الفنّي، واستشهد بأبيات مادية لديك الجنّ، وأبيات خلقية[1] لمعن بن أوس ليرتفع بالثانية على الأولى، لأن الشعر في مذهبه يجب أن يسمو بالنفوس، والقضية ذات حجم كبير، ولإشباعها المُسهَب مجال آخر.

فإذا تركنا بحوث الأدب إلى ميدان البلاغة، فإننا نجد للصعيدي جهداً بلاغياً غير متكرّر، فقد شرح كتاب الإيضاح للقزويني في أربعة أجزاء، كما حقّق كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، وأفرد مؤلّفاً خاصّاً ببحوث البلاغة سمّاه: (البلاغة العالية) فإذا نظرنا إلى شرح الإيضاح وقد سمّاه بغية الإيضاح، فإننا نجده استوفى ما يتطلّب من الشرح والنقد والتعليق والأسئلة الهادية إلى تطبيق المادة.

ولكننا نجد الأستاذ في مقدمة الكتاب يذكر أن كتاب الإيضاح ينتمي في البلاغة إلى مدرسة عبد القاهر، وهذا ما نخالفه كلّ المخالفة، لأن الكتاب يسير

---

(١) مجلة الرسالة، العددان ٣٦٥، ٣٦٦، سنة ١٩٣٩ م.

في ضوء المفتاح للسكاكي، وإن اعترف القزويني بأنـه رجع إلى عبـد القاهـر وأفاد منه، ثم نخالف الأستاذ مرةً ثانيةً في مقـدمة كتـابه حين قـرّر أن السكاكي يُعَـدّ إلى حدٍّ ما من تلاميذ مدرسة عبد القاهـر، ولكنه كـان ناقـداً ولم يكن أديباً، إذ لـو كان السكاكي من مدرسة عبد القاهر ما تحجّرت البـلاغة هـذا التحجّر الـذي وضح في كتب المتأخرين ممّن داروا في فلك السكاكي، ونخوض في حديثٍ مُعادٍ لو ناقشنـا هذه القضية، لأن الأمر أوضح من أن يُشار إليه.

وقـد كان السكـاكي عالِمـاً لا ناقـداً، فكيف خلع عليه الأستـاذ صفة النـاقـد بمعناه الأدبي المعروف لدى الجرجاني والآمدي وابن الأثير وعبد القاهر وابن رشيق وأضرابهم من مشاهير النقّاد! والبون بين هؤلاء والسكاكي بعيد بعيد، لا سيمـا وقد اعترف الأستاذ في المقدمة نفسها أن العجمة غالبة على أسلوب السكاكي، وهو ذو غموض وتعقيد وضعف في التأليف، ومُفسِد لمَلَكة البلاغة، وضرره أكبر من نفعه.

أجـل، سجّل الأستـاذ هذه المـآخـذ كلهـا على كتـاب المِفتـاح للسكـاكي، واعترف بها في وضوح، فكيف يُعَدّ السكاكي مع ذلك كله إلى حدٍّ مـا من مدرسـة عبد القاهر؟!.

وكتاب «سرّ الفصاحة» أقرب إلى البلاغة الناصعة من كتابي المفتـاح والإيضاح، وقد أنصف الأستاذ الصعيدي صاحبه، وقدّم كتـابه بمقـدمة حـافلة، ولكنه قـال في خاتمتها إن أسلوبه العلمي أقرب إلى أسلوب المتـأخرين من أسلوب عبـد القاهـر، فإذا كان الأستاذ يقصد بالمتأخرين تلاميذ السكاكي ومَن ترسّموا خطوه، ففي كلامه نظر يحتمل النقاش، لأن ابن سنان إذا لم يُرزَق ديباجة عبد القاهر فقـد رُزِقَ ذوقه، وحُسْن اختيـاره، وبُعْده عن التعقيـد والغموض، فهـو ينادي الجـرجـاني من مكـان قريب.

أمـا كتاب البـلاغة العـالية فهـو يجمع بين تـاريخ البـلاغـة وأهم مسـائلهـا، وصاحبه ذو إحاطة واجتهاد.

ولا يجوز لنا أن ننسى آثـار الأستاذ في التـاريخ الإسـلامي، فقد كتب مؤلّفـاً عن رسول الله ﷺ، ومؤلّفاً عن الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشـدة، نكتفي

بالإشارة إليهما لنتحدّث ببعض التفصيل عن كتابه الرائع: (القضايا الكبرى في الإسلام) حيث سطّر مجلّداً ممتازاً يعرض ما اختاره من أعظم القضايا في التاريخ الإسلامي، مبتدئاً بعهد الرسالة النبوية، ومنتهياً بقضية الشعر الجاهلي في العصر الحديث، وبينهما صور قوية مما جرى على مسرح الأحداث في العالم الإسلامي في وقت يمتد إلى أربعة عشر قرناً.

وللرجل اجتهاداته الكثيرة، التي تنبىء عن بصر نافذ، وتغلغل عميق، ففي قضية بني قريظة ناقش مَن عارضوا الحكم من المستشرقين حين رأى سعد بن معاذ أن يقتل الرجال، وتُقسَم الأموال وتُسبى الذراري والنساء، إذ ذهبوا إلى أن الحكم يطبع بالقسوة، وقد قال المؤرّخون: إن سعداً نزل على حكم التوراة التي يدينون بها، وهي تقضي بذلك، فليس لهم أن يخرجوا عن قانون يؤمنون به، وهو قول له وجهة نظره، ولكن الأستاذ الصعيدي ذكر تعليلاً قوياً، حين نصّ على أن بني قريظة ليسوا أسرى حرب، حتى نرمي الحكم بالقسوة، ونميل إلى جانب العفو، لأن الرسول عفا عن بني النضير وبني قينقاع، وهم زملاؤهم دون أن يتعرّضوا للقتل، ولم ينفذ فيهم حكم التوراة.

أما بنو قريظة فقد قارفوا الخيانة العظمى حين تحلّلوا من عهودهم السياسية وانضمّوا إلى الأعداء، فلم يكونوا في المبدأ أعداء يُعامَلون معاملة الأسرى، ولكنهم خَوَنة أمّنهم المسلمون لما بينهم من العهود فانتهزوا محنتهم الخطيرة وغدروا بما اتفقوا عليه، وكلّ الشرائع الوضعية تنفّذ حكم الإعدام في الخائنين.

وفي حادث الإفك ذهب الأستاذ إلى أن رسول الله لم ينفّذ الحدّ ـ حدّ القذف ـ على أحد، لأن التشريع لا يعمل به في الأحداث الماضية، بل يعمل به فيما يستجدّ، ونقل نصوصاً عن الماوردي وابن حجر تدلّ على أن الحدّ لم يقم، لأن الحدّ لا يجب إلّا ببيّنة أو إقرار، ولم يثبت أحد هذين! فالأراجيف قد انتشرت، وعُزِيَت إلى أُناس فأنكروا، وحامت الشُّبَه عليهم فتنصّلوا، ولم يقرّوا، فإذا أُضيف إلى ذلك أن حكم القذف لم يكن مقرّراً من قبل، فوقف العقوبة متوقع! وقد نصّ عليه جماعة من الأئمة.

وفي الحديث عن قتل الحجّاج لسعيد بن جُبَير، ذهب الأستاذ إلى أن العالِم الكبير قد استحقّ القتل لخروجه عن الجماعة، وعدم اعترافه بالخطأ حين طُلِبَ منه ذلك، وقد شارك من قبل في أعمال الحجّاج السياسية مؤيّداً وجهة الدولة الأموية، وما كان له أن يفعل ذلك، والحقّ أننا لا نميل إلى رأي الأستاذ في ذلك، لأن المشاركة في الأعمال السياسية من عالِم كبير مثل سعيد بن جُبَير تُعين على دفع الطغيان، وتقف دون تجاوز الحدود، وإذا كان الحسن البصري قد اعتزل الحاكمين، فله رأيه الذي لا نلزم به سعيداً، كما حاول الصعيدي أن يلزمه بمسلك زميله، والخروج على الحاكم الظالم أمر مشروع، فكيف يكون موضع اتّهام لسعيد من الأستاذ.

أما رأي الأستاذ الصعيدي في قضية الشعر الجاهلي فقد جاء دقيقاً واعياً، لأنه أثبت القصد الجنائي الذي حاولت النيابة العامّة نفيه، كما ردّ على قول رئيس النيابة «أن الكتاب يصوّر رأي عالِم باحث، ومن حقّه أن ينشره بين الناس» فقال الأستاذ: إن الكتاب لم يُنشَر بين المثقفين ليعرفوا حقّه من باطله، ولكنه قرّر على طلاب لم يبلغوا مبلغ الحكم الأدبي بالصواب والخطأ، وهؤلاء يتطلبون كتباً صحيحة الأفكار، بريئة من الإرجاف بالمقرّرات الدينية والتاريخية، فإذا ألقى أستاذ على طلبته قضايا لم تثبت صحتها فهو متّهم!.

هذا بعض ما يقال في بعض ما كتب الأستاذ الصعيدي، ومجال الإحاطة هنا متعذّر، فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه أحسن الجزاء.

باحثة البادية
والوجهة الإسلامية في نهضة المرأة

- ١ -

يكثر الحديث في مجال المرأة عن سيّدات لم يقمن بشيءٍ ذي بال في نهضة المرأة الحقيقية، بل ربما كثر الإطراء لسيّدات تعثّرت خطواتهنّ في مضمار الإصلاح حين اتجهت وجهة غير إسلامية، فوجدت من حَمَلَة الأقلام في الصُّحُف مَن بارك هذه الخطوات المتعثّرة، وجعلها موضع الفخر والمُباهاة!.

أما الكاتبة المُصلِحة ذات العاطفة الدينية الراشدة، والقلب النابض بالخير، والعقل المثقف بهَدي الإسلام، ملك حفني ناصف، الشهيرة بباحثة البادية، فلا تكاد تجد مَن يخصّها بالتحليل الفكري تقديراً لجهود مؤمنة جادّة، قامت بها في ميدان الإصلاح الاجتماعي مستضيئة بنور الدين الحنيف، أجل، لا نكاد نجد اليوم مَن يخصّها بالتحليل الفكري، كما نجد كتباً تؤلّف عن سيدات ورجال كانوا حجر عثرة في سبيل التقدّم الصحيح للحياة الإسلامية، في مجتمع الشرق العربي.

ولقد كانت باحثة البادية في زمانها تحظى بإعجاب المُنصِفين ممّن يضعون رسالة المرأة المسلمة موضعها الصحيح، إذ نالت تقدير الكبار من حَمَلَة الأقلام، وهتف باسمها شعراء الطليعة الراقية من أمثال: شوقي، وحافظ، ومطران، حين كانت شهادة الأقلام خالصة لوجه الحق.

ولعلّنا نستشهد ببعض ما قاله الأستاذ الأكبر الشيخ: مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر الأسبق، ليكون مِثالاً واعياً لكلمة الحق، يصدع بها مفكّر كبير، درس شؤون المرأة الأوروبية، وشؤون المرأة الشرقية، وتأمّل خطوات الإصلاح المتعثّرة، فأشاح عنها ناقداً، ورأى كفاح باحثة البادية، فهتف به محبّذاً، وبارك خطواته قائلاً:

«كان صوت باحثة البادية قوة لأنصار الإصلاح، فلما خفت أحسّت بمكانه البلاد خالياً، كانت تريد للمرأة المصرية أن يملأ العلم عقلها ويملأ الإيمان قلبها، لتغلب بقوة العلم والإيمان كلّ ما يقف في سبيل حريتها ورقيّها، كانت باحثة البادية داعية للإصلاح على المبادىء الدينية السَّمحة السامية، التي تسع حرية العقل، وتسع كل جديد صالح، وتلك أُسوة حسنة لنسائنا، نرجو أن ينتفع بها رجالنا أيضاً».

وإذن فالدعوة إلى الإصلاح الديني الذي يسع حرية العقل هي: الأسوة الحسنة للرجال والنساء معاً، وما ذكر الأستاذ مصطفى عبد الرازق الرجال في هذا المجال، إلّا ليردّ على قوم من حَمَلَة الأقلام ناهضوا دعوة الباحثة لأنها استندت إلى تعاليم الإسلام، إذ جعلوا المرأة الأوروبية مثلهم الأعلى في الإصلاح الاجتماعي، ولم يستطيعوا أن يدفعوا النقد الصارخ الذي وجّهه المُصلِحون إلى مناحي الضعف في المجتمع الأوروبي ليُوازنوا بين منطق ومنطق، وأكثر هؤلاء يعرفون الحق ويجتنبونه استجابة لداعي الهوى، وقد كرّت الأيام لتثبت أن الزبد يذهب جفاء، وأن الصحيح هو الذي يبقى على الأعوام.

نشأت الباحثة في بيت أدب وعلم وقضاء، فأبوها العالِم الباحث، والشاعر الناثر، والقاضي الفاضل، حفني ناصف أحد الذين أرسوا دعائم النهضة العلمية على هدي من تراث الإسلام، وثقافة العرب، وقد بدأ بتعليمها في بيته، فحفظت سوراً من كتاب الله، وألمّت بدروس اللغة العربية، ومبادىء اللغة الفرنسية ثم ألحقها بالمدرسة السّنيّة بالقاهرة، وكانت المدرسة الوحيدة للبنات، فبرزت الطالبة في مجال دراستها، وكانت الأولى في مدرستها، ثم التحقت بقسم المعلمات

السّنيّة، وكان التعليم فيها باللغة الإنجليزية جوار المواد الخالصة للغة العربية، فواصلت الفتاة الناهضة نشاطها، حتى كانت الأولى أيضاً عند التخرّج.

ولم تقف عند علوم المدرسة، بل امتدّت بنظرها إلى الفضاء الرحيب، فقرأت الصُّحُف الأدبية، ودرست ما تيسّر لها من الكتب العلمية.

وكانت السيدة عائشة التيمورية ذات صيت أدبي بما كتبت من قصائد الشعر، كما كانت السيدة زينب فوّاز ذات صيت علمي بما ألّفت من الكتب، فجذبت السيدتان الشهيرتان الفتاة الناشئة إلى دنيا الأدب والعلم معاً، وأعدّت نفسها لرسالة علمية أدبية، تتّجه وجهة الإصلاح الاجتماعي، وتقدّمت إلى الصُّحُف بآثارها الأدبية، فصادفت ترحيب الناشر والقارىء.

وقد رحّب بها الشاعر خليل مطران حين قرأ بعض آثارها الشعرية في جريدة المؤيّد، ودعاها إلى الكتابة في مجلة الجوائب المصرية التي يصدرها، فسارعت بإرسال قصيدة تتحدّث عن شجون خاصّة تتألّم لوضع الشرق، فلَقِيَت إعجاب مطران، ولكنه حاول أن يدفع عن الشاعرة الناشئة ما لمسه من سحابة الأسى التي تمتدّ فوق أبياتها فعلّق عليها قائلاً[1]:

«وقد نشرنا هذه القصيدة الرائقة النّظم، ولسنا في مقام بيان ما أُوتيته هذه الفتاة من جودة القريحة، وما أدركته على حداثة سنّها من الشأو البعيد في الآداب العربية، بل نحاول أن نقشع عن سماء فكرها تلك الغمامة المنتشرة، التي يتدلّى ظلّها القاتم إلى خدرها، ويحيل أنوار وحيها إلى غياهب يأس، فاليأس على صحة أسبابه، لا ينبغي للفتيات اللواتي سيكنّ منابر بنات جنسهنّ إرشاداً وتعليماً أن يأذنّ له أن ينفث في مسامع ضمائرهنّ شيئاً من سِمامه القاتلة».

وإذا كانت القصيدة التي أشار إليها مطران قد نُشِرَت في سنة ١٩٠٣، وميلاد الباحثة في سنة ١٨٨٦ فالناقد الشاعر مصيب حين يرجو من ذات الأعوام الغضّة في سنتها السابعة عشرة أن تميل إلى مباسم الأمل، مهما تلبّد حولها الغيم، وقد

---

(١) خليل مطران في أروع ما كتب، ص ٤٨.

استجابت الباحثة لدعوة مطران، فاتجهت إلى دعوة الإصلاح الاجتماعي بروح التفاؤل وإن سردت من واقع المجتمع ما يدعو إلى المرارة، إذ جاء هذا السّرد وصفاً لداء يتطلّب العلاج، وهكذا لم تقف الباحثة عند وصف الدّاء، بل جعلته تمهيداً للكشف عن العلاج الناجع، وذلك ما جعل لمقالاتها صداها البعيد في نفوس القارئين والقارئات.

وقد جُوبِهَت الشاعرة بحاقد يدّعي أن نظم القصيدة من يَراع والدها الكبير، ولو رزق هذا الحاقد نعمة التمييز الفكري لأدرك البُعد الشاسع في المنهج الشعري، بين ما نشرته الباحثة في مجلة مطران، وما يقوله الشاعر القادر حفني ناصف، وقد والَت الفتاة الناشئة نظمها الأدبي فصدرت عن موهبة بارعة، وساجَلَت أمير الشعراء شوقي حين وجّه إليها قصيدته الشهيرة:

صداح يا ملك الكنا ر ويا أمير البلبل

إذ ردّت عليه بقصيدة مماثلة، تتحدّث عن هموم المرأة، وتعالج قضية السفور والحجاب بمنطق الإسلام الصريح، والقصيدتان ذائعتان لدى الدارسين، وكان لهما الصّدى البعيد حين نُشِرَتا على الناس.

ارتفع صوت الباحثة في وقت دارت فيه المعركة القلمية حامية بين أنصار السّفور وفريق الحجاب، وقد ظنّ القرّاء أن هذا الصوت الأُنثوي الجديد سينضمّ إلى أصحاب السّفور، لأنهم في زعمهم أنصار المرأة، والآخذون بيدها إلى ما يتوهّمونه من التقدّم، وقد أخذوا يرمون محمد فريد وجدي، ومحمد طلعت حرب، ومحمد لطفي جمعة، ممّن دعوا إلى الحشمة والاعتدال بالتأخّر، والرجوع إلى عهود الكبت والحرمان، ولكن باحثة البادية ترسل صوتها لتفنّد آراء الذين يجعلون تأخّر الشرق بأجمعه عائداً إلى الحجاب، ويذهبون إلى أن الفنون الأدبية جميعها قد تأخّرت في بلاد الإسلام لاحتجاب المرأة، إذ لا يرى الفنّان ـ شاعراً أو رسّاماً ـ أنماطاً من الحُسْن يرسمها بوحيه ليرتقي بالأذواق كما في أوروبا!.

وإن باحثة البادية لتتساءل متهكّمة فتقول[1]: إذا كان متفرنجو هذا العصر لا

(١) آثار باحثة البادية، جمع مجد الدين ناصف، ص ٢٧٦.

توحي إليهم شياطينهم إلاّ عن طريق المرأة، فلماذا لا يبدعون في وصفها متنقّبة كما يحبّون أن يبدعوا في وصفها سافرة، ولعلّهم لا يجهلون أن بعض الشعراء[1] وصف المرأة دون أن يراها، وقد سقط النصيف فتناولته سريعاً قبل أن تكشف محاسنها للشاعر، فقد سقط برهانهم في أن الحجاب سبب التأخّر في النهضة الفنية، وإن الأمم الأوروبية قد تساوت في السّفور، ولم يكن تقدّمها في مستوى واحد، فمنها الأمم القوية، ومنها الأمم الضعيفة، فلماذا لم يسوِّ السّفور بينها جميعها في مضمار التقدّم، إذا كان هو الأساس للرقيّ الحضاري كما يزعم هؤلاء؟.

لا تنكر الباحثة أن المرأة ذات أثر فعّال في تقدّم الأمم، ولكن من ناحية غير ناحية السفور، إذ المدار في هذا التقدّم على تربية نفسها، وارتقاء عقلها، واعتصامها بأهداب الخلق الكريم، والرجوع إلى تعاليم الإسلام!.

أجل، كانت تعاليم الإسلام هي الوجهة الثابتة، التي لم تنحرف عنها الباحثة قيد شعرة، فهي إذا وُوجِهَت باعتراضٍ ما دفعته بنصٍّ قرآني، أو حديث نبوي مستهزئة بمَن ينقلون عن مفكّري الغرب آراء لا تجد نموّها الصحيح في تربة الوطن الإسلامي، وقد كتبت الآنسة ميّ في كتابها القيّم، عن باحثة البادية فصلاً رائعاً تحت عنوان (المسلمة) قالت فيه[2]:

«إذا وقفت الباحثة على بِدعة مُستَحدَثة، ورأت أمراً جديداً، سارعت إلى استجواب نفسها، هل في ذلك ما يُغاير الأوامر الدينية؟ فإذا ساد نظام بين القوم، واستحكمت روابطه دون أن يكون مقرّراً في نصوص الشريعة السَّمحَة، فهي لا تحفل به كثيراً، حتى إذا ما أُرغِمَت على قبوله قبلت منه أقلّ مظاهره ابتعاداً عن الفكرة الدينية».

هكذا تقول الآنسة ميّ، وأنا قد قرأت كلّ ما جُمِعَ من آثار الباحثة، فلم أجدها قد أُرغِمَت على قبول شيءٍ يبتعد عن مبادىء الإسلام قليلاً كان الابتعاد أو

(١) النابغة الذبياني.
(٢) باحثة البادية، للآنسة ميّ، ص ٢٦.

كثيراً، ولعلّ الآنسة ميّ قد رجعت إلى الصواب حين قالت عقب ذلك: «ويا ويلها عادةً لا تروق لها، إنها يثور ثائر غضبها، وتتسلّح باسم الدين لمكافحتها، ويا لحدّة يَراعها الذي يصبح في تلك الساعة حِربة وخّازة».

وقد نقلت الآنسة ميّ أقوالاً كثيرةً للباحثة تستدلّ بها على صلابة اتجاهها الإسلامي، ومنها ما استشهدت به من حديث الباحثة عن الرقص والمُخاصرة، إذ كانت شديدة الهجوم على هذا السّخف المبتذل، الذي تعدّه الحضارة الراهنة مَبعَث رقيّ، وآية حرية واستقلال، وما هو غير انحراف ساقط، يدفع إلى الرذيلة السّافرة، تقول الباحثة[1]:

«لا أعلم عند الإفرنجية عادة تساوي «الزّار» إلاّ مُخاصَرة الرجال في الرقص، وما يتبع تلك العادة من التهتّك والتصنّع والمَيل عن جادَة الصواب، وما ينشأ عن إباحتها المطلقة بلا قيد ولا وازِع من الضّرر البليغ والإخلال بالشرف.

وأدهى من ذلك أن ينتشر بينهنّ مذهب حرية الاعتقاد، وهو مذهب مَن لا يصدّق بالله ولا باليوم الآخر، فيزعمن أنهنّ يجتنبن الرذائل بمحض إرادتهنّ وتربيتهنّ، ولكن هل إذا منعت الفضيلة امرأة عن إتيان ما لا يُرضي، أفيصحّ أن تُطَبّق هذه النظرية على كل امرأة؟ إن النفس لأمّارة بالسوء، ولقد تقدم على كثيرٍ من الموبقات، لولا الضمير الحيّ وهو ثمرة الوازِع الديني، إننا لا نتمسك شديداً بديننا الحنيف، وهذه بِدعة أتتنا من الغرب، أو كلما رأينا إنساناً يفعل شيئاً حاكيناه، وإن كان في ذلك خسارة ديننا ودنيانا».

إن هذا الرقص مُنافٍ للدين الإسلامي، هادِم للفضيلة، مدخل ضارٌ بالعادات بيننا، فعلينا أن نحاربه ما استطعنا، ونظهر احتقارنا لمَن تفعله من المسلمات اللاتي إذا شجّعناهنّ بالسكوت لا يلبثن أن ينقلن العدوى إلى غيرهنّ.

وقد بالغ مَن يُسمّون أنفسهم أنصار المرأة في تقدير المرأة الأوروبية، فهي في نظرهم القدوة المُثلى للمرأة الشرقية، وامتدتّ المبالغة إلى التقدّم الأوروبي

---

(١) باحثة البادية، للآنسة ميّ، ص ٣٠.

نفسه، فجعل سببه الأول سفور المرأة في الغرب، لأن كلّ عظيم وراءه امرأة كما يقول نابليون، وهذا كلام وجد صداه في نفوس الأغرار ممّن أرادوا تقليد المرأة في أوروبا ليكون ذلك وحده باعث الرقيّ.

وكانت المرأة اليابانية الشرقية لم ترد على الذّهن في مجال المقارنة، مع أن اليابان في مطلع هذا القرن قد انتصرت على روسيا، واليابانية متحفّظة في سلوكها، تقدّر معاني التصوّن والشرف والعفاف، ولا تميل إلى الاختلاط والتبذّل، فلو كان الاندفاع في الحرية الشخصية للمرأة مصدر التقدّم الأوروبي لما نهضت اليابان نهضتها الواثبة مع التزامها بقيود الشرف والترفّع، لذلك كتبت الباحثة عن المرأة اليابانية محبّذة، واتجه حافظ إبراهيم هذا الاتجاه حين نظم قصيدته الذّائعة تحت عنوان: (غادة اليابان) ومطلعها:

لا تلم كفّي إذا السيف نبا ... صحّ منّي العزم والدهر أبى

وقد مجّد المرأة اليابانية لا في سفورها، بل في شجاعتها التي برزت أثناء الحرب مع الروس، حين خدمت الجرحى وأعدّت وسائل الشفاء، وهو سلوك إسلامي أظهرته العقائل المسلمات من قبل في غزوات الرسول ﷺ، وأعادته المرأة اليابانية التي قال على لسانها شاعر النيل[١]:

أنا يابانية لا أنثني ... عن مرادي أو أذوق العطبا
أنا إن لم أُحسِن الرمي ولم ... تستطع كفّاي تقليب الظبا
أخدم الجرحى وأقضي حقّهم ... وأُواسي في الوغى مَن نكبا

كذلك لم تقتصر الباحثة على تمجيد المرأة المتحفّظة في اليابان، بل اندفعت إلى مهاجمة ما تراه غير حميد في سلوك المرأة الأوروبية، فهي تقول عنها في صراحة كاشفة[٢]:

---

(١) ديوان حافظ، جـ٣، ص ١٠.
(٢) آثار باحثة البادية، ص ٢٤.

«إن الفتاة الغربية لها مُطلَق الحرية في أن تغدو وتروح وحدها، وتسافر من بلدٍ قاصٍ إلى آخر بغير رقابة أهلها، وهذا من الخَرْق في الرأي، وأخاف أن تغرّنا زخارفه فنعمل به، لأن كثيرات من فتياتنا المتعلّمات يحسبن أن الدرجة التي وصلت إليها المرأة الأوروبية تكفي لإعطائهنّ مطلق الحرية، فيجئن ويرحن وحيدات، وإن حوادث الفتيات المُحزِنة كثيرة جداً في أوروبا، لأن الفتيات الطائشات يصدّقن لصفاء نيّتهنّ كلَّ مُدَّعٍ للغرام، وتساعدهنّ حريتهنّ المطلقة على مُسايرة الفتيان، ثم لا يلبث الرجال أن ينفضّوا من حولهنّ، ويتركوهنّ بين اليأس والعار، وهما أمران، أحلاهما مرّ».

وإذا كان الاختلاط هو السِّمَة الأولى للمرأة الأوروبية، فإن الباحثة قد تابعت حديثها تقول في ذمّ هذا الوضع المؤدّي إلى الانحدار، تقول الباحثة[١]:

«ومن رأيي أن تمتنع الفتاة في سنّ المراهقة هذه من الاختلاط بالشبّان، وحاشا أن أمسّ بكلامي هذا شرف الفتيات، وإنما أُنبّه إلى أمر طبيعي، والعاقل مَن اتّعظ بغيره، ويكفي في تجنّبنا لهذا الاختلاط المُعيب، أن أهله أنفسهم هم أول العائبين له، والفتيات في هذا السنّ ككل إنسان، تطلب الحرية، ويجب أن تتريّض وتخرج، وهذان لا أمنعهما عنها، وإنما أنصح للأمهات بأن يرافقهنّ، وللآباء بأن يراقبوهنّ مراقبة لا تتمكّن بها من الوجود مع غير ذي رحم محرَم».

على أن الباحثة قد التفتت إلى أمرٍ ذي بال، هو أن تقليدنا للمرأة الأوروبية يقف عند السّفور والاختلاط والتبذّل، ولا يمتدّ إلى نَواحٍ يجب أن تنظر إليها المرأة الشرقية بعين الاعتبار، فالمرأة الغربية في منزلها مُدَبِّرة غير مُسرِفة، وتضع للبيت ميزانية مضبوطة لا تخرج بها عن حدّ الاعتدال، ولا تنفق درهماً في غير موضعه، وتعنى برفو الثياب، وتجديد البالي من الأثاث باستصلاحه لا بشراء غيره، فالغربية كما تقول الباحثة[٢]:

---

(١) آثار باحثة البادية، ص٩٧.

(٢) آثار باحثة البادية، ص ١٠٦.

«تقوم تربيتها على العناية والملاحظة، وهي تقتصد في مالها، تَخِيط الثياب لنفسها ولزوجها ولأولادها وتكوي ثيابهم، أما عندنا فالبيوت المتوسطة كلها تكوي في السوق، وتَخيط كل شيء حتى التافه عند الخيّاطات، وبعشرين قرشاً، (كان ذلك في عهد الباحثة) وتستطيع الأوروبية أن تهيّىء طعام الغداء، أما عندنا فلا تبلغ المرأة ما يكفي منزلها بهذا القدر».

ويُلاحَظ أن الباحثة قد ركّزت الحديث على البيوت المتوسطة، لأنها امتدحت منازل الريف في القرية المصرية، وجعلت المرأة الريفية مثلاً للاهتمام بالمنزل، والاقتصاد المعتدل، ومساعدة الرجل في حقله الزراعي، والتزامها حدود اللياقة في التعامل، وقد أخذت عليها انصرافها عن الضروري من وسائل التعليم، أما إخلاصها للزوج، واحتفالها بالمنزل، وكدحها في سبيل الرزق مع الزوج جنباً لجنب، فهذا ما أبرزته الباحثة في معرض الاحتفاء والمُباهاة! وهي بذلك تعطي كل إنسان قدره دون تطفيف أو بخس.

- ٢ -

لم تكن باحثة البادية في عُزلة عن مجتمعها، وهي تكتب مقالاتها الإصلاحية كنفر من الكاتبين يحتجبون عن الناس في أبراج عالية، ويرسلون مقالاتهم في أسلوب مترفّع، بل كانت الباحثة خبيرة فاحصة، تعيش عيشة المجرّب المختبر، فهي في منزل والدها قبل الزواج تقوم مقام الأُم المريضة، فتدبّر شؤون المنزل، وترعى إخوتها الصغار، وتثقف عقولهم الناهضة بما تختار لهم من كتب مناسبة، ثم تقدّم لهم قصائد من شعر الأطفال ليحفظوها، فإذا حضر الزوّار نادت صغارها ليقرؤوا، فتبث الروح الأدبي في محيطها.

وهي بعد صديقة ذات ودّ وربّة اجتماع تزور جيرانها وتدعوهم إلى تعليم البنات كما تعلّمت في وقت لم تكن فيه للبنات بمصر غير مدرسة واحدة، وحين عُيِّنت مُدَرِّسة بالمدرسة السّنيّة، عطفت على تلميذاتها، وقضت معهنّ أوقاتاً طويلة في غير مدة الدراسة ليستأنسن بالمدرسة، ويجدن في حنان الباحثة ما يعوّضهنّ عن حنان المنزل في فترة الابتعاد عنه.

كما كانت من الدّعاة إلى التبرّع بالمال لإنشاء الجامعة المصرية، كتابةً وخطابة، واتصالاً بسيدات الأُسَر المُثرِية ليدفعن أزواجهنّ إلى نصرة التعليم الجامعي، ثم أذِنَ الله فتزوّجت بأحد مشايخ العرب في الفيّوم على مشارف البادية، ففتحت منزلها للزائرات وأكثرهنّ لا يعلمن شيئاً من أمور التعليم والثقافة، فنادت بضرورة الذهاب إلى المدرسة، وعملت على إنشاء مكتب صغير بالقرية لتحفيظ القرآن وحاربت العلاج الخرافي المنتشر بين القرويات، حين تمرض إحداهنّ فتلجأ إلى الرقيّ والأحجبة دون أن تفكّر في زيارة الطبيب.

على أن زواجها قد أوقفها على مساوىء اجتماعية دفعت قلمها إلى محاربتها، إذ كان من حظّها أن يتزوّج قرينها غيرها، وأن يعامل الزوجات بما لا يُرضي شريعة العدل، ثم كان من الحظ مرةً أخرى أن يُصاب الزوج بالعقم فينسبه إلى مَلَك لا إلى نفسه، مما أدّى إلى سحائب من الشجون ظلّت تخيّم في سماء المنزل، فشابَت صفاءه وكدّرت نقاءه، وكأن الباحثة أرادت أن تنسى شجونها الخاصة، فشغلت نفسها بمقالاتها الإصلاحية ترسلها إلى الجرائد اليومية فتجد الصّدى القوي معارضةً وتأييداً.

وهي تسافر إلى القاهرة بين الفينة والفينة، لتقوم بأعباء اجتماعية تتمثّل في إنشائها جمعية للتمريض على غرار جمعية الهلال الأحمر، لتجمع الأدوية والملابس والأغذية وترسلها إلى الجبهة الإسلامية التي تحارب الطليان في ليبيا.

كما عملت على إنشاء مدرسة للتمريض بما جمعته من تبرّعات السيدات وأمدّتها بالضروري من الغذاء والدواء والأسِرّة، واختارت مكاناً لها بالمنيرة في قلب العاصمة، ثم أنشأت ملجأً لتشغيل الفقيرات بالفيّوم، وتبرّعت المحسنات من الأميرات بمالٍ وفير تلبيةً لنداء الباحثة، حتى كان ملجأ الفيّوم، أول ملجأ يرعى الإناث في مصر!.

ومن أكبر مواقفها الذائعة تمثيلها للمرأة في المؤتمر المصري الذي عُقد بمصر الجديدة سنة ١٩١١ برئاسة صاحب الدولة مصطفى رياض باشا، فألقت خطاباً هامّاً عن ضرورة الإصلاح السريع لمستوى المرأة المصرية، وطالبت

بتعليمها الدين الصحيح على أساسٍ من القرآن والحديث، كما نادت بضرورة تدريس التدبير المنزلي للفتاة، وإلمامها بالقواعد الضرورية للتمريض والعلاج.

وكان خطابها في المؤتمر موضع الاهتمام من مُراسِلي الصُّحُف الأجنبية، فتُنُوقِلَت أفكاره على مستوى عالمي، وتتبّع الكُتّاب في مصر مقترحاته البنّاءة شرحاً ونقداً وتحليلاً، وقرّرت بعض فقراته في مادة النصوص الأدبية بالمدارس الثانوية، واقتبست منه بعض الكتب المعاصرة للتاريخ الأدبي مثل: كتاب الوسيط.

وبسبب هذا الخطاب الرنّان اتّسعت دائرة اتصالها، فراسلتها المُصلِحات من المسلمات في الشرق والغرب، مثل أميرة بهويال بالهند، وهي أميرة مسلمة وجدت في مقالات الباحثة صدىً لأفكارها، ومثل: السيدة خالدة أديب الكاتبة التركية الشهيرة، وقد صارت وزيرة المعارف فيما بعد ببلادها، ومثل: الكاتبة الإنجليزية مسز تشارلوت كمرون وقد قَدِمَت إلى مصر.

وزارت الباحثة بالفيّوم وكتبت عنها فصلاً تحليلياً يوضح آراءها الإصلاحية، وكذلك وفدت الكاتبات الفرنسيات والأمريكيات للقاهرة لتكون ملك قِبلَة أنظارهنّ، ومعنى ذلك كله أن جهاد الباحثة قد خصّها بتقدير عالمي، إذ نادت بالإصلاح الاجتماعي عن طريق الإسلام، ولم تكن مثل مَن خدعتهنّ البوارق الخاتلة، فطلبن الإصلاح عن طريق المُحاكاة للأوروبيات وهذا ما عناه الدكتور منصور فهمي حين أفرد لها فصلاً هامّاً يتحدّث عن نضالها الاجتماعي، وقال فيه محبّذاً فخوراً:

«لقد كانت الباحثة ترسم خطوط الإصلاح، وهي متّسمة بميسمها الشرقي والمصري والإسلامي، كما كانت تعتزّ بكثيرٍ من مقوّمات مصر والشرق والإسلام، ما دامت تلك المقوّمات لا تجافي الطبع السليم في شيء، فمن أجل ذلك كله كانت صلتها وثيقة بالميدان الذي تعمل فيه، ومن ثم كان لصوتها صدىً مسموع، وكان توجيهها مقبولاً».

والطريف أن الدكتور منصور فهمي قد عارض بعض أفكار الباحثة وهو شاب يطلب العلم في باريس، ثم رجع إلى تأييدها المطلق، بعد أن صار عميداً لكلية

الآداب بالقاهرة ودعامة من دعائم الفكر المصري، والتوجيه الاجتماعي في وطنه الكبير.

ولعلّ من أطرف ما واجه الباحثة في نضالها الاجتماعي، أن أحد الماكرين من الكتّاب، أخذ يقتطع نصوصاً من مقالاتها ليقرنها ببعض ما كتبه المرحوم قاسم أمين في كتاب تحرير المرأة، ولينتهي من مقارنة النصوص المبتورة من كلمات الباحثة بما كتبه الأستاذ قاسم أمين، إلى أن الرأيين متفقان، وأن مذهب الباحثة لا يختلف عن مذهب قاسم في شيء!.

ولكن الباحثة واجهت الكاتب في قوة، فأرشدته إلى طريقة الحوار الناجح، وأنه خالف وجه الحق حين أخذ يقتطع من الكلمات عبارات غير مستوفاة ليقرنها بعبارات تماثلها، وكان عليه ألّا يتعمّد بَتْر الكلام فيكون كمَن قرأ ﴿ لا تقربوا الصلاة ﴾ ثم سكت، وأخذت تنقل النصوص تامّة مستوفاة لتنطق بغير ما اتجه إليه الكاتب.

وأذكر أن الباحثة الدقيقة الآنسة ميّ قد كتبت فصلاً طويلاً في كتابها عن باحثة البادية، تقارن فيه بين اتجاه الكاتب واتجاه الكاتبة، فكانت ميّ أمينة مخلصة لم تعمد إلى تلفيق متعمّد حين تفصل المبتدأ عن الخبر، ليجيء الكلام على غير وجهه، فليت الذين يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه، يعلمون أن الكلمة أمانة، وأن النقل شهادة، وإذا أُدِّيَت الشهادة على غير وجهها الصحيح فهي زور صريح.

وفي كتاب «آثار الباحثة» ص ٢٧٢ مقال مؤثر تشكو فيه ملك ممّن تتعمد قلب الحقائق في مناقشتها، فتشوّه الكلام، وتنقله إلى غير وجهه، وتزيد فتفتري على ملك ما لم تقل! وهي شكوى لن تنقطع، ما دام الغرض مسيطراً على النفوس.

قلت: إن باحثة البادية لم تكن في عُزلة من مجتمعها وهي تكتب مقالاتها الإصلاحية، بل كانت راصدة لكل ما يقع تحت عينها من مواضع الضعف الإنساني في الرجل والمرأة معاً، فقد كتبت عدّة مقالات مُنصِفة تتحدّث عمّا تراه من مآخذ

تتعلق بالاثنين معاً، وكان الظن بها أن تتجه إلى الرجل وحده فتسجّل ما يقع فيه من أخطاء، كما اتجه بعض الكُتّاب إلى رصد مآخذ المرأة وحدها، وكأن الرجال عنده مُبَرّؤون من كل عيب، ولكن الباحثة تهدف إلى صلاح المجتمع الإسلامي بجناحيه، عالِمة أن صلاح الجناح الواحد، لا يدفع الطائرة إلى التحليق، إذ لا بدّ أن يكون الجناحان معاً في درجة ممتازة من القوة تقدر على الصعود في أعلى الطبقات، من الجوّ مخترقة هوج الرياح في ثبات واطمئنان.

فمما رصدته من مآخذ المرأة في عصرها ـ ولا يزال بعضه باقياً إلى اليوم ـ طِلاء الوجوه، فقد كتبت عن هذا الزّيف الخادع فصلاً رائعاً تقول فيه: إن صاحبات الطِّلاء تقلّدن، ولكن تنقصهنّ مَلَكَة الذوق، فإن الوجوه الشديدة الحُمرة والبياض يكون فيهما دائماً عينان زرقاوان ـ تعني بذلك الأوروبيات ـ ويكسو رؤوسها شعر أشقر، فيحدث التلاؤم بين هذه الألوان، أما المصريات فيصبغن حواجبهنّ بالأسود الفاحِم، وأعينهنّ يغمرها الكُحْل حتى يخلق لها حاجبين آخرين، ثم يصبغن وجوههنّ السمراء أو البيضاء بالأحمر الفاقع، فأين الذوق في هذا الترقيع البغيض.

إن تأثّرات النفس وطبائعها تنعكس على مرآة الوجه، فتُكسِبه أثراً بعيداً يظهر في العين والفم وأسارير الوجه، ولكن الطِّلاء يمحو ذلك كله فيظهر الوجه خالياً من ماء الحياة، ويذهب بذلك رونق الحُسْن، فيضيع الجمال الحسّي كما ضاع الجمال المعنوي.

ومن مآخذ المرأة التي لحظتها الباحثة وأطالت القول فيها، عدم ثقة المرأة بزوجها، وخضوعها للغيرة العمياء، فتراها إذا تأخر زوجها عن موعده ركبتها الأوهام، وأخذت تناقشه الحساب، فيزداد بها ضيقاً، ويعدّها حِمْلاً ثقيلاً جثم فوق كاهله، والغيرة المعقولة مقبولة، إذ هي شيء غريزي لا حيلة فيه، أما الغيرة الرعناء فتعصف بأمن المنزل لا بالزوجة وحدها، وإذا فقدت المرأة الثقة في قرينها، فقد يفقد ثقته فيها أيضاً. ويا لهول الحياة حينئذٍ!.

ومن المؤسف أن يلتفّ حول الزوجة من النساء مَن تزعم لها أنها على حق في غيرتها، وقد تفتري فتزعم أنها شاهدت الزوج حيث لا يجب أن يوجد، ومما يزيد في المأساة أن لسان المرأة لا يسكت، فهو دائم الحديث عن المنغّصات، تعيدها الزوجة مُصبِحة مُمسية، وآكلة وشاربة، ولا بدّ أن يتضايق الزوج مهما احتمل، وقد يفرّ إلى غير عود.

أما أشدّ هذه المآخذ فبغض الزوجة لأقارب الزوج تضيق بهم إذا حضروا، وتفتري عليهم السيئات، لتباعد بينهم وبين الزوج!، فإذا جاء أقاربها كانوا موضع الحظوة والاحتفاء، والرجل يلحظ ذلك فيتحمّل كثيراً أو قليلاً، ولكنه سينفجر في يومٍ ما، وعلى الزوجة التي تريد أن يبتعد زوجها عن أهله أن تعلم أنها هي الطارئة الجديدة، وأنها وفدت على أُمٍّ قد سهرت على تربية الزوج حتى صار رجلاً يقوم بأعباء أُسرة جديدة، والزوجة المتعلّمة يجب أن تدرك مكانة الأُم، وتعرف نصيبها من قلب ولدها لا يملؤه سواها، كما أن على الأُم أن تقدّر خفّة الزوجة فتتحمّل ما يبدر من ترفها، فإذا غفر كلٌّ منهما للآخر، ارتاح الزوج وسَلِمَ من المُعاناة فتفرّغ لعمله في هدوءٍ وانشراحٍ.

وفي تعداد المآخذ لم تَنْسَ الباحثة أن تكتب فصلاً طويلاً ممتازاً عن إسراف المرأة ومبادرتها سواها في التبذير حيث لا مُوجِب، وقد يبدأ الإسراف قبل الزفاف حين تكلّف الواحدة أباها بما لا طاقة له به، كيلا ينقص جهازها عن جهاز جارتها، وقد يكون الأب ميسوراً فلا يجد رهقاً في إعداد ما يُراد، ولكن ماذا يصنع إذا كان محدود الدّخل، ووُوجِهَ بما لا يستطيع، وعلّة هذه المباراة بين الزوجة ومَن تعرف من صاحباتها هي الحسد الذي يأكل القلب، فلا تطيق أن ترى جهازاً أفضل من جهازها، وقد نسيت أن هذه التي تريد المساواة بها لها جارات لديهنّ أكثر مما لديها من الأثاث! فاختلاف الناس يُسراً وإعساراً مما لا حيلة فيه، وعلى الزوجة أن ترضى بالميسور دون جموح، تقول الباحثة بصدد ذلك[1]:

---

(١) آثار باحثة البادية، ص ٢٢٨.

«إن الفقر لا يُنزِل الإنسان من رِفعته، إذ الاعتبار الحقيقي هو بالفضائل لا بالمال، فماذا يضرّ المجتمع الإنساني إذا كنت أفقر من صاحبتي أو كانت هي أفقر منّي، بل ماذا يفيد مُحاكاتي لها إذا كنت لا أستطيعها بمعناها الصحيح، هي تقدر أن تتجمّل بالثياب الحريرية، والألماس الكثير لمالها وغناها، ولكني قصيرة اليد عن الإتيان بمثل ما عندها، أفليست القناعة خيراً وأولى، إن الغنى ليس متيسّراً لكل فرد، فأولى أن يلزم كلٌّ حدّه، فلا يكون مثلنا كمثل الضفدع التي أحبّت أن تبلغ حجم الثور، فاستعانت بالماء فانفجر جوفها وماتت».

وقد ختمت مآخذ المرأة بفصل جيد عن سُرعة غضبها، وتهديدها الزوج بالفراق، وانفعالها لأقل كلمة تصدر من الزوج، فتعدّها جريمة كبرى، وتسرع بالرجوع إلى أهلها، ناسيةً أن منزل الوالد لم يعد منزلها منذ عرفت منزلها الجديد، وأغرب شيء من أمرها أنها تطالب بالطلاق لأمرٍ تافه يُستَدرَك بأقل الجهد، ولكنها تضخّم الصغير حتى تقنع ذويها بما تريد.

فإذا تركنا ما كتبته الباحثة عن مآخذ المرأة، وانتقلنا إلى ما رأته من مآخذ الرجل، فإننا نجدها تجعل الطمع أول هذه المآخذ، إذ يحدّث الرجل نفسه كثيراً بما لدى والد الزوجة من مال، وما تحوزه هي إذا آلَ إليها شيء منه عن طريق الميراث أو الوظيفة، وقد فاته أنه مُكَلّف شرعاً بالنفقة على بيته، ومال الزوجة يجب أن يكون لها، إلاّ إذا رأت الزوج ذا احتياج ضروري، فلا بدّ من إسعافه إلاّ أن يكون موسراً ثم يطمح إلى مال سواه، تقول الباحثة[1]:

«لا أحسب الرجل ذا مروءة ونخوة، وهو يبيع حليّ امرأته، ويجرّدها حتى في حال عُسْره، إذ لا معنى لرجولته، ووصفه نفسه بالقوة والنشاط، مع عكوفه على الكسل، ولماذا لا ينقّب عن عمل يرتزق منه دون أن يمدّ يده إلى حاجة غيره، وقد يهدّد الزوجة بالفراق إذا لم تمنحه ما يريد، فتضطر إلى إعطائه وهي لا تأمن غدره في وقت قد يحين».

---

(١) آثار باحثة البادية، ص ٢٣٤.

ومما أحصته الباحثة من مآخذ الرجل ظلمه السريع، فقد يسأم الزوجة إذا رُزِقَت الإناث، ويعدّ ذلك عيباً منها، وهي لم تَجْنِ شيئاً؟ إذ إن وضعها كوضعه، ثم يتزوج عليها لهذه العلّة وهو لا يضمن العاقِبة؟! أفلا يجوز أن تكون المرأة الجديدة عاقِراً لا تلد، أو تكون وَلُوداً تنجب ثم يموت ولدها بعد وقت قريب، لأن القدر لا يُعاكس، ومشيئة الله فوق كل مشيئة.

أما أصعب المآخذ التي وجّهتها الباحثة إلى الرجل فهو ازدراء المرأة، ويخيّل إليّ أن هذا المأخذ قد تضاءل في عصرنا الحاضر، ولكنه في زمن الباحثة كان ذا خطرٍ شديد، لذلك اهتمّت به اهتماماً بالغاً، فذكرت أن مظاهر الظلم للمرأة كثيرة، لأن المرأة كما تقول ملك ناصف: مسلوبة الحق في كل أدوار حياتها، يتشاءم منها وهي جنين خِيفة أن يكون الجنين أُنثى، فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الجِباه مُقطّبة، والصدور منقبضة، وترى القابِلَة وهي تحملها منكمشة لا تبدىء ولا تُعيد، كأنما كان لها بعض الذنب في ولادتها أُنثى.

ثم استطردت الكاتبة فذكرت أن ازدراء الرجل للمرأة يظهر جليّاً في أفعاله وتصرّفاته، إذا حزن يوماً لا يُكاشفها بما يؤلمه، وإذا نوى الشّروع في عمل يعدّها غريبة عنه فلا يخبرها، يخرج من البيت ولا يعود إليه إلّا لأمر ضروري، لأن سعادته في مُسامرة الأصدقاء في المقاهي، لا في مؤانسة الزوجة.

وقد زار رجالنا بلاد أوروبا فرأوا احترام المرأة وتقديرها، وهم في بلادنا بأرض مصر إذا رأوا سائحة أفرنجية تلطّفوا لها كثيراً، فساعدوها في النزول من عربتها، وحملوا لها حقيبتها، في حين أن أحد الأزواج يضيق بمصاحبة زوجته في مركبة واحدة، وإذا ذهبت لشراء حاجة ما من حاجات المنزل ألقى العبء عليها، وجلس مستريحاً في مقهاه حتى تقضي حاجة المنزل وحدها، مع كثرة الزحام وبذاءة بعض السائرين من ذوي الرقاعات، وقد يرصد عليها العيون وهي سائرة، فأيّ سبّة للمرأة الطاهرة العفيفة أنكى أثراً وأشدّ إيلاماً من أن يحوطها زوجها بالرّقباء إذا انتقلت من مكان إلى مكان!.

وحديث الباحثة عن احترام السائحة الإفرنجية، دون المرأة المصرية، يذكّرنا بتحذيرهـا المُلِحّ من الزواج بـالأجنبيات، إذ تتبّعت هـذه الظاهـرة منذ ابتـدائها في عصـر إسماعيـل حين هجم علينا جيش من الشـركسيات، فخـرج ظـافـراً بـأحسن رجالنا، فلم يبقَ نابِه أو ثريّ في مصر إلّا وأُم ولـده جاريـة شركسيـة من مُشتَرَيـات إسماعيل، ثم بطل الرقّ فهـرع المتنوّرون إلى الـزواج بالأوروبيـات، وليتهنّ ـ كما تقـول البـاحثـة ـ من ذوات الشـرف، ولكن أكثـرهنّ إن لم نقـل كلّهنّ من فـريق الراقصات والخادمات وأشباههنّ.

وإذا كانت النساء المصريات في عهد إسماعيل جاهـلات غير متعلّمـات فما بالنا الآن وقد تعلّمت المرأة المصرية نَهرع إلى الزواج بـالأجنبيات، نـاسين أن ابن الفرنسية يشبّ ذا ميول إلى وطن أُمه، أكثـر من ميولـه إلى وطن أبيه، وكـذلك ابن الإنجليزية وغيرها!، ثم أليس من العار أن ينسى هذا المُندَفِع إلى غير بنات وطنه، أُخته وبنته وبنات عمّاته وخالاته ليكون نصيبهنّ الكساد إذا سار الناس على مِنواله، وانصرفوا إلى الخامِلات من الأوروبيـات، لأنهنّ اللّاتي يـرضين بهم، كما نشـاهد من واقع الحال. وتلك صراحة من الباحثة تشابه صراحتها حين حاربت تعليم الفتاة في مدارس الراهبات، إذ إن أكثر القائمات والقائمين بالتدريس في هذه المـدارس لعهد الكاتبة أجانب غيـر مصريين، وحسبـك أن يكون تـاريخ فـرنسا مثـلاً موضـع الاهتمام في دروس التاريخ، بحيث تعرف التلميذة المصرية عن نابليـون أكثر ممـا تعرف عن عمر بن الخطاب، وصلاح الدين الأيوبي! وإن مدارس الوزارة المصـرية على ما يلحقها من نقد أكفأ وأقدر على التربية الصحيحة من هذه المدارس.

لم تمتدّ الحياة بالباحثة، فقد لقيت ربّها في سنّ الثانيـة والثلاثين بعـد مرض لم يلبثها غير أيام، فرحلت مبكياً على نبوغها وغيرتهـا وإخلاصهـا، وكانت جـديرة بقول القائل:

يـا كـوكبـاً مـا كـان أقصـر عمـره وكـذاك عمـر كـواكب الأسحـار



محمد عبد الله دراز
بـــــاحث منهجـــي متفـرّد

- ١ -

رُزِقَ الـدكتور محمـد عبد الله دراز نبـاهة سـاطعة في الـدوائر العلميـة، لأن الرجل كان طرازاً خاصّاً من المفكّرين حيث لم يكن يكتب غير الجديد الـطريف، الذي لم يسمع به القارىء من قبل، مهما تنـوّعت ثقافتـه واتّسع إدراكـه، لقد كـان يقدّر تَبِعَة القلم تقدير العالِم الطامح المُشرَئِب للكمال، فهو لا يـدرس غير المفيـد النافع، ولا يؤلّف في غير المجهول الذي تتطلّع الأنظار إلى كل كلمة من كلماته!.

لقـد عهدنـا أُناسـاً من الكُتّاب يُكثِرون المؤلّفات تِبـاعـاً، ولكنهم يجمعـون ويلخّصون، فقارئهم الدّارس يردّ كل جملة إلى موضعها، ويعرف خُـلاصة مـا يقرأ قبل أن يلمّ به، وما أكثر هؤلاء فيمَن تتردّد أسماؤهم في كل مناسبة.

لـذلك كـان محمد عبـد الله درّاز نمـطاً نـادراً فيمـا يكتب، إنـه يؤثـر البحث الهادىء دون عجلة، ويضع الخـطة المُحكَمة دون تسـرّع، ولا يهمّه طـال الأمد أم قَصُر، إن الذي يهمّه جدّاً أن يستخرج من المعلوم مجهولاً، وأن يكتب في موضوع قد اشتهر بين الناس ليأتي بمـا يجهل النـاس، لذلـك عرفـه الصفوة من الـدّارسين فتتبعوا آثاره في اللغتين العربية والفرنسية، وتلمّسوه في مظانّ البحث، فإذا مرّ وقت ما دون أن ينفحهم ببعض آثاره تشـوّقوا إليـه مستوحشين، وأخـذوا يترقّبـون كلماتـه ارتقاب الغيث عند الظمأ.

وهو رحمه الله دائماً يصدقهم الوعد، فيشرق عليهم بما يمتع ويقنع ويشبع، لذلك كانت الكارثة مروعة حين سافر إلى المؤتمر الإسلامي بلاهور، ليلقي بعض ما عرف من آياته في حفل إسلامي مشهود!، ثم جاءت الأنباء بموته المفاجىء، فكان لنعيه حسرة دامية في نفوس مَن يعرفون أن الرجل قليل النظير في إبداعه الفكري، وأنه نسيج وحده كاتباً ومؤلّفاً وأُستاذاً بالجامعات.

ومع أن الدكتور لم يبلغ أرفع المناصب العلمية الرسمية التي كان يستحقّها عن ثقة وجدارة، فقد كان المثقفون جميعاً يجمعون على سموق منزلته الفكرية، ويعدّونه رأساً بارزاً من رؤوس الفكر الإسلامي المُعاصر، وقد أثبت تاريخه العلمي حقائق سافِرة لم تعد بعدُ موضعاً للنزاع من أحد، منها: أن العبرة لدى الدارسين تعظم بجودة التأليف لا بكثرته، وبطرافته لا بتقليديته.

ومنها: أن صاحب الإنتاج العلمي المتميّز، يفوق سواه ممّن سبقوه بالمناصب الرسمية، فهم دونه في ميزان الفضل، مهما فتنت البوارق ولمعت الأضواء، ومنها: أن الإخلاص للروح العلمي يجد التقدير البالغ من الخاصّة، وهم وحدهم مكان الترجيح، وموضع الاختيار، لأن النفوس الواعية أعقل من أن تزجي الثّناء البالغ لغير السابق الطموح، وكما قيل:

والناس أكيس مِن أنْ يمدحوا رجلاً   ما لم يروا عنده آثار إحسان

لقد قرأت تفسيراً لفاتحة الكتاب كتبه الدكتور دراز، فأعجبني أن أجد من حُسْن الاستنباط، ودقّة التعليل، وبراعة التحليل ما جعلني أُطالع الجديد حقاً، وفاتحة الكتاب معروفة مشروحة، وقد فسّرها آلاف الشارحين في القديم والحديث، وأكثرهم نَقَلَة حَفَظَة يتداولون ما يقرؤون، ولكن الرجل المبتكر، يلقي نظره وراء السطوح الخارجية ليرى في اللفائف المستكنّة ما غاب عن سواه، حين نظر للسورة الكريمة من جهة مقاصدها، ومن وجهة خطابها، لأن الفاتحة في رأيه تُوجِز المقاصد الأساسية التي عَناها القرآن، إذ تضمن مقصدين نظريين هما: معرفة الحق، ومعرفة الخير، كما تتضمن مقصدين عمليين هما: تقديس الحق، والالتزام بالخير.

أما قوله تعالى: ﴿ ربّ العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾ فشذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاث، من حيث المبدأ، فالواسطة فالمعاد، فربّ العالمين هو المبدأ، والرحمن الرحيم هو مصدر الرحمة في الحياة، ومالك يوم الدين هو صاحب الأمر النهائي عند الحساب، فإذا كان الله وحده هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وتعهّده بالإمداد حتى بلغ مداه، وإذا كان هو الذي يملك خزائن الرحمة في السمٰوات والأرض يضاعفها كيف يشاء، وإذا كان هو الذي بيده فصل القضاء وتقرير المصير، فأيّ شيء أحقّ منه بنعوت الجمال والجلال؟ بل أيّ شيء غيره يستحق الحمد والثناء؟.

والنتيجة الطبيعية لذلك أن يضمحلّ في عينك كل ما ترى في الوجود من مظاهر زائفة، وأن تهتف من أعماقك متّجهاً إلى ربك ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ نعبد أولاً فنؤدّي واجبنا، ونستعين ثانياً فنطالب بحقوقنا، وهذا هو الجانب الإلٰهي نظرية وعملية.

أما الجانب الإنساني فيتضمن المنهجين نظرياً وعملياً، تضمنته السورة في كلمتين هما: الصراط المستقيم، ثم وصفته بأنه الطريق المُوصِل إلى رضوان الله، وأشارت إلى مُثُله التاريخية في سِيرة الذين أنعمت عليهم، ثم وضعت معياراً لأنواع الطرق المنحرفة، فبيّنت أن الانحراف على ضربين: انحراف عن علم وقصد، وهو انحراف المغضوب عليهم، وانحراف عن جهل وطيش، وهو انحراف الضالّين.

ثم يقول الدكتور دراز ما نصه: «إن سورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي وضعت أول الأمر لا على لسان الربوبية العليا، ولكن على لسان البشرية المؤمنة، تعبيراً عن حركة نفسية جماعية متطلّعة إلى السماء، بينما سائر السّور تعبّر عن الحركة المقابلة، حركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض، وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثّل أمامنا في صورة مُناجاة ثنائية، الفاتحة أحد طرفيها، وسائر القرآن طرفها الآخر، الفاتحة سؤال، وباقي القرآن جواب، الفاتحة هي طلب الهدى، والباقي هو الهدى المطلوب».

هذه خُلاصة غير دقيقة لا تُغني عن صفحات رائعة كتبها الدكتور في تفسير الفاتحة، لأن مقالاً علمياً للدكتور دراز يتضمن تفسير الفاتحة، لا يقوم باحتوائه تلخيص ما، فالمقال العلمي لدى الكاتب البصير لبنات متعاقبة يسند بعضها بعضاً، وتقديم بعض اللّبنات دون بعضٍ عرضٌ للنوع فقط، وهو عرض لا يَفِي بالأصل المرصود، وهَبْكَ قرأت قصة فنية في صفحات، أفتستطيع تلخيصها دون أن تخلّ ببنائها الفنّي؟، كذلك المقال العلمي التحليلي لا يلخّص إلّا ليدلّ على المثال، لا لأن يعبّر عن حقيقة المقال.

كانت نشأة محمد عبد الله دراز العلمية فريدة في بابها، فقد وُلِدَ في بيت علم وخلق وورع، فوالده الشيخ الكبير الأستاذ عبد الله دراز من كبار علماء الأزهر المُشار إلى تضلّعهم العلمي، وصلاحهم الخلقي، وقد وُلِدَ نجله سنة ١٨٩٤، وسرعان ما تفتّحت عينه على زملاء أبيه يغشون منزله كلّ ليلة لدراسة كتب العلم، والحديث في مسائل الإصلاح الديني، وكان الوالد يأخذ منزله بآداب التقوى، يؤمّ أهله في صلاتي العشاء والفجر، ويقرأ صحيح البخاري في ليالي رمضان، ويسهر على تثقيف أبنائه وتعوّدهم على سُنن الخير صلاةً وصياماً وزكاةً، وحُبّاً للمعروف، وبُعداً عن الدنايا.

وطبيعي أن يلتحق ولده بالأزهر بعد أن حفظ كتاب الله، واستظهر بعض المتون العلمية الذائعة لوقته، وقد ظهرت دلائل نبوغه إذ كان متقدّماً في امتحاناته السنوية حتى نال شهادة العالمية سنة ١٩١٦ وعُيِّن مُدَرّساً بالأزهر، إذ هو الأول في ترتيب الامتحان، ولم تشغله أعباء التدريس عن تعلّم اللغة الفرنسية، حيث حذقها في ثلاث سنوات.

وقامت ثورة ١٩١٩ ليُسهِم الشيخ الشاب في كتابة المنشورات باللغة الفرنسية، ويطوف بها على السفارات، ثم ليكتب في جريدة الطان الفرنسية ملخّصاً ما يدور بالجامع الأزهر من خطب السياسة، كما أشار عليه ابن عمّه الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، وهو يومئذٍ من رجال الثورة البارزين في المحيط القاهري، حتى إذا هدأت الأمور استأنف التدريس بالأزهر، ودأب على نشر

المقالات الدينية في أُمّهات الصُّحُف، كما أشرف على طبع كتاب «الموافقات» للعلاّمة الشاطبي في أُصول الفقه، إذ شرحه والده الكبير شرحاً يدلّ على غوص ونفاذ.

وليست مهمّة العالِم الشاب بالسهلة في هذا المضمار، فالشاطبي هو الشاطبي، والعلم هو الأصول، والشارح هو الوالد العلاّمة، فإذا خرج الكتاب بأجزائه الأربعة محقّقاً برعاية الشيخ الشاب، فقد دلّ على جدّه البالغ واهتمامه الحريص.

وحين أُنشئت كليات الأزهر اختير أُستاذاً للتفسير بكلية أُصول الدين مع أساتذته الكبار من أمثال: إبراهيم الجبالي، ومحمد الخضر حسين، ومحمد سلامة، وعلي محفوظ، ولم يكن محمد عبد الله بأقلّ منهم كفاءةً واقتداراً على حداثة السنّ، بل كان أقرب منهم إلى قلوب الطلاب لحُسْن تواضعه، وقُرْب اتصاله بشباب لا يزيد عنهم في الزمن أمداً ذا بال.

وقد شاع فضله فرشّحته مواهبه لعضوية البعثة الأزهرية إلى فرنسا سنة ١٩٣٦، بجامعة السوربون، فكان في طليعة أبنائها فهماً وأصالةً وسعَة أُفق، ثم هيّأت له الظروف السعيدة مناسبة سارّة سطع فيها نجمه العلمي فجذب إليه أنظار الدّارسين في أوروبا، إذ عقد مؤتمر الأديان بباريس سنة ١٩٣٩.

وشاء الإمام: محمد مصطفى المراغي أن يكون محمد عبد الله دراز ممثّل الأزهر في هذا المؤتمر العالمي، الذي ضمّ صفوة المفكّرين من رجال الأديان في الشرق والغرب، فانتدبه ليلقي كلمة الأزهر ممثّلة للإسلام في هذا المؤتمر، وليست المهمة بسهلة في مناسبتها ومجتمعها ورجالها، لأن الرؤوس في كل دين سيتحدّثون بما يجلو النقاب عن عقائدهم، ولكلٍّ فكره الصوّال وحجاجه الدقيق.

وقد أنعم الله بالتوفيق على الأستاذ دراز، حين واجه العالم المتحضّر ممثّلاً في رؤوسه المفكّرة بإيضاح معنى السلام في الإسلام، حيث يهدف إلى إسعاد الإنسانية بإزالة ما يكدّر الصفاء ويسبّب الشقاء، إذ تحدّث عن الواقع العالمي

الراهن بما ينبىء عن قلقه وفزعه، وهكذا كان العالم قبيل الحرب العالمية الثانية، التي لم تلبث أن نشبت بعد ثلاثة أشهر فحسب!! فتساءل الأستاذ عن سرّ الشحناء السائدة بين الدول، وردّ باعثها إلى سيطرة المادية سيطرة حازبة، ولا علاج إلّا بإنعاش القوى الروحية في الأمم عن طريق الدين، وقد كان المتكلّم صريحاً حين قال في وضوح:

غير أننا إذا رجعنا إلى الأديان نلتمس منها المعونة هالَنا ما نراه من اختلافها اختلافاً ظالماً، كان من أسباب الخصومات والحروب، بدل أن يساعد على حُسْن التفاهم والتقريب، فهل نستطيع أن نجد من وراء هذا الاختلاف وحدة مشتركة في المبادىء والمطامح تصلح أن تكون محوراً لتقرير السلام بين معتنقيها، وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك؟.

وأجاب الأستاذ على هذا بقوله: أما أنا فأميل إلى أن يكون الحلّ على أساس الفصل في الأديان بين ناحيتها الاجتماعية، وبين نواحيها الأخرى، وأعتقد أن افتراق الأديان في عقائدها وشرائعها لا يمنع التقاءها من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة، هي أساس التعاون المطلوب، وذلك أنها كلها تأمر بالعدل والإحسان، وتنهى عن الظلم والعدوان، وكلّها تسوّي في هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وأعدائها.

وأخذ الباحث يعرض نصوصاً من كتب الأديان تؤيّد منحاه الصريح، لينتهي إلى أن الأديان كلها بدلاً من أن تكون سبباً للنزاع، يجب أن تكون باعث الائتلاف والوئام، كما أن السبب الحقيقي للخصومات الدينية هو تعمّد الانحراف عن الدين، وهجر تعاليمه الصحيحة، وليس من علاج لآلام الإنسانية الحاضرة غير عناية رجال الأديان بالجانب الخلقي، ليكون نواة ارتكاز ينهض عليها السلام، وهذه خطوة أوّلية في سبيل التفاهم في الحقائق الدينية نفسها.

وحين ختم المُحاضِر كلمته أعلن السّير فرنسيس رئيس المؤتمر أن كلمة مندوب الأزهر تُعَدّ الكلمة الرئيسية في المؤتمر، وأثنى عليها المُعَقّبون بما تستحق من تنويه، وكان من حظّها أن تخصّها الصُّحُف الفرنسية بخُلاصة وافية، وأن تجمع على أنها الكلمة الأولى في المؤتمر.

وإذا كانت محاضرة الأستاذ دراز في المؤتمر العالمي للأديان، كانت مشرق نجمه في الدوائر العلمية العالمية، فقد شاء الله أن تكون آخر محاضرة له في مؤتمر مماثل، هو المؤتمر الإسلامي الدولي المنعقد بلاهور (الباكستان)، في يناير سنة ١٩٥٧، حيث أعدّ بحثاً ممتازاً تحت عنوان: (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها).

وهو بحث شاء الله أن يلقيه سواه، إذ لبّى الأستاذ نداء ربّه أثناء انعقاد المؤتمر، وقبل أن يسعد الناس بإلقاء كلمته، وفي هذا البحث الضليع تتجلّى أُستاذية الدكتور دراز المكينة، كما تتجلى سِعَة أُفقه حين اعتمد على المنطق التحليلي المؤيّد بالدليل في جميع ما قرّر من القضايا.

ونحن نضطر إلى الإلماع لبعض ما قال حينئذٍ، إذ صوّر موقف الإسلام من الأديان الأخرى تصويراً جامِعاً مانعاً، على دقّة بالغة لا تسمح بالإيجاز أو الاستطراد، إذ أعلن مبدئياً أن كلمة الإسلام بمدلولها القرآني تشمل جميع الديانات السماوية، وضرب الأمثلة الدّالّة على ذلك من مثل قول الله على لسان نوح: ﴿ وأُمِرتُ أن أكون من المسلمين ﴾ [سورة ١٠، آية ٧٢]، وعلى لسان يعقوب مخاطباً بنيه: ﴿ فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ [سورة ٢، آية ١٣٢]، وقول موسى: ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكّلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [سورة ١٠، آية ٨٤]، وقول الحواريين لعيسى: ﴿ آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون ﴾ [سورة ٣، آية ٥٢]، ويعقّب على ذلك بأن الإسلام بمعناه القرآني لا يصلح لأن يكون محلاً للسؤال عن العلاقة بينه وبين الأديان السماوية، إذ لا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه، فها هنا وحدة لا انقسام فيها!.

فإذا ترك المدلول القرآني لكلمة الإسلام إلى المدلول العُرفي لدى الناس، فإننا نجد الإسلام حينئذٍ يدلّ على مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها رسول الله ﷺ، أو التي استنبطت مما جاء به، وفي تحديد العلاقة بين الإسلام بهذا المعنى، واليهودية والمسيحية، نجد الدكتور دراز يقسم البحث إلى مرحلتين:

مرحلة الصورة الأولى لهـذين الدينين قبـل التبديـل، ومرحلة الصـورة الثانيـة لهما بعد التبديل وعن المرحلة الأولى يؤكد المُحـاضِر أن القـرآن جاء مُصـدّقاً لمـا قبله، فهو مصدّق للتوراة والإنجيل معاً، وليس معنى التصديق هو التذكير فقط دون تبديل، إذ جاء الإنجيل بتعـديل أحكـام التوراة، فـأعلن عيسى أنه أتى ليحـلّ لبني إسرائيل بعض ما حرّم عليهم، وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكـام الإنجيل، إذ أعلن كتاب الله أنه نزل ليحلّ للناس كل الطيبات، ويحرّم عليهم كل الخبـائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

يقول الدكتور دراز: «ولكن يجب أن يُفهَم أن هذا وذلك لم يكن من المتأخر نقضاً للمتقدّم، ولا إنكاراً لحكمة أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفاً بها عند وقتها المنـاسب، مثل ذلـك مثل ثـلاثة من الأطبـاء، جاء أحـدهم إلى الطفـل في الطور الأول من حياته فقرّر قَصْرَ غذائه على اللبن، وجاء الثاني للطفل في مرحلته التاليـة فقرّر له طعاماً نشوياً خفيفاً، وجاء الثـالث في المرحلة التي بعـدها فـأذِنَ له بغـذاء كامل، وهكذا كانت الشرائع الإسلامية كلهـا صدقـاً وعدلاً في جملتهـا وتفصيلها، ولكن هـذا التصديق على ضـربين: تصديق للقـديم مع الإذن ببقـائـه واستمـراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ولولا اشتمال الشريعة على هـذين النـوعين ما اجتمـع لها العنصـران الضروريـان لسعادة المجتمـع البشـري: عنصـر الاستمرار، وعنصر التجديد».

ثم انتقل الأستاذ إلى أمثلة تشريعية جعلها موضع التطبيق الصادق لما يقول، لينتهي إلى الحديث عن العلاقة بين الشريعة الإسلامية والشرائع السماوية، بعد أن طال عليها الأمـد، فنالهـا شيء من التطوّر والتحـوير فيعلن أنـه إذا كان القـرآن في المـرحلة الأولى مصدّقـاً، فهو في هـذه المـرحلة مهيمن على تلك الكتب حـارس عليها.

ومن مقتضيات الحراسة ألّا يكتفي الحارس بتأييد مـا خلَّفه التـاريخ فيهـا من حقٍّ وخير، بل عليه أن يحميها من الدخيل الـذي يُضاف دون حق، فمهمـة القرآن حينئذٍ أن ينفي عنها الزائد، وأن يتحدّى مَن يدّعي وجـوده في هذه الكتب: ﴿ قـل

فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [آل عمران/٩٣] و﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ [المائدة/ ١٥].

وكان من الضروري أن يختم البحث بإيضاح موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية، فعرض لآراء المنحرفين ممّن فهموا هذا الموقف على غير وجهه، وكرّ على باطلهم بالدليل، ليعلن أن الإسلام ليس فاتراً ولا منطوياً على نفسه، لأن الدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركانه، وفي الوقت نفسه يدعو بالرفق والحكمة والموعظة الحسنة، فنبيّ الإسلام هو أول مَن يعرف أن كل محاولة إجبارية لفرض دين معين هي مقاومة لسُنّة الوجود: ﴿ ولو شاء ربّك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ [هود/ ١١٨]، ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [يوسف/ ١٠٣]، ﴿ ولو شاء ربّك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً * أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس/ ٩٩]، ﴿ إنك لا تهدي مَن أحببت ولكن الله يهدي مَن يشاء ﴾ [القصص/٥٦].

أقول مرةً ثانيةً: إن تلخيص آراء الأستاذ دراز لا يُغني عن استقصائها، لأن كل لَبُنة في بنائه تحمل كيانها الخاصّ، وإني أدعو رجال الدعوة الإسلامية إلى تتبّع كلّ ما كتبه الأستاذ الكبير عن علاقة الدين الإسلامي بالأديان السابقة، لا ليلمّوا بالأفكار وحدها بل ليدرسوا منهجه المنطقي في تقرير القضية وعرضها، والاستدلال عليها، وعليهم أن يعرفوا أن الإسهاب في غير موضعه خطل بائر، لأنه يقذف بالقضايا الواضحة إلى متاهات مُضِلّة، وقد صرنا في عصر متفتّح المنافذ لكلّ ضوء، وضوء الإسلام بحقائقه الثابتة أقوى شعاعاً، وأهدى سبيلاً، وعلينا أن نعرضه واضحاً ساطعاً دون أن يغشاه سحاب مركوم من النقول الضالّة، والآراء الدخيلة، وعلى الله قصد السبيل.

- ٢ -

حين تهيّأ الدكتور محمد عبد الله دراز لإعداد رسالة الدكتوراه في الفلسفة بجامعة السربون، لم يحتطب في حبل المستشرقين، كما نعهد لدى كثيرٍ من

المبعوثين الذين يخضعون إلى توجيهات مُرِيبة، فيكتبون عن الإسلام والعربية ما يُرضي نزعات مَن يشرفون على رسائلهم، وفيهم مَن يشتطّ فيعبّر عن كل ما يودّون إذاعته من أراجيف، لينال الحظوة لدى قوم يسوءهم أن يظهر في مظهره الشريف.

لقد قدّر دراز أنه مبعوث الأزهر، وأن عليه أن يصحّح أخطاء مَن جحدوا الإسلام عن عمد أو جهل، وما دام لديه المنطق الصحيح، فخيرٌ له أن يخوض المعركة مع خصومه الذين هم في الوقت نفسه أساتذته الفاحصون والمُشرِفون، وإليهم يرجع الأمر في تقدير الرسالة قبولاً أو رفضاً!، لذلك تقدّم برسالتين للمناقشة، رسالة رئيسية عن الفلسفة الأخلاقية في القرآن، وقد ترجمت إلى العربية تحت عنوان: (دستور الأخلاق في القرآن)، ورسالة فرعية تحت عنوان: (المدخل إلى القرآن الكريم)، وقد ترجمت أيضاً إلى اللسان العربي.

يذكر المؤلّف العلاّمة بصدد الرسالة الأولى، أن النظرة السريعة إلى مؤلّفات علم الأخلاق العامّ السائدة في أوروبا كافية لنلحظ فراغاً هائلاً، نشأ عن السكوت عن علم الأخلاق القرآني، إذ إن هذه المؤلّفات تذكر المبادىء الأخلاقية في الوثنية الإغريقية، واليهودية والمسيحية، ثم تنتقل إلى العصور الحديثة فجأة وكأن الإسلام لم يكن، وكأن القرآن لم يحدث تأثيره الخلقي في العالم بأجمعه، أفليست هذه خسارة ضخمة أن نغفل نظرية الأخلاق في الإسلام؟.

لقد وجدت محاولات مبتورة في هذا المجال، جاء مضمونها بعيداً عن النظرية الأخلاقية الصادقة في كتاب الله، فمن حيث الإطار أغفل الباحثون الجانب النظري من المسألة، فليس هناك عالِم أوروبي واحد حاول أن يستخلص من القرآن مبادئه الخلقية العامّة، ومن حيث المضمون فقد رجع هؤلاء إلى ترجمات غير صحيحة، وإلى تلخيصات مشوّهة فكتبوا بتأثيرها غير الصحيح.

يقول الدكتور دراز: «ولذلك بَدَا لنا من الضروري أن نتناول الموضوع من جديد، وأن نعالجه تبعاً لمنهج أكثر سلامة، من أجل تصحيح أخطاء الكاتبين، وملء هذه الفجوة في المكتبة الأوروبية، لنُرِي علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية».

ولم تكن المهمة سهلة هيّنة، لأن كتب الأخلاق الإسلامية في أكثرها الغالب لم تبحث التأصيل النظري للقضية الأخلاقية في الإسلام، ومَن تحدّث عن ذلك كانت شذراته متناثرة في أماكن مختلفة من كتب التصوّف والفقه وعلم الكلام، وكلها لم تُعْنَ دائماً بوجهة النظر الأخلاقية بمفهومها الخاص، وللغزالي وغيره كلام في المنحى الخلقي ذكر الباحث عنه أنهم جمعوا الآيات القرآنية بترتيب السور، وجعلوا من مختاراتهم مجرد جمع لمواد متفرّقة لا تجمع بينها روح القرابة، ولا يظهر أيّ تسلسل للأفكار، لذلك كان الباحث رائداً في طريقه الجديد.

ودراسة هذه الرسالة مما يتعذّر في هذا المجال، وحسبنا أن نشير إلى أنها ترجمت للعربية في (٧٨٠) صفحة[١]، وأنها تضمنت بابين كبيرين: الباب الأول عن الوجهة النظرية للأخلاق القرآنية، وقد جاء في فصول خمسة تتحدّث عن الإلزام، والمسؤولية، والجزاء، والنيّة ودوافعها، والجهد، والباب الثاني عن الأخلاق العملية، وقد جاء في خمسة فصول تتحدّث عن الأخلاق الفردية، والأخلاق الأُسرية، والأخلاق الاجتماعية، والأخلاق الدينية، وأخلاق الدولة، ثم ختمت الرسالة ببحث إجمالي يُوجِز أُمّهات الفضائل الإسلامية.

ومن الإنصاف أن نذكر أن منطق الدكتور دراز كان من القوة بحيث ألزم مُناقِشِي الرسالة بأن يمنحوه مرتبة الشرف الأولى من دكتوراه الدولة!، وهي أعلى الدرجات العلمية في فرنسا، لأن الرسالة قد غيّرت المفهوم السائد عن الفلسفة الإسلامية بنوع عامّ، وعن فلسفة الأخلاق بنوع خاص، إذ كان الشائع المتداول في دوائر الاستشراق، أن مفهوم الفلسفة الإسلامية ينحصر في المترجمات الإغريقية دون زيادة، فالعرب المسلمون مترجمون لا مؤصّلون، فجاءت هذه الرسالة لتثبت أصالة الفكر الإسلامي الفلسفي، ولتعدّ القرآن الكريم منبعه الأول.

كما أن الأخلاق الإسلامية لدى هؤلاء لم توصف بغير مجموعة من العِظات والنصائح لا تخضع لفكرة شاملة ولا تتقيد بمنطق عام، فجاء القسم النظري من

---

(١) ترجمها الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين.

الرسالة ليؤكّد قوة النظرة الفلسفية لدى المسلمين، وهي نظرة جديدة تستمدّ عناصرها من القرآن، ولا تعتمد على وافد من الترجمات!.

أما الرسالة الفرعية: (مدخل إلى القرآن الكريم) فقد كتبت لتصحيح الأخطاء المتداولة في أوروبا عن كتاب الله، وفيمن تعرّض الدكتور دراز إلى تخطئتهم، أساتذته في جامعة السربون، وأعلام الفكر الاستشراقي ممّن رزقوا دويّاً رنّاناً في بحوثهم الذائعة، وما حفل الأستاذ بغضب أحد، إذ كانت لهجته المهذبة، وأدلته المقنعة كافية بأن يكبت كل انفعال مضاد.

وقد جاءت الرسالة في ثلاثة أبواب: تضمن الباب الأول: فصلاً عن حياة الرسول قبل البعثة، وفصلاً عن جمع نصوص القرآن، وفصلاً عن تبليغ المبدأ القرآني للعالم، وتضمن الباب الثاني: فصلاً عن الحق والعنصر الأخلاقي، وفصلاً عن الجمال أو الجانب الأدبي، وهذا الباب من الرسالة الفرعية يمتّ إلى الرسالة الرئيسية بأقوى الأسباب، وكأن الباحث أراد أن يؤكّد أن النظرة الأخلاقية من صميم الدراسات القرآنية، فهي في موضع الاهتمام لدى كلّ مَن يتحدّث عن كتاب الله.

أما الباب الثالث فخاصٌّ بالبحث عن مصدر القرآن في الفترة المكيّة، وفي الفترة المدنية، ومصدر القرآن هو الله دون نزاع، ولكن كهنة الغرب يختلقون مصادر زائفة، رأى الأستاذ أن يُجهِز عليها بالدليل فبلغ المراد.

وقد جاءت الخاتمة لتؤكّد حقيقة الوحي، وتُبطِل ما أحاط به من المزاعم والأراجيف، ولتنتهي إلى أن منهج القرآن الكريم ينهض دليلاً كافياً على مصدره الربّاني، وأنا أنصح الذين يكتبون في أمثال هذه الأمور الدقيقة أن يقتدوا بأسلوب الدكتور دراز العلمي، لأننا وجدنا مَن أطال القول في هذا المجال معتمداً على العبارة الرنّانة، والأسلوب الخطابي، ومندفعاً للاستهزاء من الخصوم بالقول الجارح، والتطاول الحادّ، وليس هذا سبيل المحقّقين من الدارسين، فالاستهزاء لا يكون بأسباب التطاول، ولكنه ببلاغة العرض، وقوة الدليل، ونظافة اللفظ، وقد رأينا كثيراً من المخطئين يرجعون عن آرائهم حين يلمسون قوة المنطق، وسلامة

التأنّي، وعفّة اللفظ، وما رأينا واحداً من هؤلاء يرجع عن رأيه الخاطىء لأنه قوبل بالسِّباب! بل ربما زاده ذلك إيغالاً في الضلال.

فإذا تركنا مؤلَّفيه هذين، إلى مؤلّفاته الحرّة التي لم ينل بها إجازة علمية، فإننا نلحظ أن الباحث الدقيق لم يُسرِف في التأليف إسراف زملائه، لأنه التزم أن يأتي بالجديد، وصاحب هذا المنحى الهادف يُغني الكتاب الواحد من قلمه عن عشرات من أقلام مَن يكرّرون ويردّدون، إن طرافة اتجاه الأستاذ دراز في منحاه التأليفي، تجعل كتابه جديداً دائماً، مهما كرّر المُطالِع قراءته، لأن القارىء لا يستوعب حقائقه في مطالعة واحدة، بل يظلّ يُعاود ويُراجع، وفي كل قراءة تنجلي له حقائق جديدة!.

وهذا ما لمسته شخصياً وأنا أُطالع كتابه الجادّ: «الدين بحوث ممهّدة لتاريخ الأديان»، وهو كتاب يهمّ كل مُشتَغِل بالدراسات الفكرية العميقة، لأن تاريخ الأديان في لبابه هو تاريخ البشرية، وقد وجدت الأديان مَن يؤرّخ لها من ذوي النزعات المادية ليجعلها حلقات في سلسلة تتصل، لتعفي كل حلقة على ما قبلها، وإذا بالأديان في النهاية خيالات يعتنقها البشر في أدوار الطفولة!!.

هكذا اجترأ الملاحدة على تصوير الأديان دون رعاية لمنطق، أو احترام لحقيقة، حتى جعلوا التفكير الديني دوراً بدائياً تعدّته البشرية المعاصرة في عهد النور، ومثل هؤلاء في حاجة إلى قلمٍ جادٍّ يكشف الزيف عن عيون عشيت في أمواج النور، فجعلت تتخبط فيها وكأنها تتقاذف في لجج الظلام.

فبعد أن تحدّث الكاتب عن المدلولين الخاصّ والعامّ لكلمة الدين، أخذ يوضح العلاقة بين الدين وكلٍّ من الأخلاق والفلسفة والعلوم، ليجعلها علاقة ترابط والتقاء، لا علاقة تفكّك وابتعاد، وكلّ ما قاله في هذا الباب نفيس جيد، ترفده الفكرة النافذة، ويقيمه الدليل البصير.

فإذا انتقلنا إلى البحث الثالث وهو (نزعة التديّن ومدى أصالتها في الفطرة) فإننا نجد العالِم المستوعِب يناقش آراء الماديين، ويقف موقف الناقد لقانون

الأطوار الثلاثة الذي يذهب إلى أن العقلية الإنسانية مرّت بثلاثة أدوار، دور الفلسفة الدينية، فالتجريدية، فالواقعية، وهو قانون أصبح بمثابة البديهيات لدى مَن يجحدون عالم الغيب، ولكن المؤلّف ينضح حواره في أدب متّئد حين يقول: «ونقطة الخطأ البارزة في هذا المذهب التطوّري، هي: أن أنصاره جعلوا منه قانوناً يستوعب التاريخ كله، في شوط واحد، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل، ونفضت أو كادت تنفض يدها منه إلى غير رجعة!، ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية كلما ختمت شوطاً رجعت عَوْداً على بدء لكان الخطأ في النظرية أقلّ شناعة».

وقول الأستاذ لكان الخطأ أقلّ شناعة! يثبت أن هذا الحلّ الأخير خطأ أيضاً، ولكنه أقلّ من خطأ النظرية الأولى، لأن التفكير الديني قد اعتمد على العقل منذ خلق الله آدم، ومنذ علّمه الأسماء كلها، فنزل إلى الأرض موحّداً مؤمناً، مستنيراً بهداية السماء، وما ضلّ أحفاده إلّا لأنهم خالفوا منحاه، فتوالت الرُّسُل يصحّحون ويهدون.

وقد عرض المؤلّف لآراء المفكّرين في نشأة العقيدة الإلّهية، فدرس ما قاله أنصار مذهب التطوّر، وما قاله الطبيعيون، وما قاله أصحاب المذهب النفسي، وأصحاب المذهب الخلقي، وأصحاب المذهب الاجتماعي، لينتهي إلى خلل هذه المذاهب جميعها، وصحّة المذهب القرآني، عارضاً من آيات الذكر الحكيم ما يُقنع العقل المُحايد خاتماً حديثه الرائع بقوله:

«ولن يَسَع الباحث المُنصِف متى تحقّق هذه الإحاطة العلمية الشاملة ـ إحاطة كتاب الله ـ إلّا أن يرى فيها آية جديدة، على أن القرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد، ولا مرآة لعقلية شعب، ولا سجلاً لتاريخ عصر، وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح، ومَنهلها المورود».

هذا عن كتاب (الدين وبحوث ممهّدة في تاريخ الأديان)، فإذا تركناه إلى كتابه الرائع (النبأ العظيم) فإننا لا نُغالي إذا قلنا إن المكتبة القرآنية في عهدنا الأخير لم ترَ أهدى سبيلاً منه في سلامة النظرة، ولطافة الاستشفاف، وعمق التأمّل، وأنا أعرف أن الكاتب الشهيد الأستاذ سيد قطب رحمه الله، قد كتب مؤلّفه

الرائع (التصوير الفنّي في القرآن) فأتى بمذهب جديد في اكتناه التعبير القرآني، لم يسبق إليه سواه، ولكن كتاب النبأ العظيم لم يقتصر على التصوير الفنّي وحده باعتباره الأداة المفضّلة للتعبير، كما ذهب الأستاذ سيّد قطب رحمه الله، بل نظر إلى القرآن فكرة وصورة وتعبيراً، وجدلاً وحواراً، وبذلك يكون سالكاً منهجاً غير منهج (التصوير الفنّي) وما من الرجلين العظيمين إلّا له مقام مشهود.

تحدّث مؤلّف النبأ العظيم في بحوثه الأولى عن تحديد المراد بالقرآن، وعن بيان المصدر الحقّ للقرآن، وعن طبيعة المعاني القرآنية من حيث سماويتها المستعصية على أهل الأرض، وكلّ هذه بحوث دُرِسَت من قبل، ولكن المِنظار الذي رصدها بقلم الدكتور دراز قد نظر من القسمات والملامح ما أضاف الجديد إلى الشهير المتعارف.

فإذا اتجهنا إلى حديث الدكتور عن الإعجاز القرآني، فإننا نجد الجديد الخالص مما لم يُعرَف من قبل، مع أن مئات البحوث قد تتالت عن الإعجاز القرآني على مدّ العصور، يتلقفها خالف عن سالف ليزيد فيها أو يردّ عليها، أو يدور حولها، وحين كتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي كتابه عن إعجاز القرآن جاء بالروائع النادرة من ناحية التعبير البياني، أما الأفكار التي رصدها فأكثرها قد قيل، وزاد عليها الرافعي بما عُرِفَ عنه من براعة النظم البلاغي، ودقّة التركيب اللغوي، ولطف التصوير الجمالي، على حين نرى الآفاق قد اتّسعت أمام دراز مُشِعّة بأنوار مُضيئة هي من شمسه الخاصّة في مجال هذا الإعجاز.

وأذكر أني أَفَضْتُ في تحليل الإعجاز القرآني كما رآه الدكتور دراز فيما سجّلته بكتاب (البيان القرآني) وسأُحاول أن أقتبس مما كتبت ما يلخّص فكرة دراز في هذا الإعجاز.

إن الخصائص القرآنية التي هيّأت الإعجاز القرآني ترجع إلى أمور منها: (البيان والإجمال معاً) لأن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتّسع إلى التأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس، ولا يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد، ولكنك تقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من

الشفوف والإحكام، والخلو من كل غريب عن الغرض، ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك، دون كدّ خاطر، أو استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلمات ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة، ويخيّل إليك أنك أحَطْتَ بها خبراً، فإذا رجعت إليها كرّة أخرى وقفت منها على معنىً جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة معاني كلها صحيح أو محتمل الصحة كأنما هي فصٌّ من الماس يعطيك كل ضلع منه شُعاعاً، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملةً بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينك وما تدع.

ومن الخصائص القرآنية عند الدكتور دراز، إقناع العقل، وإمتاع العاطفة معاً، فقد عرفنا حديث أمراء البيان من الأدباء والشعراء، فما وجدنا من هؤلاء وهؤلاء إلّا غلوّاً في جانب، وقصوراً في جانب، فالحكماء يؤدّون إليك ثمار عقولهم غذاءً لعقلك، ولا تتوجّه نفوسهم إلى استهواء نفسك، والشعراء يسعون إلى استثارة وجدانك وتحريك شعورك، دون أن يقنعوا عقلك في الأعمّ الأغلب.

أما أن أسلوباً فذّاً يتّجه اتجاهاً واحداً، ويجمع بين الإقناع والإمتاع، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أثماراً وأزهاراً وأوراقاً معاً، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر، فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سُنن الله في النفس الإنسانية، ولكنك تظفر به في كتاب الله وحده، ألا تراه في قصصه وأخباره، لا ينسى حقّ العقل من حكمة وعبرة، ثم ألا تراه في براهينه وحجاجه، لا ينسى حظّ القلب من التشويق والترقيق.

وثالثة الخصائص القرآنية لدى الدكتور دراز هي: طريقة القرآن في خطاب الخاصّة والعامّة، إذ هذان الخطابان يمثّلان غايتين متباعدتين عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء، لنزلت بهم إلى مستوىً لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامّة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، ولكن القرآن يخاطب الفريقين معاً خطاباً واحداً، فيأخذ كل فريق من خطابه على قدر عقله،

فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفىٰ كلام بلطائف التعبير، ويراه العامّة أحسن كلام وأقربه إلى الأفهام ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر ﴾.

ورابعة الخصائص القرآنية هي القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى، وقد أجاد الكاتب بسط هذه الناحية بما تُحيل القارىء إلى مصدره خشية التطويل، وفي نهاية الكتاب دراسة بصيرة لأغراض سورة البقرة، حيث جعل المؤلّف من السورة الكبيرة وحدة تتألّف من مقدمة وأربعة مقاصد، وخاتمة، وضرب الأمثلة من آيات السورة تطبيقاً لما يعنيه.

هذا وقد جُمِعَتْ بعض محاضرات الدكتور ومقالاته في كتاب أسماه جامعه (دراسات إسلامية)، وفيه بحوث شافية عن القرآن الكريم، والإسلام والرقّ، وكرامة الفرد في الإسلام، والمسؤولية في الإسلام، ومبادىء الأخلاق نظرية وعملية، ومبادىء القانون الدولي في الإسلام، والرِّبا في نظر القانون الإسلامي، وإصلاحات الشيخ محمد عبده، وكلّ هذه البحوث قد نشرت في أُمّهات المجلاّت الإسلامية بمصر.

وفي مجلة الأزهر بحوث مماثلة لم تُجمَع بعد، وتتطلب جامعاً يقدّم جزءاً ثانياً من هذه الدراسات الخصبة، لأن كل موضوع منها ذو نفع مؤكّد، ولا يسدّ مسدّه سواه، ومن أهمها بحثه الرائع عن تاريخ الأزهر الشريف، ونقده لاقتراح ترتيب المصحف حسب النزول وغيرهما.

لقد عاش الدكتور دراز حياته مؤمناً مفكّراً، وقد ورث عن والده شغفه بكتاب الله، فأخذ عنه ضرورة التلاوة لستّة أجزاء منه كل يوم، وقراءة مفكّر مثله لهذا الجزء اليومي، لا بدّ أن تفتح عليه بما يُضيء بصيرته، ويمدّه بأوفر الزّاد الشهي، لذلك كانت محاضراته في تفسير القرآن الكريم بكلية اللغة العربية مهوى الطلاب جميعاً، وأكثرهم كان يترك المحاضرات في المواد المختلفة ليسعى إلى دروس دراز في التفسير، ومع أنه كان يشرح للطلاب تفسير الكشّاف للزمخشري، فإن تناوله لهذا التفسير كان يجعله شيئاً آخر غير المسطور في الصفحات، وكم كان

رائعاً أن يتوجّه الدكتور لأداء سجود التلاوة عند مناسبته، وأن يعلّم طلّابه ذلك فيتسلّحوا بالوضوء قبل الدرس ليسجدوا لله طائعين!.

لقد كان الدكتور دراز نمطاً ممتازاً، عرفه الناس بتفرّده العلمي مؤلّفاً ومُحاضِراً وأُستاذاً، كما عرفوه بإيمانه القوي، مسلماً رقيق العاطفة قوي اليقين.

أمين الرافعي
المثل الأعلى في صورة إنسان

- ١ -

يخيّل إليَّ حين أُطالع تاريخ أمين الرافعي، أني أُطالع تاريخ مصطفى كامل، حتى لأغرق في التوهّم فأتصور أن مصطفى كامل حين انتقل إلى ربّه سأل مولاه في فردوسه أن يبعث روحه في كيان أمين، ليؤدّي دوره الفدائي على مسرح الحياة، فاستجاب له، لأن كل عمل قام به أمين ـ رحمه الله ـ بعد مصطفى إذا دقّق الإنسان في أبعاده، ورصد مبتدأه ومنتهاه، وجده مما يصحّ أن يُنسَب إلى مصطفى، لو مدّ الله في عمره، فشاهد من أحداث الزمن ما توالى بعد رحيله.

وأنا أعرف مكانة مصطفى الزعيم الخالد، وأعرف أن أمين الرافعي كان تلميذه الأوفى، ومُريده الأبرّ، وهذا الفرق الطبيعي بين الأستاذ والتلميذ يمنع أن يكون المُريد في منزلة شيخه لدى مَن يعترفون بالمكانة للكبير، ولكنه لا يمنع أن تُرصَد المشابهة الكبيرة بين الرجلين، وأن نردّها إلى أسبابها الواضحة دون افتيات.

إن عناصر الطهارة والإخلاص والفدائية، ومجابهة الباطل، والاستعلاء على الطغيان، والترفّع عن مُغريات الحياة، والهيام بالمثل الأعلى صفات مشتركة بين المجاهدين الكبيرين، هذه العناصر المثالية جديرة أن تكون موضع الاستشهاد المُلِحّ، في مؤلّفات أساتذة التربية وعلماء الأخلاق، وعلى هؤلاء أن يردّوها إلى منبعها الأول، وهو مبادىء الإسلام، التي تبعث روح العزّة في قلب المؤمن

الحقيقي، فينطلق إلى تحقيق المثل الأعلى كلما استمع إلى وحيه في كتاب الله وسُنّة الرسول، ووقائع السّلف الأول من صدور المجاهدين وأعلام الفاتحين.

ولكن قوماً يرون الإشادة بأثر الإسلام في أمثال مصطفى كامل، وأمين الرافعي، وعبد العزيز جاويش، ومحمد فريد، وحسن البنّا، وأحمد حسين، خطراً هائلاً يعصف بآمالهم المضطغنة على الحق، المنحازة للباطل، فإذا كتبوا عن مصطفى كامل على إجلالهم إياه، ردّوا كلّ سِماته الخلقية إلى عوامل تتعدّد وتتنوّع، وليس فيها ما يشير إلى أثر الإسلام في قليل أو كثير، بل إن أحدهم ليُفرِد الصفحات الكثيرة ليرجع بجهاد الزعيم الكبير إلى امرأة فرنسية راسلته وعطفت على آماله، وكأنها كل شيء في حياته.

ومن دلائل الحق أن يكون المُلهَمون من الشعراء هم الذين سجّلوا بواعث العظمة الحقيقية لدى مصطفى كامل، وأمين الرافعي تسجيلاً صحيحاً، هتف به شوقي رحمه الله حين قال في رثاء مصطفى كامل:

يا خادم الإسلام أجر مجاهد ... في الله من خلد ومن رضوان
لمّا نعيت إلى الحجاز مشى الأسى ... في الزائرين، وروع الحرمان
يا ليت مكة والمدينة فازتا ... في المحفلين بصوتك الرنّان
ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا ... ما غاب عن قسٍّ وعن سحبان
كفوك في علم البلاد منكّساً ... جزع الهلال على فتى الفتيان
يزجون نعشك في السناء وفي السنا ... فكأنما في نعشك القمران
وكأنه نعش الحسين بكربلا ... يختال بين بكى وبين حنان

كما هتف به شاعر الإسلام أحمد محرّم حين قال في رثاء أمين الرافعي:

بورِكت من مؤمن ما كان أطهره ... على تصاريف دنيا ذات أرجاس
راحوا به صبياً من حكمة وهدى ... في صيّب من دموع الرُّسل رجاس
نور من الملأ الأعلى مطالعه ... ينساب ساطعه في كل نبراس
الشرق يرجف والإسلام في فزع ... عانى المماليك يخشى كلّ دساس

وعـنـد مـكـة إذ أودى وجـارتـهـا ... مـا عنـد بغـداد مـن همٍّ وإبـلاس
تمضي الخـطوب فتنسى بعد شـدّتها ... وما الخطب بني (الفاروق)[1] من ناسي

ولن يضيع في زحمة الضجيج أثر حيّ سجّله الشعر، وغرّد به الملهمون.

وإذا كانت الآراء تختلف في تقدير إنسان أدّى دوره اللّامع في قومه، فإن أمين الرافعي وحده كان استثناءً خارقاً لهذه القاعدة، حيث أجمعت الأقلام التي اندفعت إلى تأبينه، وتسجيل مواقفه، على الثّناء عليه، وقد أحسن الكاتب المُبين الأستاذ صادق عنبر رحمه الله، حين جمع ما يقرب من سبعمائة صفحة كتبها المقدّرون لعظمة أمين، في كتاب أسماه (ذكرى فقيد الوطن).

ولا أظن زعيماً اجتمع لتأبينه جمع يضمّ صفوة الصفوة من كبار الكتّاب والشعراء والمفكّرين، كما اجتمع لتأبين أمين الرافعي، حين هوى كوكبه فجأة، وعلى غير انتظار، بل إن الزعيم الخالد سعد زغلول ـ رحمه الله ـ على كثرة بُكاته، ووفرة نعاته، وجهارة كفاحه، وصادق نضاله، لم يكن له مثل هذا الجمع المتّفق غير المختلف، ذلك لأن المثالية الخارقة التي اتّسم بها أمين كانت موضع انبهار الكاتبين جميعاً، هذا إلى أن الرجل الذي بذل دمه قطرات قطرات في سبيل مصر لم يأخذ من المناصب والجاه والمراتب قليلاً أو كثيراً، بل خرج من دنياه عرياناً كما قال حافظ إبراهيم في رثائه[2].

وكان مَن يخالفونه في حياته من الواقعيين، يرون فرقاً ما بين واقعيتهم ومثاليته، فكانت مخالفتهم إياه على مسرح الصحافة ليست مخالفة مَن يعتقد فيه الخطأ، ولكن مخالفة مَن يراه ذا مطمح رفيع يحتاج تحقيقه إلى نضالٍ شاقٍّ لا سبيل إلى وجوده، وهؤلاء المخالفون يتمنون في قرارات أنفسهم أن تتحقّق آمال أمين، بل ربما نقموا على أنفسهم أن قصرت بهم واقعيتهم عن آفاق مثاليته، وإن

---

(١) ينتهي نسب الرافعيين إلى عمر بن الخطاب.

(٢) قال حافظ إبراهيم:

أيـلبس الـخـزّ مَـن لانـت مـهـزتـه ... وأنـت تـخـرج مـن دنـيـاك عـريـانـا

أحدهم ليقبل مقالاته، ويتشرّب أفكاره تشرّباً فيـرتفع إلى السمـاء حيناً، ثم يجبهـه الواقع المرير فيضطر إلى أن يفارق الأوج الأعلى إلى ما دونه استجـابةً لقيـود مُلزِمة تأخذ عليـه آفاق المسيـر، وهو في تخلّيـه عن أفكار أمين كمَن يتخلّى مضـطراً عن عـزيزٍ غـالٍ قُدِّرَ لـه أن يقف منه مـوقف الـوداع، ولكن على أمـل العـودة في غـدٍ قريب، يلتئم فيه الشمل، وتتحقّق الآمال.

لم يكن الأستاذ عباس محمود العقّاد يسيـر في اتجاه أمين السيـاسي، إذ كان كاتب الوفد، وأمين كاتب الحـزب الوطني، ولكنـه كان أقـدر الكاتبين جميعـاً على سَبْر غوره، واستشفاف سريرته، والولوج إلى أصفى المستشفّ من أعمـاقه، فكتب عنه ما لا أجد أصدق منه بياناً، ولا أمضى نفاذاً، وقـد أُطيل في الاستشهـاد ببعض ما قال، والقارىء يظفر ظفراً محقّقاً، حين يسمع رأي العقّاد الكبير، وقد يزيـد من نصوع رأيه، وسطوع فكره، أنـه يتكلّم مُحايـداً عن إنسان خـالفه حيّـاً، وحفظ له مكانه راحلاً حين قال[1]:

«رأيت أمينـاً قبل مـرض الوفـاة يمشي في الطريق على مهـل، فرأيت شبحـاً يتماسك، وجسداً قد تهدّم إلّا قليلاً، ونفسـاً تمشي وحدهـا، وهي تشعر بعُـزلتها، ولا تكاد تشعر بها من فرط الاطمئنـان إليها، وسيمـا السّكينة والـرضوان التي تحفّ بها، فعلمت أني أرى أميناً في تهـافت جسده، وأمينـاً في قوّة نفسـه، ورأيت كيف يعمّـر الإيمان الجسـوم الفانيـة، فهي منه في مـلأ عـزيـز الحـوزة منيـع الجـانب، وعجبت أن يكون هذا أميناً، وهو بعد في إبّان الفتوّة وعنفوان الحياة.

كان أمين رحمه الله مؤمناً، وكفى بالإيمـان عزاء في شقـاء الحياة، وكفى بـه شقاء في عالم الكفاح، فلولا إيمان الرجل لما ألقى بنفسه حيث ألقى في ميـدانه، ولولا إيمانه لعزّ عليه الصبر على بلائه، فالإيمان عدّته، والإيمان حليفه، وبالشقـاء مَن يأتيه الكيد من حليفه الحميم، وبالسعادة مَن يأتيه العون من عدوّه المبين.

---

(١) ذكرى فقيد الوطن، ص ١٢٣ عن البلاغ أول يناير، سنة ١٩٢٨.

لم تكن للفقيد آراء تحتمل الخطأ والصواب، وإنما كانت له عقائد لا تترخّص بشكٍّ، ولا تأذن في هَوَادَةٍ، وكان حدّ العقيدة عنده أن يجهر بالرأي، فما هو إلاّ أن يخالفه فيه المخالفون، حتى ينضح عنه، ويشتدّ في تأييده، ويأخذ على المُعارضين سبيل الشك في أُصوله وفروعه، حتى يلتقي الرأي بالإيمان، ويمتزج اليقين والبرهان، وإذا بكل رأي كأنه دين ذو شعائر وفروض لا تختلّ منها شعيرة، ولا تمسّ منها فريضة، وإذا بنفسه كلها قد صبّت قواها على الرأي فلا بقية فيه لسواه.

لم أذكر هذه السليقة التي فطرت على الإعتقاد، إلاّ ذكرت إلى جانبها سلائق المتشكّكين التي فطرت على الشك، لقد ابتلي عصرنا هذا بداء الريب والتردّد، فزالت عنه طمأنينة العقيدة، وفترت حرارة اليقين، وتلطّف بعض المبتلين بهذا الدّاء فوصفوه بسعَة النظر، والإحاطة بجوانب الآراء، وخرجوا من ذلك بأن لكل مسألة وجوهاً، وأن اليقين ضرب من التعسّف.

ومما لا ريب فيه أن سعة النظر مع ضياع العقيدة مرض في النفس يناقض الفطرة التي فطر الناس عليها ليستقرّوا ويؤمنوا، وأنه خير للإنسان أن تكون له آراء وأن تكون له مع الآراء عقيدة، أما أن ينظر إلى المسائل من جميع نواحيها، ثم يضلّ في تيهها فخير من ذلك النظر إلى جانب واحد».

إن ما قاله العقّاد بعد التأمّل المتّئد، والنظر الممتد، كان واضحاً كلّ الوضوح في خاطر أمين الرافعي عن فِطرة خالصة، إذ اعتقد أن الظاهر لا بدّ أن يكون صورة الباطن، وأن الإيمان لا يكون إيماناً إلاّ إذا طابق القول الفعل، وقد بلغ به هذا الاعتقاد مبلغ الإيقان الراسخ، فكانت نفسه نفساً مطمئنة، لا تزعزعها الشكوك مهما تقوّل المتقوّلون، ومهما أرجف المرجفون.

إن أكثر الزعماء من حوله قد يميل إلى المهادنة بعد أن فكّر وقدّر، وبعد أن رأى أن التصلّب قد يؤدّي إلى الكسر، وأن المُلاينة قد تُؤذِن للعاصفة أن تهبّ، دون أن تعصف برؤوس الأشجار، ولكن الرافعي بنفسه المطمئنة يرى أن الحق حقٌّ واحد لا يتعدّد، وأن التعرّض للخطر الماحق قضاء فرضه الله وحتّمه، إذا كان

دفاعاً عن الواجب، واستشهاداً في سبيل الله، وكأن الله عزّ وجلّ شاء له أن يترك للأجيال رأيه صريحاً واضحاً لا يقبل الرّيب.

فقد تكون أفعاله الصريحة موضع تأويل لدى أُناس يُجيدون التخريج البعيد، ويحتالون له بأدهى أساليب السفسطة، وأخفى أشكال المنطق المعكوس، ولكن ذلك كله لا يقنع قائله فضلاً عن قارئه، لأن توالي المواقف الهادفة، وتتابع الإباء الراسخ يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، مما يقول لهؤلاء المحتالين، دعوا الرجل ومثاليته، واذهبوا بتأويلاتكم إلى إنسان يلين ويشتدّ، ويصرّح ويجمجم، ويكرّ ويفرّ، أما أمين فهو السلوك الواقعي لمثل مرتفع أخذ يفجأ الناس بظهوره في الأرض، بعد أن ظنّوه لا يفارق السماء، وأما هذا الرأي الصريح الذي أشرنا إليه فهو ما دونه في صحيفة الأخبار حين بلغت عامها السابع في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ حيث قال[1]:

إذا كانت الأخبار قد لاقت كثيراً من المتاعب والمصاعب هذه الأعوام القلائل، فإن هذا الذي لاقته كان أمراً طبيعياً ما دامت الأخبار تريد أن تكون جريدة مبدأ، وصحيفة نضال وجهاد.

فمَن كان له مبدأ يريد أن يذود عنه، وجب عليه أن يوطّن نفسه على تحمّل المشاق، لأن رجال المبادىء لا يجدون في طريقهم ورداً يُلقى عليهم، وإنما يصادفون شوكاً، ويلاقون بلاءً وعنتاً.

إن للحياة طريقين أحدهما تسوده الراحة المادية، والآخر تحفّه المكاره والمتاعب، ومَن يُؤثِر الراحة المادية يرى نفسه في كثيرٍ من الأحيان مُفرطاً في واجبه نحو ضميره وخالقه، أما الذي يؤدّي واجبه نحوهما فعليه أن يجدّ ويشقى ويتألّم، وهو في هذه المثابة يفقد الراحة المادية، ولكنه يستعيض عنها ما هو أغلى قيمة، وأعزّ أثراً، وهو الراحة المعنوية، راحة الضمير الخالص الذي لا يجد في هذه الحياة ما يحمل على الوخز والتأنيب.

---

(١) عن ذكرى فقيد الوطن، ص ٥٠.

إن وخز الضمير أثقل على النفس من أيّ ألم مادي مهما كان شديداً، لأن في استطاعة الإنسان أن يتحمّل الآلام المادية ويعتادها، أما تبكيت الضمير فإنه يُورِث ألماً لا يمكن احتماله، بل إنه ينغّص على الأبيّ تنغيصاً قد يُؤثِر معه الموت على هذه الحياة بجميع لذائذها.

مسكين أمين الرافعي!! لقد بالغ في الطيبة حين ظن أن كثيراً من الانتهازيين والوصوليين ينوؤون تحت وَخْز الضمير حين يفرّطون في الواجب، وأن تبكيت النفس اللوّامة يورثهم ألماً لا يمكن احتماله، والواقع المُشاهَد أن قوماً كثيرين تتحجّر أحاسيسهم، فلا تنبض بشعور، وأن ما يسمّى بالضمير قد فَقَدَ مدلوله لديهم، فهم يأتون الكبائر، قريري العين، مثلوجي الفؤاد.

وفيهم مَن كان يذهب إلى أماكن تعذيب الأبرياء ليتلذّذ بالسِّياط الشاوية، والأشلاء الدامية، والأنّات المتصاعدة، وهو يعلم أن ضحاياه أطهار أشراف لا ذنب لهم، إلّا أن قالوا ربّنا الله، أما هو فينتفخ زهواً بما يرى ويسمع، ولكن انتفاخه يزيد ويتّسع شيئاً فشيئاً حتى يفرقع منفجراً في الهواء، وتلك عُقبى الظالمين.

إن النفس المطمئنة هي التي جعلت أمين الرافعي يتلقّى نَعيَ وحيده الصغير صابراً متماسكاً، وحين يرهقه ما هو فوق احتمال الإنسان من الألم يفزع إلى الصلاة، ويطيل السجود، ليتساقط الدمع الاضطراري بعيداً عن الأنظار، حيث لا يراه غير الله، فإذا أتعبه تكرار القيام والركوع والسجود لاذَ بمقعده، ومالَ على الحائط يسكن ما لا يحتمل من طرقات الصّداع، ويحاول أن يشغل نفسه بسماع القرآن، ثم بترتيله حتى يجد برد الاطمئنان.

إن النفس المطمئنة هي التي أجبرته ألّا يأخذ مُرَتّبه تسعة أشهر من صندوق جريدة الأخبار، حين نزلت بها أزمة لا طاقة له بها، إذ حاربها الوفد وانخفض التوزيع كما سيجيء، فلما رأى محرّرو الجريدة من تلاميذه ما يُعاني من الرّهق المادّي اتفقوا فيما بينهم على أن يطلبوا منه تخفيض مرتّباتهم، تخفيضاً يتفاوت بين عشرين وثلاثين في المائة، فأبى إباءً شديداً، ولكنهم لمسوا سوء الموقف فأصرّوا، فأذعن بعد إصرار على أن يكون تخفيض المرتّب سارياً على المحرّرين وحدهم،

فلا يلحق الضعفاء من العمّال وهم أصحاب أطفال، مع أن الرجل عاد فاستدرك، وأخذ يصرف مكافآت استثنائية لمَن ساءه التخفيض في منطق إحساسه الرهيف، أما هو فقد صبر على نفسه تسعة شهور[1].

إن صاحب النفس المطمئنة هو الذي تحدّث عن بعض مآثره، إنسان مُحايد، لا صلة له بالأحزاب المصرية غير صلة الفكر الراصد من بعيد، والحكم الصامت في حذر، ولكنه عرف من خوارق أمين، ما دفعه إلى أن يستشهد به مِثالاً عالياً للصّحفي المناضل الأدبي، فقال في فخر واعتداد بعد أن عدّد كثيراً من مثالب صحفيي اليوم:

«والصحافي الحقّ مَن كان على مثل أخلاق صديقي الأستاذ أمين الرافعي عليه الرحمة، خدم مصر والإسلام بقلمه وعبقريته وروحه، وما تناول معونة من أحد ولا من حكومة، أرسل إليه يحيى إبراهيم باشا رئيس الحكومة المصرية، وقد رأى تأخّر حالته المالية، حوالة بعشرة آلاف جنيه، مع كتاب يقول فيه ما خُلاصته: «أرسلت إليك مبلغاً تستعين به على ما أنت بسبيله، وهو من أصل مالك في ذمّة الحكومة من دين بما أسلفت لها من خدمة صادقة، فنقدت إدارتها وسياستها نقداً خالصاً، وهذا المبلغ يرسله يحيىٰ إبراهيم القاضي، لا يحيىٰ إبراهيم رئيس الوزراء، وإنه يرجو قبوله على أن تظلّ على ما أنت عليه من نقد الحكومة لنستفيد برأيك، فما كان من أمين الرافعي إلاّ أن ردّ المبلغ معتذراً بأنه ما أخذ في حياته شيئاً من أحد، ولا يجب أن يُعوّد نفسه الآن أخذ شيء من أحد».

وجاءه مرة أحد كبار رجال السياسة الوطنية، وعرض عليه أن يتكفّل له مع جماعته بوفاء ديون الجريدة، ويأتوه بمحرّرين يدفعون لهم مُشاهرتهم، وتُطبع الجريدة على نفقة الحزب، ويكون له صافي الربح، ويكتب في انتقاد الرؤساء كما يشاء، دون أن يتقيّد بشيء، فأبى إجابة هذا المقترح أيضاً».

---

(١) ذكرى فقيد الوطن، ص ١٣٦.

هذه ثلاثة شواهد للنفس المطمئنة الأباءة ذات الشّمم النادر، ونضيف إليها عن الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني شاهداً رابعاً نجعله مدخلاً لتسطير بعض النضال السياسي لهذا المناضل النبيل، إذ كان المازني زميله في تحريره الأخبار، وكان يعدّ الرافعي أُستاذه لا زميله، هياماً بمبادئه، واقتداءً بمُثُلِه، وقد رأى بعينه شدّة الأزمة الآخذة بخناق أمين، حين انخفضت أرقام توزيع الجريدة، واتّضحت نُذُر إفلاسها مهدّدة أُسَرَ العمّال بالضّياع، فشاءت بعض الشركات التجارية أن تصطنع الرجل المكروب، فأرسلت إليه شيكاً يحمل ألفاً من الجُنيهات ـ والألف يومئذٍ ميزانية كبرى ـ ليكون أجْراً لإعلان متكرّر عن بعض المشروبات الروحية.

وقد فرح بعض المحرّرين والعمّال حين علموا بوشك الانفراج، فهم لا مَحالة آخذون ما تجمد من رواتبهم، وستسير الجريدة سيراً حسناً إلى أن تصلح الأمور، ولكن الرافعي رحمه الله يردّ المبلغ في أَنَفَة، ذاكراً أن جريدته المسلمة لا يمكن أن تتضمن إعلاناً يُغضِب الله، وحين ناشده بعض العمّال أن يتّئد صاح به مُحتَدّاً: الإفلاس خير وأشرف من هذا الصنيع!.

أما كيف انخفضت أرقام التوزيع بعد ارتفاعها الخارق، فهذا ما نعالجه الآن مستطردين إلى شذور من حياة الرجل الأمين، ننقل أكثرها مما كتبناه من قبل.

ـ ٢ ـ

كان أمين الرافعي طالباً بمدرسة الحقوق حين أنشأ مصطفى كامل حزبه الوطني، وقد رأى من مبادئه الوطنية ما دفعه إلى اعتناق وجهته السياسية، في الجلاء السريع، وكانت جريدتا اللواء التي يصدرها مصطفى كامل، والدستور التي يصدرها محمد فريد وجدي، على نهج اللواء السياسي، ميداناً لقلمه ومتنفساً لآماله، فانطلق يدعو إلى الحرية دعوة صريحة هادفة، وامتدّ ببصره إلى أعلام النضال في الشرق والغرب، ممّن خدموا أوطانهم المضطهدة، حين انتشلوها بجهادهم من وهدَة الاستعباد إلى قمة الاستقلال، فقرأ المصريون لأول مرة في الصُّحُف اليومية فصولاً تحليلية عن غاريبالدي، ومازيني، وفيكتور هوجر، كما عرفوا معارك النضال في فنلندا وإرلندا وفرنسا وغيرها من الدول التي تمتعت بالعزّة بعد كفاح.

وكان لأمين الرافعي ـ وهو لا يزال طالباً بكلية الحقوق ـ من التـأثير والنّفـاذ ما ظلّ متمتّعاً به طيلة حياته الصحفية، لأن إقبال القرّاء على آثاره قد دفعه إلى تحديد رسالته في الحياة، تلك هي رسالة القلم المجاهد.

وقـد تحوّلت الفكـرة الوطنيـة في الاستقلال التـامّ لديـه إلى ما يشبـه العقيدة الدينية، التي لا نزاع في أصل من أصولها، وكان لوضوح الهدف أمام عقيدتـه، ما ساعده على الجهاد في عزيمة واقتدار، فلم تكن الـوطنية في مـذهبه تجـارة رائجة تتكسّب بهـا الأقـلام في الصُّحُف والألسنـة في النـوادي، كمـا كـان مفهـوم بعض المُشتغلين بالسياسـة، حين يميلون مع الـريح أنّى مـالت، ولا يعدمـون من خلابـة المنطق وتمويه الجدل، وخداع الألفاظ ما يُظهِرهم في ثياب الشرفاء الأحرار.

هذه العقيدة الـراسخة المـطمئنة ـ وقـد أشرنـا إلى بواعثهـا من قبل ـ جعلت الرافعي وهو طالب مبتدىء يفنّد مزاعم الاحتلال في دعوى إصلاح البلاد، وجدوى مجلس الشـورى في وضعـه الـراهن، تفنيـداً تمـدّه الغيـرة المخلصـة، والاطّـلاع الدستوري على نظم الدول المتقـدّمة في الغـرب، وكان في هـذا المجال يتصـدّى لأقوى كُتَّاب عصره من المُخالفين حين يجد باب النقاش مفتوحاً، فيتفوّق عليـه بما يملك من دليل.

لقـد دعا الشيـخ علي يوسف صـاحب جريـدة المؤيّد إلى اشتـراك مصـر في مجلس المبعوثان العثماني، واهتدى إلى وسائل خـالية من وسـائل الإقنـاع القريب وكلهـا خطابيـات ترتكـز على الحماسـة الغائـرة دون عمق، فانبـرى أمين الـرافعي الطالب بمدرسة الحقوق يدحض دعوى الكاتب الكبير، ليُزهِق أنفاسها في المهد، حين يقول في مقالٍ حارّ، كان افتتاحية لجريدة اللواء الصادرة في ٩ أغسطس سنـة ١٩٠٨ م:

«نحن نتسـاءل كيف يـرضى صـاحب المؤيّـد بـأن يسلبنـا حقـوق مصـر، وامتيازاتها، ومطالبتها بالاستقلال والدستور، وهـل يُخالـج ضميره قبـول الخديـوي النزول عن سلطته لمجلس المبعوثان، ليصبح أحد الوُلاة الذين ليس لهم في الأمـر شيء، إننا لفي حيرة من أمر صاحب المؤيّد، فلا ندري ما الذي حَدَا به إلى ابتكار

هذه الفكرة، والقول بهذا الرأي، مع أنه يعلم أن أوروبا تتّهمنا صباح مساء بأننا لا نحتجّ على الاحتلال، ولا نُصاوله في عداء إلّا رغبة في استبدال حكم الأتراك به، وسلب مصر حكمها الاستقلالي التي تمتعت به زمناً طويلاً، ولا مَشاحة في أن ما جاء به المؤيّد هو مما يُلصِق التهمة بنا، وهل كان مجلس المبعوثان الذي يندرج فيه المصريون خيراً من دستور خاصّ بمصر، يضمن استقلالها، ويدير بالحكمة جميع مصالحها، ومصالح أبنائها، إن من العار والخزي أن تنزل أمة عن حقوقها، وامتيازاتها، وإن من الخرق والضعف أن يقرّ امرؤ على نفسه بدين لم ينقده».

وقد حرصت على أن أنقل هذه الفقرات، لأمرٍ ذي بال، لأن خصوم المناضلين من رجالات الحزب الوطني، يرجفون كاذبين بأنهم دُعاة للاحتلال التركي، ولا يودّون الخلاص من إنجلترا إلّا ليشرق سلطان أنقرة، والحقيقة أن الحزب الوطني يتّجه إلى محاربة إنجلترا لأنها حينئذٍ هي العدوّ الحقيقي المُنِيخ بكابوسه على البلاد، فلا بدّ أن تتوحّد الجهود في مقاومته، وهذا هو المعقول طبيعياً، إذ إن صلة مصر بتركيا صلة اسمية فحسب، والذين يتركون الإنجليز جاثمين على البلاد، ويقولون (مصر للمصريين) دون جهاد، ويدلفون إلى المعتمد البريطاني شاكرين، وإلى قصر الدوبارة مُوالين، ليس لهم أن يطعنوا رجالاً يعرفون مواضع الخطر فيهجمون عليها وهي مفتوحة الأفواه ترمى بالقذائف، والذين يزيّفون صحائف التاريخ اليوم بما ينسبون إلى الحزب الوطني من أفكار هي في صميمها بعيدة عن منحاه ظالمون.

لقد كان من حق الحزب أن يستعين بكل قوة لتقف معه في نضاله مع الإنجليز، فإذا آثر تركية حيناً لتقف معه في مصاف الأصدقاء فحسب، فذلك هو الطريق السديد.

على أن إخلاص الرافعي للحزب الوطني لم يجعله آلة في أيدي القائمين عليه، بل كان يزن المواقف السياسية بميزانه الشخصي الهادي، مُقَدّراً رغبة الوطن التي يعتدها أُولي الرغبات، لا مشيئة حزب أو زعيم، فقد دعا متحمّساً إلى انتخاب إسماعيل أباظة عضواً بمجلس شورى القوانين، ولم يكن الرجل من أعضاء الحزب

الـوطني الذي ينتمي إليـه أمين، وينطق بلسـانه أمـام الناس، وإنمـا عرف تـاريخه السيـاسي فرآه كفئـاً للعمل السيـاسي المخلص، إذ وقف موقف المُعـارِض في مدّ امتياز القناة، وترفّع على عوامل الإغراء في قوة لا تعرف الضعف، فدعا إلى تأييده ليواصل معارضته الوطنية حين تتـطلّبها الأزمـات المتلاحقـة، في مجلس الشورى، وكـان عجباً لـدى كثيرٍ من النـاس أن يقف كاتب الحـزب الوطني هـذا الموقف من رجل لا ينتمي إلى سياسة حزبه، ولكنه ليس عجباً في منطق أمين.

وأصرح ما يُضرَب به المثل لهذه النّـزاهة الـرفيعة، مـوقف أمين الرافعي من زعيم الأمـة الأكبر سعـد زغلول، إذ كان ذا دلالات بعيـدة في مغـزاه الكبيـر، وهـو مجال القدوة المثالية لمَن يريد أن يعـرف كيف تسمو الـوطنية المؤمنـة على الأهواء والميول.

حين انتهت الحرب العالمية الأولى بعقد الهـدنة، هبّت الأمـة المصريـة عن بكرة أبيها، تطالب بحقوقها المغتصبة، وسافر سعـد زغلول على رأس وفد مصـري إلى باريس، يبسط ظلامة بلاده، حيث يعقد مؤتمر الصلح، وظنّ بعض الأغرار أن أمين الـرافعي رجل أشخـاص لا مبادىء، فهـو لا يؤيّد إلاّ حـركات محمـد فريـد، وعبد العزيز جاويش من زعماء الحزب الوطني، ولكنهم فُوجِئوا بأمين الرافعي يدير دفّـة الحركـة الوطنيـة في لجنة الـوفد المـركزيـة، فأخـذ يحـرّر قـراراتهـا، ويكتب نداءاتها، ويجمع الشعب حولها، واتخذ جريدة الأخبار منبراً لاتحـاد الكلمة، فهـو يتبنى القضية المصرية في شتّى اتجاهاتها تبنّي الوالد الأبـرّ الحدوب، وكـان لا يفتأ يُراسل الوفد المصري في باريس بما يشدّ أزره من المذكّرات والقوانين.

وتناسى نفسه حين أخذ يكتب مقالاتـه الشهيرة، (الـوطنية دينـا، والاستقلال حياتنا) بتوقيع أحد أعضاء الوفد، فأحدثت صداها الرنّان، وتمّت نتيجتها في اتحاد الكلمة، ورأْب الصّدع، قاضية على الطائفية التي يتّخذها المستعمر تكأة لبقائه.

وإذ ذاك كانت جريدة الأخبار الـرافعية لسـان الأمة النـاطق، تسير سيـرها في الوادي، فيقرؤها كل بيت، وارتفعت أرقـام توزيعهـا ارتفاعـاً لم يسبق له مثيـل في عالم الصحافة المصرية، وبلغ من تأثيرها البعيـد أن السيد أمين الـرافعي، دعا فيها

ـ لأول مرة ـ إلى مقاطعة لجنة ملز، فتقبّلت الأمة دعوته قبول التأييد، وكأنه جمع الناس على قلب رجل واحد، فلم تستطع اللجنة أن تجد مَن يهشُّ لاستقبالها من المخلصين، ومع ما بذل من الجهود الاستعمارية لإنجاح اللجنة، فقد رجعت أمام المقاطعة العامّة بخيبة أمل لا تُوصَف، وعرف سعد زغلول على البُعْد جهاد أمين الرافعي، وقوة صلابته، فكتب يثني على موقفه، ويعلن أنه ينطق عن مشاعره، ويشيد بموقف الأخبار وصداها البعيد.

وفي كتاب الأستاذ الفاضل صبري أبو المجد عن أمين الرافعي، كثير مما نستشهد ببعضه في هذا المجال[1]، فقد كتب سعد زغلول إلى عبد الرحمن فهمي بك قائد التنظيم الشعبي خطاباً قال فيه:

«قرأت في جريدة الأخبار جملة يدافع فيها أمين بك الرافعي بقلمه البليغ عن الوفد وأعماله، ويخطّىء الخارجين عليه والناقدين لخطته، فارتحت لنفاذها لأنها منه الأولى من نوعها، وأرجو أن يستمر حضرة الكاتب المومأ إليه فيما ابتدأه، لأنه لا ينبغي أن يسكت عن هذا الموضوع، ويترك القلم لغيره ممّن لا يعرفون الحقيقة مثله، ولا يُحكِمون الدفاع مثل إحكامه، وينبغي ألاّ تتركوا الرأي العامّ يطيش مع الطائشين، أو يخمد مع الفاترين، وأن تسلكوا آية الوسط بين السبيلين، والله وليّ التوفيق».

ويقول سعد في خطاب آخر إلى عبد الرحمن فهمي: «وإذا كنت ترى ترتيب حملة خطابية إلى جانب الحملة الصحافية، فأنت حرٌّ في اختيار الوسائل التي تؤدّي إلى هذا الغرض، وأرجو أن تكون جريدة الأخبار في مقدمتها، وأن تكون هي أول مَن يقود الرأي العامّ، لأنها معتبرة جريدة الوفد، المعبّرة عن أفكاره وخططه، وقلم محرّرها الفاضل أقدر الأقلام على التعبير عن هذه المقاصد، فعليك أن تهزّ هِمّته، وأن تبلغه بأننا ننتظر من وطنيته وحُسْن تقديره لمنفعة القضية أن يخصّص كل يوم مقالة في هذا الموضوع، وهذا ليس على كفاءته بكثير».

---

(١) أمين الرافعي، مناضل مصري، ص ٧٨ وما بعدها، تأليف الأستاذ صبري أبو المجد.

ولكن! لم تَسِرْ الريح رخاء بين المجاهدين، كما كان يرجو أمين، إذ اختلفت مع سعد على نقطة سياسية هامّة، لم تشأ رجولته الأبيّة أن يغضّ عنها جفنه، فيحني رأسه قليلاً للتيّار العامّ، بل آثر أن يجهر بالمعارضة الصريحة مهما رجعت عليه بالمصاعب الثِّقال.

فإن صاحب الأخبار كان يطالب بوضع أساسٍ صالح للمفاوضات قبل الدخول فيها، إذ يوافق الطرفان مبدئياً على الاستقلال التامّ لمصر والسودان، ثم تدور المفاوضات على كيفية تحقيقه ومدى تمامه، وما يتطلبه من العهود والالتزامات، ولكن سعد لم يشأ أن يعوق المفاوضات حتى تسمح إنجلترا بقبول هذا الشرط، فهو يرى في هذا التحديد المبدئي عقبة كبيرة، ربما كان الخير في الإغضاء عنها لوقت آخر.

وهنا جأرت جريدة الأخبار بمعارضة سعد في أوج زعامته الشعبية، فانصرف عنها مَن لا يقدرون تحرّز أمين وبُعْد نظره، وصلابة عوده، وانخفض رقم توزيعها حين غضب عليها سعد، وأعلن أنه سيقرأها وحده نيابة عن الجمهور، ولم تكن المسألة لتقف عند انخفاض رقم التوزيع، إذ تسرّع بعض الطائشين من الأغرار، وما أكثرهم في كل وقت، وذهبوا بالطوب والحجارة ليرموا إدارة الجريدة، ويهتفوا بسقوط أمين، وكأن الأخبار لم تكن لسان الوفد، وموضع ارتياح سعد، ومجال استحثاثه الطويل.

وطبيعي أن يتألّم أمين لمهاجمته الظالمة، والاعتداء على جريدته اعتداءً منكراً لا يقرّه قانون، فكتب عن هذه المأساة مرات، وعنى الزعيم سعد زغلول بالحديث حين قال في تأثّر مرير[1]:

«كانت الأخبار ومديرها في نظر معالي سعد باشا مِثالاً للوطنية الصادقة، وكان الرئيس يتفضّل من وقت إلى آخر بإعلان ذلك، وامتداح خدمات الجريدة في تلغرافاته التي يبعث بها إلينا، وفي كتبه الخاصّة، وفي تصريحاته المتعددة، فما باله

---

(١) أمين الرافعي للأستاذ صبري أبو المجد، ص ٩٤.

اليـوم قد انتهـج حيالهـا منهاجـاً آخر، ومـا زال ينتقـل من دور إلى دور، حتى أراد بـالأمس أن ينال من وطنيتنـا، وهي كل مـا نملك في هذه الحيـاة، بـل هي الشيء الذي يعتقد سعد أنها فوق الشكوك.

لئن كان سعد باشا يرى أن يعامـل مَن يظن أنهم خصـومه السيـاسيون بمثـل هذا السلاح، مستفيداً من المركز الذي أولته الأمة إياه، فليعلم أنه سلاح خطر، لا يملك دائمـاً أن يكون في قبضتـه، فيمنح الـوطنية مَن يشـاء، وينزعهـا ممّن يشاء، وليتّقِ الله الذي يعرف ما في الضمائر، وليُحسِن حسابه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا هتاف، ولا مظاهرات، لِيَخْشَ الرئيس قصاص الله العادل، فـإن الدهـر لا يبقى على حال، والعزّة والعظمة للخالق وحده، وكل نعمة لا يرعاها صاحبها لا تلبث أن تزول».

وأعجب ما في أخلاق أمين أن هذا التهجّم الصارخ على مبادئه وأخلاقه، لم يحل دون التمسّك بالحق، إذا كان في جـانب سعد، إذ كـان يؤيّده في كـل موقف يـراه عائـداً بالنفـع للأمـة، وحين نفي الزعيم إلى سيشـل نسي أمين كل خـلاف، وجعـل صحيفته منبـراً للدفاع عن سعـد وصحبـه، وطـالب الاحتـلال بعـودة ربّـان السفينة ليقودها إلى ساحـل النجاة، ولـو لم يكن أمين مثالي النـزعة لتـذكّر جـراحه النفسية من الوفد، وكيف رُجِمَت داره بأيدي الرعاع من الطائشين، بـل كيف وقف على الهاوية يبحث عن نفقات العمّال فـلا يجد السبيـل، ولكن الحق في رأيه حق لا يجب أن يلتبس بما حوله من الظروف والمناسبات، فـاعتقال النـاس وتشريـدهم عن أوطانهم جريمة الجرائم مهما كانوا خصوصاً في ساحة الجهاد.

ولن تدهش حين تجد أن أميناً يتفق بعد ذلك مع الـوفد في أكثـر آرائه، فهـو يهاجم تصريح ٢٨ فبراير كما هاجمه الوفديون، وهو كذلك يحارب لجنة الدستور، وينتقد المبدأ الذي قامت على أساسه، والـطريقة التي تمّ بهـا اختيار الأعضـاء كما حاربها الوفد سواءً بسواء، ولم يكن هذا التوافق تبعاً لخطّة أو هـدنة بين الـطرفين، ولكنـه توارد خـواطر في طـريق النضـال، ولئن دلّ على شيء فـإنمـا يـدلّ على أن المجـاهد المضـطهـد الفقيـر لا يعنـو في اتجـاهـه السيـاسي لغيـر ضميـره المؤمن الصدوق.

ولم يكد يقع حادث السردار، في نوفمبر سنة ١٩٢٤ وتعقبه استقالة الوزارة السعدية، وتأليف الوزارة الزيورية، حتى تزعزع كيان النظام الدستوري إذ أوقف البرلمان شهراً، ثم تعطّلت الحياة النيابية إلى مدىً غير محدود، وقامت الوزارة الزيورية بإجابة كلّ ما يريد المحتلّون من مرهقات، فهي لم تنقذ ما تستطيع إنقاذه كما كان يقول رئيسها المخدوع، ولكنها أغرقت كل ما استطاعت إغراقه كما قال بعض المتهكّمين من الظرفاء.

وقد كان التفكير في ضرورة إعادة الحياة النيابية، شغل صاحب الأخبار، مع أن البرلمان وفدي الأكثرية، ينظر إليه نظر المُعارِض، ولو استجاب أمين إلى هوى الغرض لدى الضعفاء، لَمَا فكر طويلاً في ضرورة انعقاد البرلمان، ولكن الحياة الدستورية الصحيحة هدف لأمين يجعله فوق النزاع الشخصي، فهداه تفكيره الطويل بعد مراجعات مديدة في كتب القوانين الدستورية إلى نصٍّ صريحٍ يُوجِب اجتماع البرلمان بنفسه، إذا لم ينصّ على موعد اجتماع البرلمان الجديد في مرسوم الحل.

وكتب في جريدة الأخبار يعلن أن الدستور يحتّم اجتماع البرلمان يوم السبت الثالث من الشهر الحالي، لأن الحكومة لم تدع إلى انتخابات جديدة، فمن حق البرلمان أن ينعقد من تلقاء نفسه، إذا لم يُدْعَ إلى الانعقاد، قبل يوم الثالث من شهر نوفمبر، وأخذ يسرد من الشروح القانونية ما يثبت وجهة نظره الدستورية، مشفوعة بالأسانيد، فصادف نداؤه موضع الإقناع من نفوس النوّاب والأمة جميعها.

واجتمع البرلمان تلقائياً في فندق الكونتننتال في يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٥، وكسبت الأمة عودة الحياة النيابية، بقوة إرادتها، واستماعها إلى دعوة أمين، وقد كتب الرافعي مقالاً ضافياً عقب اجتماع البرلمان، يشرح فيه كيف اهتدى إلى فكرة الاجتماع عن طريق الدراسة القانونية، والتمحيص الدستوري، ناقلاً شتّى النصوص المُلزِمَة، ثم ختم مقاله بقوله:

«لقد انعقد البرلمان في فندق الكونتننتال بين سمع الحكومة وبصرها، فكان لهذا العمل أثران في نفسي، الأول سروري بإنقاذ الدستور، والثاني ارتياح

ضميري ارتياحاً يشعر بـه كلّ مَن وفّقـه الله إلى دعوة صـالحـة كُتِبَ لهـا التحقيق بنجاح».

لقد ارتاح أمين وقتاً ما، ليشغل ثانيةً بمتاعب مالية أدّت إلى تعطيل جريدتـه، وبمصاعب جسمية تركته صريع المرض وهو في قوّة شبابه، ثم ما لبث أن لَقِيَ ربّـه بين زفرات المتفجّعين، ودموع الباكين، وكان وداعه صورة قـوية من صـور التقديـر العـامّ، إذ أجمعت كـل الـطوائف والأحـزاب على الاحتفـال، بتشييعـه، وإقــامـة الحفلات لتأبينه، وكتابة المقالات في تحليـل مواقفـه، مما ألمعنـا إلى بعضه، في صدر هذا المقال، وقد قيل في رثاء مصـطفى كامـل إنه كـان مِصباحـاً كبير الشُّعلة ففَنِيَ زيته سريعاً، ويمكن أن يُعاد هذا القول مرةً ثانيةً في رثاء أمين، لأنـه لَقِيَ ربّه في الحادية والأربعين[1].

---

(١) استعنت في تحرير هذا المقال بما كتبتُه عن الرافعي في مؤلّفي (من صفحات التاريخ).

محمد أبو زهرة
فقيـــــه مُلتَـــزِم

- ١ -

عسير جداً أن أُوجز الحديث عن فقيـه عملاق، مثـل: الأستاذ محمـد أحمد أبي زهرة في بحث محدود النطاق فقد كان الرجل جديـراً بأن يحمـل لقب: (عالِم العصر) إذ كان مفزع أهل العلم في كـل مشكلة تعنّ، وكان لـه من رسوخ القـدم، ونفاذ البصيرة، وبلاغة اللسان، وقوة الحجّة ما يجعل أشدّ النـاس معارضـةً له كمَن يكبرون فقهه، ويجلّون اتجاهه.

وكانت صرامته في مواجهة الظالمين واضحة سافـرة، وقد حـورِبَ في شأنهـا فما استكان، حـورِبَت آراؤه ومقالاتـه، فما كـانت دُور الإذاعة وجـرائد الصحـافة، ومجلّاتها مما يخضع لسيطرة الدولة لتأذن أن يكـون له مـوضع بين المتحـدّثين في مشكلات العصر.

وكان عجباً من العجب أن تسمع البرامج الدينية كل يوم في إذاعات متعدّدة، فلا تجد للشيخ حديثاً، وأن نقرأ الجرائد اليومية في المواسم الدينية، فتجد الصغار من تلاميذه يملئـون الصفحات، ولا تجـد الأستاذ الكبيـر يهتف برأي، إلّا إذا جـاء ذكره عَرَضـاً في مجال الاستشهـاد! ولولا أن للرجـل مجلة خاصّـة قام على ريـاسة تحريرها مُزامِلاً صاحب امتيازها الأستاذ أحمد حمزة لعزّ عليه أن يجهَر بما يعتقد.

ولئن فاتته المنابر الجهيرة في الصُّحُف والإذاعة والتلفزيون، فقد عوّضه الله هيام الرأي الإسلامي بمؤلّفاته الكثيرة، التي تعدّدت طبعاتها، وتنوّعت موضوعاتها، واتّسع نطاق توزيعها في العالم الإسلامي، حتى نقلت علم الرجل إلى أُناس لم يروه حين شُغِفوا بآثاره.

وأذكر أن حاكماً متغطرساً ساءه أن يحارب أبو زهرة بأمره، في مصر، ثم يدوّي صداه في العالم الإسلامي، فانتهز فرصة جَهَرَ فيها الشيخ الحرّ برأي مخالف لهواه، ودعاه كي يقول له: إنك إقطاعي، تجبي إليك كثرة مؤلّفاتك ما لا يأخذه وزير مكافح!! فقال له الشيخ في جراءة صارمة: هي مؤلّفات كُتِبَت لله، ولم تُفرَض على أحد، ولم تتولَّ الدولة توزيعها قهراً على المكتبات ودُور الثقافة الحكومية لتُسجَن في الرفوف دون قارىء وليكسب أصحابها من مال الدولة ما لا يحلّه الله، وكان الحاكم في مغرب شمسه، فآثر السكوت مغيظاً، ولكنه سمع كلمة الحق فأخذ يتلدّد غيظاً، وأنهى الزيارة، فنهض الرجل مرفوع الرأس، زاهي الكبرياء.

وثانية نعرفها له في مجال العزّة الشجاعة، فقد دعي إلى مؤتمر إسلامي مع جماعة من كبار العلماء في العالم الإسلامي، وقد كان رئيس الدولة الداعية، ذا صدىً مسموع في الناس، وبطش متعسّف في بلده، فافتتح المؤتمر بكلمة يعلن فيها ما يسمّيه «اشتراكية الإسلام» ويدعو العلماء المجتمعين إلى تأييد ما يذهب إليه، على أنه الحق الوحيد الذي لا ثاني له.

وقد نظر العلماء متحيّرين ضائقين، ولكن الأستاذ أبا زهرة يطلب الكلمة في ثقة، ويعتلي المنبر ليقول في شجاعة إننا نحن علماء الإسلام الذين يعرفون حكم الله في قضايا الدولة، ومشكلات الناس، وقد جئنا هنا لنصدع بما نعرف، فعلى رؤساء الدول أن يقفوا عند حدودهم، فيدعوا العلم إلى رجاله، ليصدعوا بكلمة الحق، وقد تفضلت بدعوة العلماء لتسمع أقوالهم، لا لتعلن رأياً لا يجدونه صواباً مهما هتف به رئيس! فلنتّقِ الله في شرع الله.

وقد فزع رئيس الدولة فطلب عالِماً يخالف الشيخ في منحاه، فلم يجد أحداً يتّفق معه! وكان في المدعوين عزّة وإباء، فاحتفوا بأبي زهرة مؤيّدين! وفُضّ المؤتمر بعد الجلسة الأولى، لأن صاحب الدولة قد وجد الإعصار، فخرج مغضباً يزفر.

كان أبو زهرة متعدّد المواهب، وقد نشأ طالباً بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم انتقل إلى مدرسة القضاء الشرعي، فنال درجة العالمية سنة ١٩٢٥ وطمح إلى دراسة اللغة العربية، فاتجه إلى دار العلوم لينال المعادلة سنة ١٩٢٧، فاجتمع له تخصّصان قويان، لا بدّ منهما لمَن يريد التضلّع في علوم الإسلام.

وقد أسعده الحظ بالتدريس في الكليات بعد فترة يسيرة من تخرّجه إذ اختير مُدَرّساً للخطابة والجدل بكلية أصول الدين، فألقى محاضرات ممتازة في أصول الخطابة، وتحدّث عن خطباء العصر القديم، منتقلاً إلى خطباء العربية في عصورها المختلفة، وكتب في الخطابة مؤلَّفاً كان الأول من نوعه في اللغة العربية حيث لم تخصّ الخطابة قبله بكتاب مستقل، وقد ذاع فضل المؤلّف فاختارته كلية الحقوق لتدريس الخطابة بها، إذ كانت مادة حيّة من موادّها العلمية، إذ تقوم المُرافعات القضائية على أُصولها.

ومن هنا كان النفر الأول من خِرّيجي كلية الحقوق المصرية ذوي بيانٍ آسر، حيث كانت مادة الخطابة الأدبية أصلاً من أُصول التدريس، ولن يكون الخطيب خطيباً دون إلمام بقواعد اللغة، وحفظ للنصوص المختارة من الشعر والنثر، فليت الذين يشكون عيّ الألسن وفهاهة القول في المحاكم يعملون على تدريس هذه المادة من جديد، وحين برز إعجاب الأساتذة والطلاب بالمُدَرّس الشاب، رأوا أن يعهدوا إليه بتدريس الشريعة الإسلامية بالكليّة، لأن تخصّصه الفقهي بمدرسة القضاء يُتيح له أن يكون مبرزاً في مادة التشريع لما عهد فيه من ألمعية ونفاذة.

ومع أن الرجل الطامح وجد نفسه زميلاً لأساتذته الكبار في الكلية من أمثال: أحمد إبراهيم، وأحمد أبي الفتح، وعلي قراعة وفرج السنهوري وكلّهم عَلَم في بابه يُشار إليه بالضلاعة والاستيعاب، أقول مع أنه زامَلَ هؤلاء الكبار فقد بذل جهده

المُثابِر ليرتقي إلى صفوفهم ارتقاءً علمياً يقوم على البحث الدائب، والجهد الشاقّ، فعكف على دراسة الأبواب المقرّرة بالكليّة عكوفاً ظهر أثره الطيب فيما أخرج من مؤلّفات.

ولم يَشَأ أبو زهرة أن يقتصر بمجهوده على مواد الشريعة بالكليّة، بل جمع الطلاب حوله في ندوات أسبوعية يتحدّث فيها عن رأي الإسلام في مشكلة تشغل الناس، وأخذ يقرأ ما بأيدي الطلاب من مؤلّفات تتحدّث عن القوانين الأوروبية، ليقف على أسرارها، وليزنها بما يعرف من آراء الفقهاء في كتب الإسلام، فاستطاع أن يجعل من طلبة كلية الحقوق عشّاقاً مخلصين للتشريع الإسلامي، وأن يدفعهم إلى تأليف الرسائل العلمية بالدراسات العليا في مسائل تتصل بالفقه المقارن، حيث يكون التشريع الإسلامي بارز المكانة في شتّى الدراسات.

ونأخذ من ذلك عبرة نافعة، هي أن الأستاذ الكفء إذا رُزِقَ الإخلاص الجادّ جدير بأن يكون مصدر إشعاع قوي في بيئته، وأنت تلمس إشعاع أبي زهرة في كثرة الاستشهاد بآرائه فيما يقدّم من رسائل الدكتوراه، والماجستير بكليات الحقوق وكليات الشريعة بالأزهر، لأن إنتاجه الفقهي الحافل قد ملأ مساحة شاسعة لا تقف عند باب أو بابين، ولكنها تشمل أبواب البيوع والمعاملات، والحدود الجنائية، والأحوال الشخصية، من ميراث وزواج وطلاق.

هذا إلى قيام الأستاذ بتدريس علم الأصول دراسة مُنتِجَة لا تتّجه إلى قضايا الزمن الغابر وحدها، بل تجعل التطبيق العملي للقاعدة الأصولية مما يشغل بال الناس في عصرهم، ولا نريد بذلك أن نُضائل من جهود زملائه وأساتذته، فما منهم إلّا له مقام معلوم، ولكننا نقول: إن أبا زهرة كان تيّاراً لا يقف وشُعلة لا تخمد، وما زال كذلك حتى لَقِيَ وجه الله.

لم يكتب الأستاذ أبو زهرة مؤلّفاته في الفقه الإسلامي، إلّا بعد أن وضح له الطريق، إذ إن كثيراً من أساتذة الشريعة، لا يضعون في اعتبارهم عند التأليف، غير مراعاة المقرّر الدراسي وحده، فهم يلتزمون بموضوعاته دون غيرها، وقد

يستمر أحدهم في تدريس المنهج الواحد عدّة سنوات، فلا يكلّف نفسه مراجعة جديدة تضيف الطريف، بل تظلّ المذكّرة على وضعها الأول في طبعاتها المتكرّرة.

أما الأستاذ أبو زهرة فقد اتّجه في تأليفه التشريعي ـ تاريخاً وفقهاً ـ وجهتين محدّدتين، تعرّض للحديث عنهما في مقدمة كتابه عن الشافعي، إذ أشار إلى أن دراسة تاريخ علم من العلوم ذات شعبتين، شُعبة تدرس الأطوار التي مرّت عليها نظريات العلم، فتأتي بالقواعد والأحكام متسلسلة في تطوّرها الزمني، مصوّرة معرفة البيئات التي احتضنت هذه النظريات، وحاجات العصر التي دُفِعَت إليها من تجدّد أحداث، واختلاف أمكنة ومُلابَسات.

أما الشعبة الثانية فهي دراسة أصحاب النظريات الفقهية، دراسة تحليلية، يبيّن فيها الدّارس وجهة نظر الفقيه المدروس، وما ابتكره من آراء قائمة على الأصول المعتمدة، ومقدار الأثر الذي تركه في ذلك العلم، والمناهج التي سلكها، والغايات التي يرمي إليها، والنتائج التي وصل إليها، وأثرها فيمن تَلاه من تلاميذه، وأعيان مذهبه ومُقَلِّديه.

هاتان الوجهتان في دراسة التشريع تاريخاً وفقهاً كانتا موضع اهتمام الأستاذ، فهو في بدء تدريسه بكلية الحقوق، راعى المنهج حين تحدّث عن الملكية، ونظرية العقد، وعن الوقف وأحكامه في المذاهب الفقهية، وعن الوصية وقوانينها، وعن التَّرِكات والتزاماتها، ثم عن الأحوال الشخصية في المواريث ومسائل الأُسرة، من زواج وطلاق ونفقة، ولكلِّ عنوان من هذه العنوانات كتاب مستقل.

وقد كان هذا حسبه لو سلك سبيل الكثيرين في الاكتفاء بمواد الدراسة الجامعية، ولكن الأستاذ جعل هذه الدراسات الأولى مسحاً مبدئياً لقضايا التشريع المدني والجنائي، ليتفرّغ إلى دراسات مستقلة تنتمي إلى الشعبتين المحدّدتين، فهو في تطبيق الشعبة الأولى يتحدّث عن العقوبة في الفقه الإسلامي، وعن الجريمة، وعن عقد الزواج، وآثاره، وعن الولاية على النفس، وعن تنظيم الأُسرة، وتنظيم النسل، وقد يندرج في هذه الشعبة ما سبق أن كتبه للطلاب، ولكن طريقة التأليف في كتبه الأخيرة قد اتّسعت نظراً، وعَمُقَت غوصاً، ونضحت

عليها القراءة المتصلة، والتجربة الدائبة، ما ينضح الغيث على الزرع في أرضه الجيدة، فآتت أُكُلها المنشود، في دسامة وقوة وإبداع.

أما الشعبة الثانية، فقد وجدت تطبيقها فيما كتبه أبو زهرة عن أئمة الإسلام وأعلامه في مضمار التشريع، وقد اختصّ منهم أبا حنيفة، والشافعي، ومالكاً، وابن حنبل، وابن تيمية، وابن حزم، وزيد بن علي، وجعفر الصادق بثمانية مجلدات كبار، كانت المكتبة الإسلامية في مزيد الحاجة إليها، وقد جاءت سابقة رائدة في أكثر ما اتّجهت إليه من آراء، وما برحت سابقة متقدّمة على أكثر ما وَلِيَها من مؤلّفات في موضوعاتها، لأن أكثر ما صدر عن هؤلاء الأئمة قد قام به مؤرّخون وأُدباء، لا فقهاء متخصّصون، وطبيعي أنهم لم يتعرّضوا للمسائل التشريعية في حَسْمٍ واعٍ كما فعل أبو زهرة، لأن مؤرّخ الفقهاء الأصيل لا بدّ أن يكون فقيهاً مارس الفروع، وعرف الأصول قبل أن يتصدّى لتاريخ إمام جُلّ عمله التشريع، وكأني بالأستاذ أبي زهرة، وقد قرأ ما كتبه هؤلاء، ولمس نقاط الضعف فيه، فقال مُرشِداً إلى الصواب، دون أن يعيّن الأسماء.

«إنه لا يمكن أن يدرس رجل كمالك في شُهرته بالفقه والحديث من غير أن نعرف مناهجه في الفقه والحديث، كما لا يمكن أن يدرس قائد حربي من غير أن نعرف مناهجه القيادية، إنما دراسة الفقيه دراسة لمنهاجه الفقهي أولاً بالذات، ولحياته وبيئته ثانياً وبالعرض وعلى وجه التبعية، ومَن اقتصر في دراساته على حياته وإنسانيته وصِلته بالعلوم المختلفة فهو لم يبيّن شخصيته الخاصة»[1].

وما قاله الرجل حقٌّ لا شُبهَة فيه، ولكنه يفيد كثيراً حين نقدّمه إلى أُناس يدرسون الأشخاص في كتب متعدّدة، دون أن يُسهِبوا في إيضاح إبداعهم الأدبي، أو إسهامهم الفكري، وإنك لتقرأ كتباً عن مثل: أبي نواس، وبشّار، وابن الرومي، فتجد تسليطاً قوياً مُلِحّاً لمسائل عِلْمَي النفس والاجتماع، على كل خبر يُروَى، وأحاديث تُرَدّد، مع إسهاب مُضجِر في قواعد علمية لا تمتّ للبحث الأدبي إلّا بافتعال كبير.

---

(١) مالك: حياته وعصره، لأبي زهرة، ص٤.

أما نصوص الشعراء فلا تكاد تجد نصيبها المطمئن من التحليل والشرح، ومعنى ذلك في صريحه الواضح أن الكاتب لا يبلغ غور النصوص في ضلاعة، فهو يتركها إلى فهقة قد تكون باباً من العلم، ولكنها بعيدة الصلة عن اللباب!.

ولم يشأ أبو زهرة أن يقصر بحوثه الفقهية ـ تاريخاً وتشريعاً ـ على المتخصّصين وحدهم، إذ وجد في الشبيبة الإسلامية حبّاً دافعاً لدراسة مسائل الفقه، ومعرفة تواريخ الأئمة من الفقهاء، كما وجد بعضهم قد وقع تحت تأثير كتب ضعيفة أُلِّفَت في عصور الانحطاط، وحَفِلَت بغرائب الأحاديث، وشواذ الأحكام، ومستحيلات القصص والأخبار، وكلّ هذه لا تعطي الصورة الإسلامية، في وضعها الصحيح، فرأى أن يُفرِد كتباً مستقلة بأحكام سهلة التناول عن الأُسرة، والحدود، والعقيدة الإسلامية، والقانون الدولي، تقرّب المراد في يُسْرٍ سهل.

كما قام بتأليف كتاب شامل لأئمة الفقه، أحسن كثيراً في وضعه السهل وجعل عنوانه: (محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية) ليكون مناسباً لمَن يريدون أن يقفوا على تراجم الفقهاء ومذاهبهم في وضوح لا يدفع إلى اللَّبْس، وقد بُدِىء الكتاب بمقدمة فقهية شافية، ثم تحدّث عن الأئمة الثمانية، الذين أفرد كلاًّ منهم بالحديث في مجلد خاصّ، فقدّم للقارىء غير المتخصّص، ما يبلّ الغلّة، ويُشفي الصدر، حين قرّب البعيد.

ـ ٢ ـ

وإذا كان كتاب (محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية) قد توخّى السهولة في الإلمام بقضايا دقيقة من قضايا الأصول والفقه، فإن هذا التوخّي المقصود لم يكن ليُيَسِّر على غير المختص فحسب بل كان أداة حاسمة في ردع مَن يتكلمون في مسائل التشريع الإسلامي من غير رجاله، حيث زيّن الغرور لطائفة من الكاتبين، أن تعالج مسائل التشريع على غير استعداد، فإذا طلبت إليهم الرجوع إلى كتب الأصول وأقوال الأئمة في صُحُف التراث عجزوا عن قراءة هذه البحوث الرصينة عجزاً فاضحاً، وذهبوا يتطاولون بالباطل على أساتذتهم الناقدين، وفيهم

مَن يستـدلّ على تخريفـه الشائن بـأن كتابـه المخطىء قـد تُرجِمَ إلى لغـة أجنبية، ودُرِسَ في جامعة مسيحية.

ولو عَقِلَ هذا المتطاول لعرف أن أخطاءه الشنيعـة هي التي جعلته أثيـراً لدى مَن قرّروه في جامعاتهم، إذ يهمّهم أن يظهر التشريع الإسلامي في صـورة منحرفـة قـدّمها إليهم خـطؤه المتواصـل، ثمرة مُشتهـاة تساعـد على أن يُطفئـوا نـور الله لـو يستطيعون، فالله مُتِمٌّ نوره، ولو كره الكافرون.

لهذا النفر المتعـالم المغرور قـد كتب أبو زهـرة كتابـه أيضاً، ليقـول لهم قد جلوت لكم مسائل التشريع في صفحات واضحة يقرؤها كـلّ مثقف، فيلمّ بها دون لَبْس، وإذا كنتم تُمـارون في بعض الحقائق، فـأمامكم مـا يُقنِع المُحـايد، ويُحيّـر المُغرِض فلا يردّ.

شرح الأستاذ في تمهيـده المبدئي كيف كـان الإسلام دين العقـل، إذ جاءت كل قضاياه سائرة في نهج المنطق السديـد، وإذا كانت الشـريعة الإسـلامية تعتمـد على النقل من الكتاب والسُّنّة، فليس معنى ذلك أنها شريعة نقل لا عقل كما يـرى الواهمون، ولكن معناه أن النقل جاء موافقاً للعقل في كلّ ما ينتحيه، وأن المناهـج الفقهيـة حين تستظلّ بـالنصوص إنمـا تسير وراء مـا يُوحي بـه العقـل السليم، فـلا تعارض بين نص صحيح، وفكر سليم، وإذا اجتهد الفقهاء، في أحكام لم يأتِ بها نص فـإنهم يقيسونهـا على أحكام جـاء بها النص، فهي منـدرجة بـالقيـاس، تحت النص المعتمد دون جموح.

وفي التأكيد على إيضاح هذه الحقيقة ذكر الأستاذ خطأ مَن يذهبون واهمين، إلى أن من الصحابة مَن يتـرك النص من حديث رسـول الله إلى رأيه الخـاصّ، إذا اقتضت المصلحة ذلك، وهذا لغو سمعنـا به ممّن لا يُحسِنـون القول، مستشهـدين بوقائع لعمر بن الخطاب فهموها على غير وجهها الصحيح، فجـاء المؤلّف ليبيّن أن عمـر ـ كأمثـاله من مُجتَهِـدي الصحابـة ـ لم يترك النص ولكنـه فهمه فهمـاً دقيقـاً، فاستلهمه دون أن يحيد عنه، وحسم القول قاطعاً، حين ذكر أن المصالح التي أفتى

فيها الصحابة، كانت جميعها تطبيقاً واعياً للنصوص، وعلى الذين يهرفون بما لا يعرفون، أن يتعلموا أولاً.

ومن هذا الوادي ما صحّح به الأستاذ أغاليط مَن يذهبون إلى أن أهل الرأي كانوا بالعراق، وأهل الحديث كانوا بالمدينة، ولذلك جاء فقه أبي حنيفة قياسياً متطوّراً، وجاء فقه مالك سماعياً واقفاً!.. فأكد المؤلّف بدليله المُلزِم أن الرأي كان بالعراق والحجاز معاً، وأن الأثر كذلك كان بالبلدين، ولكن أمور جدّت بالعراق اقتضت أن يذهب فيها الفقهاء إلى الرأي حيث لا نص، وهذا الرأي ليس انفراداً بحكم لا دليل عليه، ولكنه قياس لشيء على شيء، فالمَقيس عليه دائماً هو النص، ثم أكد الأستاذ هذه الحقيقة، حين تعرّض لفقه مالك رضي الله عنه فقال في وضوح[1]:

«ولم يكتفِ مالك رضي الله عنه بفقه الصحابة والتابعين، بجوار حديث رسول الله ﷺ، بل اتجه إلى فقه الرأي وقد تلقّاه عن بعض فقهاء الرأي بالمدينة كيحيىٰ بن سعيد، واختصّ ربيعة بن عبد الرحمن الملقّب بربيعة الرأي بالطلب، ويظهر أن الرأي الذي أُثِرَ عن ربيعة وغيره من فقهاء المدينة، لم يكن كالرأي الذي كان عند أهل العراق، وهو القياس، إنما كان الرأي عند ربيعة، هو التوفيق بين النصوص والمصالح المشتركة[2].

ثم قال: «ونحن لا نستطيع أن نقول إن فقه العراق كله فقه رأي، وإن فقه الحجاز جملةً فقه أثر، فإن الأثر كان مأخوذاً به في العراق، والرأي كان مأخوذاً به في المدينة، وإنه كان في المدينة فقه كثير، واستنباط عظيم، وما دام ثمّة فقه، فلا بدّ أن يكون للتخريج والرأي مجال»[3].

لقد أنصف أبو زهرة مالكاً ورجال مذهبه بما لا شُبهة فيه، وإذا جاز أن يعرف قوم من رجال الفقه بأنهم أهل النص الواضح دون رأي، فإنهم الظاهرية لا

---

(١) محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية، ص ٦٥ بتصرّف يسير لا يمسّ الجوهر.
(٢، ٣) محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية، ص ١٨٧ بتصرّف يسير لا يمسّ الجوهر.

المالكية، وقد تحدّث عنهم أبو زهرة حديث الدارس المستوعب، فقال: إن جمهور الفقهاء، ينظرون إلى النصوص على أنها معقولة المعنى، قد جاءت لمقاصد تنتظم بها أحكام يسير الناس بمقتضاها أما الظاهرية فإنهم يرون أن النصوص لصالح العباد، ولكن كل نص يقتصر على موضوعه لا يتجاوزه، ولا يفكّر فيه لعلّة مستنبطة منه، وإن كان يجب الاعتقاد بأنه جاء لمصلحة العباد، فلا نحرّم ولا نحلّل إلاّ بنص»(١).

وقد اشتهر أبو زهرة بكتاباته الفقهية، لتعدّد مناحيها، وكثرة موضوعاتها، ولكن مؤرّخه المتتبّع لا يغفل جهده الكبير في مسائل علم الكلام، إذ قام على تدريس الجدل بكلية أصول الدين حقبة من دهره، كانت داعية إلى دراسة بعض مسائل الفلسفة بنوع عامّ، والفلسفة الإسلامية بنوع خاصّ، وقد كان علم الكلم مظهراً من مظاهر الفلسفة الإسلامية، ومشرعاً من مشارع الجدل الإسلامي في أدقّ مسائل الاعتقاد، من أُلوهية ونبوّة وبعث وجزاء، بل من سياسة تدير مسائل الحكم، وترعى جانب الشورى، وتحفظ واجبات المحكوم، وتقيّد مشيئة الحاكم بأوامر الله.

وكتب علم الكلام السلفية، ذات غموض قاتم في أكثرها، وهي تحتاج إلى دارسٍ فاحصٍ يُضيء جوانبها الداجية.

وقد كان أبو زهرة تلميذاً لأحمد أمين في مدرسة القضاء، وقد قرأ ما كتبه أُستاذه في الجزء الثالث ضحىٰ الإسلام، فرأى كيف استطاع أحمد أمين أن يدني قضايا علم الكلام من الذّهن المُعاصر، بحيث يسهل استيعابها، فكان ما كتبه صاحب ضحى الإسلام أول عرض واضح مُعاصر لأدق خفايا علم التوحيد.

ولكن هوى صاحب الضّحى كان مع المعتزلة، إذ هم في رأيه أصحاب الفكر الحرّ في الإسلام، وقد ظُلِموا كثيراً بما حُمِلَ عليهم، من آراء لم يقولوا بها في قليل أو كثير، وكون المعتزلة أصحاب الفكر الحرّ في الإسلام وحدهم، مبالغة مُفرِطة لا ندري كيف اندفع إليها باحث متّئد كالدكتور أحمد أمين.

---

(١) محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية، ص ٤٠٩.

ومهما يكن من شيء فقد أعاد تلميذه الأستاذ محمد أبو زهرة كتابة تاريخ علم الكلام، ليخطو الخطوة الثانية، فيصحّح بعض ما يحتاج إلى تصحيح من أقوال سابقة بين مُعاصِر ومتقدّم، وقد اتّسع المجال أمامه في كتاب (المذاهب الإسلامية) ليتحدّث عن أسباب الاختلاف بين الناس بعامّة، وعن أسباب الاختلاف بين المسلمين بخاصّة، ذاكراً من الدواعي الباعثة ما لا سبيل إلى إنكاره كالعصبية، والتنازع على الخلافة، ومجاورة أصحاب الديانات القديمة، وترجمة كتب الفلسفة، والمتشابه في كتاب الله.

وفي باب المذاهب السياسية تحدّث عن الخلافة الراشدة وما بعدها، وعن طوائف وُلِدَت في ظلّ التفكير السياسي، كالشيعة والخوارج والمُرجِئة، موضحاً شروط الخلافة عند الجمهور، وموقف الأمة من الحاكم إذا خالف أمر الله.

ثم مضى يتتبّع الفِرَق الإسلامية موضحاً آراءها البارزة، ومُفَصِّلاً مناهج أهل السُّنّة من السلفيين، والأشاعرة والماتريدية! وما أُخذ على المؤلّف شيء غير عدّه الوهّابية مذهباً مستقلاً، وهي كما قال حقّاً ذات منحىً سلفي ينتمي إلى الإمام أحمد وأتباع مذهبه من أمثال ابن تيمية، وابن القيّم، ممّن تَبِعَ آراءهم الإمام المُصلِح محمد بن عبد الوهاب، ففِيمَ إذن جعل الوهابية مذهباً مستقلاً!؟ وإمامها سلفي متّبع!.

ولم يترك الأستاذ سهولته الشافية، حين تحدّث عن أدقّ المسائل الكلامية حول العقيدة، إذ كتب بحثاً ضافياً تحت عنوان (العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم) وألقاه بالمؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، المنعقد في المحرّم سنة ١٣٨٥ هـ موافقاً مايو سنة ١٩٦٥، وقد صدّره بحديث دقيق عن الشهادتين، والإيمان بما جاء به رسول الله، وتحديد ما لا يَسَعْ المسلم جهله من العقائد وأهمها التوحيد.

وإذا كنّا لا نستطيع إيجاز ما يقال في هذا الباب، فقد وُفِّقَ الأستاذ إلى أحسن سُبُل الإيجاز الشّافي حين تحدّث عن الوحدانية[1] في الذات مبيّناً رأي

(١) المؤتمر الثاني لمجمع البحوث، ص ٢٨ وما بعدها.

السلف والخلف في المحكم والمتشابه، وموضحاً ما ذهب إليه الغزالي من أن السّلف لم يفوضوا بل فهموا المعاني المجازية، وأن على مَن لم يفهم معاني التنزيه أن يفوّض، وقد استطرد إلى رأي ابن الجوزي منتهياً إلى وجوب الوقوف الدقيق لمدى ما جاء في كتاب الله، وأن على العامّة ألّا يخوضوا في المتشابه، بل يؤمنوا بأن الله تعالى مُنَزّه عن الشبيه، أما خاصّة العلماء فعليهم أن يدرسوا دلالة الألفاظ، وأن يبذلوا قُصارى ما يستطيعون في فهم النصوص.

وفي الحديث عن أفعال العبد، وحقيقة المراد بالقضاء والقدر، ونفي الوساطة بين الخالق والمخلوق والإيمان بالغيب واليوم الآخر، أجاد المُحاضِر إجادة تامّة، ولو سلك كل عالِم مسلك الأستاذ في الحذر السادّ للثغرات، ما تورّطنا في أقوال متضاربة نعدّها من صميم علم التوحيد وهي منه بمكان بعيد.

كانت ثقافة أبي زهرة ثقافة موسوعية، إذ لا تجد باباً من أبواب التراث الإسلامي إلّا وقد نَهَلَ منه أصفى ما يحويه، حتى إذا امتزج بنفسه، وخالط فكره، وجد في نفسه دافعاً إلى التعبير عمّا استوعب من فكر، وما شعر من خالِجَة، وما انتظم في عقله من مقدمات صادقة، تؤدّي إلى أصدق النتائج، لذلك نجده يفسّر كتاب الله في أعداد مجلة (لواء الإسلام) تفسيراً يحمل طابع المثقف المستنير، في غير فضول يلجأ إلى الاستكثار والتزيّد، وقد نهج منهج الإمام محمد الخضر حسين إذ سبقه إلى التفسير بالمجلة، وزاد عمله بسطة في الإيضاح، وكرّاً على معارضة مَن يقولون في القرآن بالهوى لا بالرأي. ثم أصدر موسوعته عن القرآن الكريم جامعة بين القديم والجديد حين تحدّثت عن نزول القرآن، وجمعه وتدوينه وقراءته ورسم حروفه، وترجمته إلى اللغات وناسخه ومنسوخه بروح جديدة تتصل فيها أقوال السّلف بآراء مَن خلفهم من كبار الدارسين، وللشيخ وقفة مع كل رأي تأييداً وتثبيتاً، مع معارضته لكل ما نقل من زيغ لا يستند إلى دليل.

أما كتابه الشامل (خاتم النبيين) فقد كان من أواخر ما كتب، فجمع عُصارة تأملاته النبوية، وسجّل في ظلال الأحداث مشاعره الخاصّة، مصحوبة بالوقائع والمواقف، دون أن يغفل الردّ على أوهام تمخّضت عنها أذهان كليلة، وإذا سبق

المؤلّف ببعض هذه الردود فإن أسلوبه المُشرِق يبعث جِدّة طريفة يستشفّهـا القارىء دون خفاء.

وقد كان المؤلّف صادقاً حين رسم نهجه في كل ما كتب عن سيرة رسول الله وأئمة الفقهاء، إذ آثر الرجوع إلى أصحّ المصادر، دون أن يتزيّد بنقول من المخطوطات تتضارب حيناً لتفسح مجال التعليق في الهامش حين ينصّ المؤلّف على زيادة حرف في مخطوطة، ونقصه في مخطوطة أخرى، والخطب أسهل من أن تكتظّ الدراسة بهذه التعليقات، لأن مَن فاتهم عمق الدراسة أخذوا يتزيّدون بتسجيل ما لا يرفد القارىء بنفع أصيل.

- ٣ -

كان أبو زهرة عالِماً عاملاً، وسرّ عظمته في جيله أنه قرن العلم الغزير بالعمل الواضح الصريح، وأول ما يُنبىء عن هذه العظمة جهره بكلمة الحق حين وجب الجهر بها في زمن اشتد به الإرهاب الفكري والسياسي، وتعرّض علماء الدين لتهجّم قاسٍ جاهر به الحاكم في محفل عامّ، وكأنه يحرّض مَن دونه أن يعبثوا بكرامة مَن يستمسكون بقول الحق، ويؤدّون رسالة الأنبياء، إذ كانوا ورثتهم الحقيقيين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيلا يظن القارىء مبالغة تدفعني إلى الإغراق، فإني أقدّم إليه ما يطمئنه من البرهان.

١ - اندفع بعض الحكّام إلى مناوأة خصومه في الدول الإسلامية المجاورة، فأخذ يرسل مَن يخرّبون العمران ويهدّدون أمن المواطنين، ويرى في ذلك رسالة قومية تفرضها زعامته على العالم العربي، ووجد من مُنافقي الكتاب مَن يعتبر تدخّله الظالم عملاً مشروعاً لإنقاذ العالم العربي وتحريره، ولكن دُعاة الفضيلة هالهم أن تُرتَكَب هذه الفظائع وأن تنتحل الأسباب الظالمة لتبريرها، فجعلوا يتحدّثون في المجالس العامّة لائمين، ثم رأوا أن يواجهو الأستاذ أبا زهرة بسؤال يُظهِر حُكْمَ الله فيما يفعله هذا الحاكم فكانت الإجابة صريحة شجاعة لم يهتف بها الرجل في خفوت وتطامن، وكأنه يؤدّي فريضة ذات أخطار، ولكنه التمس الرسائل لإعلانها على الناس، فكتب مقالاً دينياً في مجلة لواء الإسلام الصادرة في غرّة

(رجب سنة ١٣٨٠ الموافقة لديسمبر سنة ١٩٦٠)، أجاب فيه عن أربعة أسئلة، وُجِّهَت إليه في ندوة، وهي مما تتردّد في النفوس والخواطر، فوجب الإفصاح عنها دون مُواراة، وكان من هذه الأسئلة ما يلي:

أ ـ ما الذي يجب بالنسبة لحاكم يدفع المخرّبين، ويؤيّدهم بالمال والقوة، ليخرّبوا جزءاً من الديار الإسلامية فيعمّها الفساد، ووراء الفساد الطغيان، أتجب طاعته؟.

ب ـ ما شأن حاكم لا يتّخذ الرفق في معالجة شؤون قومه ولا الإخلاص في تخيّر رجاله، بل بغلظة على الرعيّة فيبعد الأبرار، ويقرّب الفجّار ويسلّط الجواسيس، حتى شاعت الريبة، وذهبت الثقة، أيُعَدّ عمله حكماً إسلامياً؟.

وإجابةً على السؤال الأول، قال الإمام الشجاع: إن الله لا يحبّ الفساد، وشرّ الولاة والٍ يعمل على نشر الفساد، وتخريب العامر، وإزالة القائم من الشجر والثمار، فالوالي المُفسِد الذي يعبث في العمران، جزاؤه جهنّم، وقد وردت الآثار الصّحاح عن النبي ﷺ بالنهي عن قطع الأشجار، والتخريب في أثناء الحروب، ولو كان ذلك في أرض العدو، فكيف يجوز ذلك في أرض الإسلام؟ وفي حال الأمن والسلام؟.

إن الذين يفعلون ذلك عقابهم هو عقاب قطاع الطريق، ومَن يدفعهم يكون له مثل عقابهم، وقد قال تعالى: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف * أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا * ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ [المائدة/ ٣٣ ـ ٣٤].

أما إجابة السؤال الثاني فقد جاءت كما يلي:

إننا نقول إن ذلك أسوأ ما يصل إليه الحاكم في رعيته، لأن الحُكْم عدل ورفق وسماحة، واتجاه إلى الصالح، وإبعاد عن الفساد وأهله، وإن الولاية لا

تكون إلّا بالعدالة والاستعانة بالعاملين، ومَن ولّى في شؤون الرعية مَن لا يصلح لها فقد ظلم، ومَن ولّى رجلاً وغيره أصلح منه فقد ظلم، وقد لعن الله مَن يحابون في توسيد الأعمال للناس فقال عليه السلام: «مَن وُلِّيَ من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر أحداً محاباة، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه عدلاً ولا صرفاً حتى يدخله جهنم» فمَن كان حكمه على هذه الأحوال أو بعضها فطاعته غير واجبة في معاصيه، فلا يحلّ لمؤمن أن يعاون حاكماً في عبثه أو فساده، أو في مُمالأته للمفسدين» اهـ. من عدد رجب ١٣٨٠، ص ٦٧٦.

٢ ـ راجَت على يد بعض الحكّام الدعوة إلى ما يُعرَف بالقومية العربية، وغمرت الناس سيول من الكتب تنادي بالقومية العربية، وتفرض على طلاب المدارس والجامعات فرضاً ومَن أراد أن يدعو إلى الجامعة الإسلامية، حُورِبَ وعُدّ متخلّفاً لا يعيش في عصر المدنية، ولا ينادي بالعلمانية، ولكن الأستاذ أبا زهرة جاهر برأيه في سبيل الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وحاضر الطلاب في كلية الحقوق في موضوع جعل عنوانه: (الجامعة الإسلامية).

ثم أراد نشر المحاضرة فتنبّه القائمون على الأمر إلى خطورة رأيه في نظرهم، وأوقفوا نشر المقال بمجلة لواء الإسلام، فما كان من الطلاب المخلصين إلّا أن طبعوه على الآلة الكاتبة، وأخذوا ينشرونه باسمه في الناس، ومن حُسْن الحظّ أن الأستاذ كان قد نشر خُلاصته من قبل في مجلة المسلمون (ذو القعدة سنة ١٣٧٢ هـ الموافق يولية سنة ١٩٥٣) الجزء التاسع من السنة الثانية، ص ٨٣٧ وفيه يقول:

«لقد فكر المفكّرون في الجامعة الإسلامية في آخر القرن الماضي، فأخذ الكُتَّاب الأوروبيون تبعاً لسياسة مرسومة، وغاية لهم معلومة يبيّنون أن الدول لا تقوم على مبادىء دينية وإنما تقوم على وحدة اللغة أو الجنس أو المقام في أرض واحدة، وذلك ليعوقوا حركتنا ثم بثّوا ذلك في عقول الناشئة، وسيطروا على مناقد قلوبهم، بعد أن سيطروا على ملوكنا وذوي السلطان فينا، وأخذوا يشيعون القالة بهذا في نفوسهم بطرق تشبه الاستواء، حتى أصبح الكثيرون من المسلمين لا

تستأنس عقولهم بدعوة جامعة، فانذعرت كلمة المسلمين، وصار منّا مَن يقتنع ويقنع بأن هذه أُسس تكوين الدول، وبأن مَن طالب بالجامعة الإسلامية فقد خالف سُنّة الوجود، وطبيعة تكوين الدول، مع أن المُثُل قائمة في دول أوروبا نفسها فهذه بروتستانت وهذه كاثوليك، وهكذا.

ثم هذه التجمعات الدولية، تحت سلطان غير سلطان الجنس، وغير سلطان اللغة، وغير سلطان الإقليم، بل تحت سلطان مذهب مالي، أو مذهب اجتماعي، فإذا كان ذلك النوع من المذاهب يجمع كُتلاً دولية، فلماذا لا يكون الدين جامِعاً للكتلة الإسلامية، وهو أقوى تأثيراً في القلوب، وأشدّ صهراً للنفوس، فتجتمع مؤتلفة غير متنافرة، وبوحدة غير متجافية».

وقد أخذ المسؤولون بعد هذا الموقف، يطلبون كلمات الأستاذ في الندوات العلمية المصرية لمراجعتها حين تتطلب الضرورة أن يقول وأن يستمع الناس.

أما الندوات الخارجية في بلاد الإسلام، فكان الأستاذ يدعى إليها بالاسم، ولا يستطيع المسؤولون أن يمنعوا أستاذاً كبيراً يشرِّف بلاده في أداني المعمورة وأقاصيها، وكان المجتمعون أعلام بلادهم، وفيهم مَن له منزلة الأستاذ العلمية ومكانته الدينية، وفيهم مَن تشبّع بآراء مُغرِضة حاول أن يفرضها مُدّعياً ما لا طائل تحته من الحرية الموهومة، والعمق الزائف، ولمثل هؤلاء كان وجود أبي زهرة أمراً ضرورياً.

فقد دُعِيَ إلى ندوة إسلامية في لاهور سنة ١٩٥٨، وهاله أن يجد بين المُحاضرين من تلاميذ المستشرقين وأذنابهم مَن يحاول تشويه الحقائق الإسلامية جهلاً دون علم، فينكر حجّيّة السُّنّة، ويفرض لوناً خاصّاً من التفسير الدخيل لكتاب الله، على غير علم بلغة العرب أو إلمام بحروف كلماتها، بل وجد من اليهود بالندوة مَن يحاول أن يفسّر القرآن والسُّنّة ويحكم على آراء الفقهاء، بالخطأ والصواب، وكأنهم تلاميذ صغار يعرضون على أستاذهم ما يقولون ليُبدي الرأي الصحيح! بل وجد الغمز السافر لكل منحىً إسلامي، وكان في هؤلاء مَن يقول إن

القرآن ليس كتاب أحكام، وأن الإجماع في الإسلام هو إجماع أعضاء مجلس النوّاب.

وكان بالندوة الأستاذان الجليلان محمد المبارك ومصطفى الزرقا، وهما من دُعاة الحق، وممّن كوّنوا مع أبي زهرة جبهة رادعة، وكان أعجب العجب أن يقوم مستشرق أمريكي فيدّعي أن الأحكام لا ثبات لها، بل لا بدّ أن تتغيّر في كل عصر، ثم قام متكلّم جريء فأنكر النبوّات، وادّعى أن رسول الله أخذ معارفه جميعها من أهل الكتاب، وأن القرآن من تأليفه.

ماذا كان ينتظر من أبي زهرة حين يسمع هذا اللغو في بلد إسلامي؟ لقد استطاع أن يبدّد كل شُبهة، وأن يعصف بكل تمويه، فاحمرّت وجوه الأدعياء غيظاً، وما تآكل في صدورهم من الجمر أشدّ وأهول، ثم رأينا مَن يتعقّب الأستاذ بالتجريح في مجلة مغربية فيقول: «وإنه لمن المُضحِك جداً أن نشاهد الفقيه المصري أبا زهرة، وهو البعيد كل البعد عن تصوّر حقيقة المشكلة، يشارك في المؤتمر فيناقش ويهاجم، وتنتفخ أوداجه حقيقةً لا مجازاً»[1].

أي والله من المُضحِك أن يتكلم الفقيه المصري محمد أبو زهرة في السُّنّة النبوية والإجماع ونزول القرآن، وتفسير كتاب الله! وليس من المضحك أن يتكلم في ذلك مستشرق أمريكي لا يعرف لغة القرآن!.

صرنا لما جدّ من عكس الأمور بنا نمشي على الرأس لا نمشي على القدم

فإذا تركنا ما قاله كاتب مجلة دعوة الحق المغربية إلى أقوال المُنصفين، من رجال القلم الحرّ، واللسان الصادق، فإننا ـ في الجهة المقابلة ـ ننقل عن الكاتب العربي الكبير الأستاذ عجاج نويهض انطباعاً قوياً وقر في نفسه حين استمع لأبي زهرة في مؤتمر علمي عقد بالجزائر في صيف ١٩٧٣ م، وقد كتب الأستاذ عجاج مقالاً ممتازاً عن هذا المؤتمر الجليل حقاً، قال فيه عن أبي زهرة[2]:

---

(١) مجلة دعوة الحق المغربية، عدد سبتمبر، سنة ١٩٥٨ نقلاً عن مجلة لواء الإسلام، ديسمبر، سنة ١٩٥٨.

(٢) مجلة الأديب اللبنانية، يوليو سنة ١٩٧٤، ص ١٧ وما بعدها.

«ارتقى المنبر الشيخ محمد أبو زهرة فاشرأبّت إليه الأعناق، وبدأ نقاشه، صوته يرنّ أجمل رنين، ميازيب أفكاره تتدفّق شيئاً فشيئاً، وما مضى عليّ غير دقائق وأنا مُصغٍ إليه حتى صار يبدو لي كأن هذا الرجل المرتضع من أثداء الشريعة الإسلامية هابط من السماء في ظلّه، إن فؤاد الشيخ محمد أبو زهرة موصول بينبوع روحاني وهذا من فضل الله، يتكلّم في أدقّ المعاني بعبارات كلها انسجام، رائعة، وديعة، طاهرة بريئة، ما شبّهته إلّا بعنقود عنب في آب، صنعته الشمس، وسقته الندى والطلّ، وجعلته أحلى من الترياق، رأيت المنطق هنا قرين الإيمان، والعقل والنقل يمشيان إلى الأذهان معاً.

ثم يقول الأستاذ عجاج بعد سطور عن حديث أبي زهرة:

يجري هادئاً فإذا أغمضت عينيك لتجعل حاسّة السّماع هي الناقل الوحيد لكلامه إلى ذِهنك، خِلْتَ نفسك تسير في بحر ساح، يتحرّك رهواً، ينتقل أبو زهرة بالموعظة في أجمل دروبها، مُرَصّعاً كلامه بالآية الكريمة والحديث الشريف، وواقعة التاريخ ذات العبرة، يقرب بينك وبين العصر الذي يتكلم عنه تقريباً مدهشاً، فتخال نفسك أن الدنيا كلها في بركات إسلامية، نامية، ويُغرَس في قلبك الإيمان المتلألىء كنور الصباح».

أجل، لقد جاء هذا الكاتب بالمنطق الفصل، فما أجمل أن يكون حديثه في نهاية هذا المقال فصل الخطاب.

عبد المجيد سليم
عالِم الشريعة ومفتي الإسلام

يقول حافظ إبراهيم في رثاء الأستاذ الإمام محمد عبده:

بكى عـالَمُ الإسلامِ عـالِم عصره   سِـراج الديـاجي هـادم الشبهـات

وعالِم العصر هو الذي يعرف معضلاته ويضع لها الحلول الناجعة، في ضوء ما يفهم من كتاب الله، وسُنّة رسوله، وما رُوِيَ عن أئمة التشريـع ممّن خَبِروا أُمـور الناس وأفتوا في مشكلاتهم بما يتّفق والنهـج القويم، وكـذلك كـان الأستاذ الإمـام وكذلك كان خليفته في الإفتاء عبد المجيد سليم.

لقد أُتيح للأزهري الناشىء أن ينتسب إلى الأزهر في عصـر الأستاذ الإمـام، وأن يستمـع إلى دروسه في التفسيـر والبلاغـة، وأن يراه مثـلاً يُحتـذى في إصـابـة الفهم، وسعة الاطّلاع، وبلاغة التعبير، فيبلغ من نفسه مبلغاً كبيراً. وكـذلك أُتيـح له أن يتتلمذ على الشيخ الفيلسوف الزاهد حسن الطويل فيقرأ عليه كُتب المنـطق، وبعض مؤلّفات ابن سينا.

وقد أفادَ من سلوكـه ما أفـادَ من علمه، حيث كـان الطويـل مع سعـة محيطه زاهداً متواضعاً، لا تغرّه البوارق، ولا تتجاذبه الأضواء، بـل يَنْشدُ الـدّرس الهادىء في صحبة أفراد من تلاميذه يصطفيهم اصطفاءً جيّداً بعـد أن يقف على استعدادهم الطيّب، فإذا تمّ لهم مـا أرادوه من حبّ الأستاذ وَالاهُم بـدروسه البعيـدة عن النّمط

التقليدي في الأزهر، وقد يُؤخَذ عليه أنه يَعْرِضُ كثيراً، ويرجّح قليلاً، وذلك شأن بعض المفكّرين حين تتكافأُ الأدلّة، وتتعادل البراهين فيصعب الميل إلى رأْيٍ خاصٍّ دون ترجيحٍ أكيد.

أما صاحب الأثر في التعمّق الفقهي لدى الطالب الناشىء فهو شيخه الأستاذ أحمد أبو خطوة، حيث كان من كبار المتضلّعين في الفقه الحنفي، وقد قرأ من الشّروح والحواشي في الأصول والفروع ما يتعذّر حصره، حيث كانت تُعرَض الجزئية الصغيرة من أحكام الفقه، فيفيض أبو خطوة في إيضاح ما قيل بصددها من شتّى الأقوال، وكأنها كانت موضع دراسةٍ خاصّةٍ قد احتفل لها من قبل، وكان الشيخ عبد المجيد سليم كثير الإشادة به في أحاديثه، وقد عقد موازنةً بينه وبين أُستاذه الإمام محمد عبده فذكر أن الإمام يمتاز بسعة الأفق وقوّة التعليل مع بلاغة الأداء، وأنّ الشيخ أبا خطوة يمتاز بتتبّع المسائل في كتب الفقه وأدلّة الأحكام، وكلاهما رجع على الطالب المتطلّع بما أمدّه من بصر سديد، وعلم غزير.

إذ لم يكد ينال درجة العالمية حتى عُيِّنَ مُدَرِّساً للفقه والأصول بالأزهر، وتدريس الأصول من المعلّم الناشىء همّة وطموح، إذ عُرِفَ عن مدرّسيه أنهم من كبار العلماء لا من مبتدئيهم. وقد انتقل صيته العلميّ إلى عاطف بركات باشا ناظر مدرسة القضاء الشرعي فاختاره لتدريس الفقه والأصول بهذه المدرسة العالية، وفي زملائه المدرّسين مَن كانوا أساتذته، وعلى يد الشيخ عبد المجيد تخرّج في الفقه والأصول نفر ممتاز من رجال القضاء الشرعي بمصر.

ولم يشأ الشيخ أن يضع مذكّرات لطلّابه، كما فعل زملاؤه؛ بل ارتضى أن يدرس لهم الأصول العريقة من كتب التراث الفقهي، وأن يعلّق عليها بما يفصّل المُجمَل، ويوضح الغامض، وكأنه بذلك يحذو حذو أستاذه حسن الطويل في درس الفلسفة، إذ كان يقرأ كتب السَّلَف شارحاً موجِّهاً، فإذا سُئِلَ أن يَخُطّ مؤلَّفاً مستقلاً أعلن أنه لا يبلغ مبلغ سابقيه! ولكلٍّ مَنحاه المُريح.

وقد ألحّ الكثيرون على الشيخ أن يأذن بطبع رسالته الفقهية التي تقدّم بها لعضوية هيئة كبار العلماء فلم يسترح إلى هذا الاقتراح، كما لم يشأْ أن يجمع ما

أصدر من الفتاوى الفقهية الدقيقة على مدى ربع قرن متّصل، إذ لم ينقطع عن الإفتاء بعد أن تركه إلى مشيخة الأزهر فظلّ يُسأَل ويُجيب. وقد ألهَمَ الله ذوي الرأي فقاموا بجمع ما صدر عنه من الفتوى مع زملائه السابقين واللّاحقين، في مجموعاتٍ شافيةٍ تعتبر إحدى الذخائر الغالية في دُنيا التشريع، وبذلك تهيّأ للدّارسين أن يلمّوا بآراء الفقيه الكبير، وافيةً شافيةً، ولن يضيع جهد المخلصين.

كان في طبع الرجل الكبير ميلٌ عن السياسة الحزبية، ودعوةٌ حارّةٌ لطلّاب العلم أن ينصرفوا إلى رسالتهم الإسلامية الخاصّة بالتعليم والإرشاد، ولكن صاحب المنصب الديني المرموق لا بدّ أن يُسأَل فيُجيب. ومن هذه الأسئلة ما يَمُتّ إلى السياسة والسياسيّين بالنسب القريب، وقد يكون السؤال من الخطورة بحيث يواجه صاحب الأمر مواجهةً شجاعةً تتطلّب الردّ الشجاع، وهذا ما عُهِدَ من المفتي الأكبر.

وقد كتبت مقالاً بمجلّة الأزهر[1] بسطت فيه فنوناً من هذه المواجهة الحاسمة التي تعدّدت مواقفها، وتشابهت ببعض مواقف شيخه الأستاذ الإمام، إذ حاول مدير الخاصّة الملكية بإيعازٍ من الملك أن يستبدل ببعض ممتلكاته العقارية الجديبة أرضاً خصيبةً من أملاك الأوقاف، وتلمّس الفتوى المُيسّرة من المفتي الأكبر فأعلن لفوره أن الاستبدال باطل «إذ لا يجوز شرعاً لغير مصلحة الواقف، وهي هنا مفقودة»، بل إن الخسارة محقّقة فعلاً!.

وأكبر من ذلك خطراً أن يتلقّى سؤالاً عن حكم الشرع في رجلٍ يراقص النساء، ويشرب الخمر في الحفلات! وذلك بعد حفلةٍ صاخبةٍ أقامتها إحدى الأميرات وحضرها فاروق، ونشرت بعض الجرائد صوراً لبعض ما كان! وقد أدرك عبد المجيد سليم مَن المقصود بالفتوى فما تراجع بل جابه المُخطىء بانحرافه، واضطرب القصر لجرأة هذا الإنكار الصارخ كما قالت مجلة المصوّر[2]، واتّصل

---

(١) مجلة الأزهر، عدد صفر ١٣٨٠ هـ.

(٢) المصوّر، بتاريخ ١٤/١٠/١٩٥٤ م.

بالأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر حينئذٍ منبّهاً على خطورة الفتوى بالنسبة لأثرها الجريء، وكان الشيخ المراغي من الغيرة على الحقّ بحيث لم يخذل أخاه، بل دعا إلى تصحيح الخطأ عند المخطىء لا إلى تخطئة المصيب!.

وصداقة الرجلين الكبيرين كانت مُحكَمَة الأواصر من عهد بعيد، فقد اشتركا معاً في لِجانٍ فقهيّة قامت ببعض التشريعات المتطوّرة وفقاً للقواعد الفقهية المُلزمة، وعرف كلٌّ صديق لصاحبه مكانه التشريعي ومعدنه الخلقي، ولكن اتجاه المراغي في ملابسة السياسة خالف اتجاه المفتي، فنشأ بعض الفتور بين الشيخين الكبيرين لأمدٍ لم يطل، لأن النفوس الكبيرة إذا تعرّض بعض الغيم في سمائها الصافية لا يلبث أن ينقشع. وقد أُتيح لعبد المجيد سليم أن يُؤبّن صديقه في بعض المناسبات الداعية، وأن يقول إنه كان ذا صفاتٍ شريفة جعلته رجلاً عظيماً، وأجلسته من التاريخ مجلساً مرموقاً، ثم ألمّ بما كان من الخلاف الطارىء حين قال:

«كنت أنا والشيخ المراغي صديقين حميمين، كلانا يحبّ صاحبه، ويقدّر مواهبه، ولم تكن هذه الصداقة عارِضةً، بل كانت أصيلةً، مرّت بها عهودٌ مختلفة اشتركنا فيها، ولكننا اختلفنا بعد أمَدٍ من مشيخته الثانية للأزهر، وكان خِلافُنا معروفاً للعامّة والخاصّة من الأزهريين وغيرهم، وسببه الجوهريّ ميله رحمه الله إلى ناحية السياسة الحزبيّة، وشدّة نفوري من ذلك، إذ أرى الخير كلّ الخير في أن يتجنّب العلماء مكايد الحزبيّة ومتاعبها التي تُفضِي إلى ما لا يُحمَد من العواقب، ولكن هذا الخلاف لم يخرج بي ولا به عن الجادّة، وما ينبغي أن يكون عليه أهل العلم من المودّة والنصيحة، فكنت أُبدي له ودّي، وأنقد ما أراه موضع النقد، وكان يتقبّل ودّي ويبادلني إياه، ويعتذر عن عدم مُشاطرتي، أو يُبدي من المبرّرات ما يراه سبباً لفعله، ولم يكن هذا الخلاف بالذي يقطع ما بيننا من محبةٍ وتعاون، ولكنه كان خلاف الشرفاء، والحمد لله»[1].

---

(١) الشيخ المراغي بأقلام الكتاب، ص ٦٧.

هـذا عن الإمام المـراغي، أما الإمـام الأكبر مصـطفى عبد الـرازق فقد كـان صديق عبد المجيد سليم وزميله في الدراسـة الأزهريـة، حيث نالا درجـة العالميـة معاً في عام واحد، واشتركـا في التدريس بمـدرسة القضـاء، ثم في مجلس الأزهر الأعلى. وللرجلين كـرامة خلقيّـة ترتفـع بهمـا عن الحـزازات الشخصيّـة، كمـا أن فلسفتهما الخلقية تميل بهما إلى الهدوء والمُسالَمة، ولكن السياسـة دفعتهما وجهـاً لوجه، حين أصرّ القصر على تعيين الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخـاً للأزهـر دون أن يسمح القانون، إذ لم يكن الرجل الكبير على جلالة علمـه وسموّ منـزلته عضـواً بجماعة كبار العلماء، وهو شرط أساسيّ للتعيين؛ لأن الجماعـة حينئذ تمثّـل القيادة العلمية في الأزهر، وشيخ الأزهر رئيس هؤلاء القادة، فكيف يجيء من غيرهم!.

كما أن تعيينه في هذا المنصب الخطيـر يعتبر دفعـاً جديـداً للأزهـر في أتون السياسة، فالرجل وزير حزبيٌّ من كبار الأحرار الدستـوريين، وله في السيـاسة ميـل خاصّ ينحرف بـه عن قوم ويتّجـه إلى قوم، ولا بـدّ أن يكون هـذا الميل مؤثّـراً في اتجاهه الأزهري، بل لهذا الميل وحده قد اختاره القصر الملكي ليُناوِىء الوفد كما ناوأه الإمام المراغي من قبل.

وقد استدعى النّقراشي باشا رئيس الوزراء حينئـذ فضيلة الشيخ عبـد المجيد سليم وحـاول أن يُغريـه بالمـال إذ كانت للشيـخ عـدّة آلافٍ من الجُنيهـات بـوزارة الأوقاف مكافأةً علميّةً لقيامه على مشيخة الأحناف بالأزهر مدةً طويلةً. وقد تجمّدت تلك المكافأة سنوات عدّة لاعتراض الماليـة على أن يجمع الشيـخ مُرتّبين في وقتٍ واحـد، فلوَّح له رئيس الـوزراء بالإسـراع في صرف المكـافأة إذا وافق على تعيين الشيـخ مصطفى عبـد الرازق وفُـوجىء الإمام بـالعرض المـاكـر، فغضب في وجـه مخاطبه غضبةً أزعجته، وآثر الانسحاب الفوري دون استئذان.

ولم ييأس القصر الملكي فأوفد بعض رجاله إليـه يهدّده في صـراحة، ويعلن أن المعـارضة ستكـون مصدر خـطر عليه، فقـال الشيخ في إيمـان: أَسَيَحُولُ هـذا الخطر بيني وبين المسجد؟ فخجل رسول القصر ولم يُجِب! ثم رأى الشيخ الأكبـر أن يصدر بياناً للناس في الصّحف اليومية يعلن فيه أمر هـذا التهديـد الملكي، ومن

أعجب الأشياء أن يندفع نفر من المأجورين إلى استهجان بيان الشيخ بحجّة أنه يذيع أسراراً ملكيّة، على حين يسكتون عن نقد المخالفة الصريحة لقانون الأزهر ويعدّونها أمراً طبيعيّاً لا شيء فيه.

ومصيبة مصر أن تجد في كل عصرٍ مَن يؤيّد الباطل بوجهٍ وقاحٍ فيه من الصخر صلابته المتحجّرة، ثم لا يخجل أن يسبّ الأبرياء، وكأنّهم بدفاعهم عن الحق قد انخرطوا في الباطل!.

لقد تكرّر هذا الموقف في عهد الثورة، حين رأت في أول أمرها أن تتدخّل في شؤون الأزهر، فتفرض على شيخه الأكبر عبد المجيد سليم أُناساً لا يراهم أهلاً للقيادة حين تختارهم للمناصب المرموقة ليكونوا أداةً لتنفيذ ما تشاء، بعيداً عن منطق القانون، ولكن الرجل الكبير لم يفارق صلابته المتشدّدة، فرفض كلّ تدخّلٍ يهمّ به ذوو الغرض عن لهوٍ عابث لا يقدّر المسؤولية.

وبادر المتغطرسون بمطالبته بالاستقالة إذا أصرّ، فقدّمها عن طوع، وبدل أن يشكر الكاتبون للرجل غيرته على الحق سوّدوا الصُّحُف بنقده، وأظهروه في موضع المُعارِض للحق، المجابه لعهد التحرير والحرية، ولكن صوت الإنصاف قد جاء من الخارج لا من الداخل، حيث كتب مُراسِل أجنبي مقالاً تحت عنوان «شخصيّة الأسبوع» في جريدة (البروجريه ديمنش) أشار فيه إلى مقترحات الشيخ بشأن ما يراه في الإصلاح، ومُعارضته لما يُملى عليه من أمور لا تتّفق والصالح الأزهري، كما قالت الجريدة ما نصّه:

«إن الشيخ عبد المجيد سليم يتمتّع بثقة الغالبيّة من رجال الدين وكبار العلماء، وهو معروف بالتقوى والورع، وما حاول قطّ أن يفيد لنفسه، إذ جعل همّه الأول مصلحة الأزهر قبل مصلحة الأفراد، ومن أجل ذلك كافح في سبيل إنقاذ هذه المؤسسة الدينية، وهو لا يخشى إلاّ الله ولا يساوم على كرامته، ولذلك يستحقّ كلّ تقدير»! هذا ما نشرته «البروجريه ديمنش» وترجمته مجلّة الرسالة بتاريخ ٢٢/٩/١٩٥٢، أي بعد قيام الثورة بشهرين فحسب!.

وقد استقال الشيخ عبد المجيد سليم ليخلفه الأستاذ الأكبر محمد الخضر حسين، وليكابد من مرهقات التدخّل الثوري ما دفعه إلى الاستقالة. وكان من المواقف المضحكة أن يطلبه الصاغ صلاح سالم ليدعوه إلى مقابلته سريعاً بالوزارة في لهجةٍ متعالية، ولكن الرجل العظيم يقول له في حزم: «يا صلاح أفندي شيخ الأزهر لا يذهب إلاّ لرئيس الجمهورية وحده لأن له في عنقه بيعة، أما سواه فإذا أراد لقاءه فليحضرْ إليه»!.

وتلك مواقف يصرّ أعداء الأزهر على إخفائها، ليرموا شيوخه بالوصوليّة، مستشهدين ببعض الصغار من أشباه العلماء، ليكون في عثراتهم ما يدفعون به الكبار بغياً دون حق، وإلاّ فكيف يقوم شيوخ الأزهر جميعاً أمام الطغيان الداخلي والخارجي؟ وكيف يعبّرون بمواقفهم النبيلة عن شعور الأمّة المصرية تارةً وعن شعور العالم الإسلامي بأجمعه تارةً أخرى؟ ثم يصرّ كُتّاب التاريخ المصري على تجاهل هذه المواقف الحسنة الرائعة، وإذا أجبروا على الإشادة بموقفٍ ذاع واشتهر، فقد عمدوا إلى سَتْرِ عشرات المواقف الرائعة كيلا تذيع، وفيهم مَن يختلق المعجزات اختلاقاً ليلصقها بالأدعياء كي ينال عرض الدنيا في منصبٍ لامع، أو حظوة مقرّبة، ثم يتساءلون بعد ذلك: ما فعل الأزهريون؟.

أما موقف عبد المجيد سليم من التّرف الحكومي، والإسراف الملكي فقد ذاع واشتهر، وعبارته الجامعة «تقصير وتقتير هنا وتبذير وإسراف هناك» ممّا سارت مَثار المثل الذائع، وقد أوضَحْتُ مناسبتها في كتابي (علماء في وجه الطغيان) فليُرجَع إليه، فقد اشتمل على كثيرٍ من النوادر الباهرة التي تتوّج علماء الإسلام بأنضر الأكاليل.

كان في عبد المجيد صوفيّة زاهدة تنأى به عن المجتمعات اللاّمعة، فقد أجمع المسؤولون على ترشيحه عضواً بمجمع اللغة العربية، إذ جرى المجمع على اختيار الأفذاذ من شيوخ الأزهر أعضاءً يُسهِمون في رسالته، فكان المراغي وحمروش والخضر حسين وشلتوت وتاج والفحام من الأعضاء النابهين، ومثلُ عبد المجيد في دقّته الفقهيّة، وتبحّره الأصولي، لا يُجهَل مكانه، ولكنّه أصرّ على

الفروق قائلاً في تواضع حَيِيٍّ، إنه فقيهٌ لا لغويّ، ولن يكون الفقيه فقيهاً مجتهداً من طراز عبد المجيد إلّا إذا كان لغوياً يعرف دقائق التفسير الحقيقي والمجازي للألفاظ.

وإذا كان قد آثر الابتعاد عن مجمع اللغة فقد دعا بكلّ جهوده إلى إنشاء جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، إذ هاله أن تحدث الفُرقَة بين أبناء الدين الواحد، لأمورٍ سياسيّة مضى عهدها منذ قرون، وأصبحت حالة المسلمين في حاجةٍ إلى اجتماع الشمل، واتحاد الكلمة، فأقام النّدوات المتنوّعة، وكتب المقالات المتشعّبة داعياً إلى تقوية الروابط وفضّ منازع الخلاف مستنداً إلى النصوص القرآنية وما صحّ من أقوال رسول الله، وما قام به الكبار من أئمة الصحابة والتابعين، ثم ضرب المثل بنفسه فقال في مَقالٍ رائعٍ نُشِر بالعدد الأول من مجلة «رسالة الإسلام» التي كانت تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة:

«إن هذه الأمة لا تصلح إلّا إذا تخلّصت من الفُرقَة، واتّحدت حول أُصول الدين وحقائق الإيمان، ووسّعت صدرها فيما وراء ذلك للخلافات. ما دام الحكم فيها للحجة والبرهان، وقد أدركنا في الأزهر على أيام طلبنا العلم عهد الانقسام والتعصّب للمذاهب، ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشاهد زوال هذا العهد، وتطهّر الأزهر من أوبائه وأوضاره. فأصبحنا نرى الحنفي والشافعي والحنبلي إخواناً متصافين، وجهتُهم الحق، وشرعتُهم الدليل، بل أصبحنا نرى بين العلماء مَن يخالف مذهبه الذي دَرَجَ عليه في أحكامه لقيام الدليل عنده على خلافه.

وقد جَرَيْتُ طوال مدّة قيامي بالإفتاء في الحكومة والأزهر، وهي أكثر من عشرين عاماً، على تلقّي المذاهب الإسلامية ـ ولو من غير الأربعة المشهورة ـ بالقبول، ما دام دليلُها واضحاً عندي، وبرهانها لديّ راجحاً مع أني حنفيّ المذهب، كما جريْتُ وجرى غيري من العلماء على مثل ذلك فيما اشتركنا في وضعه أو الإفتاء فيه من قوانين الأحوال الشخصية في مصر، مع أن المذهب الرسمي فيها هو المذهب الحنفي.

وعلى هذه الطريقة نفسها تسير «لجنة الفتوى بالأزهر» التي أتشرّفُ برياستها، وهي تضمّ طائفةً من علماء المذاهب الأربعة، فإذا كان الله قد برأ المسلمين من هذه النّعرة المذهبيّة التي كانت تسيطر عليهم إلى عهدٍ قريب في أمر الفقه الإسلامي، فإنّا لنرجو أن يُزيل ما بقي بين طوائف المسلمين من فرقةٍ ونزاع في الأمور التي لم يقم عليها برهان قاطع يفيد العلم، حتى يعودوا كما كانوا أمّةً واحدة، ويسلكوا سبيل سلفهم الصالح في التفرّغ لما فيه عزّتهم، وبذل الوسع فيما يُعْلي شأنهم، والله الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل»[1].

وقد كان لمقال الشيخ الكبير أثره المدوّي فتجاوبت الآفاق الإسلامية شرقاً وغرباً بترديده، وانهالتْ على دار التقريب عشرات المقالات المؤيّدة الداعية، ونشرت مجلة رسالة الإسلام بعض ما ورد من أئمة المذاهب الإسلامية، وفي طليعتها ما كتبه العلاّمة الكبير الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء إذ نشر مقالاً ممتازاً تحت عنوان[2] (الاجتهاد بين السُّنّة والشيعة) بالعدد الثالث قال فيه:

«لقد كنْتُ أعرف ذلك ـ الدعوة إلى الائتلاف ـ في فضيلة الأستاذ الجليل عبد المجيد سليم، وفي فريقٍ صالحٍ من إخوانه العلماء، ولكن نشوةً من الفرح والأمل يجب أن تغمر كلّ مسلمٍ لإعلان هذا بلسان هذا العالِم الكبير المسؤول، ولذلك لا يسعني إلاّ أن أُوجّه للشيخ وأصحابه معه شديد الإعجاب وأكرم التحيّات ـ والحمد لله ربّ العالمين».

هذا وللأستاذ مقالات أخرى تحوم هذا الحَوْم، وفيها من التوجيه السديد ما يبرىء الجراح، ويشفي الكلوم لو صدقت العزائم وصحّت النيّات.

كان الإفتاء الديني في مصر منذ اندرجت في ظل الحكم العثماني يتبع الفقه الحنفي وحده، وكان القاضي التركي حريصاً في أوّل عهد الأتراك على الالتزام بهذا الفقه، حتى مضى الأمر عليه تلقائياً دون اعتراض ما من شيوخ المذاهب

---

(١) مجلة رسالة الإسلام، العدد الأول، ربيع الأول ١٣٦٨ هـ، ص ١١.
(٢) رسالة الإسلام، رمضان ١٣٦٨هـ، ص ٢٣٩.

المتماثلة، ثم جاء عهد الأستاذ الإمام محمد عبده في الإفتاء فلم يشأ أن يتقيّد في بعض الأحكام بالمذهب الحنفي وحده، ولكنّ مُعاصِريه وقد رأوا سابقيه من أمثال الشيخ المهدي العباسي والشيخ محمد البنّا والشيخ حسّونة النووي يلتزمون بالفقه الحنفي أثاروا عليه صخباً في الدوائر العلمية ورموه بالشّذوذ رغبةً في الشذوذ فحسب، ثم أعقبه الشيخ بكري الصدفي والشيخ محمد بخيت المطيعي والشيخ إسماعيل البرديسي والشيخ عبد الرحمن قراعة، فرجعوا جميعاً إلى الالتزام بفقه الأحناف.

ثم جاء الأستاذ عبد المجيد سليم، وقد درس الفقه الحنفي دراسةً شاملةً في كتب الفروع والأصول معاً، بحيث أصبح حُجّته الأوّل في مصر بعد رحيل الشيخ محمد بخيت المطيعي رحمه الله، فرأى أن يعود إلى نهج الإمام محمد عبده في غير الفتاوى الرسمية التي تتطلّبها الدولة، وفي عهده بالإفتاء تألّفت لِجانٌ فقهية لتعديل قانون الأحوال الشخصية، فكان رأيه من رأي الإمام المراغي في التوسّع الشامل للمذاهب المعتمدة جميعها، بل امتدّ هذا التوسّع في بعض قضايا الميراث والطلاق حتى ضمَّ آراء أمثال ابن حزم وزيد بن علي وطاوس وشريح وداود كما يشهد بذلك ما يُعرَف بقانون ١٩٢٩ للأحوال الشخصية، وقد وُجّه إلى فضيلة الأستاذ عبد المجيد سليم سؤال بمجلة الرسالة العدد (٤٤٩) عن مدى التزامه بالمذهب الحنفي في فتواه فقال[١]:

«إن الفتاوى التي أصدرها على نوعين، نوع يتّصل بالقضاء الشرعي والجهات الرسميّة، وهذا أفتي فيه بما هو الراجح من مذهب أبي حنيفة، لأن المستفتي يطلب ذلك في استفتائه، ولأن هذا هو المذهب الرسمي في مصر، ولو لم أتبع هذه الطريقة لاصطدم القضاء بالفتوى. أما النوع الثاني فهو الفتاوى التي أصدرها في استفتاءاتٍ غير رسميّة، أو واردةٍ من البلاد الأخرى، وأنا فيها لا أتقيّد برسمٍ يُرسَم، ولا بقولٍ من الأقوال في المذهب الحنفي، وإنما أختارُ القول الذي

---

(١) الرسالة، عدد ٤٤٩، بتاريخ ١٩٤٢/٢/٩ م.

أراه راجحاً وأُبيّن سبب رجحانه عندي، وأذكر إلى جانبه الأقوال الأخرى إذا طلب المستفْتي ذلك، أو كان الأمر يستدعي ذكرها!.

قال السائل: أتلتزمون في ترجيحكم دائرة المذاهب الأربعة المعروفة؟

فأجاب المفتي الأكبر: أنا لا أتقيد بالمذاهب الأربعة، ولكني لا أخرج فيما أفتي به عن مذاهب العلماء من السّلف والخلف والسبب في ذلك أن الفقه الإسلامي غنيٌّ جدّاً بأقوال العلماء وآرائهم، فلا تكاد تجد مسألة من المسائل إلّا وقد تعدّدت فيها آراء الفقهاء، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأن رأياً تراه لم يقُلْ به أحدٌ من العلماء من قبل، فليس على الناظر في هذه الثروة الطائلة إلّا أن يختار أرجحها مصلحة، وأقواها دليلاً، وأشبهها بروح الشريعة، وهذا الذي أسير عليه!.

قال السائل: أكان من المُفتين الذين سبقوا فضيلتكم في دار الإفتاء المصرية مَن جرى على هذه الطريقة التي تسيرون عليها؟ فقال المفتي: إن الفتاوى التي تحتفظ بها سجلّات دار الإفتاء لا تدلّ على ذلك، وإن كانت تدلّ في كثيرٍ من الأحيان على فقهٍ جيّدٍ ونظرٍ سليمٍ.

قال السائل: وفتاوى الأستاذ الإمام محمد عبده؟

فقال الشيخ: إن الناحية التي تجلّت فيها مواهب الإمام «محمد عبده» هي إدراكه الصحيح لمعاني القرآن الكريم، وفهمه الدقيق لأغراضه، وتذوّقه لأسلوبه ومعجز بيانه، مع بصرٍ عظيم بأحوال الناس، وعِبَرِ التاريخ، وأسرار تقدّم الشعوب، وسُنّة الله في الكائنات، يؤازر ذلك قلبٌ جريء، وجنانٌ ثابت، وعقلٌ متصرّف، وكان رضي الله عنه يعتمد في فتواه على إدراك روح الشريعة، وتبيّن أغراضها العامّة، لا على مناقشة المذاهب، وترجيح أقوال الفقهاء، لذلك تأتي فتاواه غالباً مختصرة، وقد تُثير خلافاً بين أهل العلم، ومن أمثلة ذلك أنه أفتى فتواه المشهورة بجواز لُبْس (البرنيطة) فقامت من أجلها ضجّة هائلة بين العلماء وأهل الأزهر يومئذٍ، فلما أردت أن أفتي في هذا الموضوع انتفعت بموضع العبرة فيه، فأخرجتُ فتواي التي تُجيز لُبْس (البرنيطة) إخراجاً فقهيّاً مؤيّداً بأقوال العلماء، جارياً على

طريقتهم في الاستدلال والترجيح، وبذلك لم يستطع أحد أن يشغب على هذه الفتوى، أو يثير في شأنها جدلاً».

وتعقيباً على هذا الحديث نذكر الفتويَيْن المُشار إليهما، فتوى الأستاذ الإمام، وفتوى المفتي الكبير عبد المجيد سليم لنشفع القول بالدليل:

١ ـ وجّه بعض السائلين إلى الأستاذ الإمام محمد عبده هذا الاستفسار: يوجد أفراد في بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم، وعودة الفوائد عليهم فهل يجوز ذلك؟

فقال الإمام[١]: لُبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام، والدخول في دين غيره، لا يُعَدّ مكفّراً، وإذا كان اللّبس لحاجةٍ من حَجْب الشمس أو دفع مكروه، أو تيسير مصلحة، لم يُكرَه كذلك، لزوال معنى التشبّه بالمرة.

وقد وُجّه السؤال بمضمونه لا بنصّه إلى الأستاذ عبد المجيد سليم فقال[٢] ردّاً على السائل من كلام تقدّم عن خطر القول بكفر المسلم دون دليل قويّ، كما ذهب بعض مَن توهّموا لُبْسَ البرنيطة كفراً ـ قال الشيخ ببعض التصرّف:

«إن مَناط الكفر والإكفار هو التكذيب أو الاستخفاف بالدين كما نقل صاحب نور العين على جامع الفصولين عن ابن الهمام، عمّن شدّ زُنّاراً على وسطه ودخل دار الحرب للتجارة، فقد قيل إنه كفر، «وينبغي أن لا يكون ذلك كفراً، وكذا في قلنسوة المغُول إذ إنّ هذه الأشياء علامةٌ ملكيّة لا تعلّق لها بالدين».

إذا علمت هذا، علمت أن مجرّد لبس البرنيطة ليس كفراً لأنه لا يدلّ قطعاً على الاستخفاف بالدين الإسلامي، ولا على التكذيب بشيءٍ مما علم من الدين بالضرورة حتى يكون في ذلك ردّة، نعم، إذا وُجِدَ من لابس القُبّعة شيء يدلّ دلالةً قطعية على الاستخفاف بالدين، أو على تكذيب شيءٍ مما عُلِمَ من الدين بالضرورة كان ذلك ردّةً فيكفر، وإذا لبسها قاصداً التشبّه بغير المسلمين، ولم يوجد

---

(١) الفتاوى الإسلامية من دار الإفتاء المصرية، جـ ٤، ص ١٢٩٨.
(٢) الفتاوى الإسلامية من دار الإفتاء المصرية، جـ ٤، ص ١٥٢٣.

منه ما يـدلّ على الاستخفاف بـالدين، ولا على التكـذيب بشيءٍ مما عُلِمَ منـه كان آثمـاً فقط، لِما رُوِيَ من قـول رسول الله ﷺ: «مَن تشبَّـه بقومٍ فهـو منهم» أي إنه كـافر إن تشبّـه بهم فيما هـو كُفر، كـأن عظّم يـوم عيدهم تبجيـلاً لدينهم، أو لبس زنّـارهم قاصـداً بذلـك التشبّه بهم استخفـافاً بـالإسلام. كمـا قيّـد بـه أبـو السعـود والحموي على الأشباه، وإلاّ فهو مثلهم في الإثم فقط لا في الكفر كما في الفتاوى المهدية».

ومضى الشيـخ يفيض في نقولٍ عن صـاحب البحر وابن عـابدين والـذخيـرة البرهانية، وكلها تؤيّد منحاه!.

ونرى في الإحصاء المُدَوّن بالجزء الأول من الفتاوى الإسلامية (ص ٣٤) مـا يدلّ على أن الشيخ عبد المجيد سليم قد كتب (١٥٧٩٢) فتوى مـدوّنة بـالسجلّات الخاصّة في مدى سبعة عشـر عامـاً، وقد وَلِيَ بعـدها رئـاسة لجنـة الفتوى فـأصدر عشـراتٍ أخرى دُوِّنَ بعضهـا في مجلّة الأزهر وبقي بعضٌ آخـر دون تـدوين. فـإذا علمنا أن الشيخ كان يُرسل بعض الفتاوى الخاصّة لمَن يطلبها من أصدقائه ومُريديه بعيداً عن عمله الرسمي، فلنا أن نقول إن الفقيه الكبير بمـا أعطى من جهـدٍ علميٍّ كبيرٍ قد لمَسَ مشاكل العصر المستحدثة، وأجاب عنها بما يرتئيه.

والذين كانوا يعملون معه في دار الإفتاء يذكُـرون أنّه كـان يقضي أيامـاً كثيرةً في مراجعة فتوى واحدة، إذ كان من دِيْدنه أن يقرأ كتب السّابقين في كل مـذهب، وأن يُـطيل المـراجعة المستـأنية في الآراء المتشـابهة، وأن يحـاول التوفيق بين مـا يتعارض من النصوص ويشتبه من الأحكام، وله مع نفسـه جلسات صـامتة للتفكيـر المتّئد، ولم ينسَ أن يدرس آراء سابقيه من رجـال الإفتاء، وأن يعـارض وأن يحبّذ وفق مـا يرتئيـه، وقد يضـطر إلى مخالفـة زميـلٍ كبيـرٍ لـه مقـامـه الفقهي، فيكتفي بالإشارة إلى رأيه معقّباً عليه بما فتح الله به من النظر الجديد.

ومثل هذا العقل الدائب تفكيراً وموازنـةً لا بدّ أن يـرى من الأحكام في غـده غير ما كان يراه في أمسه، وتلك سُنّة الفقهاء جميعاً ممّن يدأبون على البحث تطلّباً للدليل. وإرضاءً للضمير، ومن السذاجة المُفرِطـة أن يقوم بعض مُعـارِضِيه فيصفـه

بالتناقض حين يرى له رأيين في الطلاق المعلّق مثلاً، ناسياً أن المفتي الأكبر لم يُصدِر الرأيين المتعارضين في زمن واحد حتى يتحقّق شرطُ التناقض، وكم من أئمة الفقهاء في عصور الازدهار الفقهي مَن أفتى برأيٍ ثم عدل عنه لوضوح أدلّةٍ جديدة كانت خافيةً عنه، وذلك ما يُحسَب له في ميزان الاجتهاد. وقد يأتي التّناقض لا من اختلاف الزمن بل من تقيّد المفتي بمذهب معيّن حين يطلب السائل الحكم على مذهب أبي حنيفة أو مذهب مالك، فيحدّد إماماً بعينه، وهنا يكون المفتي مقرّراً شارحاً، لا باحثاً مستنتجاً، وله أجره عند ربّه أخطأ أم أصاب.

على أن نضوج الرجل الفقهي يتّضح بجلاءٍ فيما لم يُسبَق إليه من الآراء، حين تجدّ أمورٌ مستحدثة في عالم الاقتصاد أو الطبّ أو الاجتماع فتتطلّب رأي الإسلام في هذا المستَحْدث، ويضطرّ الفقيه إلى القياس الأصولي ليقرِن النظير بالنظير، ونضربُ المثل لذلك بفتوى[1] الشيخ عبد المجيد سليم في نقل الدم للمسلم المريض المحتاج إليه من شخص غير مسلم، وفي الانتفاع بجزءٍ من عين شخصٍ ميّتٍ لردّ بصر شخص حيّ، فينقل الرجل مسائل قياسيّة من كتب التراث منتهياً إلى أنه إذا تحقّق توقّف حياة المريض أو الجريح على نقل الدم جاز ذلك، أما إذا توقّف تعجيل الشفاء فحسب، فيجوز على أحد الوجهين عند الحنفية، ويجوز على مذهب الشافعية، وذلك إذا لم يترتّب على النّقل ضرر فاحش ممّن نقل عنه حرصاً على صحته.

وقد اختار الشيخ جواز معالجة غير المسلم من الأطباء حتى مع وجود الطبيب المسلم تيسيراً وتسهيلاً ما دام أهلاً للثقة، ذاكراً من الأدلّة ما يؤيّد رأيه، وهذه الفتوى لم ينفرد بها الشيخ وحده إذ كان رئيساً للجنة الفتوى بالأزهر، وبها من الزّملاء مَن يشاركونه الرأي بعد تداولٍ واقتناعٍ.

وحين اشتدّت أزمة التموين أثناء الحرب العالمية الثانية، دفع الجشع بعض التجّار إلى البيع بأسعار مرتفعة، وتحرّج بعض الناس في التبليغ عن هؤلاء

(١) مجلة الأزهر، المجلد العشرون، ص ٧٤٣.

الجشعين، ومثلهم مَن يختـزن الأقوات والبضـائع لتُبـاع فيمـا بعـد بثمن مـرتفـع، واضطرت وزارة التموين أن تتوجّه بـالسؤال عن الحكم الشرعي في هؤلاء، ليكـون قول المفتي حاسماً لا شكّ وراءه، فنهض الشيخ بتسجيل فتوىً نادرةً مؤيّدة بالدليل الناصع نشرتها الصُّحُف اليومية في أمكنةٍ بارزةٍ قـطعت كلَّ شـكٍّ لدى مَن يـظن أن الإخبار عن هؤلاء ضرب من الوقيعة، ومَن يتوهّم أن التقيّد بالتسعير الـرسمي حَجْرٌ على التجارة الحرّة، قال الشيخ ببعض التصرّف[1]:

«إذا قرّرت الحكومة أسعاراً لما يحتاجه الناس في معيشتهم من طعامٍ ولباسَ وغيرهما دفعاً لظلم أربابها، ومنعـاً للضّرر العـامّ وجَب البيع بهـذه الأسعار شـرعاً، وكان البيع بأزيد منها من الظلم المحرّم، وإذا نَهَت الحكومة عن اختزان ما يحتاجه الناس، كان هذا الاختزان محرّماً، ومنكراً تجب إزالته، ويجبُ على كـلّ مَن يعلم أن من التجّار مَن يبيعُ بأسعار زائدة عن الأسعار المقرّرة أو يختزن ما يحتاجُه الناس أن يبادر بالتبليغ لتعمل الحكومة على إزالة هذا المنكر، لأنها لا تستـطيع إزالتـه إلاّ إذا علمت به، وقد قال الله تعالى: ﴿ وتعـاونوا على البـرّ والتقوى ولا تعـاونوا على الإثم والعدوان ﴾[2].

وكيف لا يكون هذا ظلماً وقد وردت أحـاديث كثيرة تـدلّ على الاحتكار، ثم ذكر من النّصوص النبوية ما يبرهن على الحكم، ناقلاً عن ابن القيّم وابن تيمية من كتابي الطرق الحكمية للأول والجـوامع في السيـاسة الإلّهيـة للثاني مـا يعضّده من أقـوال سابقيـه، ثم ذكر في نهـاية الفتـوى أنّ التبليغ فـرضٌ كفائي، إذا فعله بعضٌ سقط الطلب عن الباقي، فإذا تركوا التبليغ جميعاً فهم آثمون».

أما المسائل السياسية فقد كانت ذات قدرٍ ملحوظ في إجابـات الشيخ، وهـو يعني بالسياسة السياسة العامّة لا السياسة الحزبية التي حذّر منهـا، وعارض الإمـام المراغي بشأنها، ونمثّل لـذلك بفتـواه عن تحريم مُـوالاة المستعمرين، حين طلب إليه رئيس الاتحاد المصري الطرابلسي أن يُظهِر حكم الإسلام فيمن ينتسبون إليـه،

(١) الفتاوى الإسلامية، جـ٣، ص ٨١٦.

(٢) سورة المائدة: آية ٢.

ثم يميلون إلى معاضدة الاستعمار، والتعاون معه في تيسير أمور البلاد، فعجّل الشيخ بفتواه الحاسمة مبتدئاً بآيات كريمة من كتاب الله تدعو إلى التآزر بين المسلمين والوقوف صفّاً واحداً أمام الأعداء ليصل منها إلى قوله(١):

«ولمّا كانت مُوالاة بعض المؤمنين لغيرهم من أعداء الدين سبيلاً للتفرّق، وخروجاً على وحدة المسلمين، وسبباً للفتنة، عُنِيَ القرآن في غير آية، بنهي المؤمنين عن اتخاذهم أولياء من الكافرين يلقون إليهم بالمودّة، ويعملون معهم على ما يمكّنهم من تحقيق أغراضهم، من التسليط على المسلمين ، وإضعاف شوكتهم في بلادهم، وقرّر أن هذا الصنيع مشاقّة لله ولرسوله، واتّباعٌ لغير سبيل المؤمنين، كما أنّ هذا الصنيع لا يمكن أن يُوجد مع الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنّ دعوى الإيمان ممّن يخرج على أُمّته ويعاون مَن حادّ الله ورسوله، دعوىٰ كاذبة لا وزن لها عند جماعة المؤمنين.

وفي ضوء هذا الأصل الذي يقرّره القرآن احتفاظاً بالكيان الإسلامي نقرّر أن هؤلاء الأفراد ذوي الرغبة في أن تتولّى الإشراف على بلادهم حكومة مستعمرة لا تصلها بالإسلام والعروبة صلةٌ هم خارجون على الدين، ومفرّقون لكلمة المسلمين، ولا ينجيهم من الوعيد الشديد ما يدّعُونه من أنهم يتحامون بذلك شرّاً قد ينزل بهم، أو يتوخّون مصلحةً تصل إليهم، فذلك انتحال لأعذارٍ موهومة وارتكانٌ لشُبَه باطلة يزيّنها ضعف الإيمان، وابتغاء عرض الدنيا».

وإذا كانت الفتوى الدينية أبرز آثار الشيخ، فإنها ليست وحدها آية فضله، فقد أُتيح له أن يقوم على رعاية الدراسات العليا بكليات الأزهر الشريف، فيشرف على مناهجها، ويناقش رسائلها، ويحضر بعض دروسها، والدراسات العليا لعهده تتشعّب في كليّات الشريعة الإسلامية واللغة العربية وأُصول الدين، ومعنى ذلك أن إلمام الشيخ الكبير بعلوم الأزهر جميعها يؤهّله للمناقشة الجادّة في موادّ هذه الكليّات جميعها، فهو يناقش في أصول الفقه كما يناقش في مسائل المنطق كما

(١) مجلة الأزهر، السنة التاسعة عشرة، ص ٥٥٥.

يناقش في فنون البلاغة ودقائق النحو والتصريف. ولا تكاد اليوم تجد عالِماً من هذا الطّراز المستوعب بعد أن شاعَ التخصّص بمعناه الهشّ، لا بمدلوله الدقيق.

كما كان الرجل الكبير على رأس جماعة صمّمت على ضرورة الإصلاح الأزهري للتعليم منهجاً وكتاباً وأُستاذاً في الفترة الثانية لعهد الإمام المراغي لأن الأحداث العاصفة قد حالت دون تمام الإصلاح كما عناه الأستاذ المراغي في مذكّرته الشهيرة التي تقدّم بها في مشيخته الأولى، والتي أحدثت من الدويِّ ما اهتزّت له جنباتُ الأزهر، وأدّتْ إلى استقالته بعد أن قامت عقباتٌ شديدة أمام تحقيق ما جاء بالمذكّرة الخالدة، ثم رجع الشيخ إلى عمله. ولكن ظروفاً ما قد وقفت دون استكمال وجوه الإصلاح، فرأى جماعة من خُلاصة رجال الأزهر، كالشيخ محمود شلتوت، والدكتور محمد البهي، والأستاذ محمد محمد المدني، والأستاذ عبد العزيز عيسى أن يلتفّوا حول الشيخ عبد المجيد سليم كي يجدوا منه عوناً على أداء رسالة الأزهر كما حدّدتها مذكّرة الأستاذ الأكبر.

وقام الشيخ عبد المجيد بواجبه الإصلاحيّ، وأُقيمت الندوات الهادفة في كليّات الأزهر الثلاث. وكان اسم الشيخ شلتوت من أنشط الأسماء الدّاعية لسرعة العمل، وقد ساعده على ذلك انتماؤه إلى جماعة كبار العلماء، فجدّد من نشاطها، ودفع بها إلى تقدّم مأمول، وأخالُ الأستاذ المراغي كان سعيداً بهذه الحركة، لأنها ثمرة توجيهه، وشعاعُ مِصباحه، ولئن تأخر في تنفيذ بعضٍ دون بعض، فذلك لأن القائم بالعمل المباشر يرى غير ما لا يراه مَن لا يزال على الشاطىء يراقب الموج الهادر دون أن يسبح في الماء، ولن يتمّ الإصلاح المنشود دون أَمَدٍ محدود، فالغاية بعيدة، والمطلب شاقّ مرهق، والمطايا لم تتعوّد السير السريع، وعلى الله قصد السبيل.

ولعلّ من الأوفق أن نختم حديثنا عن الشيخ عبد المجيد ببعض ما قال الأستاذ محمد محمود رئيس محكمة الاستئناف العليا في تأبينه إذ أشار إلى أنه رضي الله عنه كان النجم اللّامع في لجنة الأحوال الشخصية بوزارة العدل، إذ كانت تُعرَض الموضوعات والمسائل على اللجنة بعد سبق فحصها، وعندئذٍ يأخذ

الشيخ عبد المجيد الكلمة، فيتولّى شرح المسائل، الواحدة بعد الأخرى، مستعرضاً شتّى الآراء، في كلّ مذهب من المذاهب، ومقرّراً الحكم الدقيق، ذاكِراً رأي الأئمة والمجتهدين من الفقهاء، مُسايِراً روح العصر، منتقلاً من فنٍّ إلى فنّ، وهو في ذلك كالبحر الدافق حتى إذا انتهى من عرضه المستوعب الجامع قامت اللجنة بالبحث والتمحيص لإعطاء الصيغة النهائية للمادة القانونية».

وهكذا يكون الفقيه الأكبر سعة اطّلاع، وسلامة منهج، ودقّة استنباط، رضي الله عنه وأرضاه.

محبّ الدين الخطيب
الكاتب الإسلامي الغيور

أوجز ما يُقال عن محبّ الدين الخطيب أنه كان أُمّة في واحد، لأن أكثر حركات التحرّر الإسلامي في الأمّة العربية عرفت منه الظهير المؤيّد، والمقترح المصمّم، ولكن طبيعة الجندي في نفسه جعلته لا يطمح إلى منزلة القائد الرسميّة، أما في الواقع العمليّ فهو قائدٌ حقّاً، وأنت حين تعرض أسماء شكري القوتلي والحسين بن علي وشكيب أرسلان وصالح حرب ونوري السعيد ولطفي الحفّار وكرد علي وفارس الخوري وحسن البنّا وعبد الرحمن عزّام وعزيز المصري تجد ارتباطاً قويّاً بينهم وبين محبّ الدين في كثيرٍ من المواقف الحاسمة على مدى نصف قرنٍ متطاول، لأن محبّ الدين قد انتقل في دنيا الكفاح الإسلامي ما بين دمشق وبيروت وتركيا والقاهرة واليمن ومكّة انتقال المكافح الذي يقف في مقدمة الصفوف، وليس انتقال الموظّف الذي يحرص على مرتّبه الشهري، وما قامت حركة عربية في الشام لعهده إلّا كان محبّ الدين صاحب الرأي الوطني المخلص في مسيرها.

وإذا كان في عهده الأخير قد قنع بالرأي في صحيفة دون الاشتراك بالعمل في ميدانه، فلأنَّ المسرح الذي يجمع زملاءه قد باعد بينهم وبين ما ينشدونه من كبار الآمال، اكتفاءً ببعضٍ دون بعض، وهيهات لمَن كانت جذوة النّضال تتوقّد في أضلاعه أن يستنيم إلى الراحة، وإذن فلا بدّ من امتشاق القلم في المجلّات

والصُّحُف الإسلامية شرقاً وغرباً، فإذا لم يجد لدى أصحابها متّسعاً فسيحاً لآرائه الحرّة فلا بدّ أن يُصدِر مجلّة الزهراء ومجلة الفتح، وأن ينشر مجموعة الحديقة في أربعة عشر جزءاً ومجموعة المنتقى في ثلاثة أجزاء، ولا بدّ أن ينشِيء المطبعة السلفيّة لتنشر الكتب الهادفة في خطّين متوازيين: خطٌ لأطايب التّراث العلمي لدى الأجداد، وخط للمبتكر من الشؤون المعاصرة أدباً وعلماً وسياسةً وإرشاداً، بل لا بدّ من النّشرات الصغيرة في كُتيِّباتٍ متواضعة لا يزيد ثمنها الرمزي عن قرشين لتنشر ما يجب نشره من الآراء الإسلامية ذات التوجيه السّديد!.

هذا بعضُ ما قام به محبُّ الدين في عمره السعيد بحيث لم ينقطع يوماً واحداً عن التفكير في العمل الجادّ ليهدي إلى الصراط القويم.

وُلِدَ محبّ الدين بدمشق سنة ١٨٨٦ م وكان والده عالِماً دينياً يخطب ويدرّس في أحد المساجد، كما يعمل أميناً لدار الكتب الظاهرية، فنشأ في بيئةٍ محافظةٍ، وتعلّم القراءة والكتابة، وحفظ كتاب الله، ثم التحق بمدرسة ابتدائية هي الوحيدة من نوعها، وقد أسلمته إلى مكتب عنبر بلغة العصر، وهو مدرسة ثانوية تُدَرّس فيها جميع العلوم باللغة التركية، حتى العربية نفسها تُعَلَّمُ بالتركية، ويُقبِلُ عليها النّابهون من الطلاب، لأنها سُلَّمٌ للكليّات العالية بجامعة إستنبول، وتركيا حينئذٍ دولة الخلافة العثمانية وصاحبةُ الأمر ببلاد الشام، ومُتَخَرّجو كلّيّاتها يرجعون إلى بلادهم وقد أحرزوا أسمى الوظائف الحكومية.

وقد أتمّ الطالب تعليمه الثانوي، والتحق بكلّيتي الحقوق والآداب معاً، ولكنّه لم يذهبْ إلى إستنبول كما يذهب غيره ممّن انحصروا في أُفق التعليم الثّانوي الضيّق، بل ذهب شابّاً مستنيراً، درس العلوم الشرعيّة وآداب اللغة العربية خارج المدرسة حين اتصل بزملاء والده، وآثروه بالرعاية بعد وفاته المفاجئة.

وكان أظهر مَن مدّ له يد العون شيخه الكبير العلاّمة طاهر الجزائري، ومقامه في دمشق كمقام الأستاذ الإمام محمد عبده في مصر إذ حمل راية الإصلاح الديني وعمل على نشر الثقافة الإسلامية وجمْع التراث العلمي، وكأنه آنَسَ لدى

محبّ الدين قوّة استعداد، فجعله ينتسخ كثيراً من المخطوطات الدّسمة ليفيد علميّاً من محتواها، وماديّاً من أجْرِها.

وكانت للشيخ طاهر حلقةٌ علميّة بدار الكتب يؤمّها المتحفّزون من الشباب، وذوو الاستنارة من الشيوخ، وفي مجالس هذه الحلقة تكوّنت عقليّة مُحِبّ الدين ذات الاتجاه المتحفّز، وعرف عن طريقها كتب المُصلِحين من السابقين، وكُبريات الصّحف والمجلاّت التي تصدر في تركيا ومصر. وكان مما أثّر في اتّجاهه ما كتبه عبد الرحمن الكواكبي في طبائع الاستبداد، وما نشره محمّد عبده في كتاب الإسلام والنصرانية وفي ردّه الحاسم على هانوتو، وفي ما ذاع من أعداد العُروة الوُثقى. ومن ذلك كلّه مَدَدٌ قويّ للنهوض الفكري، والاستقلال الوطني، والإصلاح الديني!.

ولك أن تتصوّر شابّاً طامحاً عرف طريقه الواضح، وزار عاصمة الخلافة ليزداد علماً على علمٍ ثم يُفاجَأ بما يعصف بآماله، حين يرى صُحُف تركيا تستهجن لغة العرب، ولا تحاول كلّيّاتها الجامعية أن تعترف بالعربية لغةً ذات مدنيّة وتاريخ، لأن الدعوة إلى الطُّورانية قد خلقت نوعاً من التعصّب لم يكن في ترسيخه غير ما يُوهي الروابط الوثيقة بين الرّبوع المستظلّة بالخلافة، ومنها بلاد الشام التي قاست كثيراً من تجبُّر الحكّام. وقد تحدّث محبّ الدين عن الحالة العامّة بدمشق وإستنبول بحرارةٍ أليمة نجدها تشيع في مثل قوله عن المدرسة الثانوية بدمشق[1]:

«كان معلّم العربية في مدرستنا شيخاً تركيّاً مُسِنّاً أرسلوه إلينا ليعلّمنا العربية في عاصمة العروبة والإسلام التي كان يؤمّها جرير والفرزدق والأخطل! وكان آمال النشء العربي في هذه المدرسة أن يحذقوا لغة التركية تكلّماً وأدباً وإنشاءً ليتولّوا بعد ذلك وظائف الدولة في بلادهم، كانت العروبة يومئذٍ عنواناً لمدلولٍ نسيه العرب منذ ألف سنة، وتنكّروا للمعدن الكريم الذي صنعها الله منه، لولا أن الله تداركنا، فَقَيَّضَ لنا آباءً روحيين أنقذونا من هذا الجوّ الخانق».

---

(١) مقدمة محبّ الدين لكتاب (صلاح الدين القاسمي وآثاره).

كما يقول في موضع آخر واصفاً ما لقيه بتركيا عند التحاقه بالجامعة[1]، ومتحدّثاً عن نفسه بضمير الغائب:

«هاله عند وصوله إلى هذه البيئة الجديدة أنّ جميع أبناء العرب من سوريّين وفلسطينيين وعراقيّين وحجازيّين يجهلون قواعد لغتهم وإملاءها، فضلاً عن آدابها وثقافتها، ويتكلّمون حتى فيما بينهم باللغة التركيّة، وليس فيهم إنسان واحد له رسالة سامية في الحياة، ولا لأحدهم مَطمَح إلاّ أن يحذق الكلام والكتابة باللغة التركية ويندمج في أهلها، ثم يكون مستعبَداً للوظيفة التي يرجو أن يحصل على العيش من طريقها».

وبمواصلة الحوار الدّائب استطاع محبّ الدين مع فريق من زملائه الذين زاملوه في مدرسة دمشق أن يؤسّس في تركيا (جمعية النهضة العربية) داعيةً إلى نهضة اللغة العربية ولإحياء الثقافة الإسلامية المبثوثة في التراث العربيّ، مع الاجتماع الأسبوعي للتداول في تحقيق رسالة الجمعية والعمل على نشر فروع لها في عواصم الدول العربية.

وقد ظلّت الجمعية تؤدّي رسالتها دون عائق، حين قصرت اجتماعاتها على المنازل التي يقيم بها الأعضاء، ولكنها قوبلت بالاضطهاد حين خرجت إلى المقاهي العامّة، والنوادي الثقافية في إستنبول، إذ وجدت مَن أساء الظن بأعضائها وعزم على التنكيل بهم، لولا أن مكّنت الظروف رؤوسها من الفرار، فارتحل محبّ الدين إلى دمشق قبل أن يكمل دراسته الجامعية ليجاوز عهد الطّلب إلى عهد المسؤولية المقدّرة للعواقب، الناهضة بالأعباء.

وكأنّ الأقدار كانت تهيِّىء له ميداناً بكراً لجهاده، إذ ما كاد يطأُ دمشق حتى اجتمع بمَن انضمّوا إلى جمعية النهضة في سوريا، ومن بينهم الزعيم الشهير فيما بعد (فارس الخوري) فعرف منه أن القنصلية التركية في (الحديدة) تطلب ترجماناً مسلماً يُجيد العربية والتركية ويلمّ بالقوانين العثمانية وأحكام القضاء بالبلاد، فتقدّم

---

(١) مذكّرات محبّ الدين الخطيّة، ص ٨.

محبّ الدين لهذا السّفر في إصرارٍ، لأن اليمن جزء من بلاد العرب، ولا بدّ من أن يدرس عن كثب أمورها الاجتماعية والعلمية وليعمل على نهضتها قدر ما يستطيع.

وقد احتفل أصحابه بتوديعه احتفالاً سياسياً عقدت فيه الآمال الكبيرة على جهوده، ثم اتّخذ طريقه إلى عمله الجديد مارّاً بالقاهرة ليُقابل بها أصدقاءه من رجال الإصلاح، إذ إن بها محمد كرد علي ورفيق العظم، وطاهر الجزائري شيخ الثلاثة. وقد اتّسعت مدة الإقامة بمصر أسابيع، فكانت مناسبةً لزيارة أعلام الأدب والسياسة والصحافة، وفرصةً لتبادل الآراء للدراسة بينه وبين ذوي اتجاهه، حتى إذا انتقل إلى عمله وجد نفسه، عارفاً بما سيأخذ وسيدع.

وكانت ثقافته المتشعّبة باب خيرٍ عليه، إذ إنّ القائمين على شؤون القنصلية باليمن لمسوا من كفاءته ما جعل رأيه المقدّم المسموع، وقد استجابوا لاقتراحه بإنشاء مدرسة تعليمية بالحديدة تكون المِصباح الأول للنشء، ولم يكن بالمدينة مَن يكفل العمل من المدرّسين، فقام محبّ الدين بتدريس بعض المواد، وانعقدت الصلة بينه وبين طائفة من أولياء الأمور وذوي الإصلاح من الموظّفين، وصادف أن أُعلِنَ الدستور العثماني فأفهَمَ محبُّ الدين زملاءه الموظفين أن الاحتفال بهذه المناسبة باليمن في موكب رسمي، تلفت المواطنين إلى حقوقهم السياسية دون أن يثير غضب الحكّام في تركيا. فالاحتفال إشادةٌ بجهوده، وكذلك تمّ ما أراد.

ولكن اتّساع عمله السياسي ومحاولته التوفيق بين رجال الإمام يحيىٰ، ورجال الخلافة قد فُهِمَ على أنه انحياز إلى أهل اليمن، فأرسلت إستنبول أمراً بإعفائه، على حين جاءته الرسائل من دمشق تدعوه إلى ضرورة العودة كي يقوم على تحرير صحيفة سياسية تنطق باسم جمعيّة النّهضة، فأعلن الرّحيل لرفاقه.

وكان من خير ثماره في اليمن أنّ المدرسة التي أنشأها لأول مرة في البلاد قد اتّسعت آفاقها، وضمّت أربعمئة تلميذ تربّوا على نمطٍ جديد، وأخذوا قِسطاً من التربية البدنية والتعليم العسكري مع المواد الثقافية، وحفظوا الأناشيد الحماسية، تُردّد كلّ يوم في الصباح، ولا شكّ أن هذه البذور الناهضة قد نمت وترعرعت فآتت خير الثمار.

ولكن هل تهيّأ لمحبّ الدين العمل بدمشق كما يريد، إن الذين قاموا بإعلان الدستور في تركيا، وعزلوا عبد المجيد، لم يشاؤوا أن تُمنَح بلاد العرب دستوراً مماثلاً، وهذا ما كان يطلبه الأحرار في كل موطن عربي، وقد صُدِموا صدمات مُحرِقة إذ رأوا خلفاء عبد الحميد ممّن يُسمّون أنفسهم زعماء الترقّي والنهوض، قد بالغوا في اضطهاد الأحرار، ورصدوا الخطط لتكميم الأفواه، فتعقّبوا أعضاء جماعة النهضة، وملؤوا بالسجون مَن يُفهَمُ من خطاباته أو كتاباته أو رسائله بعضُ ما يُوحي بالإصلاح.

وزادت النّعرة الطورانية غلوّاً وارتفاعاً، بحيث أخذوا يُحاربون مَن يدعو إلى ارتقاء وطنه تربيةً وتعليماً ويعدّون ذلك نشوزاً وخروجاً على طاعة الدولة. وقد ظهرت المنشورات السرّيّة مُنادِيةً بالحريّة، وحُوصِرَت الصحافة مُحاصرةَ مَن يتشمّم الرائحة على أميال. والقوة هي القوة دائماً! تستطيع أن تفعل بالحديد والنار ما لا يفعل اللسان بالخطابة والقلم بالكتابة، فسُدّت السُّبُل أمام المناضلين، وقضت الظروف أن يترك محبّ الدين دمشق إلى مصر ليجد في هوائها المُتَنَفّس المُريح.

وكانت الصُّحُف المصرية تتمتع بالحرية التامّة في نشر ما يريد، وإذا كان محبّ الدين كاتباً بطبعه فقد لَفَتَ إليه أحمد تيمور باشا صديق طاهر الجزائري، ولمس في آرائه المخلصة ما مهّد له السبيل إلى التحرير في جريدة المؤيّد، لأن الشيخ علي يوسف كان في حاجة ماسّة إلى كاتبٍ يُجيد التركية والعربية لينهض بتحرير ما يمكن استخلاصه من صُحُف تركيا.

وفي ندوة المؤيّد اتّسعت دائرة محبّ الدين باتّساع معارفه الكبار ممّن يجتمعون في أُمسيات الجريدة الأولى بمصر، وإذا كان داود بركات بالأهرام، وفارس نمر بالمقطّم، وأحمد لطفي السيد بالجريدة؛ يقرؤون ما يَفِدُ إلى القاهرة من الصُّحُف العالمية، ويبادرون بالتعليق عليه، فإن المؤيّد كانت في حاجةٍ إلى كاتبٍ مماثل يُجيد الفهم السياسي المستنير دون أن يتورّط في اتجاهٍ خاصٍّ كما نعهد لدى مَن يُشايعون فرنسا وإنجلترا سفوراً دون حجاب.

وقد ظهرت مقالات محبّ الدين في المؤيّد وانتشر دويُّها، وكانت مَثار التعليق الكبير، ولعلّ ما نشره محبّ الدين عن المبشّرين البروتستانت نقلاً عن الكاتب الفرنسي مسيو لوشاتليه كان قنبلة الموسم، بحيث أعاد للأذهان ما سبق أن نشرته المؤيّد من مقالات هانوتو حول الإسلام، ولم يكن الكاتب الفرنسي المغرض يحسب أن مقالاته ستُترجَم في أكبر صُحُف الإسلام، بل ظنّها ستكون مقصورةً على الدوائر الكنسيّة وحدها، فلما أذاعت المؤيّد خُلاصة ما يراه عن تنصير المسلمين كان ذلك فضيحةً بَلْقاء لمَن يرمون المسلمين بالتعصّب، وهم الذين يشنّون الغارات الظالمة على عقائد المسلمين!.

وقد نشرت مجلة المنار ترجمات محبّ الدين، وسارت إلى المسلمين في الشرق الأقصى والمغرب الأدنى، ومعها ملحقات نقدية بقلم المترجم سلّطت الأضواء على معانٍ تحتمل عدّة وجوه في بادىء الأمر، ولكنها تهدف إلى ذبذبة فكرية تتناول أهم مقدسات الإسلام، ومن هنا أخذ محبّ الدين مكانه في العالم الإسلامي كاتباً إسلامياً، يناوىء المعتدين بأقوى البراهين.

هذه واحدة، أما الثانية فهي الملحقات المتوالية التي كان ينشرها محبّ الدين بعد ظهور العدد اليومي من المؤيّد في نشرات سريعة لتغطّي أخبار الحرب الدائرة في طرابلس، فكان الباعة ينادون «ملحق المؤيّد» عصراً، وبه ما ترجمه محبّ الدين عن وكالات الأنباء، وقد تفرّغ لتحليل الترجمات السياسية في صُحُف أوروبا ليردّ على باطلها بالدليل، وليُوجِد وعياً إسلامياً نحو الاعتداء الإيطالي الغاشم. وعلى صفحات المؤيّد فُتِحَت أبواب التبرّع وكُتِبَت أسماء المتطوعين من ذوي الغيرة المشبوبة، ولو أُتيح لمحبّ الدين أن يجمع ما كتبه بشأن هذا الاعتداء الغادر ما توارت من حقائقه المؤلمة ما يجب أن يكون خالداً على الزمن، لترى الأجيال همجية المتوحشين، الذين يدّعون التقدّم الحضاري، وهم ووحوش الغابات على حدّ سواء!.

وإذا كان محبّ قد ظنّ أنه استقبل حياة الاستقرار بمصر حين انتظم في تحرير المؤيّد، وحين افتتح المكتبة السلفية لنشر المؤلّفات الهادفة علمياً وسياسياً

وأدبياً، فإن ما جدّ من الأحداث قد أزعجه عن الاستقرار بمصر إلى حين، حيث قامت الحرب العالمية الأولى، وانضمت تركيا إلى الألمان، ورأى الحسين بن علي ملك الحجاز أن يُعلن انشقاقه عن تركيا، مطمئناً إلى وُعود الحلفاء. وإذ ذاك سارع محبّ الدين إلى الذهاب إلى مكة ليكون رئيساً لتحرير جريدة القِبلة بالحجاز، وقد أخلص النصيحة للحسين، ولكن تشابك الأحداث، وتلاحق العواصف، لم يُتِحْ للرأي العربي أن يلتئم في معسكر واحد، لأن الجبهات قد تشعّبت ولكلٍ وجهة هو مولّيها.

ولسنا الآن بصدد الحكم عل حركة الشريف الحسين بن علي، ولكننا ننظر إلى ما أعقبها من النتائج فنجد الكارثة الفادحة، إذ هجم الاستعمار الفرنسي على سوريا ولبنان، وتناهبت إنجلترا العراق والأردن وفلسطين، ورجع الذين انضمّوا إلى الحسين بن علي، ليُواجهوا شراسة المستعمر الفرنسي في دمشق التي سقطت تحت قذائف المعتدين في يوم ميسلون!.

وقد كان محبّ الدين من الذين هزّهم البغي الصارخ في معركةٍ غير متكافئة، ووجد العدوّ يترقّبه شرّ مترقّب، فخرج من دمشق مستخفياً، ولبس ملابس الأعراب ممتطياً بعض الإبل ليصل إلى القاهرة عن طريق فلسطين، وقد تمكّن أن يستخرج جواز سفرٍ باسم مستعار في يافا ليدخل مصر دون اشتباه. وهكذا كانت هذه العودة خاتمة رحلاته المتردّدة بين دمشق وبيروت وإستنبول واليمن والعراق والحجاز، وهي رحلات ذات نفعٍ علمي، لأن العيان قد أطلعه على حقائق مدهشة لا يحصيها التسجيل الكتابي، وإذا كان الرجل من أكبر العارفين بأدواء العرب والمسلمين، فإلى رحلاته هذه يُعزَى الفضل في هذه الخبرة الحيّة ذات النقد البصير!.

هذا وقد عرفت جريدة الأهرام لمحبّ الدين سبقَه الأدبي، ونضاله السياسي، فضمّه الأستاذ داود بركات إلى هيئة تحرير الجريدة الأولى بالعالم العربي، وأدّى دوره السياسي في ترجمة الأحداث العالمية والتعليق عليها، واتّضحت ميوله العربية الصارخة وُضُوحاً لم يكن موضع الارتياح من القائمين على

جريدة الأهرام، لأن سياستهم الهادئة تمنع الوضوح الصريح، ولا تمكّن كاتباً ذا رسالة أن يجهر كلَّ الجهر بما يحبّ أن يقال.

وهنا أخذ محبّ الدين يفكّر في إنشاء صحيفةٍ إسلامية يومية تُعيد مجد المؤيّد، وتنشزُ عن الهدوء المتعقّل الذي تصطنعه الأهرام، وظهور صحيفة يوميّة إسلامية في عهد الأحزاب السياسية بعد ظهور الوفد والأحرار والدستور والاتحاد ممّا يكاد يكون مستحيلاً! لذلك أخذ محبّ الدين يُعدّ العدّة لظهور مجلّة أسبوعية تُرضي نزعاته المشبوبة، وتكون متنفّساً لمَن يعتقدون معتقده في الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي عن طريق الإسلام وحده إذْ هو صخرة النجاة التي يتطلّع إليها الخائضون في أمواج المحيط، ويسيرون نحوها في جدٍّ وعزيمةٍ مهما بَعُدَ الشاطىء وتكاثف الغيم، فلا يأس من روح الله! وهو السميع المُجيب.

كان من ديدن محبّ الدين أن يُلابس الأحداث مباشرةً، إذ لم يكن ممّن يجلسون في مكاتبهم ليدبّجوا المقالات وحدها، وإن كانت في صميم المشكلات الحيويّة. ومن هنا كان اتصاله المباشر بذوي التّوجيه الفعّال ممّن يملكون أزمّة الأمور، وقد وجد نفسه محدوداً بمكتبته ومطبعته ومجلته، وثلاثتها تستنفد جهد الكاتب المفكّر المدبّر، ولكنه فكّر في ضرورة مُلزِمة تُحتّم إنشاء جمعية إسلامية تقف في وجه التيّار المتحلّل، وتصدّ الإلحاد الوافد مع مَن ذهبوا إلى أوروبا ورجعوا بأراجيف أعداء الإسلام، لتكون حقائق علمية تُدرَس في الكليات، فتتّسم بها أفكار ناشئة لا يملكون تصحيح الأخطاء، وإذ ذاك دعا إلى إنشاء جمعية الشبّان المسلمين بالقاهرة لتمتدّ فروعها داخلاً وخارجاً في آفاق المحيط الإسلامي.

وقد بدأ حديث الجمعية همساً بينه وبين الأستاذ محمد الخضر حسين، ثم امتدّ فشمل أحمد تيمور وعبد العزيز جاويش ومحمد أحمد الغمراوي وعبد الوهاب النجار، ومن ورائهم سبعون شابّاً من خِيرة مثقفي الأزهر ودار العلوم والجامعة، حتى إذا اكتملت الخُطا العاقلة أُسندت الرئاسة إلى الزعيم الإسلامي الغيور الدكتور عبد الحميد سعيد، وأُعلن تأليف الجمعية في حفلٍ مشهود فعبّرت عن مشاعر الكثرة المؤمنة ممّن وجدت لعصابات الإلحاد كُبرى المنتديات، وأوسع

الصُّحُف، على حين ضاقتْ مصر بآمال السّواد الأعظم من المؤمنين، الذي لا يجدون متنفّساً لأفكارهم في منتدىً علميٍّ جامع، حتى قامت جمعية الشّبّان برسالتها الباسلة فأصبحت حقيقةً في الناس بعد أن كانت فكرةً في ذِهن مُحبّ الدين الخطيب.

وقد تحدّث عن فلسفة الجمعية في تربية النّشء الإسلامي، فذكر أن الجهود الإسلامية في تكوين الأمة تتأسّس من طبقات متوالية أوّلها تربية الأفراد تربيةً تتلاءَم مع مقدّسات شريعتها، ومن فوقها تربية الجماعات في المنزل والأُسرة والمدرسة، ويلي ذلك طبقة أخرى هي طبقة القائمين بالاستقلال الاقتصادي تجارةً وزراعةً وصناعةً، وتكوين هذه الطبقات من شأن الدّعاة المنتسبين إلى جمعية الشبّان، إذ إنهم يفهمون رسالة الإسلام في تكوين الفرد والمجتمع على الوجه الصحيح، لأن من المُشاهَد المؤلم أن العنصر الإسلامي في الشرق أضعف العناصر توجيهاً، إذ للطوائف غير الإسلامية في أوطاننا مدارسها وجمعياتها وأموالها المرصودة بينما المسلمون لا يعتمدون إلاّ على مدارس الحكومة، وهي آلِيّة تملأ الأذهان ولا تربّي الأرواح، وتتّجه بطلاّبها إلى الوظائف المحدودة لا للأعمال الحرّة الناجحة، ولا بدّ أن تتغيّر النظرة إلى التعليم بحيث يُنشىء جيلاً عاملاً متطلّعاً إلى حياة العزّة والاستقلال والرخاء، ولن يكون ذلك إلاّ بجهود الشبّان المسلمين.

والحقّ أن هذه الجمعية في سنواتها الأولى لعهد الإشراف الشّعبي المنبعث من الجهود الخالصة كانت منارة إصلاح، ورسالة توجيه، ومجالاً للتنفيس عن مُتطلبات الشّبيبة المؤمنة، وليتها ترجع إلى أداء دورها الحقيقي بعيدة عن الرسميات المعوّقة، التي كادت تجعلها جسماً دون روح.

وقد قامت مجلّة الفتح التي أنشأها محبّ الدين لتكون لسان النهضة الإسلامية المعاصرة بنشر أكثر ما يقال في منتديات جمعية الشّبّان من محاضرات، ومجلّة الفتح كانت مدرسةً أكثر منها صحيفةً مطبوعةً، لأنها كوّنت جيلاً من كُتّاب الفكرة الإسلامية يعيشون أحزان عصرهم، ويلمّون بمشكلات العالم الإسلامي في كل قطر من أقطاره، وعلى صفحاتها برزت أقلام الصّفوة من أبناء الإسلام، في

الهند وتركيا وأندونسيا وإيران والأفغانستان، لأن مُتعلّمي اللغة العربية من أبناء هـذه الرّبوع قد أسعدهم أن يجدوا في مصر عـاصمة الإسـلام وبلد الأزهر صحيفـة تُعيد مجدَ المؤيّد واللواء في الاهتمـام بشؤون العـالم الإسـلامي في كـافّـة أقْطاره، فانتشرت الفتح في هذه الربوع النـائية، كمـا انتشرت مجلة «المنـار»، ولكن الفتح ذات رسالة سياسية، فهي أوسع دائرة من المنار ذات الطابع العلمي المحدود.

وقـد كان المعهـود في المجلّات الـدينية لعهـد الفتح أن يقتصـر على أبواب التفسير والحديث وسِيَـر الصحابـة ومشاهيـر الدّعـاة، والإجابـة عن الأسئلة الدينيـة المتعلقـة بمسائـل الفقه الإسـلامي، ولكنّ الفتح امتـدت بموضـوعاتهـا إلى تحليل معضـلات العالم الإسـلامي الـرازح تحت وطـأة الاستعمـار الغـربي، فجعلت من السيـاسة أدبـاً حيّاً يُـلامس المشاعـر، ويُفصِح عن الأهـواء، وقد تعـرّض صاحبهـا للسّجن إذ جهـر برأيـه في سلوك بعض الرؤسـاء ممّن تُحرّكهم أصـابـع الاستعمـار ليكونوا عقبةً في سبيل التحرّر. وليس السجن بشيءٍ أمام المُصلِح الغيـور، بل إنـه يزيده حماسةً وحميّةً، وكأنه زيتٌ صُبَّ على النار فساعد على الانـدلاع، ولو تفـرّد باحث أدبي لدراسة ما ضمّت الفتح من قصائد إسلامية لقدّم لقرّاء العربية أدباً حيّـاً يعلو صوته على ما نعرف من رقاعيات الخلاعة والمجون فيقف منها مـوقف الصّبح من الغسق.

وكمـا اتجهت الفتـح إلى إذكـاء الـروح الإسـلامي اتجهت مجلة الـزهـراء بمجلّداتهـا الخمسـة، وإن تخصّصت في البحث العلمي بحيث تُعَـدّ ذات طـابـع أكاديمي، ولكنها سايرت الفتح في إيقاد الجذوات، وإلهاب المشـاعر، ولن يُنتـظَر غير ذلك من صحيفة علمية يقوم عليها محبّ الدين الخطيب.

ولا زلت أكرّر أن أدب الفضائـل الخلقية أسمى غـايةً وأبعـد نفاذاً في السمـوّ الخلقي وأدعى للهدوء النفسي، وقد تـورّط دُعاة الأدب المنحـلّ في إفساد قـرّائهم كما أفسدوا نفوسهم، فباؤوا بالخذلان، وللأستاذ الخطيب توجيهـاته الصـريحة في هذا المجال حين ناقش ما يُدعى بمذهب (الفن للفن) فتساءل[1]: هل يكون مزاج

---

(١) الحديقة، جـ ٥، ص ٣١ وما بعدها.

المتفنّن طليقاً من كل قيد، أو تشمله القيود المحافظة. أو بتعبير آخر: هل يستوي الشاعر الذي يقفُ مواهبه لخير الجماعة، والشاعر الذي لا يبالي بما يصدر عن مواهبه من خيرٍ أو شرّ؟ وقد اصطلح المشتغلون بالأدب على أن يتساءلوا هل الفنّ للفن، أو الفن للفضيلة والخير، وفي الإجابة عن هذا السؤال يقول الكاتب:

«هنا أمران يجب أن يلاحظهما كلّ مَن يخوض في هذا الحديث، الأول أن الشاعر المتفنّن الذي يعيش في جماعةٍ إنسانية قد يكون مثل الكوكايين يلذّ ويؤذي، وقد يكون كالورد يلذّ وينفع؛ فأيّ الطريقين ينتحي؟! والثاني أن الاعتبارات الأدبية ليست متّفقةً في كلّ أمّة، فما يتسامح به في الأمة القوية ربما كان وبالاً على الأمة الضعيفة، والشرق الآن نائم ويجب أن ينتفض من سَنَةِ الكرى التي امتلأت بها عيناه، وأن يقتصد في الوقت، فيتّخذ من كل قوة مدداً لحياته، وما دام الشعر قوةً ذات سلطان على النفوس فيجب أن تنصرف هذه القوة للجدّ لا للهزل، وللعمل لا للكسل، وللرجولة لا للتخنّث، ولتوجيه القُوى القومية إلى آفاق المجد، وتحويلها عن أبواب الغناء الضائعة فيه الآن تحت سقوف المقاهي والملاهي.

وإذا كانت دول الغرب آمنةً بأساطيلها، وجيوشها، وجامعاتها، ومصانعها، ومصارِفها من الأخطار القومية والعلمية والاقتصادية، وعندها متّسعٌ من الوقت تتمتّع فيه بالفنّ الذي صِيغَ للفنّ، فنحن معاشر الشعوب الناطقة بالضّاد نعيش في حريقٍ هائلٍ، ولا بدّ أن يشعر أدباؤنا بهول ما نكابد من أخطار».

وقد كانت فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى فترة انبهار مُدهِش لدى مَن غرّهم انتصار أوروبا عالمياً، فظنّوا أن ارتقاء العرب لن يكون بغير احتذاء أوروبا في القشور التافهة لا في المكتشفات النافعة، وحسبوا أن التجديد الحضاري ينحصر في الحفلات الماجنة، ولبس القبّعة، وكتابة الحروف من الشمال إلى اليمين، والاختلاط السّفيه في المجتمعات المتبرّجة، إلى ما لا يُحصى من مظاهر الإسفاف فجهرت الفتح بالدعوة إلى التجديد النافع، وطريقة الاستعداد التامّ لمواجهة الأحداث بالقوة الرادعة، والعلم الدقيق، إذ لا بدّ للأمة التي تريد التحرّر

أن يكـون من أبنائهـا مَن يُحسِن صنع المـدفـع لا مَن يشتـريـه بـالثّمن البـاهظ من أعدائه، والمدفع لا يُصنع إلاّ بالدّراسة العلمية الدقيقة، ثم لا بدّ من الفـولاذ الذي يهيّـىء المـادة، ولا بـدّ تبعـاً لـذلـك من إداراتٍ داعيـة تقـوم على العلم والثـروة والتنظيم، وبهذا كلّه تتحقّق أُولى خطوات التجديد.

ثم يتسـاءل محبّ الدين عن المبـادىء التي يقـوم عليهـا التجـديـد الحقيقي المنشود، فيرى خطّته الناجعة في: «أن نأخذ من[1] كـل مكانٍ مـا نحن في حاجـة إليه من أسباب العزّة والقوّة، وأن نحتفظ بكل ما في كياننا الـوطني والديني ممـا لا يُعَـدّ من عوامـل الذلّ وبـواعث الوهن. وكلّمـا كان مـا نستعيره من الأمم الأخـرى محدوداً لا يتجاوز منفعته المؤكّدة كان ذلك أحرى ألاّ نذوب في غيـرنا ونخـرج من أنفسنا، فنحن نطلب من التجديد ما ننظّم به حياتنا، وما نستغني به عن مصنوعـات الأمم الأخرى بما ننتجه بأيدينا نحن».

أما التجديد القائم على انتهاز ما نحن فيـه من ذلٍّ وانحدارٍ لإقنـاعنا بـأننا لم نكن شيئـاً مذكـوراً، فمعناه أننـا سنبقى في منحدر الهـوان ولن نتبوّأ مقـاعد العـزّ، فالعلاقة بيننا وبين كلّ داعٍ إلى التجديد والإصلاح أن ننظر فيما يدعوننا إليه، فـإن كان يدعو إلى أسباب القوة من معارف وفضـائل، وتتجلّى في دعـوته قـرائن النّصح لقوميَّته، والحُرمة لمفاخرهـا، والإحياء لمـآثرهـا، فهو داعيـة إصلاح حقيقي، وإن كان من الذين يريدون مُخادعة الشباب الطاهـر ليعزلـوه عن تاريخـه ويُخرجـوه عن نفسه بالاندماج في أُمّةٍ تستعبده وتحتلّه، فمثـل هذا مـدسوس علينـا، ولعلّ العـدوّ المُجاهر بالعداوة أقلّ ضرراً من حـامِلِ هـذه الثمار الخبيثـة إلى أمّةٍ مستكينـة تنشد العزّ والاستقلال.

وإذا كـان لا بدّ من الارتقـاء العلمي كي نبلغ ما نـريد من الاستقـلال، فـإن العلم ليس وقفـاً على الدول الغـربية وحـدها حتى نستـذلّ لمعارفهـا، ولكن العلم قـاسمٌ مشتـرك بين الأمم جميعهـا، تنقّـل من بـدء الخليقـة من مكـانٍ إلى مكـان

---

(١) الحديقة، جـ ٥، ص ٢٠ وما بعدها.

فأسهمت الأمم جميعها في تكوينه، فإذا طلبناه اليوم ممّن تقدّمنا في ركب المدنية فإننا نطلب ميراثاً كان لأجدادنا الفضل في تكوينه، وسيعود إلينا لنضيف بعض الجديد مما يُعلي بناءه. يقول الأستاذ الخطيب[1]:

«العلم عالميٌّ، لا تختصُّ به أمة دون أمّة، ولا تحتكره قارّة من قارّات الأرض فيكون غيرها عالةً عليها فيه، إنه مَشاعٌ كالهواء الذي نتنفسه، وكالبحار التي تحيط باليابسة، لأنه مجموعة الحقائق التي توصّل إليها العقل البشري في مراحل تفكيره وتجاربه وملاحظاته المتسلسلة بتسلسل الزمن.

فجدول الضرب من المعارف الإنسانية العريقة في القِدَم وسيبقى حاجةً من الحاجات الأوّلية لطلّاب علم الحساب في كلّ وطنٍ، ولولا ما كان معروفاً قبل المسلمين من علم الحساب ما توصّلوا إلى إتحاف الإنسانية بالحقائق الأوّلية من قواعد علم الجبر والمقابلة، ولولا علم الجبر والمقابلة الذي توصّل علماؤنا إليه من مئات السنين لَمَا تقدّمت في العصور الأخيرة علوم الرياضيات التي وصلت بها الأعمال الهندسية إلى غايتها، ولا غضاضة على أمّةٍ تطلب العلم بها حيث تجده، وكذلك الطبّ وعلوم الطبيعة؛ لأن العلم واحدٌ في كل أمة وهو سبيل القوة في الحرب والسّلم، ولا بدّ من توصيله».

ويؤكّد الكاتب هذه الحقيقة في مقالاتٍ متتابعة، وقد يضطر إلى تكرار ما يقول مرّة ومرّة، لأنه ينشد الإصلاح، والكاتب المصلح محتاجٌ إلى ترديد آرائه لترسخ في أذهان قرّائه، فإذا رفض التكرار في بحثٍ علميّ منهجي فإن هذا التكرار نفسه مستلزم لمَن يحرص على بثّ أفكاره دون أن يجد معترضاً يفهم رسالته على غير وجهها الصحيح!.

وليت شعري ماذا يفعل محرّر الصحيفة الأسبوعية الهادفة حين يجد الدّعوات المتكرّرة لفصل مصر عن العروبة وعن الثقافة الإسلامية، إنه يردّ على هذه النعرات المنكرة بالدليل المُفحِم فلا يجد مَن يقتنع، مع وضوح البرهان وقوّة الاستشهاد،

---

(١) مجلة الأزهر، افتتاحية عدد جمادى الأولى، سنة ١٣٧٤ هـ.

بل يجد مَن يُعيد اللغط العابث دون أن يكرَّ على ما وُجّه إليه من نقد! . هنا يضطر الكاتب الدّاعية إلى أن يكرّر ما قال تكريراً يضيف الجديد من تفصيل مجملٍ، أو إيضاح مُبهم، أو تحليل مركّب، وأنت تقرأ لمحبّ الدين عدّة مقالات ناريّة تجمع المنطق المُفحِم تارةً إلى التهكّم الهازىء تارةً أخرى، وهو عند مَن يستمعون أحسن القول مُصيب جادّ! إنه ينادي مَن يرون اقتصار المصريّ على مصريته فحسب بأوضح لسان حين يقول له[1]:

«إذا كنت شريكاً لرجل في عملٍ ماليّ فمن حقّ هذه الشركة أن تكون أميناً لها حريصاً على إنمائها، فأنا بصفتي مسلماً شريكٌ لكل محمّدي في جامعة الإسلام، وهي عندي أشرف الجامعات، فإن لم أقمْ بمصالح هذه الشركة بأمانة وإخلاص كان ذلك خيانةً منّي لهذه الرابطة، ودليلاً على أنّي عضوٌ عاطلٌ يتغذّى من الجسم دون أن يفيده شيئاً.

وأنا بصفتي متوطّناً في مصر، اخترتها من دون آفاق الدنيا، فإنّني شريكٌ لكل مصري في جامعة الوطن، وهي من أقرب الجامعات إليّ، لأني متّصلٌ بها مباشرة، أنفعها بجهودي، وأنتفع منها في أعمالي، فإذا لم أقم بمصالح هذه الشركة بأمانة وإخلاص كان ذلك تقصيراً يصيبني قسْطٌ منه، وتقع عليّ نتائجه. وأنا بصفتي من أبناء هذه اللغة العربية ليس لي لغة غيرها، ولا تصحّ نسبتي لغيرها، فأنا أرى نفسي عربيّاً يشارك كلّ عربيّ على وجه الأرض، في بيانه وقوميّته ومفاخره مهما اختلفت الألوان التي قَضَت السياسة أن تتلوّن بها الأقطار العربية، فإذا فرّطت في عربيّتي فقد أذنبت؛ لأن علامة العربي الحرصُ على خير العرب، ومَن كان غير ذلك فقد برئت منه العربية وإن كان من أعرق قبائلها»!.

إن القومية في الحضارة مناطها اللغة والمولد والشعور المشترك، وهذا هو المعوّل عليه في أوروبا، بل في أشدّ بلاد أوروبا تعصّباً للقوميات، ومصر على رأس القيادة الفكرية في العالم العربي، ولا يخطر في وهم أحدٍ أنها ستعدل عن البيان العربي إلى غيره، إلى يوم الدين.

---

(١) الحديقة، جـ ١٣، ص ٧٢ وما بعدها.

هذا ما أكّده مُحبّ الدين من الناحية السياسية إزاء مُحاولة التنكّر لعروبة مصر من أفرادٍ يضعون على أعينهم الغشاوة فلا يبصرون، ويسدّون أسماعهم عن الحق فلا يَعُون، وقريبٌ من ذلك ما كرّره بإزاء الدّعوة المغرضة إلى ما يسمى بالأدب الإقليمي، وهي دعوةٌ ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب. وتزداد الحملة بلبلةً واضطراباً حين يظهر دُعاتها بمظهر مَن يفهمون حقائق علوم النفس والاجتماع والتاريخ، ويؤكّدون أنها جميعاً تدلّ على صدق ما ينتحون، ولهم في تقرير هذه الأراجيف تطاولٌ وغطرسةٌ يكاد صاحبها أن ينتفخ متورّماً إلى حيث ينفجر، ومحبُّ الدين يسبُر أغوار هؤلاء، ولا يجد أجدى من الصراحة الواضحة التي تتجلّى في مثل قوله[1]:

«الأدب مرآةٌ للبيئة التي ينشأ فيها، وعلى صفحاته تنعكس ألوان السماء التي ينمو تحتها، وبين سطوره يجب أن تتجلّى آلام الأمّة وآمالها، فالأدب في وادي بَرَدَى وبين جبال الشام يجب أن يُسمِعنا خرير مياه العيون منحدرةً كالرحيق السّلْسَل بين الصخور البلّورية، وعلى ضفاف النيل وبين حقوله الزمرّديّة، يجب أن يُشعِرنا بهيبة السكينة التي تحمل لجج هذا النهر المبارك من المنطقة الاستوائية حتى تنتهي بها الرحلة إلى شِعَب الدّلتا الداخلة في غمار البحر الأبيض.

فإذا كان المراد من الأدب المصري أن يكون مرآةً للبيئة المصرية تنعكس عليها حقائق الحياة في حواضر هذا الوادي وقُراه، فأنا أقول بأن البلاد التي لا يقوم أدبها بهذه المهمة إنما هو أدبٌ مزوّر على وطنه، إذ يجب على الأدب العربي في كل قطرٍ من أقطاره أن يؤدّي هذه المهمة ليكون للشعوب العربية من مجموعه ثروة أدبية واسعة.

وإذن فالأدب المصري المحمود هو الذي تنطبع فيه ألوان الطبيعة في أرض مصر وسمائها ومائها، وهو الذي تنعكس على صفحاته أطوار الحياة المصرية بآلامها وآمالها».

---

(١) الحديقة، جـ ٧، ص ١٧٥ وما بعدها.

ومعنى هذا كله أن دعاة اللغة العاميّة يكرهون الأدب العربي لذاته، لا لأنه لا ينطق بآمال بيئته وآلامها، وهم حين يبحثون عن أدبٍ إقليمي بمعناه العلمي إنما يبحثون عن شيءٍ يتّضح وضوح الشمس لكلّ ناظر فيما نُطالع من آثار الكبار والصغار من أدباء الجيل، وإذا تميّز أدب إقليم عن أدب إقليم فهو تميّز فروع لا اختلاف أصول، كما يتميّز الأدب العباسي عن الأدب الأندلسي في بعض أغراضه، أما أن يكون الأدبان مختلفين اختلافاً جذرياً، فلا نجد الدليل الواقع عليه، فليكن لدينا أدبٌ مصري، وأدب عراقي، وأدب مغربي، ولكن هذه الآداب جميعها روافد تصبّ في محيطٍ واسعٍ هو الأدب العربي، منه تنشأ وإليه تعود!.

ولن نُغفل ناحية التأليف المستقل في آثار محبّ الدين، إذ قام بتصنيف كتب تاريخية واجتماعية مثل الرعيل الأول، وتقويمنا الشمسي، والأزهر، وقصر الزهراء بالأندلس، وتاغور، كما قام بتحقيق بعض كتب التراث مثل الميسر والقداح لابن قتيبة، والخراج لأبي يوسف. وتاريخ الدولة النّصرية للسان الدين بن الخطيب، والعواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي. ولم يَنْسَ جانب الترجمة إذ نقل إلى العربية مذكّرات غليوم الثاني، وقصّة قميص من نار للكاتبة التركية خالدة أديب، والدولة والجماعة للمفكّر التركي أحمد شعيب.

أما ما أشرف على طبعه من الكتب الأصيلة بمطبعته المسمّاة «بالسلفية» فأكثر من أن نلمّ به، وهو جهادٌ علميٌّ متّصل الحلقات ما بين تأليفٍ وترجمةٍ ونشرٍ، وكلُّ ذلك يسير في خطٍّ متّحد، إذ يلتزم طريق الصّحوة الإسلامية بما تنفرج من اتجاهات!.

وحين تولّى الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين مشيخة الأزهر الشريف، أسند رئاسة تحرير مجلة الأزهر إلى الأستاذ محبّ الدين الخطيب، فقام على إعدادها بضع سنوات مُثمِرة، وكانت افتتاحيات كلّ عددٍ تتوهّج بقلمه الحارّ المتأجّج حماسة حتى بعد سنّ الكهولة ومما أذكره بهذه المناسبة أن الخطيب قد كتب إليّ يطلب أن أُعِدّ بعض مقالاتٍ تاريخيّة عن أعلام كبار حدّدهم بالأسماء وهم: عبد الرحمن الغافقي، وقتيبة بن مسلم، وعقبة بن نافع، وعماد الدين

زنكي، لأن الشبيبة الإسلامية لا تعلم شيئاً عن جهادهم الجبّار، فقمت بأمره. ولعلّه اقترح موضوعات أخرى على نفرٍ من الكُتّاب، إذ كان دائماً باعث حركةٍ علميّة أينما حلّ.

كما كان يحرص على أن يحوّل التاريخ الميلادي إلى تاريخ هجري، إذا وجد في بعض المقالات إهمالاً للتاريخ العربي، وقد نبّه الكُتّاب إلى ضرورة الاهتمام بتاريخ الهجرة دون سواه، وحين ظهر مقاله الثائر (الثقافات الأجنبية استعمارٌ عقلي والدّعاة إليها طابور خامس) وبافتتاحية عدد جُمادى الأولى سنة ١٣٧٥ هـ ثارت عليه ثائرة بعض المتسرّعين بالصُّحف اليومية، وزاد اللّغط إلى حدٍّ مستغرب، وكان من ردّ الفعل أن عقدت ندوةٌ بجمعية الشبّان المسلمين لتأييد اتجاه رئيس التحرير تحدّث بها الأساتذة دراز والمدني والشرباصي وعبد الرحيم فودة.

وما زالت مقالات محبّ الدين في افتتاحيات مجلة الأزهر متفرّقةً لم تُجمَع، وهي ككلّ آثاره في حاجةٍ إلى أن تصدر في مجموعات تُذكّر الجيل الحديث بمضمونها الصحيح لأن الخطيب كاتبٌ أدبي من الطراز الأول، لا يقلّ عن أدباء الطليعة الذين يتردّد ذكرهم في كلّ مجال، وصُحُف الزهراء والفتح والأزهر والمؤيّد والأهرام أكبر شاهد على ما نؤكّد، وما زال تلاميذه إلى اليوم يذكرون نشاطه الجمّ، وتوجيهه الصائب وإيمانه الصلب الوثيق.

عبد العزيز البشري
جـــاحظ العصــر الحـديث

لا أدري لماذا لا يتردّد الآن اسم عبـد العزيـز البشري كمـا تتردّد أسمـاء طـه حسين وعباس العقّاد ومحمد حسين هيكل ومصطفى الرافعي وإبراهيم المازني ولم يكن في زمانهم أقلّ شُهرة، ولا أضأل مكانة؟ لقد كثرت البحـوث عن زملائـه لدى الجامعيين، وتوالت عنهم المقـالات في الصُّحف، والندوات في المحـافل، وظـلّ اسمه مهجوراً، حتى جهله مَن ألّف المسلسـل التلفزيـوني عن العقّاد، فقـال عنه: إنـه أخذ يبحث عن عشرة قروش حتى وجـدها فهـرول إلى منزلـه، ومات قبـل أن يدفع بها إلى أهله! وهكذا نكذب على عَلَم من أعلام الأدب عاش موفور الكرامة، كبيـر المنصب، رخيَّ العيش، ثم ابتُلي بمَن أساء إليـه ميّتـاً وإلى أُسـرتـه أحيـاء، فضجّـوا في الصُّحُف، وأنصفهم الأستاذ مصـطفى أمين بمقـالٍ رنّـان ذكـر فيـه أن زعمـاء الأمس كانـوا يسهرون الليـل الطويـل ليقـرؤوا في الصبـاح مـا يكتبـه عنهم عبـد العزيـز البشري في المـرآة، إذ اختصّ كبار الـدولة بمقـالاتٍ ناقـدةٍ مصـوّرة، سارت مسيرة الشمس، وحاول محاكاتها النظراء فلم يبلغ المقلّد مبلغ المبدع، لأن عبد العزيز فنّان ممتاز!.

لا أُنكـر أن نتاج البشـري من ناحيـة الكمّ وحده قـد يكون أقـلّ من نتاج مَن ذكرت من الرُّصفاء، لأن الكاتب الكبير شُغِلَ بكتابة الخُطب والمقالات والمذكّرات

لنفرٍ من ذوي الوجاهة، ليس لديهم بلاغة القلم، ويحبّون أن يواجهوا الجمهور بما يشرّفهم في دنيا البيان.

وقد قال الأستاذ محمد كرد علي في مذكّراته: إن مقالات فلان وفلان بمجلة الهلال لم تكن صادقة النّسبة إلّا إذا صُحّح توقيعها باسم البشري، وفي هذا كثيرٌ من الحق، لأن قلم عبد العزيز واشٍ نمّام، ومهما حاول التنكّر فلا بدّ لأريج الورد أن يفوح، ولكن المسألة لا تقف عند الكَمِّ العددي، إذ إن الكيف هو جوهر الحكم، وكلّ ما لدينا من آثار البشري رائع رائع لا يجعله من كبار الأدباء في عصره فحسب، بل يجعله جاحظ العصر الحديث.

وناقدو الأدب لا يشكّون لحظةً في نسبة البشري للجاحظ، لأن ما عُرِفَ لدى الأديب العباسي من سطوة التأثير، وشدّة التدفّق، وحلاوة الاسترسال، ونصاعة البيان قد عُرِفَ للبشري، ولا يفرق عنه الجاحظ إلّا في تأليفه العلمي متكلّماً وباحثاً، أما مقالاته ورسائله وقصصه الأدبية فقد وُجِد مثيلها في إبداع البشري، لأن قوة الروح لدى الكاتبين مع حلاوة النادرة وسهولة التعبير مما كان قاسماً مشتركاً بينهما.

وقد كسب البشريّ ما نضح به تقدّم الزمن من أفكار لم تكن في عهد الجاحظ، فساعدت على جِدّته المعاصرة، ولم تتأخر به إلى زمان بني العباس، على أن التشابه الروحي والانسجام النفسي هما اللذان ساقا اللّاحق إلى مُحاكاة السابق بدءاً، فالانتظام على صِراطه عاقبةً، ولم يُخْفِ البشريُّ إعجابه الشديد بأستاذه إذ أشادَ به في كثيرٍ مما كتب، وقد تحدّث عنه فقال[1]:

«وهو شديد التمكين من النفس، قويّ الحجّة، يملك من ناحية البيان ما لا أحْسِبُ أن قد ملكه بعده كثير، فهو لا يزال يمهّد على لسان هذا للرأي، ويفلج بالحجّة، ويبعث بالشاهد في عقب الشاهد، ويضرب المثل بعد المثل، حتى يأخذ عليك مخانق الطرق فلا تجد بعدها مَحيصاً من الإذعان والتسليم، ثم يبعث لك

(١) المختار، جـ ١، للبشري، ص ٤٥.

الطرف الآخر، فما يزال يدافع تلك الحجج، وينقض ما قام بين يديك من الأدلّة والشّواهد، ثم ما يزال يبريها ويفريها حتى تستحيل هباءً يتفرّق في الهواء، ثم يردُّك إلى مكانك الأول، ثم يعود بك إلى الثاني، ويظلّ يرجّحك بين الرأيين المختلفين بقوة حجّته، وسلاطةِ بيانه، حتى إذّا قدّر أنه دوّخك وأرضى شهوتك بإذلال ذِهنك، رحمك فعدل بك إلى حديث آخر».

هذا بعض ما كتبه البشري مُصوِّراً سطوة الجاحظ المنطقية، وجدله العلمي في حلبة الصراع، أما الجاحظ الفكاهي المتندّر، صاحب القصص الاجتماعي الطريف والتصوير البياني الآخذ، فهو الذي يجري مع البشري في أبهج الحلبات، وقد ألمح إلى ذلك الأستاذ محمد كرد علي حين تحدّث عن الجزء الأول من المختار فقال(١):

«وهو نسيج وحده في أسلوب الجدّ في الهزل والهزل في الجدّ، ساعده على هذا الإبداع والإمتاع تمكّنه من ناحية اللغة، وقبضه على قياد الأدب، إلى ما فُطِرَ عليه من ظَرَفٍ شفّاف، إذا تنادر وإذا تهكّم. والبشريُّ كالجاحظ إذا عرضت له النكتة قالها لا يبالي، وإذا اقتضته الحال أن يتهكّم تهكّم، يُدخِلُ السرور على قلب قارئه، ويعلّمه ولا يشقّ عليه، وقليلٌ جدّاً من فُصحاء جيلنا مَن تهيّأت له الذرائع إلى إتقان فنّه هذا الإتقان، وقليلٌ مثله مَن عرفوا الحياة ولابَسوها كما أرادت، ثم قابلوها بالضحك والسّخرية وقليلٌ منهم مَن خَبِروا المجتمع المصري خبرته فكتب ما توقّع منه نفعاً في رفع مستواه الأدبي».

ومما قاله الأستاذ محمد كرد علي ندرك أنه شهد للبشري بالتمكّن من ناحية اللغة الفصحى وقبضته على قياد الآداب، أوّلاً، وبالتندّر والفكاهة ذات الروح المبهج السّارّ ثانياً، وبدراسة المجتمع المصري ومُلابسة أحواله عن خبرةٍ ممارسة ثالثاً، وهذا القول الموجز الدقيق قد وافق ما ارتآه الدكتور طه حسين في أسلوب البشري ومصادر تكوينه حين كتب فصلاً دقيقاً عن أدب عبد العزيز صدّر به الجزء الثاني من كتاب المختار وقال فيه ببعض التصرّف(٢):

(١) مجلة الرسالة، العدد ١٢٤.

(٢) مقدمة الجزء الثاني من المختار، ص ٨.

«إنه جمع خِصالاً ثلاثاً فلاءم بينها أحسن الملاءمة، وكوّن منها مِزاجاً معتدلاً رائع الاعتدال، فهو مصريٌّ قاهريٌّ كأشدّ ما يمكن أن يكون الإنسان مصريّاً قاهرياً، يحسّ كما يحسّ أبناء الأحياء الوطنية، ويشعر كما يشعرون، لولا أن ثقافته ترتفع به إلى هذه الطبقة الممتازة التي تُحسِن الحكم على الأشياء، وهو على كلّ حال قاهريُّ الحسّ قاهريّ الشعور قاهريّ الذّوق فهذه خصلة.

والخصلة الثانية أنه بغدادي الأدب كأشدّ ما يكون الأديب بغدادياً، قد عاشر أبا الفرج الأصبهاني وأصحابه فأطال عِشرتهم وتأثّر بهم، وانطبعت نفسه وعقله ولسانه بطابعهم، فهو إذا تحدّث إلى المثقّفين، تحدّث بلغة الأغاني، لا يكاد يصرفه عن هذه اللغة صارف إلّا أن يأتي من قرارة نفسه المصرية القاهرية، فإذا هو يلقي النكتة المصرية بارعةً رائعةً لاذعةً فهذه خصلةٌ ثانية.

والخصلة الثالثة أنه قد ألمّ بحظٍ من حياة المترفين الذين عرفوا الحضارة الغربية وتمثّلوها، واستمع لأحاديثهم وشاركهم في هذه الأحاديث، فأخذ من هذه الحضارة الأوروبية شيئاً يسيراً خفيف الظلّ، قويَّ التأثير يستطيع أن يلائم مصريّته الموروثة وبغداديته المكتسبة».

نشأ عبد العزيز البشري نشأةً دينيةً ملتزمةً، فوالده الأستاذ الأكبر سليم البشري شيخ الجامع الأزهري وإمام الحديث النبوي في عصره، وإخوته من حَفَظَة القرآن صغاراً، ودارسي علومه وآداب لغته بالأزهر كباراً، وهو على طريقتهم ينهل من موارد العلم الديني بجامعته الكبرى حتى يأخذ أرقى شهاداتها حينئذٍ، ثم يجذبه الأدب إلى مضمار الصحافة فيتردّد اسمه كاتباً مصوّراً في عهد الطلب.

ولا يُستغرب من مثله أن ينشأ على حبِّ البيان القويّ، لأن مدرسة الإمام محمد عبده البيانية قد عملت على إحياء الأسلوب الأدبي، ووجّهت الأنظار إلى بلاغة القرآن، حين اختصّ الأستاذ الإمام كتابَيْ عبد القاهر الجرجاني عن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز بالشرح والاحتذاء، فتطلّع النّابهون من طلبة الأزهر إلى نمطٍ جديدٍ من القول الساحر، يشذّ عمّا تُعُورِفَ من قبل في دنيا المحسّنات المتكلّفة والألاعيب اللفظية الركيكة، ونشأ من أمثال أحمد حسن الزيّات

والمنفلوطي ومحمد الههياوي وعبد الرحمن البرقوقي وعبد العزيز البشري من صفوة تلاميذ الإمام مَن يطمحون إلى إعادة أساليب البلغاء في أزهى عصور العربية، متأثّرين بابن المقفّع والجاحظ وابن عبد الملك وأبي الفرج الأصبهاني من ذوي الأسْر المحكم، والتدفّق السيّال، ولكلٍّ من هؤلاء رأيٌ في الأسلوب الأدبي يسمو به عن السطحيّة في المعنى والركاكة في التعبير، وطبيعيٌّ أن يكون للكاتب رأيه فيما ينتحيه من الاتجاه، وأن يُكثر الحديث عمّا يعشق من ألوان الإبداع.

وقارىء البشريّ في مقالاته النقدية يراه منسجماً مع نفسه، إذ يصدر عن اعتقادٍ فنّي لا ينحرف عنه في مجال التطبيق، وعهدنا بنفرٍ من الناقدين يرسمون الخطط الواسعة دون أن يلتزموا بتطبيقها، إذ ليس كلُّ ناقدٍ مبدعاً، وليتهم وقفوا عند قواعد النقد فيُعرَف لهم مكانهم المحدود ولكنهم يتجاوزونه إلى الإنشاء فيرسبون!.

ومن حظّ البشري أنه لم يكن مغروراً في تقدير مواهبه، بل كان يظن القصور في كلّ ما يُبدِع وإن سَحَرَ القارئين، وذلك ما ساعده على الجودة والتّرتيب، بل ذلك ما جعل الكمَّ العدديّ من إنتاجه لا يُقاس بمَن يكتبون كل يوم سواءً واكبوا الإلهام أم جانبوه.

وقد عبّر الكاتب المتواضع عن إحساسه نحو نفسه حين قدّم كتاب المختار فقال في مفتتح الجزء الأول: «إنني أول ما عالجت الكتابة وتعلّقت بصنعة القلم كنت أُدرك تمام الإدراك أنني ناشىء لا أُجيد البيان، فإذا كانت لي طبيعة فلن تتهيّأ لي الإجادة إلّا بعد شدّة مُعاناة، وطول تمرين، وظللت على هذا دهراً وأنا في ارتقاب الأحْسنِ مما يثبت للأنظار لأحفظه وأدّخره للجمع ثم الطبع، فلا أراه قد تهيّأ لي، فلا أبرح أُهمل كلّ ما ينتضح به القلم.

وظللت كلما اطّرد بي الزمن أشعر بأن المدى بيني وبين الكمال الذي أنشد يطول ولا يقصر، وأن الغاية التي أطلب تبعد على الأيام ولا تقرب، حتى لقد جعلت نفسي تبرم وتضيق كلّما وقع لي عفواً شيءٌ من تلك الآثار، ثم لقد أصبحت تعفيتها، وإتلاف ما يقع ليديَّ منها عادةً من تلك العادات التي تتصل

بالفِطَر والطِّباع، حتى لو قد خرج المقال، فأزهاني به شيطان الفتنة بالنفس، وهتف به الصّحاب وغير الصّحاب، فإنه لا يتعذّر منّي على ذلك المصير»[1].

وهذا القول ضروري جدّ ضروري لناشئة هذا الزمن، ممّن يحسبون أنهم على كل شيء، فيتيهون كلَّ التّيه بما يسطّرون، وليسوا وحدهم في وادي التّيه، بل إن من المشهورين مَن يتحامل على نفسه في غير ساعات النشاط ليفاجىء القرّاء بما يتخاذل ويتهاوى دون حرج، وله في هذا الغثّ المتساقط رأيٌ حميد يعلنه في مجال المُباهاة، فإذا أنِسَ إعراضاً طفيفاً من غيره، لم يحمله على إعادة النظر فيما كتب! بل حمله على الغيرة والحسد!.

إن المواهب البشرية مهما عظم حدّها لدى الإنسان محدودة بقدرته الفرديّة، ولن تبلغ مدى الإبداع إلاّ لأفرادٍ يُعدّون في كلّ جيل على الأصابع، فما لنا نرى كلّ مَن يخطّ الأَسْود في الورق الأبيض يعدُّ نفسه ذا شأوٍ رفيع!.

كان أدب البشري أدباً ذاتياً ينبع من أغوار نفسه، فهو لم يكن ليعبّر إلاّ كما يعبّر الشاعر حين يصدر في فنّه الكتابي عن إحساس خاصّ يعتمل في ذاته، إنه فتح عينه، وأصاخ بسمعه لكلّ ما يرى ويسمع ليتّخذ منه مصدراً للحديث، ووسيلة إلى ذلك المقال الأدبي المطبوع، وكان في استطاعته أن يضيف العلم إلى الأدب فيغدو كاتباً عالِماً كما نرى عند زملائه، ولكنه باستثناء كتابين مدرسيين ألّفهما استجابةً لوزارة المعارف في التربية الوطنية وتاريخ الحقبة المعاصرة للأدب، في كتابَيْ المفصّل والمنتخب.

أقول: باستثناء هذين الكتابين المدرسيين لم يتّخذ غير المقالة متنفّساً لخواطره، وهو فارسها الأول في عصره، وأعجب العجب أن يظهر كتاب يحمل اسم (فنّ المقالة) فيتحدّث بإسهاب عن مُعاصِري البشري مستشهداً محلّلاً، ولا يتحدّث عن البشري إلاّ في سطورٍ ضئيلةٍ حديث المؤاخذ اللاّئم في أكثر ما خطَّ، فهو يقول[2]:

---

(١) المختار، جـ ١، ص ١٤.

(٢) فنّ المقالة، للدكتور محمد يوسف نجم، ص ٨٠.

«وأسلوب البشريّ وسط بين الترسّل والسّجع، يختار له الألفاظ المجلجلة ذات الجرس القوي والعبارات الضَّخمة الرنّانة لكي يستأثر بانتباه القارىء، ويُوهِمه بأن الكتابة عملٌ ضخم رائع يحتاج إلى ذخيرةٍ من الأوابد، ومقدرةٍ على معاناة التفصّح الثقيل، والتعالُم الممجوج، ولكن هذا الأسلوب يتفاوت بتفاوت الغرض، فهو حين يميل إلى الفكاهة والمداعبة، يلتزم تقصير الفواصل، وإيراد العبارات الرشيقة التي لا تعصف بما تحتاج إليه الفكاهة من سرعة ولمح».

هذا ما يقوله دارسٌ جامعيٌّ لم ينقل عن خبرةٍ علميةٍ دراسيّةٍ، ولكنه احتذى الدكتور زكي مبارك حين هجم على البشريّ في مقالٍ سنُشير إليه بعد حين، وزكي مبارك لم يتخصّص في تشريح المقالة الأدبية، بل نثَر خواطره الذاتية كما اتّفق، فما بالنا نجد دارساً جامعياً متخصّصاً ينقل عنه، وبين يديه آثار البشري في أربعة أجزاء غير كتاب المرآة تنطق بغير ما ذكر، بل بين يديه مقدمتان رائعتان لعَلَمَين من أعلام البيان هما خليل مطران وطه حسين، تقرّران غير ما قرّر.

وكان عليه إذا شاء أن يخالف كلًّا منهما في كتاب متخصّص أن ينقل ما قالاه ليدحضه بالدليل، لا سيما ومكانه منهما مكان التلميذ الصغير، ولكنه لم يتحيّف البشريّ وحده بل تحيّف الزيّات والرافعي معه وكأنه تلقّى في الكلّيّة دروساً عمّن لا يعترف بغير الجامعيّين من الكتّاب فردّد ما سمع!! ولعلّه يطبع الكتاب مرة تالية فيميل إلى الإنصاف.

قلنا: إن البشريّ صدر عن ذاته وحدها فيما تقدّم به للقارىء من فنٍّ أدبي، إذ عالج المقالة النقديّة، والمقالة الاجتماعية والمقالة الوصفية معالجة مَن تأمّل فيما حوله قارئاً ومُشاهِداً بعد خبرةٍ مطمئنة، ومِراسٍ دقيق ترفدهما الموهبة العالية والذّوق الرائق ففتح الله عليه في هذه المناحي الثلاثة من مناحي المقالة الأدبية ما جعله في الصدر الأول من البلغاء، وما قرنه بالجاحظ إمام البيان العربي على مدّ العصور، إذ عادت روحه المتوثّبة في هيكل البشري ليُعيد في القرن الرابع عشر ما قام به إمام العربية في القرن الثالث من إبداع، فإذا انتقص منتقصٌ أدب الجاحظ

الذاتيّ فله أن ينتقص أدب البشري، إذ كانا يضيئان من زيتٍ واحد! وهيهات أن تجد الدليل!.

نجد البشريّ في المقالة النقدية خبيراً بالأسلوب الأدبي في العربية على مدّ العصور، فهو قد درس أساليب البلغاء ليصطفي منها مذهباً يوائم هواه، وقد عاش في عصر كثر فيه الضجيج حول القديم والحديث، واصطدم المجدّدون والمحافظون اصطداماً عنيفاً نعرف أثره فيما دار حول الإبداع الأدبيّ من عراكٍ اقتحمه الرافعيّ وشكيب أرسلان وطه حسين ومحمد حسين هيكل وغيرهم من أساطين الكُتّاب، وعالجه البشري دون أن يتعرّض لخصومةٍ ما، لأنه اقتنع باتجاهٍ فدعا إليه في هدوء.

ولم يكن محارباً جهيراً يصارع في جبهةٍ داميةٍ فيثير الضجيج كما كان الرافعي وطه مثلاً، ولكنه كان كأستاذٍ في كليّةٍ بين طلاب، يقدّم الحِجَج في رِفقٍ، ويمهّد للإقناع في ثقة، ويلقي بالدليل في ثبات، وأسلوبه الأدبي شاهدٌ علميّ على مَنحاه، فهو يدافع عن نفسه في الواقع حين يشيد بمدرسة البيان، تلك التي انحدرت من سماء الإلهام الأقدس حين احتذت أسلوب القرآن الكريم.

ينظر البشري في اتجاهات الإبداع النثري المعاصر، فيعلن أنه يختار الفنّ الأدبي الذي يفيض بما تجيش به العواطف[1]، ويصدق في الترجمة عمّا يعتلج في النفوس، ويصوّر دخائل الصدور، وهو يلتفت فيرى أُدباء من معاصريه جَرَوْا من العربية على عرق، وتفتّحت نفوسهم لمنازع بلاغتها، واستظهروا الكثير من روائعها، على أن أكثر هؤلاء إذا اجتمع أحدهم لحديث العاطفة لم ينفُض ما يحسّ هو وما يشعر وإنما نراه يترجم عمّا كان يجده السّلف الأقدمون من مئات السنين، لأنه جعل همّه إلى المحاكاة والتقليد، ليكون كالسابقين، وهؤلاء يتناقص عددهم على الزمان حتى أشفوا على الزّوال.

---

(١) المختار، الجزء الأول، موضوع: كيف نبعث الأدب، من ص ٦٦ ـ ٨١.

هذا فريق، أما الفريق الثاني فشباب لم يبلغوا حظّاً مذكوراً في العربية، أقبلوا على أدب الغرب فجعلوا يُحاكونه ويترسَّمون خُطاه فيَستحدِثون أخيلةً لم تتراءَ في أحلامهم، ويُسوُّون صوراً لم تتمثّل لخواطرهم، ويُريقون عواطف لم تترقرقْ في نفوسهم ثم يستكرهون هذه الأمشاج من المعاني على نظامٍ ليس فيه من العربية إلاّ مفردات الألفاظ، يُشَدُّ بعضها إلى بعض بمثل قيود الحديد برغم تنافرها وتناكرها، بحيث لو أُطلقت من عِقالها لتطايرت إلى الشرق والغرب لا تلوي على شيء، فيخرج من هذا وذاك كلامٌ لا يستوي للطبع، ولا يستريح إليه الذّوق، وكيف له بشيءٍ من هذا ولم ينتضح به طبع، ولا رهف له حسّ، ولا تحرّكت به عاطفة، فهو أدبٌ مصنوع مكذوب.

أما الطريق الصحيح لدى البشريّ فأن نتلمّس طريقاً من الأدب يكون عربيّ الشكل والصورة، مصريَّ الجوهر والموضوع، فعلينا أن نبعث الأدب القديم، وننثل دواوينه، ونستظهر روائعه، ونتروّى منها بالقدر الذي يفسح في ملكاتنا، ويطبعنا على صحيحٍ من البيان، فإذا أرسلنا الأقلام جاء الأسلوب في نسقه العربيّ الأصيل متصلةً معانيه بما نشعر من الأحاسيس، وإذا كُنّا في حاجة شديدة جدّاً إلى مُطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ونقل ما يتهيّأ نقله إلينا منها في لسان العرب، فإنّ ذلك لا يُجدي علينا إلاّ إذا هذّبناه وسوّينا من خلقه، ولوَّنّا من صوره حتى يتّسق لطِباعنا ويُوائِم مألوف عاداتنا ويستقيم لأذواقنا، في نظام من البلاغة العربية مُحكَم التنضيد.

هذا مَنحى البشري في تحبيذ ما يراه من الأسلوب النافع، والذين عارضوه هم الذين يعارضون البيان العربي في أجلى مراقيه وهم أنفسهم الذين عابوا أسلوب الرافعي بأنه ينحو منحى الجملة القرآنية، وهو نقدٌ تبشيريٌّ لا أدبيٌّ! لأن أُدباء المسيحية من المُنْصِفين يحفظون القرآن ليقتبسوا من نُوره البياني ما لا يجدونه في غيره، وقد قال الشاعر اللبناني الأستاذ أمين نخلة: «إننا نحن المسيحيين العرب عيوننا في الإنجيل وقلوبنا في القرآن».

وقد كان مكرم عبيد ووهيب دوس يخطبان في السياسة بالندوات العامّة وفي مجلس النوّاب والشيوخ مستشهدين بآيات الكتاب الكريم في فخرٍ واعتزازٍ، فإذا اتجه نفرٌ إلى خصومة البيان الأدبي، فهم يجهلون أسرار الفنّ الأصيل، لذلك تجد أحدهم يفرح بالعبارة البليغة حين تقع مُصادفة في أسلوبه ويكاد يطير بها طيراناً، ولكنّه يهاجمها في ما يقدّم من نقد كليل، لأنه يرى نفسه بعيداً كلّ البُعْد عن إحكامها الدقيق، وأنه يكلّف نفسه رهقاً أيّ رهق حين يجعل بيانه أُنموذجاً من الأدب الرفيع.

وقد يحمد هؤلاء للدكتور طه حسين ما قد يشرق في أسلوبه الأدبي من صفاء مطبوع، ولكنهم يحمدونه لغير ما يقرؤون لديه في مثل: على هامش السيرة والأيام ودعاء الكروان والوعد الحقّ ومرآة الإسلام، بل لما شذّ فيه من أفكار صادفت هوىً لديهم، فحملتهم على الولوع بكلّ ما يقول، ولو رجعوا إلى أسلوب طه في جوهره المصفّى لرأوا فيه نور البلاغة العربية في فنّها الأصيل.

عاش البشريّ في مصر كما عاش الجاحظ في العراق، مفتوح العين، مستوفز الحسّ، جيّد الالتقاط لكلّ ما يلحظ، ويخطىء مَن يسجّل تاريخ الصَّدْر الأوَّل من عصر بني العباس دون أن يرجع إلى ما كتب الجاحظ عن شتّى نواحي المجتمع، حين تحدّث عن العِلية من الرؤساء كما تحدث عن الأوساط من التجّار والصنّاع، ثم عن السّفلة من اللصوص والفتّاك، وذوي الكزازة والشحّ من البخلاء، وأُولي النَّهم من المتطفّلين والماضِغين، وفي ذلك كله تاريخ اجتماعي لأحداث العصر يجب أن يضاف إلى ما كتبه الطبري والمسعودي وابن الأثير عن أحداث السياسة.

كذلك أبدع البشريّ إبداعاً حين تحدّث في المرآة عن زعماء السياسة وأبطال الاقتصاد والقانون والإدارة والبيان والفنّ، كما تحدّث في غير المرآة عن شتّى طوائف الشعب من المُقرِئين والملحّنين ورجال الصحافة، ثم من المتطفلين والسّوقة والشّحّاذين وماسِحِي الأحذية، والنّادِبين في المآتم والصائحين في الأفراح، فكشف السّتائر الغاشية على مجاري الدم في العروق، ورسم هجسات

النفوس، وصوّر منازع اللّؤم وبواعث الاحتيال، ودواعي المَلَق، وأسباب التغطرس الكاذب، والاستعلاء البغيض بما لا يكاد يبلغه كاتب معاصر.

وقد خُلِقَ البشريّ كثير الحركة، دائم التنقّل، فهو يغشى مجالس العلية مُمْسياً، ويخالط الجمهرة الكادحة مُصبحاً، وله مع أولئك وهؤلاء، ومن هؤلاء وأولئك أصدقاء وأعداء، ووافون وغادرون، بل إنه ما كان يرتصد يومه الأطول متنقلاً بين المقاهي والنوادي والمنازِه والمحافل إلاّ ليُرضي حاجة فنّه في استكناه المشاعر، ونفض الأحاسيس، وهو لا يقف عند المظهر الخارجيّ وإن رسمه أبدع الرسم، بل ينتقل إلى ما يسترُ من أهواءٍ ويُخفي من منازع.

ولم يكن البشريّ قاسياً على النفس البشرية حين يصوّر نقائصها المُخزية، بل كان رحيماً بها في أكثر المواقف، وأقول أكثر المواقف لأن ضبط النفس الدائم مما يتعذّر على كبار العقلاء من ذوي الاتّئاد المتّزن، والذي يكاد يصل في بعض الأحيان إلى درجة الجمود، فما ظنّك بأديبٍ تموج نفسه بالمشاعر، فيسرع نبضه وترتفع حرارته، وتجيش مشاعره!! لا بدّ له حينئذٍ أن يثور حين الغضب، وأن يهيج حين الشّذوذ كما يبتسم عند الفرح، ويضحك لدى التّنادم بالأفاكِه!.

وفي كلّ ما كتبه عبد العزيز البشريّ في هذا المجال تاريخٌ اجتماعيٌّ حافل، يحبّ أن يهتمّ به مَن اقتصروا على الأحداث السياسية وكأنها كلُّ شيءٍ في تاريخ البلاد، وأكثرنا يمرّ بما مرّ به البشريّ فلا يلحظ منه شيئاً، ولكن الأديب الكبير يراه في عدسته المكبّرة واضحاً ناطِقاً، فينقله إلى صفحته دون عناء وكأنه يتناول فاكهةً شهيّةً يستمرىء طعمها اللذيذ!.

أمامك مثلاً طائفة الشحّاذين، وهم من الشّهرة بحيث لا يخلو منهم مكان، والذين يتحدّثون عنهم في الغالب نفر من قادة الإصلاح الاجتماعي يحاربون التسوّل في منطقٍ علميّ يبحث عن الجذور ليستأصل الثّمار، وأبحاثهم تتوالى دائماً وتُلقى في الندوات وتُسَجّل في الكتب، وتُنشر في الصُّحُف دون أن تعمل على سحق البلاء! أما البشريّ فيستبطن هذه الطائفة استبطان مَن رصد الحركات، ووالى السير في الطريق خطوةً خطوةً وراء السّائل المِلحاح.

ثم هو لا يكتفي بأن يكتب عنهم مقالاً أدبياً مُشبعاً يقضي به حاجة نفسه، كما يقدّم الدّارس بحثه الاجتماعي في الموضوع نفسه ثم يفرغُ إلى سواه، ولكنه يعاود الكَرّة مَثنَى وثلاث وهو في كل مرة يجد الطريف، لأن الناس إذا تشابهوا في المظهر فقلّما يتشابهون في المخبر، وإذا وقف البشريّ على الجديد في هذا النطاق فلا بدّ أن يبدىء ويعيد.

إنه في مقالٍ أول بالجزء الثاني من المختار يهجم على قارئه فيعلن أنه لا يعرف طائفةً من أشدّ الناس أثَرَةً، ولا أورم أُنوفاً من السّادة الشحّاذين! ويقول إنه لا ينعتهم بالسّادة على وجه التأدّب كما يتبادر للذّهن، بل لأنه الحقّ الذي لا شك فيه، أما مظهر هذه السيادة فقد بسطه البشريّ في صفحاتٍ مليئةٍ بأعمالهم المُفاجئة حين يتسلّطون على الناس في المقاهي والطّرقات والأندية ولا يتزحزحون فتيلاً حتى يقبضوا المعلوم، وحين يصيحون في منتصف الليل فيزعجون النائم، ويُقلِقون المريض.

ثم ينتقل من العموم إلى الخصوص فيتحدّث عن الأستاذ رفيق بك العظم وقد عَلَتْ به السِنّ، وألحّت عليه العِلَل، وهو من يوم نشأته مضعوف هزيل، مُرهَف الأعصاب وقد امتُحِنَ فوق هذا بالأرَق، يدخل في فراشه في الساعة التاسعة فيظلّ يتطاول إلى النوم ويستدرجه بألوان التكلّف والتصنّع إلى ما بعد الثانية صباحاً، وبينما هو يستدرج الكَرَى، ويدافع الأرَق، حتى دخل في البرزخ الممدود بين النوم واليقظة، وهو تلك الرّقعة التي تتراءى لك فيها الأحلام، وتَعِي في الوقت نفسه ما يدور حولك من الكلام، إذا هاتِفٌ يهتف من الطريق بصوت كأنه صوت الهدّ، أو زمزمة الرعد «رغيف عيش، وصحن طبيخ لله» وإذا الرجل يهبّ من سنته على أظافره، وإذا الحَدَث يعجله عن اتخاذ حذائه، فيسرع حافياً إلى السُّلّم ليقول لمولانا الشحّاذ: يخرب بيتك! صحن طبيخ! مَن الذي يسهر الآن ليسخّن لك الطعام! قل هاتوا رغيف وقطعة جبن!!.

هذا عن مقال الشحّاذين في المختار، أما مقال الشحّاذين في (قطوف) فإنه من النوع الطّريف الذي يرصد ما طرأ على هؤلاء من تجديد، إذ كانوا قديماً

يعتمدون في المسألة على إلحاح الجوع، والعجز عن السّعي بألوانٍ من الأمراض والأسقام، والآفات المعقدة كما كانوا لا يظهرون إلّا في رثاثة الثوب، وتهدّم الجسم، ويتسكّعون في الأزقّة والدّروب، ولا يلجئون إلى المنازل بل يترصّدون الناس في المرافق العامّة.

أما الآن فهم يلبسون أجمل الثياب، ويظهرون في أحسن مظاهر الشباب، ويجلسون معك في المقهى جنباً لجنب ثم يأتي أحدهم إلى أُذنك ليهمس إليك وكأنه يحاذر أن يسمعه أحد فيقول: إنه يجهّز العرس لابنته وأنه يحتاج إلى عدّة جنيهات، ويستطرد البشريّ في أمثال هذه العجائب في لباقةٍ نادرةٍ نعهدها لديه في أكثر ما يقول.

ولا نُطيل في عَرْض ما قال عن المتطفلين والفُتوّات وأرباب الكُيوف والمخدّرات، فقد جاء في هذا المجال بما يُضحِك الثّكلى حقاً، وقد مات أحد هؤلاء فكتب عنه مقالاً بديعاً في صدر جريدة الأهرام ونشره بخاتمة الجزء الثاني من المختار، فلنترك حديث هذه الطبقة إلى حديث الكبار ممّن نالوا حظّاً وفيراً من نقد الأديب الكبير.

إن روح النقد الفكاهي لا تفارق البشريّ في حديثه عن رئيس الوزراء لعهده، إذ يتحدّث عنه بحرية مُفرِطة كما يتحدّث عن المتطفّلين والشحّاذين، لأن الأديب من طِراز البشريّ ينظر إلى النماذج البشريّة حيث كانت، ويرى عوامل الصّعود والارتقاء لا تُخفي مظاهر الضّعف والكسل، بل ربما ساعدت على إبرازها لأن صاحب المنصب الكبير في ملتقى العيون دائماً، فحركاته مرصودة، ومواقفه مشهودة، وأعداؤُه من الكثرة بحيث لا يغفلون عن هِنة.

ولم يكن البشريّ متجنّياً على الرئيس الكبير إذ كانت بعض مواقفه السياسية مما أوجب السّخط العامّ وأثار الحفيظة في النفوس، إذ جاء عقب وزارة سعد زغلول وسلّم للإنجليز بما يطلبون، وهو بعدُ موضع الملاحظة الكاريكاتورية للفنّان الأصيل لضخامة جسمه، حيث بلغت مبلغاً لم يجد قلماً أرقى من قلم البشري في تصويره الدقيق، إذ بدأ مقاله عن أحمد زيور بقوله[1]:

(١) في المرآة، ص ٤٣.

«أما شكله الخارجي وأوضاعه الهندسية، ورسم قطاعاته، ومساقطه الأفقية، فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحاته إلى فنٍّ دقيق وهندسة بارعة، والواقع أن زيور رجل ـ إذا صحّ هذا التعبير ـ يمتاز عن سائر الناس في كل شيء، ولست أعني بامتيازه في شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بُعد مداه، فإن في الناس مَن هم أبدنُ منه، وأبعد طولاً، وأوفر لحماً، إلّا أن لكلٍّ منهم هيكلاً واحداً أما صاحبنا فإذا اطّلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلّفٌ من عدّة مخلوقات لا تدري كيف اتّصلت، ولا كيف تعلّق بعضها ببعض، وإنك لترى بينها الثابت، وبينها المتخلّج، ومنها ما يدور حول نفسه، ومنها ما يدور حول غيره، وفيها المتيبّس المتحجّر، وفيها المُسترخي المترهّل. وعلى كلّ حال فقد خرجت هضبةٌ عاليةٌ مالت من شِعافها إلى الأمام شعبة طويلة أطلّ من فوقها على الوادي رأسٌ فيه عينان زائغتان، طلّة مَن يرتقب السقوط إلى قرارة ذلك المهوى السحيق»!.

هذا الوصف الخارجي الرائع أتبعه البشريّ بوصفٍ للسجايا والصفات، وفيه من التّندّر الضاحك ما لا يُتاح لغير خليفة الجاحظ، وقد لا تكون هناك صلة شخصية بين الكاتب وزيور، إلّا ما يعرفه المواطن من الأخبار العامّة عن مسؤولٍ كبيرٍ يقوم على شؤون الدولة، فالعاطفة ليست من الخصوص بحيث تحتاج إلى استعادة ذكريات تثني من عناية العبث الفكاهي، ولكن الأديب مصوّرٌ مجسّمٌ رأى فرسم وأوضح وبالغ في الظلّ والضوء!.

وإذا كان الأمر كذلك مع أحمد زيور، فماذا نقول فيما كتبه البشريّ عن أخلص خُلَصائه وأعزّ أصدقائه حافظ إبراهيم، وكانا من التّلازم والتجاور وطول المجاذبة بحيث لا يكادان يفترقان إلّا عندما يفرغ كلٌّ منهم لعمله الرسميّ قدراً من النهار، أما طيلة اليوم، أما أكثر سهرات الليل فالصديقان متلاصقان يتندّران ويتغاضبان ويتصالحان، ثم تجيءُ نوبة شاعر النيل في المرآة، فيبتدىء البشريّ حديثه عن صديقه الأثير بقوله بعد مقدمات تمهيدية عن الصداقة والأصدقاء:

«جهمُ الصوت، جهم الخلق، جهم الجسم، كأنما قُدّ من صخرة في فلاة موحشة، ثم فكّر في آخر ساعة في أن يكون إنساناً فكان (والسلام) أما ما يُدعى

فمه فكأنما شُقّ بعد الخلق شقّاً، وأما عيناه فكأنما دُقّتا بمِسمارين دقّاً، وأما لون بشرته والعياذ بالله فكأنما عُهِدَ به إلى نقّاشٍ مبتدىء تشابهت عليه الأصباغ والألوان، فداف أصفرها في أخضرها في أبيضها في بنفسجها فخرج مزجاً من هذا كلّه، لا يرتبط من واحد بسبب.

وإنك لو نضوتَ عنه ثيابه، وألبسته درّاعةً من دونها سراويل، وأفرغت عليه من فوقها حلّةً ضافيةً، وتوّجته بعمامةٍ عظيمةٍ متخالفةِ الطيّات، لخِلْته من فورِك دهقاناً من دهاقين الفرس الأقدمين، فإذا جرّدته كلّه وأطلقته في البرّ حسبته فيلاً، أو أرسلته في البحر ظننته دَرفيلاً. ولكن اكشف بعد هذا عن نفسه التي يحتويها كلّ ذلك، فلا والله ما النور بعد الظلام، ولا العافية بعد السّقام، ولا الغِنى بعد البؤس، ولا إدراك المُنى بعد اليأس بأشهى إليك، ولا أدخل للسرور عليك من هذا، حافظ إبراهيم».

تصوير رائع ينفرد به البشريّ في مراياه، إذ حاول كبار الكتّاب أن يبلغوا مبلغه في رسم الشخصيات ظاهراً، وتصوير الخلجات باطناً فما رجعوا بطائل، حاول فكري أباظة وحسين شفيق المصري ومحمد إبراهيم هلال وتوفيق فرغلي وعبد الحميد حمدي وكلّهم من صفوة الأدباء أن يُبدِعوا إبداعه فبعدوا وما قاربوا، وهم في غير هذا المجال ذَوو لَسَنٍ مبين، لأن روح البشريّ تتعاصى على التقليد وإذا كان من المُبدعين مَن له مدرسة من ناشئة المحتذين، وأيفاع المقلّدين فقد بقي البشريّ أُستاذاً دون تلميذ!!.

وليس من التناقص في شيء أن يكون صاحبُ هذه الفكاهة الضاحكة حزيناً في أعماقه، إذ قد تكون الفكاهة مُحاولةً للهروب من واقعٍ متأزّم، والبشريّ إنسان حسّاس مُرهَف، وبإحساسه يفطن إلى مواضع الألم في المجتمع حين يشهد ارتفاع الأقزام، وانخفاض الرّؤوس، وحين يرى الإباحيّ يرتدي عباءة المتزمّت، والجاهل يتّشح بسروال العالِم، وينال من التقدير ما لا يستحق، أضف إلى ذلك ما تَعاوَرَهُ من المرض المتقطّع، وما رُزِيَ من فَقْدِ بعض البنين، كلُّ ذلك يجعلك تلمس الآهَة الحبيسة في تلافيف ما تسمع من الضحكات.

أمـا إذا كان المـوضوع خـالصاً لـلألم فإنـك لا تقرأ للبشـريّ حينئذٍ كلمـات يكتبها القلم، بل ترى دموعاً يسيل بها الجفن، وللبشريّ إذ ذاك من تيقّظ الشعور، وتـوهّج الإحسـاس ما يجعلك تحسّ وهـج الجمر، وهـو كامنٌ خـلَل الرّمـاد! لقد شاهد الكاتب احتضار ابنه «حسن» في ليلةٍ دامسة تنفّس صُبحها عن دُجىً شديـد، ففزع إلى القرطاس يُسيلُ فيـه دموعـه المترقـرقة من ينـابيع حسـرته، فـإذا به ينقـل المـأساة من صـدره إلى صدور قـرّائه. وإذا هـو لا يتكلّف شيئاً حين يصف لوعتَـهُ الحارة فيقول[1]:

«لقد استحالت كـلّ جارحـة فيّ نفساً تعـاني من سكرات المـوت ما لا يعلم مدى أوجاعه وآلامه وبرحِه إلّا الله، فهذه تُزَمُّ بمـلازم الحديـد زمّاً، وهـذه تضغُمها أنياب النّمور ضغماً، وهذه تُوخَزُ بالإبَرِ وَخزاً، وهذه تُحَزّ بالمِدي حزّاً، وهذه تفريها المخالب فرياً، وهذه تشويها النار شيّاً. وكيف لي بعـذاب نزْعٍ واحـدٍ، ولم يصبح لي كسائر الناس نفسٌ واحدة، وإنمـا هي نفسٌ تساقط أنفسـاً! لا شك يـا بني أنّك مضيت إلى الجنّة، فإذا أحببت أن تعرف مبلغ عذاب أهـل النار، فـأشدُّه بعض مـا أنا فيه، وا حرّ قلباه، إننـا نعيش في هذه الـدنيا عيش الأمين في سـربه، بـل عيش الذي عاهد القدر على أن يسلّم على الزمان فلا تكرثـه الكوارث أبـداً، وإنّا لنشعـر في أنفسنا المراح فنعبث ونضحـك، ولقد يضحـك لضحكنا خَلْقٌ من النـاس، وما ندري ماذا يضمُرُ القدر بعد ساعة واحدة، بل بعد دقيقـةٍ واحدة، فلقـد يكون فيمـا يضمر القدر ما يقدُّ المتن قدّاً، وما يهدّ النفس هدّاً، وكذلك ما كان شـأني فيك يـا بُنيّ».

على أن حيـاة البشريّ النفسيـة كانت لا تعـرف الاستقرار، فهـو يعلن أنه مـا اطّلعت عليه ساعة من نهار إلّا رأى نفسـه مشغولاً عنهـا بالانحـدار إلى التي تليها، ولا صار في يومٍ من الأيام إلّا أحسّ أن همّه فيما بعده، فهو من يوم أن طالع هـذه الـدنيا كـأنه على سفـرٍ دائم لا لُبثة فيـه ولا هوادة، ولا منـاخ لـراحـةٍ أو زاد، وإنـه ليتساءل حائراً[2]:

---

(١) المختار، جـ ١، ص ٣٠١.

(٢) المختار، جـ ١، ص ١٧٤.

«تُرى ما حاجتي أو ما حاجة هذا السائق الخفيّ الذي لا يَنِي عن دفعي دائماً إلى الأمام؟ فما كنت في ساعةٍ من الدهر إلّا استشرفتُ لما بعدها، ولا طلع عليّ يومٌ من أيام العمر إلّا تشوّفت إلى غده، ولا دخلت عليّ سنة إلّا تعجّلت السنة التي من ورائها، حتى لو تهيّأ لي أن تُجمَع أيام عمري في سجلٍّ واحد، لأسرعت إلى تقليب صفحاته حتى آتي من فوري على آخرها، وفي آخرها آخر العهد بالحياة، فما أراني غير قصّة خيالية أنا ممثّلها، وأنا في الوقت نفسه شاهِدُها، فما إن جدَّ لي منها منظرٌ إلّا تاقت نفسي لما بعده، ولا حلَّ منها فصل إلّا تعجّلت غايته والتحوّل إلى ما وراءه».

وفي هذا القلق الدائم أبدع البشريّ مقالاته، لأنه يستمدّ وقوده منه، فهو يحلّل كل دقيقة تمرّ به، وإذا استشعر لها بعض الألم حيناً، فإن ألم الأديب الكبير نعمة لا نقمة، ومن لطيف الله به أنه كان محبوباً في عمله الحكومي، وكان لشُهرته الأدبية لا يجد من رؤسائه غير الاحتفاء والترحيب، ولو سمحت ظروفه الوظيفية بغير ذلك، ما تيسّر له أن يعدّ ساعات النهار قلقاً متبرّماً، ثم هو ينشىء أروع المقالات، وينادم بأحلى النوادر وأطيب الأحاديث.

إن من سِمَة الأدب الحيّ ألّا يَخْلَق على التكرار، فأنت تطالعه عدّة مرات دون أن يفقد حلاوته، أو تخفّ جدّته، كاللحن الغنائي تسمعه ما تسمعه ثم تجد نفسك في حاجة إلى استعادته، وإذا كان الشعر الصادق يجبر قارئه على ترداده، تنفيساً عن مشاعر دفينة، وترويحاً عن أحاسيس مكظومة، فإن في أدب البشريّ الكثير مما يرتفع إلى مستوى الشعر البليغ، وما تجد نفسك في أمسِّ الحاجات إلى مُعاودة روائعه، وكأنّك تجول في روضةٍ مِعطار تتفقّد زهورها، وتأكل من ثِمارها، وتستنشق نسائمها.

لقد كتب البشريّ قصةً عاطفيّةً تحت عنوان (حياء) تصوّر الحبّ العذري الحبيس، هذا الحبّ القاتل الذي يضطرم في الأحشاء دون أن ينمّ عنه اللسان، بل دون أن تُفصِح عنه العينان، إذ يجتهد صاحبه أن يُخفي ذات نفسه كيلا تحسّ لَيْلاهُ بشيءٍ من شجونه فتغضب، وهنا تقع الكارثة التي لا يفوقها حَدَث ما.

وما كانت قصة البشريّ ذات أحداثٍ مُفاجئة تتطلّب الانتباه وتستهوي الأنظار، حتى يرجع تأثيرها إلى توالي المشاهد وترادف المفاجآت، إنْ هي إلّا تصويرٌ لرجل أحبَّ فعفّ فكتم! ولكن انفساح الأيدي في التصوير الخالب، والصدق الآسر، والإيحاء الرّامز جعلك من هذه القصة تَصْلَى من ألوان الأحاسيس ما يرتفع بنفسك طُهْراً وشرفاً ومروءةً، وما يطرب ذوقك إبداعاً وإيحاءً وترنيماً، وهل يكون الشعر غير ذلك؟ فما لنا نقصره على خواطر تضطرب في سلاسل القوافي والأوزان؟ والاستشهاد هنا ببعض ما قال الكاتب المُبين في قصّته مما يُضائل منها، لأن القصة لا تستوي ناهضةً في دنيا الخاطر إلّا إذا ذُكِرَت جميعها من ألِفِها إلى يائها، وهل يمكنك أن تعرض من الوجه الجميل، عيناً، أو أُذُناً، أو خدّاً ليدلّ شيءٌ على جمال أشياء؟ كذلك لا يمكنك أن تستعير عدّة سطور لتدلّ جذوة واحدة على ما يتأجّج به البركان من جذوات.

لقد خصّها الأستاذ خليل مطران بحديثٍ لامِحٍ فيما كتبه بمقدمة الجزء الأول من المختار، إذ شدّت انتباهه شدّاً عنيفاً، وهو القارىء الدارس لآداب الغرب، والمترجم الدقيق لروائعه القصصية، ولكنه وجد حقّاً عليه أن يقول عن قصة حياء للبشريّ:

«إن في ما أغرب به في سَرْد ما سَرَدَ من وقائعها، وفي صدق تصويره لصاحبها بحسّه ومعناه، وفي مختلف أطواره، وفي إحكام السِّياق إلى أن أطْفى من الرسوب في أبعد قرارة من النفس معنىً من أدقّ معاني الحياء!! الله الله في دقّة الوصف، واستشفاف ألطف ما يتحرّك به الحسّ في أطواء النفس، الله الله في روعة الأسلوب وصفاء العبارة، وبلاغة تمهيد الفواتيح للخواتيم»!!.

ومن أبدع ما كتب البشريّ فصلٌ رائع عن قارىء القرآن الشيخ أحمد ندا، وقد امتدّ صيته في الرّبع الأول من هذا القرن، حين لم تنتشر شرائط التسجيل فتحفظ روائع أدائه الفنّي لكتاب الله، ولكن البشريّ قد حفظ له مقامه الجهير حين نشر خواطره عنه فكان كأنما صوّره تصويراً، وأعاده في مجلسه القرآني بعمامته

وجُبّته، وأسمع الناس صداه الرنّان سماعاً يخلّده على الزمان، ها هو ذا يصفه في نوبته الثانية بعد أن فرغ من القراءة في النوبة الأولى فيقول:

«فإذا جاءت نوبته الثانية واستوى في مجلس الترتيل رأيت فيه فتاءً وقوّةً لا عهد لك بهما من قبل، وخرج صوته مُرِنّاً واضحاً ليس عليه من الصّدأ إلّا القليل، ويقرأ ويقرأ، على أنه لا يأخذ في قراءته سمتاً واحداً، بل ما يبرح يترجّح في فنون النّغم، ولكن تحيّره هذه المرة ليس في التماس النغمة التي تُعيذه وتعصمه، بل في التماس تلك التي تُضنيه وتتعبه، إذ صوته في أثناء ذلك يقوى ويشتد، ويعلو ويصفو، حتى يصير أوضح من الفِرِنْدِ، وينطلق في طلب الصيد من هنا ومن هاهنا، ولا يريغ من النغم إلّا الأوابد، فإذا أصاب قنيصته راح يلوّن لها الافتراس ألواناً، ويشكّل لها الالتهام أشكالاً، وهو في أثناء ذلك يقيم الناس ويقعدهم ويطويهم وينشرهم، ويذيقهم المهول الرائع من الطرب والانبهار، وما شاء الله لا قوة إلّا بالله!.

هذا بعض ما قال عن أحمد ندا، وفيه بلاغ.

لقد اهتم البشريّ بنفر من أئمة القرّاء في عصره تشجيعاً وتنويهاً، فأحمد نَدَا وعلي محمود والسيد الصواف وحنفي برعي قد نالوا من احتفائه ما طارَ بذكرهم، والحقُّ أن ترتيل القرآن كان في حاجةٍ إلى كاتبٍ يرصد رجاله، ويكشف عن منازعهم الصوتية، ولا بدّ أن يكون هذا الكاتب عالِماً أزهرياً ليفهم أسرار الوقوف، وتنوّع القراءات، ودقائق النّحو والصرف، وما يُعرَفُ بفنّ التجويد إظهاراً وإدغاماً ومدّاً وغنّةً وإخفاءً، ليقيم حكمه الفنّي لا على الصوت وحده، بل على ما يُحيط به ممّا يتصل بعلوم القرآن الكريم.

ونحن نرى مُقرِئي اليوم في حاجةٍ إلى نقدٍ علميٍّ فنيّ، يقوم به متخصّصٌ بحّاث، لأن أشرطة الكاسيت قد فُتِح بها المجال لإذاعة الجيّد والرديء من أنواع الإلقاء، وإذا جاز ذلك في الأغاني العاطفية، فإن آيات الذكر الحكيم تستلزم تشدّداً يمنع الانحراف، ولي في هذا المجال مقال هادف أكتفي بالإشارة إليه.

وقد أخذ كاتبٌ ما على البشريّ أنه لم يخصّ المناحِي الإسلامية بثمار قلمه على نحوٍ ممتدّ كما فعل مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، وأنا أفْرِق بين الروح الإسلامي وبين الموضوع الإسلامي، فالروح الإسلامي شعورٌ عامٌّ يسيطر على الكاتب في كلّ ما يسطّر بحيث يتقيّد بضوابط الخلق المحمّدي الرفيع، في كل موضوعٍ يعالجه إن لم يمتّ إلى قواعد الدين وتاريخ الإسلام بسبب، فالصّدق في القول، والارتفاع عن الإسفاف، والإخلاص في التوجيه ، والتماس الأعذار عند قيام أسبابها، كلٌّ ذلك يندرج فيما نسمّيه الروح الإسلامي، وهو ما التزم به البشريّ دون نزاع، فأنت لا تأخذ عليه شُبهة انحدار تميل بقلمه إلى الإسفاف.

أما الموضوع الإسلامي فلم يكن من الكثرة في نِتاج البشريّ، بحيث نقرنه بالرّافعي أو المنفلوطي رحمهما الله، ولكن الكاتب قد تحدّث في فصولٍ متتاليةٍ عن الهجرة النبوية، وعن يُسْر الإسلام، وعن أسباب انتصاره في النشأة الأولى، لأن المجلّات الأدبية كالرسالة والثقافة كانت تُصدِر الأعداد الممتازة في المناسبات الدينية، فتأتي بروائع المقالات لأمثال المراغي وشلتوت ومحمد عرفة والعقّاد والزيّات والرّافعي وأحمد أمين ومحمد أحمد الغمراوي، وعبد العزيز البشري مع هؤلاء، إن لم يكن في طليعة هؤلاء.

وهو كاتب يتّكيء على نفسه دائماً، فلا يعمد إلى موضوعٍ تاريخي ليشرحه بأسلوبه الأدبي مُكتفياً ببلاغة العرض كما نعهد لدى بعض النظراء، ولو فعل ما وقع في المَلام، لأن المناسبة تدعو للذكرى ولكنه يتّخذ من حادثٍ كالهجرة متنفّساً لخواطر وضيئة تبيّن انتصار الحق متى كافح عنه صاحبه مهما قامت الحوائل، كما هو في مقالٍ آخر يتحدّث عن يُسْر الإسلام، ومواءمته للفطرة الإنسانية مما يجعله الدين الطبيعي للبشر.

وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد شغلت الناس شُغلاً يحتّمه الواقع الأليم، حين تنطلق صفّارات الإنذار كل مساء، وحين تُظلم الأماكن وتختفي الأنوار، وحين يُهاجر سكّان المدينة إلى الرّيف إيثاراً للسّلامة، فإن هذه الحرب اللعينة قد فسحت باب المقارنة لدى الكاتب الكبير إذ ينتقل إلى الجهاد الإسلامي

الأول في عهد النبوّة وما تلاه ليوضّح كيف أوصى الإسلام بالرّحمة والعفو والمنّ والفداء، والإنذار قبل الهجوم، وليبيّن كيف تحوّلت هذه الأخلاق الإسلامية الرائعة إلى مناقضاتٍ أليمة فيما نشاهد على أيدي الألمان والطّليان والإنجليز ممّن ينتمون إلى المسيحية دون أن يتقيدوا بتعاليم المسيح.

وأجمل ما في البشريّ أنه لا يصوغ آراءه الإسلامية في حديثٍ وعظيٍّ يفقد تأثيره النفسي، ولكنه يزاوج بين الفكرة والصورة مزاوجةً تجعل المقال الديني قطعةً أدبيّةً رائعةً، وهو حينئذٍ لا يتكلّف الجودة لأنها من طبيعة أسلوبه المَكين، يَصدُرُ عنها كما يَصْدُر النور عن شمس النهار.

لقد كان البشريّ من القلائل الذين مَهَّدوا إلى وظيفة الخيال في التعبير الأدبي منذ أوائل هذا القرن، فقد وقر لدى بعض المتأدّبين حينذاك أنّ الخيال تزويقٌ سطحيٌّ يبتعد عن الحقائق حين يأتي بألوانٍ من المُغالاة البعيدة، وأكثرها تلفيقٌ عقليٌّ، يحاول أن يجمع بين المتناقضات بأوهى رباط، ولكن البشريّ يفنّد هذا اللّغو السطحيّ حين يؤكّد أن الخيال الأدبي الصحيح مهما يغلُ[1] أو يحلّق، ومهما يُلوّن من الألوان فإنه مستمدّ في تصرّفه من الحقائق الواقعة، مبتدىءُ منها مُنْتَهٍ إليها. فمن الوقائع مادته، وهي مستعارة في كلّ ما يبدع من ألوان.

والشاعر والكاتب لا يطلقان خياليهما في فنون المعاني لمجرّد العبث بقلب الأوضاع، ومسخ الأشكال، إنما الغاية كلّ الغاية أن تجلو عليك هذه الأخيلة صوراً طريفةً لهذا الذي أدركته من الواقع، أو تترجم لك عمّا يدقّ عن فهمك من المعاني، أو تكمّل بين يديك ما ترى أن الطبيعة قصّرت فيه، والصورة الأدبية في هذه الحالة وإن كانت خيالاً في خيال فإنها لقوة موضعها، ودقّة صنعها، تشبه عندك الصور الواقعية، بل قد تلتبس عليك بالحقائق الثابتة!.

أقول هذا مستشهداً بموجزٍ أتصرّف فيه من كلام الكاتب الكبير لأؤكّد أن البشريّ فيما يصدر من البيان على درايةٍ تامّةٍ بأثر الخيال الأدبي في التعبير، وأنه

---

(١) المختار، جـ ١، ص ١٠٦.

إذا كـان من رجال الأسلوب المبين في هـذا العصر، فـإنه لم يَنْحُ هذا المنحى إلاّ بعد طول تأمّل واقتناع على أنه جاوز الخيال الجزئي فيما يعرف بالاستعارة والكنايـة والتشبيه إلى الخيال الكلّي، الذي يجعل الخيال إطاراً متّسعاً لموضوع عامّ، يسبـح الكاتب في نواحيـه، وهذا الإطـار الفسيح يخلق من الجـدّة والطرافـة والبراعـة في أدب الكاتب ما يُدهِش به القارىء دهشاً يأخذ عليه كلّ متّجـه، إذ يفجؤه بالـطريف غيـر المتوقّـع، مفاجـأةً تنزل من النّفس منـزلة الارتيـاح الهـانىء إذ أتت من بـابهـا الطبيعي غير المتكلّف، فحقّقت للكاتب ما يريد.

لقـد دَعَت الإذاعة الحكـومية منـذ نشأتهـا الأولى عبد العـزيز البشـريّ ليُلقي كلمةً في افتتاحها، وتوهّم السامعون أنهم سيسمعون محاضرةً عن فوائـد المِذيـاع، ولو فعل الأديب ذلـك لصادف مقتضى الحـال دون نشاز، ولكنـه أطرَفَ السـامعين إطرافاً بوثبةٍ من وثبات الخيال الكلّي البهيج، حين تخيّل أعرابيّاً أقـام عمره الأطـول في البادية، ثم زار المدينة فجأة، ليرى صندوق المِذياع يتكلّم! فما عسى أن يقول الأعـرابي في هذا الخشب النـاطق كالإنسـان، هنا يتجلّى الخيـال الكلّي المصـوّر كأبدع ما يكون الخيال حين يعرك إنسان أُذُن الصندوق، فتحمـرّ حدقتـه، ثـم يُسمَع له حسيسٌ ما لبث أن استحال زمزمةً وهمهمةً. يقـول البشريّ على لسـان الأعرابي وقد سمّاه الشيخ عدلان[1]:

«هنـا والله خِلْتُ أن الأرض زُلزِلَت عليّ، وأحسست قلبي يتمشّى من الـروع في صدري، فجمعت ثوبي للهرب، فجذب صـاحبي فضل ردائي، ولـو تركني مـا أصبت المهرب إذ تخاذلت سـاقاي، وأظلم مـا بيني وبين الطريق، وجعلت ألتمس آية الكرسي أعتصم بها من هذا الشيطان، فأذهبها الرعب عنّي.

ولمّا رأى صاحبي هَـوْلَ ما بي، قـال: خفّض عليك يـا شيخ، قلت: وهـذا العفريت؟ قال: لن ينالك منه مكروه، فما يجد لـه من إسارِهِ فكـاكاً، قلت: أيسجن سليمان المردة في قماقم من نحاس، وأنتم لا تُبالون أن تسكنـوها في جمـاجم من

---

(١) المختار، جـ ١، ص ٢١٣.

الخشب، فقام عنّي وعرك الأُذُن الثانية للصندوق، فسرعان ما سكن هديرهـا، وإذا العفـريت يتحدّث في لينِ صـوت، واطمئنان نبـرة كمـا يتحـدّث عُـرفـاءُ القـوم إذا اجتمعوا، وإذا هو ينطق بالحكمة بعد الحكمة، ويرسـل العبرة بعـد العبرة، فـأفرخ ذلك من روعي حتى كادت ترتدّ إليّ نفسي، ثم قام الرجل فعرك أُذُن الصندوق مرةً ثالثة، فجعلت عينه تدور في محـاجره حتى استقـرّ ولم يرعني إلاّ أن أسمـع صوتـاً كشـدْو الكنـار، راح يشتـدّ ثم يلين فيشفّ، ويحلّق ثم يهبط ويسفّ، وآنـاً يـطّرد ويستوي، ثم ينثني ويلتوي، والكبد تتياسر معه وتتيامن، والقلب يتطايـر ثم يجتمع ويتطامن، والنّفس يرتفع كلما ارتفع، ويقع معه حيثما وقع!».

ثمـاني صفحات رائعـات كلها من هـذا الطراز، أفيتّسـع المجال لنقلهـا؟ أم نكتفي بـالإشارة إلى مـا أبدع الخيـال الكلّي لدى البشـريّ من بـدع آسـر، وقـول ساحر!.

وإذا كـان الموضـوع السياسي ممـا يكتب عادةً بـأسلوب تقريـري لا صلة له بالخيال، فإن الأستاذ البشريّ قد شاء له إلهـامه البـديع أن يكتب في السيـاسة دون أن يغفل الاستعانة بالخيال تجسيداً للحقائق، وتصويراً لها، فكان ما أسعد به القرّاء في هذا المجال آية الآيات، فحين انهـزمت إيطاليـا مدحـورةً في الحرب العـالمية الثانية، وسقط المارشال جرزياني قائد إيطاليا في ليبيا، وحاكمها المستعمر، وكـان قد تعقّب الأحرار من أبنـاء البلاد وزعمـائها تقتيـلاً وتشريـداً، وعلى يده الآثمـة تمّ إعدام البطل الشهيد عمر المختـار، وقد حسب أن مـركزه السيـاسي سيتوطّـد حتى الممـات، حاكمـاً مستعمراً في الغـرب الإسـلامي، ثم أبْـدت الأحـداث مـا جعله ضحكةً سافِرَةً بين الهازئين!.

هنا تجيش الخواطر في نفس الأديب العربي الكبير، إذ يرى هـزيمة الـطاغية عقاباً صادقاً لما اقترفه في حقّ الأحرار، وفي مقدّمتهم عمر المختـار، وهنا يستعين بخياله الوثّاب ليكتب على لسان عمر المختار، ومحلّ إقامته جنة عدن مـع الشهداء والصـدّيقين خـطابـاً إلى المـارشـال جـرزيـاني، ومحـلّ إقـامتـه جهنم في اللّظى

المُحرِق، ليحدّثه عمّا أسلف في حقّه من جوْرٍ فادح، وعمّا انتقم به الله عاجلاً غير آجل حين أخزاه بالفضيحة النكراء.

ويصل الخطاب إلى صاحبه فيكتب ردّاً باكياً يكاد يقطر حسرةً وخِزياً لما اجترم، وفي الخطابين عرض دقيق لأحداث سياسية خطيرة، وتحليل فنّي بارع لنكبات إيطاليا المتلاحقة في الشرق والغرب، وتعليل دقيق لهذه النكبات التي جلبها الهرُّ الضعيف حين ارتدى كذباً ثوب الأسد المِقدام، فكشفته الحرب كأسوأ ما يُكشَف به رعديدٌ جبان! وكم كان البشريّ بارعاً حين ابتدأ ردّ جرزياني بهذا المطلع البارع[1]:

«سيّدي المختار، السلام عليك ورحمة الله، ولا شك أن هذا إخبارٌ لا دعاء، فأنت من مَثواك في الجنة في رحمةٍ دونها كلّ رحمة، وفي سلامٍ ليس يعدله سلام، وإني أشكرك شكراً جليلاً على خطابك الذي فرضت فيه لي ضميراً، إذ ظننتني أتمثّلك في صباحي ومسائي وفي غُدوّي ورواحي، بما أسلفت إليك وما أجرمت عليك، إذ الواقع أنك لم ترد لي على خاطر، اللّهمَّ إلاّ ساعة فضضت كتابك، وأزلفت عيني إلى توقيعك! على أني جدّ مشغول بالجزع على ما كان إلى الآن، والهول والذّعر مما يكون بعد الآن».

ومضى الخطاب يعرض تاريخ إيطاليا، وفشل جنودها الحربي المتلاحق، وكيف صبّحوا الأبرياء العزَّل بالدمار، حين زيّن لهم الشيطان أن يملكوا المستعمرات كإنجلترا، وتكون النتيجة الهزيمة الفاضحة أمام مَن؟ أمام ألبانيا وأمام اليونان وأمام طرابلس، يقول البشريّ على لسان جرزياني:

«تقول لي في كتابك: إنك لو كنت «ماريشالاً» في روايةٍ تمثيلية، لكسّرت على الأقل طبقاً، أو صدعت كرسيّاً، أو قرضت بأسنانك سِتاراً، ألا فاعلم يا سيّدي أن الله قد عقد لساني في هذه الحرب، ورمى يديّ بالشلل، وهيهات الفعل أو القول لأشلّ اليد معقود اللسان. وإذا كانت هذه الأهوال الكارثة قد علّمتنا، فقد

---

(١) قطوف، للأستاذ البشري، جـ ١، ص ٥٢.

علّمتنا شيئاً واحداً، هو أن الحرب ليست جيوشاً تزمّ الأفق، ولو زُوّدت بجميع الفواتك والمهلكات، ولا هي أساطيل تزحم نواصي البحار، ولا هي طيّارات تسدّ جوّ السماء، إنما الحرب أوّلاً وأخيراً هي الرجال»!.

هكذا تحدّث عبد العزيز في صميم السياسة الدولية، وهكذا جاء حديثه السياسي في إطارٍ بديعٍ من خياله الرائق، وتصويره الأنيق.

قلت: إن البشريّ قد انفرد بتصويره الرائع في مَراياه، وقلت إن كثيراً من الأدباء قد حاكوه فبعدوا وما قاربوا وهم في غير هذا المجال ذَوُو لسنٍ مبين، وذكرت عدّة أسماء، ولم أذكر بينها اسم الأديب الكبير الأستاذ محمد الههياوي رحمه الله، لأن الههياوي تأثّر بالبشريّ حقاً، إذ كان السابق إلى رسم الصور الإنسانية في المرآة بجريدة السياسة، فأتاح للههياوي أن يعارضه في مجلة الكشكول، وبين الرجلين الكبيرين من التقارب الأدبي ما تُقام له الموازين النقدية في مجال الترجيح، ولو جمع الههياوي صوره الرائعة في سفرٍ خاصٍّ كما جمعها البشريّ لكتب لها خلوداً أدبياً، إذ يسهل تداولها مجموعةً في حيّز خاصّ، ولكن الههياوي كتب أكثر من ألف مقال في شتّى الصُّحُف ولم يجمع منها شيئاً، ومن بينها صوره الكاريكاتورية في الكشكول.

ولنا أن نضع أمام القارىء بعض ما قاله البشريّ في الدكتور محجوب ثابت مقروناً ببعض ما قاله الأستاذ الههياوي ليرى كيف انتقل أثر البشريّ إلى صاحبه، لا بمعنى أنه أخذ منه ما لم يكن لديه، بل بمعنى أنه نبّهه إلى مالٍ ثمين كان في خزينته دون أن يعلم من أمره شيئاً!.

قال الأستاذ البشريّ[1]:

«لا شك في أن الدكتور محجوب ثابت يُعدّ بحق في ميراثنا القومي، ولو ـ لا أذِنَ الله ـ جرى عليه القدر لكان لا بدّ للأمّة من محجوب ثابت بأيّ طريقة من الطرق، نعم هو في ميراثنا القومي لا يقلّ عن آثار سقّارة، وجامع السلطان حسن،

(١) في المرآة، ص ٤٣.

ومقابر الخلفاء، ولقد أصبح على الزمان جزءاً من تقاليدنا الأهلية، كحفلة المحفل، وركبة الرؤية، وشمّ النسيم، ولمّا فكّر المرحوم محمود بك رشاد في جعل العلم المصريّ مُحلّىً بصور بعض الآثار القديمة، فرعونيّةً وإسلاميّةً، لم يرَ المصوّر بدّاً من أن يرسم بجانب الهرم، وأبي الهول، وجامع برقوق، وحضرة سيّدي أبي السعود، صورة الدكتور محجوب ثابت»!.

وقال الأستاذ محمد الههياوي في الدكتور محجوب ثابت:

«قد تروعك منه هيئة البوّاب، ورثاثة الأثواب، وقد تلقاه وهو في أجمل هيئته فتحكم أنه آيِبٌ من سفر بدّد ليله ونهاره، وحمل ترابه وغباره، وربما كان الصّواب أنك لقيته ولم تنقضِ ساعة منذ خرج من الحمام مُغتسلاً نظيفاً، وهو طيّارٌ كأنما خلق الله له جناحي حمامة، يسمع الناس أن الحرب وقعت في طرابلس فلا يكاد اليقين بوقوعها يأخذ مكانه في نفوسهم، حتى يسمعوا أنّ طبيباً مصرياً لحق بالمقاتلين، يعالج الجرحى ويداوي المرضى، ثم يكون هذا الطبيب محجوب ثابت، وتتحدّث الأنباء أن الحرب وقعت في البلقان فيذهب الناس في تصديقها مذهب الشك، ثم تجيءُ أنباءٌ أخرى بأن الدكتور محجوب ثابت هبط ميدان القتال في بعثةٍ من الأطبّاء ينشر الرحمة ويكشف الآلام فيصبح الشك يقيناً»[1].

وفي كتاب عبد العزيز البشريّ الذي ألّفه الدكتور جمال الرمادي نماذج شتّى للمرايا التي عُورِضَ بها البشريّ، ولعلّها تُسعِفُ مَن لا يستطيع الوصول إلى مجلّدات الكشكول، ودونها الصّعاب!.

وبعد، فهل كان مثل البشريّ في ألمعيّته المتوقّدة، وبصره الناقد، وإحساسه الدقيق، وقدرته البليغة على التصوير السّاحر مستحقّاً لهذا الهجوم الجريء الذي شنّه الدكتور زكي مبارك[2] على أسلوبه المطبوع، فيرميه بأنه يتصيّد الأوابد، من مجاهيل القاموس واللسان والأساس، وتلك حال المبتدئين من الناشئين، كما يندر

---

(١) عبد العزيز البشري، للرمادي، ص ٢٥٧.

(٢) مجلة الرسالة (٢٠ يناير سنة ١٩٤١)، العدد ٣٩٤.

أن تجد في نثره صفحة خَلَتْ من التكلّف، ويندر أن تشعر بأنه خَلاَ لحظةً إلى قلبه يستلهمه ويستوحيه، فهو مشدود في كل وقت بزمام التفصّح الثقيل!».

إن الذي يُفنّد هذا الادّعاء ليس أمراً عسيراً ولكنه قراءة ما أسلفنا من مختارات البشري في هذا البحث، ومتابعة ما عقّبنا به من الخواطر الأدبية ففي ذلك ما يعصف بهذا الاتّهام ليصير هباء في الفضاء! وقد صاوله الدكتور زكي مبارك أكثر من مرة، ولم يشأْ أن يردّ عليه، وربما فهم من ذلك أنه لا يأبه لمثله، فواصل الانتقاد، ولكن الحق أن البشريّ أحد أمراء البيان في هذا العصر، وحسبه أن يكون جاحظ الأدب الحديث.

وما دمنا قد ألَمعنا إلى نقد الدكتور مبارك لأسلوب البشري، فإننا لا نتحرّج من الإشارة إلى بواعث بعيدة عن المجال النقدي المُحايد، كانت بين الدوافع المُغرية بتنقّص البشريّ، إذ سبق أن تورّط الدكتور مبارك في الحكم على عمل علميٍّ للأستاذ الأكبر الشيخ سليم البشري، حين زعم أن شرح الشيخ لنهج البُردة كان من تأليف ولده عبد العزيز، وهو زعمٌ باطل لأسباب أوضحتها من قبل في مجلة الأزهر[1].

وقد ارتاع عبد العزيز لهذا الافتيات الصريح، لأنه في جوهره الدقيق يطعن في ذمّة شيخ الأزهر الأكبر حين قبل أن يُنسب إليه ما لم يقل، كما يطعن في مقدرته العلمية حين عجز عن شرح أبياتٍ شعرية تُقال في مدح رسول الله ﷺ، مع أن الشيخ الباجوري شيخ الأزهر الأسبق قد شرح بُردة البوصيري، ولاميّة كعب بن زهير في مدح الرسول الكريم. هنا ردّ البشريّ ردّاً عاصفاً، وكان على مبارك أن يُؤثِر السكوت، ولكنه كرّر في إلحاح، فتغيّرت النفوس، ومهما يكن من شيء فقد انتقل الجميع إلى رحمة الله، وبقيت الحقائق في أيدي الباحثين، كما بقي أدب البشريّ صفحةً وضيئةً في سجلّ البيان العربي، يردّدها القرّاء في احتفاءٍ بالغ، وشوقٍ شديد.

---

(١) مجلة الأزهر، عدد ذي الحجة سنة ١٣٩٩ هـ، نوفمبر سنة ١٩٧٩ م.

محمد أمين الحسيني
مُفتي فلسطين وبطل الكفاح العربي

لا تُذكَر فلسطين دون أن يُذكَر اسم محمد أمين الحسيني، فقد حمل علم الجهاد في سبيلها قرابة نصف قرن، لا تنام له عين، ولا يهدأ له مضجع، فهو بالنهار عاملٌ يشتغل، وبالليل ساهر يفكّر وقد تقاذفته فجاج الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، في بحث عن الأنصار والعتاد، واستغلالٍ لبعض السياسيات التي يمكن بالتوجيه المخلص أن تُعين على نصر الحق في قضية فلسطين، وهو في جهاده الشّاق لم يسلم من كيد الزملاء الذين يعملون تحت راية واحدة، مع أن العدوّ الغاشم يحاربه بالذّهب والحديد والنار.

وقد ألّب عليه كُبرى الدول الآخذة بزمام السيطرة في أوروبا وأمريكا، وهي يومئذ تتحكّم في الشرق أجمعه بالدبابات والأساطيل وقاذفات الطائرات، والمجاهد الصابر يواجه هذه الصواعق الماحقة متفائلاً فإذا يئس من يومه فإنه يعقد حبال الآمال على غده، ثم لا يتركه القدر لأعدائه هؤلاء، بل يفاجأ بجبهة ثانية من زملاء الكفاح تحاول أن تُسكِته قهراً، وكأنه وحده الذي يجب أن يواجه بالعناد، حتى إذا تقلّبت الأيام في سيرها المعوج، عرف الناس جميعاً أن الحاج محمد أمين الحسيني كان صائب النظرة، جيّد التدبير.

ولو آنس من حوله أعواناً كِراماً يأخذون بناصره لأثمر كفاحه في الميدان، ورأى بشائر الأمل تلوح لعينه قبل أن يودّع هذه الحياة، ولكنه استقبل قدره المحتوم

حزيناً آسفاً، إذ إنّ الغاية لا تزال بعيدة، وكلّ يوم يمضي لا ينفرج عن أمل، بل عن ألم، ولكن لا يأس مع الحياة، لأن الفجر يرسل الضوء دائباً بعد الهزيع.

نشأ الحاج أمين نشأةً دينيّة في أعرق بيوت العزّة والفضيلة، فهو حسيني ينتمي إلى بيت رسول الله، ولآبائه من القيادة ذات المغارم المبهظة، والتكاليف الشاقّة ما جعلهم سادة المواقف الحالكة، ومنارة ترسل الضوء في الطريق حتى تكاثفت الظلمات.

وحين حفظ القرآن بعد تسع سنوات من عمره الحافل إذ وُلِدَ في سنة ١٨٩٧ أقبل على التثقّف بالعلوم الدينية واللسانية تمهيداً لالتحاقه بالأزهر الشريف، ثم وفد إلى مصر طالباً للعلم بجامعها الخالد، وأكثر الذين يذكرون تاريخه الحافل لا يلمّون بأثر الأزهر في ثقافته الدينية، وهو إغفال مقصود نجده دائماً لدى مَن يغيظهم أن تكون التربية الإسلامية مصدر العزّة النفسية وباب الاستقلال الحرّ، فهم يحاولون أن يجعلوا التربية الدينية باعث جمود وتقهقر مهما كذّبهم الواقع أشنع تكذيب!.

لقد كتب أحد هؤلاء مقالاً عن الزعيم الجزائري الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي فزعم أنه تلقّى مبادىء الحرية والعزّة عمّا قرأه من تراجم تاريخية عن زعماء الحرية في فرنسا! وكأن البشير الإبراهيمي لم يكن من كبار علماء الإسلام الذين حملوا الرّاية في ضوء المبادىء القرآنية، وفي مَدَدٍ زاخر من حياة الرسول وجهاد الصحابة ومواقف أبطال الإسلام على مدّه الطويل! وخُطبه الرنّانة، ومقالاته المأثورة طافحة بما يدلّ على مذهبه النضالي.

وهكذا يبتعد هؤلاء لغرضٍ حاقدٍ عن تسجيل أثر النشأة الإسلامية متجاهلين، ولكن العمامة البيضاء التي يضعها محمد عبده والبشير الإبراهيمي ومحمد أمين الحسيني فوق رؤوسهم تنطق ساخرةً بما يحاولون، ولهؤلاء الكبار أمثال ونظراء يفوح تاريخهم بأزكى عبير.

وفي مصر أثناء دراسته بالأزهر، كانت الصحافة تكتب المقالات الخاصّة بنهضة العرب والمسلمين، وتعلن حقّ البلاد العربية في الاستقلال لا محاربةً

لتركيا، بل لينال الأحرار بهذه البلاد دستورهم كما نالته تركيا نفسها، فاتصل أمين على حداثة سِنّه بكبار الكُتّاب، ورأى من ثقافتهم المتنوعة ما دفعه إلى أن يكون في مستواهم العلمي الناضج.

وهنا كانت الجامعة المصرية القديمة مفتّحة الأبواب لكل طارق، فجعل يُوالي الحضور مستمعاً إلى نمطٍ جديدٍ من البحث يخالف المأثور مما تعوَّده من قبل، ثم انتظم في دار الدعوة والإرشاد التي أسّسها السيد محمد رشيد رضا، لتنشىء الداعية الإسلامي المعاصر مزوَّداً بأسلحة قوية من معارف الزمن وأحوال الشعوب، وقضايا الاجتماع والسياسة، لأن العلوم الدينية وحدها لا تكفي الداعية البصير الذي يريد أن يخاطب المعاصرين بمنطقِهم المستند لما جدّ من وسائل علمية في الاستنتاج والتدليل، مع الائتناس بما يحدث في العالم الإنساني بكافّة.

غير أن قيام الحرب العالمية الأولى لم يُتِحْ لدار الدعوة أن تواصل رسالتها، ورأى الطالب الناشىء أن العمل الوطني يدعوه إلى الكفاح العملي مجاهداً في كتائب الدولة التركية التي انضمت إلى ألمانيا ضدّ الحلفاء، فاتّجه من فوره إلى الآستانة ليلتحق بالمدرسة الحربية، وفيها أيقن تمام الإيقان أن القوة الحربية من أقوى وسائل النصر، وأنه بالتحاقه بهذه المدرسة يخطو الخطوات الأولى في ميدان النضال الحقيقي بعد أن سلّح نفسه بثقافةٍ دينيةٍ ومعارف عصره.

وعقب تخرّجه «ضابط احتياط» التحق بالفرقة السادسة والأربعين التي تردّد عملها بين أزمير والبحر الأسود، وكان حديث اليهود شاغله الشاغل، إذ أدرك في هذا الوقت المبكّر نسبياً أنهم يعملون على احتلال بلاده، حين وظّفوا المال لشراء الأرض، وحين أقبل بعض السُّذّج على ابتياع عقارهم لخصومهم جاهلين ما يؤدّي إليه هذا التنازل الخادِع من كارثة حقيقية تعمّ العالم العربي بأسره.

وما يزال الشاب الجندي يذكّر كيف أنه في سنّ الثانية عشرة، وكان يقيم مع أُسرته في (قالونية) بالقرب من مدينة القدس، استيقظ فجأةً على ضجيجٍ غير معهود، فانطلق إلى مصدر الصّخب ليرى فريقاً من الصهيونيين يُنشئون مستعمرةً بالقرب من (القسطل) وقد غرسوا بها الأشجار المجلوبة لتمتلىء بها الساحة دون

انتظارٍ للنموّ الطبيعي بدءاً بالبذرة، فاتّفق مع نفرٍ من لداته على غزو المستعمرة الناشئة أثناء الليل واقتلاع أشجارها، وبخاصّة هذه الأشجار التذكارية التي يغرسها اليهود بأسماء مختلفة لكبار زعمائهم، ومن بينها شجرة سرو فارِعة تحمل اسم هِرتسلْ زعيم الصهيونية الأكبر.

وما جاء الصباح حتى كانت المستعمرة قد دُمّرت تماماً، ولجأ القوم إلى الشكوى، ولكن الغلام الناشىء ضرب المثل لزملائه في تحدّي الاستيطان، ولو سارت الأمور على نهجها الطبيعي دون أن تتدخّل بريطانيا بقوّتها الكاسحة لاستطاع أبناء البلاد أن يعصفوا بالاحتلال اليهودي معجّلين.

وقد صدر وعد بلفور سنة ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية، فصمّم أمين الحسيني أن يترك مكانه على شواطىء البحر الأسود ليرحل إلى القدس عامِلاً على إحباط ما ترسمه السياسة الإنجليزية مُحاباةً لليهود، إذ وقعت الخارجية البريطانية تحت تأثير أصحاب الأموال في الولايات المتحدة التي انضمّت إلى الحلفاء، وتعلّقت أسباب النصر بمعاونتها العسكرية، فبدأ المجاهد الشاب بتأليف الجمعيات السياسية، والأندية الأدبية ليهيّىء الشعور العامّ للنضال المترقّب في مقاومة الانتداب البريطاني وتحطيم وعد بلفور.

وكان من جهوده المبدئية إنشاء النادي العربي الذي لا يقتصر على أبناء فلسطين فحسب، بل يدعو إليه كل عربي يهتم بشؤون القدس، كذلك أنشأ روضة المعارف بالقدس لتكون أُنموذجاً للتعليم الوطني الصحيح، وكان طبيعياً بعد هذه الخطوات ذات الغاية المحدّدة أن تنشب ثورة القدس الأولى سنة ١٩٢٠ بقيادة أمين الحسيني، خلال احتفال موسم النبي موسى. وقد أفزعت الانتداب البريطاني بقوّتها الكاسحة، فحاصرها بالدبّابات وهاجمها بالقذائف المدمّرة، ثم أُلِّفت محكمة عسكرية بريطانية لتأديب القائمين بثورة القدس، وفي طليعتهم أمين الحسيني، فحُكِمَ عليه بالسجن غيابياً عشر سنوات مع الأشغال الشاقّة، ولكنه تمكّن من الفرار، واتّصل بشيوخ القبائل وزعماء العشائر، كبني صخر وبني عطية

وآل المجالي وآل الفائز، ورسم الخطوط الواضحة لعملٍ مشترك ستحين ساعته عن قريب.

ثم انتقل إلى سوريا ليعمل على تأييد مشروعه الخاصّ بإنشاء دولةٍ عربيّةٍ تكون حدودها من طورس إلى رفح! وتأهّب الشعور القومي لتحقيق هذا الأمل، ولكن التسلّط الفرنسي الغاشم قد رمى دمشق يوم ميسلون بالدمار القاصف، وترنّحت البلاد تحت صعقات القوة الغاشمة واضطر محمد أمين الحسيني أن يرجع أدراجه إلى القدس جندياً في رابطة الكفاح! ولكن هذا الجندي الباسل قد ارتقى فجأةً إلى مستوى القيادة حين توفّي أخوه السيد محمد كامل الحسيني مُفتي فلسطين، وحلّ الشاب المناضل محل أخيه مُفتِياً قائداً.

وقد أثار اليهود لغطاً سفيهاً عند تعيينه، إذ أعلنوا أنه متّهم وقد حُكِمَ عليه غيابياً بعشر سنوات، وحين وُوجه المفتي بهذا اللغط قال لمناوئه: لقد حُكِمَ في هذا المكان على السيّد المسيح من قبل، فهل كان مُتّهماً؟! والخصم بريطاني مسيحي فسكت مُفحَماً، إذ إن الحكم العسكري قد ارتحل ليحلّ مكانه حكم مدني! وبارتحاله سقطت أحكامه، وتلك مسألة واضحة يعرفها اليهود، ولكنهم حاولوا التشفّي من خصم عنيد.

وقد ظن أعداؤه أن المفتي الجديد سيشتغل بالسياسة لا بالإدارة ولا بالعلم، فحاولوا أن يكبتوا نشاطه البطولي، وحرّضوا مَن يقول في الصُّحُف إن على أمين الحسيني أن يتفرّغ إلى مسائل الفقه والفُتيا، وكان الجواب حاضراً، لأن الفقيه الإسلامي في عصره رجل الموقف الحقيقي، إذ هو المكلّف بإبداء رأي الإسلام لا في الأحوال الشخصية وحدها كما يزعم قِصار النظر، ولكن في كل مسألة تهمّ المسلمين، ولا مسألة أَوْلى من إنقاذ البلاد والعمل على استقلالها، حتى يعيش المسلمون أحراراً كما برّأهم الله، على أن هذا النضال السياسيّ لا يمنع التنظيم الإداري.

وقد أبدى المفتي من وُجوه النشاط ما أوجب تعيينه سنة ١٩٢٢ رئيساً للمجلس الشرعي الإسلامي الأعلى، ومديراً لشؤون الأوقاف والمحاكم الشرعية

ورئيساً للمعاهد الإسلامية، وهي اختصاصات تشمل عدة وزارات، إذ تضمنت شؤون العدل والقضاء وأمور الأوقاف الشرعية، ومسائل التربية والتعليم.

والذي تلهيه الغايات القريبة، وتبهره الرئاسات الخادعة، يطمئن إلى امتداد نشاطه الرسمي في حيّزه الوظيفي، ويقنع بالوجاهة المظهرية حين ينتقل من إدارة إلى إدارة ويجد قبضته تُسَيِّرُ الأنشطة في مختلف المجالات! هذا مَن تُلهيه الغايات القريبة، وتبهره الرئاسات الخادعة، أما مَن يعرف أن كل هذه الوظائف التزامات واجبة، ومسؤوليات ثقيلة، فإنه يبذل غاية الجهد للنهوض بها، غير غافل عن السّياج العامّ الذي يحوطها، وهو سياج الاستقلال العامّ للبلاد، إذ إن الانتداب البريطاني يجمع الخيوط في يده، وإذا أطلق كفّ محمد أمين الحسيني في إدارة الأوقاف والمعاهد والمحاكم فحسب فقد غلّها أو حاول أن يغلّها عن كفاحها المحتوم لاستقلال فلسطين، وطرد الدخلاء من اليهود.

ولك أن تقرّر فداحة الرسالة الخطيرة التي ألزمته أمانته الدقيقة أن يعمل على تحقيقها، والعدوُّ قويّ متحفّز، والنصير ضعيف موهون!!.

إن الأعباء الداخلية التي قام بها الحاجّ أمين الحسيني لم تجد مَن يُفصِح عنها فيما كتب في تاريخه، لأن جهاده السياسي كان بمثابة شمس طمست ما تلألأ حولها من النجوم، والمؤرّخ العادل لا بدّ أن يَزِن كلّ عمل بميزانه الدقيق، فيذكر أن أمين الحسيني تسلّم إدارة المحاكم منذ سنة ١٩٢٢، وهي تضمّ سبعة عشر محكمة، وتسلّم إدارة الأوقاف الإسلامية، وهي تضمّ مساحات شاسعة مما أوقفه الملوك والسلاطين عبر التاريخ الممتدّ بحيث تخصّصت سبع دوائر لإدارتها.

أما المعاهد العلمية فلم تخضع لبرامج محدّدة، ولا بدّ من تجديد المناهج على نحوٍ مفيد، فكان من أول الخطوات أن اتّجه إلى المحاكم الشرعية التي أصبحت بعد انسحاب الأتراك سنة ١٩١٧ في رعاية النائب العامّ، وهو يهودي يسمّى بنتويش، ثم تبعه هربرت صموئيل، وهو من أكبر عتاة الصهيونية! ولا ينتهي العجب من إدارة قضاءٍ شرعيّ يوكّل ليهوديين صهيونيين، لذلك سارع أمين

الحسيني فأعدّ اللوائح الجديدة، وقرأ كثيراً في خطط المحاكم الشرعية بمصر، لينقل إلى فلسطين نظامها الدقيق طارداً ما أدخله سابقوه من نظم تعوق العدالة!.

أما أموال الأوقاف فكانت تتبدّد من قبل في وجوهٍ لم تُشرع لها حين وُضِعَت لأعمال المعروف، فكان أول ما نهض به المفتي الأكبر أن أنشأ ما يُسمى بدار الأيتام الإسلامية الصناعيّة، جامِعاً لها من التلاميذ ما كانوا يتضوّرون في بيوت الأيتام الأجنبية مثل معهد «شنلر» في القدس، ومعهد «الساليزيان في بيت لحم» مع عدد كبير ممّن ملؤوا الطرقات دون عائِل. وبدأت دار الأيتام أول عامها بمائة! ثم تجاوز العدد عدّة آلاف يتلقّون دروس التهذيب مع مهارات الصناعة الضرورية كالطباعة والتجارة والحياكة وقطع الموبيليا، وإذا انتشر في البلاد العربية مَن يُحسِنون هذه الصناعات، فإن مؤسسة الأيتام كانت مشعل النور لهؤلاء.

أما حقل التربية والتعليم فقد ازدهر بغِراسٍ ناضرةٍ إذ أنشأ المفتي الكليّة الإسلامية لتكون بعد المرحلة الثانوية خاصّةً بالدراسة العليا على النمط الجامعي، ومن تلاميذها مَن قُيّدوا بها أول العام ليُرسَلوا في بعثات تعليمية إلى مصر بالأزهر والجامعة ومدرسة القضاء الشرعي ودار العلوم، فإذا تركنا الكلية الإسلامية للتعليم المدني، فقد أنشأ المفتي معهدين خاصّين بهذا التعليم، هما كلية روضة المعارف بالقدس، ومدرسة النجاح بنابلس!.

ومَن يرقب هذه الأعمال الخالدة يظن أن الرجل قد ملأ بها وقته، ولكن تاريخ نضاله يدلّ على سعةٍ مديدةٍ لا ندري كيف اتّسع الزمن لنشاطها، فمع بلائه الحَرِج مع رجال الانتداب البريطاني، بحيث كانت مزعجاتهم القاسية لا تفتأ تنصبّ على العرب مجاملةً لليهود، وتتطلب من الحاجّ أمين ومن رفاقه يقظة العين ودؤوب المسعى، مع هذا البلاء الحَرِج فإن المفتي لم ينسَ واجبه العربي حين اندلعت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ تحت قيادة سلطان الأطرش، إذ سارع بتكوين اللجنة المركزية لإعانة منكوبي سوريا، كما بعث رُسُله إلى الأردن ونجد والعراق والحجاز ومصر لجمع التبرّعات الخاصّة بشراء السلاح.

ومع انكماش الثورة ولجوء أبطالها إلى «وادي السرحان» من أملاك الدولة السعودية، فقد حرص المفتي على إيصال ما يَفِدُ إليه من التبرّعات إلى النازحين في مهجرهم الجديد، إذ ما زال يرقب الإنجليز واليهود بحذر، حتى انعقد المؤتمر التبشيري في القدس سنة ١٩٢٣، وجعل جلساته مغلقة، ولكن المفتي وجد من أصدقائه مَن حمل إليه محاضر الجلسات، فسارع المفتي بنشرها في صُحُف العالم الإسلامي وهي في صميمها مؤامرة دنيئة ضدّ الإسلام، إذ رسمت الخطط بنشر المُفتريات عنه، كما دعت إلى احتلال الأماكن المقدسة في مكة والمدينة إذا أمكن، في ظلّ تدبيرٍ خفي لا تُلمَس بوادره حتى يفاجأ به العالم جميعه وقد صار حقيقةً واقعةً! وكان لنشر الجلسات الدنيئة على يد أمين الحسيني صداها القوي في افتضاح المتآمرين!.

هذا بعض ما قام به المفتي خارج الكفاح الفلسطيني، نشير إليه ليأخذ مكانه الطبيعي في فهرس أعماله، وإذا كنّا قد راعينا جانب الإيجاز فلأنّ للتفصيل مجالاً غير هذا المجال.

على أن أهم خطوة تمّت على يده في سبيل قضية بلده، هي الانتقال بها من المجال الوطني المحدود إلى المجال الإسلامي الفسيح، فقد أدرك المفتي ببصيرته الواعية أن إنجلترا حينئذٍ تمدّ أسبابها الوثيقة إلى أكثر الربوع الإسلامية، وهي في حاجةٍ إلى أن تظهر بمظهر الحليف المخلص! فإذا كان اليهود في كل بقاع أوروبا يحرصون على أن تتجمّع مشاعرهم حول قضيتهم في فلسطين فإن المسلمين في بقاع العالم من شرقٍ وغرب جديرون أن يلتفّوا حول هذه القضية من وجهة نظرهم العادلة.

ففلسطين لا يمكن أن تصبح قضيةً محلّيةً! بل لا بدّ أن تجد امتدادها الطبيعي في كلّ وطن إسلامي، لذلك بادر سماحة المفتي بالدعوة إلى عقد المؤتمر الإسلامي العامّ في بيت المقدس سنة ١٩٣١ حيث حضره مندوبون كبار من كافّة الأقطار الإسلامية وكان أول مؤتمر من نوعه يجمع الصفوة من رجالات العالم الإسلامي من فلسطين، وسورية، ولبنان، والعراق، واليمن، والسعودية، وليبيا،

وتونس، والجزائر، والمغرب، ومُسلِمي أوروبا في بلاد البلقان، وتركيا، ومسلمي روسيا، ، ومُسلِمي الهند والتركستان، وأندونيسيا، والصين.

وكان بعض المجاهدين قد أشار على السيد أمين الحسيني أن يعقد المؤتمر بمكة في موسم الحج، ولكنه أصرّ على عقده ببيت المقدس لتكون رسالته السياسية واضحةً محدّدةً، ولنشر دويّه الرنّان على نحوٍ مسموع، إذ قد يظنّ بعض الناس أنه جاء مصادفةً في موسم الحج، كما أن هذا المؤتمر الكريم إذا تُرِكَ لعفويّته الاختيارية قد لا يضمّ من الرؤوس مَن يكونون موضع الثقل في الترجيح.

وقد انزعج اليهود لانعقاد المؤتمر وحاولوا إعاقته بما يتفننون من أساليب المَكْر وحِيَل الدّهاء، حتى زيّن لهم الشيطان أن يتقدّموا برشوة مالية للحاجّ أمين تبلغ نصف مليون جنيه، وهم بذلك يسيرون وفق أساليبهم المنحدرة، حين يظنّون أن المال الوفير مصدر إغراء لا يُقاوَم، ففشل ما يأفكون.

ومن المُضحِك أنهم عدّوا الحاج أمين مسؤولاً عن إزعاجهم بهذا المؤتمر، واعتبروه المحرّك الأول لِما يلقون من ثورات متعاقبة، ولِما يشهدون من افتضاح مؤامراتهم في الصُّحُف العالمية، إذ اشترك المفتي في بعثة سنة ١٩٣٠ الخاصّة بمفاوضة الحكومة البريطانية بشأن مأساة فلسطين مع اليهود، وما كاد يخلص من مهمّته في لندن حتى بادَرَ بالذهاب إلى سويسرا، واجتمع بالسير أريك روموندا الأمين العامّ للانتدابات، وجمع حوله نفراً من أبناء البعثات العربية هناك ليشرح لهم قضية العدالة في فلسطين، وليطلب من ذوي البيان أن يجهروا بعدالة العرب في المطالبة بحقّهم المشروع في صُحُف الغرب المختلفة، ليوجد وعْيٌ عالميّ خاصّ بفلسطين فيُسمَع الصوت الآخر من جانب العرب بعد أن ملأت الصهيونية ربوع أوروبا بالضجيج، دون أن تجابه بالردّ المُصيب.

مَن يباشر الأحداث السياسية، ويصطلي بنارها عن كثب، يكون أدرى بموقفه وقد يأتي من المؤرّخين بعد سنوات مَن يأخذ عليه بعض الهنات، لأن مرور الزمن أضاف من النتائج ما لم يكن حادثاً من قبل، وأولى بهذا المؤرّخ أن يضع نفسه موضع المترجم له متصوّراً مُلابَسات أحواله ودقائق ظروفه ليأتي بالحكم العادل!.

أقول ذلك ردّاً على بعض الذين ذهبوا إلى مؤاخذة الحاجّ أمين الحسيني حين واجه إنجلترا بالعداء السّافِر، إذ كان عليه في رأيهم أن يلجأ إلى المُهادنة، وأن يكون دبلوماسياً أكثر منه صاحب حق يسعى إليه في وضوحٍ سافِر لا يقبل الاستخفاء!.

والذين يدرسون القضية الفلسطينية من ألِفها إلى يائها يعرفون أن الإنجليز كانوا حلقة الشرّ المفرغة، وبتدبيرهم الظاهر والخفيّ معاً ساعدوا الصهيونية على الاستفحال المُستَشري إلى ما لا حدّ بعده، ففي أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ أصدرت الحكومة البريطانية تصريحاً خطيراً، وجّهه اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية إلى اللورد روتشيلد عميد اليهودية الإنجليزية يقول فيه:

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وسوف تبذل ما في وسعها لتحقيق هذه الغاية» ولم تمضِ أسابيع قلائل حتى دخلت الجيوش الإنجليزية فلسطين، واستولت على بيت المقدس وبدأت الخطوات الأولى في تنفيذ وعد بلفور!!.

والذين يعتذرون عن الإنجليز بأنهم اضطروا للوفاء بعهدهم المسجّل رسمياً في مجلس العموم البريطاني، إذ ما كان لهم أن ينقضوا عهداً أبرموه، قد فاتهم أن يعلموا أن التاريخ الإنجليزي في الشرق بعامّة لا يرتبط بميثاق، فقد أصدرت الحكومة الإنجليزية التي سجّلت على نفسها وعد بلفور، وعداً آخر للملك الحسين بن علي باستقلال العرب، وضمان حرّيتهم بعد انتهاء الحرب، وذهب الكلونيل لورنس يؤكّد هذا الوعد بكلّ ما يملك من أيمان، ويجمع الجيوش العربية لتنضمّ إلى الحلفاء جزاء ما تنتظره من الاستقلال، ولكنّ الحرب انتهت ليعلن الإنجليز نكوصهم عن العهود، وليقتسموا البلاد العربية مع فرنسا، وكأنها لم تقف معهم في اتجاهٍ واحد أمام الألمان!.

وقد أدرك المفتي أن الاضطغان على العرب هو وحده الدافع للغدر الإنجليزي، ثم تكرّرت المواقف العدائية، واشتعلت الثورة العربية في سنوات ١٩٢٩، ١٩٣٣، ١٩٣٦ ليحارب العرب في جبهتين متماثلتين لا في جبهة

واحدة، جبهة الصهيونية وجبهة الإنجليز، حيث كان التحالف بينهما على أتمّ ما يُرجى من التنسيق والإمداد.

ثم رأت الحكومة البريطانية أن تدعم خطّتها العدائية، فأرسلت لجنة ملكية برئاسة اللورد بيل لدرس المسألة الفلسطينية من جديد، فقامت اللجنة بمهمتها وتقدّمت في صيف سنة ١٩٣٧ بحلٍ غريبٍ حقّاً، هو أن تُقسّم فلسطين إلى دولتين، إحداهما عربية، والأخرى يهودية، وأن تبقى مدينة القدس منطقةً دولية تحت الانتداب البريطاني، وخصّت الدولة اليهودية بالقسم الغربي الذي يحتوي أخصب البِقاع، وخصّت الدولة العربية بالقسم الشرقي مع اتخاذ ثغر يافا ميناءً بحرياً له!.

وما كاد الأمر يُذاع على وجهه المُخجِل، حتىٰ عقد الحاجّ أمين اجتماعاً عامّاً، وألقى بيانه الرافض لهذا التحيّز الصريح، فماذا كان ينتظر الناقد المثقّف من المفتي الغيور غير الثورة على الظلم الصارخ! أنقول إنه لم يلتزم الدبلوماسية في عدائه، وهو يرى العرب يُجْبَرون على النّزوح من بلادهم، تنفيذاً لما تراه بريطانيا من التقسيم؟! وإذا سكت رئيسَي المجلس الإسلامي الأعلى ورئيس اللجنة العربية العليا لفلسطين على هذا العدوان السّافر فمَن يقود المجاهدين؟.

لقد حاولت السلطات الإنجليزية أن تقبض على البطل المناضل حين تزعّم الثورة ضدّ المشروع، فتقدّم البوليس البريطاني بقوةٍ كبيرةٍ للقبض عليه، ولكنه استطاع التسلّل من مقرّ اللجنة العربية العليا بالقدس، واختفى إلى حينٍ يبلغ مائة وعشرين يوماً دون أن يهتدي إلى مكانه أحد، ثم حمله زورق صغير في إحدى الليالي الحالكة ليذهب به إلى لبنان، أما زملاؤه في اللجنة العربية العليا فقد اعتقل أكثرهم، وفيهم مَن نُفِيَ إلى جزيرة شيسل، التي كانت منفىً للزعيم المصري سعد زغلول من قبل!.

ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩، واضطر الحاجّ أمين الحسيني للرحيل إلى العراق، مترقّباً فُرَص العمل الجدّي، ولمّا كان الإنجليز في رأيه هُم العدوّ الأول والظهير الأوفى للصهيونية، قَبْل أن تنتقل قيادة الحلفاء إلى أمريكا كما

تمّ ذلك بعد انتهاء الحرب، فإن الحاجّ أمين انتهز قيام رشيد الكيلاني بالثورة في العراق ضدّ الإنجليز فساعده بكل قِواه، وبرز للعَيان مُحارباً لا يخفي وجهه بقِناع، حتى إذا فشلت حركة الكيلاني فرّ المفتي من العراق عن طريق إيران إلى ألمانيا ليوطّد صِلته بأقوى عدوٍّ للإنجليز، وهو هتلر، وليتّفق معه على تحرير فلسطين، واستقلال البلاد العربية بعد أن يتمّ النصر.

وكذلك انتقل إلى روما ليُبرِم مع موسوليني ما أبرمَ مع هتلر! ولا يعلم غير الله كم بذل من مُكابدات مرهقة، حتى تمكّن من إقناع الزعيمين الكبيرين، ولولا ما عُرِفَ عنه من الزعامة العربية الأمينة، ما أدرك هذه المكانة التي جعلته موضع التحالف الوثيق، ولو جرت الرياح بما يشتهي البطل المناضل ما بقي في فلسطين صهيوني واحد! ولكن الحرب انتهت بنصر الحلفاء.

ولم تغفل الصهيونية عن إدراك ثأرها من الرجل، فنادت المنظمات اليهودية بضرورة تقديمه إلى المحاكمة باعتباره مجرم حرب كهتلر وجورنج!! وبدعوى أنه حرّض النازية على إبادة اليهود، وهي تهمة فاجرة حقّاً، لأن هتلر قد بدأ هذه الإبادة منذ سنة ١٩٣٤، وأمين الحسيني قد وطىء برلين سنة ١٩٤٢، فكيف يحرّض على عمل بُدِىء قبل مَقدَمِه بأمَدٍ طويل!.

وإمعاناً في إلصاق التّهمة نجد الصهيونية الحاقدة تقدّم إلى محكمة (نورمبرج) اتّهاماً آخر بأن المفتي عمل على تأليف فِرَقٍ عسكرية من مسلمي البوسنة لمحاربة الحلفاء، وما كادت تُذاع هذه الأراجيف في العالمين العربي والإسلامي حتى توالت الاحتجاجات من كل صوب، ووجد الحلفاء ما لم يتوقّعوه من إجماع الزعماء في المشرق الإسلامي على براءة المفتي، كما لم يعقل في منطق القائمين بالمحاكمة أن هتلر كان يتلقّى الرأْيَ من الحاجّ أمين ليكون المُحرِّض الأوحد على استئصال اليهود!.

وقد كتب اليهودي البريطاني موريس بيرلمان كتاباً تحت عنوان (مفتي القدس) يحرّض فيه إنجلترا على اعتقال الرجل ومحاكمته، مردّداً من الأراجيف ما

لم يثبت لدى المحكمة بعد التحرّي الشديد! ومَن يقرأ كتاب هـذا الحاقـد يظن أن الحرب العالمية الثانية جميعها قد قامت بتدبير الحاج أمين.

وقد كتب الدكتور محمد فـاضل الجمـالي رئيس وزراء العراق الأسبق مقـالاً عن المفتي الأكبـر قال فيـه[1]: «لا أعرف عـربياً سلّطت عليـه الدّعـاية الصهيـونية العالمية قذائفها، وحاولت تشويهه كما فعلت مع الحاجّ أمين الحسيني، ومـع ذلك فقد وقف صلباً متحدّياً خصومه، مُقَدّراً في العالمين العربي والإسلامي.

لا أعرف عربياً حاربته السياسة الاستعمارية، غربيّـةً كانت أم شيـوعيّة، كمـا فعلت مع الحاجّ أمين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى مماته! لقـد قاسىٰ في سبيل القضية الفلسطينية الأمَرّين، وهو يكافح ويناضل، حتى الـرّمَق الأخير، وقـد استطاع بجهده وجهاده أن يجعل القضية الفلسطينية قضية إسلامية إلى جانب كونها عربية وإنسانية»!.

وقد تمكّن الرجل من مغادرة أوروبا سرّاً إلى مصر سنة ١٩٤٦، وقـد استقبل بها استقبال الفاتحين، وهرعت طوائف الشعب من السفح إلى القمّة مرحّبة بمقدمه الـذي كان مفـاجأةً كبـرى لمَن رصَدوا الجـوائـز لاعتقـالـه، وبـدل أن يـروْه مقيّـداً بالسلاسل رأوه يُستقبَل استقبـالاً رائعاً في قصـر عابـدين، وقد قـابله الملك مرحّبـاً بضيف مصـر الكبير ممـا أفزع ممثّلي الصهيـونيـة في مجلس العمـوم البـريـطاني، فكتب المستر بيرلمان يتساءل متعجّبـاً: «مَن محمد أمين الحسيني الـذي يكون في لحظةٍ ما تحت حراسة البوليس، وفي لحظةٍ أخرى ضيفاً على ملك؟ كيف يستـطيع أن يمشي بسهـولـة في صـالات الـدبلومـاسيـة، ويُـدَبّـرُ أمـر عبـوره عبــر الحـدود والحـراسات، ومـا هو سجلّه التـاريخي، وما الـدور الـذي سيلعبـه في العـالم من جديد؟».

وعلى إثر وصوله إلى العالم العربي اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الـدول العربية في بلودان، وتمّ الاتفـاق مع المنـظمات السيـاسية الفلسـطينية على تـأليف

---

(١) مجلة فلسطين، ص٩٣، العدد ٦.

(الهيئة العربية العليا لفلسطين) لقيادة الحركة الوطنية برئاسة سماحة المفتي، فأخذ الرجل يُعيد التنظيم الحربي والسياسي للهيئة، وقام بتأليف جيش الجهاد المقدّس مُسنِداً رئاسته إلى البطل الشهيد عبد القادر الحسيني، ثم حلّت المعركة الأولى للدول العربية سنة ١٩٤٨، فأسفرت عن كارثةٍ أليمة ترتّب عليها تشريد مليون عربي فلسطيني، وتحقّقت للوجود الصهيوني فاعليته الرسمية بعد أن أكّدها قرار التقسيم في هيئة الأمم وإخفاق الجيوش العربية في تحقيق نصر كريم.

وقد رأى سماحة المفتي أن يخرج بالقضية من نطاق الجامعة العربية لتكون حَدَثاً إسلامياً عامّاً، فراسل الزعماء في شتّى عواصم الإسلام، وبعث الوفود إلى أندونسيا والباكستان وتركيا وإيران والأفغان، وأظهر من المقدرة ما جعل لاسمه مكاناً محترماً في العالم الإسلامي، يدلّ على ذلك اختياره لرئاسة المؤتمر الإسلامي في كراتشي سنة ١٩٥١، ثم اختياره لرئاسة مؤتمر علماء المسلمين بكراتشي أيضاً سنة ١٩٥٢، كما مثّل فلسطين في مؤتمر باندونج الأشهر.

ولو تُرِكَ للزعيم الكبير حرية التصرّف مع زملائه رؤساء الدول العربية لتمّ الاتفاق على خطٍّ موحّد، ولكنه عبّر بكل ألم في مقالاته عمّا يلقاه من تحكّم مَن يُتاجرون باسم فلسطين أمام دولهم، ويدّعون قيادة التوجيه النضالي، وهم في قرارة أنفسهم لا يعملون على نصر القضية قدر ما يحاولون أن يكتسبوا تأييداً شعبيّاً يُظهِرهم في مظهر الحماس المتطرّف.

وأمين الحسيني لا يسكت على خطأ، فاضطر إلى مواجهة مَن يتولّون الرئاسة من زعماء الانقلابات الثورية في العالم العربي، ولم يطيقوا في تغطرسهم الكاذب أن يصغوا إلى كلمة نقد، فأعلنوا لأذنابهم من مرتزقي الصحافة أن يهاجموا الرجل المناضل، وأن يعدّوه وحده العقبة الأولى في طريق التحرّر، وجاهر بعض الأغرار فوصفه بالخيانة وهو وصف مُضحِك في بلاد العالم العربي، وسرّ ما يبعثه من الضحك، أن الموصوف دائماً يكون مجنيّاً عليه، كما يكون المحرّك لانتقاصه دائماً جانياً يفتات على الحق.

وكان الراحل الكبير يكتب مسودات يوميّة تسجّل مواقفه مع مَن يزعمون الدراية التامّة بمشكلات فلسطين، ويعتقدون أنهم وحدهم أصحاب الكلمة الحاسمة في موضوعها، فإذا واجههم المفتي الكبير بخُلاصة تجاربه، وما يتوقّعه في سير الأحداث، وجد الهجوم الصّاخب على صفحات الجرائد، فيضطر إلى الانتقال من دولة إلى دولة ليُكابِد التجربة ذاتها! ولو علم هؤلاء الأغرار أن المفتي الأكبر في سنّ آبائهم، وله تاريخه الحافل بالعِبَر والملاحظات عن تجربة مريرة لم تجعله يذوق طعم الراحة يوماً واحداً، لو علم هؤلاء حقيقة قُصورهم بإزاء قامته المديدة لراجعوا أنفسهم في خجل، ولكنها الزعامات!.

يقول الكاتب السياسيّ «كريم» المحرّر العربي بصحيفة الحياة[1] البيروتية؛ بعد أيامٍ من رحيله:

«لقد كان المجاهد الأكبر يشكو من أن الحكومات العربية لم تكن لها سياسات ثابتة، ولا خطّة معينة من أجل القضية الفلسطينية، لأن السياسة كانت تُبتَكَر من وحي الحاجات المرحلية المحلية لكلٍّ من الزعامات السياسية في بلدان المواجهة العربية، وأنّ ما يدّعونه بسياسة الرفض لا يستحقّ أن يسمّى بهذا الاسم، إذ لم يكن للعالم العربي في يومٍ ما سياسة رفض ثابتة، وإنما كانت هناك ولا تزال سياسات متبدّلة متحوّلة تستوحي زخمها من ظروفها، وتستمدّ اندفاعاتها من تقلّب هذه الظروف وحاجاتها المرحلية.

لهذه الأسباب كلّها حاولت مصادر كثيرة أن تفرض العُزلة على الحاجّ أمين الحسيني، ولكن على الرغم من هذه المحاولات استطاع الرجل الكبير بشخصه فقط، وحتى آخر يوم من حياته أن يفرض هيئته العربية العليا على كل جهة ومصدر، سواء على الصعيد العربي أو الصعيد الدولي، كما استطاع أن يجعل من كدّه وجهده، ومعرفته وعلمه المرجع الوحيد والمنهل الصادق لكل ما يتعلق بالقضية الفلسطينية الخالصة، التي لا تلتزم بخطٍّ غير خطّها، ولا بنضال غير

---

(١) جريدة الحياة البيروتية الصادرة بتاريخ ١٩٧٤/٧/٧.

النضال الذي يُعيد المواطن العربي الفلسطيني إلى أرضه ووطنه، وعزّته وكرامته، وشرفه، ومكانته».

وبتضييق الحصار على نشاط الحاج أمين، وانعزاله المحدود في بيروت، لم يشأْ أن يسكت عن اللغط الدائر حول القضية الفلسطينية، لأن الجهر بمُعاداة الرجل أتاح للصهيونية أن تذيع ما تشاء عن انقسام العرب بشأن القضية، كما هيّأ لها أن تزعم أن اختلاف وجهات النظر البعيدة بين المحاربين في جبهة واحدة، لا تمكّنهم من عمل موحّد يقابل بالاتّفاق التامّ، وإذا تعذّر أن يتّفق العرب فلن تعيش القضية الفلسطينية إلاّ في الخيال، لذلك بادر المفتي الكبير بعقد مؤتمر صحفي بدار الهيئة العربية ببيروت قال فيه ما نصّه[1]:

«إن الأعداء الذين حذقوا أساليب الدعاية ووسائل التضليل، قد أضفوا على الحركة القائمة حول الكيان الفلسطيني ما يُوهِم البسطاء بأننا نحترب ونتقاتل، وأن هناك خلافاً جذرياً حول طبيعة الكيان الفلسطيني المنتظر كما ظهرت الهيئة العربية في أقوالهم بمظهر المُعارِض للكيان، وأن هذه المعارضة تعني اصطداماً حقيقياً بين الهيئة العربية ووجهات مسؤولة أخرى، والحقيقة أن هذه الظواهر الخادعة أوهام لا أصل لها، فالشعب الفلسطيني مُجمِعٌ على ضرورة إنشاء كيانه، والهيئة العربية هي الأولى في العمل على إنشاء هذا الكيان، وقد طالبت الدول العربية وجامعاتها بهذا العمل الضروري لجمع الشمل المتبدّد، وقد قضيتُ حياتي في سبيل هذه القضية، وليس من الممكن أن أختم عمري بخيانة مبادئي!».

وبعد نكبة حزيران ١٩٦٧، أُصيب المفتي الأكبر بمرضٍ قلبيٍّ جاء نتيجةً لضغطٍ نفسيّ متوتّر، فقد عزّ عليه أن تُساق الجيوش العربية دون تخطيط، وأن تكون القيادات في مستوىً منحدرٍ لا يرتفع إلى المسؤولية، وبدأ بعقد اللجنة العليا للهيئة العربية عقداً متواصلاً لتُراقب الأحداث الدائرة في مجلس الأمن حول الهزيمة الساحقة وجرائرها الدامية، وقد لزم جانب التشدّد في بياناته التي أصدرها

---

(١) مجلة فلسطين، العدد ١٦١، ص ٢٦.

ووافقت الهيئة على مضمونها، إذ رأى من بوادر التخاذل بين المتسبّبين في الهزيمة ما جعله يؤكّد الحق العربي في استعادة الأرض السليبة.

وقد أصدرت الهيئة مذكّرةً حاسمةً توجّهت بها إلى رؤساء ملوك الدول العربية بتاريخ ١٩٦٧/١٢/٦، بشأن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر في ١٩٦٧/١١/٢٢ حول ما سمّاه مشكلة الشرق الأوسط، والقارىء المُلِمّ بتاريخ النكبة الأليمة يعرف أدوارها المُفجِعة، وما أعقبها من يأسٍ كاد يفتّ في الأعضاد، وأذكر أن المفتي سعى لانعقاد المؤتمر العامّ الإسلامي بعمّان في دورة طارئة بتاريخ ١٩٦٧/٩/١٦ لتواجه آثار الهزيمة بما تقترحه من الحلول، وكانت مذكّرة الهيئة العربية التي وقّعها الحاجّ أمين بمثابة ورقة عمل يدور حولها النقاش!.

ومع اشتداد أزمات المرض على الرجل الكبير فقد واصل نشاطه السياسي، واختصّ الوضع الأليم في القدس باهتمام متواصل، إذ تحدّث عمّا يقال بشأن تدويل المدينة المقدسة أو تهويدها، ورأى أن التّدويل مقدّمة مطمئنة للتهويد! ومن دلائله ما يعمله اليهود صباح مساء من إزالة كل أثر عربي أو إسلامي بالمدينة، ومن مُصادرةٍ للأراضي والممتلكات والمقابر الإسلامية، ومن هدمٍ للمساجد والمدارس والمعابد الأثرية وبعض الأحياء العربية الشهيرة، وتشريد أصحابها لتقوم على أرضها أبنية يهوديّة مستحدثة تَعَفّى على كل أثر للقديم، أما مواصلة الحفر والتنقيب حول المسجد الأقصى فلن تنتج غير تصدّع أركانه، والتعجيل بانهياره ليقوم الهيكل اليهودي على أنقاضه!.

وهكذا لم ينقض يوم واحد على الشيخ الكبير دون إلحاحٍ صارخ على مواجهة الخطر، وإذا كان قد سَعِدَ بما أعقب نتائج حرب حزيران من الثورة والانتقام فإنها بالنسبة إليه كانت بمثابة أضواء تجتمع لتُنتج فجراً، أما الشروق الزاهر، فله يومه المقبل حين توجد العزيمة الصادقة، وتتوحد الكلمة، وتختفي الزعامات المتشنّجة التي تحارب بأصوات الميكروفون في الإذاعات وبأقلام المرتزقة في الصُحُف. وتلك مأساة فلسطين، بل مأساة العرب جميعاً! وقد قُدّر للفقيد الكبير أن ينعم بالراحة الأبدية

في ٤ يوليو سنة ١٩٧٤، تاركاً خلفه أعماله الحافزة، وآراءه المُلهِمـة لتكون نبـراساً يُضيء.

علي يوسف
صاحب المؤيّد وفارس القلم

تعرّض الدكتور عبد اللطيف حمزة في الجزء الرابع من كتابه (أدب المقالة الصحفية في مصر) إلى موازنة سياسية بين الزعيم مصطفى كامل رئيس الحزب الوطني ومحرّر اللواء، والزعيم علي يوسف رئيس حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية ومحرّر المؤيّد فقال في ص ١٥٣ :

«هذا هو الزعيم الشاب مصطفى كامل يثير الخواطر، ويهيج المشاعر، ويقذف في وجوه الإنجليز بين حين وحين بكلماته القوارص، ويكسب إلى جانبه الرأي العامّ في مصر، بل الرأي العامّ في أوروبا كلها إلى جانبه.

وهذا هو الزعيم الآخر السيد علي يوسف يعمد إلى هذه القضايا السياسية التي يخلقها الاحتلال فيبسطها لقرّائه في المؤيّد، ويأخذ في مناقشتها تارةً، وتحليلها تارةً، ويبني برهانه على طائفة من الدلائل المحسوسة والقرائن الملموسة، والحِجج العقلية والمنطقية التي لا تقبل الردّ، ولا تحتمل الإنكار.

بهذه الطريقة وتلك طفق زعيما مصر في ذلك الوقت يعالجان المسائل الهامّة، والقضايا التي تشغل بال الرأي العامّ هذا بعنفه وشدّته، وذاك بعقله ورويّته، حتى لكأن أحدهما وهو مصطفى كامل قلب مصر النابض، وكأن الثاني وهو علي يوسف عقلها المفكّر، وليس للأمة غِنىً بأحدهما عن الآخر».

هذه موازنة صادقة بين زعيمين اشتهر أحدهما شُهرةً طبّقت المشرق والمغرب، وخَفَتَ صدى الآخر حتى ما يكاد يسمع به أحد، وهو في مكانته الصحافية ومنزلته السياسية لا يقلّ شأناً عن صاحبه، فبماذا ـ ليت شعري ـ نعلّل هذا الجحود.

لقد كان من حظّ مصطفى كامل أن يترك تلاميذ تشيد بفضله السياسي، وهو فضل غير منكور، فكثرت المؤلّفات عنه، ودُبّجت القصائد والخُطَب والمقالات في تأبينه، وكان من قدر علي يوسف أن يبقى وحده في الميدان، بعد أن اعتزل عمله في المؤيّد فيتفرّق حواريّوه، ثم يحين يومه فتبكيه الأقلام حيناً من الدّهر، ويعفى على أثره النسيان فلا يكاد يذكره أحد!.

إنها لعجيبة العجائب في دنيا الجحود أن يُهْجَر حديث زعيمٍ جليل الخطر!! ولم يكُ ذلك الهجر سهواً غير مقصود، ولكنه يقع عن عمد، إذ لا يرحّب مؤلّفو التاريخ ومُزَوِّقوه ومزخرفوه بأن يبسطو الحديث عن شيخ أزهري يدافع عن دينه في صحيفةٍ رنّانة كانت أُولى الصُّحف المصرية في عهدها على الإطلاق، إنما يكون الترحيب بذوي النباهة ممّن يجذبون الأنظار في شتّى المناسبات! فليت شعري كيف يهمل علي يوسف صاحب المؤيّد، ويذكر فارس نمر صاحب المقطّم، والأول لسان مصر، والثاني لسان الاحتلال!.

وقد يظن قارىء هذا الجيل، ممّن لم يقفوا على تاريخ الأمس، أن الدكتور عبد اللطيف حمزة قد بالغ بعض الشيء حين عقد الموازنة الصادقة بين علي يوسف ومصطفى كامل، ولكن عبد اللطيف حمزة رحمه الله ليس وحده هو الذي تحدّث عن منزلة صاحب المؤيّد، إنما تحدّث عنه أعلام الفكر والسياسة في عصره بمثل ما تحدّث به الدكتور عبد اللطيف حمزة، ولا بدّ في هذا المجال من عدّة استشهادات تؤكّد مكانة الزعيم الكبير، لتتضافر الآراء المجمعة على فضله متساندة متماسكة، وهي بوضوحها الساطع لا تحتاج إلى تعقيب.

يقول ـ أولاً ـ المفكّر القانوني الضليع أحمد فتحي زغلول باشا[1]:

---

(١) من خطبة فتحي زغلول في تأبين علي يوسف بمجموعة الآثار الفتحية.

«ما عرِفْتُ الإقـدام أنفذَ في قلب الـزمان مثلمـا عرفتـه في علي يوسف، ولا أدركت بالحسّ إلى أيّ شأوٍ تبلغ الهمّة بصاحبها مثلما شهدت ذلك فيه.

رجل رَمَت به الأيـام في معترك الحيـاة، وهو وحيـد، والجوّ أقتم، وظلمـات الحوادث تتكاثف على الأمة، والله يعلم كيف تتكشّف تلك الغمّة، ساورتْه الشدائد وهو في مؤيّده، وشبّ بنفسه واختطّ في الحياة طريقةً بذاته، لا مُعينَ لـه من طارِفٍ أو تليـد، ولا ناصـر له من أبٍ أو قـريب أو نسيب، ولو أنـه كان من أولئـك الـذين يطويهم الزمان في ثناياه لما اجتمعنا اليوم لتأبينه، لكنـه كان رجـلاً استَعْصَت نفسه الكبيرة على الزمـان فقهرتـه، وكبرت هِمّتـه على الحوادث، فـأخضعها، واستقبـل الشدائد بعزمٍ وثبات يخدمها فكر صحيح ونظر ثاقب.

رامَ الصحافة فكان شيخها، وتطلّع إلى مُجالسة الملوك والأمراء فتربّع فيهـا، واشتاقت نفسه إلى العالي فاغترف منها ما اشتهى، لكنه ما اكتفى، وما كان ليكتفي وله هذه النفس التوّاقة إلى نَيْل ما لم ينل أحد من قبل.

هل سمعتُم أن الأحساب عرض يُكتَسَب؟ هل علمتم أن الشؤون الذاتية ممـا يـطمع فيـه أحد، مـا علمنا ولا سمعنـا، ولكنها قـوة الإرادة تعلو على الأحسـاب، ورأينا صدق النيّة يتخطّى الأنساب، فتعلّمنا ما كنّا نسمعه من الحكماء من أنّ مـراد النفس أكبر منها على الدوام، وأن قدرة الإنسان في الوجود لا حدّ لها».

هذا بعض ما قاله أحمد فتحي زغلول مُصوِّراً بعض مـا قاسى هـذا العصامي النّابغة من مصاعب مرهقة تقف سدّاً منيعـاً أمام نـاشىءٍ أزهريٍّ لا يملك من أدوات الكفاح غير إرادتـه الحازمـة، وفكره المتـوثّب، وقلمه الصـوّال، وقد استـطاع بهذه المواهب أن يقود الرأي العامّ في مصر بما يكتب يوميّاً في صفحـات المؤيّد، وقـد كان نفاذُ بيانه وسطوة حجّته من السطوع، بحيث هيّأ الاحتـلال نفراً من الـوصوليين ليناوئوه يـوميّاً فيمـا يُصـدرون من صُحُفٍ يـرعـاهـا لـوردكـرومـر، ويمـدّهـا بشتّى المساعدات.

فهـو مُحاطٌ بشتّى العـداوات، لأنه من نـاحية الاحتـلال خصمه الألـدّ، ومن ناحية الشّباب الوطني كان كما قال الأستاذ عبـد العزيـز البشريّ عنـه[1]: معتدلاً لا يـرى العنف سبيلاً إلى استـرداد حقوق البـلاد، بل إن هـذا العنف مما يُـرديهـا في أخطارٍ لم تكن لها في الحساب. وكان طوعاً لهـذا لا يرى أن يتحـدّث في الشؤون العامّة غير الشيوخ المجرّبين، وهذا وهذا مما لا يُرضي الشباب المشتعـل حماسـةً لحق الوطن، ولا تَنْسَ أن العامّة من وراء هؤلاء.

هذا بعض ما قـاله الأستـاذ البشريّ عن دقّـة موقف علي يـوسف، ولكنه مـع ذلك أوضح تأثيره الخـارق في النفوس حين تتـأزّم أحداث السيـاسة بمصـر والعالم الإسـلامي، أوضح الأستـاذ البشري هـذا التأثيـر الجبّار في قـوله عن الشيـخ علي يوسف:

«ومع هذا كله ففي يوم الجُلّى، يوم تحدث الأحداث القومية، ينفض النـاس قلوبهم حتى يتسـاقط عنها كـلُّ ما علق بهـا من الحقـد على الشيـخ علي يـوسف، ويُتْلِعون أعناقهم نحو المؤيّد، شاخصةً أبصارهم مرهفـةً آذانهم، معلّقةً في انتـظار ما يقول الشيـخ أنفاسُهم، فـإذا النمر الجبّـار يثبُ على فريستـه من عدوان العـادين وثبته، فلا يزال يوسعها تمزيقاً بمخلبه، وضغماً بأنيابه، حتى مـا يدعهـا إلاّ عظامـاً وجلوداً».

والقـارىء يتنقّل فيمـا سقنـاه من أقـوال عبـد اللطيف حمـزة، وأحمـد فتحي زغلول، وعبـد العزيـز البشري متسـائلاً: كيف يجـوز في منطق أصحـاب الـدراسـات الصحـافية أن يُغفَـل تاريـخ هذا الـرجل، بـل كيف يجوز في منـطق مؤرّخي هـذه الحقبة من تاريخ مصر أن يُتَجاهل مـوضع زعيمٍ خـطيرٍ مثله، لـه حزبـه السياسي، وصحيفته الرنّانة، وقلمه الصّوّال؟.

لقد نشر الخديوي عباس حلمي مذكّراته السياسية متحدّثاً عن قـادة مصر في عهـده من الـزعمـاء والـوزراء والكُتّـاب، وعن رؤوس الاحتـلال الإنجليـزي ممّن

---

(١) المختار، للبشري، جـ ١، ص ٢٥٥، ط ٢.

يجثمون على إدارة الأمور في مصر، وكان لا بدّ أن يتحدّث عن علي يوسف، لأن صاحب المؤيّد قد سَالَمَ الخديوي وآزره في وجه المعتمد البريطاني، بل إنه جمع القلوب حوله حيناً من الدهر، باعتباره الحاكم الشرعي الصامد أمام كرومر، أجل، لقد تحدّث عن علي يوسف حديثاً مُنصِفاً لا يجنح إلى التزيّد أو الانتقاص، بل يضعه الموضع الصحيح كما يراه من زاويته الخاصّة.

وبمقارنة ما كتبه الخديوي عباس بما سطّره مؤرِّخو علي يوسف نجد أن أوجه الاتّفاق تتعدّد وتتكاثر بحيث تقبع نقاط الخلاف في حيّز ضئيل، ولعلّنا نجد المجال يحتّم علينا في نطاق هذه الشهادات التاريخية الخاصّة بعلي يوسف أن نُلحِقها ببعض ما قال عباس الثاني عن صاحبه حين نشر مذكّراته السياسية بجريدة المصري، فذكر عنه أنه كان يبدو أحياناً بمظهر المُدافع عن الإسلام أكثر مما يبدو بمظهر المحرّك للشعور الوطني، وكان الغرض من ذلك أن تجتمع كلّ القوى المتشتّتة على فكرة عامّة، وكان الغرض من ذلك أيضاً خلق عاطفة التماسك والترابط عند الجماهير، وهي العاطفة التي لا يتمّ بدونها عمل.

وهكذا أفلح علي يوسف في بعث الإحساس في قلوب مواطنيه بشخصيتهم القومية، لفرط ما استمع إلى الحديث عن علاقات مصر، وعن ماضيها وحقوقها، ولفرط ما ناقش معاونيه الأعلام في السياسة العامّة وعلاقاتها بالموقف الراهن، وكان استحضاره للعصور الغابرة التي كان حُسْن الإلمام بها يُتيح له إيقاظ الذكريات المجيدة فيبعث في نفوس قرّائه الإيمان بالمستقبل.

والحق أن الشيخ علي يوسف لم يكن يوماً رجلاً تركيّاً، وإذا كان في بعض الأحيان قد أيّد الخليفة فإنه لم يكن يعني سلطان القسطنطينية، وإنما يعني زعيم الإسلام، فهو ذلك الرجل الذي قاد الرجال وأدرك معنى الأمة، ومعنى الإخلاص كان مصرياً قبل كل شيء، وقد نجح ـ أيّما كانت شخصيته وآراؤه ـ في أن يستميل الرأْيَ العامّ ويجمعه ويُعلِّمه التفكير»[1].

---

(١) من مذكّرات الخديوي عباس نقلاً عن كتاب (أدب المقالة الصحفية في مصر)، للدكتور عبد اللطيف حمزة، جـ ٤، ص ١٠٣.

هذه شذور مختارة مما كان الخديوي قد كتبه في مذكّراته، وإذا كانت من ناحية أُولى تدلّ على تأثير الرجل الكبير وقوة رسالته في أُمّته، فإنها من ناحية ثانية تدعو إلى نقاشٍ هادىء يوضّح وجهة نظر الخديوي في اتجاه علي يوسف، إذ حكم بأنه كان مصرياً قبل كل شيء، وهو حكم قد يدلّ على أن مصرية الرجل وحدها كانت هدفه الأول والأخير، والحقيقة أن الرجل كان داعيةً إسلامياً لكل بلاد الدين الحنيف، لأن مفهوم المصرية لا يتعارض مع مفهوم الإسلام في شيء.

كَلَّا، فمصرُ وطنٌ إسلاميٌّ صغيرٌ يندرج في وطن أكبر، هو الإسلام، واعتزاز علي يوسف بتركيا لكونها ممثّلة الإسلام لا لصلةٍ شخصية بالخليفة القائم بها، وكذلك اهتمامه بمُسلِمي الهند والصين واليابان وإيران والأفغان وأندونيسيا وتونس والجزائر ومراكش وليبيا وبلاد العرب والشام والعراق، لأن هموم هذه الدول جميعها قد وجدت متّسعاً فسيحاً على صفحات المؤيّد كما وجدت كُتَّاباً إسلاميين يتجهون هذا الاتجاه، وفي طليعتهم محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وعبد القادر المغربي وشكيب أرسلان وعبد الحميد الزهراوي ومحبّ الدين الخطيب، وهم جميعاً ثمار يانعة نضجت في دوحة جمال الدين الأفغاني!.

ولم تظهر حنكة علي يوسف السياسية على وجهها الرائع كما ظهرت في علاقته بالأستاذ الإمام محمد عبده مُقارنةً بعلاقته الصميمة مع الخديوي عباس، لأن صداقة صاحب المؤيّد للخديوي لم تكن صداقة التابع المتسقّط لرغبات صاحب الأمر، ولو كانت كذلك ما احتفلت المؤيّد بمقالات الأستاذ الإمام وشيعته في الرأْي، والعداوة بين المفتي والخديوي يومئذ سافِرة واضحة لا تعرف النقاب، ويُخَيّل إليّ أن الشيخ علي يوسف قد فكّر كثيراً في موقفه الشائك، فرأى من ناحية أولى أن الإمام الكبير عالِمُ العصر، ومفتي الإسلام، ورافع راية الاجتهاد، وله صيحاته المدويّة التي تُوقِظ النائمين، مما أرّقت ذوي الأغراض من محاربي الإصلاح، كما أنه من ناحية ثانية يدرك أن المؤيّد يخدم الخديوي حين يُثني على محامِده، ولن يكون للمؤيد صوته المسموع إذا خسر الأقلام النابِهَة التي يتقدّمها قلم الأستاذ الإمام.

وقد روى الأستاذ السيد محمد رشيد في تاريخ الإمام ما ينطق بأن علي يوسف اتخذ لنفسه موقفاً وسطاً بين الخديوي عباس ومحمد عبده، فظلّ وفيّاً للإمام مُوالياً له ولرجال حزبه من أمثال حسن عاصم وسعد زغلول، وكان يخبرهم بجميع أسرار الخديوي وما لا يرْضى من أعماله ويستشيرهم فيها وذلك ـ كما يقول السيد رشيد[1] رضا ـ ليقينه أنه لا يصل إلى سموّه شيء من مكاشفته لخصومه، إذ كان في صميم مشاعره يحاول التوفيق بين الفريقين قدر المستطاع، وهو في ذلك أشدّ حزماً من مصطفى كامل، حين كان يجاهر في معاداته لمحمد عبده حتى إنه خالفه في تفسير بعض الآيات القرآنية.

وإذا كان لمصطفى كامل رحمه الله أن يخالف الإمام في مَنحاه السياسي، فما أظن في مقدرة مثله أن يصحّح للإمام آراءه في تفسير بعض آيات الكتاب، ولا أعني بذلك أن محمد عبده مُنَزَّهٌ عن الخطأ في التأويل، ولكن أقول إنه أستاذٌ في منحاه، ولن يعارضه غير مَن درس وقرأ وتعمّق واجتهد حتى ارتقى في التفسير مُرتقاه.

هذا وقد كان الإمام يكتب في الصفحة الأولى من المؤيّد مقالات لا يوقّعها باسمه الصريح، وكانت الجريدة تعلن أنه بقلم حكيم كبير من حكماء الإسلام، وقد ثارت شُهرَة المؤيّد بما نشر للشيخ محمد عبده من مقالاتٍ نقديّة للمسيو هانوتو وزير الخارجية الفرنسية حين هاجم الإسلام هجوماً ضارياً يتجرّأ على إنكار الحقائق وترويج الأراجيف، فانبرى الإمام على صفحات المؤيّد يفنّد كلّ ما ألصقه هانوتو من أراجيف لا تجد لها سنداً صحيحاً في عالم البحث النّزيه.

وقد وصلت أعداد المؤيّد إلى هانوتو، وعقّب على ردّ الإمام بما يدلّ على أنه وقع في حيرة من أمره، واضطرّ المؤيّد إلى أن يُفرِد مقالات هانوتو مشفوعةً بردود الإمام في كتابٍ خاصٍّ تتناقله الأيدي، إذ كثر الطلب الخاصّ بأعداد المؤيّد التي نشرت مقالات الإمام مع أنها نفدت ليومها دون أن تغطّي مساحة القرّاء في شتّى ممالك الإسلام، فلا سبيل إذن غير الغوث بكتابٍ جامعٍ يروي الغليل.

---

(١) تاريخ الإمام، جـ ١، ص ٢١٢.

وإذا كانت بعض الجرائد قد اتجهت إلى مهاجمة الإمام بتشجيع الخديوي فإن صاحب المؤيّد لم يسمح لنفسه أن يهويَ إلى هذا المنحدر، مع شدّة الإلحاح عليه منطقياً، إذ كان للرجل استقلاله القوي الذي يحميه من التهافت أمام الإغراء وأقول مع شدّة الإلحاح عليه منطقياً، لأن كل الدلائل تنطق بأن الخديوي الذي سخّر الغرباء عنه في تشويه مكانة الإمام لا بدّ أنه بذل قُصارى ما يستطيع ليحمل صديقه على ما اعتزم من حرب الإمام، فما وجد أُذُناً تسمع! وللمؤيّد صوته بين الناس فليحرص عليه دون عناء.

على أن الصحافة المُعادية للمؤيّد لم تترك لعلي يوسف مدىً للراحة الهنيئة، بل طفقت تهاجمه بلواذع الهجاء ولم يكن لأكثر القائمين بالكتابة حينئذ قانون خلقيّ يمنع التخرّص والانحدار، بل كان الإيغال في التوقّح مبعث الفوز والغلبة لدى قوم لا يرتفعون إلى مستوى الشرفاء.

وقد صبر الرجل طويلاً عمّا قيل عن رقّة حاله في مبدئه، وعن ضآلة ثقافته الأزهرية، وكِلا المأخذين طائشٌ لا يبلغ شيئاً من مُراد أعدائه، لأن رقّة حال الطالب الأزهري الناشىء بإحدى قرى الصعيد، هي مدعاة فخرٍ لكلّ عصامي اعتمد على نفسه حتى قهر الصِّعاب متسلّحاً بالعزيمة القادرة، والإرادة الحاكمة، ولو كان الفقرُ عيباً يُؤاخذ به الفقير لكان أنبياء الله موضعاً لهذا العيب، مع أن الفقر هو الذي صهرهم في أزِمَّتِهِ حتى كوّنهم رجالاً يكافحون الأهوال.

أما ضآلة الثقافة الأزهرية، فإذا كان كالمراد بها قراءة ما تُعُورِفَ من حواشي العلوم في البلاغة والمنطق والأصول، فكثيرٌ من زملاء الشيخ قد بلغوا الحدّ الأعلى في هذه القراءة دون أن يقودوا زمام الرأي العام بما ينشرون من آثار، أما إذا كان المراد بالثقافة الأزهرية ثقافة الإسلام التي تفهم مبادئه الخلقية وتعاليمه الإنسانية، فقد أظهرت آثار علي يوسف أنه على خطٍّ عظيم من هذه الثقافة، وليست قلّة السنوات في الانتساب إلى الأزهر، بمانعةٍ من تحصيل المعارف الصحيحة، والأقوال المأثورة في كتب التراث.

ونحن نعرف من أرباب الثقافة الإسلامية مَن لم يتصلوا بالأزهر يوماً، وقد قرؤوا كتب الأزهر، وتعلّموا على أيدي علمائه فأصبحوا من أعلام الإسلام، وما محمد فريد وجدي ومصطفى صادق الرافعي ومحمد أحمد الغمراوي وعباس محمود العقّاد إلّا طلبة مخلصون في حقل الدراسة الإسلامية، نطقت مؤلّفاتهم بعلمهم المحيط، واتجاههم السديد. أفيكون علي يوسف بعيداً عن هذه الثقافة لأنه لم يمكث في الأزهر حتى ينال أرقى شهاداته، وقد كان المنفلوطي والزيّات وسعد وغيرهم من أقطاب البيان ولم يواصلوا التعليم الأزهري لآخر غايته؟.

لقد أحسّ علي يوسف بموهبته الأدبية وهو طالب يافع لم يبلغ العشرين، إذ نظم ديواناً شعرياً يحمل بواكير أدبه سمّاه نسمات السَّحَر، ونكلّفه شططاً حين نطلب منه أن يُبدع في هذا المضمار كما أبدع البارودي وصبري وشوقي ومطران من شعراء عصره، لأن الرجل لم يُخلَق شاعراً، وإنما حاول مجتهداً حتى إذا لمس قصوره الفنّي في هذا الميدان اتجه إلى النثر، وكان ذا طموح وثّاب فلم يكتفِ بالمقالات الأدبية التي كان ينشرها في مجلة (القاهرة الحرّة) بل سَمَتْ به هِمّته إلى أن يُصدِر صحيفة (الآداب) في سنّ الخامسة والعشرين مشتركاً مع صديقه أحمد ماضي حيث كان ذا ثَراءٍ عاونه على إصدار المجلة!.

ولك أن تعجب للنّاشر الناشىء حين تجده في باكورة عمله الصحفي يخوض معارك فكرية تنحو منحى الإصلاح التعليمي والأدبي، فخصّ التربية والتعليم بمقالاتٍ متتابعة تصوّر ضرورة الاهتمام بتعليم النشْء على أحدث أساليب التربية الحديثة في أوروبا، مُنادياً بضرورة التوسّع في التعليم الشامل المستوعب لا أن نكتفي ببعض القشور التي تهيّىء للوظيفة الحكومية المتواضعة كما يريد كرومر.

أما معركة اللغة الفصحى فقد كانت صفحات مجلّة الآداب ميداناً للدعوة إليها، حيث وُجِدَ من أدوات الاستعمار مَن يدعو للعامّيّة كي تحلّ مكانها، وقد تكون هذه القضية مما ذاع لدينا الآن بعد أن كُتِبَت البحوث الخاصّة بتتبّع مسارها التاريخي، ولكنّ ثبات علي يوسف ونظرائه في وجه العاصفة بما يملكون من أدلّةٍ فكرية، وما يفضحون من نيّات مستترة، قد كان عامِلاً حاسماً في إخفاق مَن يدعون

إلى العاميّة كي يقطعوا أواصر الأخوّة بين الناطقين بالضاد في الدول العربية، ومن وراء ذلك التنكّر لحضارة العرب وثقافة الإسلام.

ومن هنا كانت مجلّة الآداب من أوائل الصُّحُف التي واجهت الحضارة الأوروبية لتبيّن جانبيها المختلفين، الجانب المادّي والجانب الفكري، أما الجانب المادّي المتمثّل في الارتقاء الصناعي والاكتشاف العلمي فلا يوجد مَن يدعو إلى مُجانبته، وأما الجانب الفكري فلا بدّ أن يُمزَج بما لدينا من تراث مُماثل حتى تقوم ثقافتنا على أصولها الممتدة في صُحُف التراث مضافاً إليها ما لا يتعارض معها في الاتجاه... وإذا نجحت مجلة الآداب في إثارة هذه المنازع فقد وُفّقت إلى حدٍّ بعيد.

- ٢ -

كانت صحيفة المؤيّد صحيفة رأي لا صحيفة خبر، بمعنى أن صولتها القوية في مصر والعالم الإسلامي ترجع أول ما ترجع إلى ما يُنشَر فيها من المقالات التوجيهية في الشؤون المعاصرة شرقاً وغرباً، ولها كُتّابها المرموقون في عالم الفكر، يُعرَفون بهدوئهم المتّزن، وعمقهم النفّاذ، وسعة محيطهم الثقافي، وفي طليعتهم صاحب المؤيّد علي يوسف، فقد رُزِقَ من سرعة البديهة، وصواب النظرة، وهدوء النفس ما جعل مقاله موضع العجب والإعجاب.

وقد ظنّ بعض مُنافِسيه بدءاً أن غيره من ذوي الثقافة الأوروبية يكتب له ما يطالع به القرّاء، حتى ذهب بعضهم إلى المطبعة ليقرأ المسودّات متأكّداً من أنها بقلم صاحب المؤيّد لا بخطّ سواه، وهو ظنٌّ أدّى إليه ما يجدونه من الإلمام بالتيارات السياسية الدولية، والقوانين الدّستورية المعاصرة على نحوٍ يُستغرب من صاحب ثقافة عربية خالصة، والحق أن ذكاء الرجل وسِعَة حيلته، وجودته في انتقاء ما يقرأ من شؤون السياسة والتاريخ والاجتماع قد رشّحه للزّعامة الصحافية في عصره، وهو بعد صديقٌ دائم لعلية المفكّرين في مصر يجتمعون به في ندوة المؤيّد يومياً، وفيهم سعد زغلول وحسن عاصم وفتحي زغلول وقاسم أمين وإبراهيم الهلباوي وإبراهيم اللقاني ومحمد مسعود وغيرهم من أرباب النظر المحيط، وطبيعيٌّ أن تكون أحاديثهم المتّصلة مصدر نفعٍ لهم جميعاً.

أضف إلى ذلـك كله تفوّق المؤيّـد على غيره من الصُّحُف المعـاصـرة لـدى أصحاب الوعي الحصيف، فاللواء جريدةٌ وطنية مخلصة ثائرة، ولكن ارتفاع نبـرتها الحماسية يدفعها إلى التأثّر بالانفعالات الشديدة دون تريّث فتصبح مقـالاتها أقـرب إلى الهتاف منها إلى الإقناع، والجريدة التي يقوم عليها الأستاذ أحمد لطفي السيـد تُسـالِمُ الإنجليز وتتجـه إلى الإصلاح الـداخلي وحده كمـا يراه أصحـاب العقارات ورؤساء العائلات المُثرية، والأهرام تُساير كثيـراً فإذا عـارضت فنوعٌ من العتـاب لا يرتفع إلى مستوى الحساب.

أمـا المؤيّد فقـد تجنّب انفعال اللواء، وتغـاضي الجريـدة، ودهاء الأهـرام، ليعلن كلمة الحق في هدوءٍ عاقل، يسنده في ذلك منـطق دقيق، ووعي ثابت. ولم أذكـر جريـدة المقـطّم فيمـا ذكـرت من الصُّحُف اليـوميـة، لأنهـا لسـان الاحتـلال الصارخ، تُكتَب بحروف عربية لتخدم استعماراً إنجليزياً، فهي ساقطة بكـل الموازين.

أدرك علي يوسف خطر جـريدتـه، كما أدرك خـطر مكانتـه، فكانت مقـالاته الهادئة موضع حيرة شديدة لقصر الـروبارة وقـد اقترح أعـوان كرومـر عليه بضـرورة مُصادرتها، فذكر أنه لا يستطيع ذلك دون جريمة حقيقيـة لا ملفّقة، فـإذا عثر أحـد هؤلاء على جريمة صادقة تُنسَب إلى صاحب المؤيّد، فقد جاءت الفرصة المؤاتية، وكرومر على شُـروره المتصلة أكرم نفسـاً من قوم يلفّقـون الأراجيف ليشوّهـوا كِرام الصُّحُف، وأطهار الرجال، فليتهم يرجعون إلى الصّراط القويم.

إن تاريخ مصر الحقيقي لعهد المؤيّد يستمد مصادره الأولى من مقالات علي يوسف في صدر المؤيّـد، حيث لم يترك الشيـخ علي حَدَثـاً سياسيـاً هامّـاً دون أن يسلّط عليـه مِجهَر نقـده الدقيق، محيـطاً بجميع النـواحي إحاطـة مَن يصرف وقتـه الأطول في التفكير المتّصل، حتى تجيـىء ساعة التحرير فتكون حقـائق الموضـوع من الوضوح بحيث يدعو بعضها بعضاً دون انقـطاع، وقد قـال مؤرّخو علي يـوسف إنه كان يكتب المقال في ندوة المؤيّد وأصحابه من حوله يسامرونه، فإذا كان الأمـر كذلك في بعض هذه المقالات فإن توفيقه الفكري لم يجيء بهذه السهولـة، ولكنه نتيجة تأمّل سابق امتد عدّة ساعات!.

لنأخذ مثلاً قضية التعصّب الديني التي ردّدها اللورد كرومر قبل حادث دنشواي وبعده ليبرّر سياسته الجائرة في هضم الحقوق الدستورية للأمة المصرية، معتمداً على افتعالات موهومة هو أول مَن يعلم اختلاقها، فقد فنّد علي يوسف مزاعم الاحتلال في كلمات متتالية فأعلن أن في مصر من قديم الزمان أدياناً يتجاور أهلوها في المنازل ويتشاركون في المرافق ويتنافسون في الأعمال، فلم تكن بين الأقباط والمسلمين هذه الروح الشرّيرة، ولو كانت في فِطرة المسلمين لَلاَشَتِ الأكثرية الأقلية في عصورٍ مضت، سادت فيها الجهالة، ولكن منطق التاريخ يدلّ على روح التفاهم السائدة بين الفريقين، ثم ضرب الكاتب بعض الأمثلة فقال[1]:

«وفد على القطر المصري منذ أول عهد المرحوم محمد علي باشا الكبير وفودٌ من كلّ الطوائف المسيحية غربية وشرقية من أرمن وأروام وسوريين وفرنساويين وطليان وإنجليز وأمريكان، من بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس وغير ذلك من علماء وتجّار وصنّاع وعَمَلَة وهَمَل متشرّدين فلقي الجميع في مصر صدراً رحيباً، كان منهم الموظفون في كلّ مصلحة، حتى تولّى نوبار باشا وهو أرمني فوق كونه مسيحياً رئاسة النظّار في مصر، وكان قائمقام الخديوي ورئيس الاحتفالات بموكب المحمل الشريف، فهل يوجد في أمّة غير الأمة المصرية المسلمة مثل هذا التساهل، فيرأس فيها احتفالاً دينياً رجل مسلم في دولة غير مسلمة، كما كان من علمائهم الأساتذة والمعلّمون ونظّار المدارس والمكتشفون.

فهل الأمة التي تربّي أبناءها على أيدي الأساتذة من غير دينها، وهل الأمة التي توجد فيها مدارس الجزويت والفرير والمُرسَلين الأمريكان دُعاةً للدين في مدارسهم تُعَدّ متعصّبة، وكان التجّار منهم على ما يحبّون من الرحب والسّعة وحُسْن القبول، فضربوا في البلاد بمتاجرهم من غثٍّ وسمين، وجيّد ورديء، وخالص ومغشوش حتى صارت مصر من أوسع أسواق التجارة الأوروبية! فهل في ذلك تعصّب؟».

---

(١) ننقل هذه النصوص جميعها من كتاب (مقالات قصر الدوبارة) وهو يضمّ مجموعة من مقالات علي يوسف بالمؤيّد، جُمِعَت في جزء خاصّ.

وفي مقالٍ آخر نقـل أقوال الكبـار ـ من ساكِنِي مصـر غير المسلمين ـ الـدّالّة على روح المساواة التامّة بين العنصرين، ليقول بعد هذه الشهادات الصريحة:

«إن اللورد كـرومر يـأبَى رغم ذلك إلاّ أن يكـون التعصّب مـوجـوداً، فـأوهم الأوروبيين أنه لا يقدر أن يفتح شارعاً في مدينـة، أو يشقّ ترعـةً في أرض، أو يبني قنـطرة على مجرى مـاء إلاّ إذا كان حـول رجـالـه الجيش الإنجليـزي، ولـذلـك طلب زيـادة أُجُورهم؛ لأن المصـري متعصّبٌ فتّاك لا يجـد حَرَجـاً في نهب جيرانـه وقتلهم، لولا الحرّاس من الجنود البريطانيين، والناس يعلمـون أن هؤلاء لا عمل لهم إلاّ أن ينـاموا نهـاراً وينطلقـوا للعربـدة في الحانـات والشوارع على حـالةٍ منكـرة يعـرفهـا الجميع!!.

وبهذا المنطق المدعم بحقائق التـاريخ ومشـاهد الحـاضر يخطّ علي يـوسف حججه الدامغـة، وقد كـان الاحتلال يُكثِـر من اتخاذ الشبّـان من الإنجليز مـوظفين يـديرون الشؤون الكبـرى في الـوزارات المختلفـة، على حـداثـة أعمـارهم، وقلّة تجـاربهم مُـوهِمـاً النـاس أن المصـريين لا يصلحـون لإدارة الأعمـال، ولكن علي يوسف يوالي المقالات الافتتاحية في نقض هذا المزعم الطائش، فيرى خطأ كرومر في ادّعائه تحجّر العقل المصري وعدم كفاءته للمَهام الرئيسة، والأمة المصرية أكبر من أن يُحكَم عليها بمثل هذا اللغو، لأن الكفاءة إنما يحكم عليهـا بعد الاختبـار، وبقدر ما قام به المختبر من الأعمال.

فلو فُـرِضَ أن اللورد جعل مصـالح الحكـومة المصـريـة مـدارس للمـوظفين ينتقلون في درجاتها من رتبة إلى رتبة، ثم كشف الامتحـان عن فشلهم لما جـاز له مع ذلك أن يحكم بإخفاقهم، فقد يكون العيب في النظم الإدارية لا في المنفّـذين لهـا، فكيف إذا كان قـد أقصى المصريين عن العمـل، ثم حكم عليهم بالإخفـاق تعسّفاً دون استدلال.

إن الغرض من ذلك كله هو إبعاد كـل مصري عن الـوظائف العـالية ليحتلّهـا الإنجليز، فكلما وُجِدَت وظيفة ذات مسؤولية خُصّ بها الإنجليزي وضُوعِفَ مـرتّبها لتكـون لائقةً لـه من كل وجـه، وقد اطّـردت هذه السيـاسة في جميـع المصالـح،

وزحف شبّان الإنجليز إلى الوظائف الصغرى أيضاً بعد أن ملؤوا الوظـائف الكبيرة، وأُبعِد المصريون عن العمل لأنهم في منطق اللورد غير أكفّاء! دون تجربةٍ تؤيّد هذا المزعم الجريء.

وفي مقال آخر يلجأ علي يوسف إلى الهدوء العاقل ليصل إلى مـا يريـد دون مجابهة غاضبة، فيقول إنه لا يسوق التّهم جزافاً، ولكنه يعلن أن الذين يتولّون إدارة البـلاد الآن من الإنجليز تنقصهم تجـارب كثيرة، وخبـرة كبيرة بـأحوال البـلاد حتى يكونوا مُصلِحين، ولا يمكن أن يكون كرومر وحده عـامِلاً بـذاته في كـل مصلحة، لأن المراقبة العامّة تشغله عن المراقبة الخاصّة، فإذا حدثت أمـام هؤلاء حادثـة غير منتظمة حالت قلّة التجارب بينهم وبين تكييفهـا بحقيقتها، فـأعطوهـا غير حكمهـا، وبنوا على حدوثها تغييراً وتبديلاً في الإدارة يبعـدان بها عن الصـواب، وكلّما سـأل جناب اللورد واحداً من هؤلاء الأعيان أجابه بالرأي الفطير، فاتخذ قوله حجة وأمـره بما يضرّ ولا يفيـد. وهذا هـو سبب الاختباط الحـاصل في إدارة البـلاد، وسبب ما يحدث من الأخطاء الخطيرة يوماً بعد يوم!.

أما قيام الحياة النيابيـة، وهي أهم مسألـة سياسيـة اتفقت على وجوبهـا أقلام الكُتّاب الأحرار، وعارضها كرومر بحجج جعل يردّدها في تقريراتـه السنويـة مُدّعيـاً عدم تأهّل الشرقيين بعامّة للحكم النيابي!.

هذه المسألة كانت جريدة المؤيّد مسرحاً دائماً لنقاشها والدعوة إليها، وكانت تنشر الرأي المُعارض لتعقّب عليه بما يبطل وجهتـه، وإذا شارك صفـوة الكُتّاب في الدعوة إلى الحياة النيابية فإن قلم علي يوسف كان أعلى صليلاً في الميدان، حيث واجه المعتمد البريطاني بحقائق تاريخيـة لم يكن يرغب في ذيـوعها حين ادّعى أن الحكم النيابي غريب عن المسلمين، فقال صاحب المؤيّـد إن ذلك خـطأ محض، لأن الشورى من أهم الأركان في السياسة الإسـلامية، وقـد عُرِفت لـدى المسلمين قبل أن يعرفهـا الدستـور الإنكليزي، ونـاهيك بنـظام لا يُعيّن فيه الخليفـة العامّ إلاّ بالبيعة العامّة، فمصر تطلب في هذا العصر ما وضع الإسـلام أساسـه منذ أكثـر من ألف وثلاثمائة عام.

أما كون مصر ليست أهلاً للدستور، فهذا جهل بتاريخها لأنها مُنِحَتْه قبل الاحتلال البريطاني، ولم يكن سبباً من أسباب الثورة، بل ربما كان المانع من الاضطراب لو جرى إلى غاية دون عائق، ثم إن الفرس والترنسفال واليونان وبلغاريا جميعها قد نعمت بالحكم النيابي، ومصر ليست أقلّ كفاءة من هذه الدول، ففيها الرجال الأكفاء، ولكن الاحتلال لا يعترف بهم إلاّ إذا احتاج إلى الاستشهاد بكفاءتهم في موقف يسند أغراضه الذاتية.

ثم إن إنجلترا قد وعدت بالدستور النيابي في أول احتلالها فما بالها ترجع عنه الآن، والمصريون هم المصريون، إن المستشارين الإنجليزيين في الوزارة المصرية في حيرةٍ من أمرهم، فهم لا يعرفون ما يصلح وما يضرّ، والحياة النيابية مجالٌ لتصحيح الأخطاء ورسم الصحيح من المناهج، أما الادّعاء بأن مصر إذا نالت حكومة نيابية فستلقي بنفسها في أحضان الدولة العليّة (تركيا) فهو ادّعاءٌ يُقصد به ذرّ الرماد في العيون، لأنه لا يوجد مصري واحد يفكّر في هذا الاتجاه، وما تطلب مصر حكومة نيابية إلاّ لتسير في طريق الترقّي دون تخبّط.

هذه الحجج وأمثالها شذور مختارة من مقالات ممتدّة تبتدىء بالمقدمات الكاشفة يليها التحليل الجوهري عرضاً لمناحي الموضوع، ولا سبيل إلى أن ننقل مقالاً برمّته لنبيّن منهج علي يوسف في كتابته، ولكننا نقول إن الرجل يعرض الحقائق مستنداً إلى خِبرة تاريخية ودراسة نفسية واجتماعية تُكسِب كلامه قوة الإقناع لدى الخاصّة والعامّة، ومقاله الشهير (السياسة الضعيفة العنيفة) مثل رائع للكتابة العميقة ذات البُعد الثاقب، وقد بدأه بمقدمة رائعة يقول فيها:

«يستغرب القرّاء أن نجمع بين هذين الوصفين (العنف والضعف) لموصوف واحد، لما يظهر من أن العنف يكون مع القوة، وهي لا توجد مع الضعف في شيء غير متعدّد، أما نحن فنقول: إن العنف قد يكون مظهراً كبيراً من مظاهر الضعف وخصوصاً في سياسة الأمّة وحكمها، كصفة الكبرياء للمتكبّر، فإنها لا تكون في الشخص إلاّ حينما يذهب شيء من فضائله، فيحلّ الكِبَر بهذا الفراغ ليكمل صاحبه علاءً بزعمه، وخذ الشراسة مثلاً في بعض الناس فإنها توجد حيثما

يعـوز المرء شيء من مـزايـا حُسْن النـظر، وضبط النفس، وسِعَـة الصـدر، فتحـلّ الشـراسة محلّه، ولـذلك تجـد أضيق الناس صـدراً مَن يسبّ غيره، وأقلّهم مقـدرة على الإقناع الخطابي مَن يصيح في وجه محدّثه ليحمله على قبول رأيه.

كـذلـك العنف والبـطش في حكم الأمم يحـلّ محـلّ حُسْن السيـاسـة وقـدر المسؤوليـة قدرهـا في كل عمـل، وقلّما تـرى سياسيـاً محنّكاً قـادراً على تصـريف الحوادث بالحُسنى والاستنتاج منها بقـدر ما تعـطيه مقـدّماتهـا إلّا كان عـادلاً حليماً بعيداً عن فِعال الظالمين».

ويمتد القول لـو تتبّعنا مـا قال علي يـوسف في شتّى الأزمات السيـاسية على قرابة ربع قرن، إذ له في كل يوم مقال نـاقد، أو تعقيب هـادف، أو حوار كـاشف، وهو في شتّى مناحيه لا يخرجُ عن هدوئه العاقل الـذي يجعله موضـع التقديـر مهما خُولِفَ، وسياسة الهدوء في الحـوار السياسي تغيظ الخصم وتـربكه، لأن الافتعـال الصاخب في النقاش يتـرك أثراً يـوحي بالخفّـة والتعجّل، كمـا يترك العنـان لألفاظ طائشة قد تقع موقع الاستنكار، أما العقل المتريّث فيستلّ كل موجدة لدى المُنصِف حتى ليكاد يُلقي السّلم عن طوع.

ولعلّ أكبر مثل لهذا الهدوء الحاسم مـا كتبه الشيـخ علي يوسف في منـاقشة خطاب الوداع الذي ألقاه كرومر في احتفال رحيله، حيث تورّط المعتمد البريـطاني في آراءٍ جـائرة يعتقـد صوابهـا، وزاد على ذلك فشكـر من الحاضـرين أُناسـاً دون أُناس، وكلهم سواء في مجاملته، ثم ارتفع بالأحـداث إلى عهد إسمـاعيل، فـذكر من الوقائـع ما آلم فـريقاً مِن مكـرّميه إيـلاماً مستتـراً في عبارات ظـاهرهـا الرحمـة وباطنها من قبله العذاب، وقد كتبت الجرائد المعاصرة نقداً للخطاب المـوجع، لم تسلك مسلك المنطق العاقل بل قادتها الحماسة الخطابية إلى ما يشبه الهجاء.

أما علي يوسف فقد تناول الخطاب فقرة فقرة في أدب مهذّب، ليبيِّن تضاربه الـواضح بين مـا قالـه اللورد من قبل ومـا أخذ يقـوله الآن، ثم ليكشف القنـاع عن قوارص سيقت لتغضب نفراً من المحتفلين، وكأنه بذلك يقـول لهم: ها أنتم أولاء قد احتفلتم بمَن لم يعبأ بمشاعركم في شيء، وأدهى من ذلك أن يتصدّر الاحتفـال

الأمير حسين كامل (السلطان حسين فيما بعد) ثم يتجاهله كرومر حين ينساه في مجال الشكر الذي أضفاه على فريق دون فريق، ولا يقف عند التجاهل، بل يوخزه بأطعن من السنان حين ينقد أباه إسماعيل وأخاه محمد توفيق وابن أخيه عباس حلمي! فماذا بقي إذن للأسرة العَلويَّة من مديح!.

وقد شاء علي يوسف أن يفسّر الكلمات الغامضة فيما أبهمه اللورد، ليقول للناس: إني لا أتزيّد بل أفسّر، كما شاء أن يفصح عن أسباب الإطراء الذي خصّ به مَن تملّقوا اللورد وحدهم، جاعلاً إياه هجاءً مقنّعاً إذا قيس بميزان الوطنية الصادقة الذي يجعل شأن مصر فوق كل شأن.

وأعظم ما وُفّق إليه علي يوسف في نقده الباتر لخطاب الوداع أنه اكتشف بين سطوره ما يُحرِج كرومر أمام الوزارة البريطانية بنفسها، وكأنه بذلك يصعّب مقدمه المنكفىء إلى إنجلترا باعتباره قد أخفق في سياسته، وقد عزل لهذا الإخفاق، لا أنه استقال لأسباب صحيّة كما حاول كرومر وحواريّوه أن يقولوا في تحدٍّ واستخفاف! وقد قامت مظاهرات التأييد في القاهرة إعجاباً بردّ علي يوسف، وتزاحمت على دار المؤيّد عشرات الوفود، ودوّت صيحات الهتاف، ولن يكون ذلك غير صدى رنّان لإعجاب شديد!.

أما ما كتبه علي يوسف بصدد حرية الصحافة التي شاء اللورد في آخر أيامه أن يطوّقها بقيوده، فهو أنفذ في لبابه من كلّ قول، لأن صاحب المؤيّد تساءل: كيف يبيح اللورد لأصحاب المقطّم وأضرابهم أن يسبّوا السلطان والدولة العثمانية صباح مساء دون أن يكونوا موضع ملامة، لأن الصحافة حرّة تقول ما تشاء، ثم لا تمتدّ هذه الحرية لجريدتي اللواء والمؤيد حين تنقدان السياسة الإنجليزية، وكأنهما جاءتا بموبقة آثمة تستدعي المصادرة، وتدفع إلى غياهب الاعتقال.

ونحن نعلم أن الشيخ علي يوسف قد ألّف حزباً سياسياً سمّاه (حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية) فكان زعيماً سياسياً يُقرَن بمصطفى كامل زعيم الحزب الوطني، ومحمود سليمان زعيم حزب الأمة، ولكن مجد علي يوسف لم يُتَح له من طريق زعامته بل من طريق جريدته، لأن هدوءه العاقل لم يجذب له من

الأنصار كما جذبت الحماسة الدافقة عند مصطفى كامل، ويخيّل إليّ أن الرجل لم يرد أن يكون زعيم جماهير قدر ما أراد أن يلفت إلى سياسة الإصلاح الدستوري عن طريق النقاش المنطقي الذي يحدّد الأهداف ويرسم الاتجاه.

لقد أصاب الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقّاد[1] حين وازَنَ بين علي يوسف ومصطفى كامل في اتجاههما السياسي موازنة دقيقة قال فيها:

«لقد كان لعلي يوسف ومصطفى كامل طريقتان مختلفتان في الكتابة الصحفية، وفي الخطة السياسية، وفي الدعوة الوطنية. ولقد فرّق النقّاد بين الطريقتين، فكان الفرق بينهما عند أناس، أن طريقة مصطفى كامل هي طريقة التطرّف والحماسة، وأن طريقة علي يوسف هي طريقة المحافظة والاعتدال، وكان الفرق بينهما عند أُناس، هو الفرق بين التعليم القديم والتعليم الحديث، أو هو الفرق بين الشباب والكهولة، أو الفرق بين الكاتب الحصيف والخطيب المنطلق، ولكن الواقع أن الفارق الوحيد الذي يحتوي جميع هذه الفروق، هو شعور العصامية في نفس الرجل الذي كان مثله الأعلى في الحياة أن يصل بحيلته واجتهاده إلى مكانة السيد الموقّر يرعى له السادة الوارثون كرامة الرأي وكرامته، وكان من حق هذه العصامية الناجحة عند علي يوسف أن يتكلم مع ذوي الاعتبار كما يتكلم ذوو الاعتبار ولا يخفّ به القلم خفّة الحديث المتعجّل، أو الحديث المُستثار».

كما قال العقّاد بصدد عصاميّة علي يوسف الصحافية:

«إن علي يوسف كان يصنع صناعته الصحفية ليتعلّمها الناس منه، ولم يكن يتعلم تلك الصناعة على أساتذتها في الشرق والغرب، ولا على أدواتها التي تُمليها عليه. كان يسمع ولا شك بالصحافة الأوروبية ويعرف منها بالسّماع أكبرها وأشهرها، ولكنه لم يعرف من صحافة الغرب صحيفةً واحدة لينهج نهجها، ولم يكن من غايته ولا طاقته أن يعرف (التايمس) أو (الطّان) ليحكي هذه أو تلك في

---

(١) رجال عرفتهم، للأستاذ العقّاد، (كتاب الهلال).

طبعها وتحريرها، كان عليه أن يرتجل صناعته الصحفيـة في كل شيء، في التقـاط الأخبار، وفي جمع الآراء، وفي تحرير المقالات، وفي سياسة الجمهور، وسيـاسة وُلاة الأمور».

وإذا كان علي يوسف قد صار زعيم الصحافة بجهدٍ شخصي لم يتلقّ أسبابـه عن أحد، فإن ذلك أكبر دالٍّ على خصوبةٍ فكريّةٍ ناضرةٍ، أدّت ثمارها الطيبة شهيّـةً لذيذةً فكانت موضع الحظوة والإقبال.

أحمد شفيع السيّد
الأديب الشاعر الرّاوية

- ١ -

طلب مني أخي الدكتور علي الخطيب أن أخصّ الأستاذ أحمد شفيع السيّد بحديث أدبيّ يكون حلقة في السلسلة التي أكتبها عن أعلام النهضة الفكرية المعاصرة، وعجيب أن أُطيل الحديث عن النابهين في أجزاء متوالية، ثم أسكت عن هذا الأديب الرّاوية، والناقد الشاعر، مع أني نَهَلْتُ من أدبه، وترعرعت في حديقته، ويعلم الله كم حاولت أن أكتب وأنشر، ولكني أجد ما أكتب عن الأستاذ أقلّ بكثيرٍ مما في نفسي، فأمزّق ما كتبت، وأُرجىء الحديث لمِيعادٍ قادم، ولكن إلى متى؟!.

لقد اختصّ الأستاذ بمِيزة فريدة بين زملائه وعارِفِيه، هي أنه كان موضع محبتهم الوثيقة جميعاً، فما تجد أستاذاً أو تلميذاً أو كائناً مَن كان ممّن عرف الرجل إلّا أعجب بفضله، وتدفّق في الثّناء عليه، وهذا الإجماع النادر ليس عفو المصادفة، ولكنه يرجع إلى ذخيرة ثمينة من الخلق الرفيع تحلّى بها الأستاذ الكبير، وقد جمعت بين لآلئها الساطعة، براءة النفس، وسخاء اليد، وسعة الأفق، وحلاوة الحديث، مع سَعْيٍ موصول في قضاء الحاجات، وتحقيق الرغبات لمَن ضاقت حِيَلهم من العاجزين.

فرأى الشيخ أن يبذل أقصى الجهود في تقريب أمانيهم البعيدة، وهي جهود متكرّرة متّصلة لا تكاد تنقطع في يوم! هذا مع سعة الصدر، وبشاشة الوجه، وكرم الإيثار، وجمال التواضع، وإذا كان للأستاذ مَن يماثله في الأدب والعلم، فأين مَن ماثله في مكارم الأخلاق. إلاّ النادر القليل.

لقد كان منزله الكريم ندوة أدبية دائمة تجمع تلاميذه الكثيرين، وتلاميذ الأمس غير تلاميذ اليوم، فقد كان طلبة كلية اللغة العربية لعهد الأستاذ، أدباء شعراء علماء، ومنهم صفوة مختارة يصطفيها الأستاذ كل عام من بين طلاّبه، ويؤثرهم بتسديده وتوجيهه، فكانوا يجتمعون في منزله، هذا يتلو قصة، وذاك ينشد قصيدة، أو يقرأ بحثاً، وأستاذنا من وراء ذلك يرسل نقده الصائب في تشجيع معتدل، ويحيي في نفوس أبنائه روحاً طمّاحة تهفو إلى المجد. وقد يفرض عليهم قراءة فصول معينة من أُمّهات التراث الأدبي، لتكون موضع النقاش، وأنا أذكر أنه دفعني إلى استيعاب فصول من كتاب زهر الآداب، وطالبني بحفظ كثيرٍ من أشعاره لأن الأستاذ كان راويةً ممتازاً، يروى أمامه البيت فيقرنه بعدّة أبيات قيلت في معناه على مرّ العصور.

وهكذا فَتَنَ الأستاذ طلاّبه بالرواية الشاملة، والحفظ الجيد، غير ما دفعهم إليه من النظم في موضوعات اجتماعية، أو خلجات ذِهنية، فإذا وجد قصيدة مرموقة حملها بنفسه للأستاذ الكبير محمد فريد وجدي لتنشر في مجلة الأزهر، ثم جعل يشيد بصاحبها في حُجُرات الدرس، وفي لقاءاته الفكرية مع الأدباء، في ندوة الشيخ إبراهيم حمروش، وفي مقهى الحلمية، وفي مجلسه مع زملائه الأساتذة بالكلّيّة، وله أثناء ذلك بشاشة فَرِحة تُنبىء عن سرور عظيم.

ومما أذكره له في مضمار التشجيع لأبنائه، أن مشيخة الأزهر كانت تقيم احتفالاً سنوياً بالهجرة الشريفة، يحضره ملك البلاد، ووزراء الدولة، ويرأسه شيخ الأزهر فيخطب الناس مع الكبار من العلماء، ويُذاع الحفل فورياً، ثم تتحدّث عنه الصُّحُف اليومية مسجّلة ما دار به تلخيصاً وتعليقاً.

وفي ذات عام طلب الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي من الأستاذ أحمد شفيع أن يعدّ قصيدة لحفلة المحرّم، وقد سبق أن فعل فأجاد، وكان اختيار الشيخ دائماً موضع المُباهاة لمَن يقع عليه الاختيار فيسارع بالإجابة شاكراً، ولكن الأستاذ أحمد شفيع ذهب إلى الشيخ الأكبر، ورجاه أن يختار شاعراً نابهاً من شعراء تخصّص المادة بدلاً عنه هذه المرة، فتعجّب الإمام المراغي وسأل عن السبب، فقال الأستاذ: هذا موقف مشهود يفيد الطالب النابه، ويجعل له ذِكراً في الناس، أما نحن فيشملنا الفضل لأننا آباء الطلاب وأساتذتهم، وقد قام المراغي من مجلسه وحيّا الشيخ مقدّراً مُثنِياً، وأجاب رغبته في احتفاء!.

هذا وتلاميذ الأستاذ يعرفون إعجابه الزائد بالأستاذ المراغي، إذ كان لا يفتأ يتحدّث عن نهضته بالتعليم الأزهري وإنشائه للكليّات، ومواقفه السياسية الجريئة، وآرائه الفقهية المستنيرة، ودروسه الذائعة في تفسير القرآن، وله فيه عدّة قصائد لم يشأ أن ينشرها، ولكنه كان ينشدها في مجالسه الخاصّة، ومما علق بذِهني من شعره في هذا المجال:

يا زعيم الإصلاح في الشرق أنقذْ ... أمّةً تنشد الهُدى من بيانه

لذكرنَا بيُمن عودك فينا ... عوْدَ موسى بالحق من برهانه

شهدَ الشرق للمفاخر حفلاً ... عَشِيَ الغربُ من سَنَا مهرجانه

يا عميد القضاء تغْضب للعد ... ل وتُغْلي النفيسَ من ميزانه

وتردّ الحقوق غير مُبالٍ ... بعسوفٍ يلجّ في بهتانه

نضرةُ الشعر من جلالك لاحت ... فتجلّى للناس حُسْن افتتانه

نضّر الله أوْجُهاً تزن المجد ... وتُعلي بين الورى مَن شانه

همّةٌ لا تَنال منها الليالي ... ومضاءُ كالنجم في دورانه

يا بشير الهناء واصلَنا الد ... هرُ وكان الملحَّ في هجرانه

لآنَ بعد الشَّموس حتى حمدنا ... بعد ذاك الشموس حُسْنَ ليانه

علمتْنا الأيام أن نرصد الشرّ ... إلى أن يزول في طغيانه

ولشفيع مذهب في الأسلوب الشعري، يدعو إليه في محاضراته بكلية اللغة ومجالسه الأدبيّة في ندوات السّمَر، فهو يميل بالقصيدة إلى عربيتها الخالصة ذات البحر الواحد والقافية الواحدة، ويدعو إلى الإشراق والوضوح دون غموض في الرمز أو شطط في الخيال، وكثيراً ما قرأ علينا من ذاكرته قصائد رائعة لأعلام الشعر العربي في أزهى عصوره المتعاقبة، وله عند كل بيت إشارة، ولدى كلّ معنى وقفة، ولا تخلو قصيدة ما من تعليق صائب يُبديه. وقد كنت أجمع بعض ما يقوله عرضاً في حديثه، ثم أقدّمه إليه مكتوباً فكان يُسرّ كثيراً، وربّما أضاف بعضه إلى مذكّراته الأدبيّة التي كان يضعها سنوياً للطلاب في إيجاز.

قرأ يوماً قصيدة صفيّ الدين الحلّي (لا يمتطي المجد مَن لم يركب الخطرا) فأخذ يثني على ما اشتملت من الحِكَم الرائعة، ويقول إنه حاول أن يقلّد المتنبّي والطغرائي ليسير له ذكر بهذه التجاريب الخلقيّة العميقة، لأن شعر الحكمة أكثر تداولاً، وأعمّ شيوعاً، إذ هو يجري مجرى المثل على كل لسان، حتى إذا وصل إلى قول صفيّ الدين:

لا يحسنُ الحلم إلّا في مواطنه ... ولا يليق الوفا إلّا لمَن شكرا

قال: إن الشطر الأول مسلّم، فللحلم مواضع لا يتجاوزها لأنه غير محتمل عند سماع الإهانات السفيهة من نذل لئيم ولا عند الأفعال القبيحة كالاعتداء على النفوس والأعراض، أما الشطر الثاني فلا يُفهَم معناه على ظاهره لأن الوفاء مطلوب في جميع الحالات، شَكَرَ الإنسانُ أو غَدَر، فالغادر في منهج الإسلام لا يقابل بالغدر تطبيقاً لقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحبّ الخائنين ﴾ وكان الأولى أن يقول صفيّ الدين (ولا يليق النّدى إلّا لمَن شكرا) فيكون قد نحا منحى المتنبي حيث قال:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع النّدى

ثم قال في هدوء: على أن حوادث التاريخ توحي بعكس ما قال المتنبي، فمعاوية كان يضع الندى موضع السيف ليجمع الشمل، ويرأب الصدع فصلح

أمره، وهدأ باله، ولكن الذي يسلك هذا المسلك لا بدّ أن تكون له حصافة معاوية وبُعد غوره.

هذا بعض ما قاله الأستاذ بصدد التعليق العارض، وكم له من وثبات فكرية تنبيء عن ذهن متوقّد، ونفس كريمة حقّاً. وقد ظلّ قرابة خمسة وعشرين عاماً أستاذاً للأدب في كليّة اللغة يغرس في نفوس أبنائه بذور الذّوق ويهبهم رقّة الإحساس ولطف التهدّي إلى أسرار البيان، وكان درسه الأدبي سلسلة تتّصل بدروس مَن سبقه من أشياخ الأدب السلفي كسيد علي المرصفي ومحمد المهدي وأحمد الإسكندري ومحمد عبد المطّلب وحسين والي، ويزيد على بعضهم سعة محفوظه التي لا تندرج تحت حصر.

ومن جميل ما يُحمَد له أنه كان يروي كثيراً من القصائد السياسية المعاصرة التي كانت تقوم بعض الأسباب دون إذاعتها، كهجاء المنفلوطي للخديوي عباس، ومرثيّة أحمد محرّم لإبراهيم الورداني، وذمّ شوقي لأحمد عرابي، وكان يعقبه بقوله لا أعرف لشوقي عثرةً سوى هذا الهجاء، ولعلّه كان مدفوعاً إليه، وكنت أعارضه فأقول: إن الذي يُدفع مضطراً إلى هجاء رجل يرضى عنه لا يكرّر الهجاء مثنى وثلاث، فالإصرار على الهجاء تعبير عن شعور متمكّن، وفي نشأة شوقي بمعية الخديوي توفيق، فولده عباس ما يؤثل خصومته للزعيم المُفتَرى عليه، فإذا رأى النقاش قد انتقل من الأدب للسياسة قال: لنرجع إلى الشعر القديم حيث لا خلاف، ثم ينتقل إلى رواية الفرائد الأدبية، والطُّرَف الفكاهية بما اشتهر عنه، لأن روحه المرحة جعلته مصدر الفكاهة الرقيقة الموجّهة.

وكان أستاذنا الكبير الشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء وزميله في التدريس بالكلية يسأل عنه يومياً ليروي نكتة اليوم، فإذا لم يجده طلب الأستاذ الدكتور إبراهيم أبا الخشب ليقول له في ابتسام: ماذا قال شفيع وأنا غائب؟.

وقد وُلِدَ رحمه الله بالإبراهيمية شرقية في إبريل سنة ١٩٠٣، وكنت أُداعبه فأقول: في أيّ يوم من أيام إبريل، فيقول مبتسماً لا تصدّق شهادة الميلاد، فآباؤنا في هذا الزمن من أوائل هذا القرن لم يكونوا حريصين على تسجيل الميلاد في

وقته المحدّد، وقد يمضي عام دون تسجيل، إلاّ أن المسألـة إذا انحصرت في عـام فلا حرج.

ثم التحق بالأزهر بعد أن حفظ القرآن وجوّده، وكان لدى والده الشيـخ السيد حسين نسخـة من الطبعـة الأولى لكتاب جـواهـر الأدب للسيـد أحمـد الهـاشمي، فوقعت في يد الابن الناشىء قبل أن يلتحق بالأزهر، فـأكبّ على استظهـار ما تضمّ من النثر والشعر، وإليها يرجع تعلّقه الشديد بالأدب واهتمامـه بتاريـخ الأمة العـربية على مرّ العصور، وكنت أقـول له: إن السيـد أحمد الهـاشمي ناقـلٌ لا مبتكر. فيقـول: وماذا في الأمالي والكامل والعِقْد الفريـد وعيون الأخبـار غير النقـول، ويعقّب على ذلك بقوله: لا تبخس الناس أشيـاءهم يا رجب، فـاختيار الأديب قـطعةٌ من عقله، وشتّان بين مَن يقدّم الدّر ومَن يقدّم الخزف.

ثم التحق بالأزهر عشر سنوات فحسب نال بعدها شهادة العالمية سنة ١٩٢٦ متخطّياً بعض سنيّ الدراسة عن طـريق الامتحان الخـارجي حيث لم يمنع القـانون حينئذٍ طالب السنة الأولى بالقسم الثـانوي أن يتقـدّم لامتحان الشهـادة الثانـوية في العام نفسه، وهكـذا أنِسَ الطالب من نفسـه شجاعـةً وعلماً فتقـدّم ليختصر خمسـة أعوام في عام واحد بتوفيق الله، ثم اشتغل بالمُحاماة الشـرعية عـامين قبل أن يُعيّن مُـدرّساً بمعهـد الزقـازيق، وله عن ذكـرياتـه بالمحـاكم الشرعيـة نـوادر لـو جُمِعَت لأفادت.

وقد مكث بالمعهد الأزهري تسع سنوات انتقل بعدها إلى كليّة اللغة العربيـة سنة ١٩٣٧، لأن شيخ المعهد إذ ذاك وهو فضيلة الأستاذ الكبير محمود أبو العيـون كـان دائم الزيـارات العلمية لـلأساتـذة بالفصـول، فهو يفـاجئهم مفـاجـآت متّصلة ليكونوا على أُهبة الاستعداد الحافل، وله مع كـل أستاذ حـديث عقب الدرس يُثني أو ينقـد، وقد استمـع كثيراً إلى دروس الأستـاذ شفيع في مـادتيّ الأدب والإنشاء، فحـرص على مواصلة زيـاراته مغتبـطاً مشجّعاً، حتى إذا طلب منـه الأستـاذ الأكبـر ترشيح عالِميْن من علماء المعهد لكليّتي اللغة والشريعة اختار الأستاذ أحمـد شفيع لتدريس الأدب والأستاذ عبد اللطيف السبكي لتدريس الشريعة، وهو اختيار صادف أهله.

فإذا سألنا اليوم عن تفوّق المعاهد بالأمس ، ففي صنيع الأستاذ أبي العيون، وفي جودة اختيار المُدَرّس والطالب معاً تعليل ما كان من سبق علمي، إذ كان طالب المعهد الثانوي إذ ذاك عالماً وهو يتعلّم، كان يُهيّىء الدرس قبل الحضور لمناقشة الأستاذ، وكان يخطب في المحافل فصيحاً بليغاً دون خلل، وكان يُفتي في مسائل الفقه مستنداً إلى أهم المراجع في ثقةٍ وإخلاص، فليت شعري أنجد اليوم من المتخرّجين في الكليات الجامعية والمدرّسين بالمعاهد والمدارس الثانوية مَن يصل إلى مستوى الطالب الأزهري في معهده الثانوي القديم! إننا نجيب بالنّفي الحاسم، والحسرة تملأ نفوسنا، والأمل في تغيير الوضع يخايل خواطرنا، وأكثرنا يردّد قول جرير:

ذمّ المنازل بعد نزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأيام

وقد أُقيم سرادقٌ فخمٌ في ساحة معهد الزقازيق لتوديع الأستاذ وتحيّته وتهنئته بالترقية، خطب فيه شيخ المعهد، وصفوةٌ من قادة الرأي بمدينة الزقازيق، وكانت البلاد مشغولة حينئذٍ بمحاربة الاحتلال، وتهيئة القوّة الرادعة المسلّحة التي تصون الوطن من الاعتداء، فألقى الأستاذ أحمد شفيع قصيدة رنّانة بدأها بتحيّة الشباب الأزهري الناهض، وأشاد بحركة الإصلاح التعليمي في المعاهد والكليّات، وضرب على أوتار القلوب حين ألمّ بالوضع السياسي فطالب بتقوية الجيش، وهتف بأن المعاهدة بين مصر وإنجلترا لا تحقّق مطمح البلاد، إذ لا بدّ من سياجٍ حافظٍ للأمن داخلياً وخارجياً، وليس تعدّد المعاني مما يشين في موقف الشاعر الخطيب، لأنه هنا يُفصح عن رغبات الجمهور في حشدٍ حماسيّ يتطلّب مَن يهتف بمشاعره واضحةً دون لَبْس. وفي هذه القصيدة الحماسيّة رنّة بحتريّة تسمعها في مثل قول الشاعر المقتدر:

أصِخْ لداعي العُلا يا باعث العرب، ... واهتفْ بنجواك هذا منتدى الأدب
هذا عكاظ، أعاد الدهر جِدّته ... فراح يختال في أثوابه القشب
شبابنا النّاهض الوثّاب حليته ... وللشباب حِليً موصولةُ النسب
ما بهجةُ الزهر يكسوه الضحى ذهباً ... أبهى إلى ناظري من حفلنا العجب

وما الصباحُ تفيض السحر بسمتُه — ألذّ في خاطري من شاعرٍ طرب

والشعر والسّحر عزّ الفصل بينهما — والشعر أبقى على الأيام والحقب

يا قومُ هذي يدُ الإصلاح قد بُسطت — وليسَ يَخدع أنّ القيد من ذهب

إن يدفعِ الناسُ عن أوطانِهم سعدوا — أوْلا، فبيْنَ يَد الأهوال والنوب

أوْ ذادتِ الطير عن أوكارها حدباً — فالنيل من أهله أولى بذا الحدب

يا بانيَ المجد لا تهتف بمنقبة — إن لم تَشِدْهُ على الأرماح والقضب

طغَى على النّاس دين لا مردّ له — قوامُهُ في الحديد الصّلد واللهب

ما بالُ مصر أقالَ الله عثرتها — تمشي الهوينَى ولا تستنُّ في الدأب

ومضت القصيدة المحفلية تشيد بمصر، وبالنجباء من أعلام الأزهر، وتشكر المحتفلين، وتحيّي ذكرياتهم المجيدة فيما سلف من عهد الزمالة، وترسل حنّات الوداع في طرق هاتف، وقد طار صداها إلى كليّة اللغة فاستقبلت الوافد الجديد شاعراً أديباً مرموقاً، واحتلّ شفيعٌ مكان التوجيه القيادي في مُفْتتح عهده، فأشرف على كثيرٍ من الرسائل العلمية التي تقدّم بها طلبةُ تخصّص المادة في البلاغة والأدب والنقد، فكان ـ رحمه الله ـ يقترحُ الموضوع ويعدُّ مراجعه ويرسم خطّته، حتى أعان نخبةً مختارةً من تلاميذه، صاروا فيما بعد زملاءه في التدريس، فرعوْا له مكانة الأستاذ، وفضل المربّي القائد.

ولم يشغَلْه التدريس ـ وهو يومئذٍ مُقيّدٌ بكتابٍ تحدّدهُ الكليّة ـ عن التأليف الخاصّ للنفع العامّ، فأصدر دراسات عن الأدب المملوكي، والأدب المعاصر، وخصّ مصطفى لطفي المنفلوطي وعبد العزيز البشري بترجمتين وافيتين، كما اشترك مع زميله الأستاذ محمود رزق سليم في كتابة مؤلّف عن الأدب الحديث، كان يُوزّعُ قبل أن يُستكمَل طبعه على هيئة الملازم المنفردة، فليتنا نجد مَن يحرصُ على جمعه وإعادة نشره قبل أن يضيع.

ـ ٢ ـ

عُرِفَ الأستاذ أحمد شفيع بهدوء النفس، وسعة الصدر، وأستاذ الأدب إذا اتّسم بهاتين الصفتين جاءت أحكامه عادلة مُنصِفة، فهو حين يعارض فكرة ما،

يعـرضها في حَيـدة، ويوضـح مـأخـذه في تلطّف، وفي النقّـاد مَن يُـظهِـر التعـالي الممجوج إذا أبدىٰ مخالفة لما يدرس من فكر، ومثله يُسيء أكثر ممـا يُحسِن، لأن روح الإنصاف تفتح أبواب القبول لدى الدارسين، فيتقبّلون النقد في ارتياح.

ولم تكن صداقة الأستاذ بمانِعتـه من نقد أصـدقائـه، إذ كانت لـه صلة وثيقة بـالشيخ عبـد العزيـز البشري حين كـان قاضيـاً بإحـدى المحـاكم، وكـان الأستـاذ مُحامياً، وقد ظلّت هذه الصلة على وثاقتها المتينة دون تفكك، ولكنها لم تَحلْ دون أن ينقـد الأستاذ من آراء صـديقه مـا يراه مـوضع النقـد، وقد حـرص على اختياره شخصية أدبيّة يُحلّل عناصر إبداعها الفنّي للطلاّب، فكـان يعرض المبتكـر من آراء البشري، ولا يعفيه من نقد يسوقـه في هدوء عـاقل، فـالأستاذ عبـد العزيـز البشري يقول ـ مثلاً في الجزء الثاني من المختار ص ٣٣ ـ:

«إن العبقري المبتكر من العدم والمُبدع على غير مثال، قد لا يكون لتفكيـره شيء مما يصنع، ولا لعقله دخل فيما يبدع، إنما هو الطبع والغريزة ينضحان بهذا، ولقد يفعلانه في سرٍّ من عقله، وفي غفلة من تقديره، فشأنه في هذا شأن القُمـري يشـدو أبدع الشـدو، ويرجّـع أحلى الترجيـع، ما يـوقّع لحنـاً، ولا يتعمّد تنغيمـاً، وكالوردة ينفرج عنها كمّها، وما بها أن يملأ أنفك طيب شذاها، ولا أن يبهر عينيك جمـال مرآهـا، وإني لأزعم لك أن كثيـراً من هؤلاء المبتدعين قـلّ أن يشعروا بمـا صنعوا، وقلّ أن يقدّروا حقّ ما أبدعوا، إنهم قناطر بين ما استودع الله من سرّ خلقه نفوسهم، وبين ألسنتهم وأيديهم».

فيقول الأستاذ أحمد شفيع معقّباً على هذا الرأي ص ٣٦ من ترجمته للأستاذ البشري:

«هذا يخالف ما تعارف عليه الناس، ويكادون يتّفقون عليه عن خِبرة مكررة، وعن طبائع نفوسهم، فالعبقري يقاسي في الحصـول على فكرتـه القيّمة ونـظرياتـه العميقة كثيراً من المتـاعب، وقد يجهـد جهده في سبيـل اقتناص فكـرة واحدة، أو صياغة ما اطمأن إليـه في قرارة نفسـه من حقائق الحيـاة، وإذن فالشعـراء والكُتَّاب

والفلاسفة غير هانئين في هـذه الحياة، تُتـاح لهم الثمار، ويـواتيهم القدر بـطلباتهم دون عناء ناصب وكدٍّ مرير».

فالردّ هادىء صائب لا يندفع ولا يشتطّ، بـل يحجز الأستـاذ في نفسه أشيـاء كانت بمثابة الأدلة المؤيّدة لرأيه، أذكر أننا ناقشناه في هذه المسألة بعد أن دوّنها في ترجمة البشـري، فقال من فـوره: «كنت أودّ أن أُضيف إلى ما قلت، أن شـوقي لا نزاع في عبقريته، ولكن المسوّدات التي نشرت بالزنكوغراف لبعض قصائده تحمل من المحو والإثبات والتشـطيب والتصحيح مـا يدلّ على مُعـاناة حـادّة! أفكان هـذا العبقري مستريحـاً هادئـاً تسقط ثماره الفكـرية دون كـدٍّ، إن المسوّدات تنـطق بغير ذلك».

ومثل آخر يدلّ على أثر الطبع الهادىء في نقد الأستاذ ، حتى فيما يـظن فيه الانـدفاع، فهـو مثلاً أستـاذ الأدب الجـاهلي بـالكليّـة لعـدّة سنـوات، وكـان يُلقي المحاضرات في تحليله الفنّي مكبـراً معجباً حين وقعت الـواقعة بين الأستـاذ أحمد أمين، والدكتور زكي مبارك حول ما سمّاه أحمد أمين (جنايـة الأدب الجاهلي على الأدب العربي) فتوجّه إليه تلميذه الدكتور أحمد الشـرباصي على صفحـات جريـدة منبر الشرق بسؤال هذا نصّه:

«بصفتكم أستاذاً للأدب العربي نودّ أن تحدّثنا عن رأيك في المعركة التي ثار غبارها بين الأستاذين أحمد أمين وزكي مبارك، منذ أسابيع حـول الأدب الجاهلي، وأيّهما الموفّق في اتجاهه؟.

فجـاء ردّ الأستاذ أحمـد شفيع بـالعـدد الصـادر في ١٩٤٠/١/٢٣ هـادئـاً لا يخرج عن طابعه المعهود إذ يقول في اتّزان:

«الأستاذ أحمد أمين عالِم واسع الاطّلاع دلّت مؤلّفاتـه على سبقه، وشهـدت بفضله، وهو كاتب متّزن وقور، تقرأ كتاباته فتلمح آثار الهدوء، وترى عليها مخايـل الاتّـزان والـوقـار، ولكن لا أدري كيف خـرج عن وقـاره حين وثب على الأدب الجاهلي فغض من قدره، ونال من مكانته، واسترسل في ذلك استـرسالاً أسف لـه

الكثيرون من عارِفِي فضله، وقد نقده الدكتور عبد الوهاب عزّام نقداً هادئـاً، ولكن الدكتور زكي مبارك تلقّف هذه المقالات التي أوغرت صـدره، وحزّت في نفسـه، فـانبـرى يـردّ على صـاحبـه ردّاً أصـاب فيـه، وردّ المتنكّب عن الجـادّة إلى سـواء الصراط، فلاقت ريح الأستاذ أمين إعصاراً من مبارك».

هذا بعض ما يشير إلى مسلكه النقدي، أما شعـره، فهو في أكثـره ذاتي يعبّر عن خواطره الخاصّة، فهو ليس ناظماً محترفاً ينتهز المناسبة ليقول ما يروق للناس، وأعجب شيء أنه لم ينشر من شعره الذاتي على كثرته شيئاً، بل اكتفى بإنشاده بين تلاميذه وعارِفِيه، وكنت أطلب منه بعض ما أسمع فيقول:

«إن الأوراق متنـاثرة في مكتبتـه الحافلة، ففي كتـاب الأغـاني ورقتـان، وفي الوفيات قصيدة غزلية، وفي الأمالي عتـاب ودّي، وهكذا يتفـرّق الديـوان في أجزاء المكتبة دون أن يجمع، على أن مجلة الأزهر قد ظفـرت بعدّة قصـائد سِيقت إليهـا دون أن يعلم لمناسبات عامّة حتّمت نشر أكثرها، وبعضها مما قدّمه التلاميذ لرياسة التحرير دون أن يعلم الشاعر شيئاً.

وأكبر مِزية لشفيع هي الارتجـال السريـع للقريض، فكثيـراً ما تعنّ المنـاسبة الطائرة في حديث متنوّع فإذا الرجل يهتف بمقطوعـة مرتجلة تجيء عفـو الخاطـر، وشعر الارتجال في أكثره سريع لم تصقله الرويّة المتأنّيـة أو تمدّه الفكـرة الدقيقـة، ولكنه يُنبىء عن ملكة حاضرة، وقريحة مستعدّة، فإذا اطمأن الشاعر المرتجل وعمد إلى الأناة فقد ملك الزمام.

ذهبت مـرة إلى منزل الأستـاذ بعطفـة الليمون، وطلبت كتـاب نفح الـطيب، وكنت أتوقع أن أُطالع النسخة البيضاء التي صدرت عن دار المأمون، ولكن الأستاذ فاجأني بنسخة صفراء تآكلت حروفها، واختلطت هوامشها بمتونها فأعملت قريحتي وقلت هذين البيتين:

طلبت الـنفـح مـشكـولاً ولـكن ... بـعثـت لنـا بـمضـطرب سـقيـم
كـصـبّ رام أن يـلقـى مـليحـاً ... فـأوقـعـه الـزمـان على دمـيم

وما كدت أعرض البيتين على شفيع حتى ارتجل منشداً:

بعثت النفح حين وثقت أني ... بعثت به إلى فطن عليم
وما يجديك من شكل مملّ ... وأنت من العروبة في الصميم

وثانية من هذا الوادي، فقد انتقلت من القاهرة بضع سنوات للتدريس في أماكن نائية، ثم زرته في العطلة الصيفية، وكنت أعددت مقطوعة قلت فيها:

لقاهرة المعزّ صبوت حتّى ... ليرجف خافقي بين الضلوع
صبوتُ بها لأمرْين استباحا ... ذماء الصبر في كبد صديع
لدار الكتب وهي أعزّ دار ... ومجلس كوكب الفصحى شفيع
هما متماثلان فما لديها ... يصابُ لديه في ذِهن ضليع
لقد جادوا على قلمي فروّى ... بما جاد الغمام على الربيع
وتلك تفيدنا علماً وهذا ... يزيّن العلم بالخلق الرفيع
بشاشة مجلس وسخاء كفّ ... وظرف نمّ عن ذوق بديع

فما أنشدتها للأستاذ حتى طلب قلماً، وخط بظهر الورقة في بضع دقائق:

وقاهرة المعزّ إليك تصبو ... كما تصبو الرءوم إلى الرضيع
لقد عهدتك شبلاً عبقرياً ... فكيف تراك أيام الربيع
تزفّ لها الروائع ناصعات ... على نسق من الفنّ الرفيع
وذلك فضل ربك لا سواه ... وليس لدار كُتب أو شفيع

وله قصيدة طويلة تحت عنوان (عبيد المال) نظمها في مجلس واحد، لحادثة حافزة، فقد جاء إليه غلام شاب من طلبة المدارس، ووالده تاجر من كبار الأغنياء يسكن مع الأستاذ في شارع واحد ويتزاوران، فقال الغلام في حياءٍ خجول: لقد جئت إليك يا سيدي لأشكو والدي، إذ ذهبت إليه ساعة غروب الشمس في شهر رمضان راجياً أن أتناول عنده الإفطار، ولكنه ـ وهو متزوّج بغير والدتي ـ نهرني وطردني، وقال لي: اذهب لأمّك فهي تأخذ النفقة الشهرية ثلاثة جنيهات!!.

سمع الأستاذ القصة فكاد يبكي، وقال في حسرة: غلام يأتي إلى أبيه جائعاً في شهر رمضان فيحرمه!! ثم صحبني إلى منزله، فقال الشيخ شفيع مبادراً، يا فلان من الغد إذا ذهبت إلى السوق تشتري الطماطم فاطلب من البائع واحدة بعد الميزان، ثم اطلب من الكوسة واحدة أخرى بعد الميزان، فإذا ذهبت إلى المنزل فضع كوباً من الماء زيادة في القِدْر الذي يُطبَخ فيه الخضار، وحين يجيء ولدك المسكين، فقدّم له طبقاً لم يكلّفك شيئاً، لأن محتوياته جميعها من غيرك، ولا عليك من ثمن الرغيف فسأعطيه إياه!! قال الشيخ هذه الأطروفة في لهجة المتألّم، وقد حزّت في نفسي، وكدت أصيح من الألم، ثم تركه شفيع دون أن يأخذ تحيّة الضيافة.

والتقينا من الغد فقدّم إليّ الشيخ الجليل قصيدة كتبها في سويعة يسيرة، وقال: إنه جعلها ذمّاً لعبيد المال بوجه عامّ، دون أن يتعرّض للبخيل المشؤوم، إذ ليس من أخلاقه أن يخصّ أحداً بالهجاء مهما كان نذلاً وضيعاً، وقد نشرت القصيدة بعدد جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ من مجلة الأزهر ص ٤٢٣ وفيها يقول:

لـمَن المال تجمعون وأنتم	في حياة قد آذنت بالزوال
كم نصبتم حبائل المكر للما	ل وغالبتمو شديد المحال
رازق الذرّ في مساربه الجو	ن ومُجري الأنهار بين الجبال
ومُنجي الظباء من ربقة الأسر	ومردي الآساد في الأدغال
لم يساوِ الإنسان في رشده الوحـ	ـش فأضحى للمال في أوجال
أضعاف الطيور أهدأ بالاً	وسراة الأنام في بلبال
كم غبيّ وعاجز مجدودٍ	غمرته الحياة بالأنفال
وذكي وحوّل محدودٍ	ناء فيها بأفدح الأثقال
حكمةٌ لا تحار فيها عقول	غير عقل عن الهدى في عقال

ولا يدرك أسف الشيخ على موقف الوالد الشحيح غير مَن يعلم سماحته المُفرِطة في الكرم، إذ كان لا يدّخر شيئاً من عائده، وجميع أصدقائه يعرفون أنه في هذا الباب مثل بارع من أمثال الفتوّة الإسلامية، التي نقرأ بعض آثارها المجيدة

في كتب السالفين، إذ كان يفرح بالفقير الوافد على منزله فرحاً لا يوصف، وكنت أزوره بعد صلاة العشاء فأجد الثلاثة والأربعة من ضعفاء الحال يؤمّون ساحة من القرى النائية لقضاء مصالحهم في القاهرة، اعتماداً على سخاء نفسه، وبسطة يده، وهو لا يكتفي بالمسعى في حوائجهم لدى الوزارات المختلفة، بل يفسح لهم من منزله مأكلاً ومشرباً ونوماً، وربما دفع لذوي الفاقة منهم ما يقوم بنفقات القطار أو السيارة في الرواح والذهاب تقديراً لظروفهم العسيرة.

وإن بشاشته عند اللقاء، وهشاشته في السَّمَر والإضحاك، وأنسه بالغريب الوافد لممّا يشجّع الطارقين على تكرار الزيارة بعزم وإقدام علماً بما سيستقبلون به من الاحتفاء، وقد كان يكرّر لهم التحية أكثر من مرة في المجلس الواحد!.

على أن المفارقة في هذا الباب أن زاره ذات مساء فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود أبو العيون، المُصلِح الديني الكبير، والكاتب الاجتماعي الأشهر، وهو يومئذٍ سكرتير المجلس الأعلى للأزهر، فقدّم إليه ـ وكنت حاضراً ـ فنجان القهوة فحسب، فتعجّبت كثيراً، وقلت: يا سبحان الله، يأتي مَن هبّ ودبّ من الناس فيتمتعون بلذيذ الفواكه، وهنيء المشارب، ويأتي أبو العيون فيشرب القهوة وحدها، فأجابني الأستاذ أحمد شفيع إجابة تمر الليالي دون أن أنساها، قال الأستاذ في بساطة: الشيخ أبو العيون ضيفي أنا، وهو غير محروم ففي منزله العامر أضعاف ما في منزلي، أما هؤلاء فضيوف الله، ويفرحون بما يطعمون ويشربون!.

فمَن مبلّغ مؤلّفي كتب المكارم في العصور السالفة، أن لدينا من هذه الأريحيات النبيلة أمثلة صادقة تدلّ على أن مكارم الأخلاق إرث باقٍ لورثة الأنبياء.

ومن هذه الأريحيات الماجدة ما نعرفه من سلوك الكبير مع الصغير، إذ إن أُستاذنا الكبير بسنّه وفضله معاً كان لا يدّخر وُسعاً في الإشادة بذوي الفضل من تلاميذه، وقد عهدنا التلاميذ يمدحون أساتذتهم معبّرين عن مشاعرهم الشاكرة نحوهم، ولكننا رأينا الأستاذ أحمد شفيع يمدح تلاميذه النابهين بقصائده مشجّعاً مباركاً.

أذكر أنه أطرى الدكتور أحمد الشرباصي، وكان لا يزال طالباً بالكلية يحضر دروس الأستاذ بقصيدة حافلة تشيجعاً له حين أظهر في عهد الطلب باكورتين من إنتاجه، وقد قرأهما الأستاذ مُحتَفِلاً، ولم يكتفِ بالتنويه الشفوي بهما في ساحة الدرس، بل نظم قصيدة عامرة يتنبّأ فيها بمستقبل زاهر لتلميذه الناشىء، لأن الفجر بشير الصبح، وقد كان البحر جدولاً صغيراً، والبدر هلالاً ضئيلاً، والأسد شِبلاً يدرج، ثم مضى الزمن فإذا هؤلاء على أحسن ما يُرجى ويؤمل! قال الأستاذ عن تلميذه:

قبس من الإصلاح لاح بصيصه	سيزيده كرّ المدى إشعالا
وإذا رأيت الفجر يبسم ضوؤه	فارقب لأنوار الضحى إقبالا
فالبحر ماذا كان؟ كان جداولاً	والبدر ماذا كان؟ كان هلالا
والأُسْد في وثْباتِها وثَبَاتها	درجت على آجامها أشبالا

فإذا تركنا هذا الموقف إلى موقف آخر للأستاذ مع أحد الطلاب فإننا نذكر همّته الكريمة حين زاره ذات يوم بعض تلاميذه، وعليه من سِمات الحزن والحيرة ما لا مزيد عليه، فعجّل الشيخ بسؤاله عن بواعث ألمه، فقال: إن والده كان موظّفاً بدائرة الأمير عمر طوسون، وقد فُصل بوشاية كاذبة، وفقد مصدر رزقه الوحيد، وهو ربّ أُسرة ذات تلاميذ في المدارس والجامعة، وما يدري الطالب شيئاً عن مستقبله ومستقبل إخوته الذين يسكنون معه بالقاهرة، فصرفه الأستاذ على أن يعود إليه بعد يومين.

ولم ينم ليلته، بل نظم قصيدة استعطاف حملها بنفسه إلى الأمير إذ سافر صباحاً إلى الإسكندرية، واتجه إلى شيخ المعهد الديني هناك، وطلب منه أن يتصل بمقرّ الأمير ليحدّد موعداً للقاء الأستاذ وصديقه شيخ المعهد، وقد تحدّد الموعد في اليوم ذاته، وتقدّم الشيخ شفيع فقرأ القصيدة مطمئناً، وقابلها الأمير باحتفاء زائد، وأصدر أمره الفوري بإعادة الموظف المفصول مع زيادة راتبه خمسة جنيهات! ورجع الأستاذ إلى القاهرة وهو في أكمل سعادة، وأبهج انشراح، لأن للمروءة مذاقاً شهيّاً لدى أبنائها، فهي تفعل بنفوسهم فعل السّلاف.

وأذكر أنه قال لي بصدد هذا الموقف: إنه سافر إلى الإسكندرية ليبرىء نفسه أمام ضميره، ولا عليه إذا أخفق فقد فعل ما في طوقه. وهكذا تكون رقّة الإحساس دافعة للغوث العاجل، والسعي النبيل.

لعمـرك مـا وارَى التـراب حـديثـه ولـكنّـمـا وارى ثيـابـاً وأعـظـمـا

- ٣ -

كـان أستاذنـا الكبير أحمـد شفيع السيـد مع شـاعريتـه الأصيلة، راوية قـوي الحافظة. وأكبر مميزات الأديب لديه أن يكون واسع المحفـوظ من تراث الأوائـل، فإذا أتاه طالب من أبنائه يعرض عليه بعض آثاره استمع إليه، ثم اتجه إلى مناقشتـه فيما يحفظ ويروي للشعراء.

وكـان ينسب الركـاكة والتهـافت في بعض مـا نقـرأ من الشعـر الحـديث إلى ضعف الرواية، وقلّة الإلمام بالروائع من أشعار السابقين، ونحن الآن بحاجة مـاسّة إلى أساتذة من أمثـاله يـذودون عن البلاغـة العربيـة والعبارة الحـرّة بما يـروون من نمـاذج ، ويحلّلون من شـواهد، إذ إن أكثر متشـاعري اليـوم لا يلتفتون إلى الآثـار الشعـريـة في أدب العـرب قـدر مـا يلتفتـون إلى المـذاهب المعـاصـرة في الأدب الأوروبي، فهم يلوكون المصطلحات الفنية لوكاً سطحياً، ثم يـأتون في قصـائدهم بما يخيّل إليهم أنه السّبق الجريء في مضمار التجديد، وتقرأ ما تقرأ فلا تطالع غير الإسفـاف الركيـك، والتهافت المتخـاذل، ولو رجـع هؤلاء إلى مـذهب شفيـع في الرواية والإلمام لردّوا على الشعر العربي ديباجته الناصعة وارتقوا باللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون ـ كما يحلو لهم أن يقولوا الآن ـ ارتقاءً تحمد عقباه.

وطبيعي أن يكون شعر أُستاذنا الجليل من الطراز الأول نصاعة بيان، وسلاسة تركيب، وسنقصر الحديث هنا على عاطفته الدينية، وأثرها في إنتـاجه الحـافل، إذ إن صداها القوي في تراثه الأدبي قد فاق كل صـدىً سواه، والـرجل كـأستاذ كبيـر بالأزهر له ثقافته الإسلامية الواسعـة، وروحه الـديني الشفّاف يخضـع لتأثيـر روحي يجذبه إلى نطاق الرسالة المحمدية، فهو يُجيد القول في كل موضوع إسلامي مهما تكرّرت مناسبته، وتعدّدت ظروفه.

فأنت تجد له إنتاجاً متعدّداً في موضوع واحد كالهجرة النبوية، إذ لا يكاد يمرّ عام دون أن يستلهم هذا الحَدَث التاريخي الفذّ، فيفيض خاطره بإلهام رفيع!! وقل مثل ذلك في المولد النبوي، وفي الإسراء والمعراج، وفي ذكريات بدر، وفتح مكة، ومع تقارب هذه الموضوعات وتشابه مُلابساتها تشابهاً يدعو إلى التكرار والترديد، فلن تجد في شعره الديني على كثرته فضولاً تضيق به، أو توافقاً تنكره، فلكل قصيدة جوّها الفريد، وينبوعها البكر الذي يتدفّق نميراً صافياً دون أن تغشى صفحته الوضيئة غاشية من فتور أو سأم.

وبعض الشعراء يُكثِرون القول في الذكريات الإسلامية ولكنهم يتطرّقون إلى الحاضر السياسي فراراً من الرتابة المألوفة والحديث المُعاد، ولكن شفيعاً لا ينتقل من جوّه الروحي الخالص، بل يعرض لوحاته الشعرية مصقولة زاهية، متميّزة، متفرّدة، وفي معارج الخيال آفاق متباعدة تطلّ على مشاهد تختلف منحىً وموضوعاً، وتتّحد هدفاً وغايةً، وهنا تأتي الطرافة الخالبة، طرافة الخيال المجنّح الذي يُجانب الواقع المألوف مُجانبة تجعل لكل موضوع زوايا كثيرة؛ وفي كل زاوية منظر خاصّ ينفرد بلونه وجوّه وأصدائه، فتتلوّن المشاهد، وتتفرج الزوايا، والموضوع هو الموضوع.

خذ مثلاً موضوعاً إسلامياً كرسالة محمد ﷺ، فإنك واجد في الحديث عنها أفانين مختلفة، ففي قصيدة أولى يتّجه الشاعر إلى هلال محرّم، وهو ذو صلة وثيقة بتطوّر الرسالة فيتحدّث عن تألّقه في الأفق، وبزوغه آلاف السنين دون سأم أو لغوب، ويصوّر تعلّق الأبصار برؤيته، وازدياده على التعاقب لمعاناً وجِدّةً، ويرسم أدوار القمر من هلال وليد إلى بدر كامل إلى مُحاق أسيف، ثم يفلسف هذا التسلسل فيذكر أدوار الحياة للإنسان من طفولة مبشّرة إلى شباب مونق، إلى كهولة باهتة، ثم ينتقل بعد هذا التصوير الخيالي إلى موضوعه الأصلي، فينسج حوله أضواء لامعة تتّجه إلى مشرق الشمس التي عَمِيَت عنها العيون، والخفاش الذي يتراقص في الوهج المُشِعّ دون أن يبصر ضياء الضحى ورونق الصباح، والنّعام

الهاجع في كناسه، والآساد الواثبة من أجم إلى أجم، كلّ ذلك في ديباجة مُشرِقة، ووضوع مونق يتجلّى في مثل قوله عن الهلال:

طوى الأرض آلاف السنين فما وَنَت ... ركائبه يوماً ولا كل دائره
وكم تشخص الأبصار في مستهله ... فأعجب إذ لا يسأم الدهر ناظره
تعدّ به الأعوام مهما تطاولت ... فيا لسجل لم تُحَبّر دفاتره
يمثّل أطوار الحياة، طفولة ... يليها شباب يقطر الحُسْن ناضره
وبعدهما شيب، كذاك هلاله ... يكمل بدراً، والمحاق أواخره
يذكّرنا مسراه في هدأة الدجى ... بمسرى رسول الله يرعاه آمره
رفيقان في غار خفى تواريا ... وحولهما نور تفيض بواهره
لقد عشيت عن مشرق الشمس أعين ... يرين عليها من ضلال دياجره
وما يبصر الخفاش في رونق الضحى ... فهل يبصر الكفّار ما الله ساتره؟
وليس فراراً ما أتاه محمد ... فليس يطيق الضيم إلّا أصاغره
يقيم النعام وادعاً في كناسه ... وتجلو عن الغاب المهين قساوره

وهو في قصيدة ثانية يصوّر البعثة المحمدية تصويراً جميلاً يبرز أثرها في العالم، وصداها في تقويم الأخلاق، وتصحيح المعايير، فيشبّهها تارة بالمطر يهمي على الجديب المقفر، فيورق ويخصب ويهتزّ، وتارة بالشفاء الناجع يحلّ محل الدّاء المستفحل، فينفح الجسم بالعافية والفتاء، وتارةً بالربيع المُزهِر المونق وقد كسا الروض ديباجة خلّابة تتراقص بها الطيوف والأضواء، وتعبق فيها الورود بالشذى المُعطِر، وتارةً أخيرة بالصباح يبسم في الكون بعد ظلام حالك مُيئِس فيرتفع ضياؤه مُنيراً في الوجود وقد بهر العيون وخلب الألباب، ثم يفلسف الفكرة فيعقد موازنة بين نور الشمس ونور الرسالة وبين الشك واليقين، وكيف يمور الريب في القلوب موراً يبعث الكدر والوحشة والانقباض، ولكن اليقين يبعث ارتياحاً رائقاً، وأنساً بهيجاً، وهل الإيمان غير يقين رسخ أصله، وعمقت جذوره، واستطالت سيقانه فتهدّلت عليها الغصون بالأثمار!؟. :

أرأيت السماء تمطر قوماً ... بعد جدبٍ يطول فيهم ثُواؤه
أرأيت الشفاء وافى مريضاً ... بعدما أيأس الأساة شفاؤه
أرأيت الربيع يخطر في الرو ... ض فيهتزّ نوره ورواؤه
أرأيت الصباح يبسم في الكو ... ن فيسمو فوق الوجود لواؤه
إنه أحمد النبيّين وافى ... فزها الكون واستنارت سماؤه
مشرق الشمس دون مولد قد ... فاض في الكون بالسلام ضياؤه
وضياء القلوب أجدى وأبقى ... من ضياء إلى الجنون انتهاؤه
رُبّ قلب يمور بالشك مَوْراً ... زال بالدين ريبه ومراؤه
فاطمأنت من القلوب صدور ... طاح عنها الهوى وطار عماؤه
يكدر القلب إذ يُداخله الشك ... ويبدو عند اليقين صفاؤه
وكذاك النفوس بالشك حيرى ... وضياء الإيمان فيها جلاؤه

ثم في قصيدة ثالثة يتّجه الشاعر إلى القطر الحجازي! هذا القطر الجديب الموحش يفيض عليه خير السماء، فماذا يُنبت؟! إنه يُنبت للوجود خير الورى محمد بن عبد الله! فيصير أخصب بقعة ذات رواء واخضرار!!.

هذه الحقيقة الهادئة تدفع الشاعر إلى فلسفة هادئة مثلها فينظر إلى الجدب الحقيقي فيراه في النفوس الماحلة من الخير لا في الصحراء القاحلة ذات الرمال والسموم! وينظر إلى شعوب ترتفع بهِمّة بطل عظيم فيصل بها إلى المجد والعزّة والاستقلال، وشعوب ينتشر أبناؤها انتشار الجراد في كل صقع، ولكنهم يكرّون عليها بالنوائب القاتلة، والبلاء المحيق، فمجد العرب في مبدئه مجد بطل واحد هو الرسول الأعظم، وإذا أنبتته الصحراء القاحلة فأيّ نبات ذاك الذي سَمَت به على الحدائق والرياض!! ذلك تصوير شعري وتفكير منطقي زاوج بينهما الأستاذ حين قال:

تبسّمت الدنيا فناج القوافيا ... وعاد صباحاً ما بدا قبل داجيا
وأسفر نور الدين في الكون كله ... فأضحى به القطر الحجازي زاهيا
قفارٌ ولكن أنبتت أطيب الورى ... وجدب ولكن كان أخصب واديا

وما الجدب إلاّ في النفوس رخيصة وما الخصب إلاّ في النفوس غواليا
ورُبّ شعوب مجدها مجد واحد وأخرى من الآلاف تشكو الدواهيا

هذه نماذج مختارة من قصائد ثلاث تصوّر تعدّد الزوايا المختلفة في نظر شاعر مؤمن إلى نبيّه الكريم وللأستاذ غيرها ـ في الموضوع نفسه ـ كثير وكثير، ومجلة الأزهر في سنواتها المختلفة حافلة بقصائده الإسلامية. وقد ألمحنا ببعضها في هذا النطاق لنرى كيف يخلق الخيال من النهر الدافق جداول متشعّبة متفرّعة تختلف مجرىً ولوناً وسعَةً، وتلتقي عذوبةً واطّراداً وصفاءً، وهي بعد نزهة العين، وبرد الصدر، وشفاء القلوب.

وإذا كانت عاطفته الدينية قد ظهرت شفّافة رائعة في قصائده المحمدية، فقد اتخذت لها إطاراً آخر فيما قال الشاعر تمجيداً للأزهر، وزياداً عن رسالته، إذ يراه ـ كما هو بحق ـ معقل الدين، ومنار الهدى، وموئل الحنيف.

وللأستاذ في إطراء الجامعة الأزهرية شوارد سوائر، وفرائد سواحر، يؤيّدها بالتاريخ الناطق، والدليل الصادق، فيتساءل عن زعماء الشعب من أبنائه، وحُماة البيان من أُدبائه، وأعلام الشريعة من فقهائه، ويردّ على خصومه ردوداً مُقنِعة لا تنحدر إلى المهاترة، ولكنها تدعو إلى سبيل الحق بالحكمة الرائعة والموعظة الحسنة، كأن يقول:

معقل الدين وهو في ريعانه ومنار الهدى ومُعلِي مكانه
نهض الشرق بالرسالة في الناس وشبّ الحنيف في إيوانه
لم يقم جوهر بناء ولكن شاد صرح العلوم في بنيانه
كم تولّى بلاد مصر وُلاة فاستمدّوا الولاء من سلطانه
زعماء البلاد منه أفاضوا وحُماة البيان من فرسانه
لغة العرب في ذراه استطالت فأواها بوارف من جنانه
جنّة الأرض حين أقفرت الأرض ولج الزمان في عدوانه
قل لمَن رامَ بالكنانة كيداً في الكناني عصمة من طعانه
سائِلوا مصر يوم ثار بنوها كيف كان الجهاد من فتيانه

وهذا دفاع مجيد له أمثاله الكثيرة في قصائد متعدّدة سمعتها منه قديماً دون أن أجد لها مصدراً مطبوعاً يرجع إلى الناس.

وللشيخ ـ رحمه الله ـ في أعلام الأزهر من الراحلين مرّاثٍ جيدة شفعها بدفاع حارّ عن رسالته في نصرة الإسلام، وحماية اللغة، وصيانة العلم والأدب ولا أزال أذكر من بينها مرثيته الرائعة لصديقه الأستاذ محمود أبي العيون، فقد جزع الرجل لمصرعه الأليم جزعاً تؤجّجه اللهفة، ويضرمه الالتياع، وقد ملك الزّمام فلم يندفع وراء عاطفته إلى النّواح والعويل، بل نظر نظرة موضوعية إلى جهاد الفقيد، وكفاحه الديني والسياسي فقال كلمة التاريخ عنه في إطار شعري جميل.

وأشهد لقد وفّق في مرثيّته تلك، فكرةً وتصويراً وتعبيراً، فهو يصوّر آثاره المتتابعة بالشآبيب الهاطلة، وصوته المجلجل بالعاصفة المدوّية، وبيانه الرائع بالنمير تارةً، وباللظى تارةً ثانيةً، ثم يرسم صورة دامية آسفة ليوم نعيه، وقد صبغ النهار بحالك غريب، فالليل ممدود الرّواق، وقد أمسكت العنادل لهواتها عن الشدو، بينما انفجرت الغربان بالنعيب.

صور رائعة مشجية يضفي عليها الحزن ثوباً من الجلال والروعة والوقار، وهي بعد عاطفة حيّة ترى في الطبيعة انعكاساً صادقاً لمرآة النفس الحزينة، وما يشعّ في جنباتها من وحشة وانقباض، ودونك بعض ما قال عن أبي العيون:

في كل ناحية ترى آثاره	كالغيث شؤبوباً على شؤبوب
كم ذا يجلجل صوته فيهزّنا	كالعاصفات تهزّ كل قضيب
وتخال من عجب نمير بيانه	نار تلظّى في نهى وقلوب
يا يوم نعي أبي العيون تركتنا	ريع النهار بحالك غربيب
فالليل ممدود الرّواق مخيم	والصّبح آذن ضوؤه بمغيب
وترى العنادل أمسكت لهواتها	شجناً، وللغربان شرّ نعيب
أدّى رسالة ربّه حتى إذا	هتف الحمام أجاب خير مجيب

ويستطيع القارىء أن يلمس روح البحتري في هذه الدمعة الحارّة، فالوضوح والسلاسة، والرقّة مع الشجن، واللوعة والأسف كلّ ذلك يذكّرنا بمراثي الوليد!!

وما زال البحتري صاحب مدرسة خاصّة ترسم عواطف النفوس شفّافة رقراقة تطالعها العيون دون سِتار، وقد كانت هذه الروح الصافية تسود شعراء الجيل الماضي فتتّضح كثيراً في أشعار صبري وحافظ والرصافي والهراوي والجارم على تفاوت مختلف، وها هي ذي تلوح فيما نطالعه من قصائد شفيع!! وأكاد أجزم أن الشاعر مع إعجابه بالمتنبي في دروسه بالكليّة لا يسير معه في طريق، وإنما أستاذه البحتري رضي أم أبى، فهو يمتح من معينه، ويسير في طريقه! وكم للبحتري من أبناء معرقين!.

على أن الإنصاف يدفعنا إلى الحديث عن الشعر الفكاهي الذي ساقه الأستاذ في بعض أبنائه الأزهريين، فهو مع تعصّبه المُفرِط لمعهده الجليل ينحو باللاّئمة والنادرة على مَن يحيد عن القصد في رأيه، وعندي قصيدة مرحة ـ لم تنشر بعد ـ قالها الشاعر في طالب أزهري ظلّ يرتدي العمامة والكاكولة ردحاً من الزمن، ثم انقلب فجأة لا إلى الطربوش بل إلى القبّعة، فكان مرآه مَدعاة عجب كثير، ولم يفت شفيعاً أن يرسم له صورة فكهة، تتّسم في أولها بالجدّ والتوجيه ولكنها تنتقل شيئاً فشيئاً إلى الدعابة الطريفة حتى تُثير الضحك، ومَن لا يضحك فينا من صورة ديك نافش لا يصحب عزم دجاجة ضعيفة، ومن عجاجة ثائرة تنهض خلف الذيول الضافية التي تكنس كل طريق، وقد أرسلت من غير حاجة!! مع أن الشاعر نفسه يرتدي الجبّة الواسعة والقفطان الفضفاض ولكنه يقول:

أصبح الشيخ خواجة	بعدما بدّل تاجه
تاج عزّ وفخار	أطفأ الحمق سراجه
لم يُبالِ الذّوق لما	عرضت للنفس حاجة
آثر الضيق حتى	ضيّق اللّه رتاجه
أشعث الرأس حزيناً	كدّر الدهر مزاجه
نافش كالديك لكن	ما له عزم الدجاجة
وشيوخ العلم إن ساروا	أثاروها عجاجة
ذات أذيال طوال	أرسلت من غير حاجة
كنّست كل طريق	لم تدع حتى فجاجه!!

فهل يكون هذا التندّر الطريف غير إذعان مطيع لروح مطراب يرفرف في جوانح الشيخ، ويميل به إلى الترويح والتنفيس!! ولو شئنا أن نسجّل طرائف الرجل في هذا المجال لاحتجنا إلى بحث آخر، ولكننا نقف عند هذا القدر مترحّمين على الراحل العزيز سائلين له أعلى الدرجات في مقعد صدق عند مليك مقتدر.



عبد الكريم جرمانوس
باحث متحرّر ومسلم غيور

- ١ -

يُعدّ الدكتور عبد الكريم جرمانوس في طليعة الباحثين المتحرّرين، الذين درسوا الأديان كافّة، ثم رأوا في تعاليم الإسلام نوراً يهدي إلى الصراط المستقيم، فأقدم على اعتناقه واثقاً من هدايته النافعة، ورسالته المُصلحة، وناضل في سبيله مَن قاموا بنقده المغرض في صُحُف أوروبا، حيث عزّ عليهم أن يهتف مفكّر لامع بغير ما يرون، وما كان جرمانوس في قوة تفكيره، ووضوح منطقه ممّن يقول: إنا وجدنا آباءنا على أمّة، وإنّا على آثارهم مُقتدون، بل كان ممّن يستمعون القول، ويزِنُونَه بميزان العقل فيتّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله.

وإذا كان الدكتور جرمانوس في منطق جميع المثقفين من أعلام المستشرقين في العصر الحديث، فإنني لا أعدّه مستشرقاً بالمعنى المتداول مهما كُتِبَ في عداد هؤلاء، لأن رجل الغرب إذا درس الإسلام وآمن به، وأصبح من أبنائه عن هدايةٍ واقتناع لا يصحّ أن يُدرَج في صفٍّ واحد مع مَن درس كتب الإسلام ليعرضها من وجهة نظره الخاصّة غير معتقدٍ مبادىء ما يعرض، إذ إن الأول بعد إسلامه الصادق يصبح شرقياً لا مستشرقاً، إذ يقيم بروحه الصافية في آفاق النبوّة، ومشارق الوحي الإلّهي، وإن ظلّ بجسده في أوروبا ثاوياً لا يريم! وما شأن الجسم المقيّد في

مكانه إذا سبحت الروح في عالمها الأوسع مستضيئةً بهداية النور الذي أشرق في مكة ثم امتدّ إلى أقصى الربوع؟!.

أما الذي يتكلّف البحوث الإسلامية ليُرضي حاجة نفسه أو ليستجيب إلى نزعات قومه في تسطير ما يرى أنه وجهة نظرهم دون أن يتغلغل إلى صميم الحقائق التي يدّعي الإجادة في تصوّرها وتصويرها دون إيمان فهو المستشرق حقّاً.

بل إني أزيد فأتّسع بدائرة الاستشراق حتى تشمل نفراً من الشرقيين لدينا ممّن عاشوا في مصر وسوريا والعراق وغيرها من مدن العروبة، ثم تراهم يكفرون بقيم الدين الإسلامي عن جمودٍ لا عن فحص، ويهتفون بحضارة الغرب وحدها هتافاً لا يقتصر على تمجيد الحسن، وتقبيح الرديء، بل يتعصبون لكل صادرٍ من أوروبا تعصّباً يضطرهم إلى الازدراء بتقاليد أهلهم وعادات إخوانهم، هؤلاء هم في رأيي مستشرقون لا شرقيون، ومثلهم عندي كمثل (لامنس) و(مرجليوث) ممّن كتبوا عن الإسلام تحت تأثير غرض خاصّ، وما أجدر الدكتور عبد الكريم جرمانوس أن يكون بعيداً عن أولئك وهؤلاء.

لقد تحدّث الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور عن قصة إسلام الدكتور جرمانوس فقال من مقال طويل:

«سألته في غضون حديث معه: ما قصّة إسلامك يا حاج عبد الكريم؟ فقبض على لحيته، وجعل يتخلّلها بأصابعه ثم أجابني بقوله[1]: هي لحظة من لحظات الإشراق، لأن الإسلام دين الذّهن المستنير، وإن أصحاب التفكير الحرّ ليجدون في هذا الدين السَّمح، عقيدةً وشريعةً ما يستولي على الإعجاب، وما يهدي إلى الإقناع، وعندي أنه سيكون معتقد الأحرار كلما تخلّصوا من ربقة النشأة، ووطأة التقليد، وأنا أعرف كثيراً من المستنيرين يجلّون الإسلام ديناً، ويكنّون في سرائرهم إيماناً وإذعاناً».

---

(١) مجلة قافلة الزيت، يناير سنة ١٩٧٠ م.

يقـول تيمور، فقلت لـه: ولم يشْفني جوابـه، أو أطمعني هـذا الجـواب في الاستكثار من تفاصيله: هل لك أن تحـدّثني ماذا حبَّب إليـك الإسلام؟ فـاسترسـل من فوره يقول:

«حبّبه إليّ شيء واحد، هو جوهر كل شيء، إنه دين الطّهـر، دين النظافـة، نظافة الجسم والنفس والسلوك الاجتماعي، والشعور الإنساني، ولا تَسْتَهِنْ بالنظافة الجسمية فهي رمز ودلالة، لها قيمتها المعنوية، ولها أثرها العميق، ومن هنـا كانت الحمَّامات في الحياة الإسلامية والعربية من أرقى مظاهـر التحضّر العمـراني، ولقد تعلّم الأوروبيـون نظام الحمّـامات من أهـل الأندلس، ولـدخول التـرك في المجـر فضل في سبقها إلى شيوع الحمّامات بها. أما الطّهر النفسي والاجتماعي فيكفيـك منه في الإسلام أن الدين هو المعاملة، وأن الناس جميعاً سواسية أمام الله، لا مزية لأحـد بلون أو عنصر أو جنس، وأن صلة المـرء بمجتمعه في الإسـلام قائمـة على أسـاس ركن من الإحساس بـالسعادة بـراحة الضميـر، ولا يكون من وراء ذلـك إلاّ مجتمع قوامه الحق والعدل والخير والسلام».

هذا لُباب ما تحدّث به جرمانوس لصديقه تيمور، والحق أن الإسلام ببسـاطة يُلَخّصُ في سطورٍ تجمع عنـاصره الـداعية إلى سعـادة الفرد والمجتمـع، وإذا كان الدكتور جرمانوس قد أوجزها لصديقه، فقد أشبعها تحليـلاً ودرساً في كتـابه الـرائع (الله أكبر) لأنه يحكي قصّـة إسلامـه، ورحلته إلى مكـة لحجّ بيت الله، وهي رحلة تُرجِمَت إلى عدّة لغات، وكان لها في عالم الغرب صدىً بعيد!.

على أن حبّ الدكتور جرمانوس للإسلام قد دفعه إلى حبّ لغاتـه التي يتكلم بها المسلمون، فدرس العربية والفارسية والتركية والأردية دراسـةً جادّة عـاونته على أن يؤلّف بها بعض كتبه، كما يؤلّف بالألمـانية والمجـرية والإيـطالية والإنجليـزية، ولك أن تعجب من علاّمة ضليع يتـرك مؤلّفاتـه منتشرة بقلمـه الخاصّ دون تـرجمة أحد سواه في سبع لغات!.

وقد وجد في جامعة بودابست التي يشغل أستاذ التاريـخ والحضارة بهـا لأكثر من أربعين عـاماً مَن ينشـر البحـوث داعيـاً إلى إحيـاء اللغـات العـاميّـة في الـوطن

العربي، ويعدّ العربية كاللغة اللاّتينية التي هجرت إلى غيرها بتطوّر الزمان، فيحلم بالزمن الذي تصبح فيه لغة مصر غير لغة العراق، ولغة المغرب غير لغة الشام سعياً إلى تفتّت كيان متماسك تربطه اللغة الفصحى بأقوى الرباط؛ ولهذه الدعوة أتباع مستأجرون في كل موطن عربي.

ولكن الدكتور جرمانوس حاربها أعنف المحاربة في عواصم أوروبا، ومواطن الاستشراق الاستعماري محاربة مَن يملك الحجّة الدامغة، والمنطق الأصيل، وتعرّض بذلك إلى خصومات حاقدة، عملت على بَتْره من مكانه الجامعي بحجّة أنه يسير في غير الاتجاه المرسوم، ولكن تلاميذ جرمانوس قد تعصّبوا لعلمه وفضله، ورأوا عمق تأثيره في جامعات الشرق والغرب التي زار أكثرها كأستاذ زائر فسجّل لبلاده مجداً لا يلحق، فبقي الداعية المسلح برأيه المستنير أستاذاً للتاريخ في جامعته العريقة رغم أنف الحاقدين.

لقد سعدت بلقائه الكريم، عدّة مرات، وحدّثني في شأن الحرب الطاحنة التي يقوم بها الغرب على اللغة العربية متّخذاً أبواقه من بعض الأقلام في الشرق، ثم قال: إننا لا نلوم أعداء العربية إذا حاربوها استجابة إلى أضغانهم الحاقدة، ولكننا نلوم العرب أنفسهم لأنهم يهجرونها في أحاديثهم العامّة والخاصّة.

ويذكر من نوادره في ذلك أنه تعلّم العربية الفصيحة وحده دون معلّم في المجر مكتفياً بالقواميس التي تذكر الكلمة العربية بإزاء ترجمتها الأجنبية، ثم تطلّع إلى زيارة القاهرة ليأنس بسماع الفصحى في عاصمة الإسلام الأولى ومهد الأزهر الشريف، ففوجىء حين قَدِمَ الإسكندرية مُبحِراً من أوروبا لأول مرة بمَن يضحكون منه لأنه يكلّمهم باللغة الفصحى! ثم يردّون عليه بألفاظ عامّيّة لا يدرك معناها، فأدركه الغضب، وصاح مُتضايقاً: جئت هنا لأتعلّم منكم لغة القرآن! أأقابل بالضّحك والاستهزاء! ثم رأى في قلمه متنفساً لعواطفه الثائرة فبادر بإرسال كتاب عاجل إلى زوجته الكريمة ببودابست يقول فيه:

«لقد جئت إلى مصر وأنا أَحْذَرُ أن أكون غير مُلِمّ باللسان العربي فأصير ضحكةً للعامّة، فأصبحت ضحكتهم لأني أتكلّم باللغة العربية، بل لأني أنا المتكلّم بها وحدي في جمرك الإسكندرية دون أن أجد الاحترام من أحد!!».

ثم يواصل الأستاذ جرمانوس ذكرياته عن تهالك بعض الكُتّاب على اللغات العاميّة دون العربية المجيدة فيقول:

«أرسل إليّ قصاص عراقي هو الأستاذ أحمد الدباغ روايةً كتبها باللغة العاميّة في العراق، كنموذج من أدب جديد يعمل على نشره تأثّراً بدعاية مَن يرون سيطرة اللغات العاميّة في أجزاء الوطن العربي، فحاولت جاهداً أن أفهمها فلم أقدر على شيء، فلجأت إلى أستاذ مصري يعيش في بودابست ليقرأها معي ظنّاً مني أن المصري أقدر على فهم القصّة العراقية من المجري، ولكن صاحبي المصري كان معي من ناحية الفهم للقصة، فلم يَعِ شيئاً مما أمامه، فقرَّ رأيي على أن أواصل الشوط إلى نهايته، وأتصل بالسفير العراقي في المجر ليتولّى الترجمة من العاميّة العراقية إلى اللغة العربية.

وكانت حيرتي شديدة حين وجدت السفير العراقي نفسه يعاني مشقّةً كبرى في تفهّم كلمات القصة، فسألته ألست عراقياً، وهذه لغة موطنك؟ فقال: إن اللهجات مختلفة ولغة الموصل العاميّة غير لغة كركوك وخانقين!!.

وإذا كان أبناء الإقليم الواحد لا يتّفقون على ألفاظٍ واحدة، فكيف نسعى إلى الكتابة بالعاميّة لنقبر ما نكتب؟ وهل من فائدةِ الكاتب أن يوسع دائرة انتشاره الأدبي في المحيط العربي أو يعمل على إغلاق نفسه في حيّزٍ محدود؟!».

لقد أسهبت في إيضاح رأي الدكتور جرمانوس في هذا المجال، لأن ذيول هذه الدعوة إلى هجر الفصحى لا تزال تتحرك في بطءٍ حاقدٍ، ولازلت أذكر أن الأستاذ محمود تيمور قد ألّف ثلاث مسرحيات باللغة المصرية العاميّة، ومن بينها مسرحية (أبو شوشة) وقد سارع بإهدائها إلى الدكتور جرمانوس ليعلن له في خطاب رقيق، أنه ألّف بالعاميّة ليثقّف الشعب المصري ويرتفع بمستواه، فردّ عليه الدكتور جرمانوس قائلاً: إن العاميّة لغة حديث فقط، ولا تتّسع إلى تصوير الخلجات العميقة، وكشف السّرائر الغائرة في الأعماق، كما تتّسع الفُصحى لرسم أدقّ النوازع في إبداع.

وحار الأستاذ تيمور ما يصنع ردّاً على اعتراض صديقه، فلجأ إلى الأستاذ زكي طليمات ليكفيه الردّ على صاحبه، فنشر طليمات بحثاً في عددين من الرسالة يوضّح اهتداء تيمور إلى خلجات النفس فيما كتب، وقد تكلّف زكي طليمات رهقاً شديداً في افتعال ما قال، ولم يفت ذلك جرمانوس فكتب إلى طليمات يقول:

«إنك استطردت إلى إيضاح بعض حقائق علم النفس لتجبرها جبراً على تطبيقٍ موهومٍ لبعض الشخصيات التيمورية في المسرحية العاميّة، ويستطيع كلّ باحث نفسي أن يلقط من ألفاظ العوامّ في الأزقّة والمحلّات والمقاهي ما يكشف عن أطوائهم النفسية، لأن كل كلمة تقال صدىً لانفعال نفسي! بل إن كل حركة من حركات الحيوان الأعجم صدىً لهذا الانفعال، وإذن فمسرحية تيمور لم تكشف عن النفس البشرية ما تستطيع أن تكشفه القصة الفصيحة ذات الغور العميق».

وكان موقف جرمانوس داعياً إلى أن يهجر تيمور الكتابة بالعاميّة فيما بعد، وأن يعمل على ارتقاء أسلوبه الأدبي، حتى أصبح عضواً بمجمع اللغة العربية، وارتقى بإبداعه الأدبي إلى مستوىً من البيان كان موضع الاحتفاء والإعجاب!.

وقد كان النقد الهادف طريق جرمانوس فيما يثيره من آراء تجد صداها المعارض، فقد ألقى عدّة محاضرات عن تاريخ الحضارة الإسلامية في مدّها الزاخر، قوبلت بانتقاص مَن يسوءهم أن تُذاع محاسن هذه الحضارة في جامعات أوروبا، فكتبوا ينتقصون حضارة الإسلام مستشهدين بواقع المسلمين في القرنين التاسع عشر والعشرين! ولم يَفُت جرمانوس أن يواجه القوم بأنهم ينكرون تاريخ دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة، وما حمل المسلمون في عصورهم الزاهية من أنوار ساطعة كانت بوارق النهضة الأوروبية إذ لولا حضارة الإسلام لم تستفق أوروبا من نومها العميق.

أما الواقع المؤلم لبلاد الإسلام اليوم فمصدره في رأي الدكتور جرمانوس هو الحضارة الأوروبية وحدها، لأنها حاربت هذه الشعوب الآمنة بالحديد والنار، مستعمرة ربوعها، ومدّعية أنها تحمل رسالة التقدّم والازدهار! وإذا مرّ قرن أو قرنان

على حضارة الغرب الاستعمارية دون أن تتقدّم دول الإسلام، فليس الذنب ذنب الإسلام، ولكنه ذنب مَن حاربوا تعاليمه، ومنعو الضوء عن العيون؛ فتأخر المسلمين إذن يرجع في أول أسبابه إلى استعمار الغرب وابتزازه المادّي! وهذا القول حقٌّ شائع لا جديد فيه بالنّظر إلينا نحن المسلمين، ولكن الجديد كلّ الجديد أن يهتف به جرمانوس في معاقل الاستعمار الحصينة بأوروبا، وأن ينضمّ إلى القافلة الحرّة، التي تقدّس حكم الحق، وتقول للمخطىء في جبروته إنك متجبّر ظلوم.

وُلِدَ جرمانوس في بودابست سنة ١٨٨٤ م، ونشأ مسيحياً يقيم شعائر دينه، وتعلّم في طفولته لغة بلاده والتحق بالمدارس ثم بالجامعة، فرأى القائمون على أمرها حينئذ أن يتخصّص في دراسة اللغة التركية، فبعثته جامعة بودابست سنة ١٩٠٣ إلى جامعة إستنبول ليتقن لغة الأتراك في بلادهم، وقد استطاع بجدّه الجاهد أن يُجيدها قراءةً وكتابةً في عامين فحسب.

كما شاءت الظروف الطيّبة أن يقرأ تفسيراً للقرآن الكريم باللغة التركية جذبه إلى حقائق الإسلام من مصدره الأول جذباً عنيفاً، إذ رأى في ضوء الآيات القرآنية المباشرة إسراف المبشّرين ممّن يُحمّلون الإسلام ما ليس فيه، ووقف وقفات طويلة ليقارن بين ما يكتبه القساوسة وصنائعهم عن الإسلام، وما هو مسجّل في القرآن الكريم، فتاقَ إلى أن يقرأ ترجمة الأحاديث النبوية في اللسان التركي، ليعرف أقوال نبيّ الإسلام كما نُقلت من مصدرها الصحيح، فعجب أكبر العجب لما تلقّى من أمور الهداية التوجيهية في إصلاح العالم بأسره، وظهرت صورة محمد ﷺ أمامه في ملامحها الصّادقة بعيدة عن أكاذيب المرجفين.

ثم أُتيح له أن يرجع إلى المجر ليجد أساتذته الكبار من سَدَنة الاستشراق يتحدّثون عن الإسلام بما ليس فيه، كما وجد أحدهم ينقل عن خاتم الأنبياء أقوالاً لا تمتّ إلى ما قرأه جرمانوس في الترجمة التركية بسبب، لأنها أقوال تدعو إلى الإباحية والانغماس في الشهوات، وكان جرمانوس صادقاً مع نفسه، حين طلب تحديد موعد لإلقاء محاضرة تُبيّن وجهة الإسلام فيما يخوض فيه الخائضون

دون اطّلاع وعكف عدّة أسـابيع ليجمـع كلّ مـا يُلصق بالإسـلام زوراً، كاشفًـا عن افترائه ومستنداً إلى التفسير التّركي الذي درسه، وإلى ما وعاه من الحديث النبوي.

وللدكتور جِرمانوس في كل أدوار حياته هدوؤُه البـاسم، ونفسه المتسـامحة، فهو لا يشتطّ في جدال، ولا يعنف في مؤاخذة، وبهدي رائـع من خلقه المتسـامح قابل أقوال معارضيه بالابتسـام، وعقّب عليها بـالتي هي أحسن، فآثـروا السلامـة، ولم يخـوضوا معـه في لجاج هـو أول مَن ينأى عنـه إذا خـالف آداب البحث وسُنن الحوار، ولم يكن جرمانوس حينئذٍ قد اعتنق الإسلام، ولكن البذرة قـد غرست في قلبه دون أن يشعر، وما زالت تنمو في سكون حذر، حتى جـاء اليوم الـذي تفتّحت فيه عن غصنٍ ناضرٍ، وذلك بعد ثلاثة وعشرين عاماً بالهند، إذ كان من حظّه الباسم أن يختـار أستاذاً للحضـارة في جامعـات الهند متنقـلاً في كلياتهـا العـامـرة بـدهلي ولاهور وحيدر أباد.

وقد اختصّ عهود الخلافة الإسلامية الزاهرة بدمشق وبغداد والقـاهرة وقـرطبة بفيضٍ من بحوثه المقارنة، وهـو في محاضـراته العلميـة يمزج التـاريخ الإسـلامي بالتشريع، ويرسم مناحي التقدّم الحضاري مصوّراً أثر الإسلام في استجاشةِ الهمم نحـو الكمال الإنسـاني مَدَنِيَّـةً وعلماً وسلوكـاً، واكتشافـاً وتقنيناً وإبـداعـاً معمـاريّـاً وشعرياً، وارتقاءً روحيّاً إلى معارج الإيثار والتواضع والإخـلاص في ظِلال المنـطق القرآني الذي يهدي لما هو أقوم.

ولا بدّ لمَن يدرك هذه المعاني أن يسارع إلى اعتناق الدين الحنيف في ثباتٍ أكيـد لا يعرف الشـك، وكان يـوم الجمعة ميعـاد هذا البعث الـروحي الهائـل حين صعد الدكتور عبد الكريم جرمانوس إلى المنبـر في جامع «دهلي» ليخطب النـاس متحـدّثاً عن بـواعث إسلاميـة، ثم ليؤمّ المسلمين في صلاة الجمعـة بعد أن صـار واحـداً منهم! ولا تَسَـلْ عن مهـرجـان الاحتفـال الـرائـع بعـد انتهـاء الصـلاة، إذ ازدحمت الأفـواج المتدفّقـة على المسلم الجديـد تحتضنه حُبّـاً، وتأمـل فيه لسـاناً صادقاً، وقلماً مخلصاً، وروحاً متوثّباً، وهذا ما كان!.

دامت إقامة الدكتور جرمانوس بالهند ثلاث سنوات، عاشها في بيئة إسلامية ذات غيرة متّقدة على الدين الحنيف، وطبيعي أن يكون الدين الجديد باعثاً للرجل الطّلعة على زيادة الاستيعاب الدّارس لتعاليمه، حيث انتدبته المحافل العلمية لإلقاء محاضرات مقارنة عن الأديان، تخلص إلى إيضاح ما استتر في طوايا التّراث الإسلامي من كنوز لا يدرك جوهرها الثّمين غير الدّارسين من ذوي الدّربة والشمول.

أما السعادة كلّ السعادة (وهذا تعبير جرمانوس نفسه) فكانت في صداقة عبد الكريم جرمانوس للشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، لأن شاعر الإسلام العظيم قد بادر متّصلاً بالوافد الزائر، ليؤدّي له حق الضيافة، ولن يكون لقاء إقبال بصاحبه غير سبحاتٍ فكرية دائمة في مشكلات العالم الإسلامي في جميع أقطاره، لأن شاعر الإسلام كان يعيش بروحه الرّحبة في آفاق العالم بأسره، فهو يُدرك الطغيان الجاحد في الغرب، والانحدار المفجع في الشرق، ويلمس الجرح الناغر في جسم الأمة الإسلامية حين كبّلها الاستعمار في كل صقع بأعنف الكبول.

وقد كان النشاط التبشيري موضع محاورة الرجلين، إذ كان جرمانوس يرجع به إلى افتقاد النَّصفة العادلة لدى القائمين على شؤون المسيحية في أوروبا، ويرجع به إقبال إلى تهاون المسلمين أنفسهم، إذ وُجِدَ فيهم مَن يُشجّع المدارس الأجنبية على أداء رسالتها التبشيرية حين يقذف المسلمون بأكبادهم إلى الضلال الحقيقي، وإذا كان الشاب الذي ناهز الثلاثين يرحل إلى أوروبا ـ إلاّ مَن هدى الله ـ فيرجع زائغ العقيدة، فكيف يكون الطفل في عهده الأول؟ وهو منقاد إلى مَن تخصّصوا في إغوائه فيقدّمون السُّمّ في الدّسم في كل درس ينهضون به، لأن المناهج في هذه المدارس مناهج تبشيرٍ مهما استترت بأسماء الجغرافيا والتاريخ والأدب والأخلاق والتهذيب.

وقد سأل إقبال صاحبه عن مناهج الدراسة في جامعات أوروبا، وعمّن تخصّصوا في دراسات الإسلام من المستشرقين لينتهيا من حوارهما الطويل إلى أن أكثر هؤلاء قد وُجّهوا عمداً إلى تشويه الحقائق الدينية، فأكثر أحاديثهم في مؤلّفاتهم

الذائعة يدور حول أوهام المتصوّفة، وما يقال عن الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وكأنه أصل من أصول الإسلام، فإذا ترك الاستشراق دائرة التصوّف إلى الأدب فالحديث حديث المجون والزندقة والإباحية، ونشر كتب التبذّل، مع تسليط الأضواء على أمثال بشّار وحمّاد وأبي نواس، أما كتاب الله عزّ وجلّ فلا ينظرون إلى هدايته الحكيمة، وقوانينه السياسية التي قفزت بالعالم كلّه إلى طريق الأخوّة والحرية والمساواة، ولكنهم يتحدّثون عن القراءات الشاذّة، ويقفون الوقفات المخطئة أمام نقولٍ في التراث كُتِبَت دون تحقيق، ويُشمُّ منها ما يبعث الشك، مع وضوح بُطلانها أمام الناظر المتفقّه؛ وهكذا يبحثون في كلّ منحىً علميّ عمّا يثير العواصف في العقول الآمنة، كيلا تستقر على نهج سديد.

وقد عاش جرمانوس رحمه الله مفتخراً بإقبال، ومعتزّاً بصداقته، وقد أهداه الشاعر الكبير عدّة أبيات من نظمه كتبها بخطّه الجميل، وتفضّل عليّ الدكتور جرمانوس بصورة شمسية منها، بادرت بنشرها بالمجلة العربية (جمادى الثانية سنة ١٤٠٠ هـ)، في مقال تحت عنوان (بين محمد إقبال وعبد الكريم جرمانوس) وفيه تفصيل متواضع لبعض ما أوجزت هنا من معانٍ.

- ٢ -

يقول الدكتور عبد الكريم جرمانوس إنه كان بودّه ـ بل كانت أُمنيته الوحيدة ـ أن يشترك في موكب الحج حيث بزغت شمس الإسلام بمكة، وقد انبثق هذا الشعور بنفسه إثر مشاهدته صوراً فوتوغرافية نُشِرَت بإحدى الصُّحُف الأوروربية الكبرى عن هذه الشّعيرة الرائعة في الإسلام.

يقول الدكتور جرمانوس هذا القول مؤكّداً أن هذه الأمنية تردّدت في نفسه قبل أن يعتنق الإسلام بثلاثين عاماً! ونحن نأخذ من ذلك: أن الرجل كان يفكّر لا شعورياً منذ إّقامته بتركيا في مزايا الإسلام، وكان يخضع لعوامل كثيرة تجعل من المتعسّر حينئذ أن يفهم حقيقته الداخلية إزاء هذا الدين الذي درس تعاليمه دون أن يؤمن به، فلولا ما أحسّه من التعاطف الحادّ نحو هذا الدين ما كانت أُمنيته الوحيدة

أن ينتظم في ركب الحجّاج، لأن المواكب المختلفة حول الكنائس المقدَّسة في روما تضمّ من الأفواج ما تضمّ مكة المكرّمة من ناحية الكمّ، ولكن الدكتور جرمانوس شاهد هذه الأماكن التي يؤمّها أمثاله من المسيحيين، ولم يشعر لها بمثل الحنين الذي تحدّث عنه.

إنه حينئذ كان مشتغلاً كلّ الاشتغال بدراسة هذا الدين الذي قرأ تفسير كتابه قراءة فاحصة في ترجمته التركية وكان يخوض بحراً لجيّاً من الأفكار، تتقاذفه الأمواج ذات اليمين وذات الشمال، حتىٰ رَسَت السفينة على المرفأ الأمين في الهند بعد ثلاثة عقود متكاملة، ومنذ اعتنق الإسلام أخذ يوجّه همّته الجادّة إلى دراسة اللغة العربية، لغة القرآن ليصل إلى نوره مباشرة من منبعه الأصيل، وقد قال في كتابه الرائع «الله أكبر» متحدّثاً عن رحلته إلى الحج: إنه كان يقصد دراسة العربية دراسةً جامعةً متأصّلةً ليكون كأحد أبنائها وليستطيع الاتصال بالمسلمين الذين وقعوا تحت نير الاستعمار في آسيا وأفريقيا اتصالاً مباشراً لا يحتاج معه إلى مترجم.

وقد سعد سعادةً لا حدّ لها حين لاقى كثيراً من فقراء المسلمين بالهند، وهم يعيشون في أكواخهم المشيّدة بالقشّ، ويستضيئون بأنوار الإسلام، فتتحوّل تلك الأكواخ في أنظارهم إلى جنّاتٍ وقصور، حيث يحتقرون مظاهر الجاهِ والثّروة، ويطؤونها تحت أقدامهم، ويُسهِب الدكتور في إيضاح أثر الإسلام في نفس المسلم فيقول[1]:

«القرآن هو المثل الأعلى لتوجيه الإنسان إلى الطريق السويّ الذي يُحتّم على كل مسلم غيور ألّا يَحيد عنه قيد شعرة، والمسلم الذي يفقه دينه فقهاً صحيحاً يرى أن هذا القبس الرّوحي يتأرجح في قلوب المسلمين جميعاً، ممّن لا ينكصون عن التضحية وبذْل الواجب، وهم الذين يفنون ذواتهم في ذات الغرض الأسمى، ويأخذون على عواتقهم التغلّب على كل أمر والتجوّل في أنحاء العالم لنشر الدعوة، وإظهار فضائل الإسلام.

(١) مجلة الرسالة، العدد ١٣٥، سنة ١٩٣٦ م.

والواقع أننا نجد شيئاً من مظاهر هذه القوة عند بعض الأمم الأجنبية الأخرى، ولكنّي ألفيت في قلوب إخواني المسلمين كنوزاً تفوق في قيمتها الذهب والأحجار الكريمة، وقد عاشرت مسلمين فقراء كانوا لا يحجمون عن أن يقاسموا رفاقهم آخر كسرة يملكونها من الخبز، وكم استضافوني في بيوتهم المتواضعة، وأعطوني أعظم شيء في الوجود، إنهم منحوني إحساس الحبّ والتآخي، ولقّنوني عمل الخير والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وعندما أطلقوني من ضيافتهم فاهوا بقول نبيّهم الكريم (اطلبوا العلم ولو في الصين)»[1].

هذا في الهند ـ المسمّاة بباكستان فيما بعد ـ أما عقب ذلك فقد اتجه الدكتور عبد الكريم إلى مصر، ليدرس اللغة العربية بالأزهر الشريف، وصادف بمصر ترحاباً رائعاً تعدّدت مظاهره في احتفالات جمعية الشبّان المسلمين به، وقيام الأستاذ الكبير عبد الوهاب النجار باستقباله خطيباً في حفل حاشد يُعدّد مآثر الزائر الكريم، ويذكر أمجاده العلمية مؤلّفاً، وسبقه الروحي مسلماً، يعتنق دينه عن فحصٍ دارس ونظرٍ بصير، كما أن رجال الأدب من أمثال أحمد أمين ومحمود تيمور ومحمد حسين وهيكل قد آنسوه بكل ما يأمل.

أما اللغة العربية فقد آثر دراستها مع شيخ أزهري كان يجاوره في حلقات العلم بالجامع الأزهر، حيث اصطفاه ليكون أستاذه الخاصّ بمنزله، وقد بذل الرجل في سنّه المتقدّمة نسبياً نشاطاً ملحوظاً في فقه الدراسات النحوية والصرفية والبلاغية، لأن ما تعلّمه بنفسه لم يخرج عن معرفة معاني الألفاظ وحدها! مستعيناً بالقواميس، والقواميس تمهّد السير ولا تبلغ بقارئها آخر الطريق، فكان من الضروري أن يفقه جرمانوس أسرار لغة القرآن، ليدرك بواعث الفصاحة، ودلائل الإعجاز!.

ومن المؤسف أن بعض الذين يسوءهم أن تطّرد الأمور على وجهها الصحيح قد تحرّشوا بالضيف الكبير فأوعزوا لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ الظواهري شيخ الأزهر حينئذ أن الرجل جاسوس يخفي الإلحاد ويُظهرِ الإسلام، وأن تردّده على حلقات الدرس بالجامع العامر موضع ملاحظة، واستجاب الشيخ لملاحظتهم،

(١) الحديث مختلف في نسبته.

فاضطر عبد الكريم إلى الاستعانة بالعلماء الأزهريين في غير محيط المسجد، وقد أنِسَ منهم حبّاً وإخلاصاً، فأنكروا ما قُوبِلَ به، وأعلنوا أن رسالته أن يفقه أسرار العربية على أيدي علماء الأزهر، ولا يهمّ في شيء أن يبتعد عن حلقات الدرس.

وقد كان من أساتذته الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، والشيخ علي سرور الزنكلوني، والشيخ محمد أحمد عرفة، وهم من أفاضل العلماء. كما أن الحلقات العامّة في المساجد الكبرى بالقاهرة التي يتصدّرها الشيخ محمد بخيت المطيعي في مسجد الحسين، والشيخ محمد إبراهيم السمالوطي في مسجد السيدة زينب، وغيرهما من أعضاء هيئة كبار العلماء قد رحّبت بجرمانوس فكان في معرفة بمواعيدها، وأذكر أن المفتي الأكبر الشيخ محمد بخيت المطيعي كان يشرح حكم ابن عطاء الله السكندري في دروسه الحسينية، فكان يسترسل استرسالاً محبّباً في تشريح الخواطر الوجدانية والإلهامات الروحية، فيجد جرمانوس صدىً قوياً لهذه الإشراقات في نفسه! ويعتدّها من أنفس ما يحرص على استيعابه، وقد أدرك الأزهر سريعاً حقيقة جرمانوس فساعد على تكريمه، ورحّب بضيافته، ثم اختاره عضواً بمجمع البحوث الإسلامية من يوم إنشائه حتى رحل الرجل إلى ربّه!.

كما كان جرمانوس عضواً مراسلاً بمجمع اللغة العربية في مصر، وبالمجامع العلمية الأخرى في الشرق العربي كمجمع دمشق، ومجمع بغداد، وله في مجلات هذه المجامع المختلفة بحوث علمية في فقه اللغة، وفي انتشار الإسلام في أصقاع مجهولة من العالم مما يضيف الجديد حقّاً.

وقد لاحظ الدكتور جرمانوس أثناء إقامته بمصر، أن المصريين ينزعون إلى المنحى الأوروبي نزوعاً متسرّعاً، في الملبس والمسكن والتقاليد وكثيرٍ من العادات، فقال بصدد ذلك[1]:

«لقد تألّمت إذ ألفيت أهل القاهرة لا يلبسون الثياب الشرقية ويستبدلون العمامة بالطربوش، كما راعني أن تخلو البيوت التي زرتها بالقاهرة من الأثاث

(١) المصدر السابق.

الشرقي، وأن أجد نفراً من الشباب المصري يُتقن اللغة الأوروبية أكثر مما يعرف العربية، وفي رأيي أن الحصول على اللباس العربي والتطبّع بالعادات الشرقية أمور يسهل اتّباعها في القرن العشرين، من غير أن يفقد المصريون خصائصهم ومميزاتهم، أضف إلى ذلك أن إحياء الصناعات القومية وإنعاش الأسواق التجارية متوقف على إقبال المصريين على عاداتهم الأصلية، أما التقليد الأعمى، والاتجاه شطر أوروبا، وترك الثقافة العربية، والتراث القومي جانباً فصفات يجب التخلّي عنها».

وما ذكره جرمانوس موجزاً قد فصّله كثير من الفضلاء في بحوث ضافية، ولكن التيار الغربي كان من العنف بحيث أحكم سيطرته دون فكاك!

وفي زياراته المتنوعة إلى دُور الكتب بمصر، شاقّه أن يرى آلاف المخطوطات باللغة العربية تتراصّ وتتزاحم في الخزّانات العامّة والخاصّة، فعرض على الأستاذ محمود تيمور أن يساعده على استعارة بعض المخطوطات من مكتبة والده العلاّمة أحمد تيمور باشا، وكان قد أهداها إلى دار الكتب بالقاهرة ـ قبل رحيله إلى رحمة الله ـ وفيها من النفائس الثمينة ما لا يكاد يوجد نظيره في مكتبة أخرى، فرحّب القائمون على إدارة دار الكتب بتلبية رجاء جرمانوس، ودأب لمدة عامين كاملين على استعارة المخطوطات النادرة في علوم العربية والتشريع الإسلامي ليقف على أسرارها في لغة العصور النائية.

وقد تحدّث بشفافيةٍ وإخلاص يزينُهما التواضع عمّا كابد من رهق في استجلاء غوامض المعاني ودقائق التراكيب، فذكر أنه قد تعب أشدّ التعب في محاولة الغوص على أسرار المعاني في هذه المخطوطات، لأنه لا يكتفي دائماً بالقراءة الأولى بل يميل بنظرته إلى تحليل أفكار المؤلّف، وقراءة السطور التي لا تُرى! والتعبير بقوله (السطور التي لا ترى) تعبير تفرّد به، لأن غيره يقول في هذا المجال، وقراءة ما بين السطور، أما السطور التي لا ترى فابتكار شعري أوحى به قلم فنّان، يقول الدكتور جرمانوس مستطرداً:

«وقد لاح لي أني أشبه بغوّاص يجاهد في بحر من الظلمات ليستخرج منه اللآلىء والأصداف، إذ ما أمَرَّ العكوف على قراءة الكتب الخطية في بلاد الشرق، فأنت تغلق باب الغرفة دونك وتحاول أن تظل بمعزل عن العالم لتتمثّل في خاطرك العصر الذي عاش فيه المؤلّف، والظرف المحيط به، وإنها لمعجزة أن يظلّ الكتاب مهملاً عدّة سنوات برمّتها، فما تكاد تفتحه حتى تهبّ عليك النسمة القديمة بسحرها وعطرها فتسمع كلام المؤلّف أو صوت الشاعر كأن لم يغيّرهما تقلّب الحوادث وانصرام الأجيال.

هذا في العربية وحدها، فإذا كان جرمانوس قد أسهم في الاطّلاع على بعض كتب التراث في الفارسية والأرديّة والتركيّة، فإنه يكاد يكون أحد أفراد قلائل عشقوا لغات الإسلام في أقطارها المختلفة، لينهلوا من مَعينها عن حبٍّ صادق لهذا الدين الرائع، الذي حثّ ذويه على العلم والتأليف، والذي جعل منزلة العالم في درسه كمنزلة المجاهد في معركته.

وبهذا الشغف العريق بالبحث العلمي ترك الأستاذ عبد الكريم جرمانوس عدّة مؤلّفات علمية وأدبية تعدّدت جداولها الصافية في اللغات التركية والعربية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والمجرية، ما بين تاريخ سياسي أو بحث علمي، أو فقه لغوي مقارن، أو تحليل أدبي، أو قصة عاطفية. وقائمة مؤلّفاته التي ذكرها الأستاذ نجيب العقيقي بالجزء الثالث من كتابه عن المستشرقين، تدلّ على ما مُنِحَ هذا العملاق من موهبة، وما أسدى من عطاء.

وقد بلغ من حبّه للأدب العربي أن خصّه بتاريخ حافل في عدّة أجزاء كُتِبَت باللغة المجرية، وكانت إحدى المراجع الدقيقة لطلاب جامعة بودابست، كما دفعه سطوع كتابه في أُفق الاستشراق هذا السطوع الخالب أن يتبعه بكتابٍ عن النصوص الشعرية المختارة من دواوين الشعر العربي، لتكون هذه المنتخبات دليل الأحكام الأدبية الدقيقة التي سجّلها في كتاب التاريخ العامّ للأدب.

كما شاء أن يطّلع أبناء الغرب على التيارات الحديثة في بلاد الإسلام، فأصدر عدّة مؤلّفات عن الثورة التركية وعن اكتشاف الجزيرة العربية وعن نهضة

الثقافة العربية في دول العرب، وعن أدب الرحلة عند العرب، وعن التركيبات اللغوية في المتن العربي، وقد تنوّعت لغة هذه المؤلّفات ما بين فرنسية وإنجليزية وألمانية ومجرية، ولا بدّ أن يقوم باحث موضوعي بتأليف كتاب جادّ عن تراث جرمانوس العلمي، ووجود هذا الباحث المنتظر موضع شك، إذ مَن الذي يستطيع أن يحيط بلغات جرمانوس التي كتب بها عن قوة واقتدار إلّا أن تؤلّف لجنة علمية، ينفرد كل واحد من أعضائها بدراسة ما يُتقن من مؤلّفات الرجل، ثم تُجمَعُ هذه الدراسات في كتاب خاصّ، ويُعزى كل فصل إلى كاتبه، وهذا بعض ما يكافأ به هذا الباحث الضليع!.

وقد يظن الذي يلحظ هذا الحشد الجمّ من مؤلّفات جرمانوس في شتّى اللغات أن المؤلف قد كان راهباً في صومعة العلم، بحيث لا يفسح لنفسه مجال الرياضة والارتحال في شتّى البقاع، والحقيقة أن الكاتب الكبير كان يجعل مشاهده المتنوعة في مجال الطبيعة المختلفة من أرض وسماء، وحدائق وصحراء، وقرى ومدن، وبدو وحضر، مصادر لثقافته الشخصية، فهو يلحظ جميع ما يراه، ثم يخلو إلى قلمه ليرصد انطباعاته في أدب إبداعي لا يقلّ عن درجة تفوّقه في مَنحاه العلمي الخالص، بل إنّ الذي يقرأ رحلة جرمانوس الرائعة إلى مكة حاجّاً بيت ربّه يعتقد أن الرجل شاعر أولاً قبل أن يكون باحثاً منهجياً لرقّة ما أبدع من الأحاسيس، ودقّة ما التفت إليه من غوامض الخلجات.

وقد كانت أيامه في القاهرة مجالاً لتنزّهات شاعريّة تُمتّع وجدان الأديب على حين تُرضي ميول الباحث الاجتماعي المقارن بين الماضي والحاضر، والملتفت إلى المستقبل مستشفاً ملامحه البعيدة من وراء الحُجُب المتكاثفة، ولعلّ صديقه الأستاذ محمود تيمور كان مهتدياً إلى بعض الأسرار الرقيقة في نفس جرمانوس حين قال في مجال الحديث عنه[1]:

«وفي أثناء وجوده في القاهرة كانت أوقاته المفضّلة هي التي يؤمّ فيها بيوت الله، يعدّ ذلك أزكى رياضة نفسيّة له، يجول في حيّ الحسين ليلاً، يستروح منه

(١) مجلة قافلة الزيت، ذو القعدة ١٣٨١ هـ.

الصفاء والهدوء، ويتنسّم فيه روح الإيمان، ويظلّ في تطوافه ملتحفاً بعباءته العربية الفضفاضة، حتى إذا تعالى صوت المؤذّن للفجر، داعياً للصلاة في السّحر، وقف متخشّعاً يترشّف بأُذن عاشقٍ ولهانٍ ذلك الأذان الحلو النّغم، فيسري في جسده سريان رحيقٍ علويٍّ من روضات الجنان، وإني لمعترف بأن قصتي التي سمّيتها (المستعين بالله) ووصفت فيها أحد مَن شغفوا بالشرق وأهله، كان استيحاؤها في الجملة من صديقنا هذا، عاشق الشرق والعروبة والإسلام، وقد حدّثني فيما حدّثني به، أنه كان حين يشتدّ به حنينه ـ وهو في موطنه (بوادبست) على ضفاف الدانوب ـ إلى معالم إسلامية، ويفتقد من المناظر حوله ما يشفي به وجده، لا يملك إلا أن يهرع، لزيارة ضريح المسلم التركي (جول بابا) أو بالأحرى (أبو الورد)».

هذا بعض ما قال تيمور عن تجوال جرمانوس في الأحياء الدينية بالقاهرة، أما هو فقد كتب فصلاً بديعاً عن زياراته تلك في كتابه «الله أكبر» حيث تحدّث عن جولته في حِمى الأهرام الفرعونية مبيّناً صنيع الدّهر بها على مرّ العصور، وقد وصف النيل أجمل وصف، وعرض مظاهر رائعة للغروب والشروق في الحدائق والمزارع، وعلى الشُّرُفات العالية في القصور.

ومن أحسن ما جاد به قلمه وصفه الرائع لمغارة وليّ الله المغاوري بالمقطّم، وتسجيله لما شاهده من تزاحم الزائرين والزائرات في هذا المكان، مع إلمامه بتاريخ الدراويش من أتباع البكتاشية وأماكن إقامتهم بالمغارة، وماذا يأكلون ويشربون ويلبسون وكيف ينامون، ويتخلّل ذلك كله نقد صارم لعادات الشرق التي ابتعدت عن روح الإسلام وآمنت بالأساطير، واشتغلت ببعض العبث الذي يضاف للدين ظلماً وهو منه براء.

ولن نغفل بعد أن ألممنا بذكريات القاهرة لدى جرمانوس أن نشير إلى رحلته الرائعة لمكة حاجّاً بيت الله، إذ كانت هذه الرحلة مصدر إلهام روحي للكاتب الكبير، وقد استطاع بقلبه المؤمن، وقلمه الشاعر، وعقله المتأنّي أن يبدع أرقّ صفحات الأدب الديني حين وصف ركوب الباخرة من مصر إلى جدّة، وشاهد

الأجناس المختلفة من كل صوبٍ تهرع إلى بيت الله، وسمع التلبية والتهليل، وتجرَّد من المخيط محرماً مع المتجرّدين، بل إن صورته الشمسية مُحرِماً قد لازمته في سَيْرِه طيلة حياته، إذ احتفظ بأُنموذج صغير منها، يعرضه على أصدقائه ومعارفه إذا فوجىء بزائر جديد.

وهنا تُتاح الفرصة للحديث عن الرحلة المباركة التي سجّل انطباعاتها الطاهرة في كتابه «الله أكبر»، ثم في صفحات رائعة من مجلة قافلة الزيت، ومع هذا التسجيل الذائع المنتشر والمترجم إلى عدّة لغات، فإن جرمانوس يستشعر راحة نفسية في الحديث عن أُمّ القرى مهوى الأفئدة، ومتنزّه الأرواح! ومحاولة الاستشهاد ببعض ما قال جرمانوس في كتابه عن حجّه المبرور لا تُغني عن الرجوع إلى الكتاب نفسه، وما هي إلّا كزهرة أُخِذَت من روض ناضر لترمز إلى أخواتها الباقيات على الغصون المزدهرة بين الظل والطير والماء.

يقول عبد الكريم جرمانوس: «وما إن غشيت غرفتي بمكة، واستلقيت على البساط حتى أغمضت عيني، واستولى عليّ النّعاس فتخيلت الرسول الكريم وقد بدا أمامي في شكلٍ نوراني، وكأنه ينشر كلمة الله فيُضيء بها العالم داعياً إلى الحق، ورأيت الخلفاء الأربعة يتوسّطون حلقات من الناس، ويسودون العالم بالحكمة والمحبة، لا بالعنف والشدّة، ثم تخيّلت هارون الرشيد، وهو يجول أثناء الليل في شوارع بغداد، ويجوس خلال أزقّتها، فيكافىء الأتقياء، وينزل العقوبة بالمجرمين، وانبسطت أمامي بلاد الأندلس الزاهرة، وقد سادها حكم العرب فنشروا بين ربوعها العلم والحكمة والفقه والفلك، حتى أصبحت هذه العلوم كشجرة مباركة فرعها في السماء؛ ولا يظن أحد أن ما شاهدته كان من قبيل الرؤيا أو أضغاث الأحلام، بل هي أشباح خالدة تطوف بذِهن كل مسلم صادق الإيمان».

ثم يقول: «لقد صادف أن رافقني في السيارة إلى مكة خمسة عشر زنجيّاً من أهالي الصّومال، فكنّا في خلال الطريق لا ننقطع عن الهتاف (لبّيك اللّهمَّ لبّيك) وكلّنا سواسية لا فرق بين صغير وكبير، ورئيس ومرؤوس، وقد شعرت بتلك الحقيقة وأنا بصحبة هؤلاء الفقراء، وقارنت بين ذلك وبين الشائع الشاسع من

فوارق بعيدة في أوروبا التي تحتقر العناصر الضعيفة وتدعو إلى التفرقة بين الألوان».

فإذا أراد القارىء أن يسمع أرقّ همسات الحنان، ويرى أدقّ مشاعر الوجدان، فليسمع ما ذكره جرمانوس عن الجمل الذي كان يركبه ـ لم تكن السيارات قد ازدهرت بعد لتصبح أداة الارتحال بمكة كالآن ـ وما أحسّ به من تجاوب إنساني رائع إزاء هذا الحيوان الأعجم المسكين.

يقول جرمانوس: «وصلنا إلى المزدلفة، وهي أطيب جناباً، لما بها من عشب وخُضرة، فجنيت من الغصون وأطعمت الجمل، ولاطفت عنقه، وسنامه الجميل، وهو غير متعوّد أن يرى مثل هذا السّلوك من راكبيه فمدّ عنقه، ونظر إليّ نظرة العرفان بالجميل، وفي الصباح باكره الجمّال، فأخذ يقوده في خشونة، ثم جذبه وحمل على ظهره (الشقدف) الثقيل، ونظر إليّ الجمل مستعدياً، لما أَلِفَهُ من رحمتي ورأفتي به، ولكن ما كان في وسعي أن أسفر بينه وبين الجمّال في إقالته من هذا العمل، ولاحظت في عين الجمل لَوماً لي، كأنه يقول: حتى أنت، خابت آمالي فيك حقاً!.

هذا حديث شاعري أنقله في ختام مقالي، ليحمل إلى القارىء أريجاً إنسانياً، هبّ نسيمه من حديقة عبد الكريم ليرتفع بالإنسان قليلاً من وهدة الأرض إلى مشارف السّماء.

عبد القدّوس الأنصاري
رائـــد المنصّة الأدبية في الحجاز

- ١ -

حينما قَدِمَت الـوفود العـربية لمبـايعة أحمـد شوقي بـإمارة الشعـر، أنشد في مهرجانه الرائع قصيدة قال فيها:

يــا عكـاظــاً تـألّف الشــرق فيـه ... مـن فلســطينــه إلى بـغــدانــه
افتقـدنـا الحجــاز فيـه فلم نعثــر ... عــلى قـسّــه ولا ســحــبــانــه

فكان قوله الناقد يُنبىء عن حقيقة أليمة، هي تأخّر النهضة الأدبية في الحجاز إذا قِيسَ إنتاجه الفكري بآثار الدول الشقيقة، ولم يكن شوقي في قوله يحمـل روح التعالي كما توهّم بعض مَن نقدوه، ولكنه كان يحمِّس فـريقاً من أدبـاء الحجاز كي ينهضوا في مقدمة الرّكب الأدبي، وهذا ما كان، فقد انبرى فريق للردّ عليه موضّحاً مـا نشأ في روضـة الحجاز الـطاهرة من بـراعم توشـك أن تتفتح عن أزاهيـر، كمـا اعترف فريق آخر بصحة ما قال شوقي مبيّناً الأسباب الحقيقية لتأخّر النهضـة الأدبية في الحجـاز، ومن هؤلاء الأستـاذ عبـد القـدّوس الأنصــاري حيث قـال من مقــال شافٍ[١]:

(١) مجلة المنهل، مارس ١٩٥٦ م.

«إن انتقال الفاتحين الماهدين من هذه الربوع إلى أقطار العالم لنشر الهداية، قد نقل معهم بذور دوحة الشعر إلى تلك الأقطار، فصوَّح منها موطنها الأصلي فيما بعد، وقد خَلَت البلاد ـ بسبب انتقال أولئك الفاتحين من بلادهم إلى بلاد أخرى ـ من كل نشاط ديني أو اجتماعي أو سياسي أو عمراني أو اقتصادي أو أدبي، ثم مضت البلاد في متاهة من الفوضى واختلال الأمن وشلل القدرات حتى كادت تفقد كيانها وذاتيتها في غمرة الأحداث، وهكذا صار في المؤخرة مَن كان في الطليعة».

هذا عن الوضع العامّ، أما الحالة الأدبية في الحجاز في مفتتح هذا العصر، فقد عبّر عنها الأستاذ عبد القدّوس الأنصاري حين قال[1]:

«كانت الحياة الأدبية عندنا فيما قبل الحرب العامّة الماضية تجري على سنن أُدباء القرون الوسطى جرياً تقليدياً محضاً، ميكانيكياً خالصاً، قصائد غزل ورثاء، ومدح وهجاء، وتطريز وتشجير، ورسائل معذرة وإطراء وعتاب، وتواصل وتقاطع، وكانت هذه الرسائل وهاتيك القصائد منهوكة القوى المعنوية بما تحمله دواماً من أغلال السجع المرهقة، وأثقال المحسّنات البديعية الجافّة، فللألفاظ في الأدب عامّة المقام الأول، أما المعاني فهي في الدرجة الثالثة أو الرابعة في الأهمية، وبقدر اقتدار الأديب ناثراً أو شاعراً على تنميق الألفاظ يُقاس أدبه، وبموجبه يصدر له أو عليه الحكم».

في هذا المحيط الأدبي نشأ الأستاذ عبد القدّوس الأنصاري، حيث رأى النور بالمدينة المنوّرة سنة ١٣٢٤ هجرية، وقد تربّى يتيماً فقد أبويه معاً قبل أن يبلغ السابعة من عمره، ولكن الله هيّأ له عالِماً فاضلاً هو خال أبيه فشمله برعايته القصوى مادياً وعلمياً، إذ إن الشيخ محمد الطيب الأنصاري كان من وجوه العلماء بالحجاز، وله رياسة علمية بمدرسة العلوم الشرعية التي أنشأها السيد أحمد الفيض أبادي، فعمل الخال الكريم على أن يلتحق الناشىء بالمدرسة، بعد أن مهّد له

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ١٤٩ بتاريخ ١١/٥/١٩٣٦ م.

بدراسة ابتدائية تشمل متون النحو والفقه، وشذوراً من قضايا البيان والبديع والتفسير والحديث، وكأن الطالب وقد اتصل سببه بالمدرسة، وله الصلة الوثيقة برئيسها، شاء أن يكون قدوة في التحصيل العلمي، فأكبّ على دراسته إكباب مَن ينشد الأوليّة في الترتيب، لا مَن يرتقب مجرد النجاح، وواصل الدراسة ما استطاع حتى تخرّج من المدرسة، وكان الامتحان الشفوي عامّاً يحضره الجمهور، وكأنه مناقشة رسالة علمية، فازدحمت المدرسة بالزائرين وفي مقدّمتهم رئيس ديوان الإمارة، ولمس من إجابة الطالب ما كان موضع تقديره، فعُيِّن بإدارة الإمارة بالمدينة لفوره، ولم يكن يطمع في سرعة هذا التعيين، ولكن الثمرة سقطت في يده لذيذةً مُشتهاة!.

وقد تحدّث الأنصاري عن أحلامه الطامحة في باكورة صِباه حين التحق بمدرسة العلوم الشرعية فقال[1]:

«كان الفتى خجولاً منطوياً على نفسه، مُحِبّاً للعُزلة أنّى وجد لها سبيلاً، وكان لا يبتسم لشيءٍ قدر ما يبتسم للدرس والكتاب، وما يستتبعانه من حفظ ومطالعة وتكرار، وكأن انطوائيته فتحت له آفاق الدأب في تحصيل العلوم، فكانت متعة أن يتخيّل نفسه وقد بزّ الأقران، وصار عَلَماً يُشار له بالبنان.

وقد ازداد جدُّ الفتى وتضاعف إقباله على التحصيل، وواصل ليله بنهار، ولم يَرْضَ مطلقاً إبّان دراسته إلاّ أن يكون الأول في كل الاختبارات، فآثر النّصب على الراحة وأعرض بالكلية ـ وما كان قبل مُقبلاً ـ عن ألوان اللهو والمتع التي كانت تستهوي أقرانه الآخرين، وكان الفتى مغتبطاً بهذا العهد الجديد أيّما اغتباط، وقد شعر المدير بما يحمله قلبه من حرص واجتهاد، فما قصّر في إغداق المساعدات عليه، وصار يعهد إليه فوق ذلك ببعض المهام زيادة في نشاطه، ورفعاً لمستواه الفكري في ميدان الأعمال الإدارية والاجتماعية».

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ٦٧١، بتاريخ ١٣/٥/١٩٤٦م.

كان الطالب من لدُن دراسته في المدرسة الشرعية مشغوفاً بمسائل الأدب واللغة والتاريخ، وقد كان يتطلّع إلى مجلاّت العالم العربي في شوق، ويُعدّ كُتّابها الكبار أساتذته الحقيقيين، وقد اعترف أن المنفلوطي ومحمد فريد وجدي ومحمد حسين هيكل والعقّاد والمازني كانوا المصدر الأوفى لإلهاماته الأدبية، وطموحاته العلمية، فهو في وظيفته الجديدة بديوان الإمارة بالمدينة، ثم فيما تلاها من رئاسة التحرير بصحيفة أُمّ القرى بمكة، ومن العمل في ديوان سموّ الأمير وليّ العهد، ثم في إدارات المالية والمشاريع والأنظمة، هو في كل هذه الأعمال لم يغب عنه لحظة أنه صاحب قلم، وأنه من آرابه الملحّة أن يُنشىء مجلة أدبية تشبه الهلال أو المقتطف.

وقد حُبّب إلى نفسه أن يُختار حقبةً محدودةً أُستاذاً بالمدرسة التي تعلّم فيها، فكانت أستاذيته تلك مبعث نهضة كبرى بالمدينة المنوّرة، لأنه استطاع أن يقوم على إعداد جيل يبعث النهضة الفكرية في الحجاز، وقد هدته بصيرته اللغوية إلى تتبّع اللغويات المخطئة في الصُّحُف، ليكون ذلك أول عمل علمي في تنقية الأساليب الصحفية، وطبيعي أن يدور نقاش ما حول هذه اللغويات، وفقاً لأهواء المعقّبين، إذ فيهم مَن يقتصر على النص الوارد في الشعر العربي والنصوص التي يحتجّ بها من رائع النثر، وفيهم مَن يرى التسامح في اتخاذ ألفاظ جديدة لم تعرفها العرب من قبل.

وكان العلاّمة الكبير الشيخ أحمد الإسكندري في طليعة مَن يتشدّدون في اقتفاء اللفظ المُعتَرَف به، وله أدلّة علمية كانت موضع الإقناع من الأستاذ الأنصاري، مُضافاً إلى ذلك سعة محفوظه من الشعر القديم حين يسعفه بلفظ لم يرد في المعاجم، وظنّه الباحثون غير فصيح، وقد جمع الأنصاري تحقيقاته في أول بواكيره العلمية وهو ما سمّاه «إصلاحات في لغة الكتابة والأدب» وما زال الأنصاري على هيامه بالتصحيح اللغوي، حتى في ضبط حرف واحد من حروف الكلمة، والقرّاء يعرفون معركته الكبرى في نطق كلمة (جدة) إذ خالف مَن ضمّ الجيم ورأى وجوب الكسر وكان من المشتركين في النقاش أعلام كبار.

وكنت اجتمعت معه ليلة في منزل الرائد الكبير الأستاذ محمد سعيد العامودي بمكة، فدار نقاش حول حق المحدثين في اتخاذ ألفاظ جديدة، وكنت على ذكر مما قرّره المجمع حين تقدّم الأستاذ أحمد حسن الزيّات باقتراحه الخاصّ في إثبات حق البلغاء من المحدثين في وضع الكلمات المستحدثة، فأخرج الأستاذ من جيبه كنّاشة ودوّن ملخّص ما قلت، وأذكر أني حدّثته بوجوب التريّث حتى أبعث له مجلة المجمع ليرى الرأي من مصدره الموثوق دون تحويرٍ ما، فقال: سأرجع إلى المجلة لا مَحالة ولكني سأفكّر فيما قلت وكتبت، لأبني رأيي الخاصّ كما يتّضح عن قريب!.

أما الكتاب الثاني الذي تلا كتابه اللغوي فهو مؤلّفه الحافل عن آثار المدينة المنوّرة، إذ قرأ الرجل كثيراً مما دوّن عن هذه الآثار في كتب التراث، ثم في كتب الرحلات إلى الحجّ في القديم والحديث، ورأى في هذه الأقوال ما يتضارب تضارباً يصل إلى حدّ التناقض، وأدرك أن بعض المتحدّثين لم يقوموا بدراسات ميدانية إلى مواقع هذه الآثار، ولكنهم اكتفوا بما قيل عنها، حين يردّده خالف عن سالف دون تحقيق، فوطّد العزم على أن يكون هو الدّارس الميداني الأول، وحمل أوراقاً كالجُذاذات معه في زيارته ليدوّن في كلّ ورقة ما يقع تحت ملاحظته، ثم يقارن ما كتب بما قيل.

كما رسم خريطة من إبداعه دون التقيّد بخرائط مماثلة لتوضح هذه الآثار المباركة أثراً أثراً، واستطاع بعد جهد الدّارس المستوعب أن يتحدّث عن آثار المدينة كما رجع إلى بقاياها، وأن يبدّد ما وقع فيه سابقوه من الأخطاء.

وكان لكتاب الآثار ضجّة علمية في العالم العربي، إذ طلع على الناس بحقائق جديدة لم تُعرَف من قبل، وأذكر أن العلاّمة الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي قد عرف للكتاب الأثري مكانه العلميّ، فخصّه بكلمة مرحّبة في مجلة الأزهر التي يقوم على تحريرها وقد قال فيها[1]:

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص ٣٦٦ وما بعدها، سنة ١٣٥٤ هـ.

«هذا كتاب نفيس ألمّ المؤلّف الفاضل فيه بكل ما تقع عليه العين من آثار مدينة الرسول ﷺ، من الدُّور والقصور والحصون والمساجد والبلاطات والأمكنة المشهورة والجبال والحرار والأودية والآبار والعيون، وكلّ هذه الأشياء يهمّ زائر المدينة أن يعرفها ويعرف تاريخها، فهذا الكتاب بمثابة دليل مفصّل لها، وقد وُضِعَ بعناية وتدقيق عظيمين، كما حُلّيَ بالصور الفوتوغرافية مما زاد في قيمته العلمية».

ثم أخذ الأستاذ فريد وجدي ينقل فصولاً من الكتاب كنماذج مما يتضمن، فنقل ما تحدّث به الأنصاري عن أول مسجد في الإسلام وهو مسجد رسول الله، فأتى على صورته في مهده متابعاً ما أدخله الوُلاة على مرّ العصور من الإصلاحات في بيان دقيق تؤيّده الأرقام وتدعمه التواريخ، كما نقل الأستاذ وجدي ما جاء في كتاب الآثار النبوية عن مسجد الجمعة وعن مسجد المصلّى أو مسجد الغمامة، وفي ذلك من الاحتفال بالكتاب ما يضعه الموضع الكريم.

وأذكر أن الدكتور محمد حسين هيكل حين حجّ بيت الله الحرام، وأراد أن يحقّق الأماكن التاريخية في مسرح الدعوة الإسلامية الأول طلب من ذوي الأمر بالمملكة العربية السعودية أن يُزامِله أستاذ متخصّص في تحقيق الأماكن النبوية التي سَعِدَت من قبل برسول الله، فكان الأستاذ الأنصاري في مقدمة مَن استرشد بهم الكاتب الكبير، وحين كتب مؤلّفه (في منزل الوحي) سجّل للأستاذ الأنصاري من جيّد الآراء ما ازدان به كتاب الدكتور هيكل، لأن الأنصاري كان يأتي بالقول الفصل عند اشتباه الآراء، من ذلك تحقيق موقع الخندق الذي حفره المسلمون يوم الأحزاب، فقد تضاربت الأقوال في شأنه، ووقع الباحثون في غيمٍ غير كاشف، فحارَ الدكتور هيكل فيما يأخذ ويدع، ثم اطمأن إلى ما قاله الأستاذ الأنصاري، وقد رصده في قوله[1]:

«ولقد فكّرت أن أجعل الخندق الذي حفره المسلمون في غزوة الأحزاب أيام النبي حدّاً فاصلاً ما بين المدينة وظاهرها، لكني لم ألبث حين البحث أن

(١) في منزل الوحي، للدكتور محمد حسين هيكل، ط ١، ص ٥٠٤.

رأيت تحديده عسيراً، فقد سألت الأستاذ عبد القدّوس الأنصاري يوماً أن يُريني إياه، فلم يُخْفِ عليّ أنه يتوهّمه ولا يراه علم اليقين، وله من العذر في ذلك ما نقله في كتابه (آثار المدينة المنوّرة) عن المطري الذي أرّخها في القرن الثامن الهجري، إذ قال: «وقد عَفَا أثر الخندق اليوم، ولم يبقَ منه شيء يُعرَف إلاّ ناصيته، لأن الوادي (وادي بطحان) استولى على موضع الخندق وصار مسيله في الخندق» على أنه حاول أن يقف بي عند ما يعتقده أثره، كما بيّنه على خريطة تقريبية ضمّها كتابه. أما والتحديد الصحيح للخندق غير ميسور، فلأجعل هذا التحديد التقريبي بديلاً منه للغرض الذي أتوخاه، غرض الفصل ما بين المدينة وظاهرها.

والخندق كما صوّره الأستاذ عبد القدّوس يقع في شمال المدينة بينها وبين أُحُد، وينحدر إلى الشرق بينها وبين حَرَّة واقم، ويتّصل من الجنوب بوادي بُطحان، ومن الغرب بحَرّة الوبرة، وفيما وراء الخندق من الشرق تقع منازل اليهود في عهد الرسول، بني قريظة وبني النضير، وفيما وراءه من الغرب يقع وادي العقيق، وتقع قِباء في جنوبه».

وفي كتاب منزل الوحي آراء أثرية منثورة للأستاذ عبد القدّوس تكشف عن دراسته الذاتية لهذه الربوع الكريمة، وهي دراسة استعداد وإلهام أكثر منها دراسة كليّة وأُستاذ.

ومن الكتب الأثرية ذات الطابع التاريخي مما ألّفه الأنصاري كتاب تحقيق «أمكنة بالحجاز وتهامة»، وكتاب «تاريخ مدينة جدّة»، وكتاب «تاريخ العين العزيزية بجدّة»، وكتاب «بنو سليم»، وكتب الرحلات الأربع «رحلة الرياض، ورحلة الباحة، ورحلة الحجاز، ورحلة بني تميم»، وكتاب «بين التاريخ والآثار»، وكتاب «مصادر المياه بالمملكة العربية السعودية»، وكتاب «بُناة العلم في الحجاز الحديث»، وهي كتب تاريخية أصيلة في بابها، لو اقتصر عليها الباحث لأدّى دوراً طيّباً يحفظ اسمه في سجلّ الكبار من المؤلّفين، ولكنه زاول قضايا الأدب واللغة والدين، ورأس تحرير صحيفة أدبية ظلّت تصدر في حياته نحواً من أربعين عاماً لا بدّ أن نُشير إليها في معرض التنويه.

وقد تأخّر ظهور الصُّحف في الحجاز إذا قُورِنَ بما ظهر في مصر والشام والعراق، لأن سيطرة الحكم التركي لم تسمح بانتشار التعليم على وجهٍ متّسع، وبالتالي لم تُنتج القارىء المتعطّش للمعرفة سواء عن طريق الكتب أو الصُّحُف، والذين يؤرّخون للصحافة الحجازية يذكرون أن أول صحيفة ظهرت بمكة هي جريدة الحجاز، وكانت ذات قسمين تركي وعربي، ثم صدرت عدّة نشرات تسمّى صُحُفاً عن طريق التجوّز.

وقد أفرد الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودي بحثاً عن تاريخ الصحافة في بلده نشره في كتاب (من تاريخنا) فسرد أسماء الصُّحُف على ترتيب الصّدور، وكان مما لفت نظره أن العهد العثماني جميعه لم يَحْظَ بمجلة واحدة للعلوم والآداب، وأرجع السبب في ذلك الإهمال إلى قلّة انتشار التعليم، واعتماد المدرسة الرشدية ـ وهي المدرسة الوحيدة إذ ذاك في مكة ـ على اللغة التركية في تعليم تلاميذها، ولم يكن غريباً أن تنحدر الصحافة في بلادٍ لم يكن بها غير مدرسة واحدة[1].

ثم كانت النهضة العربية في عام ١٣٣٤ هـ فيصلاً بين عهدين، ولكنها كانت في رأي الأستاذ العامودي ضعيفة الأثر، وقد ظهرت على التوالي صُحُف «القبلة»، و«الفلاح»، و«المجلة الزراعية»، و«أُمّ القرى»، و«الإصلاح»، و«صوت الحجاز»، وهي صُحُف تعيش البحوث الأدبية على هامشها دون أن تُفرَد لها أبواب دائمة، لذلك كان المتطلّعون إلى قيادة الحركة الأدبية يهاجرون بمقالاتهم إلى صُحُف مصر والشام.

وقد أسهم الأنصاري في تحرير مجلّات بريد العرب والمقتطف والسياسة بمصر، وفي صحيفة المرشد العربي بظفار، وفي مجلة العالم الإسلامي بسومطرة، فامتدّ نشاطه إلى آفاق العالم الإسلامي، ورأى من ترحيب هذه المجلّات بآثاره العلمية ما دفعه إلى التفكير في إصدار مجلة أدبية تنحو منحى المقتطف والهلال وهو تفكير طامح حقّاً، لأن الطباعة والنشر ووسائل الذيوع وجمهرة القرّاء ليست في الحجاز مما يؤذن بنجاح مجلة ينهض بها فرد واحد بالغاً ما بلغ من القوة والاعتزاز.

---

(١) من تاريخنا، للأستاذ محمد سعيد العامودي، ص ١٨٨ وما بعدها.

وقد قامت بعض الصِّعاب دون التنفيذ، حيث التمس الإذن بصدور المنهل سنة ١٣٤٨ هـ، ومضت الأعوام في ردٍّ واستطلاع حتى سمح له في ذي القعدة سنة ١٣٥٥ هـ، إذ صدر الأمر الملكي بالموافقة على إصدار المنهل، ولم تكن مقدرة الأنصاري الماديّة بالتي تُعينه على نفقات الطبع في يُسْر، إذ كان كلُّ ما يملك لا يزيد عن أربعين ريالاً دفعها للعدد الأول، وبقي من النفقات المطبعية عشرون، وإذا كانت الأعمال بالنيّات فقد أُلهِمَ الأنصاري أن يوزّع إعلانات على الإدارات الحكومية تدعو الموظفين إلى الاشتراك في تعضيد (المنهل) ولاقى استجابةً عاجِلةً ممّن عرفوا مكانته وقرؤوه من قبل في الصُّحُف الداخلية والخارجية.

وبذلك تذلّل العسير، وشاعت أول مجلة أدبية تنطلق من المدينة المنوّرة لترسل ضياءها في محيطها القريب بدءاً، ثم يأذن الله بانتشار الضوء بعد أَمَدٍ طال أو قصر حتى بلغ أرجاء العالم العربي، فكان للمنهل قرّاؤه وكُتّابه في مصر والشام والعراق والمغرب وتونس واليمن، ولمعت على صفحاته أسماء جديدة، أخذت تتسنّم ذروة الاشتهار الأدبي، حتى أصبحت فيما بعد ذات توجيه ريادِيّ في محيطها الكبير، ولن تجد في نصف القرن الأول كاتباً عربياً يعيش بالمملكة السعودية دون أن تجد للمنهل أثراً في ذيوعه وسيرورته، فالمنهل والدٌ نجيب.

- ٢ -

لقد كان ظهور المنهل متنفّساً مُريحاً للصفوة من زملاء الأنصاري وتلاميذه بالجزيرة العربية، إذ بعث فيهم من العزيمة ما دفعهم إلى الإنتاج الجادّ، وقد أخذ الأستاذ الأنصاري نفسه بخطّة معتدلة في تقديم الثمار الفكرية لقرّائه، فجعل من ديدنه أن يجمع بين الأساتذة والتلاميذ في ساحة المنهل، فهو يحتفل بجهود الكبار ويجعلها نمطاً للاحتذاء، ثم يرعى في الوقت نفسه جهود الناشئة، فيقدّم من آثارهم بواكير تدفعهم إلى مواصلة الجدّ، ليتسلّموا الراية بعد أن يستووا على سوقهم.

وإذا كان الأستاذ أحمد حسن الزيّات قد أعلن على صفحات الرسالة أن مجلّته في اختيار موادّها الأدبية لا تجامل القويّ، ولا تشجّع الضعيف، بمعنى أن

الكاتب الكبير إذا كتب في ساعة الجفاف الأدبيّ مقالاً لا يعطي الثمرة المرجوّة فلن يحظى بالنشر في مجلة الرسالة، كما أن الأديب الشاب إذا لم يرتفع إلى مستوى الإبداع الحقيقي لا يجد الترحيب من الزيّات، إذا كانت هذه خطّة الرسالة فإن المنهل يختلف عنها من حيث النظرة إلى إنتاج الشباب الطّامح.

وحسناً فعل الأنصاري، لأنه بالتضحية التربوية العاقلة ببضع صفحات للأقلام الواعدة قد أورث نفوس الشبيبة الحجازية أملاً كبيراً، إذ لا يدفع الشاب الموهوب إلى مواصلة إبداعه غير التشجيع المطّرد، وكم من شاب طامح تطلّعت نفسه إلى السباق في حلبات الأدب الرحيبة فأوصدت أمامه الطرق، وعاود الإلحاح مَثنى وثلاث ورباع فلم يَحْظَ بطائل، حتى تملّكه اليأس وودّع رِياض الفكر باكياً منتحباً، فإذا وجدنا الآن أقلاماً ممتازة تحتل الساحة الأدبية في المملكة العربية السعودية فإلى المنهل يرجع كثير من الفضل.

على أن المنهل كان بركةً علميّة ضافية على صاحبه، وفي حقله الواسع نُشرت مقالات الأنصاري على نطاق فسيح، فتكوّنت من مجموعها كتب أدبية، رآها القرّاء متفرّقة في أعداد المنهل مرّةٍ أولى، ثم مجموعة في كتب مختلفة مرة ثانية، وهكذا كان يفعل كبار الأدباء والعلماء من أمثال يعقوب صرّوف صاحب المقتطف، وجرجي زيدان صاحب الهلال، ومحمد حسين هيكل صاحب السياسة الأسبوعية، ومَن لا نحصي من أئمة الصحافة الأدبية في العالم العربي.

وقد لاحظت أن المنهل كان أقرب إلى مجلّة الهلال منه إلى مجلّة المقتطف وكلتاهما مجلّة شهرية كالمنهل، فمجال الموازنة بين الثلاثة واردٌ غير مقصيٍّ، لأن الطابع التاريخي والأدبي في مجلة الهلال قد انتقل شيئاً فشيئاً إلى المنهل، ولم يكن ذلك دون جهد شاقّ بذله الأنصاري لاختلاف البيئة الثقافية بين مصر والحجاز، إذ ساعدت عوامل عدّة على سبق الأولى في النهوض الأدبي حيناً من الدهر، كما سبقت الجزيرة العربية من قبل ربوع العالم الإسلامي في الإبداع الشعري، فعلى نغمات شعر الحجاز ونجد في قديم الأدب العربي تيقظت النفوس وامتدت الأحلام، بحيث أصبح أدب الجزيرة باعث الإلهام ومُوقِظ الآمال.

تقـدّم الأنصاري بخـطّته في العـدد الأول من مجلتـه، فـذكـر في افتتـاحيتـه الصادرة في ذي الحجة سنـة ١٣٥٥ هـ. إن من علامـات حظوة المنهـل بما تصبـو إليـه من نجاحٍ مُـطّرد ما نـراه مـاثـلاً في الأذهـان من ضـرورة السمـوّ بهـذا الأدب الحجازي وإبرازه في حلّة قشيبة، تليق بمكانة الحجاز الـدينية ومنـزلته الاجتمـاعية في العروبة والإسلام، وهذا الشعـور الطيب سيكـون بتوفيق الله تعـالى أكبر مِعـوانٍ للمنهـل في الفوز بمـطامحها الجليلة، وإن من أهم مـا تصبو إليـه أن تكون فـاتحة عصر ناضِـرٍ في أدبنا الحجـازي، فتُعيد إلى هـذه البلاد المقـدّسة مكـانتها الأدبيـة الشامخة بين أقطار العروبة، ليغتبط العالم الحديث بقسّ الحجاز وسحبانه، ويشدو بنابغته الجديد وحسّانه.

والأدب الحجازي ـ كما يقول الأنصاري ـ وإن كـان وليد أعـوام معدودة فـإنه قـد خَطَا إلى الأمـام خطوات مبـاركة تـدلّ على ما بعـدها، إذ أَطْلَع في سمـائه في ظرف وجيز نجوماً لها شُهرتهـا الأدبية بمـا أذاعه من قصـائد رائعـة ونثر قيّم، وهـذه النجـوم الطالعـة في سماء الحجـاز إذا ساعفتهـا المقاديـر، ووجدت آفـاقـاً واسعـةً للجولان والنشر والدعاية الكافية فإنها ستتطوّر في سنـوات معدودة إلى أقمـارٍ زاهرةٍ وشموسٍ بارعة، إذ الحجاز هو مهد الأدب العـربي وموطنـه الأول، ومنه امتـدّ إلى سائر الأقطار.

وليس الأدب أداة تسليـــة ولهـو ولكنـــه من أسمى الفنـــون التي تُنهِض الأمم وتنعشها، وهو المحرّك الكهربائي الذي يبعث روح الإصلاح في الشعوب، ويُـوقِظ فيهـا الفتوّة والشعـور بالكـرامـة ويحفـزهـا إلى التقـدّم، وهـو الـذي يُـوحي أسمى الخيـالات إلى الأذهان الخـاملة، ويُثير الحمـاسة إلى المُثُـل العُليـا في الصـدور، وينتشلها من مستنقع الانحطاط، وهو الحادي الحافِز كلما هاودها الوهن والفتور.

وقـد قـال الأنصـاري في كُتيّب صغيـر نشـره ملحقاً بعـدد ذي الحجّـة سنـة ١٤٠٣ هـ من المنهل، إن المنهل بـدأ ضعيفاً مهلهـلاً في طباعتـه وإخراجـه وموادّه وكل شيء فيه!! وهذا القول يُنبىء عن طموح صاحبه المديـد، بحيث لم يرضَ إلاّ بـالكمال التـامّ، لأني أرى العدد الأول ـ وقـد دَرَسْتُه دراسـةً فـاحصـة ـ لا يُـوصَف

بالضعف ولا بالهلهلة، فقد جمع مقالات أدبية ودراسات تاريخية ونفثات تربوية، كما قدّم أعلاماً من رجالنا لم تسلّط عليهم الأضواء من قبل مثل عبد العزيز بن يحيىٰ بن مسلم الكناني العالِم الحجازي الذي ائتلق في عصر المأمون، هذا غير الشذور اللغوية والقصائد الشعرية، ومثل هذا العدد الواعد لا يوصف بالضعف ولكنه هلال يُؤذِن بقدوم البدر.

وإذا كانت البحوث الأدبية العامّة قدراً مشتركاً بين قرّاء العربية جميعاً، فقد امتازت المنهل بمعالجة شؤون البيئة الحجازية معالجةً شجاعة لا تنقصها الصراحة حتى ولو آلمت بعض النفوس.

فالأستاذ الأنصاري مثلاً يتحدّث عن مشكلة الهجرة[1] إلى البلاد السعودية فيقرّر أنها إحدى المشاكل الاجتماعية العسيرة، لأن آلاف الوافدين يتكدّسون في البلاد فيسبّبون الأزمات الاقتصادية (كان هذا سنة ١٣٧٤ هـ) في الغذاء والكساء مع أنهما مستوردان لا يكفيان لتموين الأصلاء. ثم يرى الكاتب علاج هذه المشكلة في تهيئة منافِذ العمل الجادّ لهؤلاء، إذ إن مساحة المملكة شاسعة، وكثيرٌ منها لا يزال صحارى خالية من السكّان، وفي هذه الصحارى أماكن عديدة بعضها واحات خصبة كانت مزروعة من قبل، ولكن تنقصها الأيدي العاملة، ولا بدّ من فحص المهاجرين، ومعرفة قدراتهم العملية، وتهيئة وسائل الكسب لهم فيما يُحسِنون من أعمال.

ويخوض المنهل معارك اجتماعية وثقافية تدور رُحاها حول قضايا المرأة، والتوجيه التربوي، وشؤون التجارة والزراعة، ومسائل الأدب والنقد، وطبيعي أن يكون لهذه المعارك صدىً متجاوب ما بين تأييد وتفنيد، وأن يشتدّ النقد بصورة لا تُرضي مَن يلتمسون حانب العلاج الرقيق، ولكن الأنصاري يرى في هذه المعارك بشائر نصر محقّق، لأن احتكاك العقول يبعث شراراً يتّقد فيضيء. ثم يتساءل أيّ نقد يريد، ويردّ على هذا التساؤل قائلاً[2]:

---

(١) المنهل، عدد المحرّم، سنة ١٣٧٤ هـ.

(٢) المنهل، جمادى الأولى ١٣٧١ هـ.

«إنه النقد البريء النّزيه، إنه النقد الواعي الذي يقوم على الدراسة والخبرة والمعرفة، ونشدان الإصلاح الحقيقي، وليس بالنقد المتهافت المُغرِض، إذ ما دَخَلَ هذا النوع من النقد على أمة إلّا ذاقت منه الأمرّين، وأوسع الخلاف بين أبناء الدين الواحد والوطن الواحد، ولكن النقد النزيه حافز لتكوين الوعي، والشعور بالنقص تأهبٌ للكمال، ولن يتكوّن الوعي الحقيقي إلّا بصراحة الرأي ونزاهة القصد».

وحين انتقلت إلى الصُّحُف السعودية قضية الأدب والالتزام، ووُجِدَ مَن ينادي بأن يكون الفن للفن، وهي معركة تتكرّر في البلد الواحد دائماً، ولا يفتأ التالي مردّداً ما قال السابق، وكان الأجدر بنا أن نواصل المسيرة لا أن نبدأ الخطو من جديد لننتهي إلى ما انتهينا من قبل، وكأننا ندور في حلقة مُفرَغة، أقول حينما اشتغلت الصُّحُف السعودية بهذا الجدل لم يفت الأستاذ الأنصاري وقد جعل صحيفة المنهل أداةً لترقية البلاد فكرياً وسياسياً واجتماعياً أن يعلن رأيه الصريح في الالتزام برسالة سامية للأدب في مجتمعه كي ينهض على أجنحة أدبائه وشعرائه، وإذ ذاك يكون جمال التعبير، وروعة الخيال مصدر استهواء لإصلاح حقيقي يرتقي بشعور الفرد، ويسمو بالمجتمع أدبياً ومادياً؛ يقول الأنصاري ما ملخّصه:

«إن الأدب للفن قد انبعث عن التفكير الذهني المجرّد الذي يفصل الماهيّة عن الماصدق، ويفصل الجوهر عن العرض، إذ يرى للجمال وجوداً مستقلاً قائماً بذاته، أما الأدب للحياة فلا يفصل الماهيّة عن الماصدق، إذ ليس للجمال وجود مستقل قائم بذاته»[1].

هذه الآراء وأمثالها قد ائتلقت على صفحات المنهل في مدى أربعين عاماً، وقد أفرد لها الأستاذ الدكتور سيد تقي الدين بحثاً شافياً يقع في مجلدين تحت عنوان (مجلة المنهل وأثرها في النهضة السعودية) فأدّى خدمةً كبرى لتاريخ الصحافة الأدبية في المملكة العربية السعودية ممثّلة في أعرق مجلّاتها، إذ كانت المنهل أُمّاً

---

(١) مجلة المنهل وأثرها، للدكتور سيد تقي الدين، ص ٢٣٧.

لما تلاها من مجلّات أدبية كالجزيرة واليمامة واقرأ والعرب والفيصل والدارة والمجلة العربية! ومن السعادة الهنيئة لمجلة المنهل أن تكون أُمّاً رؤوماً لهؤلاء.

على أن شخصية الأنصاري تركت طابعها الجادّ على مجلّته، فالأستاذ الأنصاري قويّ الخلق، صريح الاتجاه، مُجادِلٌ متمكّن، يَلِجُ الحوار مسلّحاً بأقوى عدده، وقد جالسته كثيراً، وامتدّ الجدل في مناحٍ مختلفة من شؤون الأدب والسياسة، فكنت أسعد كلّ السعادة حين يخالفني في الرأي، لأنه يبسط حججه في براعة، ويحيط الموضوع من كافّة أطرافه، ثم لا ينقطع حتى يبلغ ما يريد بسطاً دون طيّ، وهكذا شأنه حتى مع كبار المُجادلين من أمثال المفكّر الكبير الأستاذ عباس محمود العقّاد، إذ شاهدت في المقدمة البديعة التي كتبها الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور العطّار لكتاب الأنصاري (مع كتاب الواضح للزبيدي) شاهدت موقفاً طريفاً في إحدى ندوات العقّاد الأسبوعية جلاه الأستاذ العطّار حين قال[1]:

«وفي إحدى ندوات العقّاد حضر الأستاذ الأنصاري، وثارَ جدل عنيف بينهما، وكان العنف في كلام الشيخ الأنصاري واللّطف في كلام الأستاذ العقّاد رحمهما الله، ثم غادر أبو نبيه الأنصاري الندوة، وعجب الحاضرون من لطف العقّاد، إذ يعرفونه شديد الوطأة على مَن يجادلونه، وسألوه، فقال لهم: هذا الأنصاري، وَمَن العقاد في جانب رسول الله محمد ﷺ الذي أكرم الأنصار؟ وإذا أكرمهم رسول الله أفلا يكرمهم العقّاد؟ وهل بلغ بالعقّاد سوء الأدب حتى لا يكرم أنصاريّاً لفضله وعلمه وأدبه وجِواره لرسول الله؟».

ولعلّي بهذه المناسبة أعلن ما قرّرت من قبل حين لمست أوجه شبه بين العقّاد والأنصاري، فكتبت مقالاً تحت عنوان «الأنصاري في مصر»[2] مُوازِناً بين الأستاذين الصديقين الرائدين عبد القدّوس الأنصاري ومحمد سعيد العامودي، جاء فيه:

---

(١) مقدمة كتاب (مع كتاب الواضح، للزبيدي)، للأستاذ العطّار، ص ١٥.

(٢) المنهل، العدد ٤٣٠، محرّم، سنة ١٤٠٥ هـ.

«وأنا أقدّس الصداقة الفكرية وأعدّها أقوى أسباب المودّة، وقد شاهدت بين الأستاذين الكبيرين عبد القدّوس الأنصاري ومحمد سعيد العامودي صداقة مِثالية لُبابها الأدب الخالص، ومحورها المثل العالي للخلق الكامل، وبين الأنصاري والعامودي اختلاف كبير يذكّرني باختلاف ما بين المازني والعقّاد من سِمات فكريّة، ولكنه اختلاف مُثمِر نافع، لأن كِلا الصديقين في هذا الاختلاف يجد المجال الممتع لنقاش صاحبه، وتقبّل ما لديه بارتياح.

العامودي كالمازني ذاتي أكثر منه موضوعياً، يعتمد على عواطفه الخاصّة أكثر مما يعتمد على اطّلاعه، ويميل إلى التشجيع والتغاضي عمّا يؤلِم منقوديه، وقد يلتمس المعاذير لأكثر الأخطاء، وهكذا كان المازني، والأنصاري كالعقّاد موضوعي يستشير المراجع، ويفصل ما بين الآراء، وفكره مجال تبريزه الأول، وإذا نقد فلا بدّ أن يكشف كل المآخذ دون نقاب، وهكذا كان العقّاد، وإذا كان الاطّلاع الدائب المِلحاح ديدن الكاتبين المصريّين فهو أيضاً ديدن الكاتبين الحجازيين!.

وقد عرفت من عزيمة الأنصاري أنه إذا تفرّغ لعمل علمي لا يستريح حتى ينتهي منه، ومما أتمثّل به في ذلك كتابه الرائع عن عبد المحسن الكاظمي شاعر العرب الأشهر، إذ تفرّغ لدراسته وكتابته على طوله النسبيّ في إجازة العيد التي لا تتجاوز أربعة أيام، وليس معنى ذلك أنه لم يعرف الكاظمي من قبل، فهو كقارىء كبير قد والى قصائد الشاعر العراقي حين كانت تشرق في أُمّهات الصُّحُف، كما قرأ ما كُتِبَ عنه تقريظاً ونقداً، وسعد بمجموعة من شعره تقع في مجلّدين، ثم انفعل كلّ ذلك في نفسه الدراسة فجاشت بشتّى الأفكار العاطفة نحو هذا الشاعر الكبير، ولم يجد بُدّاً من الترويح عن خواطره، فخطّ كتاباً يحمل ما يعتمل بنفسه على مدىً متطاول، وكان القلم يتسابق مع خاطره لينقل كلّ ما يجيش في نفسه!.

ونحن نعرف الكاظمي شاعر الارتجال الأول في عصره، ومَن يدري فلعلّ الأنصاري في دراسته العاجِلة كان يقابل ارتجالاً بارتجال، ولن تُعاب السرعة حين تنقل عن فكرٍ قوي جيّاش، ولكنها تُعاب حين تقول ما لا يُسمح من التفاهات.

لقد أدّى الأنصاري دوره الثقافي في وطنه، فأصبح أحد أعلام الفكر المعاصر، وتبوّأ مقعد صدق لدى المؤرّخين، والرجل بعد هذا النضال المتّصل كان واسع الصدر كلّ السّعة لدى مَن يناقشه في حَيدةٍ وإخلاصٍ، أذكر أنّي نشرت في مجلّة الدعوة بالرياض مقالاً نقدياً عن كتاب الكاظمي، وأُعيد نشره بمجلة المنهل فيما بعد[1]، وكان مما استوقفني كثيراً قول الأنصاري رحمه الله:

«إن النصر للنازح الغريب إلى مصر ليس بالأمر السهل، فمن طبيعة المصريين أنهم يقدّرون مَن كان مصرياً فقط، وقد رأينا السيد رشيد رضا يتبرّم من أن بعض المصريين كان ينظر إليه كأنه دخيل».

استوقفني هذا الكلام، فقلت في نقده: «إني أُخالفه كلّ المخالفة، لأن المصريين باعترافه كانوا يقولون عن شكيب أرسلان ص ١٤ إنه كاتب الشرق وأمير البيان، ويقولون عن جمال الدين الأفغاني إنه حكيم الشرق، وقد كان خليل مطران شاعر القطرين لديهم، أما السيد رشيد رضا فقد غاب عن الأستاذ الأنصاري أنه كان يشكو حملة سلامة موسى عليه وعلى كل سوري يشتغل بالصحافة! ومثل سلامة موسى لا بدّ أن يضيق بالسيد رشيد كما ضاق بمصطفى صادق الرافعي، وقد تمتَّع السيد رشيد رضا بحبّ المصريين لدرجة أنه كان يشتم شيخ الأزهر الأستاذ الظواهري ويوسف الدجوي عضو جماعة كبار العلماء دون أن يجد مَن يعترض طريقه.

ولعلّ الأستاذ الأنصاري يعلم أن الأزهر الشريف قد أتى عليه زمنٌ كان شيخه الأكبر محمد الخضر حسين تونسياً، وكان وكيله الأستاذ محمد نور الدين سودانياً، وشيخ كلية الشريعة عيسى منون فلسطينياً، وذلك كله في وقت واحد! فكيف تضيق مصر إذن بغير المصريين!! أما الإشادة بأعلام العرب من غير المصريين في دواوين الشعراء المُعاصرين فأبرز من أن تنكر، ففي الشوقيات روائع شعرية قيلت في عمر المختار وفوزي الغزي وأمين الريحاني ومولانا محمد علي، فما معنى هذا؟

---

(١) المنهل، عدد ربيع الأول، سنة ١٤٠٤ هـ.

والأساتذة محبّ الدين الخطيب وكرد علي والنشاشيبي والمغربي قد ائتلقوا على صُحُف مصر، ولاقوا من أُدبائها كلّ احتفاء»!.

وما كاد المقال يُنشَر بمجلّة الدعوة حتى رأيت الأستاذ الأنصاري يتكرّم بزيارة منزلي بالرياض، ويقول: إنه يرجع عن قوله بعد أن ذكرت له من الأسماء مَن لا يشكّ في تقديرهم، ولكنه يطلب تفسيراً لإهمال الكاظمي ماديّاً في مصر، فقلت له: لا يرجع ذلك إلى عراقيته، ولكنَّ حِرفَة الأدب قد مهّدت له شوك العناء، كما أحرقت بنارها أحمد محرم، وهو في طليعة شعراء عصره، وكما عذّبت أحمد الكاشف فانكفأ إلى قريته يائساً، وكلاهما في شاعريته لا ينحدر عن مستوى الكاظمي، بل إن محرّماً يفوقه بكل تأكيد.

ولم أكد أنتهي من قولي حتى وجدت الأنصاري يسلّم عليّ في ابتسام، ويطلب قلماً ليدوّن خلاصة ما قلت، ثم أصرّ على أن أصحبه في جولاته بالرياض، وكانت ساعات مُسامرته من أنفس الساعات!! وقد أدهشني ما رأيته من تضلّعه الشديد في الأحكام الفقهية، إذ عرضت لنا مطارحات علمية في مسائل الرِّبا، وفوائد البنوك، والتأمين على الحياة، ونقل الدم من جسم إلى جسم، فأجاب الأديب الشاعر إجابة الفقيه المتثبّت، ولا زلت أعتقد أن علوم الإسلام مدٌّ متّصل، وأن الثقافة العامّة في شتّى العلوم تُنير الطريق، وبمثل الأنصاري تزدان المعارف، وفي ذِهنه الخصيب تتنوّع الثّمار، وتتعدّد الأفانين.

عبد الرحمن البرقوقي
صاحب مجلة البيان ومحقّق التراث

يُـذكر الأستـاذ أحمد حسن الـزيّات بمجلة الـرسالـة، والدكتـور أحمـد أمين بمجلة الثقافة، والدكتور محمد حسين هيكل بمجلة السياسة الأسبـوعية، ولا يُـذكر الأستـاذ عبد الـرحمن البرقـوقي بمجلة البيان، وقـد كان أسبقهم جميعـاً إلى ريـادة الصحافة الأدبيـة الممتازة، في وقت كـان فيه صـاحب المجلة الأدبية ذات الهـدف العلمي البحت مُستشهـداً يبذل جهـده ومالـه وأجمل سنـوات عمره فيمـا يعود على الأدب والأدباء بالنفع وعليه بالضرّ.

لقد أشرقت مجلة البيان في مفتتح العقـد الثاني من القـرن العشرين، لتؤدّي رسالة لا تؤدّيها مجلّتا المقتطف والهلال، إذ اختصّت الأولى ببحوث العلوم العملية وترجمة ما ذاع منها على وجه التيسير، واهتمّت الثـانية ببحـوث التاريـخ وما يـدور حوله من نقاش، أما التجديد الأدبي المشرئبّ إلى آفاق واسعـة في اكتمال الفنـون الأدبية من مقالة وقصة ونقد وسِيَر ذاتية وتعريب لطرائف الأدب الأوروبي، ومحاولة تقديمه على أيدي صفوة مختارة من أُدباء الشباب يتقدّمهم العقّاد والمازني وشكري وعباس حافظ ومحمد السباعي ومحمـد حسين هيكل وأضـرابهم ممّن تسنّموا فيمـا بعد قيادة الفكر المصري! هذا التجديد المتطوّر الذي قفزت به مجلة البيان قفزات فسيحـة، يجب أن يكون مـوضع الـدراسة التحليليـة، إذا أردنـا أن نتبيّن خـطوات النهضة الأدبية على وجهها الصحيح.

وأنا في حيرةٍ كبرى لإهمال دور البيان في قيادة النهضة الفكرية، فلم نعرف رسالة جامعية تخصّصت في إيضاح دورها البنّاء، كما رأينا رسائل شتّى صُرِفَت إلى دراسة مجلّات لا تبلغ مِعشار مِعشار ما بلغته البيان، وليس دور البيان بمنكور المحلّ لدى أعلام الفكر المعاصر، فقد أشاد به العقّاد والمازني والزيّات في مناسبات مختلفة، وهؤلاء من اليقظة الواعية بحيث لا يسكتون عن تقدير المناضلين، وننقل هنا بعض ما قاله الزيّات والمازني، ليعرف الدارسون أيّ تاريخ كاد يغمره النسيان.

يقول الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني[1]: «كان البرقوقي واسع الاطّلاع على الأدب العربي حسن الفهم له، وقد درسه على الشيخ المرصفي بالأزهر، واستفاد من دروس الشيخ محمد عبده وعنايته بدلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني، ثم توسّع بعد ذلك في التحصيل والدرس، ولكن الأدب الغربي كان يخايله فيودّ لو تيسّر له أن يطّلع عليه ولا يجد إلاّ ما نقل عنه إلى اللغة العربية، وما أقلّ ذلك، وكان يعرف للمذهب الجديد في الأدب العربي بمصر حقّه وفضله، ويكبره ولا يغمطه، وكان رجلاً أُوتي حُسْنَ الفهم، وصحّة الإدراك، وسعة الصدر التي تدفع إلى سرعة الإقرار لكل ذي فضل بفضله.

كان يرجو أن يكون (بيانه) خلفاً لبيان اليازجي، ولكنه أراد شيئاً وأراد الله خلافه، فصارت مجلة البيان صحيفة لأهل المذهب الجديد في الأدب، العقّاد وشكري والسباعي وهيكل وكاتب هذه السطور وغيرهم، ولم يكن ذلك التحوّل برغمه وعلى غير هداه، ولا كان بادي الزّهادة فيه، فما كان له مذهب خاصّ في الأدب يدعو له، ولا كان له همّ إلاّ جودة العبارة، وجزالة الأسلوب، ومن حُسْن الاتفاق أن دُعاة المذهب الجديد يعنون بإحكام الأداء ودقّته ووفائه كعنايتهم بالإخلاص وصدق السريرة، وصحة النظر، واستقامة الفكر، والتنزّه عن التقليد والمُحاكاة!».

---

(١) من مقال منشور بجريدة البلاغ ٤/٦/٤٤، وأُعيد نشره في مقدمة كتاب (دولة النساء)، للبرقوقي.

هذا بعض ما قاله المازني، نضيف إليه بعض ما قال الأستاذ أحمد حسن الزيّات حين نعى البرقوقي يوم وفاته بمجلة الرسالة فقال[1]:

«انتقل إلى جِوار الله شيخ من شيوخ الأدب وعَلَم من أعلام الصحافة هو الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، مُنشيء مجلّة البيان وصاحب المؤلّفات القيّمة في الأدب والتاريخ، فجأته المنيّة ـ وهو مشغول بإعداد الجزء الثاني [يريد الثالث] من كتابه الذخائر ـ فأسكتت قلباً كان ينبض بأنواع المعرفة، وأسكتت قلماً كان يجري بمعاني الجمال؛ والأستاذ البرقوقي كان ثمرة من ثمار الشيخ محمد عبده، تأثّر به في الناحية الأدبية، فكتب في علوم البلاغة، وشرح بعض كتب الأدب، وكان من خير أعماله إصداره مجلة البيان في عهد لم يكن فيه للأدب نَفَاق، فلقي في سبيل ذلك ما يلقى المجاهدون الأوّلون من الجهد والمشقّة في تذليل مصاعب الطريق، وارتياد مجاهل الأرض، جزاه الله على اجتهاده وجهاده خير الجزاء، وعوّض أمّته وأُسرته من فقده أحسن العَوَض».

فإذا أردنا أن نفهم رسالة مجلة البيان فإننا نذكر أنها فاجأت القرّاء بضرب من الأدب القوي ذي التأثير الهادف، والبيان الناصع في عهد انتشر به دُعاة اللغة العاميّة يرومون أن تحلّ محلّ الفصحى، لأمور يدركون مغزاها الاستعماري والديني، وطبيعي أن يضيق هؤلاء بمنحى البيان، وأن يشنّوا عليه الحملات مؤكّدين أن الرجوع إلى أسلوب القرآن مما يصعّب مهمة التفهيم في عصر لا يدري أبناؤه شيئاً عن بلاغة العرب.

وكان البرقوقي شديد التتبّع لما يُوجّه للبيان من نقد على مدى عام كامل، حتى إذا افتتح العام الثاني واثقاً من عون الله، وقدرته على المسير في طريقه المرسوم، رأى أن يبسط في مقدمة العدد الأول من السنة الثانية (نوفمبر سنة ١٩١٢ م) رسالة البيان كما اعتزم أن يتمّها، فذكر أنّه يبغي تربية الأمة عن طريق لغتها وآدابها، لأنه يجدها الآن تكاد أن تتحلّل من تاريخها، ذاهبة في غير طريقها،

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ٥٧١ ـ ١٢/٦/١٩٤٤ م.

سادرة في الضلال، إذ وجد بينها من سدرت أبصارهم وسحرهم زخرف الغرب، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، وهم على ذلك بيننا نحوطهم بالرعاية فلا يرتدعون، إذ صاروا رُقعاً في ثوب الأمة تُترك فلا تروق، وتُنزع فلا تكشف إلّا عن خروق.

لقد أحكم البيان خطّته في اختيار أبوابه التي تعنى باللغة والتاريخ والأدب والتعريب، وهي أبواب تجمع بيننا وبين مدنيّتنا، ثم تَصِلنا بمدنيّات الأمم.

يقول الأستاذ البرقوقي[1]: يؤثر البيان كل أسلوب فصيح، ويقدِّمه ويحرص عليه الحرص كلّه، ولا يُبالي فيه اعتراض فئة هي خاصة العوامّ وعامّة الخواصّ، فإننا نطّلع من أقرب الأمر على ما في أبعده، ولم نبتغِ بهذا البيان أن يكون وسيلة من وسائل العيش التي لا يقدّرها أهلها بالأسباب، ولا بالنتائج، ولا بالمنافع ولا بالمضار، ولكن بشيء واحد، هو مقدار الثمن والفائدة».

وقد عاشت مجلة (البيان) ما بين سنة ١٩١١ ـ ١٩٢١ م، وعانت الأهوال في سنوات الحرب العالمية، فاضطر صاحبها إلى أن يبيع أرضه الزراعية على سعتها، وبعض العقار المنزلي ليضمن توالي الصدور دون نظر إلى العواقب، فإذا رأينا اليوم مَن حقّقوا الأرباح الطائلة من مجلّاتهم الدورية، فلنذكر هؤلاء المستشهدين الذين أنشؤوا الصُّحُف، لتخرّب الجيوب وتعمّر العقول! وإلّا فكيف استطاع الرجل الباسل أن يستمر في إصدار البيان أكثر من عشرة أعوام، دون معونة من حكومة، أو استناداً إلى جاه زعيم، أو تعضيد من ثريٍّ ذي عطاء، لذلك أخذت البيان تصدر شهرية تارة، ونصف شهرية تارة أخرى وفي حجم هزيل مرّة ، وأخرى في حجم مقبول وفق ما يتيسّر لصاحبها من المال.

وليته اكتفى بأعباء البيان وحدها، فقد طمحت به همّته لأن يطبع عشرات الكتب الأدبية ما بين مترجمة ومؤلّفة، وأن يتحمّل نفقاتها لتكون خسارتها المادية عبئاً يضاف إلى عبء المجلة، لأن الترجمات التي قامت بنشرها مثل كتاب الأبطال لكارليل، والواجب لجول سيمون، وحديث المائدة لأوليفاروند لهوفر، والحكمة

---

(١) البيان، المجلد الثاني، نوفمبر سنة ١٩١٢ م.

الشرقية من آداب الفرس، وقصّة المدينتين لشارلز دكنز، وجمال الطبيعة للورد فبري.

هذه المترجمات وأمثالها لم تجد القارىء المشجّع على نفاستها الغالية، ولكنها وجدت الفدائي المستبسل في شخص البرقوقي، ولا أنكر أن من هذه المترجمات ما تداول الآن على أبعد نطاق، ككتاب الأبطال، وقصة مدينتين، وجمال الطبيعة، ولكن صدورها لأول مرة في زمان البيان لم يجد رواجاً يحفظ من الخسارة، ولا أقول يجلب الكسب، فإذا كانت البيان بطولة نادرة فقد ضمّ البرقوقي إليها بطولة أخرى بهذه الروائع من المترجمات.

ولك أن تعجب بعد ذلك ممّن ينتقد صاحب البيان فيرى أنه يعيش في أفكار الجاحظ وابن المقفّع! على حين يرى مجلته ومطبوعاته تُزاوج بين التراث وأدب الغرب، ولكنه يبغض التراث لحاجة في نفسه! وماذا تقول فيمن يعدّ آثار الجاحظ ذات تخلّف، لينكر على صاحب البيان أسلوبه البياني وهو شعاع من شمس أبي عثمان!.

لقد تحمّل البرقوقي تكاليف البيان، ومطبوعات إدارته دون أن ينبس بشكوى، حتى إذا اضطر إلى إغلاقه بعد أن أكل اللحم والعظم وشرب الدم ومصّ النخاع، نفّس عن صدره في المقدمة الرائعة التي افتتح بها كتابه (حضارة العرب في الأندلس) حين ذكر[1] أن البيان قد استأثر بنفسه، وتدفّق في أذاته، وألحّ في سطواته، حتى إنه بعد أن التهم الوفر أكلاً وشُرباً ألوى بنفسه قلباً ولُبّاً، إذ إن هذا ـ كما يقول البرقوقي ـ مصير كلّ مَن يمتهن الأدب في الصحف وبخاصة، إذا كان هو صاحب تلك الصحيفة، له غنمها، وعليه غُرمها، ببلد سقط فيه نجم الآداب الرفيعة وطاش سهمها».

ولا نستطيع أن نلمّ بموضوعات البيان في عمره السعيد، ولكننا نذكر أن كتباً كاملةً للعقّاد والمازني وشكري والسباعي وعلي أدهم والرافعي قد نشرت تباعاً في

(١) حضارة العرب في الأندلس، للبرقوقي، المقدمة، ص «و».

البيان، ثم جُمِعَت بعد أن تمّت في حلقات متّصلة، ومن هذه المقالات ما كان له ضجيج في زمنه مثل مقالات حديث القمر للرافعي، ومذكّرات إبليس للعقّاد، ورسائل الفيلسوف «سنيكا» التي ترجمها الأستاذ صالح حمدي حمّاد، وكرواية «وليم تل» بطل جهاد سويسرة، واعترافات «ألفريد دي موسيه» مع ترجمة وافية له، وكتاب البيت والحياة المنزلية «لأمرسن»، والعزوبة والزواج «لباكون»، وفردريك غليوم «للورد ماكولي»، وعشرات من أمثال هذه الروائع.

ولكي نعرف ضحالة التفكير الأدبي لدى العامّة من القرّاء في عهد البيان، فإننا نذكر أن نفراً من القرّاء لم يعجبهم ما ينشر البيان من الروايات المترجمة، وظنوا ذلك انحداراً بالمستوى الأدبي للمجلّة، فكتبوا للبرقوقي يتعجبون من الاهتمام بالقصص الأوروبي، عقب نشر البيان لقصة «نشيد الميلاد» التي ألّفها شارلز دكنز وترجمها محمد السباعي، وفي العدد الثاني من المجلد الثاني سنة ١٩١٢ ص ١٢٥ جاء هذا السؤال اللاّئم: كيف يعنى البيان هذه العناية بالروايات على قلّة جدواها، وهناك من الموضوعات الأدبية ما هو أجلّ وأفخم، وأولى بعناية مجلة رصدت نفسها للأدب العربي؟

فجاء ردّ البرقوقي قائلاً: هذه الروايات هي آخر ما وصل إليه الأدب عند الغربيين، وهي الحلقة الأخيرة التي ارتقت إليها آدابهم، حتى إن الأديب الغربي الذي لا ينشىء الرواية بالفعل أو القوة لا يؤبَه له، وهذه الروايات وضعها واضعوها لغرض أنبل وأعظم، وهو بثّ فكرة صالحة في الأخلاق أو الاجتماع أو التاريخ، مما حقّه أن تُنشَأ له المقالات الحافِلة والأسفار الطويلة، ولكنهم آثروا هذا النوع من القول لما يمتاز به من معاني التشويق والاستهواء، حتى يكون ذلك أدعى إلى استمكان ما يقصدون إليه في نفوس القارئين».

وقول صاحب البيان: إن واضِعي الروايات الأوروبية ينشدون هدفاً أنبل وأعظم، وهو بثّ فكرة صالحة في الأخلاق أو الاجتماع أو التاريخ، يدلّنا على أنه يختار من القصص الأوروبي ما يقدّم النفع الخلقي والإصلاح الاجتماعي، أما القصص الهابط فبعيد عن مختارات صاحب البيان، لا سيما أن القائمين على

الترجمة من ذوي المُثُل الهادفة كالمازني وعباس حافظ وعلي أدهم ومحمد السباعي، وأذكر أن الأخير قد نُشِرَت له مجموعة قصصه التي ترجمها للبيان تحت عنوان (مائة قصة)، فجاءت في سفر حافل يقرؤه الأديب فلا يجد غير الرائع المستطاب، ولا يؤخذ عليه في رأيي غير الاستشهاد بالشعر العربي لمثل البحتري وابن الرومي وأبي العلاء المعرّي، أفتكون المعاني التي عناها الأديب الأوروبي هي عين ما عناه الشاعر العربي دون اختلاف؟ أكبر الظن أن التشابه في بعض الخلجات كان السرّ في الاستشهاد، وهو ما كان موضع نظر لديَّ! لأن ذلك يوحي للقارىء أن المترجم ينقل بالفحوى العامّ دون التزام بالنص الدقيق!.

وقد أشار الأستاذ المازني إشارة مقتضبةً إلى أثر الإمام محمد عبده في تلميذه البرقوقي، والحق أن صاحب البيان ظلّ طيلة حياته يُباهي بأثر الإمام في تكوينه، ويعدّ اتجاهه إلى الأدب ثمرةً من ثمار الإمام، وقد ظهر العدد الأول من البيان وبه حديث عن الإمام علق بذِهن تلميذه، فعدّه براعة استهلال للصحيفة الناشئة.

وقد ذكر الأستاذ محمد سعيد العريان في كتاب (حياة الرافعي) أن الحديث لم يكن من خواطر الإمام ولكن الرافعي كتبه من تلقاء نفسه، وعزاه[1] للإمام كي تكسب مجلة البيان قبولاً لدى القرّاء! هذا ما قاله العريان ناقلاً عن الرافعي في زعمه، وزاد فذكر أن السيد رشيد رضا صاحب المنار ذكر أنه حضر حديث الإمام مع البرقوقي، ولم يجد له أهمية تجعله يسارع بنشره من قبل، باعتباره أثراً من آثار الإمام!! وتلك غفلة منه في رأي الرافعي وتلميذه، وذلك كله وهم باطل، كشف عنه صديق للرافعي بمجلة الرسالة منتقداً ما جاء في حياة الرافعي[2]، ومؤكّداً أنه إذا ثبت أن البيان من وضع الرافعي لكان قد أحلّ لنفسه أن ينسب إلى الإمام ما لم يقل، وهذا مما يطعن في خلقه، ولكن الحقيقة أن مجلة المنار الصادرة بتاريخ ١٩١١/١١/٢١ م. قابلت ظهور مجلة البيان بالترحيب، ولم يقل الشيخ رشيد إنه حضر مجلس الإمام مع البرقوقي، وإنما قال إنه نقل كلام الأستاذ الإمام بمعناه لا

(١) حياة الرافعي، للعريان، ص ٣٢٤.
(٢) مجلة الرسالة، العدد ٣١٥ - ١٩٣٩/٧/١٧.

بحروفه قطعاً، وهذا هو المعقول، ونخلص من هذا إلى تخطئة كل ما ذكره الأستاذ العريان خاصّاً بهذا الموقف.

ونزيد عليه بأن نؤكد أن البرقوقي حين أصدر البيان أراد أن يجعل منها منبراً للأدب، كما أراد السيد رشيد أن يجعل من المنار منبراً للدين وكلاهما يصدر عن وحي محمد عبده في العمل على تجديد البحوث الدينية، والأساليب الأدبية تفكيراً وتعبيراً، وفهماً واستدلالاً.

وفي كتاب (الفردوس) الذي طبعه البرقوقي، بآخره ثناء حفيل على أستاذه الإمام، ونظر سامٍ إلى مقامه الأعلى في الدنيا كما رأى، وفي الفردوس كما تخيّل، أما (حضارة العرب في الأندلس) للبرقوقي فقد جاء إهداؤه إلى روح الأستاذ الإمام، الرجل الذي لم يفزع إليه فازع ولم يستصرخه مستصرخ إلّا كان الصراخ له إنجاز ما أمّله، والذي ثقّف البرقوقي وربّاه فكان غرس يده، وقد طلع الإمام على الناس بعامّةٍ وأهل الأزهر بخاصّة كما يطلع البدر في الدجنة ليمحو الظلام، ويهدي من الضلالة!.

هذا أثر محمد عبده في البرقوقي كما ردّده، فإذا انتهجت البيان منهج الرصانة في التعبير، والقوّة في التصوير، والحجة في الجدال فذلك بعض ما مكّنه الأستاذ في نفوس تلاميذه حين شرح لهم كتابيّ عبد القاهر عن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز!.

ولكن، أيقف تأثير الإمام عند الناحية الفكرية في نفس تلميذه، أم يتعدّاها إلى الناحية السلوكية؟ إن الذين تحدّثوا عن البرقوقي من عارفيه ذكروا عن سماحة نفسه، وبسطة كفّه، ورقّة قلبه ما يجعله رجل نُبْل وشهامة، إذ كان يعطي المحتاجين عن نفس راضية، وقد أقرض نفراً من عارفيه أموالاً طائلة، وتأخّروا عن سدادها، وحكمت المحكمة بالإلزام، ولكن البرقوقي تنازل متسامحاً إذ صدّق عُسْر المدين.

وكان للبيان وكلاء في بعض عواصم المديريات يجمعون الاشتراكات، وفيهم مَن نهب ما جمع، واضطر البرقوقي للمحكمة، فأصدرت أمرها المُلزِم، ثم

جاء الغاصب الناهب باكياً يتشفّع للبرقوقي ببطاقة عاطفة كتبها الأديب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي! فتنازل البرقوقي عن حقّه مُسرعاً، والمجلة في أشد الاحتياج.

وأنا أذكر هذه النوادر فيما أكتب من تاريخ الرجل لأُعلن أن سموّ الخلق لدى النقّاد يرتفع عن سموّ الإبداع العلمي، وصاحب الخلق النبيل كتاب حيٌّ يتحرّك بين الناس فيلقي بمواقفه العبرة الواعظة، ويعطي القدوة المُثلى، أما مَن اقتصر على التفوّق وحده! فقد يُعَدّ له ذلك في مضمار النتاج الفنّي، ولكنه لن يبلغ مبلغ مَن اتّسع صدره للأخطاء الفادحة فيسحب عليها ذيل المغفرة، إذ ما يُلقّاها إلّا ذو حظٍّ عظيم.

حدّثني الأستاذ الكبير علي أدهم أنه في مرحلة التعليم الثانوي بإحدى مدارس الإسكندرية، ترجم رواية (رينيه) للكاتب الفرنسي الكبير شاتوبريان، وعزّ على الطالب الناشيء أن يجد ناشراً، إذ كان الكبار من المؤلّفين لا يجدون، ثم رأى أن يبعث بالترجمة إلى الأستاذ البرقوقي وعوامل اليأس لديه أقوى من دوافع الرجاء، ولكن البرقوقي استقبله مشجّعاً مُلاطِفاً، وقال له: إن تشجيع النشء فريضة على صاحب البيان، ثم بادر بطبع الرواية فكانت أول أثر أدبي يُحسَب له، وبه ابتدأ المسير في طريقه المديد، ولم يكن علي أدهم وحده، بل شاركه الكثيرون في احتفاء البرقوقي بهم وتشجيعهم، حتى أصبحوا من حَمَلَة الأقلام عن ثقة واعتزاز.

كانت بواكير النهضة الأدبية التي تزعمها الإمام محمد عبده تُؤذِن بنشاط متعدّد الجبهات، حيث انطلق تلاميذه في توثّب طافر إلى ميادين تتشعّب وتختلف، وإذا كان التخصّص الدقيق مما يُحدّد المجرى العلمي لدى الباحث المتخصّص، فإن مرحلة هذا التخصّص المثالي لم تكن آذنت بعد، لذلك نجد أديباً مثل الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي يهيم بالبحث الدائب، ويتطلّع إلى اجتناء ثِمار الثقافة من شتّى الغصون، بحيث لا يقتصر على طعام واحد، فهو يكتب المقالة الأدبية، ويعالج القصة الفنية، ويشرح الدواوين الشعرية، وينشر المخطوطات المتآكلة،

ويُنشىء المجلّة الراقية، وهذه الاتجاهات المتشعّبة تُرضي حاجة القارىء في بعض دون بعض، لأن المواهب البشرية محدودة، ولن يـدّعي أحد السّبق في كـل اتجاه إلّا إذا أُصيب بالغرور.

وأذكر أن كاتباً من كبار الكتّاب ومن أقطاب مجلة البيان بالذات، وهو الأستاذ إبـراهيم عبد القـادر المازني، لم يفتـه تشتّت الاتجاه الأدبي في عهـده، ونظر إليـه نظرة الناقد المتفرّس، وكان مما قال في تعليله، إننا وجدنا صحراء تمتدّ إلى آلاف الأميـال، وهي في حاجـة إلى أن نبحث عن عيونهـا المخبوءة في البـاطن السحيق لتمدّنا بالماء، ثم إلى أن نلقي شتّى الغِراس من كل صنف، فـإذا أفلح صنف على يد غارِس، فالصنف الثاني يفلح على يد سواه.

هذا ما أتـذكره الآن من كـلام المازني بمعنـاه لا بلفظه، لأني لم أعثـر على المصدر الذي طالعته منذ مدى بعيد، والائتناس به ضروري في هذا المجال.

أجل، لقد كتب البرقوقي المقالة الأدبيـة في اللواء والمؤيد، ثم في صحيفـة البيـان، وللرجل طـابعه الفنّي الـذي ينطق بخصـائصه الأسلوبيـة، بحيث يستطيـع الدّارس أن يعرف نتاجه دون توقيع، وقد تجلّى هذا الطابع بعد أن استحصد قلمه، واستوى على سوقه؛ لأنه قبل إنشاء مجلة البيان كان يميل إلى نهج مدرسة عبـد الله فكـري في اصطنـاع المنحى الفنّي لأسلوب المقامـات الذي احتـذاه حفني ناصف ومحمـد توفيق البكـري ومحمـد المـويلحي ووالـده إبـراهيم، وأضـرابهم من ذوي الافتنان البديعي، فلما ظهر الإمام محمد عبده في مرحلته الأخيرة بـأسلوبه الجـزل المرسل، وبتدفّقه السَّمح المستوعب، كان للمقال اتجـاه آخر، لا سيمـا والصّحف اليـومية التي تـطلع على القرّاء كـل صباح لا تحتمـل صـراع التنميق بين المعـاني والألفاظ، وكُتّاب المعاني من أمثال قـاسم أمين وأحمد فتحي زغلول وعلي يـوسف ومحمد مسعود يُبدِعون في نسقهم المسترسل دون قيد، فانتصر الأسلوب الخلدوني الذي انتحاه صاحب المقدّمة على الأسلوب البياني الذي انتحاه بديع الزمان.

وجاءت مجلة البيان بأعلامها الطامحين، لتسير في هذا المجال سير المـوفّق المسـدّد، دون أن تهمل واجب الـرصانـة المتماسكـة، والوضـوح الكاشف، ومـع

اهتمام البرقوقي بالبيان الجاحظي، فإنه ساير أصحابه في الانطلاق السابح دون قيد، أقول ذلك لأؤكد أن أكثر مقالات البيان التي تُرِكَت دون توقيع هي من نتاج البرقوقي، ولم يكتبها أحد سواه، وأردّ بذلك على ما ذكره الأستاذ محمد سعيد العريان في كتاب حياة الرافعي، حيث جزم بأن الرافعي هو الذي كان يكتب أكثر ما لم يُوقَّع في مجلة البيان[1].

وقد فات الأستاذ العريان أن الرافعي هو الرافعي، وأن أسلوبه الفذ المنقطع النظير في فُحُولته الآسرة لا يمكن أن ينتسب إلى سواه، لا في البيان الأدبي وحده، بل في البحث العلمي، فأنت تقرأ تاريخ الأدب بأجزائه الثلاثة فتعرف منحى الرافعي البياني كما تعرفه في وحي القلم بأجزائه الثلاثة أيضاً، فمن الظلم للبرقوقي أن نسلبه حقّه دون دليل، بل من الظلم كل الظّلم لهذا المناضل المستشهد أن نسلبه هذا الحق مع قيام الدليل كوضح النهار!!.

ولكي نُوجِز تراث البرقوقي، فإننا نشير أول ما نشير إلى شرحه لكتاب (التلخيص) للقزويني، حيث جارى الإمام في الاهتمام بكتب البلاغة، ودعاه احتفاء محمد عبده بكتابيّ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز أن يبحث عن سواهما، فكان كتاب القزويني وجهته المرموقة، فاهتم بشرحه شرحاً متقناً، وظهر عمله البارع سنة ١٩٠٤ م. مُصَدَّراً بكلمة قيّمة للإمام محمد عبده قال فيها[1]:

«شَرَحَهُ [التلخيص] كثير من الناظرين في الفن، وتعلّق الأغلب بألفاظه، ولم ينظروا الغاية من وضعه، فصرفوا الوقت فيه، وخانتهم البلاغة نفسها، بجميع مقاصدها، فلا هم يُحسِنون إذا كتبوا، ولا هم يقنعون إذا خطبوا.

ثم شرحه البرقوقي واطّلعت على نموذج من شرحه فوجدته كافياً في تبيّن معنىً ما في الكتاب، موجّهاً نظر الناظر فيه إلى ما قصد منه، ولا حاجة بالسائر إلى الغاية من الفن إلى أكثر مما جاء فيه، وإنما الواجب عليه تحصيل الملكة بالعمل، ومُزاولة كلام البُلغاء، وأسأل الله أن ينفع بهذا الشرح مُطالِعه، ويستفيد منه مُراجِعه»[2].

---

(١) حياة الرافعي، للأستاذ العريان، ص ٣٢٤.

(٢) التلخيص، بشرح البرقوقي، ص ٢٠.

أما الحكم العلمي الدقيق على شرح البرقوقي للتلخيص، فقد سجّله الدكتور أحمد مطلوب في كتابه الضخم (القزويني وشروح التلخيص) حين قال[٢]:

«وطريقة البرقوقي في الشرح هي أن يذكر معاني المفردات الغامضة، ويكمّل بعض نصوص القزويني في التلخيص من كتابه الإيضاح أو كتب البلاغة الأخرى، وينقل بعض النصوص من كتابيّ عبد القاهر، ومن الكشاف للزمخشري، والمثل السائر لابن الأثير، ومفتاح العلوم للسكاكي، وقد أجاد الشارح، ويمكن أن يعتبر هذا الشرح وحده كتاباً في البلاغة لِما فيه من إضافات وفوائد جمّة، وقد أُعيد طبع الكتاب سنة ١٩٣٢، وما يزال التعويل على هذه الطبعة في دراسة التلخيص وقراءته»[١].

وأزيد على ما ذكر الدكتور أحمد مطلوب، فأقرّر أن الكتاب تعدّدت طبعاته بعد الطبعة التي أشار إليها، إذ احتكرت طبعه إحدى دُور النشر بلبنان فوالت إصداره على فترات، ولاقى من قبول الدارسين ما لا مزيد عليه، وضجّ وَرَثَة البرقوقي دون أن يحصلوا على كسبٍ ما. وعلى الذين يؤرّخون للازدهار البلاغي المعاصر أن يعرفوا للبرقوقي مكانه العلمي، إذ لم أجد مَن أشار إليه في هذا النطاق غير الدكتور أحمد مطلوب، مع ذيوع الشرح وتقديمه بكلمة الأستاذ الإمام، بل إن الأستاذ أحمد مصطفى المراغي حشد في مؤلّفه عن تاريخ البلاغة وأعلامها أُناساً لم يبلغوا مبلغ البرقوقي، بحيث كان تأليفهم مدرسياً هامشياً ثم نسي الشارح الرائد! وكأنه لم يكن الثاني بعد الأستاذ الإمام!!.

كان البرقوقي وثيق الصلة بالعالِم اللغوي الكبير الشيخ إبراهيم اليازجي، وللأخير شغف بالتراث الأدبي، وهمّةٌ في إحيائه، وقد وقعت في يده نسخة خطيّة لرسالة الغفران التي ألّفها المعرّي، ولم تكن ذائعةً بين الناس، فأعجب بها، وأشار على (أمين هندية) صاحب المطبعة الشهيرة في عصره بضرورة نشرها! ولكن

---

(١) القزويني، وشروح التلخيص، للدكتور أحمد مطلوب، ص ١٧٣.

النسخة مليئة بالأخطاء الكتابية، وتحتاج إلى محقّق يراجع النص ويصحّحه، ويستقرىء دواوين الشعر ليمنع التحريف والتصحيف، ويعيد النص إلى أصله قدر الإمكان، وليس لدى اليازجي من الوقت ما يُتيح له تحقيق رسالة الغفران، فأشار على البرقوقي أن ينهض بهذا العبء في وقتٍ لم يكن للمحقّق فيه أدنى مغنم.

وقد صدع البرقوقي بأمر أستاذه، وقضى بلاءً كارباً في تحقيق النسخة المتآكلة، حتى استطاع أن يُخرِج منها شيئاً جيداً يفيد، وأقول شيئاً جيّداً يفيد، لأن مخطوطات أخرى قد ظهرت لرسالة الغفران فأضاءت بعض الجوانب الخافية، وتوالى المحقّقون بعد البرقوقي فأكملوا الشوط دون أن يُشيروا إلى جهده، وهو الذي قد مهّد الأرض ونزع الشوك، وفتّت الصخر، وسقى الماء!.

وكذلك فعل البرقوقي بديوان البحتري، لأن الطبعة التي قدّمها أمين هندية في جزءين كبيرين، قد كُتِبَ في صفحتها الأولى: إن الذي أشرف على نشرها البرقوقي! وتهيئة ديوان كبير كديوان البحتري للنشر من مخطوطة متآكلة، عمل ممتاز يجب أن ينصّب له الميزان، فأقلّ تحريف في البيت يعبث بمعناه وبمبناه، ولا بدّ من الرجوع إلى ما نشر من كتب التراث لمراجعة ما جاء بهما من شعر البحتري ومُضاهاته! بل لا بدّ من الاحتيال على إقامة وزن البيت، إذا كتبه الناسخ مكسوراً، وتعثّر الحصول على نسخة أخرى ترأب الصدع!.

ذلك جهد فادح قام به البرقوقي، وجاء بعده مَن تسلّم الديوان لينقله، ولم يزد غير ضبط بعض الكلمات ضبطاً نحوياً، حتى هيّأ الله للديوان محقّقاً ممتازاً هو المرحوم الأستاذ حسن كامل الصيرفي، فأخرجه أبدع إخراج في خمسة أجزاء كبار! ولم ينسَ أن يشير إلى صنيع البرقوقي ص ٣٠ من المقدّمة، وأنه نَقَلَ عن مخطوطٍ لا عن مطبوع سابق!.

أما التحقيق العلمي والشرح الأدبي الممتازان حقّاً، فقد ظهرا فيما قام به البرقوقي نحو ديواني حسّان بن ثابت وأبي الطيب المتنبي، ولم يسبق لديوان حسّان شرح ما، فعكف البرقوقي على شرحه وتحقيقه، وإضافة ما لم يُضمّ إلى الديوان ممّا عُثِر عليه في كتب التراث.

وقـد لاحظت أن الشـارح قد عنَّى نفسـه في التـدقيق اللغـوي، والاستـطراد العلميّ، وكان في الإيجاز مـا يبلغ حاجـة القارىء الفـاحص، ولكن عبد الـرحمن أراد أن يحـاكي صنيـع المـرزوقي والتبـريـزي والعكبـري والـواحـدي، من شُـرّاح الـدواوين، فيعالـج شؤوناً من اللغـة والنحو والبيـان، تُضيء مناحي الإبـداع الفنّي للشاعر، وتفيد القارىء المطمئن.

وفيما ما رواه من شعر حسَّان ما لا يرتفـع في رأيي إلى طبقته، كـان عليه أن يُشير إلى أن بعض ما نُسِبَ إلى حسّان مما يشـكّ فيه، لأن بعض الأبيـات الركيكـة التي نُسِبَت إليه في رثاء محمـد ﷺ يدلّ نـظمها المتهـافت على أنها منحـولة، ولن يقول قائل إن العجلة قد جَنَتْ عليها، لأن حسّانـاً كان يـرتجل الشعـر حين يدعـوه الرسول للقول، فلا ينخفض في الارتجال! وقد يكون من عذر البرقوقي أنه ناشر لا دارس، ولكلٍّ منحاه!.

وإذا كان ديوان المتنبي قد حَظِيَ بشـروح كثيرة، فلمـاذا أقدم البـرقوقي على شرحه، ذلك السؤال استشعره الشارح الكبير، فـأخذ يسـرد الشروح السـابقة ليُعلن أن المتداول منها ـ لعهده ـ هو ما كتبه العكبري والواحدي واليازجي، أما الواحـدي فقد طُبِعَ شرحه بأوروبا والهند ولـم يسهل تداوله في البلاد العربية، وهو في تـرتيب الأبيات متّفق مع شرح العكبري حيث يتخلّل البيت الشرح، فلا يستـطيع القـارىء أن يتلو القصيدة مجموعةً منتظمةً دون عائق مُـرهِق، هذا إلى التحـريف الشائن في كل صفحة، مع قصور في بعض المواقف عن تأدية ما يجب من التوضيح.

وإذا كـان اليازجي قـد ذكـر في المقـدمـة أن شـرحـه سيّـد الشـروح إذ طبّق المفصل وأصاب مقطع الحق، وأوفى على الغاية فإن الواقع غيـر ذلك، لأن القسم الذي شرحه الشيخ نـاصيف قد اقتصـر على شرح المفـردات دون التعرّض للمعنى العامّ. أما القسم الـذي شرحـه ولده إبـراهيم فلم يسلم من الغموض، إذ تـرك من الأبيات ما ظن معناه مفهوماً! وقد يكـون مفهومـاً لديـه وهو عـالم مكين! ولكن أين حقّ القارىء؟.

هذا وقد اعترف البرقوقي أنه فحص هذه الشروح جميعها، وأضاف إليها ما عثر عليه من شروح ابن جنّي وابن القطاع وابن وكيع والتبريزي والعروضي والإفليلي، وفي هؤلاء مَن لم يشرح الديوان كاملاً، ولكنه التفت إلى أبيات معيّنة لم يفت البرقوقي أن يقف على ما قيل بصددها، وإذا كان قد اعترف بأن هؤلاء على فضلهم الواسع جمعوا بين الحسنات والسيئات وبين السّداد والهفوات، فإنه قد اعترف على نفسه اعترافاً شجاعاً حين قال[1]:

«وقد وجدت ذلك من نفسي، مع أن الطريق معبّد والمادة متوفّرة (في الشروح السابقة) فقد أكون في بعض الأوقات مستجمّاً نشيطاً مهزوزاً، مرهف الطبع، مصقول الذّهن، منبسط النفس فأشرح ما أشرح من قوافي المتنبي، فآتي بما أرضى به عن نفسي، ويعروني له من الطرب ما يستخفني، وأكون في أوقات أخرى منقبض النفس، مغلق الذّهن، فدماً بليداً، لا أكاد أذهن شيئاً، وأكون مضطراً إلى العمل، فأشرح وأنا على هذه الحال بعض الأبيات، ثم أعود في وقت أكون فيه على حجام من نفسي إلى ما شرحت، فأُدهش، كيف يكون هذا من رجل له بقيّة من فهم، وأتّهم نفسي، حتى لا أكاد أصدّق أن شيئاً من هذا ندّ به القلم».

هذا وقد أصاب البرقوقي شاكِلَة الصواب حين قال عن شرحه: «فلا يُلقين في روعك أنه بدعٌ في الشروح، وأنه شيء مُبتَكَر جديد، وهل غادر الشعراء من متردّم، وإنما مزية هذا الشرح أنه تلاقت فيه كل الشروح بعد شيء من التهذيب والتنقيح والتحوير، وبذلك توافر فيه ما لم يتوافر لأيِّ شرح من شروح المتنبي على حدته، فليس يُغني عنه شرح، ولكنه بحمد الله يُغنِي عن سائر الشروح، فهو كما يقول أبو الطيب:

يـدلّ بمعنى واحـد كـل فـاخـر وقد جمع الرحمن فيه المعانيا»[2]

---

(١) مقدمة الديوان، ط ١٩٨٠، ص ٩.

(٢) مقدمة الديوان، ط ١٩٨٠، ص ١٦.

وكان من عادته بعد أن فرغ من إصدار البيان، أن يقضي كل يوم ساعتين في إعادة ما قرأ من كتب التراث وتصفّح ما طُبعَ مما لم يقرأ ليختار من طرائفها الأدبيّة ما يكون مُلحاً نادرةً تحفظ وتُروى، حتى اجتمع له من هذه الفرائد الأنيقة ما يملأ عدّة أجزاء، نشر جزءين كبيرين منها تحت عنوان (الذخائر والعبقريات) في طبع جيد مشكول، وقد شرح غامض ألفاظه بما يُسفِر عن وجهه، كما قدّم الجزء الثالث قبيل وفاته للطبع، وأنا لا أدري إذا كان قد ظهر ولم أقرأه، أم أن يد الإهمال قد طوته، ولهذا النوع من المختارات الأدبية رسالته في الترويح النفسي، والإمتاع العقلي، ودورانه على الألسنة في مجالس السّمَر.

وأذكر أن أديب العربية الكبير الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي، والىٰ نماذج منه في سنوات متتالية بأعداد مجلة الرسالة تحت عنوان (نقل الأديب) كان لها صداها الرنّان لدى القرّاء، وتساءل عنها الدكتور زكي مبارك مشوقاً حين انقطعت بعض الوقت، مستحثّاً صاحبها على الإتمام فاستجاب، ومن هذا القبيل ـ وإن انفرد بموضوع خاص ـ ما كتبه البرقوقي في مؤلّفه الكبير «دولة النساء»، حيث جمع كلّ ما تجمل قراءته عن المرأة في أدب العرب من وصفٍ لأخلاقها وأعمالها وأزيائها ونوادرها، وما قيل في التشوّق لها، وما نهضت به كُبريات العقائل من أمجاد، وما قالته ذوات الموهبة من شعر وحِكَم! وما بلغنه من حظوةٍ في المجتمع باديةً وحضراً، وإنما كان كتاب (دولة النساء) شبيهاً بمجموعة (الذخائر والعبقريات)، حيث اكتفى صاحبه بالجمع والتنسيق دون النقد والتحليل، إذ كان من همّه أن يقدّم للباحث الدّارس ما يساعده على رسم الصورة الدقيقة للمرأة المسلمة كما تحدّث عنها السابقون.

ولن نترك في هذا المجال الإلماع إلى كتابيّ البرقوقي، (رحلة الفردوس)، و(حضارة العرب في الأندلس)، وقد بسطت الحديث عنهما في كتابي (دراسات أدبية)[1] وقلت عن الفردوس ما ملخّصه أن البرقوقي وقع تحت تأثير ما كتبه المعرّي في (رسالة الغفران)، فأراد أن يُحاكيه بتأليف رحلة مماثلة لم تبلغ في

---

(١) دراسات أدبية، للمؤلّف، جـ ١، ص ١١٠ وما بعدها.

إتقانها الفنّي مبلغ سابقتها، ومَن يبلغ منّا مبلغ المعرّي في غوصه وافتنانه؟ حَسْبُ البرقوقي أن جرى في غُباره عدّة أشواط. وإذا كان أبو العلاء قد تحدّث عمّن سبقه من أعلام العربية فإن البرقوقي قد حادث في الفردوس أعلام النهضة الأدبية والسياسية ممّن سبق إلى دار البقاء من مُعاصِريه، فقدّمهم لقارئه مُحتَفياً مكرّماً، وقد طال حديثه بعض الشيء عن إمام العبد الشاعر الأسود الطريف فأتى عنه بما لم يُسبق تدوينه، فكان تخليداً لذكره وحمداً لمآثره.

أما كتاب (حضارة العرب في الأندلس) فاحتذاءٌ أيضاً لكتابٍ سابق، خطّه مؤلّفه عن حضارة الإسلام في دار الإسلام، وقد تضمّن عشر رسائل كتبها مؤلّفه الأستاذ جميل نخلة المدوّر على لسان رحّالة فارسي، تخيّله يزور بعض بلاد الشرق ليصل إلى بغداد ويعيش في زمن المنصور والمهدي والهادي والرشيد مسجّلاً روائع ما شاهد ومَن شاهد، أمّا البرقوقي فلم يُشِر إلى كتاب حضارة الإسلام في بغداد، ولكنه وضع كتابه على نمطه ذاكراً أنه أُلهِمَ تسجيل ما يعلم من تاريخ الأندلس على لسان رحّالة مصري يقوم من الإسكندرية وافداً إلى الأندلس في مركب لعبد الرحمن الناصر، واصفاً الرحلة منذ قيامها حتى بلغت غايتها.

والبرقوقي عاشقٌ كَلِفٌ بتاريخ الأندلس، وقد نفّس عن كَلَفِه بما كتب، وأذكر أنه نشر بمجلة الرسالة بحوثاً ممتازة حقّاً عن الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقبان، وعن ابن بسّام صاحب كتاب الذخيرة وغيرهما من أعلام الأدب الأندلسي، وقد قال في مقدمة حديثه عن الفتح، إن لديه صفحات كثيرة عن أعلام الأندلس يحاول أن ينشر بعضها، ولا أدري مصير هذه الصفحات حيث لم تنشر الرسالة منها غير القليل، وما نُشِرَ يدلّ على ما ترك في غزارة مادته، ووضوح تعبيره، وسلامة منحاه!.

هذا بعض ما يشير إلى فضل البرقوقي، وقد اختاره سعد زغلول مُراجعاً أدبياً لمضابط البرلمان في مجلس النوّاب والشيوخ تقديراً لأدبه، فقضى في وظيفته حتى أُحيلَ إلى المعاش، وقد لَقِيَ رَبَّه في سنة ١٩٤٤ م. تاركاً جميل الذّكر، ونابه الأثر، ووافر الثّناء عند الصفوة ممّن يعرفون معادن الأصلاء ويحفظون أقدار العاملين.



من روّاد التراث العربي الأوائل
(الطنطاوي ـ التونسي ـ الهوريني ـ العدوي ـ الدّسوقي)

ـ ١ ـ

حين بدأت مصر تصحو من نومها الطويل، في مفتتح النهضة العلمية والأدبية المعاصرة، كان الأزهر بأبنائه الطلاب، وعلمائه الشيوخ من أركان هذه النهضة ودعائمها الأصيلة، فقد اختير من فتيانه مَن ابتُعِثوا إلى أوروبا، ليدرسوا الجديد في فروع العلم المختلفة، كما اختير من علمائه مَن نشروا الكتب وصحّحوا المؤلّفات، وحرّروا الرسائل، ومَن درّسوا في المدارس المختلفة، وأداروا أعمالها الفنية.

وبالتدريس والتأليف والترجمة والنشر، انبثق النور الفكري في المجتمع الإسلامي بأسره، لأن هذه الحركة المباركة قد امتدّت من مصر إلى جاراتها الشقيقة وغير الشقيقة، ولا نعني بالشقيقة الدول العربية وحدها كما أَلِفَ الكُتّاب أن يذهبوا في اصطلاحاتهم السياسية، وإنما نعني بالشقيقة كلّ بلد إسلامي سواء نطق باللغة العربية أو تكلّم بلغة وطنه، فالمسلم أخو المسلم في كل زمان ومكان، أما ما نعنيه بغير الشقيقة فهي الدول التي لا تدين بالإسلام في آسيا وإفريقيا، وقد انتفعت عن طريق غير مباشر بالحركة الفكرية في مصر حين بزغ نورها في فجر النهضة الحديثة، ولذلك تفصيلٌ لا يعوزنا الآن.

هـذه الصحوة الفكـرية بشعبتيهـا الأدبية والعلميـة في حاجـة إلى مَن يؤرّخها على وجهها الصحيح، لأن مؤرّخي اليوم والأمس قد تعمّدوا أن يلمّوا بجهود الكُفاة من رجال الدين إلماماً طائراً عابراً، ومنهم مَن يحاول أن يتجاهل هذه الجهود فيشير إليها في معرض التهوين. والعجيب الغريب أن من أوائل ما كُتِبَ عن هـذه النهضة في تاريخ الأدب المعاصر ما كتبه الأستاذ جرجي زيدان في الجزء الـرابع من كتـابه الذائع (تاريخ آداب اللغة العربية) وكان المؤلّف مُنصِفاً حين أشار إلى هـذه الجهود إشارات واضحة، شغلت حيّزاً معقولاً من صفحات كتابه الجامع، وقد كان المرجع الأول لمَن أتى بعده من مؤرّخي الأدب المعاصر.

ومن الإنصاف أن يُكمل الخالِفُ ما ترك السالِفُ من نقص، ولكن الخـالفين لم يتمّوا صنيع جرجي زيدان إذ بتروه بتراً شـائناً، وفيهم مَن تجـاهله فلم يُشِر إليـه في قليـل أو كثيـر، وهـذا مـوضـع العجب الغـريب، وإن فُهِمَت دواعيـه لـدى مَن يُضمـرون البغضـاء لكـلّ وعيٍ أدبيٍّ أو سيـاسيٍّ انبثق عن رجـال الإسـلام من العلماء!!.

وقد أشرنـا في بعض ما كتبنـاه عن أعلام النهضـة الإسلاميـة المعاصـرة إلى محاولة تجاهل السّبق السياسي لذوي الزعامة الوطنيـة من رجال الـدين في كل بلد إسلامي، وها نحن أُولاء نشير إلى محاولـة تجاهـل السّبق العلمي والأدبي لهؤلاء، إذ يروق لقوم من ذوي الغـرض أن ينحّوا قـادة الدين عن مجـالات الإصلاح، فهم يحاولون إطفاء نورٍ أشـرق وامتدّت أضـواؤه فاكتسحت الـظلمات، وهي محـاولات تدعو إلى اليقظة والالتفات!!.

لقد ألمّ جرجي زيدان بعناصر النهضة الفكـرية، فـذكر دور الأزهـر في إنشاء المدارس والصحافة والمطابع والبعثات والجمعيات الأدبية، وترجم بإيجاز للذّائعين من رجال هذا العهد، ويعتبر ما قاله الرجل متناً علمياً بالاصطلاح الأزهري القديم، وكـان هذا المتن في حـاجة إلى شـرح ينقل المجمـل، ويوضـح المبهم، ويكمـل الناقص، ولكن مؤرّخي الأدب من بعده قد وقفوا عند ما كتب ولم يتجـاوزوه، حتى صـارت الفجوة المتّسعـة في حاجـةٍ ماسّـةٍ إلى مَن يملؤهـا عن درايـة واستيعـاب،

ولست وحدي الذي أنعى على المؤرّخين قُصُورهم وتقصيرهم معاً، فقد انطلقت الألسنة المُنصِفة تدعو إلى الاستكمال والإتمام.

يقول الدكتور أحمد أمين في مجال الحديث عن النشر الممتد للتراث العلمي في بدء هذه النهضة[1]:

«والحق أن طائفةً من العلماء [علماء الأزهر الشريف] غُبِنُوا حقّهم، ولم يُؤرَّخوا التأريخ الواجب لهم وهم المصحّحون فقد كانوا يمتازون في عصرهم بثقافةٍ أوسع من أمثالهم، واقتضاهم عملهم أن يطّلعوا على كثيرٍ من الكتب في التاريخ والأدب واللغة والفلسفة وغير ذلك، فاتّسعت مداركهم وآفاقهم، واضطرهم عملهم أن يكتبوا خاتمة الكتب، أو شرح الغامض، وأن يُنْشِئوا تقريظ الكتاب والتعليق عليه، فجرت أقلامهم ومَرِنوا على الإنشاء والكتابة في زمنٍ عزّ فيه الأديب وندر الكاتب، وإن كان إنشاؤهم وكتابتهم مقيّدةً بنمط العصر.

اشتهر من هذه الطبقة الشيخ نصر الهوريني، ثم الشيخ محمد قطة العدوي، ثم الشيخ إبراهيم الدسوقي، ويظهر أنهم كانوا في درجة علمهم وأدبهم كما كانوا حسب تاريخ زمانهم، نشروا كثيراً من الكتب القيّمة، ولقوا في تصحيحها العناء، وأذهبوا في مسودّاتها سواد عيونهم، وهم وإن لم تبلغ كتبهم منتهى الجودة من حيث الإخراج والضبط فقد بذلوا غاية جهدهم، وجعلوها صالحةً للاستفادة منها، واستخرجوها من أُصولٍ سقيمة، وخطوط عليلة».

وإذا كان الدكتور أحمد أمين قد تحدّث عن المصحّحين من العلماء ومحقّقي الكتب فحسب، فقد تحدّث الدكتور جمال الدين الشيّال عن غيرهم فقال[2]:

«والواقع أن الشيوخ الذين قاموا بمراجعة الكتب المترجمة في ذلك العصر، كانوا يقومون بالعملين معاً [يريد التصحيح والتحرير] بل كان لهم جهدٌ مشكور،

---

(١) فيض الخاطر، جـ٣، ص ٤٢.

(٢) مجلة الثقافة، العدد ٦٧٢.

وخاصة الشيخ التونسي ـ في إحياء المصطلحات العلمية العربية القديمة، ومحاولة التوفيق بينها وبين المصطلحات الأوروبية الحديثة بعد مراجعة كتب العرب في الطب والهندسة والرياضيات».

ومعنى ما يقوله الدكتور الشيّال، أن هؤلاء العلماء كانوا يقومون مقام مجمع اللغة العربية اليوم، فهم يترجمون الكتب في علوم الطب والهندسة والرياضة، ولا يجدون المرادف المتداول، فيراجعون الكتب القديمة لاختيار المصطلح المناسب، ونحن نعرف أن اختيار المصطلح الواحد في فنٍّ واحد يحتاج إلى دُربة وغوص ودقّة استنباط، لذلك تعقد الجلسات المتوالية في المجامع العلمية لمناقشة مصطلح واحد يصادف القبول، فإذا قام علماء الأزهر باختيار ما ينطبق على اللفظ المترجم من كتبٍ مخطوطة متعدّدة في زمانٍ لا يُسعِفه بالبحث الدقيق لتعذّر المراجع وصعوبة الاهتداء إلى مضمونها في مخطوطات متآكلة باهتة المداد، وليس المختار من فنٍّ واحد بل من فنون شتّى في فروع الطب والهندسة والرياضة، إذا قام علماء الأزهر بذلك كله في الكتب المترجمة لمدرسة الطب، ومدرسة الهندسة، والمدرسة الحربية، ومدرسة الألسن، واستطاعوا أن يصلوا الحديث بالقديم في المجال العلمي، فأيّ مجهود بذلوا، وأيّ علم تركوا!؟ دون أن يجدوا الإنصاف الأمين. . .

ليت شعري أوقف الأمر عند الإنصاف! إنه تجاوز إلى الإجحاف، إذ وُجِدَ من الكُتّاب مَن حاول في صرامةٍ ظالمةٍ أن ينتقص هذه الجهود، وأن يَصِمَ أصحابها بما هم منه برءاء.

حاول الدكتور براون، وهو أحد أساتذة مدرسة الطّب المصرية في عهد محمد علي أن يجرّد الأزهر من كل فضل حضاري، في مضمار التقدّم الفكري، فكتب إلى سكرتير الجمعية الآسيوية يحدّثه عن انبثاق النهضة العلمية في مصر، ليكون هو في رأيه مِشعل التوجيه العلمي مع مَن وفد من أوروبا للتدريس في مصر، أما علماء الأزهر الذين تعلّم العربية على أيديهم، وقاموا بتصحيح مؤلّفاته العربية وتنقيحها فلا يعرفون شيئاً ما! يقول ذلك، وهو يرى رهطاً منهم يشاركه

البحث، ويعاونه في تحديد المصطلحات، وتعريفها، وقد كتب في ترجمة حياته يقول:

إنه تتلمذ على الشيخين محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي، وبفضلهما برع في اللغة العربية، وقد كان زميلاً لرفاعة الطهطاوي، وحضر مجالس حسن العطار في منزله مع علماء الأزهر، وخاضوا في مسائل كثيرة كانت موضع التفاته، فإذا كان لهؤلاء العلماء تخصّص علميٌّ غير تخصّصه، فهل يعقل أن يكونوا معه في مضماره، حتى تتلاقى أفكارهم العلمية في مهيعٍ واحدٍ؟.

إننا نجد اليوم عالِمَ الهندسة لا يجحد قدر عالِم اللغة بل يراه زميله في الكفاح، ويستعين كلاهما بالآخر فيما يحتاج إليه من أمور التأليف ومسائل الحياة! أفيجوز لعالِم الهندسة أن يقول إن زميله لا يبلغ مستواه في فنّه لَيَعُدّ ذلك نقداً يُوَجّه إليه؟ على أننا نترك هؤلاء الذين عكفوا على علوم اللغة والدين ممّن لا يلتقون مع الدكتور براون في طريق، ونتحدّث عن علماء من الأزهر عرفهم حقّ المعرفة وقاموا بتصحيح مؤلّفاته، وتنقيحها واختيار أسمائها، وكتابة مُقدمة وخاتمة لكلّ كتاب، وهم من الشّهرة لديه ولدى زملائه بحيث كان من المحتّم أن يشير إلى جهودهم في رسالة يبعثها إلى المجلة الآسيوية متحدّثاً عن النهضة العلمية في مصر.

ونحن نعرف أن للدكتور براون كتابين هما الأزهار البديعة في علم الطبيعة، والجواهر السَنِيّة في الأعمال الكيماوية، وقد ذكر جرجي زيدان أن الشيخ عمر التونسي قد تولّى تنقيحهما وإبرازهما في وضعِهما النهائي: فإذا كان الدكتور براون يزعم أنه يُجيد العربية، وقد تعلّمها فعلاً كما أشرنا من قبل، وهو مع إجادته لم يَسْتَغْنِ عن عالِمٍ أزهريٍّ ينقّح مؤلّفيه، ويضعهما في مستواهما اللغوي المقبول، فما بالك بزملائه ممّن لا يعرفون اللغة العربية إطلاقاً، ويأتون بمؤلّفات أوروبية يسلّمونها إلى التّراجمة السوريين لينقلوها نقلاً عاميّاً لا يصلح للتأليف فينهض شيوخ الأزهر لإصلاح الترجمة والارتفاع بها إلى مستوىً كريم، فكيف يتناسى الرّجل فضل هؤلاء عليه أوّلاً، وعلى الكثير من زملائه في مدارس الطب والهندسة

والرياضيات؟! وإذا قال له قائل: مَن وضع كتابيك في صورتيهما الأخيرتين فبماذا يُجيب؟.

وإذا كان قد اعترف بفضل العالِمَين الجليلين محمد عيّاد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي فهذان الفاضلان لم ينشآ من فراغ، ولم يكونا استثناءً لقاعدةٍ، بل هما من تلاميذ شيخ الأزهر حسن العطّار، وبِهَدْيه استطاعا أن يتفرّغا لعلومٍ كثيرة، وأن يحتذيا رفاعة الطهطاوي في مجالاتٍ مسبقة، وإذا كان رفاعة الأزهري النابغة قد ناله حظّه من التعريف، بحيث سارت مؤلّفاته مسير الشمس، وأُعيدت طبعاتها مرّات عديدة، فإننا نشير هنا بإيجاز إلى زميليه الكبيرين دون أن نبخسه قدره الذائع الجهير.

أما الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، فقد خصّه المستشرق الروسي (أغناطيوس كراتشڤويفسكي) بحديث طويل في كتابه (من خلال المخطوطات العربية) الذي قامت بنشره أكاديمية العلوم بلينينجراد، وفيه يذكر أن الشيخ تعلّم بالأزهر على أيدي العطّار والباجوري والرحبي، وأنه تولّى التدريس بالأزهر، وخصّ الأدب العربي بعنايته، إذ كان يدرّس للطلاب مقامات الحريري والمعلّقات السبع بشرح الزوزني.

وهذا قول يوجب الانتباه الدقيق، فقد شاع لدى بعض الدّارسين أن شيوخ الأزهر من قبل الأستاذ الإمام محمد عبده لم يكونوا يحفلون بدروس الأدب العربي، وإنما يرونه عَناءً لا طائل تحته! وها هو ذا الشيخ الطنطاوي يدرّس لطلابه المعلّقات السبع بشرح الزوزني! وغير معقول أن يكون شيخ الأزهر شاعراً وهو العطّار، وأن يكون من أبناء الأزهر شعراء مثل الخشّاب والدرويش وأبي النصر ثم لا يُدَرّس الأدب بالأزهر! أليس هذا مما يُوجِب الانتباه!.

ثم شاءت الظروف أن تطلب السفارة الروسية من تركيا أُستاذاً للغة العربية بمعهد الدراسات العربية بـ (سانت بطرس برج) فوقع الاختيار على الشيخ الطنطاوي، فنهض بما عُهِدَ إليه على أكمل وجه، وظلّ مُحافِظاً على زيّه الأزهري وسَمْته الشرقي، يقول عنه أحد معاصريه من الروس «إنه رجل وسيم، يرتدي حُلّةً

شرقية، وعمامةً بيضاء، وله لحيةٌ فاحِمَة سوداء، وعينان برّاقتان، ووجهٌ متوقّد الذكاء، وهو يسير الهُوَينى شامخ الرأس.

وقد مكث في منصبه العلمي قرابة أربعة عشر عاماً يشرح دقائق اللغة والأدب والبلاغة، وقام بعدّة رحلات إلى الجنوب حيث زار بلاد الإسلام في القوقاز وداغستان، وأُنْعِمَ عليه بعدّة أوسمةٍ تشير إلى ريادته، وترك مؤلّفات قيّمةً منها كتاب (أحسن النُّخَب في معرفة لسان العرب) ورسال (هديّة العاقل) وهي تتضمّن وصفاً بديعاً لرحلته من الشَّرق إلى الغرب وتشرح مشاهداته في ربوع الإسلام بروسيا، وله كتاب عن تاريخ العرب، وكتاب عن الحكايات العامّيّة بمصر، وترجمة لأشعار سعدي الفارسي، وعدّة حواشٍ على كتب الأزهر، وقد انتقل نشاطه العلمي إلى معاهد شتّى، ثم انتقل إلى رحمة ربّه سنة ١٨٦١ ودُفِن في قرية «فولكافا»، ونُصِبَت على قبره لوح من المرمر، يقول إنه مستشار بالدولة وأستاذ بجامعة (سانت بطرسبرج)!.

وإذا كانت رحلة رفاعة الطهطاوي إلى باريز قد طُبِعَت في مؤلّفٍ متداول تحت عنوان (تلخيص الإبريز)؟ فإن رحلة الطنطاوي إلى روسيا التي وصفها في كتابه (هدية العاقل) جديرة بأن تُطبَع، وهي في مكتبة معهد الدراسات العربية هناك، ويجبُ أن يضاف إليهما ما كتبه الشيخ محمد عمر التونسي تحت عنوان (تشحيذُ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) وهو وصفٌ لرحيله إلى السودان والواحات، وقد طُبع بباريس مع ترجمة فرنسية قام بها سديليو، وكتب عنها بالمجلّة الآسيوية.

وقد رأينا رسائل جامعية عن الرحلات المعاصرة تبدأ برفاعة وتقفز إلى عبد الله فكري والشدياق تاركةً الحديث عن رحلتي هذين العالِمَين الجليلين، فلعلّ باحثاً مخلصاً يَعنيه أن يبحث عن الدقائق المستترة ليبرزها ناهضةً شاخصةً تكمل الخطوات المجهولة في طريق هذا الفن الأدبي الرفيع.

أجل! لقد تحدّثنا بإيجاز عن الطنطاوي، وبقي أن نشير إلى زميله محمد عمر التونسي الذي شاركه فنّه الأدبي، فكتب الرحلة المُشار إليها، وقد وُلِدَ بتونس

وارتحل إلى مصر كوالده ليتعلّم في الأزهر الشريف، وذاع له حديث في العلم والأدب، فاختِيرَ واعِظاً دينياً في جيش إبراهيم باشا، ثم عاد إلى مصر ليقوم بأعباء التحرير في الكتب العلمية بمدرسة الطب.

يقول الأستاذ الدكتور محمد كامل الفقي عنه[1]:

«ولمّا عاد من رحلته [رحلة الجيش] كانت مدرسة أبي زعبل قد أُنشئت، وأخذ النّقَلَة في ترجمة كتب الطب وغيرها، فعُيِّن مُصَحّحاً وأُعجب به الدكتور براون وارتاح إلى أدبه، فقرأ عليه «كليلة ودمنة» ولمع نجمه في التحرير والتصحيح، وامتاز بين زملائه بمعرفة المصطلحات العلمية العربية، فكانوا يرجعون إليه في تحقيقه ويطلقون عليه (مصحّح كتب الطب) وكانوا إذا أرادوا أن ينقلوا كتاباً في أوائل إنشاء مدرسة الطب وجدوا مشقّة في إيجاد الألفاظ العربية الملائمة للألفاظ الإفرنجية في الكتب المترجمة، فيرجعون إليه في تحرير الكتب».

وبدراسة ما قام التونسيّ بمراجعته وتصحيحه نجد فروعاً من العلم نالت اهتمامه، فهو في علم النبات يقوم على تحرير كتاب «الدرّ اللامع في النبات وما فيه من المنافع» وفي الطب يراجع ويصحّح كتاب «كنوز الصحّة ومواقيت المنحة» وكتاب «الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال»، وكتاب «التنقيح الوحيد في التشريح الجديد» كما كان له إسهام في نشر القاموس المحيط، ومقامات الحريري، والمستطرف في كل فن مستظرف، ولم يكتفِ بالعمل التحريري بل خصّ يوم الجمعة بدرسٍ علمي للحديث الشريف بمسجد السيدة زينب، ولم ينقطع عنه إلاّ بالوفاة.

أما أكبر عمل علمي له فهو وقوفه على جمع معجم للاصطلاحات العلمية أسماه (الشذور الذهبية في الألفاظ الطبيّة) ونواته الأولى كتاب فرنسي في المصطلحات الطبية اختاره الدكتور كلوت بك، وقام بترجمته إبراهيم النبراوي،

---

(١) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، ص ٧٨.

ومحمد الشبّاسي، وعيسى النحراوي، ومصطفى السبكي، وكلّهم من أبناء الأزهر الذين سافروا إلى فرنسا وتخصّصوا في فروع الطب البشري، وعادوا ليكونوا مدرّسين بمدرسة الطب، وكانت مهمة التونسي أن يراجع كتب التراث اللغوي والعلمي ليستخرج التعاريف الدالّة على المصطلحات الإفرنجية وفق مدلولها الصحيح.

يقول التونسي بعد أن شرح مهمته العلمية: «وقد أوعز إليّ الدكتور براون ناظر المدرسة أن آخذ من الكتاب كلّ لفظ يدلّ على مرض أو عرض أو نبات أو معدن أو حيوان، أو غير ذلك من الاصطلاحات، وأن أستخرج ما في القواميس من التعاريف، وما في تذكرة داود، وما في فقه اللغة، وغيره من المعاجم وكتب اللغة، ففعلت ذلك، وأضفت إليه أسماء العقاقير، وأسماء الأطباء المشهورين، ورتّبته على حروف المعجم».

وقد كان هذا المعجم حديث المثقين في عصره، ولا يغضّ من قيمته أن توجد معاجم حديثة تستوعب ما ترك، وتضيف الجديد مما اكتشف، لأن قيمة الأثر العلمي تقدّر في نطاق زمانه ومكانه ليُعرَف مكانه الصحيح، وأنت إذا قرأت ما كتبه أبقراط وجالينوس في الطبّ القديم، وما قاله ابن سينا والرازي في العصر الوسيط. وحاولت أن تقرن ذلك بما يُكتَب الآن لَهَالَك أن تجد الفرق الشاسع بين القديم والجديد، ولكن هذا الفرق لا يمنع أن تكون هذه المؤلّفات التاريخية حلقة في سلسلة ممتدة من العصور السالفة إلى هذا العهد، بل إن علماء الطبّ المقارن يقيمون الموازنات العلمية بين مسائل كتب عنها السابقون، وأضاف إليها اللاّحقون ما ظَفَر بها من وضع إلى وضع دون أن يتحيّفوا القديم لقصوره إذا قِيسَ بالجديد!.

وستأتي أجيالٌ لا تزال في أحشاء الغيب لتقرأ ما نكتبه الآن ولتضيف إليه ما تتمخّضُ عنه الدراسات المنهجية من جديد في عالم الاكتشاف، يصبح به حديثنا الآن سالفاً متقدّماً يؤخذ منه ويُترك دون انتقاص.

وإذا كان الدكتور براون قد عاصر هؤلاء الأعلام، ودعاهم إلى مشاركته، واستعان بهم فيما استعصى عليه، وتتلمذ على بعضهم في مجال اللغة والأدب،

فكيف يحاول أن يغضّ من شأنهم متوهّماً أن في انتقاصهم المزعوم ارتفاعاً لشأنه! وذلك ما يستحيل؟.

-٣-

نرى اليوم مَن ينشر كتاباً من كتب التراث يُفاخِر به، ويعلن عن جهده في التحقيق والمراجعة، ويفرض الثمن الذي يرضى عنه، ويحتفظ لنفسه بحقوق الطبع، وقد ينشر كتاباً سبق أن نشره غيره، مُدّعياً أنه عثر على مخطوطة جديدة تتضمّن بعض الزيادات، وقد تكون الزيادة مما لا تُفيد في إضافة الجديد، ولكن المحقّق الثاني أصبح ذا حقّ، وذا جهد يُباهي به في مجال التحقيق!.

هذا ما نشاهده اليوم، فإذا رجعنا إلى الوراء يوم ظهرت المطبعة العربية في عالم الوجود بمصر فإننا نجد فريقاً من العلماء عكفوا على عشرات المخطوطات دراسةً وتحقيقاً وتصويباً، وملئوا رُفوف المكاتب بأُمّهات من كتب التراث مجلّداً خلف مجلد، في شتّى فروع المعرفة من فقهٍ وتشريعٍ ولغةٍ ونحوٍ وتاريخ وتفسير وأدب ومُسامَرات ودواوين شعرية ورسائل نثرية، مما تتعذّر الإحاطة به، ففي كل يوم تُخرج المطبعة جديداً يتعب فيه ناشره قراءةً وطبعاً ومراجعةً، ولا يكتب اسمه في صدر الكتاب كما يفعل محقّقو اليوم، بل يكتب في النهاية كلمة موجزة تبتدىء بهذا النص المتواضع «يقول مصحّح الكتاب فلان» ثم يأخذ التجّار والبَاعَة سبيلهم في نشر الكتاب دون أن يغنم المصحّح شيئاً! لأنه موظّف بالمطبعة يتقاضى ما لا يزيد عن ثلاثة جنيهات في الشهر على أرفع مستوى!!.

وقد يلحظ الناقد أن النسخة المنقول عنها تقلّ عن سواها في الضبط، أو يلحظ أن تحريفاً وقع في نص دون أن يلتفت إليه، ولكن ذلك كله لا يمنع الإعجاب بنفرٍ من المستشهدين في حبّ التراث، وصلوا بياض النهار بسواد الليل في تصحيح كتاب يُقدَّم إلى المطبعة عاجلاً ليبدأ المصحّح في سواه، حتى ظفرت المطبعة العربية في مدى نصف قرن بأكثر من ألفيّ كتاب!! فيها المراجع الدقيقة في علوم الفقه واللغة والتاريخ والفلسفة والمنطق والكلام والبلاغة، وفيها الشعر والقصة والرسالة والمقامة!.

وقد أشاع المرجفون نَبْزاً حقيراً لهـذه الكتب حين وصفوهـا بالكتب الصفـراء لأنها طُبِعَت على ورق أصفر! وليت شعري ماذا كان في مقدور المصحّـح والطابـع والبائع أن يفعله غير أن يكتفي بالمـوجود عن المفقـود! وكأنّي بـذوي الغرضِ من أعـداء الثقافـة العربيـة أرادوا أن يصدّوا القـارئين إذ ذاك عن نفـائس التـراث، فلم يستطيعوا أن يقولو شيئـاً في المضمون فلجؤوا إلى الشكـل، والكتب الصفراء هـذه هي التي كـوّنت أعلام النهضـة الفكريـة في العـالم الإسـلامي وأنشـأت جيـلاً من السـابقين لم تقدر الكتب البيضـاء في يومنـا هذا أن تنشىء أمثـالهم!! فليتنا نُـرزَق الإنصاف الحميد، فنهتف بالحق، ونُزجي الثناء لمستحقّيه.

وقد كان علماء الأزهر منـذ عصر محمـد علي في طليعة مَن قـاموا بتصحيـح هـذه الكتب! بل إننـا لا نتجاوز الحق حين نقـرّر أنهم وحدهم كـانـوا ذوي العبء الضخم في نشـر هـذه الكتب، وقـد استـطاعـوا بثقـافتهم الأصيلة أن ينشـروا آثـار الـطبـري وابن خلدون والمسعـودي والـزمخشـري والأصفهـاني، وكتب المـذاهب المختلفـة في الفقه الإسـلامي، هـذا غيـر المقـرّر في دروس الجـامـع الأزهـر من المتون والشروح والحواشي والتقارير في شتّى المواد العلمية.

وللقارىء أن يقرأ فهارس المكتبة الأزهرية وحدها ليعـرف أيّ طوفـان كاسـح فاض على المكاتب العربية في شتّى بلاد الإسلام من آثار هؤلاء العلماء الأعـلام، وقـد حفظ التاريـخ من أسماء هؤلاء النـاشرين عـدداً حافِـلاً، ولعـلّ من الخيـر أن يتخصّص مؤرّخ أدبي في تـدوين جهود هؤلاء، لأن الإحـاطة بهم في فصـل موجـز تتعذّر وتستحيل.

ولعلّنا نُعطي المثال حين نستشهد ـ في إيجـاز ـ بثلاثـةٍ من هؤلاء الأفذاذ، إذ كانوا أكثر نشاطاً، وأوفر إنتاجاً وما زالت آثارهم المـاثلة في أيدي الـدارسين، وهم الأساتذة محمد قطة العدوي، ونصر الهوريني، وإبراهيم الدسوقي، وقد ذُكِروا وفق الترتيب التاريخي، إذ كانت سنيّ وفاتهم مـوضع النـظر في الترتيب، وثـلاثتهم من علماء الأزهر ذوي الإحاطة والاستيعاب!.

فالشيخ محمد قطة العدوي عالِم أزهري اشتهر بتدريس الفقه المالكي، وتفسير القرآن الكريم، وكانت حلقاته بالجامع الشريف في الدرسين معاً موضع تزاحم بين الطلاب، حين كانوا يختارون مَن يشاؤون دون تقيُّدٍ بمنهجٍ أو مدرّس، فالأزهر لعهده كان يقدّم الدروس لمَن يشاء، وعلى الطالب المبتدىء أن يختار من الحلقات ما يناسب مستواه حتى يسمو إلى مثل حلقات الشيخ العدوي.

وكان من مفاخر هذا العصر العلمية، أنَّ مدرّس الحلقة إذا قرّر رأياً علمياً وانتقل صداه إلى زميل يخالفه في تقريره أن يحضر إليه في درسه بين الطلاب، وأن يعارضه بالدليل في رحابة صدر، لذلك اشتهرت مواقف العدوي العلمية مع زميله الشيخ سليمان الجمل صاحب الحاشية الشهيرة على تفسير الجلالين، إذ كانا يتناظران في المسائل العلمية بمشهد من العلماء والطلاب معاً، ونحن نرى اليوم في بعض كليات الجامعة ضيقاً ونفوراً بين الأساتذة حين ينقد أحدهم مسألة علميّة قرّرها زميله، ويعدُّ ذلك تهجّماً عليه في وقت ندّعي فيه حرية الفكر وتقدّم البحث، فمن مُبلِغٌ هؤلاء أن دراسة الأزهر القديم كانت حومة نقاشٍ وميدان مساجلة بين الأكفّاء، دون أن تترك في النفوس غير الإخاء والصفاء؟!.

لقد نشرت جريدة الأخبار في يوم ١٩٨٦/٢/٥ كلمة تتساءل في صفحتها الأدبية عمّن يسمّى بمحمد قطة العدوي، ويقول قائلها بعد أن تعرّض لجُهد الشيخ في تصحيح الفتوحات المكيّة لأول مرة طُبع فيها، يقول كاتبها الأستاذ جمال الغيطاني:

«تُرى مَن أنت أيّها الرجل الذي بذل نور عينيه من أجل انتزاع هذه المخطوطات من مجاهل التاريخ، ودفعها إلى المطبعة لكي تنوّرنا وتبصّرنا، تُرى مَن أنت؟ هل كان قاهرياً؟ أم جاء إلى الأزهر من ريف مصر، ثم عمل بعد تخرّجه في المطبعة الأميرية؟ هل كان قصيراً أو بديناً، جهوري الصوت أو خافتة، مَن أنجب من الأبناء؟ ومَن أحفاده الذين يسعون بيننا الآن؟».

وهذا التساؤل الممتد على صفحة الأخبار يُوحي بالحسرة على جهل تاريخ عَلَمٍ من أعلام التراث الإسلامي. وفي بعض الإجابة عن الأهمّ من هذه الأسئلة

نذكر أن الشيخ العدوي نشأ في بلدة بني عديّ من قرى مركز منفلوط بمحافظة أسيوط، وقد كان عالِماً أديباً، يقرأ دروس العلم ويحقّق كتب الأدب، وقد اختير لذلك مُصَحّحاً للكتب بمطبعة بولاق عند إنشائها.

وتصحيح الأمس هو تحقيق اليوم، إذ كان المصحّح يراجع النص، ويدقّق في صحّته، ويكتب تعليقاً على ما يظنّه موضع الخطأ، وإذا وجد قلقاً في العبارة قوَّمها وأشار إلى صنيعه! وماذا يمكنه أكثر من ذلك، وليس لديه قدرة على البحث عن مخطوطات نائية في الشرق والغرب بمكاتب لم تُشتهر بعد؟ ولم يتيسَّر الوصول إليها قبل انتشار المواصلات البرية والبحرية والجوية على هذا النطاق الواسع كما نرى اليوم.

كما كان الرجل يكتب خاتمة الكتاب مُشيراً إلى فضل مؤلّفه دون أن يذكر شيئاً من معاناته في المراجعة والتحقيق، وكأن هذه المعاناة واجب مفروض لا فخر في إعلانه كما قد يذكر قصيدة شعرية في مدح الكتاب، وتقريظ الكتب بالشّعر كان ذائعاً في العصر الماضي، وفي مفتتح هذا القرن، حيث كان المؤلّف يعرض ملازم الكتاب قبل تجليده على مَن يثق فيهم من رجال العلم، ليقول كلُّ دارس ما يعنّ له من التقريظ.

وقد كان الشيخ طه محمود من كبار مُصَحّحي المطبعة الأميرية، وله في خاتمة كلّ كتاب يقوم على تصحيحه شعر بليغ! وأقول: شعر بليغ، لأن كثيراً مما يقال في هذا المجال نظم لا شعر، وما يقوله طه محمود شعر يتطلب الجمع والدراسة.

ومن أشهر ما قام به الشيخ محمد قطة العدوي في مجال النشر والتحقيق والتصحيح كتاب «كليلة ودمنة» وقد طُبِعَ للمرة الأولى بتحقيق الشيخ قطة مع قصيدة ممتازة قالها شيخ الإسلام في عصره الإمام حسن العطّار، وكذلك قام على نشر حاشية الطهطاوي على مراقي الفلاح في فقه الحنفية، والشيخ مالكي يدرس المذاهب المتناظرة في مستوى واحد، كما نشر شرح الفتاوى الحامدية لابن

عابدين، وكتاب ألف ليلة وليلة بأجزائه الأربعة ذاكراً أنه انتهى من تصحيحه وطبعه للمرة الأولى في سنة تسع وسبعين ومائتين وألف للهجرة، وغير ذلك من الكتب.

ولعلّ آخر ما قام به في هذا المجال هو تصحيح الكشّاف للزمخشري، إذ لم يُكتَب له أن يتمّه مراجعةً وطبعاً، فأتمّه الشيخ محمد الصباغ الأزهري وقال في خاتمة التفسير الشهير: «تَمَّ تهذيبه وتصحيحه، وترصيع جوهره وتنقيحه، فبعضه بمعرفة خاتمة المحقّقين وسيّد المدقّقين الشيخ محمد قطة العدوي فسح الله تعالى له في قبره، ورزقه في الجنان أكبر مزيد من خيره، وبعضه بمعرفة الفقير إليه سبحانه محمد الصباغ، أسبغ الله عليه نِعَمه أتمّ إسباغ».

هذا وقد توفي العدوي في عام ١٢٨٠ هـ الموافق ١٨٦١ م. . . وفي ما ذكرناه ما يُشفي تساؤل جريدة الأخبار عن محقّق ترك الكثير ولم يُعرف من تاريخه القليل.

أما الشيخ نصر الهوريني فحظّه من الذّيوع أشهر، وصيته في مجال التحقيق أكبر، لأنه أشرف على طبع القاموس المحيط وتحقيقه، وقد اشتهر القاموس وأصبح في متناول كلّ دارس، ولا بدّ لقارئه من الإلمام بفكّ رموزه، ومعرفة إشارته وطريقة الاهتداء إلى معانيه، وذلك ما وضّحه الشيخ نصر الهوريني في مقدّمة ضافيةٍ تضمنت موازنة بين المعاجم العربية واصطلاحاتها المختلفة ـ وكانت أساساً لما كتبه من بعد مؤرّخو المعاجم العربية ـ من لَدُن الخليل بن أحمد إلى يومنا هذا.

وقد رجع الشيخ إلى كتب عدّة وأهمها شروح المنّاوي والفاسيّ والزبيديّ على القاموس، كما ترجم للفيروزآبادي ترجمةً وافيةً، وفَصَلَ ما اختصّ به صاحب القاموس من سِمات دقيقة لا يُتاح تحصيلها إلاّ عند قراءة القاموس مُقارناً بكتب اللغة الشهيرة، وأكثرها كان مخطوطاً لعهد الباحث، فصبر على دراسته صبراً يُوحي بقوّة الإرادة وشدّة الحزم، لأن قراءة النصوص اللغوية في اشتقاقاتها الغريبة المتنوّعة مجهدة متعبة، فإذا كانت هذه القراءة في مخطوطات متآكلة ومخرومة فإن

الإجهاد أشقّ، والكفاح مرير، كما لم يُعفِ الفيروزآبادي من فقراتٍ علمية صائبة دلّت على سداد بصر، ودقّة إيغال في مباحث التصريف والاشتقاق وفقه اللغة.

وقد حذّر قارىء القاموس من التعجّل في القراءة لأن المركب صعب، والعدّة غالية الثمن، إذ تتطلّب غوصاً على خفايا التركيب ودلالة اللفظ مجرّداً ومزيداً، وهذا ما لا مبالغة فيه، وقد شاء صاحب القاموس أن يضع مقدمة عويصة المبنى تحتاج إلى شرحٍ كاشفٍ، فقام الشيخ نصر بكتابة هذا الشرح على وجهٍ مُسْهَب رائع حقاً! حتى كادت هذه الديباجة أن تُفرَد بسفر مستقل لنفاسة ما جمعت من فنون الشرح والتحقيق، وقد دلّت على وفرة المصادر بين يدي الهوريني، ومن بينها مصادر لم تُطبَع للآن.

ويقابل جهد الهوريني في تحقيق القاموس جهده الرائع في توجيه الرسم العربي للكتابة، وتحقيق حروف الإملاء إذ كانت كتب التراث لا تتقيّد في الرسم الهجائي بقواعد متّفق عليها، ولكن كلّ مؤلّف يكتب بما عنّ له، فقد تُرسَم الهمزة في كتابٍ على نحوٍ مُغاير في كتاب آخر، وهكذا غيرها من حروف المدّ والوصل والقطع والعلّة مما يسبّب ارتباكاً لغير الدارس المتخصّص، فألّف الشيخ نصر الهوريني كتابه (المطالع النصريّة للمطابع المصرية) ليجمع الطّابعين على منهج واحد، ولم يتمّ له ذلك دون دراسةٍ فاحصة لأقوال الأئمّة في الرسم العربي، ومعارضتها بما اشتهر في كتب التراث ليرجّح مذهباً على مذهب، وقد اضطرّ إلى مخالفة بعض الأئمة لوجهةٍ لاحت له، وليس في ذلك شيء، فصاحب المائدة الحافلة يختار من أطايبها ما يروق، ولن ينزل إلى الرديء وهو يعرف الطيّب من الخبيث، ولكن ما صنعه الهوريني حين جمع الكُتّاب من الناسخين على مذهب واحد، كان موضع الاعتراض ممّن عزّ عليه أن ينفرد الهوريني بهذا السبق الباهر، فقد قال[1] الأب أنستاس ماري الكرملي بصدد هذا العمل الرائع:

«أخذ الاختلاف يزول شيئاً فشيئاً من بين ظهراني أبناء النيل، أو كاد يزول لأن الشيخ العلّامة نصر الهوريني وضع رسالة (المطالع النصرية) ووشّاها بقواعد لم

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ٤٩٧، سنة ١٩٤٣ م.

يتّبع فيها إماماً واحداً من أئمة العربية ولغـويّيها، بـل جمع بينهم، لأن اختيـاره لهم لم يكن مـوفّقـاً ولا دائمـاً حسنـاً ـ هكـذا يقـول الأب أنستـاس! ـ فقـد خـالف أحيـانـاً سيبويه والحريري والخفـاجي وغيرهم من أولئـك الأساطين الأقـدمين، كما خـالف ثقات المتأخّـرين كجماعـة الألوسيين، ومـع ذلك راجَ كتـابه أيّ رواج، لأنـه تولّى تصحيح أسفار المشاهير من الأقدمين، وكانت تُطبَع في مطبعة بولاق المصريـة منذ تولّى تصحيح مـا يصدر فيهـا، حتى شاع رسم الهمـزة على ما أراد لا على مـا كان رَسَمَها المؤلّف الأصيل في كتابه».

وكلام الأب أنستاس ينـطق بفضلٍ حـاول إخفاءه، لأن الـذي يقرأ جميـع ما قال الأئمة، ويختار من أقوالهم ويتـرك، هو إمـامٌ مثلهم، وله أن يـدع ما لا يـرجح لديه، ويكفي أنه عصم القارىء من اضطراب الرسم، إذ كيف يقـرأ اللفظ المهموز في كتـاب على غير منحـاه في كتاب آخـر ويكون الجميـع جائـزاً لأن مؤلّفاً قـديماً أجازه؟! أليس ما ذكره الأب الناقد ينطق بفضل العالِم الأزهري الكبير!.

وقد درس الهوريني الفرنسية وانتفـع بها وتـولّى التدريس بـالأزهر، ومـدرسة الألسن، وسافر إماماً لبعثة علمية في فـرنسا لعهـد محمد علي فسـاعده ذلـك على معرفة لغتهـا، وحين أُلحق بالمـطبعة الأميـرية كـان أبرز مَن نشـطوا في العمل بهـا تصحيحاً وتحقيقاً، وشرحاً وتـأليفاً، وممـا أخرج في مجـال النشر والتـأليف شرحـه لمقـدمة القـاموس، وتـأليف مقدّمـةٍ وافيةٍ لصِحـاح الجوهـري، وتصحيح المـزهـر للسيوطي، وتصحيح مقدمة ابن خلدون والجزء الثاني من تاريخه!! وقـد اعتمد في تحقيق آثار ابن خلدون ـ كما نصّ على ذلك في المقدمة ـ على كتب تاريخيّة هامّة منها شرح المواهب اللدنية، وتاريخ ابن كثير، وتاريخ ابن الأثير، ولم يُشِـرْ لتاريـخ الطبري إذ لم يهتدِ إليه في زمـانه، والجـزء الثامن من كتـاب (الأعلام)[1] للزركلي يشير إلى مؤلّفاته، ومنها غير ما سبق ذكره مختصر روض الـرياحين، وتفسيـر سورة المُلْك، وتسلية المصاب، والتوصّل لحلّ مشاكل التوسّل، وأسماء رُواة الحـديث، وتقييدات على علوم البلاغـة، وشرح رسـالة ابن زيـدون وشرح آخـر سمّاه «سـرح

(١) الأعلام ٨: ٢٩.

العينين» وتنوّع هذه المؤلّفات في شتّى فروع العلم يدلّ على شمول رحب، واطّلاع مديد، وقد انتقل إلى رحمة الله في سنة ١٢٩١ هـ الموافقة ١٨٧٤ م.

بقي أن نتحدّث عن الشيخ إبراهيم الدسوقي، وقد كان أحد أساتذة الجامع الأزهر، يقرأ فيه دروس الدين واللغة، ولكنه كان ذا ميل للأدب والشعر حيث تتلمذ على شيوخ يهتمّون بهما، كما قرأ دروس البلاغة واستوعبها، ثم التحق بمدرسة الطبّ مصحّحاً للكتب، فساعد على دقّة الترجمة، واتّصل ببيئةٍ ساعدته على التطلّع إلى آفاق أخرى، فانتقل إلى مدرسة المهند سخانة، فأشرف على تصحيح مؤلّفات الأساتذة في علوم الجبر والحساب والطبيعة والمعادن والهندسة. ثم عُيّن مُدَرِّساً للعربية بها، إذ رأى أُولو الأمر ألاّ يحرموا الطلاب من دراسة لغة الوطن، ليستطيعوا الترجمة دون وسيطٍ أزهريّ.

ولم يترك الإشراف على التصحيح المطبعيّ، فأخرج كتباً كثيرةً، منها: شرح التنوير على سقط الزند للتبريزي ومنار الهدى في الوقف والابتدا للأشموني، وقانون ابن سينا في الطبّ، والمثل السائر لابن الأثير، والطبعة الثانية من تفسير الزمخشري المعروف بالكشّاف، وصحيح الترمذي في الحديث النبوي، وله بآخر كل كتاب كلمة مسجوعة تُثني على المؤلّف، وتشير إلى مزايا الكتاب.

كما أذكر أنه أشرف على طبع ديوان المتنبي بشرح العكبري، وعلى طبع «تزيين الأسواق»، ولك أن تعجب لأستاذٍ يُشرف على كتب الطبّ والرياضة والفقه والحديث والأدب والبلاغة والتفسير والوقوف، ويرى نفسه أهلاً للقيام بأعباء المطبعة في كل اتجاه! ثم هو في حياته المعيشية فقير مُحتاج لا يجد غير الضروري بجهد جهيد.

وقد اشتهر الدسوقي في دوائر الاستشراق نظراً لاشتراكه مع المستر إدْوَرْدْ لين في شرح متن القاموس ليقوم المستشرق بترجمته إلى الإنجليزية.

يقول الدكتور أحمد أمين «أعدّ المستر لين مكتبةً يستعين بها على عمله، فعنده نسختان خطّيّتان من القاموس، ونسختان من الصحاح، ونسخة من تاج

العروس شرح القاموس، ونسخة من لسان العرب يظن الدسوقي أنها بخطّ المؤلف، وأجزاء من المحكم لابن سيده، والمزهر للسيوطي، وكثير من دواوين الشعر، واقترح لين أن يبدأ بمطالعة المزهر حتى يتذوّق اللغة وحدودها، ثم يقرأ كل يوم نصف كرّاسة من تاج العروس شرح القاموس، يفهمها ويستفسر عمّا صعب منها ويراجعها على ما عنده من كتب اللغة حتى يستوثق من صحتها. . . فإذا بدءآ القراءة، فلكلٍّ منهما نسخة من الكتاب، وُضِعَت على سطح مائل، يَقرءان ويُراجعان ويَفهمان إلى أن يتمّ نصف الكُرّاسة فينصرف الشيخ، ثم يأخذ لين في ترجمة ما فهم إلى الإنجليزية فتسير الترجمة مع القراءة، ويستمران على هذا سبعة أعوام لا يكلّان ولا يملّان»[1].

وظلّت الصلة الثقافية بين الرجلين يتبادلان الرسائل بعد رحيل لين من مصر إلى أن فارق الحياة قبل أن يموت الدسوقي بستّة أعوام، حيث قضى نحبه في سنة ١٣٠٠ هـ الموافقة ١٨٨٣ م.

وحديثنا عن هؤلاء الروّاد لا يُغفل دور تلاميذهم ممّن تعاقبوا على تهيئة الكتب العلمية للمطابع، والإشراف عليها تصحيحاً وتعليقاً، وقد وجدوا الطريق ممّهداً بعض التمهيد بما صنعه سابِقوهم المجتهدون، ونقول بعض التمهيد، لأن قيام هذا النفر على متابعة النّشر وَجَدَ من الصِّعاب العلمية ما تنوء به القوى الشديدة، للافتقار إلى كثرة المراجع، وتعدّد المخطوطات.

وإذا كنّا نجد اليوم منهجاً واضحاً للنشر العلمي قام على تقنينه أساتذة الاستشراق بدءاً وأعلام الدارسين من أبناء العربية ولاءً، فإننا نذكر بالخير مَن انغمسوا في هذا البحر اللّجي بقوّتهم الذاتية دون منهج مرسوم، فأرضوا حاجات العقول في زمانهم، وفتحوا الأذهان على تراثٍ حافل تزدحم به المساجد والمنازل والمدارس دون أن يجد مَن يبعثه من مرقده بغير عَناءٍ متواصل، وجهدٍ طويل الصبر، بعيد الأناة. ومن المُضحِكات أن نجد من ذوي السّفه مَن يصفهم بالورّاقين، ناسياً ما كابد هذا الورّاق المُفترى عليه من بلاءٍ شديدٍ.

---

(١) فيض الخاطر، جـ٣، ص ٤٧.

محمد زاهد الكوثري
راوية العصر وأمين التراث الإسلامي

- ١ -

يطلقون وصف الرّاوية على مَن يحفظ الكثير من روائع الشعر العربي، فلماذا لا يتّسعون فيطلقون هذا الوصف على مَن قرأ كتب التراث الإسلامي في شتّى فروعه المختلفة قراءة الدّارس المستوعب الناقد؟ ومَن تتبّع المخطوطات الإسلامية عربية وغير عربية في شتّى الأقطار المترامية ليقرأها في فروعها المختلفة؟

إننا نعهد مَن يتخصّص في دروس التشريع من فقه وأصول وتفسير وحديث لا يلمّ بكتب العقيدة ودقائق علوم التوحيد والمنطق والفلسفة، ودعْك من علوم اللسان كالنحو والصرف والبلاغة واللغة والأدب، فما بالنا نجد الأستاذ الكوثري يقرأ كتب التراث الإسلامي في شتّى مناحيه، قراءةً ترشّحه لأن يكون أمين هذا التراث في مختلف تياراته، لأنه لا يقرأ قراءة المتعجّل، بل قراءة الفاحص الناقد البصير، حتى لنعجب حين نجد مَن يحقّقون كتب الكلام يتطلّعون إلى مِصباحه المُضيء، فنظنّهم وحدهم تلاميذ الرجل، على حين نرى رجال الفقه على مختلف مذاهبه يعشون إلى ضوئه حين تنبهم المسائل، وتتدجّى وجوه الرأي، فيجدون شفاء الصدور، واطمئنان اليقين، فإذا كان المجال لمحقّقي كتب اللسان العربي، فإن استشارة الكوثري لهم ضرورة مُلزِمَة، إذ يجمع المحقّقون على اختلاف

مشاربهم، وتنوّع اتجاهاتهم على إمامة هذا الحَبْر في شتّى الميادين، وما شهدنا إلاّ بما رأينا.

فقد كان مجلسه العلمي في مسجد محمد أبي الذهب المقابل للجامع الأزهر الشريف بعد صلاة الجمعة في كل أسبوع مجال تسابق علمي بين المحقّقين، إذ يعرفون أن الرجل الكبير لا يبخل بعلمه على أحد، وقد يستحيون من كثرة التردّد على منزله العامر بالعباسية، فينتهزون فرصة صلاة الجمعة بمسجد أبي الذهب لِيَرِدوا مورده العلمي.

والكوثري الجليل رحب الصدر، رحب العلم معاً، وطبيعي أن يكون هؤلاء الكبار ممّن لا يسألون عن غير العويص المستغلق، وما أعياهم اكتشاف وجهه بعد طول الدّأب وعناء المراجعة، ولكن من غير الطبيعي ـ إلاّ لدى مَن اختصّه الله بفضله ـ أن يكون المسؤول الكبير مُلِمّاً بكل ما يُسأل عنه، وكأنه سُئِلَ من قبل، فدرس ونقّب حتى اهتدى إلى الرأي الصائب مع بديهة حاضرة تقوم مقام الرّويّة المتّئدة عند سواه.

وقد يأتيه باحث بمخطوط نادر يظن أنه وحده الذي اطّلع عليه، فهو يباهي به مُباهاةً لا تقف عند حدّ، ثم يُفاجأ بأن الكوثري قد قرأ المخطوط في أكثر من نسخه، وأنه يُشير عليه بالاطّلاع على مخطوطات أخرى في مكاتب العالم الإسلامي عربية وغير عربية، كما يقدّم إليه المخطوط النادر، فيعرف من طريقة نسخه مَن الكاتب؟ وفي أيّ سنة كُتِب؟ ويُبدي احتمالات شتّى لا تلبث بعد الفحص أن تصير إلى حقائق.

إننا نعرف كثيراً من الفضلاء يحرصون على جمع المخطوطات، ولهم جهدهم المشكور لِما بذلوه من وقت ومال واطّلاع، ولكننا لا نجد مثيلاً للكوثري في قراءة هذه المخطوطات واستيعابها على نحوٍ فريدٍ، ولعلّنا نعترف بالفضل لأهله حين نذكر في هذا المجال الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ خليل الخالدي، وأحمد باشا تيمور، ولكن الكوثري قد أربى عليهم بما قرأ واستوعب في اللغات الإسلامية من عربية وتركية وجركسية وفارسية!.

إن هؤلاء الأفاضل قد وقفوا عند التراث العربي وحده، ولكن الكوثري تجاوز هذا النطاق إلى ما هو أرحب وأوسع، وقد يترجم نقولاً مختلفة من هذه اللغات إلى العربية، ويقدّمها هدية لمَن يسأله دون أن يحرص على نسبة الترجمة إليه، وهي مثالية عُليا نادرة الوجود.

زاهد أصيل:

أذكر أن الأستاذ العقّاد حين تحدّث عن الأستاذ الكبير محمد فريد وجدي رحمهما الله، قال في مقدمة حديثه[1]: هو فريد عصره غير مُدافع، ولطالما قِيلت هذه الكلمة عن عشرات من حَمَلَة الأقلام في عصرٍ واحد كلّهم فريدٌ في عصره، إلّا أننا نقولها اليوم عن محمد فريد وجدي لنُعيد إليها معناها الذي يصدق على الصفة حرفاً حرفاً، ولا ينحرف عنها كثيراً أو قليلاً حتى في لغة المجاز، نعم، الفريد حتى في لغة الجناس لأن اسمه فريد!».

وما قاله العقّاد عن فريد، وانطباق الوصف الدقيق على اسمه، أقوله عن (زاهد) وانطباق الوصف الدقيق على اسمه، فما رأينا من كبار العلماء مَن زهد في المناصب العلمية المُغرية على ما تمنحه من جاهٍ ممتد، ومال مُسعِف، وعيشٍ رافه كما زهد الأستاذ زاهد الكوثري.

لقد دُعِيَ إلى أن يكون أستاذاً للغة التركية بمعهد اللغات الشرقية قبل أن ينضمّ إلى كلية الآداب، فرفض، لأنه رأى بين أساتذة المعهد مستشرقين يُخفون ما لا يُبدون، وليس من خُلقه أن يُزامل مَن لا يثق في طوِيّته، ودُعِيَ لأن يأخذ أجْراً على ما يقوم به من عناء التصحيح والتوثيق والتقدمة لبعض كتب التراث، فرفض على شدّة احتياجه، وضيق ذات يده، لأن ذلك في رأيه قد يحول دون ثواب الآخرة، وما عند الله أبقى وأفضل!.

لقد قدّم إليه تلميذه الناشر الكبير الأستاذ حسام القدسي مائة نسخة من كتاب قام على تصحيحه عاماً كاملاً فأبى، وقال: أخاف ألّا يجتمع ثواب الدنيا مع ثواب

(١) رجال عرفتهم، للأستاذ العقّاد، ط بيروت، ص ١٤٧.

الآخرة، وفي أزمةٍ مالية مرهقة حين اشتدت به العلّة، وزادت تكاليف العلاج شاء تلميذه الأستاذ أحمد خيري أن يمدّه بثمن الدواء وفاءً لما قام به من تعليمه وتهذيبه فأبى وآثر أن يبيع كتبه الثمينة بثمن بخس ليجد ما ينفق دون مرارة تلحقه.

وقد أراد الأستاذ الكبير محمد أبو زهرة أن يكون الكوثري أستاذاً للطلاب بقسم الدراسات العليا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، وكان الرجل يعاني أعباء الشيخوخة، فقال لأبي زهرة: ليست لديّ القوّة الجسمية التي أطمئن إليها في تأدية الدرس على الوجه المنشود! وألحّ أبو زهرة قائلاً: إن مجرد حديث الكوثري مع الطلاب كسب أيّ كسب، وإنه يتحدّث مع كبار العلماء فيبهرهم، فليجرّب ذلك مع الطلاب! ولكن الكوثري قال: التدريس أمانة، وله عندي ميزان خاص أخاف على نفسي أن أتجاوزه، ولقاء الله قريب!.

وخرج الأستاذ أبو زهرة من بيت الكوثري، وهو يضرب كفّاً بكفّ، ويقول: عندنا مَن يدخل قاعة المحاضرات، ولا يستحيي من نفسه أن يصرف الوقت فيما لا يفيد، وهذا الكوثري في ضيقٍ من العيش، وضرورةٍ لثمن الدواء، يستشعر فداحة الموقف العلمي، وينهاه ضميره الأدبي أن يتهيّأ للتدريس، مع أنه أهل له!! ثم يبعث زميله الأستاذ علي الخفيف إلى الكوثري مرة أخرى فيجده مصمّماً على ما يريد! فيتكرّر الرفض، ويخرج الخفيف هو الآخر ليضرب كفّاً بكفّ!.

وقد أحسن الأستاذ أبو زهرة كلّ الإحسان حين قال عن الكوثري في مقدمة كتاب (مقالات الكوثري) الذي طبع بعد رحيله مجموعاً من الصُّحُف الدينية التي كان يؤثرها بنتاجه الغزير[١].

«إن ذلك الإمام الجليل لم يكن من المنتحلين لمذهب جديد، ولا من الدّعاة إلى أمر بدىء لم يُسبَق به، ولم يكن من الذين يَسمُهم الناس بسِمَة التجديد، بل كان ينفر منهم، فإنه كان متّبعاً ولم يكن مبتدعاً، وأنا مع ذلك أقول: إنه كان من المجدّدين بالمعنى الحقيقي لكلمة التجديد، لأن التجديد ليس هو ما

(١) مقدمة (مقالات الكوثري)، للأستاذ أبي زهرة، ط ١، ص «ب».

تعارفه الناس من خلعٍ للربقة، وردٍّ لعهد النبوّة الأولى، وإنما التجديد هو أن يُعاد إلى الدين رونقه، ويُزال عنه ما علق به من أوهام، ويُبيِّن للناس صافياً كجوهره، نقيّاً كأصله، وإنه لمن التجديد أن تحيا السُّنّة وتموت البِدعة، ويقوم بين الناس عمود الدين، ذلك هو التجديد حقّاً وصدقاً، وقد قام الإمام الكوثري بإحياء السُّنّة النبوية، فكشف عن المخبوء بين ثنايا التاريخ من كتبها، ثم عكف على جهود السابقين من الذين قاموا بالسُّنّة، ورعوها حقّ رعايتها، فنشر كتبهم».

وما قاله الإمام أبو زهرة يجب أن يكون موضع الاهتمام والنظر، لأن من الكاتبين مَن يرى التجديد هدماً لا بناءً! بل منهم مَن يرى التجديد في الشذوذ عن الطريق السويّ، والافتيات على السابقين بغياً دون علم، وليس ذلك بتجديد بل هو تدمير وتخريب.

ظروف الحياة:

ينتهي نسب الكوثري إلى الجركس ببلاد القوقاز، وللجراكسة عزيمة صلبة يعرفها مَن يقرأ سِيَرهم في الحروب واقتحام الأهوال، وأبناء الجراكسة من العلماء يحملون هذه العزيمة في مضمار العلم والثقافة، فلهم اعتزاز بالرأي، ومجاهرة بالحق، وعدم الخضوع لما يرونه باطلاً في الاتجاه، وتلك صفات بارزة عُرِفَ بها الأستاذ محمد زاهد الكوثري، من عهد الطلب إلى أن سَعِدَ بجوار ربّه الكريم.

صحبته هذه العزيمة طالباً، حيث برز على أقرانه في مجال الدراسة، ونال الشهادة العالمية، فكان الأول بين زملائه، وعُيّن مُدَرّساً بجامع الفاتح مباشرة لما شُوهِدَ من نبوغه المبكر، ولكن الاتحاديين حينئذ قد أرادوا انتقاص المواد الدينية من جداول الدراسة لتحلّ محلها العلوم الحديثة، فرأى الكوثري أن يجهر بالمعارضة دون حذر، ولاحظ الاتحاديون الأتراك صلابة موقفه، فخافوا أن يلتفّ حوله مَن يستطيع إقناعهم باتجاهه، وعملوا على إبعاده عن الآستانة مُدَرّساً في معهد فرعي وسط الأناضول.

ثم رأت الجامعة أن تعيّن أستاذاً للشريعة الإسلامية عن طريق الامتحان بين المتسابقين من حَمَلَة العالمية، مع الخبرة في التدريس، فتقدّم الأستاذ الكوثري

للامتحان، فوقع عليه الاختيار، وغاظ الاتحاديين أن يرجع من الأناضول مُرقًّى إلى هذا المنصب الخطير، فاكتفوا بانتداب أستاذ آخر دون تعيين أحد، ولكن صيت الكوثري دفع به إلى مجالات علمية حتى صار وكيلاً للمشيخة الإسلامية، فأصبح الرجل الثاني في المنصب الديني، إذ لا يتقدّمه غير شيخ الإسلام فحسب.

ثم جهر بمعارضته الشديدة لهدم مدرسة دينية أراد الاتحاديون تحويلها إلى مستشفى عامّ، وبادر فرفع دعوى إلى المحكمة المختصّة مُوضّحاً أن المدرسة ذات وقف متعيّن ولا سبيل إلى إلغائه، ولم تصل المحكمة إلى حكم عادل لأن الكماليين قد احتلوا الآستانة، وأصبح أمرهم بالغ النّفاذ بحيث لا يخضع لرقابة قضائية، فهُدمت المدرسة، وبَدَرَت دلائل فصل الدين عن السياسة، والدعوة إلى العلمانية.

فجنّد الكوثري جبهةً لمحاربة هذا الاتجاه، وصدر الأمر باعتقاله، فلم يَخَفْ على نفسه قدر خوفه على إسكات أصوات المعارضة لهذا الحَدَث المنكر، ورأى أن يفرّ بدينه مُجاهِراً إلى الله، ليستطيع أن يتحدّث بما يشاء، ففرّ وحيداً أعزل من كل شيء، وطاف ببلاد المشرق متنقلاً بين القاهرة ودمشق، حتى استقرّ بالقاهرة، ونزل أول أمره برواق الأتراك بالأزهر، فعرف الطلاب مكانته، وتجمعوا حوله، ولكن ظروف حياته ظلّت بين الجذب والشدّة، لأنه لم يَسْعَ إلى مَنصِبٍ علميٍّ ترشّحه له كفاءته الواضحة.

وكان من عارِفِي فضله مَن أبدوا استعداداً لمعاونته، ولكنه أصرّ على الانطواء الوظيفي دون الانطواء العلمي، ولعلّ تجاربه الأولى بتركيا قد أقنعته بالبعد عن ميادين التنافس، وقد نشر من التحقيقات العلمية ما قرّبه لذوي النباهة من أساتذة العلم.

وكان في الرجل تواضع كريم، فأراد إحياء سُنّة السّلَف في رواية الحديث النبوي، واتصل بشيخ الشافعية بمصر ليروي عنه (المسلسل) عن مشايخه، كما اتصل بالشيخ يوسف الدجوي أحد كبار العلماء في زمنه ليروي عنه موطأ مالك، وفي أثناء مقامه بدمشق، روى كتاب الشمائل للترمذي عن السيد محمد بن جعفر

الكناني بالجامع الأموي بدمشق، ولم يكن الشيخ طالباً صغيراً حتى يحرص كل الحرص على هذه الروايات، ولكنه كان في مستوى مَن يأخذ عنهم، بل كان يفوق بعض مَن جلس بين أيديهم، وهم يعلمون ذلك عنه، ولكنهم جميعاً يحيون سيرة السلف في امتداد الرواية إلى هذا العصر.

وقد رأيت بنفسي إحدى مجالس الحديث النبوي بدار العلاّمة يوسف الدجوي، وشاهدت العلاّمة الكوثري يقرأ في خشوع حديث الموطأ، والدجوي فوق كرسيّه يسمع في يقظةٍ وانتباهٍ، وكان المشهد عجيباً، تحدّثت عنه بإفاضة في إحدى مجلاّت الأزهر تحت عنوان (مقارىء الحديث في مصر)[1] فليت هذه المقارىء تعود.

أنصار ومُعتَرِضون:

لكلّ مفكّرٍ تلاميذه المؤيدون، ومُخالِفوه المعترضون، وتلك ظاهرة صحيّة دون جدال، فما زال اختلاف الرأي سبيلاً إلى إيضاح الحق، إذا خلصت النيّات وسلمت الضمائر، وقد نزل الكوثري القاهرة، وهو صاحب رأي في مسائل الدين وشؤون التاريخ، ينافح عنه ويُعارض مخالفه، فمن الطبيعي أن يلتفّ حوله مَن ينحو منحاه، كما من الطبيعي أن يجهر خصومه بمعارضته ولهم تلاميذهم الذين يؤيّدونهم في الصُّحُف، وينقدون ما يرونه محتاجاً للنقد من أقوال المُخالفين.

وقد قلت: إن الكوثري صلب صخري المكسر، لا يسكت عن نقد، ولا يغمض عن اعتراض، وإذا كان قد جاهر الكماليين والاتحاديين في تركيا مع سلطانهم القاهر، وبطشهم الغادر، فإن مجاهرة مُخالِفيه من علماء مصر مأمونة العاقبة، إذ لا خطر فيها على أحد، فله أن يقول ما يريد متى يريد! وقد قال الرجل آراءه الصريحة في اتجاهات المجدّدين من ذوي الإصلاح الديني، وهذا ما يُحمَد له، كما أن مما يُحمَد لمُخالفيه أنهم واجهوا النقد بالنقد دون افتيات، وتلك سبيل الفضلاء!.

(١) مجلة الأزهر، جمادى الآخرة، سنة ١٤٠٧ هـ.

وقد يقال إن بعض الطلاب من الشباب المندفعين قد هاجموا الرجل بمقالات صاخبة، ولكن الكوثري نفسه قد هاجم الطلاب والأساتذة معاً بمقالات صاخبة، وفي هؤلاء الكبار شيخ الأزهر الإمام المراغي، والعلّامة الشيخ عبد المجيد سليم المفتي الأكبر وشيخ الأزهر أيضاً، والأستاذ الكبير محمود شلتوت شيخ الأزهر من بعد، والأستاذ أحمد شاكر شيخ المحدّثين في عصره، والقاضي الكبير.

وكنت أوثر أن ينهض باحث مخلص بكتابة مؤلّف عن هذه الحركة العلمية الخصيبة، بعد أن ذهب أصحابها إلى رحمة الله ورضوانه، وكلهم مخلص أمين، أجل، كنت أُوثر أن ينهض باحث لكتابة مؤلّف تحت عنوان (الكوثري بين مؤيّديه ومُعارِضيه) ليرى الخَلَف بعض جهاد السّلَف في خدمة العلم، ومضمار التجديد، وليتّصل التاريخ العلمي اتصال الحلقات الممتدة في نظام دقيق.

وإذا كان المراغي وعبد المجيد سليم وشلتوت ممّن يذهبون في الإصلاح الديني والتفكير الإسلامي مذهب الإمام محمد عبده، فإن الكوثري رحمه الله لم يُعْفِ الأستاذ الإمام من انتقادات متتابعة! وهو بذلك يُعيد معارك الفكر الإسلامي في أخصب عهوده، حين كانت آراء أبي حنيفة والشافعي وأبي يوسف ومحمد بن الحسن ومالك بن أنس والليث بن سعد موضع جدل كبير. . .

ومما يبعث على الارتياح أن مقام هؤلاء جميعاً كان موضع التكريم من القارىء المعاصر، فقد كان الكوثري ـ على حِدَّةِ صياله ـ موضع التقدير من أساتذة الأزهر الشريف، ومن طلّابه، إذ كان له حواريون مخلصون من طلبة الكليات الأزهرية، ومن أساتذتها المرموقين، وكان الشيخ عبد المجيد اللبّان شيخ كلية أصول الدين يعدّه باحثاً إسلامياً منقطع النظير.

كما كان الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي يراه ساعِدَه الأيمن في اتجاهه الفكري، وقد أجبره على السُّكنى معه هو وعائلته في بيته بعزبة النخل في ضواحي القاهرة، حيث كان الكوثري يسكن بالعباسية، وقد تعرّضت لقنابل الألمان أثناء

الحرب العالمية الثانية، فلم يأمَن الدجوي أن يعود الضرب ثانية فيتعرّض صاحبه لِما يخشاه.

كما أن الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر كان يختصّ الكوثري باهتمامه، إذ عرف فضله العلمي فيما حقّقه من كتب التراث الإسلامي خاصّاً بالفلسفة التي كان الأستاذ مصطفى عبد الرازق أستاذاً لها بكلية الآداب بالجامعة المصرية حيناً من الدهر.

أقول ذلك قبل أن أعرض بعض مناحي الخلاف الفكري بين الكوثري ومُعارِضِيه الكبار، وكلّهم خيار من خيار. . .

إن اختلاف مناحي التفكير في القضايا التشريعية والكلامية قد فسح مجال التباعد بين الأستاذ الكوثري ومُخالِفيه، لأن الإمام المراغي وتلاميذ مدرسة الشيخ محمد عبده جميعاً، يرجعون في الرأي العلمي إلى قضايا علمية يؤكّدونها قبل الإدلاء بأحكامهم التشريعية، فتجيء هذه الأحكام متفقة مع ما قرّروه من القضايا الكليّة، أما الأستاذ الكوثري وتلاميذه فهم متشبعون بالأحكام الجزئية التي سجّلها الفقهاء في كتبهم المتداولة، وقد يرجعون إلى نصوص متأخّرة قال بها من الفقهاء مَن لا يُجيز لنفسه أن يجتهد في الرأي، بل مَن يُحرّم الرأي، ويُعدّ باب الاجتهاد الفقهي قد أُوصِدَ تبعاً لِما قرّره أمثال ابن الصلاح! ومثل هذا الاختلاف في تناول قضايا العلم لا ينتهي بالمتناظرين إلى وِفاق، ولكلٍّ مشربه ومنحاه!.

أضرب المثل لِما أقول فأُعلن أن الإمام المراغي حينما تقدّم ببحثه عن قانون الزواج والطلاق رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩، وقد صار معتمداً لدى المحاكم، ومرجعاً للرأي في شؤون الأسرة، قدّم له بقواعد ثابتة لا يراها مجالاً للاعتراض، حيث أوضح خطر الحكم بالكفر على مَن يخالف آراء الفقهاء المتداولة، وأوضح معنى الاجتهاد فارقاً بين المجتهد المطلق والمجتهد المقيّد، واعتماد الآراء الفقهية المخالفة لأئمة المذاهب الأربعة، إذا كانت ذات دليل راجح، كما بيّن تغيّر الأحكام بتغيّر الأزمنة والأمكنة والعُرْف، وأفاض في هذه المسائل إفاضةً شافيةً حتى كادت تكون بحثاً مستقلاً في علم الأصول.

وفي ضوء هذه الكليات أصدر أحكامه عن تعدّد الزوجات، وطلاق المكره والسكران، والطلاق غير المنجز، والطلاق المعلّق، ووقوع الطلاق الثلاث طلقة واحدة، وشروط عقد الزواج، وجاء العلّامة الكبير أحمد شاكر فاعتمد كثيراً من هذه الأصول في كتابه عن الطلاق، ولكن الأستاذ الكوثري لم يَنحُ منحى الشيخين الكبيرين، وأصدر كتابه (الإشفاق في أحكام الطلاق) متقيّداً بمذهب الإمام أبي حنيفة في أكثر ما قرّر، وراجعاً إلى أقوال الأئمة الثلاثة في غير الأكثر! وما قرّره الكوثري معروفٌ مُشتهر، وعليه دارت الفتوى الشرعية، والحكم القضائي قبل صدور القانون سنة ١٩٢٩ م، وقارىء كتاب الإشفاق مقارناً بكتاب الشيخ شاكر يشعر بأن الجهة مثقلة كما يقول المناطقة، وقد دلّ كتاب الإشفاق على علم غزير، وغوص بعيد، ولكن الطريقين متباعدان.

وما يقال في قانون الأسرة يقال في مسألة نزول عيسى عليه السلام، حيث أصدر الشيخ محمود شلتوت فتوى تنتهي إلى أن منكر هذا النزول لا يخالف نصّاً قطعياً مجمعاً عليه، وأبدى من الأدلة الملزمة ما يرجّح قوله، وكان قد تلقّى سؤالاً عن نزول عيسى من جهة رسمية بالهند، فأعمل فكره الدقيق حتى اهتدى إلى حكمه المعلّل.

والأستاذ الكوثري على نقيض هذا الرأي، ولكلٍّ وجهةٌ هو موليّها، فعارض الحكم مستنداً إلى ما فهمه من نصوص مطلقة تقبل الرأي وسواه ولا تجزم برأي قاطع، وقد قَسَا في مقاله قسوةً بالغةً، حيث اتّهم المخالف بالهوى، وحبّ الظهور الشخصي، ومُجاراة ذوي الأهواء، مما دفع الأستاذ شلتوت إلى أن يكيل بالصّاع صاعاً غير مصرّح باسم الكوثري ولا بمَن نَحَا منحاه، وقد مهّد لحديثه بمقالٍ جامع عن العقيدة الدينية، وطريق ثبوتها مؤكّداً اتفاق العلماء على أن الدليل العقلي الذي سلمت مقدّماته، وانتهت في أحكامها إلى الحسّ أو الضرورة يفيد اليقين، ومبيّناً أن الاجتهاد في ما لا قاطع فيه يمنع التأثيم، ومفسّراً ما يتعلّل به المخالفون من نصوص ليست صريحة فيما يدعون، وليس المجال هنا بمجال استقصاء وتتبّع، ولكننا نحدّد تيارين يختلفان ولا يتّفقان.

ومما زاد الرهج هياجاً، والحرقة اشتعالاً أن الأستاذ الكوثري يتسرّع في القسوة دون موجب، فقد صادرت مشيخة الأزهر كتاباً يتضمّن بعض العقائد المنحرفة، ولكن الأستاذ شلتوت وهو عضو بجماعة كبار العلماء قد رأى أن المصادرة ليست هي الحلّ الأمثل، إنما الحلّ أن تقوم الجماعة بالردّ على الأخطاء التي يتضمنها الكتاب، وأن ترشد المسلمين إلى الانحرافات المبثوثة في بعض كتب التراث، كي يستضيء القارىء فلا يضلّ، إذ إن هذه المصادرة في مصر لا تمنع ذيوع الكتاب في قطر آخر، فالأفضل أن يُترَك الحكم للقارىء بعد أن يجد الردّ الشافي من العلماء، وقال الأستاذ شلتوت: إن من واجبات جماعة كبار العلماء أن تصحّح لا أن تصادر، ولكن الأستاذ الكوثري رأى المصادرة حلًّا صحيحاً، وكتب مقالاً يتّهم فيه الأستاذ بمجاراة أهل البدع والأهواء، وما كان أحراه أن يجادل بالتي هي أحسن.

والحق أن الكوثري لم يكن في اتجاهه المخالف صاحب غرض شخصي، ولكنه ذو إخلاص وحميّة تدفعانه إلى المعارضة، كما كان معبّراً عن مشاعر علماء فضلاء يشاركونه الرأي، ولا يملكون ما يملك من حجج وبراهين، لأن قراءاته الكثيرة قد ساعدته على استيعاب نصوص مختلفة لا يتيسّر الحصول عليها لسواه، وما زالت الأفكار تتعارض منذ تمتّع الإنسان بعقله المستقل وتفكيره المستدلّ، فالجدل المخلص طريق الحق، والحقيقة بنت البحث.

دعوى التعصّب:

ذاع عن الكوثري ـ بغياً دون حق ـ أنه شديد التعصّب للمذهب الحنفي، وأنه يراه المذهب الحق، وأن ما عداه لا يرتفع إلى مستواه، والحق أن الفقيه الكوثري قد درس الفقه الحنفي دراسةً مستوعبة فاحصة، وآثر اتّباعه والالتزام بأحكامه، وهذا مما لا غضاضة فيه، ولكن هجوم بعض الأدعياء على الإمام دون دليل، وحرصهم على نشر كتب منسوبة لبعض الأئمة تتضمن تجريح أبي حنيفة خطأً لا يجب السكوت عنه، فتصدّى الكوثري لتفنيد كلّ ما يُروى عن أبي حنيفة من افتراءات.

وقد تورّط الخطيب البغدادي في ذكر مقابح لا تصدر من مثله، وكان ذلك تعصّباً مقيتاً لا يليق بمؤرّخ يكتب تاريخ بغداد في عدّة مجلّدات فيتعرّض لمئات العلماء والفضلاء تعرّض مَن لا يهمّه أن يلتزم الحَيدة الصريحة فيما يقول، وقد طبع كتاب تاريخ بغداد طبعة مُغرية، وتناقله الدّارسون عن ثقة واحتفال، وفيهم مَن أخذ يردّد أوهامه المُغرِضة عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، فانبرى الإمام الكوثري لتزييف هذه الأباطيل في كتاب «تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب». وفي بعض هذه الأكاذيب بشاعة شنيعة حملت الكوثري على أن ينقضها في انفعال لا سبيل إلى تلافيه! ولا يُعدّ كتابه هذا مثلاً للتعصّب، بل هو ضرورة مُلزِمة يفرضها العلم على مَن يملك القول.

وقد ردّ بعض الفضلاء على كتاب التأنيب، فتقبّل الكوثري ردّه بقبول حسن، وأتبعه بما يراه من تعقيب جادّ، ولو كان الكوثري متعصّباً دون حقّ لثار في وجه ناقد التأنيب، ولكنه يعرف أن النقد سبيل الصواب، متى خلصت السرائر، وصحّت الأفهام!.

والرجل لا يثور إلّا حين يرى حقّاً يُشوَّه وباطلاً يُزَيَّن، بدليل أنه كان متّزناً كلّ الاتّزان في ردّه على ابن أبي شيبة، فيما ألّفه تحت عنوان (النكت الطريفة في التحدّث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة) وقد دلّ هذا الكتاب على عمق فريد، وتخصّص بالغ في أعقد مشاكل الفقه ومعضلاته، وقد قاربت صفحاته مائتين وثلاث وسبعين صفحة، على غير عادة الكوثري في الاختصار، لأن تشعّب الأحكام قد دفع به إلى موجٍ يجيد السباحة في محيطه الزاخر، ويصل إلى الشاطىء بسلام!.

أما اشتغال الكوثري بتراجم أئمة الأحناف من أمثال أبي يوسف ومحمد بن الحسن وزفر والطحاوي وابن الهمام وغيرهم، ففضل كبير يُعزى إليه، فقد درس الرجل الكبير أقوال هؤلاء الأئمة وسرد ما يعرفه من مبتكراتهم الفقهية الرائعة، ودلّ على تهافت مَن قاوموا بعض هذه الآراء بمنطق جيد لا يغلب، فليت أبناء المذاهب

المختلفة يتجرّدون لكتابة تراجم الأئمة من أعيان المذهب، فتكون لنا ثروة علمية وسِيَر تاريخية، تنشىء جوّاً فكرياً نحن في حاجة إليه في مضمار التشريع.

ولا أترك هذا المجال دون أن أُشير إلى ما كتبه الكوثري في كتابه (إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق) ردّاً على كتاب ظهر تحت عنوان (مغيث الخلق في ترجيح القول الحق) منسوباً لأبي المعالي الجويني إمام الحرمين وأستاذ الغزالي، فقد سلّ الكوثري سلاحه الباتر في معارضته ما جاء بهذا الكتاب، ونحا باللوم على مؤلّفه المزعوم، وقد تعرّض المفتي الأكبر الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي وهو شيخ الحنفية في عصره، وموضع الثقة من الشيخ الكوثري إلى القول فيما نشر تحت عنوان (مغيث الخلق) فشكّك في نسبة الكتاب لأبي المعالي الجويني إمام الحرمين، ونقل من كتاب البرهان للجويني ما يخالف ما جاء في مغيث الخلق، مما يدلّ على أن النسبة إليه في تأليف هذا الكتاب ذات ريب أكيد.

ولو التفت الكوثري إلى المقارنة بين ما جاء في البرهان، وما افترى به مؤلّف (مغيث الخلق) على الإمام أبي حنيفة لجاهَر بنفي هذا الهراء عن إمام جليل كالجويني، ولا أدري ما حظّ الذين يفترون الأكاذيب ويلصقونها بأكابر العلماء زيفاً وبهتاناً؟ وماذا يقولون يوم الحساب حين ينتصف منهم مَن افتروا عليهم، وهم فقهاء يفترض فيهم أن يحملوا أمانة الخُلق قبل أن يحملوا رسالة العلم! ذلك جرم خطير!.

هذا، وللأستاذ ترجمة رائعة عن الليث بن سعد فقيه مصر وصاحب المذهب المستقل، وقد سعى سعياً حثيثاً لنشر كتاب (أدب الشافعي ومناقبه للإمام عبد الرحمن الرازي، وكتب مقدمة حافِلة لهذا الكتاب القيّم قال فيها[1]:

«إن أئمة الهدى المتبوعين رضي الله عنهم أجمعين، لهم منازل سامية في قلوب الأمّة حتى انحصر تمذهبهم في مذاهب هؤلاء السادة القادة علماً منهم بسعة علومهم، وعظم إخلاصهم في خدمة دين الله، فبارك الله في علومهم، وعلوم مَن انضووا تحت راياتهم».

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه، ص ٦، تصدير الكتاب للعلاّمة الكوثري.

ثم قال:

«وكان الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي أكثر تحرّياً فيما يسوق من الأنباء، ولذا كنت متشوّقاً إلى الظفر بنسخة من كتابه في سيرة الإمام الشافعي، فعلمت أن في المكتبة الأحمدية في حلب الشهباء نسخة منه، فرجوت صديقنا الأستاذ الألمعي الشيخ عبد الفتّاح أبو غدة ـ حفظه الله ورعاه ـ أن يبحث عن ناسخٍ هناك، ينقل الكتاب على حسابي، ففعل، وتفضّل بمقابلته بالأصل مقابلة دقيقة أوجبت مضاعفة شكري له، والله سبحانه يكافئه على هذا الجميل، وبقي الكتاب محفوظاً عندي إلى أن رغب الأستاذ الأديب السيد محمد عزّة العطّار في نشره، فنزلت على رغبته رجاء دعوة صالحة تلحقني من المطّلعين على الكتاب».

فالذي يبحث جاهداً عن كتاب في مناقب الشافعي، ثم يعجّل بنسخه على حسابه، ويدعو الناشر لطبعه لا يكون متعصّباً لمذهبه وحده ولا لرجال المذهب بأعيانهم، ولكنه محبٌّ للفقهاء الأئمة في كلّ زمن ومكان، وهذا ما سمعناه منه ووعيناه، فكيف يُرمَى بالتعصّب، وعلى مَن؟ وكلّ الأئمة الأربعة في الدرجة العليا من الفقه والإيمان.

وفيما قاله الكوثري إشارة إلى العالِم الفاضل الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، وهو من أكرم تلاميذ الكوثري، وقد بذل جهداً حميداً في نشر مؤلّفاته وذيوع آرائه، مع دقّة بحث وعمق تحقيق.

مقدّمات الكوثري:

عرفنا سِعة إحاطة الكوثري بالتراث الإسلامي، حتى صار أحد الأعلام المعاصرين في هذا المجال إن لم يكن أوحدهم، وقد كان إقبال القرّاء في النصف الأول من هذا القرن على اقتناء هذه الذخائر الثمينة دافعاً لأرباب المكاتب على

نشر هذه المؤلّفات، فتسابقت المطابع إلى نشر الموسوعات وما دونها من الكتب والمختصرات، وتطلّب هذا النشر المُلِحّ تعريفاً بالكتاب والمؤلّف، فمهر جماعة في التحقيق التراثي، كما مهر آخرون في التعريف بالكتاب مؤلّفاً وغرضاً وموضوعاً ونقداً.

وكان الكوثري متطلّع الأنظار في هذا المضمار، لأن تزكيته للكتاب، وتعريفه به، ومحاولة تحديد مكانته العلمية بين نظرائه، والإلمام بمؤلّفه واتجاهه المذهبي، وإخلاصه العلمي، مما لا يُتاح لغير بحّاثة كثير التنقيب.

ونحن نقرأ مقدّمات الكوثري فنجدها مضرب المثل في التقديم، ونقارنها بكثير مما يكتب في بعض المنشورات، فنعرف فضل الله على هذا البحّاثة الضليع، إذ إن لفيفاً من الهواة حَلاَ لهم أن تتصدّر أسماؤهم وجوه الكتب دون دراية، وظنّوا الإلمام بفهرس الكتاب وترجمة حياته من المصادر القريبة مما يشفع لهم في كتابة هذه المقدّمات، فهم يلوكون الذّائع المُشتَهِر عن الكاتب ومؤلَّفه، ويحسبون أنهم على شيء، أما الأستاذ الكوثري ومَن هم في طبقته من الراسخين الأثبات فيسلّطون الأضواء الكاشفة في بصر نافذ، وعمق بعيد، وقد لا يُطيلون فيما يكتبون ولكن لكل كلمة مكانها، ولكل حرف موضعه الصحيح.

ومن فضل الله على الكوثري أنه مُلِمٌّ بنواحي الثقافة الإسلامية إلمام الدّارس المتمكّن، فإذا تحدّث عن كتاب في الفقه أو علم الكلام أو التاريخ أو الحديث أو المنطق، خُيّل لقارئه أنه تخصّص في موضوعه وحده.

ولنضرب المثل بمقدّمته الرائعة لكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد الواقدي، إذ ألمّت إلماماً دقيقاً بالأهم المهمّ من حياة الواقدي واتجاهه الفكري، وقد أنصفه الكوثري حين حكم أنه جُوزِيَ جزاء سنمار على حُسْن ما صنع، فرماه أغلب الرّواة عن وترٍ واحدٍ حين كانوا يرون كثرة الغرائب في رواياته، كما نقل آراء الثقات عنه كإبراهيم الحربي، ويعقوب بن أبي شيبة، وأبي بكر بن العربي، وابن سيد الناس، ثم أصاب مقطع الحق حين قال:

«وليس كلّ ما فيه من الروايات قوياً متيناً، بل بين أسانيد رواياته ما هو مقطوع أو مرسل، وبمعرفة أحوال الرجال في تلك الأسانيد تعرف درجة الروايات، وأمرها سهل عند أهل العلم». وقد امتدّت المقدمة إلى تسع صفحات من القطع الكبير، وتلخيصها بل الإشارة إلى بعض نفائسها مما تضيق به هذه العجالة! وإني أقدّم هذه التحفة القيّمة مثلاً دقيقاً لمَن يتصدّرون لكتابة المقدّمات، إذ كانت مصدر توجيه أكيد.

وقد عقد الأستاذ أحمد خيري رحمه الله فصلاً خاصّاً بمؤلّفات الكوثري ما بين مخطوط ومطبوع وقد بلغت واحداً وخمسين مؤلّفاً، غير حواشيه التي كان يضعها على الكتب التي يقدّمها، وقد تتبّع الأستاذ أحمد خيري هذه التعليقات في مظانها، وأشار إليها مع مؤلّفاته في سجلٍّ حافلٍ ملأ ما بين ص ٣٦، وص ٥٠ بمعنى أن أسماء المؤلّفات ما بين مطبوعة ومخطوطة ومعلّق عليها قد استغرق أربع عشرة صفحة كاملة! هي الفصل الخامس من ترجمة الأستاذ الكبير.

ومن بين هذه الكتب مخطوط مفقود في مجلدين كبيرين تحت عنوان (المدخل العامّ لعلوم القرآن) وهو في رأي الباحث أهم مؤلّفات الكوثري لما فيه من الشمول والتّقصّي والمقارنة والاستنباط، يقول الأستاذ خيري[1]: «ولم يكن الشيخ الكوثري يأسف على شيء أسفه على ضياع هذا الكتاب». ولعلّ الله يسهّل العثور على مخطوطته الوحيدة بإحدى دُور الكتب بالآستانة، لأن هجرته المفاجئة إلى مصر قد أعجلته عن حمل مؤلّفاته وكان يأمل أن يجد من تلاميذه في تركيا مَن يسعفه بها، ولكن الاتصال به في مهجره قد كان مصدر خطر لمَن يجازفون به في مبتدأ الثورة الكمالية، فلم يتيسّر شيء من هذه المؤلّفات، ومَن يعرف أن مؤلَّف العالِم لديه كولده من صلبه يدرك كم عانى الكوثري من ألم مرير.

هذه أقباس من سيرة إمام كبير، نرجو أن تحفّز ذوي الفضل إلى جمع مؤلّفاته وإعادة نشرها الدقيق.

---

(١) الإمام الكوثري، للأستاذ أحمد خيري، ط ١٣٧٣ هـ، ص ٣٨.

محمد سعيد العامودي
مـــن روّاد الأدب السعودي

العامودي الإنسان:

قلّ أن تجد أديباً كبيراً خَلَت حياته من المنافسة والتّطاحن الفكري، والصيال الأدبي المحتد، كما خَلَت حياة العامودي من مجالات العِراك المشتدّ، والتصارع الممتد، لأن العامودي كان أستاذاً بسلوكه، قبل أن يكون أستاذاً بقلمه، فهو ذو سماحة نادرة، تنأى به عن الغرض والهوى، بل ترتفع به إلى النظر الشامل المغتفر لهنّاتٍ نراها من لوازم أكثر الناس، حين يخضغون لدوافع الدم المحتدم في دنيا تصطرع بالأنانية والأَثَرَة.

هكذا كان العامودي صديقاً لكل مَن عرفه، فهو صديق أساتذته، وصديق زملائه، وصديق تلاميذه، وما اجتمع هؤلاء جميعاً على حبّه إلّا لما يحمل من سِمات الخلق الرفيع، وقد عرفت الكثيرين من أدباء المملكة، فوجدت الإجماع على تقدير هذه المواهب الخلقية الرفيعة، كما قرأت ما قيل عنه خارج المملكة فعرفت التطابق الأمثل بين ما يقول به راصدو حركة الفكر السعودي عن الرجل، قريباً أو بعيداً، وذلك الثّناء لا يأتي من فراغ، بل تستند إلى أصول راسخة الدعائم، وقديماً قال القائل:

والنـاسُ أكيسُ من أن يمدحوا رجلاً　　　ما لم يروا عنده آثارَ إحسان

وقائل هذا البيت خبير بالنفس الإنسانية، التي تحبّ أن تستأثر وحدها بأنفس ما يقال، وإن تظاهرت بالتباعد والعُزوف، ولكنها تُجبر الثّناء، إذا نطقت الشواهد الدّالّة، فلا مَحيد.

كنت أقرأ ديوان (أفواف الزهر) للشاعرة العراقية القديرة الدكتورة (عاتكة الخزرجي) الأستاذة بجامعة بغداد، فوجدتها تحيّي الأستاذ محمد سعيد العامودي بقصيدة تقول فيها:

يا أبرَّ الناس كلّ الناسِ عطفاً ووِدادا
يا حميداً يا سعيداً يا عميداً يا عمادا!
يا أخي بل يا صديقي الندبَ، بُلّغتَ المرادا!
طِبت نفساً يا أعزَّ الناس مَنْمىً وبلادا
ببيانٍ كالصَّبا إن رَاوَح النفسَ وغادَى
ووفاءٍ كالنّدى رفّ على البُعد ومَادا!

لقد طَرِبْتُ لأبيات عاتكة، لأنها عبّرت عن الواقع الإنساني حين ذكرت أن العامودي من أبرّ الناس كلّ الناس عطفاً ووِدّاً، وأنه عميدٌ في بابه طاب نفساً وخلقاً في أعزّ البلاد مَنْمَىٰ، وأجمل الناس سيرةً، أما بيانه فكالنسيم الرّقراق، وأما وفاؤه فكالندى رفّ على الغصن الميّاد! لم تكن الشاعرة القديرة متزلّفة حين سجّلت عواطفها في هذا الشعر الأخوي الرائع، فهي أكبر من الزّلفى بمكانها الأدبي، وموضعها الجامعي، ولكنها أحسّت معاني المروءة والأريحية، وقرأت ذخائر الفن المبدع في آثار العامودي، فنطقت بما أحسّت دون افتعال، وقد أحسّ الأستاذ العامودي بهذا الملحظ الإنساني، فكافأها شعراً بشعر حين ردَّ عليها بقوله:

أيُّ شعر نابغيّ راوح النفس وغادى
إيه يا شاعرة العصر ومَن عزّت بلادا
أنت قد أوحيت لي بالشعر معنىً مستفادا
فإذا ما قلتُ شعراً قد أراهُ مُستجادا!

هـو من فَنِّكِ أستـوحيـه أُهْـديـه مُعـادا
فـاعْذُري الشـاعـر ينقـادُ إلى الشعـر انقيـادا

وأستعين بإحدى الذكريات لي معه، ففيها ما يدلّ على رزانته الهادئة، ووقاره المتّزن. لقد بعثت إليه بمقالٍ كتبه أحد المشهورين من رجال المحاماة عن الشريعة الإسلامية، ليتكرّم بنشره في مجلة الحج، وقرأ الرجل المقال فأُعجب به، وسارع بنشره، ولكنه اكتشف بعد شهور أن المقال مسروق بأكمله، فماذا كان يُنْتَظر منه إزائي؟ وأنا الذي زكّيت الكاتب وقدّمته إليه فوثق بي، كان المنتظر أن يكتب إليّ لائماً أو عاتباً، إن لم يكن مُحاسِباً بل غاضباً، ولكنه كتب يقول بعد الديباجة.

«لقد اتّضح لي أن مقال فلان مسروق بأكمله من مجلة كذا، وكان في مُكنة الآخذ أن يتعب بعض الشيء ليأتي بنتاج من قلمه! فما عُذره؟». هذا ما كتبه الرجل الذي أحرجتُه دون قصد، بصدد هذه الشّنيعة البلقاء، أرأيتم لو كان رئيس تحريرٍ غير العامودي فُوجىء منّي بما يُستَنكر، فماذا كان يقول لي؟ بل ماذا كان يقول عن السارق، وقد اكتفى بقوله: «إنه كان يستطيع أن يأتي بشيء من نتاج قلمه لو تعب»! أليست هذه مَلائكيّة؟!.

العامودي الناقد:

كان من قدر الأستاذ العامودي أن يرأس تحرير مجلتين شهريتين، وأن يعاون صديقه الأستاذ الأنصاري رحمه الله في تحرير باب الكتب بمجلة المنهل، لذلك كانت تتقاطر لديه أحدث المطبوعات من شتّى ربوع العالم العربي، ليدلي برأيه فيما يقرأ، والناقد من غير طراز العامودي الرّهيف الحسّ، الرقيق الشعور، لا يعنيه أن يجهر بنقده الصارخ مهما آلم وأزعج، ولكن العامودي شاعر نبيل المنحى، تجبره أريحيته أن يقول ما يراه في ثوب حريريّ لا يخدش، وقد يجد من الكُتّاب مَن يستحق أن يُرمى بالحجارة، وهو لا يستطيع أن يفعل، فماذا يصنع؟ إنه يدقّ الحجارة حتى تصير حصىً، ثم يدقّ الحصى حتى يصير تُراباً، ثم يحرق التّراب حتى يصير رماداً، فإذا تمّ ذلك نفخه في رفق، وقال أستغفر الله، ولكنه مع هذا التّرفّق الشديد يقول كلمة الحق ليبلغ بها ما يريد، ولنضرب المثل لذلك!.

تعرّض العامودي لنقد كتاب (العناصر النفسية في سياسة العرب) للكاتب السوري الكبير الأستاذ شفيق جبري فأثنى على الكتاب مطِيلاً، وقال إنه أول بحث من نوعه في الدراسات الحديثة، فلا أعلم باحثاً تاريخياً قبل الأستاذ جبري طرق مثل هذا البحث في اللغة العربية معتمداً على التحليل النفسي، والعوامل النفسيّة في الحكم على التاريخ، وبعد أن أفاض الناقد في تقدير هذا الاتجاه، ضارباً الأمثلة الدالّة على حُسْن التوجيه، ودقّة الملمح، وسلامة الاستشفاف مما كتبه المؤلّف، تطرّق إلى نقدٍ جادٍّ لرأيٍ مخطىءٍ وقع فيه الأستاذ جبري حين ذكر أن ترك عمر الفاروق أمر الخلافة شورى دون استخلاف رجل معين يُعدّ غلطة نفسيّة من الفاروق العظيم، ولكن معاوية تدارك هذه الغلطة حين اختار خليفةً، فنجا من غلطة الفاروق».

هذا الرأي الذي ساقه الأستاذ جبري خطيرٌ جِدُّ خطير، ولو لم يكن العامودي رحب الصدر، طويل الأناة لهاج هائجُه قاذفاً بأقسى العبارات، ولكنه تناول الأمر بموضوعية متّزنة فقال ببعض التصرّف: ونحن نرى أن مثل هذه المقارنة بين عمر ومعاوية، وجنوح الفاروق إلى عدم الاستخلاف، وتركه الأمر شورى بين المسلمين، وذهاب معاوية إلى عكس هذا التصرف! هذه المقارنة لا محلّ لها لأن وجه الشبه معدوم، إذ يوجد فرق كبير بين عهديّ عمر ومعاوية، والفارق هنا ليس اختلافَ سياسةٍ وسياسة، ولكنه اختلاف الاتجاه بين عهد الراشدين وعهد معاوية.

ثم ينقل الناقدُ مِن كلام المؤلّف نفسه في موضع آخر ما يدلّ على أنه يؤكّد اختلاف العصرين اختلافاً تامّاً يمنع المقارنة، حتى إذا أحكم الدليل قال في هدوء:

«لو كان هذا التصرّف من عمر غلطة نفسية لرأينا من نتائجها غير ما رأينا من اتّفاق كلمة المسلمين حين أعلن عبد الرحمن بن عوف في اليوم الثالث من هذه الأيام انتخاب عثمان من بين الأقطاب، فإذا تساءل متسائل عمّا حدث من الفتنة أيام عثمان، فلا يمكن أن نقول إن هذه الفتنة كانت من نتائج الشّورى التي رآها عمر، ولكنها كانت نتيجة عوامل أخرى لا علاقة لها بصنيع عمر، وإذن فالنتيجة

المتوخّاة من الشورى قد حصلت على أتمّها بمجرد أن اتّفق المسلمون على انتخاب الخليفة الجديد».

فأين الغلطة النفسية إذن؟ إن مجازفة الأستاذ جبري في الحكم على صنيع عمر بالغلطة النفسية، كانت تقتضي من النقد الصارخ جلبةً ودويّاً، ولا شك أن هذه الجلبة المدوّية قد عَلَت في صدر العامودي، ولكنه أخذ يهدّئها ويلاينها حتى خَفَت صداها، على أنه بهذا الخفوت الهادىء لم يترك لبَّ الحقيقة، ولكنه حوّل الحجارة إلى رماد، وبلغ بالقصد ما يريد.

ونقدّم مثالاً آخر لهذا النقد المطمئن، إذ تحدّث عن كتاب الأستاذ فيليب حتّي (العرب تاريخ موجز) فسرد له مزايا ثلاثاً هي: ١ ـ الشمول، ٢ ـ الجمع بين الأسلوبين الأدبي والعلمي، ٣ ـ الإنصاف، ثم جعل يشير من مضمون الكتاب إلى ما ينطق بهذه المزايا الرائعة، وهذا عمل صعب، لأن تحديد المزايا، وتشخيصها والاستدلال عليها في صفحاتٍ محدودة لا تتأتّى لغير ناقد مقتدر، طويل الصبر، كثير المعاودة في تؤدة وأناة، حتى إذا فرغ من ذلك اتّجه إلى مواضع الخلاف فوقف ـ مثلاً ـ عند رأي المؤرّخ الكبير، بصدد اعتزال الحسن رضي الله عنه طلب الخلافة والسماح بمبايعة معاوية؛ إذ صرّح بأن الحسن رضي الله عنه كان يميل إلى البذخ والتّرف لا إلى الحكم والإدارة، فهو إذن لم يكن رجل الموقف، فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبةٍ سنوية منحها معاوية إياه.

هذا التفسير المخطىء لم يسكت عنه الناقد المُنصِف، نذكر أن الحسن لم يُعهَد عنه البذخ والتّرف، ولكن موقفه كان موقف المُصلِح الحكيم، الذي خاف أن تُسفك الدماء فآثر حقنها في إشفاق، وقد بايعه أنصار أبيه بعد مصرعه، وعاهده أربعون ألفاً على أن يموتوا دونه، فأبى أن يقاتل، إذ رأى أن تفوّق إحدى الفئتين على الأخرى مما يتعذّر، فضنّ بدماء المسلمين أن تُسفَك، وقال لمَن لامَه: لقد كرهتُ أن أُقاتل الناس على الملك.

يقول العامودي: أفيصحّ بعد هذا أن يقول المؤلّف: إن موقف الحسن عليه السلام من قضية الخلافة كان باعثُه الميل إلى الترف والبذخ؟ وأنا أزيد على

العامودي فأقول: ومن أين هـذا الميل إلى التـرف والبذخ، وهـو في حياة أبيـه كان زاهداً مثله يحاسب نفسه على الشبع إذا جاع فردٌ من أبناء المسلمين، وهو القائل:

وحـسبــك عــاراً أن تـبيـت بِلَظَّة   وحـولـك أكبـاد تحنّ إلى القـدّ!

فهل سينقلب يوم مصرع والده مُحبّـاً للبذخ والإسـراف! فيتنازل عن الخـلافة لأجلهما فحسب!!.

إن إنسانية محمد سعيد العامودي النـاقد تتخلّل كـل سطر يخـطّه قلمه العفّ الـرصين، بل إن هـذه الإنسانيـة الكبيرة حتّمت عليـه أن يخوض في مـوضـوعـات مُقفِرةٍ، لا تسمح لصاحبها بالانطلاق، لأن ضيقها المادّي يعوق الناقـد فيظلّ يتـردّد في شبه دائرةٍ مقفلة.

وقد لمست ذلك حين طـالعت بحثه العـاطف المنصف عن شاعـر من شعراء القرن الثالث عشر، هو عبـد الواحـد الجوهـري الأشرم، فمـا عسى أن يكون هـذا الشاعر؟ إنه وليد زمانٍ ومكانٍ لا يسمحان بنبوغ شـاعر، فـالتعليم منحدر، والثقـافة وئيدة، والجهل ضـارب بجرانـه في كل وادٍ؛ ولكن هـذه النبتة الهشّـة الضعيفة قـد استطاعت أن تفلق الصخر لِتَظْهر ورقتها الخضراء على السطح فحسب، وبعد هـذا اللون الأخضر الضئيل لا نرى نموّاً مـطّرداً، فلا جـذع يشب، ولا غصن يورق، إن كلّ ما لدى الجوهري هو التمتّع بالسليقـة العربيـة التي تصحّح الـوزن فقط، وتقدر على مُحاكاة ما ذاع من النظم في عصور الانحطاط.

وقد استطاع أن يقول مقلّداً مُحاكياً، فحفظ له العامودي سبقـه المتقدّم، ولم يُجز لنفسه أن ينسى ومضة برق سطعت في ليلٍ حـالك ثم تـوارت سريعـاً فتحدّث عنها مؤرّخاً، واعتذر عن قُصورها رحيماً! وما أظن إلّا أنه بذل جهداً جهيداً في هذا الحديث، لأن الكلام عن شاعر كبير يفتح أبواباً كثيـرة أمام النـاقد، فهـو يعمل في أرض خصيبة ذات دوحٍ وثمار وأريج، أما الحديث عن شاعر مغمور يحبو، فيتطلب الجهد في التفسير، والاحتيـاط في التعليل، والعَنـاء في الفحص عن إبرة ضـاعت في كومة رمل! وهذا ما عاناه العامودي وقاساه.

وفي الناقدين مَن يُوازن بين المحاسن والمثالب في كل كتاب ينقده، وهذا ما فعله العامودي في كثيرٍ من مقالاته النقدية، ولكنه عدل عن هذا المنهج في تحليل كتب أخرى رأى فيها من النّفاسة الغالية، والفائدة الكبرى للقارىء ما جعله يقتصر على العرض الكاشف، ليجذب القارىء إلى ما أمامه من الثمار، غير عابىءٍ بشوكةٍ ما تعترض الطريق، فما أهونها جوارَ الزّهر الناضر والثمر المستطاب!. وهذا ما يلوح في مجموعته التحليلية التي ظهرت تحت عنوان (من حديث الكتب)، إذ شاء أن يستعرض صفوةً من الكتب المختارة ليكشف عن لُبابها الثمين متجاوزاً بعض الهنّات، كيلا يصرف القارىء ببعض الإيحاء الخفيّ عن الثقة في مضمونها الأصيل.

وأذكر أن الأستاذ عبد القدّوس الأنصاري رحمه الله عرض لكتاب (من حديث الكتب) فذكر أنه (ميكروفيلم) يُحصي دقائق الأسْفار التي عُنِيَ بها إحصاءً دقيقاً، وهو تشبيهٌ مُقرّب لا مُطابِق، لأن الميكروفيلم في جوهره صورة صمّاء لا تُفصِح عن اختيار، أما كتاب العامودي فعنصر الاختيار به واضح، لأنه يختار من النصوص أرفعها مستوىً، تاركاً ما دونها ليجذب القارىء إلى مائدة شهية يشهد بعض طعومها بين يديه، فيتشوق إلى ما بقي في تلهّف كبير.

لقد اختار العامودي من المؤلّفين مَن يحتلّون مكان الصدارة في عالم التأليف المعاصر، كما اختار من مؤلّفاتهم ما يسدُّ فراغاً في موضوعه، مثل كتاب بطل الأبطال لعبد الرحمن عزّام، والفاروق الخالد لمحمود شيث خطاب، وداعي السماء لعباس محمود العقّاد، وعبد الملك بن مروان لضياء الدين الريّس، والمنصور أبي جعفر لعبد الجبّار الجومَرد، ورجال من التاريخ لعلي الطنطاوي، ولا شيوعية ولا استعمار للعقّاد، والاستعمار لمحمد عوض محمد، والاستعمار أحقاد وأطماع لمحمد الغزالي، وأسطورة إسرائيل لفرانس جوزيف، ووعي المستقبل لفوزي طوقان، وشمس العرب تسطع على الغرب لزِيغْرِيدْ هُونكه، وفي مهبّ الريح لميخائيل نعيمة، والعرب وابن خلدون لأبي القاسم كرو، وغيرها من الكتب الدسمة فعلاً.

وبمراجعة مبدئية لهذه الكتب نجد الأستاذ العامودي تعمّد أن يؤرّخ للحياة العربية منذ ظهور الإسلام تاريخاً متتابعاً، إذ اختار ما يمثّل هذا التاريخ في خطواته المتتالية، فالحقبة الأولى من صدر الإسلام تتمثّل فيما كتبه عزّام والعقّاد وشيث خطاب، والعصر الأموي يتمثّل فيما كتبه ضياء الريّس وسيدة كاشف، والعصر العباسي يتمثّل فيما كتبه الجومَرد، والعصر الوسيط يتمثّل فيما كتبه علي الطنطاوي، أما العصر الحاضر فقد حفل بتياراته المتلاطمة، ومذاهبه المتصارعة، لذلك اختار له عدّة كتب رائعة ما بين مؤلَّفة ومترجَمة.

ويشطّ بنا السبيل لو وقفنا عند كل كتاب من هذه المجموعة، ولكنّا نشير إلى كتاب (في مهب الريح) كنموذج لسائر الكتب، حيث خصّه الناقد بثلاث عشرة صفحة من صفحات الكتاب، بلغت الغاية في التقديم والعرض والتعقيب، فبدأه بحديثٍ شافٍ عن المؤلّف بخاصّة، وأدب المهجر بعامّة، وذكر من صفات المؤلّف اعتماده على صدق الإحساس وعمق الفكرة واستقلال الشخصية وفنيّة التعبير، وهي سماتٌ تبرز كلّ البروز في كتاب (في مهبّ الريح) وكم كانت حصافة العامودي بارعة في اقتباساته، حيث اختار أجمل ما في الكتاب من فرائد كقول نعيمة:

«إن تكن العين سِراجَ الجسد، فسِراجُ النفس الضمير، بالعين يميّز الجسد الليل من النهار، والأشياء من حيث أشكالها وألوانها وأبعادها، ثم يميّز ذاته من سائر الذّوات، وبالعين يستفسر الإنسان ليسلك سبيله في الأرض، كذلك بالضمير تميّز النفس ما بين الحلال والحرام، والصلاح والطّلاح، والرذيلة والفضيلة، وبالضمير تستنير لتسلك سبيلها في دنيا الخير والشر، والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي خصّته الحياة بنور الضمير، علاوةً على نور العين، ومثلما يتفاوت الناس في صفاء البصر، كذلك يتفاوتون في صفاء البصيرة، فالفرق بين الزبّاء والأعشى من حيث نقاوة البصر كالفرق من حيث نقاوة البصيرة، بين مَن يحبّ غيره محبّته لنفسه، وبين مَن يقول أنا ومن بعدي الطوفان».

ولا أُطيل في مقتبساتٍ أخرى حَفِلَ بها الكتاب، ولكني أنصح قارىء كتاب (من حديث الكتب) ألّا يقرأه في ساعات متّصلة، إذ عليه أن يتمهّل بين القراءة والقراءة ليُعطي نفسه فرصة التّذوّق والتشبّع بهذه الأفكار الوضيئة، فتتحوّل جزءاً من كيانه الفكري، وأنا أُوقن أن العامودي قد بذل في الاختيار والتركيز والاستيعاب جهداً يساوي جهد المؤلّف في أحيانٍ كثيرة. وناقد الكتاب لا يكون ناقداً بارتفاع الصوت وصخب الضجيج، ولكنه يكسب قارئه بدَسَم ما يقدّم له من النافع المفيد.

العامودي الشاعر:

نشأ العامودي شاعراً، إذ كانت قيثارة الشعر تداعب يده في مطلع صِباه، وكانت بواكيره تُنبىء بأنه سيكون من شعراء العالم العربي ذوي الصيت المُرنّ، وأذكر أن مجلة الهلال أقامت مسابقة لترجمة بعض الأبيات الشعرية من الإنجليزية إلى العربية، ونشرت النصّ الإنجليزي بالنثر العربي، وتقدّم للمسابقة شعراء كثيرون من المشرق والمغرب، ففاز ثلاثة شعراء أحدهم: الأستاذ محمد سعيد العامودي، وظهرت مجلة الهلال الصادرة في المحرّم من سنة ١٣٥٢ هـ الموافق مايو سنة ١٩٣٣ م لنشر القصائد الثلاث المختارة مُطرِيةً مادِحَةً، أما قصيدة العامودي الفائزة فأنا أنقلها عن المجلة، إذ يقول فيها ناقلاً عن الشعر الإنجليزي:

أنا بالأمس حينما كنت طفلاً	ليس دَأْبي غير البُكا والسّهادْ
كان هذا الزمان ينسلّ في بُط	ءٍ أمامي ويختفي باتّئادْ
ثم لمّا تلك الطفولة ولّت	وتَلاها الشباب غضّ الإهاب
بانَ هذا الزمان يمشي حثيثاً	غير ما خائفٍ ولا هَيَّابْ
وتقضّىٰ عهدُ الشباب سريعاً	تاركاً خلفه الوجودَ وراء
غير أن الزمان أصبح يجْري	هكذا هكذا أراد وشاء
ثم لمّا أصبحتُ شيخاً كبيراً	فاهِماً للحياة فرّ الزمان
إنما فهمُنا الحياة كمالٌ	عيبُه أنّ داءه النقصانُ

ولـقــد خِلْتُ أنّـني ســوف ألْـقى　　منــه لي صــاحبــاً وفيّــاً وخِــلاّ
فــأردت السيــر الـحثيث إلـيــه　　غـيــر أن الــزمــان فــاتَ وولّـى

والقصيدة تصوّر محنة الحياة، حين تجري بالناس حيث لا يريدون، وعكس ما يبتغون، فالطفـولة تسيـر في بطء حين يودّ الـطفل أن يـطير، والشبـاب يطيـر في عجلةٍ حين يبغي الشبـاب أن يتّئد، والشيخـوخـة لا تَبْقى على الـزمـان فـلا بـدّ أن يَحصدها الموت، في كلّ مرحلةٍ ظمأ، وفي كل أمَدٍ عناء! حتى يبغتنا الحِمام.

وترجمة الشعر بهذه الدّقّة التي جعلت المحكمين يمنحون صاحبهـا الجائـزة الأدبية، تدلّ على اقتدارٍ كبير على خضوع المعاني وقيادة الأفكار، والشـاعر الـذي يرصد خواطره غير الشاعر الذي يلتزم بخواطر سواه، فإذا قدر الأخير على أن يدقّق في إحكام ما قال سواه، فـذلك لأن معـدنه الشعـريّ من النفاسـة بحيث لا يصعب عليه تسجيل خاطرٍ أو تصوير خلجة!.

وكان الظنّ بالعامودي وهو صـاحب البراعـة النادرة في الإحكـام الشعري أن يصاحب الشعر في مـراحل حيـاته السعيـدة، ولكنه هجـره ـ أو كاد ـ لسنـوات عدّة كانت مبعث التساؤل لدى النقّاد، وأذكـر أن الأستاذ إبـراهيم هاشم فـلالي صاحب المرصاد، وهو كتاب نقدي خاصّ بالشعر السعودي قد اختار نماذج ممتـازة بالجـزء الثاني من المرصاد للشاعر العامودي، ثم أتبع هذه النماذج القويـة بقوله[1]:

«هـذا نموذج من شعـر العامـودي الشاعـر، قالـه منذ أكثـر من عشرين عـاماً ـ وكتاب المرصـاد مطبـوع سنة ١٩٥٦ م ـ فـإن كان لنـا أن نأسف على شيء فـإننا نأسف على هذه الشّاعرية ذات الأحلام الـذهبية التي وأدهـا العامـودي ولم يتركهـا تسير مع زميلاتها في الطريق، وإن مثل هذا الشعر لا يمكن أن يُهـانَ أو يَحيا حيـاةً ذليلةً، يربأ العامودي بشعره أن يحياها» ثم يقول الأستاذ فلالي: «ولعلّنـا بهذا أثـرنا في نَفْسِ العامودي شاعريته الموؤودة، تنفض عنها الغبار، وتمزّق أكفان المـوت، وتلبس لِبسة الأحياء، وتسير مع الركب، فإنه ليعزّ علينـا أن يفتقد مـوكب الشعر في

(١) المرصاد، جـ ٢، ص ٣٤.

بلادنا مثل العامودي، ويؤلمنا ألّا ننعم بصوت شاعـر عَرَكَ الحيـات وعانى مـا عانى من تجاربها!».

فـإذا رجعنا إلى مـا نُشر من شعـر العامـودي من قبل، فـإننا نلمس فيـه جدّة الإحساس، وطرافة الانفعال فـالصدق المخلص هـو المُلهِمُ للشاعـر المُبدِع، وقـد كان الحبّ من دوافع الإلهـام الشعري لـديه، فعبّـر عنه صـادقاً في حـالتيه، حـالة الوصل والصفاء، وحالة الصّدود والحرمان، وإذا كان من أوضح مُعـاناة الحبّ بلبلة الخاطر وتألّق الآمال ثم انطفاؤها وزفراتُ الوجد ممزوجة بالدمع، فإن العامودي قد تحدّث عن ذلك في صِباه الغضّ فقال وكأنه يرتجل:

زفـرات مـا تـنقـضـي، وشـجـون تـتـوالـى، وأدمـع تـنـهـال
وجـيـوشٌ مـن الأمـانـي، ولـكـن كَـسـراب بـقـيـعـةٍ لا يُـنـال
ذاك حـال الشقـيّ بـالحبّ ظلمـاً حـين تُـحصَـى الـشـؤون والأحـوال
شـأنـه أن يـظلّ نِـضْـو غـرام تـنـتـحـيـه الـهـمـومُ والأوجـال

والعامودي في عزّته وكبريائه، وفي كظم مواجده، وترفّعه عن مـواقف الهوان أمام هذه العاصية المتأبّية يتحدّى قلبه فلا يستجيب إليه، ويثور ثورة الشاعر الفارس الـذي يـأبى أن يقف مـوقف الخضـوع، وهـو ذو قـدرةٍ على الاستعـلاء! فيصيـح بملهمته:

أكثري أكـثـري مـن الإعـراض واهـجـريـني فـإنني عنـك راض
أكـثـري مـن جَـفـاكِ إن جـفـاكِ العـذب أمسى من أقـدس الأغـراض
قـد قـضى الله بيـنـنـا بـافـتـراقٍ لـيسَ دفـعٌ لِمـا الـمهيمـنُ قـاض
فـسـلامٌ عـلى الـهـوى وعـليـنـا وسـلامٌ على العهـود المـواض..

وأنـا أعرف أن الشـاعر قـال هذه الأبيـات في ساعـة غضب، ولكن السـاعـة تمضي بغضبها ليعود العـامودي إلى قلبـه مستمعاً نجـواه، ومَن الذي لا يُصغي إلى نداء قلبه مهما قامت الحوائل، وتعاقبت الصّعاب!.

على أنّي مع ذلك أعترف بقدرة العامودي على نفسه إذا قِيسَ بغيره، فالرجل الكبير أراد أن يُفَلسف خواطره النفسية في رباعياتٍ مـوجزة هي حصيلة تجـاربه، أو

بعضٌ من حصيلة تجاربه، وقد جمعها في ديوان صغير الكمّ، كبير الكيف، وقد شاء فضله عليَّ أن يُشرّفني بكتابة مقدمةٍ نقديّةٍ له، فصادف هذا المطلب من نفسي اعتزازاً، وقلت ما أعتقد أنه الحق، وكان مما قلت:

«ليست الرباعيات الشعرية مجرد شطراتٍ تُنظم، كما يظن بعض الذين يتصدّون لنظمها دون اكتراث، ولكنها في حقيقتها الفنية خواطر موجزة مركّزة تُضغَط في أبيات مُوحية لتجلو عبرة مستترة أو تصوّر خلجة غامضة، لذلك تستقلّ الرباعية في كثيرٍ من الأحيان عن أخواتها السوابق واللواحق لأنها كائن حي له خصائصه الذاتية، وهي مما يجري مجرى المثل السائر، لدقّة تركيزه، وسطوع لمحه، وصدق تجربته.

وصاحب الرّباعيات يجب أن يكون شاعراً أصيلًا، تمرّس بنظم القصائد حقبة طويلة حتى اهتدى إلى خلاصات مبلورة كاشفة عن حصيلة تجارب زمنية، أنضجها السهر والألم وتغيّر الأحداث المتناقضة من مشهد إلى مشهد، وقد كان الشاعر العربي القديم في غنىً عن هذه الرباعيات لأنه في كثيرٍ من أحواله لم يكن يتقيّد بوحدة عضوية في النظم الفنّي، بل يرسل شوارده كيفما اتّفق.

وليس معنى ذلك أن الشعر جميعه لم يكن يخضع لهذا التنامي العضوي داخلياً، بل معناه أن كثيراً من قائليه كان يحتفل بالبيت والأبيات المتجاورة دون التفات إلى الربط المتماسك من المبدأ إلى المقطع، وفيهم مَن يقول الأبيات المتماسكة متجاورة بحيث لا تتجاوز بضعة أبيات، فلا تسمّى خماسية أو سداسية أو سباعية، بل تسمى مقطوعة، فلما جاء العصر الحاضر استقلّت الرباعيات بطابع جديد في التحديد المركّز، واللمح الدقيق.

والشاعر الكبير الأستاذ محمد سعيد العامودي أديب موهوب زاول القصائد الطّوال فكشف عن قوة قادرة، وشاعرية مطبوعة، ثم عنّ له أن ينظم بعض الرّباعيات استجابة لإيحاءٍ قويٍّ يُركّز الخواطر، ويبلور الانفعالات. وأصحاب الرباعيات لا يشغلون بالهم ببريق اللفظ وحلاوة النغم وحدهما، ولكنهم أصحاب

أفكار يوجّهون الناس لها في خفّة روح وسرعة إيحاء، وقد كشف العامودي عن رأيه في الشعر الصادق فقال:

أهــو قــول منضّــد اللفظ فضفــا ... ض المعــانــي يتيــه في أوزانِــهْ
ثــم لا شيء مــن سـمــوٍّ وإيحــا ... ءٍ يهــزّ النفــوس سحــر بيــانــه
إنــه الــوهــم مــا أضــلّ ســرا ... بَ الـوهم للمرتمين في أحضـانـه
لـيس شعــراً إلاّ الـشعــور ومــا الـشــاعــر إلاّ المـبيـن عن وِجــدانــه

وكأنه بذلك يرسم منحاه الفنّي في الـرباعيـات، فهي ليست كلمات منضّـدة الألفاظ، حائرة المعاني دون تحديد، ثم لا شيء من سموّ الفكرة وإيحـاء السياق، إنها لو كـانت كذلـك ـ وهي كذلـك فعلاً عنـد كثيرٍ من المتسـرّعين ـ لكانت وهمـاً يـأتلق كالسـراب اللاّمـع دون ريّ، فالشعـر شعور جيـد، ومن وراء الشعـور عقـل يحلّل، وفكر يتأمّل، وبيان يفصـح، وإذن فالـرباعيـات لمحٌ ذكيٌّ يهتـدي للأسـرار الدفينة، فينقلها من منطقة الظل إلى منـطقة الضـوء في براعـة تُظهِـرها وكـأنها أمـرٌ بدهي لا مجال لنقاشه، فاستمع مثلاً إلى قول الأستاذ العامودي:

قلتُ للنفس مــا الــذي يحفــزُ الْغــرّ ... إلــى الاعـتــســافِ فــي كــلّ أمــرِ
أهـــو ومضُ الـذكــاء أم هــو إحســا ... سُ يُــريــه أن الـنّـهـى فــي الـشّــرِ
قــالت النفس في سـؤالــك مــا يُــو ... مــي إلــى مــا تَــرومــه مــن ســرّ
إنــهــا يــا أخي الـغــرارة فلتُـشْـفِـق ... ولا تــعــجــبــنَّ مــن أيّ غــرّ!

فاللمحة الذكية في هذه الرباعية رائعة لأن الشاعر يجد الغرَّ يعتسف في كلّ أمـر، ظانّـاً في نفسه مـا يتخيّله لها من الـذكاء والعبقـريـة، حتى ليُضـلّ أصحـابـه فيتساءلون عن حقيقة سرّه حائرين، والشـاعر يعجب من حيـرتهم في اكتشاف هـذا السرّ، لأن الغرارة وحدها مدعاة هذا النزق المتعسّف، فـالسؤال عن سرّ الغـرّ يجد إجـابته في الـوصف ذاته، فـالجواب على ضـربة مِعـوَلٍ من السّائـل، ولـو فحص الأرض بقدمه فقط لتدفّق الماء.

ولصاحب الربـاعيات تهكّم مـرير تلمسـه هادئـاً يسيراً حين ينقـل لك صـورة صادقة عن خيـرٍ ينقلب إلى شرّ، حيث لا يتـوقع منـطق عاقـل، فقد تـزرع الجميل

الطيّب في نفس إنسان، فيُثمر في أرضه السّبخة حنظلاً وصاباً، فتتحيّر أكبر حيرة في هذا الشذوذ، والشاعر يبتسم لك قائلاً: رَوِّحْ عن نفسك ولا تسأل عن السبب، لأن معرفته لا تحدث منعه، وكم من باحث اهتدى إلى الصواب وما انتفع باهتدائه! يقول الشاعر:

قال لي صاحبي وما الرأي في هذا — الذي جرّه عليك الوفاء
ما الذي قد صنعته من شرور — حتّمت أن ينالك الإيذاء
ما الذي يبتغي وقد كان منك الو — د صفواً، وكان منه البلاء
قلت لا رأي يا صديقي وهل أنت — ترى أن تفيدنا الآراء

فالتجربة الأليمة هنا ذات طعم مرير، إذ تصوّر مأساة المفكّر حين يُتعبه تحديد الرأي في غياهب الشكوك، حتى إذا انتهى إليه لا ينتفع بجدواه، لأن العقل وحده ليس القائد في معركة الحياة، فهناك الغرائز والانفعالات وما يسيطر عليها إلاّ ذو حظٍّ عظيم؛ ويا للمعاناة الحائرة في صدر إنسان يهوي إلى الخطأ وهو يعتقد أنه مخطىء دون أن يتراجع، وهي معاناةٌ عبّر عنها الشاعر القديم حين قال:

عشية أبغي القصد ثم تصدّني — عن القصد نزغات الهوى فأميل

كما عبر عنها الشاعر الحديث في قوله المؤسي:

من سوء حظّي أني — أسلمت للحمق أمري
أسيرُ نحو شقائي — ولا أُعرقل سيري
وقد تأكدت أني — غداً سأمنى بشرّ
دريت هذا ولكن — كأنني لست أدري

وصاحب الرباعيات واعٍ يَقِظ لا تخدعه الظواهر أو تغرّه الابتسامات، فهو يلمح الظاهرة ليتبطّنها، ويتغلغل في أعماقها تغلغلاً يُريه المتناقضات؛ فقد يمرّ به الغني في موكبه المُترف، فيسبر أغواره بحدسه الملهم، فيراه على مظهره الخادع أفقر الفقراء، وقد يسمع الأمداح تُكالُ كيلاً فتخدع السّوقة، ولكنها في لُبابها سردٌ برّاقٌ لا ينطوي على إقناع، وقد تلوح ومضات خادعة من متحدّثٍ فيظنّها المتسرّعُ

ذكاءً يضيء، وهي فَراشٌ يتوهّج في النور فحسب. أما الباطن فغباءٌ يستتر تحت زبد الخداع، هذا السّبرُ العويص لبواطن الأشياء تجلّى في قول صاحب الرباعيات:

مـا أكثـر الأضـداد تبـدو لنـا	في صُـوَرٍ تـدعـو إلى الابتسـام
فمن غِنىً صـاحِبُـه أفقـر النـا	س إذا مـا عُـدّ بيـن الأنـام
ومـن ثـنـاءٍ بـاطـلٍ كـلّه	لا خيـر فيـه غيـر حلوِ الكـلام
ومـن ذكـاءٍ ليس فيـه حجـى	ومن ضِيـاءٍ يـرتـديـه الظلام

هذه هي البصيرة النافذة التي يجب أن يتسلّح بها كل أديب، فليس كلُّ ذي قلم مكتفياً بتسجيل الظواهر وحدها، وإلّا كان مجرّد إنسان يأكل ويشرب وينام، ولكن صاحب البصيرة الهادية يُزيح ركاماً ثقيلاً عن الظواهر الخادعة حتى يصل إلى الأعماق ليدرك حقائقها الطبيعية دون زيفٍ أو خداع، وهي دائماً مغلّفةٌ بما يسترها عن السّطْحي العجول؛ أما المتفرّسُ المتمرّسُ فيصلُ إلى اللّباب الدّفين مهتدياً إلى مثل ما اهتدى إليه أبو الطيب في قوله:

ومن خبـر الغـواني فـالغـواني	ضـيـاء فـي بـواطـنـه ظـلام

وهو قول نراه فنعجب، ولكنّ قائله يُسقطه عبرةً عبرةً من جفنٍ دامعٍ، إذ لمس من أهواله ما أقضّ المضجع؛ وقد كابَد العامودي هذه الأهوال النفسية حين سبر شتّى المتناقضات المتضاربة في الحياة فلمح مظاهر الفقر مستترة في وشْي الغِنى، وغياهب الظلام كافّةً خلف بوارق الضياء، ويا لها من مفاجآت!.

والأستاذ العامودي ينشد الكمال تامّاً دون نقص، فإذا وجد بعض مظاهره دون بعضٍ آخر، عزّ عليه أن يحدث هذا النقص، وتمنّى أن يكون الكلام كُلًّا لا يتجزّأ، فالحِلْمُ مثلاً خُلُقٌ نبيل إذا اكتملت أُصوله النفسية في ذات الحليم، لا سيما أن الحلم جماع الفضائل وملتقى المكرمات، لأن صاحبه يكظم من أمواج الغضب والنّقمة والتحفّز ما ينوء به كلُّ طودٍ منيعٍ، فكان المنتظر منه بعد ذلك أن تتمّ صفاته الخلقيّة فلا يشين الحلم بكبرياء أو تغطرس، كان المنتظر منه ذلك في رأي الأستاذ العامودي حين يصيح به هاتفاً:

يـا صـديقي ومـا انتفـاع أخي الـدّ نيـا بحِـلْمٍ يـشـوبـه اسـتـعــلاءُ
أو لـيس الـخـلـيـقُ بـالـسّـامـق الأ خْــلاق ألّا يــغــرّه إغــراءُ
مـا التعالي مـا الاستطالـة مـا الإعجـا ب بـالــنـفس؟ كـلّهـا إغــواء
إنـمـا تـرفـعُ الـعـظيـم إذا كـا نَ عــظيـمـاً سَـجـاحَـةٌ وصَـفـاءُ

وقد أتجرّأ فأقول: إن هذا المُستعلي المتكبّر ليس حليماً في واقع أمره، بل هو متحلّم، ويتكلّف الحلم دون أصالة نفسية يجد ينابيعها تتدفّق في أعماقه، وإلّا فكيف يكون حليماً وهو مستطيل يَتَتَايَهُ ويتعاظم؟.

لعلّ أخي الأستاذ العامودي يراه متحلِّماً كما أرى، ولكنْ وَصَفَهُ بما يشيع عنه لدى الناس، أو بما يعتقد المستعلي في نفسه دون أن يشاركه الحصفاء.

لقد أسهبت بعض الشيء في تحليل قطوفٍ من هذه الرباعيات، ولو كان الشاعر الكبير جمع ديوانه في جزءٍ مستقلٍ كما جمع الرباعيات، لأتاح لنا أن نُسهِبَ في غير الرّباعيات، ولكني اكتفيت بالمرور السريع مجتزئاً بما لديّ، أفيصلح أن يكون هذا عذراً لمثلي؟

العامودي الكاتب:

كان المنتظر أن يكون عنصر العامودي الكاتب أبرز عنصر في هذه المقالة، لأن الرجل قد امتشق القلم قرابة ستّين عاماً، لا يمرّ عليه أسبوع دون أن يسطّر مقالاً في جريدةٍ أو في مجلّةٍ، ولم يشأْ أن يختار من هذا الحشد الهائل مجموعات يرجع إليها الدّارس، ولا أنكر أنَّ في بعض هذه المقالات ما يعتبر تعليقاً على مشكلة طارئة ينتهي الحديث عنها بانتهاء زمنها، فهي لا تضرب في صميم الأدب الذاتي المطبوع، ومَثَلُها مثل ما عُرِفَ في الأدب القديم بالرسائل الديوانية التي يكتبها الأدباء في مسائل الخراج والجند والإدارة والحِسبة، فإنها على قيمتها الأدبية، ومكانة كُتّابها من أمثال أبي إسحق الصابي وابن مكيال وابن عبّاد والببّغاء وابن العميد، لا تجد لها قارئاً يتذوّق، على عكس ما كتبه هؤلاء في الرسائل الإخوانية والإبداعات الوصفية، فإنها هي التي خلّدت ذكراهم وأبقت مجدهم.

هذه المقالات ذات المناسبة الطائرة قد يوجد للعامودي عذر في تـركها، أمـا المقالات الأدبية ذات المنهج العلمي، وما أكثـرها فيمـا كتب العامـودي، فأين لـه العذر في إهمالها، وقد طالبته دُورُ النشر بجمعها، فتلكّأ.

أذكر أنه جاء في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب (من تاريخنا) ما أعلنه النـاشر من أن الأستـاذ العامـودي سيخصّ الدار السعـودية بكتـاب جـديـد يحمـل عنـوان (رؤوس وأقلام) إذ يضمّ آراءً عديدةً للأستـاذ في الأدب والفكر! هكـذا قال النـاشر في مقدّمته آملاً أن يستجيب العامودي لندائـه، ولكن الأستاذ لم يسـارع في تحقيق رغبة الناشر! فما سرُّ هذا العُزوف! وماذا يصنع العامودي إذا نهضت مقالاتـه الأدبية تسأله يوم القيامة سؤال الموؤودة بأيّ ذنْبٍ قُتِلَت؟.

يخيّـل إليّ أن العامـودي ـ كما أعلم طبيعتـه ـ لم يكن ممّن يُقدّرون نتـاجهم الأدبي حقّه، فهو يراه خطرات سريعة تذهب بذهاب نشرها الصّحفي! مع أن جميع ناقديه يحفظون له مكان الصدارة في دنيا القلم بالسعوديـة! وهو ضـربٌ من الزهـد أعرفه عنه، ذاكراً أنه أرسل لي ذات يـوم قصيدة لتنشـر في مجلة الثقافـة المصريـة بتوقيع (أبو عمر) وقد راجعته مقترحاً أن توقّع بالاسم الحقيقي، فأصرّ على التنكّر، والذي يفعل ذلك من السّهل عليه أن يتنكّر لما كتب!.

ومن حُسْن الحظ أن مجموعات مجلة المنهل محفوظة، وفيها الكثرة الكاثـرة من آثار العامودي الأدبية، ولعلّ أحد طـلاّب الدراسـات العليا بجـامعات المملكـة العربية السعودية، يتقدّم برسالة عن (أدب العامودي) فيخصّ هذه المقالات بتحليل كاشـف، بل لعلّ أحد النـاشرين يقـوم بجمع هـذه المقالات ليكـون الوصـول إليها يسيراً غير عسير!.

وقد ذكر الأستاذ الكبير عبد القدّوس الأنصـاري في مقدمـة (من تاريخنـا) أنّ العامودي من الأدباء القلّة الذين لا يتركون مناسبة عالمية تمرّ، أو أيّ عاصفـة تهبّ في أرجاء الدنيا، أو أيّ حَدَثٍ كبير يقع إلاّ ويُجيل فيه فكره، ثم يشرع قلمـه، فإذا به يُحَبّر المقالات الأدبية والتاريخية، وإذ به يدمج التوجيه لمواطنيه في طيّات قلمـه إدماجاً سُداه ولحمته اللياقة في العرض، وكلّ قارىء لما كتب يفـطن بطبيعتـه لهذا

السرّ، وهو يصل بذلك إلى مبتغاه بأسلوب ليس رمزياً وليس صريحاً، إنه أسلوب الكاتب القدير في فنّه الذي يُراعي الأجواء، ويفهم اتجاهات الرياح، ويعرف كيف يسير سفينته بخفّة بين التيارات المتضاربة والجوّ المغبرّ المكفهرّ، حتى يصل بها آخر الأمر إلى ساحل السلامة والنجاح.

وقد عكفتُ على ما لديَّ من مجلات المنهل الأغرّ ـ وما أقلّ ما لديّ ـ لأقرأ شذوراً من مقالات العامودي، فوجدت من الظّلم البيّن أن أُشير إلى ذلك في مثل هذه العجالة، فما أكثر القضايا الاجتماعية والأدبية والتاريخية التي خاض الرجل غمارها، وقد تملّكني هدوء أعصابه وهو يعالج أقسى مشكلات الفكر، وأصعب مسائل الاجتماع، إذ ترى هدوء الكاتب رزيناً وقوراً يمتع وجدان قارئه، وقد تدور معركة أدبية بين عدّة فضلاء أحدهما الأستاذ العامودي، فتجد الاحتدام المتأزّم لدى سواه، وتسمع الصَّوت المزمجر فيه يصخب عالياً، حتى إذا جاء دور العامودي والموضوع هو الموضوع، رأيت النسيم يهبّ فجأة مكان الإعصار المدمدم، وخيّل إليك أنك انتقلت من ساحة هيجاء إلى روضة غنّاء!.

تحدّث العامودي عن الحضارة تحت عنوان (حضارة بلا أخلاق) فبدأ هادئاً بتعريفٍ يحدّد معنى الحضارة لدى الكثرة الغالبة من الكُتّاب، ثم عقّب عليه بما يدلّ على أن التعريف غير جامع، لأن الارتقاء الاقتصادي والصناعي والثقافي والعمراني ليس وحده دليل الحضارة، أو الأصول الأولى لكل حضارة، لأن المظهر المادّي مهما ساعد على رفاهية الحياة وعمل على إشباع الغرائز لدى مَن ينعمون بهذا المظهر، لا يمكن أن يكون السِّمَة الدّالّة على الارتقاء الحضاري، إذ لا بدّ للحضارة من معنىً قويّ هو منها بمثابة الروح من الجسد، هذا المعنى هو الالتزام الخلقي لأنه يحمي الحضارة من الانهيار.

وقد أشبع الكاتب هذا المعنى، ثم لجأ إلى الاستقراء التاريخي، فتحدّث عن حضارة المسلمين في صدر الإسلام حين سيطر الخلق على تلاميذ محمد ﷺ من كبار الصحابة، ثم عن هذه الحضارة فيما تلا العصر الذهبي حين ضَعُف الروح الإنساني، وسيطر التّرف المادّي على الخاصّة ومَن جاراهم ممّن يملكون وسائل التنعيم دون نظر إلى ما يحيط بهم من مشاهِد العَوَز والحرمان.

كما انتقل إلى الحديث عن الحضارتين اليونانية والرومانية مبيّناً جراثيم الدمار التي أخذت تستأصلهما، وكان ذلك تمهيداً قوياً للحديث عن الحضارة الغربية المعاصرة، ذات التّرف المادّي، والفقر الخلقي، منتهياً إلى هذا التساؤل المُفحِم في قوله: «أين العنصر الأخلاقي في حضارة اليوم؟ وهي لا تزال تئنّ في نفوس مواطنيها من جَوْر يحكم الطبقات، وطغيان الرأسمالية، ودسائس رجال الأحزاب، وألاعيب السّاسة المحترفين، ثم تلك الإباحية المستهترة، إلى آخر ما يجوز ذكره وما لا يجوز».

ونخرج عن نطاق الزمن المرسوم لهذه المحاضرة إذا تتبّعنا أمثال هذا البحث في مجلّة المنهل، ولكننا نشير إلى مقالات متشعّبة الاتجاه كتبها العامودي عن التجارة والاستيراد، مما يُظَنّ أنه بعيد عن مجاله، وعن الوعي القومي محدّداً مفهومه الذي صَعُب تحديده على بعض الكاتبين، فوجّههم إلى الصواب في تؤدةٍ ويقين، وعن التعليم والتربية وكيف نرتقي بهما، وعن الحروب وآثارها الهدّامة في الكون أجمعه.

ومهما جاز لنا أن نَخْتَصِر الحديث بالإلمام برؤوس الموضوعات فحسب، فلن يجوز لنا أن نُغفِل معركة أدبية رائعة خاض الأستاذ العامودي غمارها مع زميله الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسين زيدان، وهو في طليعة أدباء السعودية أصالةً ونضجاً، وثقافةً واتّزاناً، ولن تنقص قيمته مثقال ذرّة أن نخالفه فيما اتّجه إليه، فحسبه أن صدر عن عمق وأناة وحذر.

فقد كتب الأستاذ محمد حسين زيدان مقالاً حسّاساً تحت عنوان (اتجاه الوعي القومي) تحدّث فيه عن أربعة روّاد عظماء من كبار قادة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي، وهم: الإمام محمد بن عبد الوهاب، والسيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والسيد عبد الرحمن الكواكبي، قائلاً عنهم: «إن هؤلاء العظماء الأربعة مختلفون، ولو اجتمعوا في مكان واحد وأدلى كلٌّ منهم بمبدئه لتناكروا، ونشب بينهم خلاف لا يُبقي ولا يذر، وكلٌّ منهم أشبّ نار اليقظة في بيئته، وتحمّل في ذلك صنوفاً من البلاء، حتى جاء اليوم الذي توحّد فيه أتباعهم».

هذا الحكم الخطير الذي سجّله الأستاذ زيدان، وجد من الأستاذ العامودي مُناقشاً جادّاً، إذ بدأ فذكر أنه يوافق الكاتب الكبير على جزءٍ من حديثه، وهو أن كلًّا من هؤلاء الزعماء قد أشبّ نار اليقظة في بيئته، فوحّد أتباعه على هدفٍ واحد، وما أظنّ أحداً يختلف في هذا الشقّ.

أما مجال الاختلاف ففي قول الأستاذ زيدان: «إن هؤلاء الأربعة لو اجتمعوا في مكانٍ واحدٍ لتناكروا»، وللأستاذ زيدان آراؤه التي وافق عليها العامودي بشأن محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين، أما موضع الخلاف فخاصٌّ بمحمد عبده والسيد الكواكبي، وكان العامودي لَبِقاً حين حدّد نقطة الخلاف مع زيدان بشأن محمد عبده في مسألتي الخلافة والنزعة القومية، وفي شأن الكواكبي بحديثه عن الأمة العربية بعيداً عن الدين ومُثُله.

ولا أدري كيف أُلخّص هنا حجج العامودي وقد بسطها في صفحات متعدّدة؟ ولكني أقول: إنه استند إلى آراء محمد عبده وآراء الكواكبي في نقض اتجاه الأستاذ زيدان، فقدّم له الدليل الذي لا يقبل النقض، كما شرح الظروف المحيطة التي ساعدت على الالتباس بشأنهما، شرحاً رجع فيه إلى مصادر جامعية معاصرة، تعدّد مؤلّفوها واتّفق مضمونها، ثم ختم العامودي حديثه بقوله:

«كيف لا يتفق هؤلاء الثلاثة مع المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو الذي سبق إلى هذه الدعوة الإصلاحية الكبرى، ألا ترى أن دعوتهم جميعاً واحدة، شِعارها التوحيد وألَّا يصلح آخر هذه الأمة إلّا بما صَلُح أوّلها، وغايتها تحرير الدين من أوضار الخرافات، والعمل على جمع كلمة المسلمين».

هذا، ولي تعليق أسوقه خاصّاً بجوهر الخلاف، فأسأل الأستاذ الكبير محمد حسين زيدان قائلاً: لنفرض من أن هؤلاء الأربعة لو اجتمعوا في مكان واحد لاختلفوا، فهل ينقص هذا الخلاف شيئاً من رسالتهم الإصلاحية؟! إننا نرى في الواقع المشاهد زعيمين متنافسين على وجهٍ لا يقبل الوفاق، وكلاهما مخلص

لأمته، كان محمد عبده يختلف كلّ الاختلاف مع مصطفى كامل، ولا سبيل إلى لقائهما الفكري، فهل نقص هذا الشقاق من رسالتَيْهما؟.

إن أحزاب أوروبا تختلف كلّ الاختلاف في البلد الواحد، حتى ليقف زعيم العمّال في إنجلترا مُخالِفاً رئيسة المحافظين على وجهٍ شاسع المسافة! فهل دلّ هذا الاختلاف على غير الغيرة والإخلاص لدولتهما؟ إن الفكرة التي جاء بها الأستاذ محمد حسين زيدان فكرة شاعر يستطرف، ولها وجهتها الملحوظة، ولكنها لا تهوي بإنسان عن مكانه، وحسبهما أن تضيء بعض المنعرجات في حوالك الشِّعاب.

ثم ماذا؟ أفيجب أن نُشير إلى السِّمة الغالبة على الأديب العامودي كاتب المقال، بكافّة أنواعه: اجتماعياً وسياسياً ونقدياً وتاريخياً؟ إن السّمة الغالبة هي السهولة اليسيرة، فأنت تحسّ حين تقرأ العامودي أنه ينقل عن خاطره دون تكلّف، وقد تخدع الأغرار هذه السهولة فيظنون أنها سهلة الإيجاد مع أنها من السهل الممتنع، ونحن نعلم أن التفكير الواضح يجعل التعبير واضحاً، وما غمض التركيب في أكثر مناحيه إلّا لغموض الفكرة في عقل الكاتب، أما إذا اتّضحت وائتلقت دون حجاب فالقلم لا يزيد عن النقل المجرّد، ولكن أيّ نقل؟ إنه نقل من ذِهنٍ حيٍّ متيقّظ تتسلسل أفكاره تسلسل الماء الدّافق الذي يبدأ جيّاشاً ثم يسيل مترقرقاً، فعلى الذين يتكلّفون الغموض أن يُعالجوا أفكارهم قبل أن يحاولوا نقلها على القرطاس، لتُشرِق على القارىء في وضوحها المُبين!.

العامودي القاصّ:

شارك العامودي في بناء القصة السعودية، إذ أظهر عدة قصص في شبابه جُمِع بعضُها أخيراً في كُتَيِّب لطيف الحجم صدر فاتحةً لسلسلة (دنيا القصص) التي يُصدرها صديقنا الأستاذ الكبير عبد العزيز الرفاعي فيما يدأب على إصداره مشكوراً من أدبٍ حيٍّ متوثّب، والقصص الرائدة يجب أن يضعها الناقد في حدود زمانها وإطار مكانها، فلا يجوز له أن يؤاخذ البواكير الأولى كما ينقد الثمار التي

نضجت بعد جهد، ساعد عليه وجود البذور الأولى، إذ كانت الدعامة الأصلية في أساس البناء، ولولا تقدّم الروّاد بهذه البواكير ما نَمَا الغرس، وينع الثمر.

وقد شملت مجموعة رامز سبع أقاصيص هي: (رامز، والميراث، وذكرى، ومأساة، وجزاء، وأصدقاء الظروف، وشيلوك الأخير)، والأخيرتان مسرحيتان يتناقل فيهما الحوار الهادىء على نحوٍ لا يبعث الضجيج، ولكنه يُظهِر كوامن النفوس في شبه ابتسام!.

وإذا كان الإلتزام الخلقيّ يتعارض مع نظرية الفنّ للفن عند قوم، فإنه لدى الأستاذ العامودي يجد الوفاق التامّ، لأن سجايا الرجل تقيّده دائماً بحوافظ الخلق الأمثل، وقد تغلّبت هذه السجايا عليه في اختيار شخصياته، فأبطاله في أكثرهم ذوو نوازع حميدة.

وإذا كان لا بدّ له كقاصٍّ يكشف خبايا المجتمع من الحديث عن ذوي الشرّ الذين يمثّلون الجانب المتّسع في محيط المجتمع، فإن الكاتب كثيراً ما يرفق بهم، ولعلّه يرحمهم رحمةً وَسِعَت اللصَّ والسّفاك والدّسّاس، لأن علمه بالطبائع الإنسانية التي لا تكاد تخلو من عُفُونة الحمأ المسنون يدفعه إلى أن يسدل ثوب المغفرة على الجاني، وإذا أجبره الفنّ على أن يُصوّر دواهيَه، فهو تصوير مَن يقول له: إن أمامك فرصةً فسيحةً تستطيع أن تتخلّص فيها من وضرك الآسن، فتغتسل اغتسال التائب الذي لا يقنط من رحمة مولاه.

فنحن في القصة الأولى نرى إنساناً نبيلاً ينسى السيئة ويقابلها بالحسنة، فقد نشأ رامز يتيماً في كنف خاله، ثم تعرّض إلى لواذع زوجته الماكرة، إذ حرّضت على طرده من المنزل، وحرمته بهجة الحياة في قسوة بغيضة، ثم تشاء الظروف أن ينجح رامز في دراسته ويصير طبيباً نابهاً، فتأتيه الزوجة السّالفة مريضةً تُعاني ما لا قبل لها باحتماله، فيغفر لها ما كان من جُرمها السابق، ويُقبِل على علاجها بإخلاصٍ لا حدّ له.

وقد أراد العامودي أن تكون الإساءة دافعاً للإحسان، لأن القاصّ يعرف أن الشرّ ذو دوافع أصيلة، وأن الصّفح عنه هدف لمَن يتّسع بأُفقه فوق الحزازات

الناقمة! وقد يعترض مُعتَرِض فيقول: إن الحياة لا تسمح بمثل هذه النماذج الرفيعة، ونحن نقول له: إن الحياة لا تسمح كثيراً بمثل هذه النماذج الرفيعة، ولكنها تسمح قليلاً، وقد صوّر العامودي هذا النادر القليل لانسجامه مع أشواقه النبيلة للخير والحبّ والجمال.

ولم يكن رامز في الأُقصوصة رجل الخير وحده، ولكنه كان يحذو حذو خاله النبيل (أمين بك) إذ كان كما صوّره العاموديّ طيّب الخلُق، سَمح الكفّ، دافق الحنان، وتلك صِفاتٌ بلغت مبلغها العميق من قلب الناشىء (رامز) فشبّ مفطوراً على شمائل خاله، وقد تغلغل العامودي في أعماق هذا الخال النبيل حيث كشف تيّار الدّم الطاهر في شرايينه، حين صوّر وفاءه واهتمامه بواجب المروءة في مثل هذه الكلمات التي ننقلها عن الأقصوصة ببعض التصرّف:

«ويشاء الله أن يتزوّج أمين بك للمرة الثانية، بعد أن قضى عهداً طويلاً من العزوبة غبّ وفاة زوجته الأولى، إذ كان لوفاتها في الآلام الطاعنة في سُوَيداء قلبه ما أخذ يتجدّد ويتجدّد بتجدّد الأيام والشهور، وما ظلّ يحول بينه وبين إعادة التجربة كلّما ذكر له أصدقاؤه في مُعاودة الزواج من جديد».

أما تصوير العامودي لسهام التي نغّصت على رامز نشأته الأولى، وعملت على طرده فلم يكن تصوير المشتطّ الناقم، ولكنه اكتفى بلمسات توقظ الحسّ تأنيباً دون أن تُحرقه لهيباً، وكأن العامودي يقول للناس: اعفوا عن الشرّ ليستحيي، ولا تهيّجوه فيندلع.

وأنا أعلم أن اقتطاع عبارات من القصة في مجال الاستشهاد مما يُضائل بَريقَها الفنّي، كما أعلم أن محاولة تلخيصها في مجال النقد مجهود ضائع قد يضرّ أكثر مما ينفع، إذا التلخيص مما يُثمِر في مجال العلوم، ولكن العمل الفنّي كيان متكامل لا تُغني فيه العين عن الأُذن، ولا الخدّ عن الجبين وأنا هنا أُشير ولا أُلخّص، وقد وقفت عند القصة الأولى لتدلّ على سواها في تقريب العامودي القصصيّ إلى أذهان مَن لم يقرؤوا أقاصيصه، فإذا وُفّقت إلى هذا التقريب أو إلى بعضه فقد دفعت القارىء إلى أن يرجع إلى الأصل ليَرِدَ المنهل الأصيل.

العامودي المحقّق:

لم يهيّـىء العامودي نفسه ليكون محقّقاً ينشر كتب التـراث مُعالِجـاً صعوبـة القراءة في المخطوطات المتآكلة، ولكن روح الـوطنية الصـادقة دفعتـه إلى أن يَلِجَ هذا الباب كسباً لفائدةٍ علميّة يرجع فخـرها إلى هـذا الوطن العـزيز، إذ شـاعَ لدى بعض المؤرّخين أن مكة المكرَّمَة شرّف الله قدرها على الأيام قد خَلَتْ من الحـركة العلمية في القرون المتأخّرة ابتداءً من القرن العاشر إلى مُفتتح القرن الرابع عشـر، وتلك دعوى ينقصها الدليل العقلي، وكان ينقصها الدليل التاريخي.

أمـا الدليـل العقلي فيقرّر أن مكـة يزورهـا كـلّ عـام لحـجّ بيت الله الحـرام عشـرات العلماء الكبـار من شتّى بِقاع الإسـلام وفيهم مَن يفضّل الإقـامة الـدائمـة ليكـون جار البيت الكـريم، يشمّ عبير التقـوى في أول بيتٍ وُضـع للنـاس مُبـارَكـاً وهـدىً للعـالمين. ومُحـالٌ أن يجتمـع هؤلاء في مـوطن يخلو من مُـدارسـة العلم والأدب، هذا هو الدليل العقلي.

أما الدليل التاريخي فلا بدّ من تراجم دقيقة لهؤلاء ـ أو لبعض هؤلاء ـ الـذين جاوروا البيت العتيق، وألّفوا ودرَّسوا وواصلوا الحلقات العلمية من عهد ابن عباس في البيت الحرام إلى أن يرث اللَّهُ الأرض ومَن عليها.

وقد فُوجِىءَ العامودي بوجود نسخة من كتاب (نشـر النَّوْرِ والـزهَر في تـراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر) ففـرح فرحـاً كبيراً بمخـطوطة هذا الكتاب وشاركه الفرحة صديقه الأستاذ الكبير أحمد علي، وهو من ذوي النّباهة فضلاً وعلماً وأدباً، فتلاقت رغبتـا الأستاذين على نشـر الكتاب الـذي يضمّ أكثر من ستمائة ترجمة تُقدّم الوثيقة الحيّة الشاهدة باتّصال الحـركة العلميـة في حِمَى الحرم الأمين!.

ولكن المؤلّف الشيخ عبد الله مِرداد أبا الخير رحمه الله وأثابه بمـا يستحق من أجْر، قد كان وليد زمَنِه، فكتب الكتاب بلغة مسجوعة فضفاضة، يَضِيعُ فيها الحَبُّ بين قشـور السنابـل المتناثـرة، بحيث لا يصل إلى اللبـاب إلاّ مَن قدر على الصبـر والأناة! وأين مَن يصبر في عالمٍ تزدحم به الشواغل، وتتلاحق الأعباء؟

لذلك كان من نهج الأستاذين الكبيرين أن يحذفا ما يُرهق من المحسنات المتتابعة، بالإضافة إلى شيء آخر هو أن المؤلّف رحمه الله قد استطرد في ذكر مناقب وكرامات وأحداث لا تخضع للنظر العقلي الصائب، بل تجري مع الأوهام إلى شوط بعيد، وحذف هذه الأشياء مما يسهّل مهمّة القراءة ويُيسّر سبيل الدرس، فأجاز المحقّقان لنفسيهما أن يختصرا الكتاب بحذف ما لا يفيد، بل ما يقابله القارىء بالابتسام السّاخر، وأنا أعلم أن قوماً يتشدّدون فيرون نشر كل كتاب من كتب التراث بعُجره وبجره، وإذا كان لا بدّ من النقد فليكن في هوامش الكتاب. كما أعلم أن فريقاً آخر يرى أن نهذّب الكتاب التراثي بحذف ما لا فائدة في ذكره».

ولدينا مختصرات كثيرة لكتب ألّفها السابقون، وجاء اللاّحقون فحاولوا تهذيبها بالحذف والاختصار، وأذكر أن الإمام السيوطي وحده قد اختصر أكثر من خمسين كتاباً، كما ذكر المحقّقان في المقدمة أمثلة لكتب كثيرة اختصرها كبار العلماء من أمثال الذهبي والحلبي وابن منظور وابن واصل، ولست هنا أُرجّح اتجاهاً على اتجاه فلهذا الترجيح بحثٌ برأسه، تتصارع فيه الأدلّة وتتناضل البراهين، ولكني أجد الكتاب بعد تسميته (المختصر من كتاب النّور والزهر) قد صدق عليه ما قاله الأستاذ عبد القدّوس الأنصاري:

«ومما لاحظته أثناء متابعتي لقراءته ـ أي المختصر ـ أن أسلوب الكتاب أصبح غضّاً شفيفاً واضح المفاهيم، لا تحجب كلماته المسجوعة ولا المنمّقة الأهداف التي يُرادُ علمها من وراء مُطالعتها، هذا إلى إيجاز غير مُخِلّ بالمعنى بل شارِح له ومقرّب له، بسبب مُطابقة المدلول للدّال عليه مطابقة تامّة غير فضفاضة تتناثر المعاني المختلفة من بين خلايا جسمها الضخم، ولا هزيلة تعجز عن أداء المفهوم المروم».

ومما قام به المحقّقان الكبيران ترتيب التراجم أبجديّاً ليسهل الرجوع إليها على نمط المعاجم اللغوية والعلمية، وهو تيسيرٌ مُريح، كما تعدّدت المراجع التي استعان بها الأستاذان حين رجعا إلى مؤلّفات تشير إلى بعض المترجم لهم، مثل

كتب العقد الثمين، والضوء اللامع، والبـدر الطالـع، وخلاصـة الأثر، والكـواكب السائرة، وسلك الدّرر، وشذرات الذهب، وريحانة الألباء، ونفحة الريحانة وغيرها من الكتب التي لا يوصل إليها دون جهد جاهد. . .

وهكذا كان العامودي ذا اتجاهات متعدّدة في عطائه الكثير. .

محمد حسن النّجمي
شـــاعر الدّعــوة الإسـلامية

- ١ -

يـرى الذي يقـرأ كتب التراث تـراجم لعشرات من الشعـراء، يُستشهـد فيهـا بالشعر الجيّد الممتاز فيتشوّق القارىء إلى أن يظفر بدواوينهم الكاملة، أو يُطالع ما يشفي غلّته من أخبارهم الماضية، ولكن أسفه يتعاظم حين لا يجد شيئاً مما يريد، مع أن ما بقي من شعرهم يدلّ على أصـالة ممتـازة، وموهبـة نادرة! فيتسـاءل لماذا خمل ذكر هؤلاء النوابغ، فلم يحفل أحد بجمع أشعارهم أو ترجمة حيواتهم؟

ويـزيد الأسف حُـرقة حين نجـد من معاصـريهم مَن لم يبلغوا مِعشـارهم في أصالة الموهبة، وجودة الشاعرية، ومـع ذلك نلمس ذيـوع أشعارهم، ونـرى احتفاء الدارسين بالوقوف على أخبارهم، وسَرْد ما تُعُورِفَ من أمـور معاشهم، وتحليـل ما يرونه من نواحي الإبداع في آثارهم، ثم يتبع الـلاّحق السّابق، فيعيـد في دراسات مستحـدثة مـا قيل عن هؤلاء الأوسـاط، وكأنهم وحـدهم الـذين ملكـوا زمـام الفن وحملوا لواء العبقرية.

أجـل إن ما نشهـده في كتب التراث عن المـاضين، نرى اليـوم أشباهـه عند المعاصرين، فشاعر كبير مثل الأستـاذ محمد حسن النجمي، قـد أمتع قـرّاءه حقبة طويلة بروائع ما نظم، وسارت له قصائـد قويـة ذات صليل ودويّ، ومـا وُجِدَ هـذا الصليل المدوّي إلاّ لِمَـا تحمّل من قـوة العاطفـة، وروعة التصـوير، ونفـاذ الفكر،

وسموّ الغرض، ثم يمضي الشاعر إلى جِوار ربّه، فيسكت عنه الدّارسون، وتنطق باسمه في ملإٍ ممّن يتصدّرون تحليل الشعر المعاصر فلا تجد مَن يعرف عنه شيئاً، على حين ترى مَن ينظمون ولا يشعرون قد رُزقوا عند هؤلاء حظوة بالغة، فاندفعوا يصدرون الدراسات التحليلية، والكتب النقدية عمّا قالوه من أدبٍ وسطٍ في ميزانه، لا يعلو إلى مستوى شاعر فذّ من طراز محمد حسن النّجمي، ترى ذلك كلّه في الأمس البعيد كما تراه في الحاضر العتيد، فتقلب كفّاً على كفّ، وتكاد تستشهد بقول البحتري في سينيّته الشهيرة:

وكأن الزمان قد صار محمو لاً هواه مع الأخسّ الأخسّ

ولا بدّ لنا أن نقف وقفة يسيرة أمام هذا الإهمال المتعمّد، فقد نلمس من أسبابه ما يجعلنا نضع العلاج المناسب لتلافيه، وإذ ذاك نأمل تصحيح الأوضاع الأدبية ليأخذ التاريخ الأدبي مأخذه الصحيح، فترتفع كفّة رابحة، وتشيل كفّة خاسرة، ويتنبه الغافلون من رقادهم متطلّعين إلى صباح جديد.

لقد وُجِدَ لدينا في أوائل هذا القرن نفر من أصحاب الرسالات المؤمنة في دنيا الصحوة الإسلامية، وهؤلاء القوم ـ شعراءً وكتّاباً ـ قد التزموا صِراط الحق في الدعوة إلى يقظة العالم الإسلامي، ومحاربة التيّار الانحلالي الذي يحتذي الغرب في موبقاته، دون أن يقلّده في انتصاراته العلمية، وفتوحه الحضارية، نعرف من هذا النفر الممتاز أعلاماً كِراماً مثل: عبد العزيز جاويش وأمين الرافعي ومحمد فريد وجدي وأحمد محرّم ومحبّ الدين الخطيب وشكيب أرسلان ومحمد الخضر حسين ومحمد حسن النّجمي وعبد الله عفيفي ومحمد لطفي جمعة، وغيرهم ممّن يعرفهم أهل الحق بجهادهم الصادق وكفاحهم المُبين.

وأنت تُطالع آثار هؤلاء فتجدها جميعها هاتفةً بمجد الإسلام، داعيةً إلى الفضائل الخلقية من عزّة وكرامة وإباء، مع خصومة ذات لدد لدعاة التحلّل الإباحي والانهيار الخلقي، وطبيعي أن يكون للمستعمر أذياله الذين يسيرون في طريق غير طريق هؤلاء، وأن يكون بعض الساطعين من هؤلاء الأذيال يمتلكون أزمة التوجيه والإعلام في الصحافة والمدرسة والجامعة، وأن تقوم الحرب بين الفريقين على

نحوٍ غير متكافىء لأن وسائل الذيوع لا تُتاح بنسبة واحدة لكِلا الفريقين، وإذا كان للهو إغراؤه، وللأدب اللاّهي بريقه، فإن دُعاة الكرامة والشّمم لم يجدوا من الإنصات اليَقِظ ما وجده المسيطرون على منافذ الإعلام والتوجيه!.

وهنا انخفضت أصوات كريمة كان من حقّها الارتفاع، وكسدت مؤلّفات ثمينة كان من حقّها الرّواج، ومضى جيل وجاء جيل، فلم يجد الخالف أمامه غير مَن تملّق الأهواء، وأغرى بالشهوات، وأصبح من العجب العاجب أن تتكاثر لدينا مؤلّفات عن أصحاب الأغاني الهابطة، والتمثيليات المنحدرة، والأدب المُوقِظ للغرائز المتطلّعة، ثم لا نكاد نجد دراسات جادّة لهؤلاء الذين أشرنا إليهم من قبل. ونحن لا نمنع أن يتصدّى النقد الأدبي لكل تيّار، ولكننا نغضب أن نرى عقوقاً أليماً يحيق بنخبة فدائية من رجال الأدب والعلم، لا لشيء إلاّ لأنهم لم يتملّقوا الغرائز في قصة هابطة، أو قصيدة مُسِفّة، أو مقالة عابثة.

ومن الإنصاف أن نذكر أننا اليوم قد بدأنا نجد ما يُوحي بالاطمئنان، إذ نشأت شبيبة طامِحةً إلى مراقي العلو، ناشِدةً أرقى ما يصدر من الخواطر النّزيهة لتكون متعة النفس، وشغل الخاطر، وأنس الفؤاد. وبتأثير هذه الشبيبة ستنشر صُحُف كانت مجفوّة، وتعود نجوم إلى آفاقها ساطعة بالضوء المُنير.

وفي رأيي أن الشاعر محمد حسن النّجمي قد ساعد على خفوت شُهرته في حياته لأسباب ترجع إلى ظروف معيشية وإلى مثالية نفسه، فمما يرجع إلى ظروف حياته أنه مكث بالصعيد الأعلى بعيداً عن العاصمة، وشعراء العاصمة أُولوا اتصال بأعلام السياسة والصحافة، ولهم أنصار يشيدون بهم في الصُّحُف، ويُفسِحون المجال لقصائدهم في الحفلات السياسية والاجتماعية والتأبينية، أيام كان للمنابر الرّنّانة صوت شعري مرموق في بلاد العرب جميعاً.

إذ ما رنت قصائد شوقي وحافظ والجارم وشبلي الملاط وبشارة الخوري وفؤاد الخطيب إلاّ في مهارج الشعر، وعنها تناقلت الصُّحُف أبياتها الشوارد واتّسع المجال للتقريظ والنقد معاً، والنقد مهما قَسَا عامِل ذيوع وسيرورة، ولعلّ الشاعر أحمد محرّم ببقائه في دمنهور كان أحد مَن جنى عليه اغترابه عن العاصمة

الكبرى، لأنه في ميزان النقد الصحيح أقوى شاعرية من حافظ والجارم، ولا يسبقه في مضمار الشعر العربي المعاصر غير شوقي من شعراء المدرسة الكلاسيكية العريقة.

أما ما يرجع إلى طبيعة النّجمي النفسية، فاقتصاره على المجلّات الإسلامية وحدها في نشر فرائده، والمجلّات الإسلامية لعهده كانت محدودة الانتشار، وهي أيضاً تجمع الجيّد والحَسَن والمتوسّط، وكان في مقدرة الشاعر أن ينشر شعره في الجرائد اليومية السيّارة، كما فعل الشاعر الكبير أحمد محرّم ليجد من جمهرة القرّاء مَن يحتفل بشعره عن جدارة واستحقاق.

وكنت أظن قبل أن أقرأ ديوان الشاعر الكبير أنه لم ينظم شيئاً ذا بال في المناسبات الوطنية الحافِلَة التي تعدّدت ظروفها منذ قامت ثورة سنة ١٩١٩ م ولكني وجدت الشاعر قد شارك في أكثر هذه المناسبات، فتحدّث عن معارك الثورة، وعن بطلها الخالد سعد زغلول، وعن تصريح ٢٨ فبراير، وعن مشروع منر، وعن صراع الأحزاب في معتركها السياسي، وعن شهداء الوطنية في مُصادماتهم مع جنود الاحتلال؛ تحدّث عن ذلك كله بإمتاع وإشباع، بحيث كانت قصائده لا تقلّ منزلةً عن قصائد حافظ والكاشف ومحرّم والقاياتي في هذا المجال، ولكنهم أذاعوا وأعلنوا، ولم يُذِع الشاعر العزوف شيئاً مما قال، وهذا ما أعجب له كلّ العجب، لأن الشعر السياسي لا يؤدّي دوره القيادي إلّا إذا تداوله الجمهور.

إن روح الانطواء العازف هي التي ساعدت على خفوت صوت هذا الشاعر المُبدِع، ولعلّها صوفيّة زاهدة تمسّ نفوساً متأبّية تكره أن تعيش في الضجيج، وتكتفي بأن تقول الشعر تنفيساً عمّا تجد، فإذا أذاعته ففي مجالس السّمَر، ونوادي الأصدقاء! ومجالس «قنا» مهما حفلت بالناقد الحصيف، والمستمع الذوّاق، فلن يصل صداها إلى المِذياع الجهير في المنبر القاهري! ولكن ذلك كله لا يغفر للنقد المعاصر سكوته عن شاعر كانت مجلّات الشبّان المسلمين والفتح والزهراء والإرشاد وصوت الإسلام والهداية الإسلامية بعض روافده.

وإذا كنّا في الرسائل الجامعية نبحث عن شعراء مغمورين في عصور التقهقر الأدبي مملوكياً وعثمانياً، لنخصّ ما قالوه ـ على ضعفه الواهِن ـ بالتحليل والتشريح، فكيف نسكت عن شاعر معاصر كبير، انفعل بأحداث عصره وسجّل أكثر من مائتي قصيدة في مجلات رصينة تحتفظ دار الكتب المصرية العامّة بمجموعات منها؟ كيف نسكت عن محمد حسن النّجمي لنبحث عن شعراء الجِناس المتكلّ، والطّباق المتمحّل، والتورية الثقيلة، ولدينا ينبوع يتدفّق بأعذب النمير، ثم لا يجد مَن يرتوي من سلساله المُستَطاب؟.

على أن الذين يقدّرون الشعر لذات الشعر قد عرفوا للنّجمي مكانته الرفيعة، ومن أشهر هؤلاء أمير البيان شكيب أرسلان، حيث تابع فرائد الشعر في مجلاّت الفتح مُعجَباً مُكبراً، تابعه من أول يوم نشر فيه أولى قصائده بمجلة الفتح، إذ فاجأه بنمط من البيان العربي الأصيل الذي يُعيد طراز الأفذاذ من شعراء بني العباس، فلم يستطع السكوت عن إعجاب ملأ نفسه وجال في أعماقه، فكتب بالعدد (١٨٦) من مجلة الفتح الصادر بتاريخ (١٣٤٨/٩/١٤ هـ الموافق ١٩٣٠/٢/١٣ م) مقالاً تحت عنوان (من فحول الشعراء بلا مِراء) قال فيه:

«لقد ظفرنا أخيراً بخبيئة مدفونة لم أكن أظن في زوايا الأنقاض، وتحت أستار التواضع خبيئة مثلها، تناولتُ العدد الأخير من الفتح، فرأيت في صدره قصيدة لم أعج بها، ثم أتيت على الجريدة كلها، ولما فرغت منها وأردت أن أطويها، حانت منّي نظرة إلى بيتٍ من أوائل تلك القصيدة، فاستجزلته، فقرأت ما يليه فإذا به كالأول، فرغبت في قراءة تلك الصفحة فصار كل بيت يسحبني إلى الذي بعده، وهكذا حتى أتيت على القصيدة كلها، وأنا أقول: كم بالزوايا خبايا؟.

قرأت شعراً جمع بين الجزالة والانسجام، وبين اللفظ والمعنى، وساده علوُّ نفس جدير بالبارودي ومَن في ضربه.

قرأت شعراً يعتنقه الطبع، ويشربه الخاطر، ويعرف القارىء أعجازه من صدوره، وتتمثّل قافيته من أول كلمة من بيته، يدلّ على ملكة غير معتادة، وطبع مُتَناهٍ في الصّفاء، ومكانة في اللغة رفيعة وتصرّف في القول سَلِس القياد، يجول

صاحبه به كما أراد، فقلت: والله إنه لعبقري مَن يفري هذا الفرى، وأقسمت لو وضعنا من هذه القصيدة أبياتاً ضمن قصيدة أبي تمّام الدّاليّة التي هي من هذا البحر، وهذه القافية يذكر فيها عهود المعالي على المعاني لَمَا أمكن الناقد أن يميّز شعر الطائي عليها. . . ولا تجد في هذه العصماء من أولها إلى آخرها لفظة واحدة في غير محلها، أو بيتاً يقال فيه: لو قال كذا لكان أحسن.

وقرأت التوقيع الذي تحت القصيدة، فإذا بي لم أسمع به في حياتي، فقلت يا ربّ، في أيّ عَلَم اختبأ هذا الرمح؟ وتحت أيّ غمام اختفى هذا النجم؟

هذا بعض ما قال أمير البيان، وفيه أنه لم يعرف الشاعر من قبل مع أنه بدأ النظم الجيّد قبل ذلك الموعد بعشرين عاماً! أفلو كان النّجمي أذاع ما كتم من الشعر منذ بدأ ينظم، أما يكون لدى أمير البيان في شُهرة شوقي وحافظ ومحرّم من زعماء الشعر المعاصر؟ كما ليس من المعقول أن تكون قصيدة الفتح وهي بهذه الروعة التي ملكت إحساس الأمير الناقد من أوائل ما قال! ولكنها فصل من كتاب!.

وهذه التزكية الأولى من شكيب تبعتها تزكيات متتالية شعراً ونثراً، وأذكر أن الأستاذ النّجمي نشر قصيدة تحت عنوان (أيّها الشرق) وكان معنى الشرق حينئذٍ في عُرْف القرّاء يشمل معنى العروبة والإسلام معاً، كما يشمل الأقطار المسُلِمة المُحتَلّة كالهند وغيرها، وقد قال فيها[1]:

أصبحت كالصيد في أنياب مفترس ... يا بنت الفارس المقدام والفرس

ونال من روضك المِعطار سارقه ... ما تشتهي نفسه في غفلة الحرس

يا موطن الوحي والتقديس كيف رمت ... أيدي الليالي رباك الطّهر بالنجس

فاض الإناء أنشكو (الغال) تمعّن في ... فاسٍ فساداً أم (السكسون) في القدس

أم نشتكي طغمة (الطليان) تفعل ما ... تشكو المروءة منه في طرابلس

فِيمَ البقاء وثوب الموت أروع من ... برد الحياة على أعطاف مبتئس

---

(١) الديوان، ص ٦١.

فانفض غبار الكرى عن مقلتيك فقد ... بدا الصباح وحالت فحمة الغلس
اقطع صِلاتك بالغربي إن له ... حقداً متى لاءمته الحال ينبجس
أيبلغ الضعف من أخلاق صاحبه ... أن يغمر الخصم بالإحسان وهو يُسي

فكتب الأمير كلمة مقرظة عنها، وجاوبها بأبيات شعرية من البحر والقافية، وكنت أرجو أن تلحق بالديوان بعد القصيدة مباشرة، ليرى القارىء طرفاً من توارد الأفكار، وتوافق المشاعر.

على أن هناك أمراً خاصّاً بالأستاذ النّجمي، قد دعا إلى انصراف النقد المعاصر عنه، وهو ما قاله من الشعر القارص في عَلَمَين من أعلام النقد هما العقّاد وطه حسين، ولكلٍّ منهما تلاميذه الذين يدورون في فلكه، وهؤلاء لا يزكّون غير مَن يرضى عنهم زعيما المدرسة النقدية الحديثة، أما موقف النّجمي من طه فغير مُستغرَب، لأن أنصار الفكرة الإسلامية جميعهم كانوا حرباً على الدكتور طه، يوم قال في كتاب الشعر الجاهلي عن إبراهيم عليه السلام ما قال، ثم يوم تحدّث عن اختلاف الأسلوب القرآني بين مكّي ومدني حديث مَن لم يعتمد على دليل، فثارت الثائرة، وأدّى ذلك إلى ابتعاده عن الجامعة، فقال النّجمي بهذه المناسبة[1]:

بغّضت بالإلحاد ذكر الجامعةْ ... للناس لا فاتت يديك الجامعة
غادرتها للهزل داراً بعد أن ... كانت تُرجّى للأمور النافعة
أقعيت في حجراتها صِلّاً جرى ... ناباه فيها بالسّموم الناقعة
ونجاتها من كيد مثلك عندنا ... كنجاة مصر من العداة الطّامعة

ثم عاود الكرّة فقال[2]:

لا تُعيدوا إلى الحظيرة ذئباً ... كفى الناس شرّه واستراحوا
لا تقولوا أصيب ظلماً وقولوا ... إنما أخرس اللسان الوقاح
دون ما في كتابه من مخاز ... يقف العفو عاجزاً والسّماح

---

(١) الديوان، ص ١٩٥.
(٢) الديوان، ص ١٩٧.

أما الأستاذ العقّاد فليس له ذنب لدى الأستاذ النّجمي غير مبايعة الدكتور طه حسين له بإمارة الشعر، والعقّاد لم يَسْعَ إلى الإمارة، ولكن طه حسين بايعه بها لحاجة في نفس يعقوب، فهاج ذلك حفيظة الشاعر النّجمي وقال فيما قال[1]:

خدع الأعمى البصير ... إنه لهو كبير!
أضحك الأطفال منه ... إذ دعاه بالأمير
أصبح الشعر شعراً شعيراً ... فاطرحوه للحمير!

وهكذا وقف الرأي الحرّ دون انتشار الصّيت في بحوث أدبية تسلك مسلك الإنصاف، ولسنا بذلك نعلو بشعر النّجمي عن النقد المنهجي، فهو من مدرسة شعرية تجد المحبّذ المؤيّد، والمُعارض المتشدّد، وكان من حقّه أن يذكر في الصفّ الأول مع زملائه المُجيدين.

- ٢ -

دعا العلّامة الهندي الكبير الأستاذ أبو الحسن الندوي إلى إنشاء رابطة الأدب الإسلامي في هذه الأيام، وهي دعوة تنادي بأن يكون الأدب تعبيراً عن أرقى المشاعر الإنسانية التي تتعشّق المُثُل الرفيعة فتساعد على خلاص البشر من شرور الإثم، ونزوات الطغيان، لأن رسالة الأدب في صميمها الراقي هي رسالة الإسلام في تعاليمه الزاهرة، ودُعاة الأدب الإسلامي لا يجهلون أن الأديب يعبّر عن النفس البشرية في ارتفاعها وانحدارها، بل يعلمون ذلك، ولكنهم يتّخذون من الأدب أداة للارتقاء بالمنحدر الهابط كي يسمو إلى مستوى المرتفع الصامد، ومَن يكتبون عن الرذيلة دون توجيه إنساني، فهم دُعاة سقوط وانحدار.

أقول إن دعوة العلّامة الهندي الكبير تجد تطبيقها الصادق في ديوان الأستاذ محمد حسن النّجمي، لأنه تعشّق الفضائل الإنسانية تعشّقاً جعلها مصدر وحيه ومَثار إلهامه، وكان صادقاً مع نفسه حين آثر المجلّات الإسلامية بقصائده الصاعدة، ونحن نرى في الديوان عدة قصائد في تمجيد المجلّات الإسلامية،

---

(١) الديوان، ص ١٩٩.

حتى لتصلح وحدها أن تكون ديواناً مستقلاً، ومن أظهر هذه المجـلّات مجلة الفتح التي كـانت أعلى صرخـة في المحيط الإسـلامي، تـدعـو إلى اليقـظة الإسـلاميـة المستنيـرة، وتهدف إلى الارتقـاء بالفن إلى أفقـه النـظيف، والأستـاذ النّجمي حين يخصّ الفتح بهذه القـلائد الثمينـة، يدعـو إلى احتذائهـا في كل صحيفـة تريـد أن تكون لسان اليقظة المعاصرة، لأن الفتح كما قال عنها[1]:

أمـا تـراهـا ووجـه العصـر منصـرف ... عنهـا تـوالى السّـرى لا تشتكي تعبـا

وتعلن الصـدق لا تخشى البغتـة في ... وقت تنـطّع في تكـريم من كـذبـا

وتقـذف الـزيـغ بـالبـرهـان يـدمغـه ... وعن مـراميـه فينـا تهتـك الحجبـا

وتبـرز الـدين في الـروح التي رفعت ... من العـراء لأوج الـرفعـة العـربـا

تلك الحيـاة التي فـاض الكتـاب بهـا ... فنـال من وأدهـا التحـريف مـا طلبـا

وفي قصيدة أخرى يقارن بين الفتح صـاحبة الـرسالـة، وبين صحائف اللهـو والمجون فيقول[2]:

أنتِ جـدّ الحـديث لـو جـدّ قـومي ... وأفـاقـوا لـكـنـهـم قـوم هـزل

يـنفـق الفسق والـمجـون لـديـهم ... ويـروج الـكـلام من غيـر فعـل

لست أدري وقـد مشى الضعف فيهم ... مشيـة السيـف في قـذال الـمُـوْلي

واستخفـوا بـالـدين وهـو طـريق ... لـلمعـالي، وملكهـا المستـقـلّ

واستـوى المـاء والمـدام لـديهـم ... فـتـوضّـأ بـأيّ ذيْـن وصَـلّ

فَسَـل القـوم هـل دنـوا قيـد شبـر ... من ذرى المجـد أو أنـاخـوا بـظلّ

مـا بهـذا تـرقى الشعـوب ولا يجلب ... إلّا الـمشـوب حـاطـب لـيـل. . .

وقد يظن بعض الأغرار أن الأدب الإسلامي وعظ وإرشاد، فهو خُطَب مِنبرية تُلقى على النـاس فحسب، ولكن الأدب الإسلامي أبعـد نطاقـاً من أن ينحصـر في وعظ إرشادي؛ إن الإسلام رسالة الحياة، لذلـك كان الأدب الـذي يعبّر عنـه أدب الحيـاة في مراقيهـا التي يحبّذهـا الإسلام، فقـد يتحدّث الشـاعر عن الـطبيعة، أو

---

(١) الديوان، ص ٢٩.

(٢) الديوان، ص ٣٧.

السياسة، أو الاجتماع، أو الغزل وهو في كل هذه الأغراض صاحب أدب إسلامي عفيف، ولذلك جاء ديوان النّجمي بأغراضه المتعدّدة يحمل الطابع الإسلامي، وقد أنكر قوم أن يكون فيه شعر عن (أُم كلثوم) كوكب الشرق! ونحن لا ننكر أن يتحدّث صاحب الاتجاه الإسلامي عن الغناء باعتباره فنّاً راقياً يُحيي المشاعر الإنسانية ويرتفع بها عن النزوات، ولكننا ننكر مَن يجعلونه باباً للإسفاف والهبوط وهذا ما عناه النّجمي حين قال في المطربة المجيدة[1]:

بك عاد الغناء في الشرق فنّاً	ولقد كان وهو فيه هراء
وسَمَا قدره وعادت إليه	بعد هجر أيامه البيضاء
لا شهدنا يوماً تمسك فيه	يد سوء أو يعتريك عناء
أنت لولا ترجيع صوتك يمحو	كلّ ضيقٍ لضاق عنّا الفضاء

والنّجمي ليس واحداً في ذلك، فإن زميله على الدرب، ورصيفه في الاتجاه، شاعر البادية الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد المطّلب صاحب الغيرة الصادقة، ورجل الكفاح المناضل قد قال في أُم كلثوم[2]:

هتفت فكان على الدّجى أن يخشعا	وعلى الحمام الورق أن يتسمعا
لحن إلى الألباب تبعثه الصَّبا	فترى القلوب به ذوائب نزعا
يا بنت إبراهيم هل سمحت لنا	دار السلام بعهدها أن يرجعا
بغداد عاد لنا بعهدك حُسنها	من للرشيد بأن يعود فيسمعا
صوت تفرّد بالجمال وزانه	كرم الشمائل في حلاك تجمّعا

فالغرض الشعري يسمو بقائله، فإذا رزق الإحساس الرهيف، ونأى عن الإسفاف الماجن، فهو مما يندرج في الأدب الإسلامي، وبهذا المفهوم نعتبر كلّ

(١) الديوان، ص ٢١٧.
(٢) ديوان عبد المطّلب، ص ١٤٥.

ما أسعد الإنسانية من مُثُل وقِيَم أدب إسلامي وإن قيل في عصر ما قبل الإسلام، فمَن الذي لا يطرب لقول عنترة[1]:

وأغضّ طرفي إن بَدَت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

أو قول حاتم الطائي[2]:

إذا كنت ربّاً للقلوص فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنخها فأردفه، فإن حملتكما فذاك وإن كان العقاب فعاقب!

وإذا كان ما قاله النّجمي في الصُّحُف الإسلامية يصلح أن يكون ديواناً مستقلاً، فإن ما قاله في مأساة فلسطين يعتبر ديواناً مستقلاً ثانياً، لأن قصائده الكثيرة في مأساة فلسطين عزفت أوتار الشجى الأليم، فحرّكت المشاعر وأبكت العيون؛ وأذكر أن شاعر فلسطين الأستاذ إبراهيم طوقان قد عاتب شوقي وحافظ ومطران على إهمالهم مأساة فلسطين، فتساءل في قصيدة باكية: أين شوقي؟ أين مطران؟ أين حافظ؟ أين شعراء مصر؟

ولو قُدّر للشاعر الفلسطيني أن يقرأ فرائد النّجمي في هذه المأساة الطاحنة، لعرف أن الشاعر الغيور الملتهب حماسة وحميّة قد قام بفرض الكفاية عمّن ذكر من الشعراء، ولم يشاركه في مضماره غير صديقه الأمير الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرّم، وصحيفة الفتح كانت مِنبراً للشاعرين، وفي أعدادها المتتالية جذوات مشبوبة ممّا قالا في هذه النكبة الأليمة، وقد رحل الشاعران معاً قبل التقسيم، وقبل أن تبرز إسرائيل إلى الوجود، ولكنهما قد أحسّا العاقبة، وأوجسا شرّاً منها، ولم يألوا جهداً عن التحذير، ولك أن تسمع النّجمي مُعَبّراً عن إحساسه الخاصّ، الذي هو إحساس كل عربي أمين[3]:

أيرفع شذّاذ البلاد بجانبي ديار السنا تعلو على الأفق كالشمس

(١) ديوان عنترة، ص ٣٧.
(٢) ديوان الحماسة، جـ ٢، ص ٣٨.
(٣) ديوان النجمي، ص ٢٨٤.

وأقعـد لا أعنـى بشـيء وأدّعي كـذبـاً وإفكـاً أنني من ذوي الحسّ
وأرجع طرد الجدّ في المجد عكسه وأزعم أن الجـدّ يمشي على العكس
لعمـر نعيم العين مـا أخـطأ الفتى مسـالكـه إلّا تـدهـور في البؤس
ألا ليت شعـري والحـوادث جمّـة وكوكبها يجري على الشرق بـالنّحس
أقـومي أحيـاء فـأعـزف شـاديـاً بشعـري أم موتى فـأبكي على الرَّمس

وقلت: إنه إحساس خاصّ بالشاعر أولاً، لأن نبرة التأوّه الشاكية تمثّل قلقه الذي استولى عليه منذ وعد بلفور، فأخذ يتحدّث في كل مناسبة تحين عن آلام العروبة، حتى لتستطيع أن تجعل من قصائده سجلاً لأحداث الثورة الفلسطينية، وأن يجد المؤرّخ الحديث منها ما وجده المؤرّخ القديم من أبي تمام في موقعة عمورية ومن المتنبّي وأبي فراس في حروب الروم، والعجب كل العجب لهذا الشاعر الثاوي بأقصى الصعيد، وهو يتابع الأنباء دقيقة دقيقة في كل صقع إسلامي، فله دموعه الغزيرة على زعماء العرب في كل قطر عربي، وله بسماته المضيئة حين يلوح شُعاع من غيم، فيلتئم الشمل بين قطرين عربيين بعد اختلاف!.

ولا نكلّف القارىء شططاً حين نطلب إليه أن يدرس ما قاله الشاعر عن جهود رجال عِظام مثل عمر طوسون، ومحمد علي علوية، وكاظم الحسيني، وعمر المختار، ويوسف العظمة، وأمين الرافعي، ورشيد رضا، ومولانا محمد علي، وحفني ناصف، ومحمد عبد المطّلب، وأحمد محرّم، ومحمد شاكر، وأحمد تيمور، ومحبّ الدين الخطيب، وإبراهيم الدباغ، وأبي الوفا الشرقاوي، والتفتازاني، وعبد الله عفيفي. وقد تعمّدت أن أذكر هذه الأسماء لأن أصحابها جميعاً ممّن يلتفّون تحت راية العروبة والإسلام، حين كان هذان اللفظان العزيزان يمثّلان حقيقة واحدة تأتلف ولا تفترق، وقبل أن ينشأ من المفاهيم الشعوبية ما يجعل بينهما تعارضاً يأباه الواقع، ويهلّل له مَن يُظهِرون الخير للعروبة وهم منهما بمكان الحاقد البغيض.

وقد خطّ الشاعر النّجمي خطّاً جديداً في الوفاق مع شهر رمضان المبارك، لأن أكثر شعراء التراث قد نابذوه العداء، وقصائد ابن الرومي والبحتري ورسائل الهمذاني والخوارزمي، مما طفح به الكيل في هذا المجال، ولكن الشاعر النّجمي أخذ يستقبل رمضان أعواماً متعدّدة، مرحّباً بمَقدَمه في نسق شاعري يدلّ على كذب مَن يدّعون أن الشعر نكد لا يصلح إلاّ في الشرّ والمجون، هكذا قال الأصمعي، ثم تلقّف القول منه مَن يهمّهم أن ينحدروا بخواطرهم إلى وهدات السوء، على أن الشاعر في إحدى رمضانياته لم يشأ أن يخلد إلى الراحة مع الذين يصومون ويصلّون واهمين أنهم بذلك قد قاموا بحقوق الله كاملة، دون نقص، وهم في واقع أمرهم متخلّفون مُقادون، ولو صدقت عبادة الصوم وشريعة الصلاة لألهمتهم التقدّم والوثوب، فلم يكونوا كما قال النّجمي[1]:

صاموا وها هي ذي المساجد لم تزل ... تكتظّ منهم بالصفوف قياما
فعَلامَ لا يمشون غير القهقرى ... والناس دونهم تسير أماما
وعَلاَمَ يلقون القياد لغيرهم ... جُبناً ويرضون الهوان مقاما
ما ذاك إلاّ أنهم جعلوا الهدى ... في وجهتيه إقامة وصياما
أين القوى اللاتي يقوم بها الهدى ... ويجلّ في عين الخصوم مقاما
أين الجهاد، وأين منه شعوبكم ... ضيعتمو بضياعه الإسلاما

هؤلاء هم الذين يصومون رمضان ويصلّون الفرائض والنوافل، وقد لامهم الشاعر على اختصارهم الطاعات في حدود الصيام والقيام، أما العابثون اللاّهون ممّن لم يؤدّوا شعيرة صوم، أو يقيموا فريضة صلاة، فقد قال عنهم النّجمي في صراحة لا تعرف الاستتار، قال فيهم وفي سواهم ممّن لم يَنْهه صيامه وصلاته عن الفحشاء والمنكر[2]:

أهابك أن ترى رمضان ولّى ... وما عرف الغواة له محلا
أضاعوا ليله لعباً ولهواً ... وأفنوا يومه شرباً وأكلا

---

(١) الديوان، ص ٥٣٥.
(٢) الديوان، ص ٥٣٩.

ورُبّ مُقارفٍ بالصوم جرماً يفوق جريمة الإفطار هولا
إذا مرّ الذّباب به تأذّى وكالَ لسانه الأقذار كيلا
وإن عاتبته انتحل اعتذاراً إليك من الصيام به فأدلى
كأن الصوم أقرضه سلاحاً ينال به من الأعراض نيلا
وآخر يلبس التّقوى شِعاراً نهاراً، حين يغشى الإثم ليلا
وثمّت مَن يصوم ولا يولّي صحيفة وجهه شطر المصلّى
رزايا أمّة سارت فجرت بهم من خلفها للضعف ذيلا

وتكرار القصائد في موضوع واحد كرمضان دون أن تتكرّر المعاني، أكبر دليل على أن الشاعر يمتاح من بئر لا ينضب، وإني أعدّ له في (الهجرة النبوية وحدها) قصائد شتّى تقرؤها جميعاً فتجد لكل قصيدة جوّها الخاصّ، ومعانيها المنفردة، وصورها المختلفة، ثم إن الشاعر لا يترك موضوعه مستطرداً إلى سواه، كما نرى لدى مَن يحيّون العام الهجري بعدّة أبيات ثم ينتقلون إلى الأحداث السياسية ليتّسع القول في مجالات تبعث على التصفيق.

لا نرى ذلك في هجريات النّجمي، فهو يجلّها أن تكون إطاراً شكليّاً لمعانٍ لا تمتّ إلى موضوعها بأقوى الصّلات، هذا الهيام المشغوف بحادث الهجرة الفذّ، وكذلك بالمولد النبوي الشريف وما يمتّ إليهما من أحداث السّيرة المطهّرة، مع الجدّة في التناول، والطّرافة في الفكر، يؤكّد أن النبع الجيّاش لا يغيض بل يفيض متدفّقاً من أرفع مجالات الشعور المؤمن، ويضيق المجال عن الاستشهاد المبتسر، إذ إن الاجتزاء المبتور يشير فحسب، ولا يعطي الملامح الدقيقة للوجه الجميل.

- ٣ -

حين نقرأ ديوان محمد حسن النّجمي نجده يحفل بقصائد قال أمثالها شعراء عصره، إذ توافوا على أفكار وموضوعات كانت البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية تدعو إليها ككلّ. فأكثر ما عالجه شوقي وحافظ ومحرّم والكاشف وولّي الدين يكن وأحمد نسيم وعبد الحليم المصري، قد امتدّ النجمي ببصره إلى آفاقه، فطار معهم حيث يطيرون، وفي دواوين هؤلاء ما يفسح مجال الموازنة النقدية المنصفة بين شعراء الجيل جميعاً.

ولسنا نقول إن النّجمي قد سبقهم وتقهقروا، فهذا شَطط لا مبرّر له، ولكننا نقول: إن فيهم مَن أخذ حظّاً كبيراً من الدراسة، بحيث أصبح الحديث عن شعره وكأنه من قبيل تحصيل الحاصل، وفيهم مَن تناولته الدراسة الجزئية دون أن يتّسع المجال للإحاطة بخصائصه الشعرية على نحوٍ تطمئن له النفوس، وفيهم مَن سكت عنه النقد سكوتاً تامّاً، وكأنه لم يكن يجري مع رفقائه في حلبة البيان.

ومحمد حسن النّجمي، من الفريق الأخير الذي أخطأه حظّ التحليل والتشريح، وظهور ديوانه على هذا النحو الميسّر المذلّل يدعو الدارسين إلى تفاوت ما وقعوا فيه من التقصير، لأن الحقبة الشعرية التي حفلت بالنّجمي ورفقائه من أزهى عهود الشعر في تاريخه القديم والحديث، والذين يقصرون الإبداع على عصر دون عصر ينسون أن الإنسان الشاعر لم يَخْلُ منه زمن، حتى في العصور الأمّيّة قبل تداول الكتابة والقراءة، ولا زلنا نقرأ أشعار هوميروس وامرىء القيس كما نقرأ شعراء اليوم، وأرى أن أقدّم من أقوال النّجمي ما يقرن بأقوال نظرائه لأدلّ على نماذج من الموازنات، يجب أن يشغل بها الدارسون؛ فإسلاميات شوقي تشترك في أغراضها مع إسلاميات النّجمي، ولكلٍّ منهما جوّه الفيّاح وأسلوبه في تناول الحديث.

لقد أبدع شوقي حين تحدّث عن اتّهام الإسلام بغياً بالبطش حين بلغ الرسول دعوته، ورأى مُعارِضيه يدفعونه بما يملكون من سلاح، فقابل البأس بالبأس، ودارت معارك انتهت بفوز الإسلام، ولكنها أطلقت ألسن الحاقدين فجعلوا يهرفون بما لا يعرفون، وأخذ شوقي يردّ عليهم في مثل قوله[1]:

قالوا غزوت ورُسُل الله ما بعثوا ... لقتل نفسٍ ولا جاؤوا لسفك دمِ
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلمِ
لمّا أتى لك عفواً كلّ ذي حسب ... تكفّل السيد بالجهّال والعممِ
والشرّ إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعاً، وإن تلقه بالشرّ ينحسم
سَل المسيحية الغرّاء كم شربت ... بالصاب من شهوات الظالم الغلمِ
لولا حُماة لها هبّوا لنصرتها ... بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

(١) الشوقيات، جـ١، ص ٢٥١.

أما الأستاذ محمد حسن النّجمي فقد قال في هذا المقام[1]:

ومضلّل يؤذي النهى بقضية | لم تُجد موضوعاً ولا محمولا
أوفى يسوق أمامه من غلّه | ما فاته في غلّه مجفولا
متجاهلاً أن المهنّد لم يكن | أمر الهدى لشبّاته موكولا
لكنه يحمي دعايته ولا | يُبقي عليه لمُنكريه سبيلا
لِمَ سامَ ربّك قوم نوح نقمةً | لم تُبقِ من سفهائهم مخذولا
وأذاق عاداً بأس ريح غادرت | بعقيمها فخم البناء طلولا
عجباً ألم تنبئهم التوراة كم | أفنى الكليم من العباد قبيلا
أوَلم تنبئهم بداود الذي | جلّى بضربته أسىً (شاويلا)
أيكذبون فإن أقرّوا قُل فَلِم | لا تجعلون الأنبياء شكولا
لكنهم عميٌّ ومن ألف الدّجى | جهل الصباح وأنكر القنديلا

فهذان نصّان تواردا في قضية واحدة، ولكل شاعر مطاره الممتدّ، وقد كثر هذا التوارد مع الزملاء جميعاً بحيث يتعذّر الاختيار في بحث موجز كهذا البحث، ولكني أُشير إلى قصيدتين في وصف زلزال مرعب، قال إحداهما حافظ، وقال النّجمي ثانيتهما فكان نصيبهما من الإبداع كبيراً، أما التفضيل فأتركه لذوق القارىء، كيلا أتحكم بإصدار رأي أرى أنه الرأي الأوحد، وهي دعوى يعوزها الدليل. قال حافظ إبراهيم في وصف زلزال مدينة (مسّينا) إحدى مدن إيطاليا، وقد نكبت بكارثة لم تُبْقِ منها أثراً بعد عين[2]:

بغت الأرض والجبال عليها | وطغى البحر أيّما طغيان
تلك تغلي حقداً عليها فتنشق | انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفاً | بشواظ من مارد ودخان
وتسوق البحار ردّاً عليها | جيش موج نائي الجناحين دان
فهنا الموت أسود اللون جون | وهنا الموت أحمر اللون قاني

(١) ديوان النجمي، ص ١٣.
(٢) ديوان حافظ، جـ ١، ص ٢١٧.

جنّد الماء والثرى لهلاك الـ ـخلق ثم استعان بالنيران
ودعا السُّحُب عاتياً فأمدّته بجيش من الصواعق ثاني
فاستحال النجاء واستحكم اليأس وخارت عزائم الشجعان
وشفى الموت غلّه من نفوس لا تباليه في مجال الطعان

وهذه الأبيات من روائع قصيدة حافظ، بل إنها أجمل ألواحها التصويرية، ونحن نقرنها بصورة مماثلة قالها الأستاذ محمد حسن النّجمي عن زلزال مدمّر بالهند دمّر عدّة مدن آهلة، وقد بدأها بقوله[1]:

أتُراها قد شفت غيظ الفؤاد وغفت أجفانها بعد السّهاد
واستراحت بعد أن ألقت بما في حشاها من طريف وتلاد
ناءت الأرض بأوزار الورى وشجاها في الهوى هذا التمادي
فتمطّى صلبها عن نكبة لبس الهند بها ثوب الحداد
فغرت شدقين ألقت فيهما ما عليها من حياة وجماد
من قصور خرّ ما نَامَى السّها من أعاليها على هام العباد
لم يبال الدهر من غاداتها جنة القرب ولا نار البعاد
نثر اللؤلؤ عن أجسادها وشوى الأجساد تندى بالجساد
رُبّ وجهٍ كان كالبدر سنا فاته الجمر إطاراً من سواد
هاجت الأرض على أبنائها فنزت تلوي بحبّات الفؤاد
لفظتهم بعد أن لاكت فهل حالت الرحمة دون الازدراد
أم تراها قذرتهم فرمى بأذاهم بطنها ظهر الوهاد
قتل الإنسان ما أكفره عاث حتى هاج أحقاد العَوادي
ترسل النيران من أشداقها يركض الناس بها ركض الجِياد
وشذى الكبريت من آباطها يزحم الجوّ بأنفاسٍ شِداد

ومجال القول فسيح في أمثال هذه الوثبات، وقد كان يقال قديماً إن الشعر ديوان العرب، ودواوين شعراء البعث من مدرسة البارودي بما سجّلت من أحداث

---

(١) الديوان، ص ٥٢١.

السياسة المصرية والعربية، وبما صوّرت من نواحي الاجتماع والتقدّم الحضاري والجهاد الاستقلالي، هي تاريخ الأمة بألسنة شعرائها المُلهَمين، وفي مقدمتهم الأستاذ محمد حسن النّجمي الذي قال في كل مجال، وظفر بالإجادة والإحسان.

وللشاعر مطوّلات رائعة، تقرأ البيت الأول فيضطرك إلى استكمال القصيدة ـ كما يقول الأمير شكيب أرسلان ـ إذ يسترسل الشاعر الكبير استرسال الماء العذب المتدفّق في النهر الصافي، وله من حلاوة الإيقاع وتسلسل الخواطر، واطّراد المعاني، وصفاء الألفاظ ما يُبهجك ويُشجيك، ومن هذه المطوّلات معارضة للاميّة الطغرائي، وملحمة في خالد بن الوليد، وقد قالهما في صدر شبابه، وتلك همّة عالية تقذف به في هذه السنّ الباكرة إلى مباراة شاعر عملاق في ميدان متّسع فيّاح، وكانت المعارضات الشعرية حينئذ ذات رواج وذيوع، ومن فرسانها المغاوير أحمد شوقي أمير الشعراء.

أما ملحمة خالد بن الوليد فتقرن بما قاله حافظ إبراهيم في العمرية، ومحمد عبد المطلب في العلوية، وعبد الحليم المصري في البكرية، إذ أراد هؤلاء الكبار إحياء الشعور الإسلامي بتسطير روائع السالفين من ذوي التاريخ الفوّاح، وقد نشرت ملحمة خالد ـ على طولها المتسلسل في دقّة وبراعة ـ ناقصة غير تامّة، والظنّ كلّ الظنّ أن الشاعر قد أكملها، ولم يعثر جامِعُو الديوان على بقيتها، إذ لا يعقل أن يجري هذا الفيض الدافق جيّاشاً متدفقاً، حتى إذا قارب النهاية انقطع مداه دون أن يفرغ الشاعر الكبير كلّ ما يريد؛ وحبّذا أن يتّصل البحث، ولو جاز أن تكون القصيدة لشاعرين معاً، لاقترحت على الشاعر المطبوع الأستاذ كمال النّجمي نجل الشاعر الكبير أن يبدع خاتمة للملحمة الرنّانة، تكون مِسكاً للختام.

وللأستاذ كمال النّجمي جزالةٌ شَهِدَ بها كبار أدباء العصر، وفي طليعتهم مطران والجميل والجارم والزيّات، وقد انتقلت روح أبيه إليه فقال في مصر وفلسطين والعروبة ما جعلنا نذكر العبير بالزهر، والإشراق بالبدر. وللشعر بيوت معروفة منها بيت زهير بن أبي سلمى ومَن ولِيَه من الأبناء والأحفاد.

لقـد نشأتُ على حبّ الشـاعر الكبيـر محمد حسن النّجمي، إذ أُتيـح لي أن أقرأ في صِباي الباكر مجموعة (الحديقة) التي كان يُصدِرها الأستاذ المجاهد الكبير محبّ الدين الخطيب، متضمّنة روائع الشعر العربي الهادف، والنثر الأدبي المـوجّه لأعلام أئمة الأدب العربي في مختلف عصوره، ومن بينهم شـاعرنـا الكبير، فكنت أجد لشِعره هزّة وأريحيّة، وقد استظهرت بعض فرائـده، كما استـظهرت مـا نشرت الحديقة من روائع محرّم وشوقي والرافعي وشكيب أرسلان والشبيبي وصبري وفؤاد الخـطيب وأمين ناصـر الدين وبـدوي الجبل وأنـور العطّار. وكلهـا زهور يـانعة في روضة مختلفة الورود متعدّدة الثمار.

ثم أُتيح لي أن أُشرِف على رسالة جامعية خاصّة بشعر النّجمي كتبها الـدكتور عبد الحميد حامد شعبان، فأدّى بعض الدَّيْن الواجب أداؤه لهذا النابغة الموهـوب، وهذا ديوانه الشعري يـرى النور بعـد احتجاب، فيمهّـد الطريق إلى دراسـات شتّى يقوم بها مَن يهتمّون بأصحاب الرسالات الهادفـة من سَدَنـة عبقر، وفي إذاعـة شعر النّجمي بعث للهِمَم الـوانية، وإحيـاء للمُثُل الـرفيعة، وتنشيط للسّيـر على الـدرب الصحيح، حتى تُدرك الأمة الإسلامية أملها الموعود في كنف من رعاية الله ونصـره المُبين.



محمد لطفي جمعة
الناقد الحرّ، والكاتب المناضل

- ١ -

ظلّ الأستاذ محمد لطفي جمعة يحمل القلم قرابة خمسين عاماً، فهو لا يفتأ يؤلّف، ويُحاضر، ويملأ الصُّحُف اليومية بآرائه الحرّة في مختلف ما يجدّ من أحداث سياسية، أو اجتماعية، أو دينية، وهو في جهاده الفكري صريح الرأي، قويّ العقيدة، يعرف موقعه من أمته ودينه ويقدّر تَبِعَة القلم المناضل الذي لا يصرفه عن الحومة الشريفة، منصب لامع، أو صيت برّاق.

وقد قدّمت له شتّى العروض المُغرية ليكون موظّفاً كبيراً، يستريح من عناء الصحافة، وبلاء المُحاماة، ولكنه حين رفض هذه العروض المغرية أثبت في جلاء، أن النفس الكريمة لا تأخذ اعتبارها في ملئها بمنصب أو حظوة، بل تأخذ محبّة الرأي العامّ بالمناضلة عن الحق، مهما قلّ أنصاره في الظاهر، وتحرّش به أُولو السلطان، ومن ورائهم نفرٌ من المرتزقة يجدون مكسبهم الحرام في مناوءة المخلصين، فهم يفترون الأراجيف، ويحيكون الدسائس، ويحسبون أنهم أرضوا سادتهم بما يأفكون، وما دروا أنهم يكشفون أنفسهم، فتبدو السوءات العارية ذات منظر بغيض.

أما أمثال محمد لطفي جمعة من الذين ترصّدتهم الأراجيف الظالمة، فإن عدالة السماء تحتّم أن ينكشف عنهم الغيم لتُشرق أعمالهم وضيئة ساطعة مهما كابدت من عناء، تلك حقيقة ثابتة، أكّدها الواقع المشاهد، وصدّقتها الأحداث.

نشأة مؤمنة:

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ﴾ فلقد تعلّم الطفل الناشىء لطفي جمعة في المدارس الحكومية من ابتدائية وثانوية، كما تعلّم مئات من زملائه، ولكنه امتاز عليهم بما وفّقه الله إليه من اتجاه، فقد قرأ القرآن الكريم في منزل أبيه، وسمع أحاديث الرسول وقصص الصحابة من أُمّه وجدّته، ثم التحق بالمدرسة الأوّلية، وهو أفضل من زملائه، التحق بالمدرسة الأوّلية وما بعدها من ابتدائية وثانوية، في أحلك عهود الاستعمار الإنجليزي، حين حُرّمت الدراسة الدينية على الطلاب، وحُتّم عليهم أن يعرفوا تاريخ أوروبا وممالكها وجمهورياتها بإفاضة وإشباع، ثم لا يعلمون شيئاً عن تاريخ مصر، وبالضرورة لا يعلمون شيئاً عن بلاد الإسلام من عربية وفارسية وتركية وهندية!.

التحق التلميذ الصغير بالمدرسة، وهو ممتلىء بما سمع في منزله فلما لم يجد مَن يُشبع نهمه الروحي، صمّم على أن يكون أستاذ نفسه، فاندفع يقرأ ما يجده مناسباً لاتجاهه، وقد ذكر أنه قرأ في المرحلة الابتدائية فصولاً من مقدمة ابن خلدون، ونُبَذاً من كتاب ابن مِسكويه في الأخلاق! أي أنه لم يقرأ قصّة سهلة، أو مقالاً مُسلّياً، ولكنه قرأ لأعظم كُتّاب العرب من ذوي الفكر الفلسفي الأصيل، وقد أحسّ بذلك امتيازاً عقلياً في نفسه، ولفت أساتذته إلى موهبته! وأستشهد مرة أخرى بقول الله: ﴿ وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ﴾.

فقد شاءت إرادة الله أن يكون بين أساتذته في المدرسة الفيلسوف الحكيم الأستاذ طنطاوي جوهري مفسّر كتاب الله، وذو الفكر المتألّق بالحكمة، المشرق بالتسامح، السعيد بالقناعة والكفاف، فرأى الأستاذ في تلميذه ما لم يعهده في رفاقه، فسُرّ به، وتعهّده بالنّماء والريّ، يحادثه عن قرب، ويراسله عن بُعد، وقد اعتزّ الطالب برسائل أستاذه، وظلّت في أحرز مكان من بيته، حتى نشر نجله الأستاذ رابح لطفي جمعة بعضها في كتابه عن أبيه، بعد أن تخرّج الطالب من المدرسة الثانوية، وأخذ يكتب في الجرائد الوطنية مقالات سياسية تحارب الاحتلال، واجتماعية تكشف بلاء الأمة في أدوائها المستعصية من جهل وفقر

ومـرض، وأدبيّة تتحـدّث عن مفكّري الإسـلام من أمثال ابن رشـد وابن سينـا وابن مسكويه!.

كان الأستاذ طنطاوي جوهـري يقرأ مقـالات تلميذه، فيشعـر بسعادة غـامرة، يشعر بسعادة مَن يرى البذرة الصغيرة قد انشقّت عنها الأرض فأصبحت عوداً أخضر يتحدّث حاضـره عن مستقبله، ثم يتضاعف شعـوره العجيب فيكتب لتلميذه يـذكّره بالأمس حين كان يعاتبه على بعض الأخطاء، ويدعوه إلى ينابيع الحكمة في أصفى مواردها، وقد استجاب الطالب للأستـاذ، وظهرت البشـائر السّـارّة واضحة فيمـا يدبّـج من مقالات صحفية. يقول الأستاذ لتلميذه[1]:

«لقد سرّني أن نفسك قد أقبلت بتيّارها المنحدر، وبحرها الزاخر، على ذلك الصاحب القديم، الذي عهدها مخلصة عشّـاقة للعلم، درّاكـةً للحكمة؛ تـذكّر يـا عـزيزي أنـه كان فيمـا مضى هنـاك بعض الشيء تخلّل في النفـوس، ولكنـه كـان ظاهريّاً، تذكّـر يا عـزيزي أنّي كنت أُعـاتبك، هـذا حق، ولكني كنت أُحاول أشـدّ المحاولة ألّا يكون بين القلوب حجاب، ولا على النفوس نقاب.

لقـد قرّر الحكمـاء أن المودّات على أقسـام، منها مـا ينعقد سـريعاً وينحـلّ بـطيئاً، كمـودّة العلم والحكمة، والعلم والحكمـة باقيـان، فما دام السبب بـاقيـاً، فالمسبّب لا جرم باقٍ، مودّة العلم إذا سَلِمَت من الشوائب أرهنت الأحباب جميعاً، فهي إذ ذاك كنجم ينظر إليه الناس من أقطار مختلفـة، ولا عداوة بين النـاظرين ولا تحاسد بين العاشقين، بخلاف مودّات أخرى تنجم عن المادة».

نقلت هذه الفقرات، لأدلّ القـارىء على أن الأستاذ الكفـء هـو الذي يبصّـر تلميذه مواضع الخطأ عن حبٍّ صادق، إذ هناك فـرق بين مَن يُظهِـر الخطأ لتلميـذه مُتعالياً مُغالياً فيثبّط من همّته، وبين مَن يُظهره ناصحاً مشفقاً فيـدعوه إلى الامتثـال، وقد امتثل الطالب لنصح الأستاذ، فانشقّ برعمه الغضّ عن زهـرة يانعـة، وفي وقت قريب!.

---

(١) محمد لطفي جمعة: تأليف رابح لطفي جمعة، ص ٢٨، سلسلة الأعلام.

لم يكن طنطاوي جوهري من رجال الفكر الإسلامي صاحب التأثير العلمي في اتجاه الطالب الناشىء، بل كان هناك الإمام محمد عبده! إذ بعثت مقالاته المتتابعة في الصُّحُف السيّارة، وآراؤه الجريئة في معركة الإصلاح الديني في نفس الطالب طموحاً شريفاً لمجالسته والائتناس به عن قرب، وكان الإمام صاحب ندوة علمية يعقدها بداره في عين شمس، يؤمّها العلية من النابهين، كما لا يمنع عنها ذوي التطلّع من الناشئين، وقد كان لطفي جمعة في سنّ السابعة عشرة من عمره حين زار الإمام في ندوته، ووجد منه ارتياحاً لزيارته وأمثاله، حيث قدّم له الزائر الصغير أسئلة دينية واجتماعية استلهمها مما قرأ للأستاذ الإمام، فسرّ الرجل الكبير أن يجد من تلاميذ المدارس مَن يعكف على قراءة الفصول الطويلة مفكّراً متسائلاً، وردّ عليه بما شجّعه، وكأن لطفي لم يقنع بالحديث المتبادل وحده، فشاء أن يراسل الإمام مستفسراً عن بعض النقاط، وعلى كثرة ما يشغل الشيخ من موضوعات حيوية، فقد وجد من واجبه أن يردّ على التلميذ، وأن يبارك اتجاهه، وأن يحيله على تلميذه السيد محمد رشيد رضا ليجد لديه جواب ما غاب عنه من علم.

ومن الخير أن ننقل هنا رسالة الإمام للطالب الناشىء، لنقدّم مثلاً حسناً لأساتذة اليوم، وفيهم مَن يغمره الفراغ الهائل بحيث لا يلقي في الأسبوع غير محاضرتين في يوم واحد، ثم يأنف أن يُجيب على سؤال في غير وقت المحاضرة، فإذا تجرأ طالب على سؤال عابر في غير مكان الدرس لَقِيَ الاستهزاء والإنكار!.

إننا نقدّم رسالة الإمام للطالب الصغير ليعرف المتكبّرون حقّ التلميذ على الأستاذ! على أن لطفي لم يكن تلميذاً للإمام في كليّة أو مدرسة، بل كان قارئاً لإمام العصر، بين آلاف القرّاء ممّن يراسلونه ويجدون الجواب دون إبطاء.

يقول الإمام محمد عبده من رسالة كتبها إلى التلميذ الناهض في ١٩ مارس سنة ١٩٠٤ أي قبل وفاته بعام وربع[١] ـ إذ انتقل إلى جوار ربّه في يوليو سنة ١٩٠٥ م:

---

(١) مجلة الثقافة، العدد ١٠٤، مايو سنة ١٩٨٢ م من مقال للأستاذ رابح جمعة.

«حضرة ولدنا النجيب محمد أفندي لطفي جمعة، سلام الله عليك ورحمته وبركاته وبعد:

وصلتني رسائلك بشأن ما تسأل عنه من أمر الروح والنفس البشرية، وخلق الكون والمادة، وغير ذلك من المسائل الفلسفية التي اشتغل بها علماء الكلام، وأنا أحمد لك تطلّعك إلى المعرفة، وتشوّقك إلى العلم، وأقدّر فيك ذكاءك وحرّيتك الفكرية، وشغفك بالبحث في أجلِّ مسائل الفلسفة، وعلينا نحن العلماء نحو أبنائنا من الشبيبة واجب التوجيه والإرشاد، وتنوير سُبُل الهداية والرشاد، وأن نُزيل الحيرة من القلوب حتى تطمئن، وأن نبدّد الشكوك من العقول حتى تبصر نور الحق، وهي حيرة محمودة العواقب طالما انتهت بصاحبها إلى اليقين.

لقد أرسلت مكاتبتك إلى ولدنا الفاضل محمد رشيد رضا صاحب المنار، ليُجيبك عمّا سألت، وإن كنت أُحبّ أن أراك في عين شمس إذا حضرت من طنطا إلى القاهرة، لنتذاكر الأمور التي أشرت إليها، وأُوصيك بقراءة (رسالة التوحيد) ففيها الردّ على كثير مما سألت، وحتى أراك إن شاء الله، أدعو الله سبحانه وتعالى أن يفتح عليك، ويكشف بصيرتك، ويشرح صدرك، ويفرّج كربك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

وقد شاء لطفي بعد وفاة الإمام أن يتّصل بالزعيم الوطني مصطفى كامل، إذ رآه ذا جذوة ملتهبة يلفح بها شبابه المتوقّد مشاعر المصريين، وكانت نفس لطفي من أشدّ المتأثّرين لفحاً واتّقاداً، فعكف على القراءة العالمية في تاريخ الدول الأوروبية، ليكتب كتاباً تحت عنوان (تحرير مصر) يتحدّث فيه عن موقف إنجلترا وفرنسا من مصر بخاصّة ومن العالم العربي بعامّة، وليدرس مواقف الدول الأخرى كالنمسا وإيطاليا وألمانيا وروسيا من هاتين الدولتين، وما تقومان به من استعباد يتجافى مع روح الحرية التي تشرق شمسها على أوروبا وحدها!.

والكتاب بفصوله المتناسقة يتحدّث عن مؤلّفه البارع أصدق حديث، إذ يصوّر قدرته الفائقة على الإحاطة والتحليل، مثلما يصوّر إحساسه العربي بضرورة

التحرّر من الاستعمار، وهو إحساس أذكاه مصطفى كامل بمقالاته وخطبه ورحلاته المناضلة إلى عواصم الاحتلال.

لقد ألّف لطفي كتابه عن تحرير مصر، وخيال مصطفى كامل يراوحه ويُغاديه في كل فكرة تعنّ له، حتى إذا أتمّ طبعه كان الزعيم الكبير أول قارىء له، إذ حرص المؤلّف على زيارته كي يهدي له ما كتب متأثّراً بزعامته وإيحائه، وقد فوجىء الزعيم بحماسة الشاب وطموحه، مثلما فوجىء بقوة تفكيره، وصواب اتجاهه؛ وقد سأله عن نفسه، وأوصاه أن ينهج نهجه العلمي أوّلاً فينال ليسانس الحقوق من إحدى جامعات فرنسا، ليرجع إلى وطنه مسلّحاً بأقوى ذخائر العلم، فيكون تأثيره حينئذٍ أقوى وأشدّ.

وكان من توافق الخواطر أن يلتقي الزعيم والمؤلّف على فكر واحد، إذ كانت الرحلة إلى فرنسا خاطراً مُلِحّاً في نفس لطفي، وسرعان ما اتّجه إلى ليون ملتحقاً بجامعتها، ولم يكن شأنه في ذلك شأن زملائه المصريين الذين اقتصروا على معلومات المدرسة الثانوية وحدها، فبهرتهم فرنسا بما تموج به من جدٍّ ولهوٍ.

إنه ارتحل إلى باريس بعد أن قرأ كثيراً من كتب التراث الإسلامي لكبار أئمته في القديم والحديث من أمثال الغزالي وابن رشد وابن سينا وابن خلدون ومحمد عبده، وطنطاوي جوهري، وجمال الدين الأفغاني، فأصبح ذا فكرٍ إسلامي يرى حضارة الغرب بلونيها المختلفين، دون أن يُسحر ببريق خادع، بل يرى هذه الحضارة موازناً بينها وبين حضارات سابقة لم تحفل بمظالم الاستعباد، ولم ترمِ الناس بقذائف الاحتلال كما فعلت إنجلترا وفرنسا، وهما في الذروة من دول أوروبا حينئذٍ.

هذا من الناحية الإسلامية، أما من الناحية السياسية فلطفي جمعة هو مؤلّف كتاب (تحرير مصر)، ومن بعده كتاب (حياة الشرق) وهما معاً يُصوّران خبرة قارىء مستنير، لولا أنه لا يزال في عهد اليفاعة يُعدّ سياسياً كبيراً، وما الحداثة عن علم بمانعة، فقد يعرف الحدث الناشىء من صروف الحياة وألغاز السياسة ما لا يعرفه الكهل الغافل، لذلك بدأ العراك السياسي بينه وبين أساتذته الفرنسيين منذ تعرّف

إليهم في خطواته الأولى من رحلته المباركة، فقد أُقيم احتفال لتكريم شاب جزائري نال درجة الدكتوراه من الجامعة الفرنسية، وحاز أرقى درجة علمية تمنحها الجامعة، فتأثّر لطفي بهذا النجاح الكاسح، وكتب مقالاً قال فيه[1]:

«إن أهل الجزائر وسائر شمال أفريقيا عرب مثلنا، ومسلمون يتطلعون إلى الحرية والاستقلال، فمتى يأتي اليوم الذي يضمّ فيه شمل جميع العرب تحت لواء الحرية بعد خلع نِير الاستعمار والاستبداد، إننا نرى في الأفق وميض برق، وأتخيّل السيد الأستاذ ابن علي فخار [الذي نجح بامتياز في الدكتوراه] من حَمَلَة الشعلة التي تضيء المستقبل».

وما كاد حديث لطفي يذيع، حتى قُوبِلَ بعاصفة استنكار من أساتذته، وعلى رأسهم أستاذه لامبير الذي كان أستاذ القانون بمدرسة الحقوق في مصر، ورجع إلى فرنسا بعد اصطدامه بسياسة كرومر التعليمية، فاحتضن مَن يَفِد لدراسة القانون من المصريين، وقد ظنّوا أن الرجل حينما خاصم كرومر كان منتصراً للحرية، ولكنه كان مغيظاً من سيطرة الإنجليز فحسب!.

لقد غضب لامبير على لطفي جمعة غضباً ظهرت ملامحه في انفعاله المتّقد، وقد قال له في غضب: اعمل معروف فينا، واترك لنا جزائرنا وتونسنا ومراكشنا، واصنع ما بَدَا لك مع الإنجليز دفاعاً عن مصر!! فقال له لطفي: إني كنت أعتقد أنك حامي الطلاب المصريين، وموئل غياثهم، لأنك صديق مصطفى كامل، فكيف تقول هذا؟ فردّ لامبير: اصنع جميلاً ولا تتحدّث إلّا عن مصر، فثار لطفي وقال في حماسة: لم أعلم قبل اليوم أن تونس والجزائر ومراكش مُلْك لكم، بل هي مُلْك لأصحابها، ثم إنك علّمتنا التضحية والبذل في سبيل الكرامة، فاستقلت من نظارة مدرسة الحقوق الخديوية لأجل كرامتك، ولم تخضع لكرومر ولا لدنلوب، فكيف تعيب علينا الدعوة إلى الحرية؟».

---

(١) لطفي جمعة، ص ٤٥.

هذا ما كان من شجاعة لطفي، وقد سجّل هذا الحديث في حياة لامبير، مما يدلّ على أنه حق واقع لا تزيّد فيه! وإذا كان لامبير وهو أول نصير لطلاب مصر في جامعته، قد اشتدّ غضبه على تلميذه، فإن زملاءه من الأساتذة كانوا أكثر غضباً، وهم بعدُ ذوو الأمر في نجاح الطالب أو إخفاقه، ومَن كان في مثل موقفه فقد يرى من الكياسة أن يناقش بالتي هي أحسن دون أن يثور ويحتدّ، ولكن روح مصطفى كامل الثائرة قد تقمّصت لطفي في موقفه فصاح صيحته غير مُبالٍ!.

على أن الحادث قد تكرّر في ظروف مشابهة ذكرها الأستاذ في مذكّراته بما يدلّ على أن الوطنية كانت لديه أَوْلى من الإجازة العلمية، ولله عين لا تغفل، فقد رعى الطالب حتى نال درجة الليسانس في الحقوق سنة ١٩١٢، ورجع موفور الكرامة إلى مصر.

وقد سافر أثناء إقامته بفرنسا إلى سويسرا والنمسا ولندن ليشترك في مؤتمرات سياسية لمحاربة الاحتلال الإنجليزي، وألقى في مؤتمر جنيف خطبة عاصفة سبّبت غضب مَن حضروا من كبار الإنجليز، وفيهم أعضاء لامعون بمجلس العموم واللوردات، ولكن الزعيم الكبير محمد فريد زعيم الحزب الوطني بمصر قد فرح فرحاً شديداً بما قاله لطفي جمعة، وقد أقبل عليه مبتهجاً، وضمّه إلى صدره في حنان، وقبّله، وقال له: أنت ولدي.

هذا بعض كفاح الشاب المتحمّس في صدر حياته الأولى، وقد رجع إلى مصر بعد نواله الليسانس واختار المُحاماة الحرّة دون الوظيفة الحكومية، لأنه رآها مع أجْرها المُغري وراحتها الهنيئة ستقضي على أفكاره الحرّة، وربما حبست قلمه الحارّ، وهو أقوى ما يملك من سلاح في مهبّ الأعاصير...

- ٢ -

كانت المحاماة ذات ربح طائل، لمَن يعكف عليها ويعدّها مستقبل حياته وحدها، وقد برز الأستاذ محمد لطفي جمعة في ميدانها، وصار عَلَماً من أعلامها، ولكنه لم يقصر نشاطه عليها، إذ رآها باباً للرزق فحسب، أما مجاله الأسمى

فبحوث الفكر الراقي، ومراميه البعيدة، لأن آفاقه قد امتدّت إلى بحوث الفلسفة من أوروبية وعربية.

فكما ألّف عن أفلاطون وتحدّث عن ديكارت وبيكون، فقد كتبَ مؤلّفاً بارعاً عن فلاسفة الإسلام محلّلاً أفكارهم ورادّاً عناصرها العلمية إلى أصولها الأولى في الشرق والغرب، ومَن يكتب في الفلسفة لا يهزل، بل يجدّ، وكانت رياح السياسة من عربية وعالمية تهبّ عليه من كل اتجاه، فتدفعه إلى إيضاح وجهات نظره فيما يجد من أحداث.

وهو في ميدانه السياسي قد أخذ مأخذ التشدّد المُفرِط، حيث تقيّد بآراء مصطفى كامل ومحمد فريد زعيمي الحزب الوطني في وثبته الأولى الظافرة، وقد جدّ من الأحزاب السياسية في مصر ما غمر الحزب الوطني بغمام متراكم حجب لألاءه، ولكن الأستاذ لطفي جمعة ظلّ وفيّاً لمبدئه في الجلاء ووحدة وادي النيل، يدافع عنه مَن يتساهلون دفاع اللآئم المؤاخذ.

ومن شأن المقالات السياسية أن تفقد بريقها بفوات مناسبتها، لذلك أصبحت مقالات الأستاذ في هذا النطاق ذكرى تتردّد، لا كتباً تُتْلى، أما الذي سيبقى من آثاره فهو دفاعه الحارّ عن مبادىء الإسلام وقضايا الأدب ذات الوشيجة العالقة بهذا الدين، إذ كانت للطفي صولاته الجريئة وكان له منطقه المخوف.

ولعلّ أول معركة خاضها بعد عودته ـ وإن كانت من طرف واحد، حيث آثر منقوده السكوت والانزواء ـ معركته مع الدكتور منصور فهمي، فقد كان من سوء حظّ الدكتور الشاب أن يقع تحت تأثير الأستاذ (ليفي بريل) إذ كان مُشرِفاً على رسالة الدكتوراه التي تقدّم بها لجامعة السربون تحت عنوان (حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوّراتها) ولم يكن منصور فهمي حينئذ قد درس مقرّرات الإسلام الصحيحة ما يُعينه على السير القويم، ولكنه تلقّف معلوماته من كتب المستشرقين ذوي الغرض، وقد تحدّثت عن المرأة في الإسلام بما ليس من تعاليم الإسلام في شيء، كما تجنّت كاذبةً على رسول الله ﷺ حين أغفلت حقيقة تعدّد الزوجات بالنسبة إليه، مع أن أسباب هذا التعدّد من الوضوح بحيث لا تخفى على

طالب بالمرحلة الثانوية، فضلاً عن باحث يتقدّم إلى دكتوراه الدولة في جامعة السوربون، ولكنه قرأ بحوث خصوم الإسلام دون حصانة علمية تدفع الخطأ وتقرّر الصواب، فاعتدّها وحدها المرجع الأساسي لِما يُبدي من أحكام، وقد انتقل صدى الرسالة إلى مصر، فأحدث صدمة أليمة لدى مَن يرون الحقيقة السافرة تختفي لتحلّ مكانها الأكاذيب المُفتراة.

وكان الأستاذ محمد لطفي جمعة أحد الذين تصدّوا لدحض المُفتَريات التي سجّلها الدكتور منصور جهلاً دون علم، فبيّن حكمة تعدّد الزوجات بالنسبة للرسول بخاصة، وتعدّد الزوجات بالنسبة للشريعة الإسلامية، كما أوضح مكانة المرأة في ظلّ الإسلام، وقارن بين المرأة المسلمة والمرأة الغربية في القديم والحديث.

وإذا كان ما كتبه الأستاذ لطفي يعتبر الآن من المقررات البدهية، فإنه في العقد الثاني من هذا القرن، حين كتب ردّه الحاسم كان مجال الأخذ والجذب، لأن ذيول الغرب في العالم الإسلامي قد تحدّثوا عن الإسلام جهلاً وسفهاً، فرموه بما ليس فيه، وتطلّبت الحقائق المظلومة نصيراً ينافح عنها حتى تجلّى وجهها الصحيح بعد نضال مرير، ومن شرف الأستاذ محمد لطفي جمعة أن يكون أحد أبطال هذا النضال.

وكيلا نظلم الدكتور منصور فهمي رحمه الله، نقرّر أنه رجع عن أفكاره الخاطئة المخطئة، وكتب عدّة مقالات يؤكّد فيها أنه لم يكن يعلم شيئاً عن مقرّرات الشريعة الإسلامية بشأن المرأة إلّا من مراجع فرنسية كتبها ذوو الغرض، ولم يكن ـ حينئذٍ ـ يظن أساتذة الاستشراق يتعمّدون الخطأ تعصّباً، وينقدون الإسلام حقداً وحسداً، حتى قرأ أحكام الشريعة في مصادرها الأصيلة، فكشف الغطاء عن عينه، فبصره منذ الآن حديد، وقد حرص الدكتور منصور على إحياء الشعائر الدينيّة في صدق ويقين، وكان أحد الأعضاء البارزين في جمعية الشبّان المسلمين، يخطب في كلّ حفل، ويحارب الملاحدة في كل ميدان.

هذا عن الدكتور منصور فهمي، أما الدكتور طه حسين، فقد ترصّده الأستاذ محمد لطفي جمعة ترصّد اليَقِظ الحريص، إذ إن الدكتور في فورة شبابه كان

يذهب مذهب الاستشراق في اتجاهاته الأدبية، وكتابه عن الشعر الجاهلي ثمرة من ثمار الاستشراق، وقد أحدث دويّاً مزعجاً في مصر والعالم الإسلامي، لما تحدّث به عن القرآن وإبراهيم عليه السلام، حديث مَن لا يعتصم بصواب.

وقد نشط للردّ عليه في كتب مستقلة صفوة من خيرة الباحثين، أذكر منهم الأساتذة محمد فريد وجدي ومصطفى صادق الرافعي ومحمد الخضر حسين، ومحمد أحمد الغمراوي ومحمد لطفي جمعة، وجميعهم قد تحدّثت عنهم في هذا الكتاب، غير الأستاذ لطفي جمعة الذي أسعد بالحديث عنه الآن، فأقول: إنه أخذ للأمر أُهبة، وإذا كان تخصّصه الأول في القانون، وأكثر مقالاته في السياسة والدين والاجتماع، فإن البحث الأدبي في الشعر الجاهلي كان غريباً عنه قبل أن يبدأ النقاش، فتجرّد للبحث في جدٍّ متواصل، حتى تفرّغ من عمله القانوني عدة أشهر، لينهض بواجب الدفاع عن خبرة وافية لا يلحقها النقص.

وكأنّي به وقد أحسّ أن قضية الشعر الجاهلي قضية جنائية تتطلّب مُحامياً من طرازه، فأعدّ العدّة الواقية، وقرأ المصادر المتعدّدة من شرقية وغربية حتى ألّف كتاباً ممتازاً هو (الشهاب الراصد) وقد طارت له شُهرة مستفيضة، إذ نُشِرَ تباعاً في الصُّحُف اليومية، فتقبّله القرّاء أطيب قبول، ووجد من إطرائهم ما ساعده على السّبق الظافر، إذ كان الشهاب الراصد أسبق الكتب الأربعة التي شاع ذكرها في هذا المجال، وأذكر أن المتخصّصين من مؤلّفي التاريخ الأدبي للعصر الجاهلي قد عدّوه من مصادرهم المعتمدة، ورجعوا إليه في كثيرٍ من قضاياه! وهم بعدُ متخصّصون أكاديميّون، كما راسله أمير البيان شكيب أرسلان مُثنِياً على توفيقه، فكتب إليه يقول[1]:

«منذ مدة طويلة أُحدّث نفسي بمُكاتبتكم، وتصدّني عن ذلك الأشغال، وكان مرادي أن أرجو جمع تلك المقالات التي نشرتموها في المقطّم وغيره، في نقض كتاب الشعر الجاهلي، فما أنا إلّا والجرائد تكتب عن صدور هذا المجموع،

---

(١) محمد لطفي جمعة، ص ١٤٣.

وكوكب الشرق ينشر المقدّمة الغرّاء، بل الخريدة العذراء التي هي مقدّمة الكتاب، فراقتني جدّاً، وسرّني نشر هذا المجموع كثيراً، وجئت أُهنّئكم وأشكركم، وأتمنى أن يقيّض الله لهذه الأمة ممّن يملك ملكتكم في البلاغة وسَداد الحجّة، ومتانة التركيب، وقوّة الروح، عدداً كبيراً، وأن يمتّعنا طويلاً بفضلكم وأدبكم؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ولنكتفِ بمثال موجز من نقد صاحب الشهاب الراصد لكتاب الشعر الجاهلي فيما ذكره عن تطبيقه لمذهب ديكارت القائم على الشك في بحوثه الخاصّة بانتحال الشعر الجاهلي، وهي قضية لا تحتمل النقاش الآن، ولكنها عند ظهور الشعر الجاهلي كانت ذات بريق خاطف، وقد فنّدها الأستاذ لطفي بعد مراجعة دقيقة لتاريخ النقد الفرنسي، مع إيضاح الفارق بين الاتجاه الأدبي والاتجاه الفلسفي في النقد الدقيق، وكان لجمعة توفيقه الصائب حين يركّز على الحقائق الواضحة دون إيغال في المتاهات المتشعّبة، فهو مثلاً يقول عن ديكارت صاحب نظرية الشك التي اعتمد عليه طه حسين(١):

«لم يكن ـ ديكارت ـ أديباً ولا ناقداً ولا شاعراً، بل كان عالِماً رياضياً طبيعياً، ولم يضع قاعدة للانتقاد الأدبي، ولكن فلسفته تسرّبت إلى الأدب، وكان مذهبه يقتضي التجرّد من المعلومات السابقة والبناء من جديد، وقد بدأ بالشك في الوجود ثم انتهى إلى اليقين، ثم قال الناقد:

«إن الشك المطلق الذي يمجّده مؤلّف الشعر الجاهلي ويتلذّذ به، وبما يورثه من اضطراب وقلق لا يمكن أن يكون وسيلة دائمة للتفكير الحكيم، بل يجوز أن يكون الشك مسلّماً للوصول إلى حكم تعيينيّ، كما كانت حالة ديكارت، لأن غاية كل عالِم ومفكّر وباحث هي الوصول للحقيقة، والحقيقة لا تظهر إلّا في ثوب اليقين، فالحكيم الصادق لا يتلذّذ بالشك الدائم، لأن الشك حالة سلبية، والعقل السليم لا يستقر إلّا على حالٍ إيجابية، ولو كانت جحوداً أو إنكاراً مطلقاً لرأيٍ من الآراء، لأن الجحود كاليقين المطلق حالة إيجابية بالنسبة للشك».

---

(١) الشهاب الرصد، ص ١٢.

وللأستاذ في نقده الشامل جولات سديدة، نشير إلى ما جاء منها في صفحات ٦١، ١٨٦، ٢٠٩، ٢٣٥، من الطبعة الأولى من (الشهاب الراصد) حيث انفرد بآراء لا نجدها عند زملائه الذين شاركوه في هذه المعركة بكتب ذات نفع صائب، وكم كان يهمّني أن أُلخّص هذه الآراء، ولكن ضيق المجال يدفعني إلى الإشارة إليها، عالِماً أن من القرّاء مَن سينشط إلى قراءتها في ارتياح.

وقد كان توفيقه الكبير في مؤلّفه السّالف، دافِعاً له إلى تتبّع قضايا الأدب والسياسة في عصره تتبّع الفاحص الدائب، فحين انتشرت الدعوة إلى الفرعونية في مصر، كان الأستاذ محمد لطفي من كبار مناهضيها، وقد كتب عن عروبة مصر صفحات خالدة لا تزال تائهة في أنهار الصُّحُف اليومية كالبلاغ وكوكب الشرق والدستور، وهي بمجموعها تمثّل سفراً قيّماً، تعتزّ به المكتبة العربية كل الاعتزاز.

وأنا آسف لمثل هذه المقالات الرائعة يقرؤها جيل واحد من القرّاء، ثم تغيب في محيط الزمن البعيد، وقد رأينا مَن يحرص على جمع التّافه من القصص الهابط والصور الدميمة، فيُعيد طبعها في مجموعات تتداول، لأنها ذات إغواء وإغرار، فليت الذين ينشطون عشرات المرات إلى جمع الرديء الغثّ ينشطون مرة واحدة إلى طبع الجيد المفيد، وهو تمنٍّ خائب بُدِيء (بليت) التي تدلّ على التعذّر الشديد.

ولم تكن منزلة المنقود ومكانته في محيطه مما يصدّ الكاتب الناقد عن مهاجمة ما يراه مخطئاً من قوله، فقد تصدّى للأستاذ الكبير عبد العزيز فهمي حين دعا إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، ولم يكن في مهاجمته عاطفياً يعتمد على الإثارة، ولكنه قدّر مكانة غريمه، فنازله بسلاح المنطق، ورجع إلى عشرات المصادر ما بين شرقية وغربية، وقرأ كثيراً في تطوّر الرسم الإملائي للغات المختلفة لينتهي إلى أن الصعوبة في رسم العربية أقلّ من الصعوبة في اللغات الأخرى، وأن أنصار الخطّ اللاتيني لو رجعوا إلى علماء هذه الحروف لسمعوا من الشكوى أضعاف ما نسمع من صعوبة الرسم العربي. وهذا ما أغفله الأستاذ عبد العزيز فهمي، لأنه حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء.

وإذا كـان الدكتـور زكي مبارك يستعمـل العنف في مهاجمـة مُعارِضِيـه، فإن الأستاذ لطفي جمعـة قد جـابهه بسـلاحه في أكثـر من معركـة، ونذكـر مما دار بين الرجلين الصارمين معـركتهما عن ازدهـار الأدب في عصور الفـوضى والاضطراب، وخموده في عصور الهدوء والاستقرار، وعن النثر الفنّي في العصر الجاهلي ودعوى الدكتور زكي بأن القرآن الكريم يقدّم صورة لهذا النثر، وهي دعوى هشّة لا تتحمّل النقص، وقد بان عوارها للدارسين.

ومن دلائـل الإخلاص التـامّ للحقيقة لـدى الرجـل المُنصِف، نزوع الأستـاذ لطفي إلى الاحتفاء بأدب الطلائع الناهضة من الشباب، إذ أفرد عدّة مقالات مُسهبة في تقريظ البواكير الغضّة لمَن يخطون الخطوات الأولى في طـريق الفن الصحيح، كما انفرد بتأبين الراحلين ممّن عُـوجِلوا في شبابهم البـاكر قبـل أن يدوّي صـداهم الأدبي في الأفق العامّ.

فلطفي جمعة أول مَن تحدّث عن الشاعر الشاب الراحل محمد عبد المعطي الهمشري، وكان مقـاله الـرنّان عنـه أول مرجـع يفيء إليه مَن يتـطلبون أخبـار هذا الشـاب الآفل، وهـو أول مَن تحدّث عن الشـاعر الشـاب أحمد العـاصي، وخصّه بتحليل دقيق مبيّناً مأساته الدامية التي ختمت بها حياته على وجهٍ سريع، كما خصّ شعراء الأقاليم ببحوثه الأدبية، حين لم يذكرهم أحد سواه.

أذكر أن الشاعـر الدميـاطي الكبير الأستـاذ علي العربي قـد انتقل إلى جـوار ربّه، ولـم تذكره إحدى صُحُف الأدب مؤبّنـة راثية، ولكن الأستـاذ لطفي جمعـة هو الذي خصّه بمقالٍ له حافل نشـره في جريـدة مِنبر الشـرق، وقد اهتمّ بـه اهتمامـه بكبـار الراحلين من أمثـال شوقي وحـافظ وعبد الحليم المصـري، ولم يجـد مقـال لطفي جمعة عن علي الغربي مَن يحذو حذوه، مع أنـه ضرب المثـل فكان صـرخة في وادٍ.

ولا أختم الحديث عن الكاتب الكبير دون إشارة إلى المجلد الضخم الحافل الذي كتبه عن حياة بطل الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ، وقد اختـار له عنـوان (ثورة الإسلام) وهو عنـوان كاد أن يحجب نـور هذا الكتـاب، لأن الإسلام لم يكن ثـورة

كما يدّعي بعض الذين يخدعون باصطلاحات أوروبا على زِيفِها المتهافت، فالإسلام رسالة سماوية خالدة، ولا يمكن أن يُقاس بحركات انقلابية يقوم بها مُحتَرِفون انتهازيون! وفيما عَدَا العنوان فالكتاب الخالد من أعظم ما كُتِبَ في موضوعه.

ويخيّل إليّ أن المؤلّف الكبير كان ينوي منذ شرع في تأليفه أن يعدّ موسوعة حافلة عن الجزيرة العربية في عهد رسول الله، فاتّسع اتّساعاً كبيراً في الفصول الأولى حين تحدّث عن صحراء الجزيرة وبلاد العرب السعيدة، والجنس السامي مُوازِناً بالجنس الآري، ودلالة اللغات على الأجناس الإنسانية، والبحوث الاستشراقية في القرن التاسع عشر الخاصّة باللغات، ثم عن نشأة اللغات وأقسامها، وعن إبراهيم عليه السلام وثورته على الوثنية وهجراته المختلفة، وعهد العماليق في العصور الأولى. وهذا كله في الكتاب الأول.

أما الكتاب الثاني ـ لأن المؤلّف آثر هذا الاصطلاح ـ فخاصٌّ بمكة وتداعي الوثنية بها، وقوانين الصحراء في المجتمع البدائي، والمادية المُفرِطة في الأدب الجاهلي. ومن أعظم فصول هذا الباب ما كتبه المؤلّف عن محاولة ذوي الأغراض في تقليل أثر البعثة المحمدية، حين يزعمون أن العرب كانوا على أبواب ارتقاء فكري، فجاء الإسلام وليد هذا الارتقاء، مع أن تاريخ الجاهلية في انحطاطها الذائع لا يُجيز لكاتب مُنصِف أن يصف عهده بالارتقاء، ولو صدق ما زعمه هؤلاء من رقيّ العرب واتجاههم إلى الإصلاح قبل مشرق الإسلام، لوجد الرسول ﷺ منهم الاستجابة السريعة حين جهر بالدعوة، ولكنه لاقى من صنوف البلاء ما جعله مهاجراً بدينه من مسقط رأسه إلى المدينة مع مَن التفّوا حوله من المسلمين!.

ثم توالت البحوث الرائعة عن الوحي الإلّهي وتتابعه منذ الأزل، وعن مُفتريات مَن ادّعوا أن الوحي حالة نفسية، وتفنيد هذه المُفتريات بأبلغ دليل مما يذكّرنا بجولات الأستاذ الكبير محمد فريد وجدي في هذا المجال.

وأعود فأقول: إن البحوث الشافية الوافية في نصف الكتاب الأول لم تجد مثيلها في النصف الأخير، حين اختصر القول في الغزوات والوفود والسرايا، ولعلّ

مرض الكاتب في مرحلته الأخيرة قد حالَ دون هذا الاستيعاب، لأن هذا الكتاب القيّم في تكوينه الأخير كان آخر الثمرات اليانعة للمؤرّخ الناقد والكاتب المحيط، وقد قام على نشره نجله الفاضل بعد رحيله، فأسدى للحقيقة يداً بيضاء! ولعلّنا بما تحدّثنا به عن الأستاذ الكبير نُرضي نفوسنا بعض الشيء، وندفع تُهمة الجحود لأمثال هؤلاء المناضلين.

أمواقف الأحرار إنّ مصيبةً ألّا يجدّد عهدك التذكار

خاتمة

بعد قراءة ما تقدّم من سِيَر قادتنا الأعلام، نرى كيف استطاع هؤلاء الدّعاة الأفذاذ أن يسيروا بالتقدّم الإسلامي في طريقه الصحيح، حين نهضوا بالأمة الإسلامية نهضة ظافرة جعلت مسافة الخلف بين القرنين التاسع عشر والعشرين ذات أمَد بعيد.

فبجهود هؤلاء الأعلام سقط زيف الحضارة الغربية، إذ اتّضح بنقدهم المخلص كل ما خبّأته الدعاية الكاذبة من عوار وكان الواقع الأليم للاستعمار الغاشم أبلغ دليل على إفلاس الحضارة الأوروبية، لأن الذين جعلوا يتشدّقون بمبادىء الحرية والإخاء والمساواة في الغرب، قد واجهوا واقعاً قاسياً من وحشية هؤلاء المتحضّرين في الشرق حين سلّطوا الحديد والنار والقنابل والدبّابات على الآمِنين البرءاء دون جريرة غير اقتسام الغنائم وتوزيع الأسلاب، بحيث خجل دُعاة الحضارة الأوروبية أنفسهم أن يواصلوا دعايتهم الكاذبة مع ما تشهد الشعوب من ظلم المحتل وعدوان المستعمِر، وفيهم مَن ارتدّ ردّة حميدة إلى الحق فكتب صفحات جديدة في الزراية على الغاصبين، والدعوة إلى التحلّل من سيطرة هؤلاء الخادعين.

وبجهود هؤلاء الأعلام، فضحت آراء الاستشراق فضيحة سافِرة، لأن تشويه الحقائق الإسلامية فيما دبّجوه من بحوث تخفي السمّ وتُظهِر الحياد، قد وجد من

الكرام الكاتبين تصويباً عادلاً، وقمعاً رادعاً، كما تغلغل إلى الأعماق ففضح مكنون السرائر، وكشف دخائل القلوب.

وبجهود هؤلاء الأعلام تأكدت الوحدة العريقة بين الشعوب الإسلامية والدول العربية، فأخذ كل مواطن يعرف أشقّاءه في الدين والآمال والتاريخ ووحدة الهدف والمصير، وامتدّت منافذه إلى حيث شملت آمالهم وأحلامهم، كما اتّحدت بينه وبينهم الآلام، بحيث أصبح مثل المسلمين في تـوادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له جميع الأعضاء بالسّهر والحُمّى، وصدق رسول الله.

وبجهود هؤلاء الأعلام خدمت الشريعة الإسلامية بتجلية محاسنها، وإبراز ما تتضمنه من قوانين العدالة والحرية والمساواة، كما كتب التاريخ الإسلامي كتابة أمينة مُنصِفة لا تتحيّف أبطاله عن غرض أو تَشي إلى وقائعه عن عمد، أما نبيّ الإسلام محمد ـ ﷺ ـ فقد كُتِبَت سيرته الطاهرة مُستقاة من منابعها الصافية، فجاءت ـ كما يرضى الحق ـ سيرة الجهاد المثالي في عدله الراحم، وإشفاقه الحريص، كما ضربت أروع المثل للإنسان الكامل في تحمّله وصبره وإبائه وإخلاصه ودعوته إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، مع التواضع المُفرِط والحياء النبيل.

وبجهود هؤلاء الأعلام حفظ التراث العربي حفظاً أميناً إذ أُعِدّت البحوث المتتالية لاستجلائه، وتحقيق مُشكِله، وتوضيح غامضه، ثم إذاعة الكثير من روائعه، واتّباع الأنماط البديعة في صياغته وصقله بحيث أصبح سائغ المورد صافي النمير.

وبجهود هؤلاء الأعلام نبتت ناشئة مؤمنة تهيم بدينها وتؤمن بتاريخها، وتدعو إلى سبيل العزّة والكرامة في حياتها، كافرة بخداع المستعمِر، متحدّية عدوانه، آملة في مستقبل باهر يشرق بالعلم والإيمان، وذلك ما دأب على تحقيقه هؤلاء الدّعاة، وها هي بشائر الأمل تتفتح في أعواد خضر تكسو الأرض برونقها البهيج،

فتؤذن بنموّ يمتد ويعلو حتى لترتفع أفنانه مثقلة بالثمر، نافحة بالزهر، حافلة بالبهجة والرّواء.

وكلّ ذلك ما نعنيه بالنهضة الإسلامية المعاصرة! واثقين من يومها الزّاخر بالأعمال، متطلّعين إلى مستقبلها الحافل بالجلال.

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكِّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدّلَنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يُشرِكون بي شيئاً، ومَن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾.

تمّ بحمد الله

الفهـــرس